7

الصراع على أوروبا:
الكلت، والرومان، والألمان، والسلاف

[أهل بلاد الغال] مختصرون وغامضون في محادثتهم، وغالباً ما يتكلمون بألغاز فيها إشارات تلميحية.

ديودورس الصقلي، 31:5

ثلاث نُدُرات من الوفرة: نُدْرة الكلمات الرقيقة، ونُدْرة الأبقار في المرج، ونُدْرة الندامى عند شرب الجعة.

ثلاثيات إيرلندة، تحرير: كونو ماير، ص 93

ولم يكن مناسباً لحكومة الرومان ... إذ كان يسيطر عليهم أكثر من أي كان مقت لطبيعة القوة المطلقة نفسها ولاسمها ('الاستبداد').

آريان، حملة الإسكندر، 7 ـ 15: 6

ولكن هذه ملكية، ولا يمكن التسامح معها بأي طريقة.

شيشرون، رسالة إلى أتيكوس، 2 ـ 12: 1

السلام مكروه عند الأمة [الألمانية]، فهم يميزون أنفسهم أكثر في الأزمة ولن تراهم بأعداد كبيرة إلا وقت الحرب.

تاسيتوس، جرمانيا، 14: 2

خلع من ذراعه سواراً ملتوياً مشغولاً بذهب مسكوك، أعطاه إياه
الملك، سيد الهون: 'أعطيك هذا الآن، عربون صداقة'.
فأجاب هادوبراند، ابن هيلدبراند:
'تؤخذ الهدايا، نقطة مقابل نقطة'.

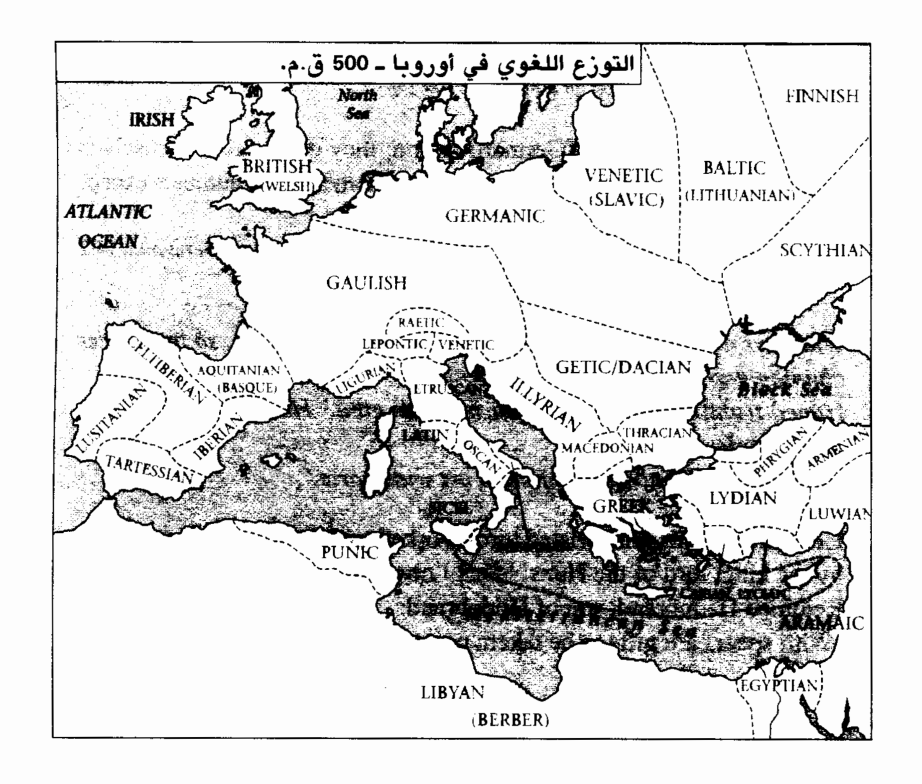
هيلدبراندسليد، 33 ـ 8

تقلّبات الحظ

إن تاريخ أوروبا، على مدى الثلاثة آلاف عام التي نملك عليها أدلة، تسيطر عليه الحظوظ المتغيرة لأربع أسر لغوية وثيقة التقارب، هي: الكلتية، والإيطالية، والجرمانية، والسلافونية. ففي كل عصر، كان تقدمها عبر القارة حربياً أو شبيهاً بالحرب. وهناك وحشية مثيرة للاكتئاب في البطوليات التي يتمجدون بها جميعاً. ولكن مثل اللغات نفسها، فإن الثقافات التي يرعونها تميز شعوباً مختلفة، كل منها لديه قيم مختلفة.

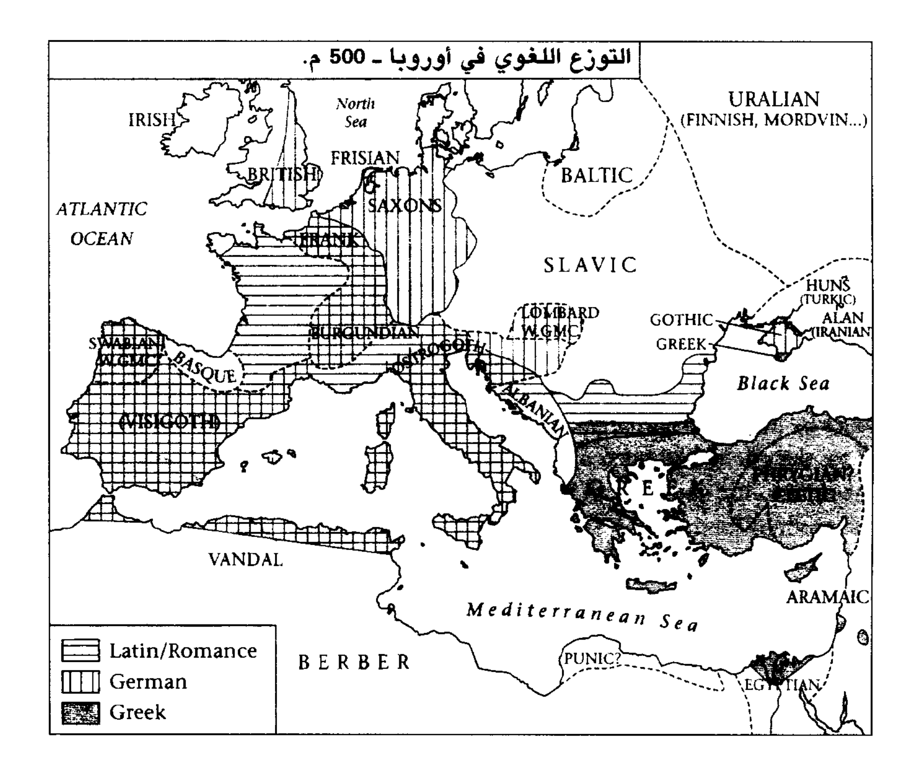
يركز هذا الفصل على الجزء الحساس العصيب من ذلك التاريخ، الذي شهد تحولاً كبيراً في اللغة المحيطة به، في جميع أنحاء أوروبا الغربية، من الكلتية إلى اللاتينية. وكان هذا التحول اللغوي يعود بشكل لا غموض فيه إلى الغزو العسكري. كما أن وضوحه المحض يعيش مستمراً حتى يومنا هذا في التصور اليومي لما يغير اللغات: وهو السيطرة المدعومة بقوة عسكرية واقتصادية. ومع ذلك، فإن هذا الغزو نفسه قد تم سحقه، وكأنما كان ذلك لتقديم درس موضوعي هادف في عدم كفاية هذا الرأي البسيط. فبعد خمّسمئة عام من الاستقرار، انقلب الميزان العسكري في كارثة عسكرية لم يكن منها شفاء: بل إنها أقامت نمط الحدود السياسية والوطنية التي استمرت حتى يومنا الحاضر. ومع ذلك، فبينما كانت النتيجة اللغوية لهذا كله صفراً في الغرب، فقد ثبت أنه حاسم في بريطانيا وفي البلقان.

وعند النظر إلى الأمر ككل، فإن تاريخ الألف عام العصيبة هذه، من حوالي العام 500 ق.م. إلى العام 500 م فيه تناظر معين. فهو يبدأ وينتهي بانتصار مجتمعات عسكرية متنقلة منظمة في علاقات قرابة. وفيما بينهما نرى انتصار مجتمع مدني وحّد أوروبا، ونظم دفاعاتها وزودها باتصالات جيدة طيلة الوقت، من خلال طرق محفوظة جيداً، وطرق بحرية محروسة بالدوريات جيداً.



التوزع اللغوي في أوروبا ـ 500 ق.م.

ففي أول قرنين ونصف القرن، سيطر على القارة ثم استقر فيها مُغِيرون من بلاد الغال (تدعمهم أفضل تكنولوجيا الأسلحة المتوفرة، في الحديد). ولعلهم قد شاركوا حينئذ في تجارة واسعة النطاق في أعالي وأسافل الساحل الأطلسي، فانتشرت لغتهم كذلك. ثم، على مدى فترة من مئتين وخمسين عاماً تم سحقهم تدريجياً ولكن بشكل منهجي ثابت على يد عدو أفضل تنظيماً، ويعي ذاته من الناحية الاستراتيجية، وهم الرومان. ومن المفارقات أن هؤلاء المغيرين لا يمكن سحقهم بشكل نهائي حاسم إلا عندما يبدؤون في توحيد وتنظيم أنفسهم بشكل مشترك للدفاع (تحت إمرة فيرسينجتوريكس). وتتبع ذلك أربعمئة سنة من الاستقرار، بينما تقاوم الإمبراطورية الرومانية بشكل فعال ضغطاً مستمراً للهجرة من ألمانيا. وتحت ضغط أعظم (نابع في شمال آسيا وشرقها)، تفشل المقاومة، بصورة متقطعة في أول الأمر، ثم بصورة كلية. وينقضي القرن الأخير من هذه



الألفية في مراقبة نتائج السماح لمجموعات جديدة من المغيرين بالعبور كما يشاؤون خلال الممتلكات الإمبراطورية القديمة.

وعلى وجه العموم فإن التغيرات اللغوية الكبرى في هذه الفترة، ومنها انتشار اللاتينية عبر إيطاليا، وإلى داخل بلاد الغال وإيبيريا، وانتشار الإنكليزية في بريطانيا، والسلافية في البلقان، هي أفضل علامات تغير ثقافي جدي خطير. وإن الحالات التي فشل فيها التغير اللغوي الجدي في المجيء في أعقاب الغزوات تفضح كون كثير من المجد العسكري شيئاً أجوف ـ كالغزوات التي شنها في أوروبا الغربية كل من الفرنجة، والفاندال، والفيزيقوط، وحتى غزوات الرومان والنورمان في بريطانيا.

ونلتفت الآن لننظر إلى هذه الحكاية بمزيد من التفصيل. إن نسيان القرون الحديثة المعروفة جيداً، ورؤية هذه اللغات كما ظهرت في البداية يتطلب

بعض الجهد. ولعل أفضل طريقة للبدء هي التأمل في كيفية ظهورها للمتفرجين اليونانيين، الفضوليين دائماً، ولكنهم في هذه الحالة لم يكونوا متورطين.

المتصارعون: الآراء اليونانية والرومانية

الكلت

في البداية رأي اليونانيون الكلت كإحدى الأمم التي تؤطّر العالم. فهيرودوتس الذي كان يكتب في القرن الخامس قبل الميلاد يقول إنهم كانوا يعيشون عند منبع نهر إيستروس (الدانوب) وإلى أبعد مكان في الغرب من جميع الأمم الأوروبية، ماعدا السنيتيين Cynetes[1]. فيضعهم وراء أعمدة هرقل، وبالنتيجة على الشاطئ الأطلسي حيث تقع البرتغال اليوم، تماماً كما فعل المؤرخ إيفورس[2] بعده بقرن، الكلت في الغرب والسكيثيون Scythians في الشمال. وكان هناك شيء من الأسطورة العادية المألوفة في هذه القصة يذكرنا بالصورة الصينية للعالم، التي كانت ترى العالم المعروف، المتحضر محاطاً من جميع الجهات ببرابرة مجهولين (انظر الفصل الرابع: 'العلاقات الخارجية'، ص 230). ولكن إن كان ذلك كذلك، فإن هذه الصيغة المألوفة كانت تخميناً محظوظاً. فقد كان في ذلك الوقت ناطقون بالكلتية على طول الطريق عبر أوروبا، من منبع الدانوب إلى شمال شبه جزيرة إيبيريا.

كان أول ظهور حقيقي لهم في حكاية استقبال الأمير الشاب الإسكندر المقدوني لسفراء كلتيين من ساحل البحر الأدرياتيكي في العام 335 ق.م. ويظهر أن راوي الحكاية كان صديقه بطليموس، الذي تصادف أن أصبح ملك مصر فيما بعد[3]. فهو يقول إنهم كانوا رجالاً كباراً، في حجم أجسادهم وكذلك في رأيهم بأنفسهم، وقد أظهروا ذلك بعبارة مشهورة. فقد عرضوا صداقتهم على الإسكندر - ولم يكن قد بدأ ببناء إمبراطوريته بعد - ولكن عندما تحداهم بأن يقولوا إن كانوا خائفين، أعلنوا أن هناك شيئاً واحداً فقط يملؤهم بالفزع، وهو فكرة أن

السماء قد تسقط عليهم ذات يوم. فظلت هذه العبارة متداولة كوضع سخرية من الكلام الكلتي المضخّم الطنان. ولكن يبدو أنها كانت سوء فهم لصيغة يمين يحلف به الكلت. فبعد ألف سنة من تلك الواقعة، كان الإيرلنديون لا يزالون يلزمون أنفسهم بصيغة قسم تقول: 'ما لم تسقط القبة الزرقاء بوابل من نجومها على الأرض، أو ما لم يطلع البحر من حدوده الزرقاء المليئة بالأسماك ليغمر وجه العالم، أو ما لم تهتز الأرض بزلزال ...'[4].

وقد اكتسب الكلت فيما بعد سمعة معينة (وهم معروفون أيضاً باسم الغال: "غالاتاي" باليونانية، و"غالي" باللاتينية - ويعلق قيصر بالقول إن "كلتاي" هي كلمة الغاليين أنفسهم)[5]. وهي سمعة يرويها بالتفصيل المؤرخ ديودورس الصقلي، الذي كان يكتب في أواخر القرن الأول ق.م. ولعله كان يتبع البحوث الشخصية التي قام بها العالم الإغريقي بوسيدونيوس الواسع الإطلاع[6]. فمن الناحية الجسدية كان من المفروض أن يكون الكلت طوالاً، ورشيقين، وشقراً، ووسيمين. وكثيراً ما كانوا يبيّضون شعرهم بالكلس بشكل مصطنع. ويربي نبلاؤهم شوارب تغطي أفواههم وتعمل كمصفاة طبيعية للنبيذ (وهذه النكتة بالذات عمرها ألف سنة). وكان صوت لغتهم عميقاً وخشناً تماماً. ولم تكن تنقصهم حاسة التمييز أو الدهاء، ولكن كان ينقصهم الثبات على الهدف. وكانوا يستمتعون بالكلام الموجز الجامح والتحدث بالحكم والأقوال المأثورة والألغاز. ومع ذلك، كانوا يتحدثون بإسهاب عندما يحين وقت تكبير أنفسهم وتصغير أحد خصومهم، عند التمهيد للقتال. وكانوا يرتدون ملابس فاقعة الألوان، مع معاطف فضفاضة رسمت عليها أنماط من المربعات، وكان مما يميز العصر القديم في العالم أن الرجال كانوا يرتدون سراويل، بنطلونات يسمونها "براكاي"(*).

الألمان

أما بالنسبة للألمان، فقد كان الإغريق يميلون للخلط بينهم وبين الكلت: فبعد كل

(*) الواقع أن هذه الكلمة مستعارة من الجرمانية، فبالإضافة إلى كلمة "بريكس"، أو "بريتشيز"، فإنها كامنة تحت الكلمة الكلتية "بروغز"، أي 'الحذاء'.

شيء فإنهم كانوا جميعاً يعيشون في مكان مّا إلى الشمال الشرقي. ولم يكن أحد قد فكر بعد في البحث عن فروق هامة بين مثل هذه الألسنة البربرية التي لا يمكن التغلغل إلى لغاتها(*). وبالنسبة للأقدمين، فإن الملامح المميزة بوضوح، لم يكن من الممكن أن تكون سوى ثقافية. أما من الناحية اللغوية فإن أفضل ما يمكن تحقيقه هو ملاحظة كون كل قبيلة تجد صعوبة في فهم قبيلة أخرى.

وحتى سترابو اليوناني، الذي كان يكتب في القرن الأول الميلادي، بعد أن كان قيصر قد أخضع بلاد الغال حتى نهر الراين، لم يستطع أن يعطي وصفاً مطولاً للألمان[7]. فقد كانوا يعيشون إلى الشرق من حوض الراين. وكانوا أكثر توحشاً وضخامةً وشقرة من الكلت. ولكنهم يشبهونهم جداً فيما عدا ذلك. والواقع أنهم ظهروا لسترابو متشابهين بشكل جوهري إلى درجة أنه علل أصل تسميتهم "الجرمان" بأنها هي المقابل اللاتيني لصفة [الكلت] 'الخارجين البعيدين'. ويبدو أن يوليوس قيصر كان هو المسؤول عن وضع الراين كخط فاصل. ولكن لا توجد أدلة تذكر، في الآثار أو في النصوص الخطية المكتوبة، لدعم تمييزه هذا. ولعله اعتبر النهر حداً طبيعياً ملائماً لغزواته. ومع ذلك فإنه سرعان ما أصبح فعلاً هو الحد الدائم للإمبراطورية الرومانية. وكان معنى هذا أنه منذ ذلك الحين سينقسم الغاليون والجرمان على طول هذا الخط، سياسياً إن لم يكن عرقياً.

وكان رأي قيصر هو أن المجتمع الجرماني أبسط من مجتمع بلاد الغال. فهو بدون زراعة، ولكنه مستقطب أكثر حول البسالة والبراعة العسكرية، وهو أقل قدرة على تشكيل مجتمعات واسعة النطاق. ولعل قيصر قد كشف بهذا سر نجاح الجرمان على المدى الطويل في صدّ الغزو الروماني.

وبعد ذلك بمئة وخمسين عاماً أعاد تاسيتوس تأكيد الفصل بين الغال والجرمان عند نهر الراين، وذلك في مقالته المعنونة "جرمانيا"، رغم أنه لاحظ بأن

(*) الواقع أنه لم يتم البحث عن هذه الفروق إلا في العام 1599، عندما صنف جوزيف جوستوس سكاليغر اللغات اللاتينية، واليونانية، والجرمانية، والسلافونية، من خلال الكلمات المختلفة التي تستخدمها كل لغة لتعني "الله".

بضع قبائل جرمانية قد عبرت نهر الراين. وقدم أيضاً دراسة تقليدية كلاسيكية لشخصية المجتمع الجرماني كما فعل بوسيدونيوس وقيصر من قبله لشخصية مجتمع بلاد الغال. فرأى الجرمان كمجتمع من الأسر الصغيرة المنعزلة، التي تشعر بالازدحام إذا رأت الدخان يتصاعد من مدخنة جيرانها، ولو من على بعد. وهم لا يجتمعون إلا لغرض نبيل هو كسب المجد في الحرب. وقد أعجب كثيراً بنشأتهم القائمة على المساواة، واللياقة البدنية في الظروف الخشنة القاسية، والأخلاقية البسيطة.

ونحن نعرف الآن، على أساس النصوص المكتوبة المعاصرة من بلاد الغال، ومن التطور اللاحق للغات إلى أسر متميزة من الكلتية والجرمانية، أنه كانت هناك انقسامات لغوية كبيرة وملموسة بين الكلت والجرمان. فهناك نصوص على نصب تنكارية بلغات كلتية متميزة (بأبجديات إيبيرية، وإغريقية، وإتروسكانية، ورومانية) من القرون الأولى قبل الميلاد والقرون الأولى بعد الميلاد، من جميع أنحاء إيبيريا الشمالية، وبلاد الغال، وإيطاليا الشمالية، وحتى من ألمانيا الجنوبية (ولو أنها بأسماء كلتية فقط)، في مانشنغ على الدانوب. وبالمثل هناك نصوص جرمانية متميزة (مكتوبة بأبجدية رونية runic) عثر عليها على أشياء صغيرة محمولة كالأسلحة والدبابيس، من سلوفينيا في القرن الأول قبل الميلاد إلى الدانمرك بعد ذلك بمئتي عام. ومن الأدلة القليلة المتفرقة للغاية يبدو أن تمييز قيصر بين الغالية والجرمانية كان حقيقياً. ولكن كان هناك تداخل كبير بين مجال اللغات في المنطقة التي تشكل اليوم ألمانيا الغربية والنمسا.

الرومان

إن الشيء المثير للاهتمام أكثر من عجز الإغريق عن تمييز جوهر ما هو غالي وما هو جرماني هو موقفهم المتطور إزاء الرومان المنافس الثالث على الانتشار اللغوي على امتداد أوروبا الغربية.

ليس هناك شيء يعطي تصوراً مسبقاً عن مصير روما في الأدب الكلاسيكي اليوناني. ويعود تاريخ أول ذكر باق لها إلى القرن الرابع قبل الميلاد،

وفي مقطوعة لأرسطو[8]. وهو يذكر أيضاً جيرانها الأوسكان ("أوبيكوي" المعروفين أيضاً باسم "الأوسون")، في مناقشة عالمية عن أصول العشاء الجماعي، مستشهداً بمؤرخي المستعمرين اليونانيين. ولكنه لا يذكر الدستور الجديد جذرياً الذي كان الرومان قد تبنوه في القرن الماضي، والذي يزيل الممالك، ويقيم جمهورية تحت المساواة المتوازنة لقنصلين منتخَبَيْن.

ومن الواضح أن أول اليونانيين الذين التقوا بناطقين باللاتينية كانوا المستعمرين. ولعلهم اعتبروهم شيئاً من اللون المحلي بين صفوف الأتروسكان الذين كانوا يسيطرون على جانب الأرض اليابسة من المستوطنات اليونانية في بيثكوزاي (إيشيا) وكايم (كوماي). وإذن فقد كان المستعمرون اليونانيون هم الذين شهدوا البروز التدريجي لروما على مدى خمسمئة عام، باعتبارها المدينة الرئيسية في منطقة لاتيوم، من السيطرة الإتروسكانية إلى الاستقلال، ثم إلى النفوذ القيادي الآمر بين الأمم الأهلية في إيطاليا. وهناك قصة[9] تقول إنه في العام 323 ق.م. أرسل الرومان واحداً من مفوضيهم الكثيرين فذهب إلى بابل لتهنئة الإسكندر، السيد الجديد للإمبراطورية الفارسية. فإن كان ذلك صحيحاً، فإنه يظهر بأن الرومان ربما سمعوا إشاعات بأن الإسكندر كان يخطط فيما بعد للتوجه باهتمامات غزوه إلى الغرب. وكان ذلك قبل مئة وخمسين عاماً من إظهار الرومان أي اهتمام جاد بشرقي البحر الأبيض المتوسط.

كان اليونانيون مسحورين بطرق روما للفوز في السياسة العالمية، فبدؤوا على نحو نموذجي بالتنظير لنوع من التفسير. وكان بوليبيوس قد استفاد إلى أقصى حد من نفيه من اليونان إلى إيطاليا في العام 167 ق.م. (وكان أبوه سياسياً أخايوياً بارزاً) فراح يتعرف على رجال النخبة الرومان. ثم كرس جزءاً كبيراً من حياته حول 'الطريقة ونوع الحكومة التي مكنت روما من إخضاع العالم المأهول كله لحكم الرومان..'[10]. وفي آخر الأمر، فبالرغم من معرفته كثيراً للأحداث والدوافع بتفاصيل شديدة الدقة اعتباراً من العام 220 ق.م. فإنه لا يقدم جواباً بسيطاً على سؤاله. ولكنه يركز فعلاً على الانطباع الأخلاقي المعنوي الذي تركه الرومان: 'إن الإيطاليين عموماً لديهم امتياز طبيعي على الفينيقيين والأفارقة

في القوة الجسدية والشجاعة الشخصية، ولكن في الوقت نفسه فإن مؤسساتهم تسهم بقوة كبيرة في تغذية روح الشجاعة في شبابهم'[11]. وهو يستشهد أيضاً بخوف الرومان من العقاب الإلهي بعد الموت، ولو أنه قد يكون ما ورائياً، للحث على رعاية الشرف والنزاهة: 'وعلى أي حال، فإن النتيجة أنه بين اليونانيين، بمعزل عن أي شيء آخر، فإن حَمَلة المناصب العامة لا يمكن الوثوق بهم للحفاظ على موهبة واحدة، حتى ولو كان عندهم عشرة محاسبين وعشرة أختام، وضعف هذا العدد من الشهود، أما بين الرومان فإن قضاتهم يتعاملون مع مبالغ كبيرة من المال ويؤدون واجبهم بدقة ويقظة لأنهم قد أعطوا على ذلك كلمتهم وحلفوا اليمين'[12]. فقد يكون الرومان أقل صقلاً، ولكن كان فيهم شيء أثار إعجاب الإغريق.

وبعد ذلك بمئتي عام، كانت مصر وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد الغال قد أضيفت إلى الممتلكات الرومانية. ولا بد أن السيطرة الرومانية قد بدأت تظهر كحقيقة من حقائق الطبيعة. ومع ذلك فلم يفكر اليونانيون بالرومان باعتبارهم على قدم المساواة مع أنفسهم. ففي وسط استعراض لجغرافية العالم ككل، يستمر سترابو في رؤية إيطاليا الجنوبية خارج القطاعات اليونانية المحصورة في تارنتوم ونابولي وريجيوم باعتبارها المنطقة البربرية، والسبب في ذلك بصراحة هو استيلاء الرومان على جنوب إيطاليا[13].

ومن المفارقة أن هذه المنطقة الجنوبية في إيطاليا هي التي احتفظت بلغتها الخاصة بها حتى القرن الأول قبل الميلاد، وهي لغة عرفها الرومان باسم أوسكان، وعرفها الإغريق باسم أوبيك. وهذه اللغة لها صلة باللاتينية ولكنها تختلف عنها كاختلاف الألمانية عن الإنكليزية، وكانت ذات مرة محكية على نطاق أوسع من اللاتينية بكثير، فقد كانت مثلاً لغة السابين sabines، منافسي الرومان في وقت مبكر (والذين اشتهر عن الرومان بأنهم سرقوا نساءهم) وكذلك لغة السامنيين Samnites.

والواقع أن اليونانيين، عندما كانوا يريدون الحطّ من قدر سادتهم الرومان، كانوا يحبون أن يشيروا إليهم باعتبارهم "أوبيكوي " opikoi. وقد تذمر من ذلك

السناتور الروماني ماركوس كاتو الذي يضرب المثل بتشدده، فقال عن الإغريق: 'إنهم يستمرون في تسميتنا برابرة، ويهينوننا ببذاءة أكثر من الآخرين بإطلاق اسم أوبيك *opic* علينا'[14]. وكانت النقطة في هذا المطعن هي نقص التعليم، لأن الكلمة كانت قد أعيدت استعارتها إلى اللاتينية باعتبارها رمزاً للسخرية من الجهل والأمية. ويتحدث شاعر الهجاء الروماني جوفينال عن سيدة متعالمة توبّخ صديقتها بكلمة *'opic'* لأنها استخدمت الكلمة الخطأ[15]. فكانت *'opic'* كلمة أسيء استعمالها. وكانت هذه مفارقة قاسية. فهل نسي الرومان أن أول شاعر كيَّف الأوزان اليونانية للاستعمال في الشعر الروماني كان هو نفسه ناطقاً بلغة الأوسكان، وهو كوينتوس إينيوس؟ ولقد كان إينيوس يحب أن يتفاخر بأن لغاته الثلاث تعطيه ثلاثة قلوب[16]. كان لسان أمه هو الأوسكان، عندما نشأ في كالابريا، في كعب إيطاليا، وكان يعرف اليونانية لأن مدينته المحلية الكبيرة كانت تارنتوم، وكان تعلم اللاتينية أثناء خدمته في الجيش الروماني في الحرب ضد هنيبعل. وبعد ذلك بمئتين وخمسين عاماً، كانت آخر أصداء لغة الأوسكان الخافتة لا تزال مسموعة في العروض السنوية لفن التمثيل الساخر بالحركات والإيماءات في روما[17].

السلاف

إن محاولة الحصول على رأي يوناني في الرومان لمقارنته برأيهم في الكلت أو الألمان هي - بطريقة ما - غير مجدية. فربما كان الكلت والألمان غرباء ممتعين. ولكن بعد القرن الثاني ق.م. أصبحت العلاقة بين اليونانيين والرومان أشبه بزواج (انظر الفصل السادس: 'ترحيب روماني: انتشار الإغريقية عن طريق الثقافة'، ص 355). ومن جهة أخرى فإن السلاف لم يصبحوا عاملاً في خريطة أوروبا اللغوية إلا عندما فرضوا الشعور بوجودهم بالقوة على اليونانيين. ومن المفهوم أنه لا توجد نظرة متعمقة متعاطفة معهم في الأوصاف اليونانية المبكرة، التي كتبت بعد ذلك بوقت طويل على أية حال، عندما كان السلاف يضغطون على البلقان وعلى اليونان نفسها (انظر الفصل السادس: 'تلميحات عن التدهور'، ص

371). غير أنه قبل ذلك كانت لدى تاسيتوس بعض الملاحظات التي أبداها (في كتابه "جرمانيا"، في العام 98 م) حول أسلافهم، الفينيتي (الذين عرفوا فيما بعد باسم الوند، أو الصرب) والفني (الذين أعطي اسمهم فيما بعد للفنلنديين ولكنهم ربما كانوا من السلاف). يقول تاسيتوس:

> إن قبائل بيوسيني، وفينيتي، وفيني، أتردد في تصنيفهم كجرمان أم سارماتيان ..[18]. فالفينيتي جلبوا كثيراً من العادات من السارماتيان: فهم يغزون مجال الغابات والجبال كله بين البيوسيني [في الجنوب] والفيني [في الشمال]. ولكنهم أكثر شبهاً بالجرمان، إذْ إنهم يبنون بيوتاً، ويستخدمون الدروع ويحبون أن ينتقلوا مشياً على الأقدام وبسرعة: وهذا كله مختلف جداً عن السارماتيان، الذين يعيشون في عربات وعلى ظهور الخيل. إن وحشية الفيني مذهلة، وفقرهم مخيف: فليس لديهم أسلحة، ولا خيل، ولا بيوت: وهم يعيشون على العشب، ويرتدون الجلود، وينامون على الأرض، وموردهم الوحيد هو السهام، يشحذونها بالعظم لانعدام الحديد. والصيد يقيم أود رجالهم ونسائهم. وهم يرافقون بعضهم بعضاً في كل مكان. وليس لأطفالهم مأوى من الوحوش أو زخات المطر سوى الأغطية المصنوعة من الأغصان، وهي التي يعود إليها الشباب، ويلجأ إليها العجائز. ولكنهم يعتقدون أن هذا أسعد من التأوّه والمعاناة في الحقول والعمل في البيوت، والبحث عن حظوظهم وحظوظ الآخرين في أمل وخوف. وهم لا يهتمون بالناس ولا بالآلهة، ولكنهم حققوا شيئاً فيه صعوبة بارزة، وهو عدم الحاجة إلى الرغبة في أي شيء[19].

ويظهر الفينيتي أيضاً في صفحات بطليموس، في منتصف القرن الثاني الميلادي، تحت اسم "الوينيداي"، باعتبارهم 'أمة كبيرة جداً، تحتل سارماتيا على طول الخليج الفينيتي كله' والظاهر أنهم كانوا يعيشون عندئذٍ على ساحل بحر البلطيق[20].

الرون: البروز المندفع للكلت

الرون: (أ) شيء خفي أو سحري، غامض، معنى مخبأ، (ب) سر، (ج) أفكار أو رغبات سرية، أو نية، وغرض، (د) وعي كامل، معرفة (هـ) عزيز، محبوب.

الأكاديمية الملكية الإيرلندية، معجم اللغة الإيرلندية

إن أصول الكلتية مبهمة، ولكن عند السماع بها للمرة الأولى، كانت هذه الثقافة قابعة في قلب أوروبا الغربية.

من الناحية الأثرية فإن هوية الكلت متطابقة مع الثقافة، أو بالأحرى مع الثقافات المتعاقبة المتمثلة أولاً في موقع هالشتات في النمسا (الذي يعود تاريخه إلى الفترة من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس ق.م.) ثم في موقع لاتين على بحيرة نوفشاتل بسويسرا (من القرن السادس إلى القرن الأول ق.م.). وهذان الموقعان مع مواقع مشابهة يحددان طريقة الحياة في العصر الحديدي كما عاشتها أوروبا الوسطى. وبضائعهم المادية، المحفوظة جيداً بالملح والأرض المستنقعية السبخة على التوالي في الموقعين، تشمل الأسلحة، والأواني البرونزية والخزفية، والمجوهرات، والملابس، والأدوات الخشبية، والدبابيس والأبازيم، والأمواس، والمركبات ذات العجلات. ويظهر فيها كثيراً أسلوب الزخرفة بالتواءاته ودوائره اللولبية المعقدة التي لا نزال نعتبرها كلتية.

هذا إذن هو ما يحدد موطن الكلت عندنا. فماذا عن وجودهم اللغوي؟

آثار من اللغات الكلتية

إن أطول الأدلة ديمومة على انتشار اللغات الكلتية وأوسعها ذيوعاً هي أسماء الأماكن عندهم. ففيها إحساس معين. فالمدن التي أقامها الكلت كثيراً ما تلحق بأسمائها زوائد مثل "دونم"، أي 'قلعة'، و"بريغا"، أي 'تل'، و"ماغوس"، أي 'سهل' و"بريفا"، أي 'عبور'، و"بونا" أي 'مستوطنة' أو 'ينبوع.' ولدى الكلت أيضاً نزعة متميزة لمدح الذات: "سيغو"، أي 'القوي' و"أوكسيلو" أي 'العالي'. ومثل هذه الأسماء يمكن العثور عليها من شمال بريطانيا (مثل أوكسيلودونم

وسيغيندونم على جانبي سور هادريان) إلى أقصى جنوب إيبيريا (مثل كايتوبريغا ـ سيتوبال، جنوب لشبونة تماماً)، ومن القنال الإنكليزي (مثل روتوماغوس ـ روين) إلى الدانوب (مثل فندوبونا ـ فيينا، سينجيدونم ـ بلغراد). ولكن العقبة هي أن مثل هذا التعليل لأصل الأسماء سهل إلى درجة أنه ربما يكون قد جعل بعض المدن تُعْطىَ أسماء كلتية لأسباب عاطفية صدفة. ومن الملاحظ أن كثيراً منها قد أوجدت تحت الحكم الروماني: مثل إيوليوبونا، أوغستودورم، وقيصاروماغوس في بلاد الغال، وفلافيوبريغا، وإيوليوبريغا في إسبانيا. إن اسم المكان وحده ليس دليلاً كافياً على أن اللغة التي اشتق منها كانت محكية عندما أطلق ذلك الاسم.

ومن الممكن أيضاً أخذ شهادة الناس، وهم في العادة يونانيون أو رومانيون، الذين قابلوا الكلت أو عرفوهم في أجزاء مختلفة من أوروبا. ويسجّل سترابو أن ثلاث قبائل من الغال، هي البويي(*)، والتورسكي، والسكورديشي، كانت مختلطة مع الثراسيين، مما يجعل موضعهم نحو البلقان. وهو يقول أيضاً إن السكورديشي كانوا يعيشون حيث يمتلئ نهر نوروس قرب كولابيس فيتدفق إلى الدانوب[21]. وإن نظرة إلى الخريطة الآن تبين أن النهر الذي يمتلئ قرب كو(لـ)با هو في الحقيقة نهر سافا، وهو يتدفق إلى الدانوب عند سينجيدونم، أي بلغراد الحديثة. وسترابو حريص تماماً على تمييز أهل الغال من الأعراق الأخرى، فيلاحظ مثلاً أن الباستارناي يمكن اعتبارهم من الجرمان (7 ـ 3: 17)، وأن الداسيان والجيتاي يتكلمون اللغة نفسها (7 ـ 3: 13). ورغم أنه لا يشير صراحة إلى لغة أهل الغال هؤلاء، فإنه يبدو أن نوعاً من اللغة الغالية كان محكياً في القرن الأول الميلادي، ليس فقط في ألمانيا الجنوبية، بل أيضاً نزولاً فيما هو الآن كرواتيا وصربيا(**).

(*) كان البويي Boii معروفين جيداً كقبيلة مترامية الأطراف في بلاد الغال، لهم علاقات مع بوهيميا (التي أخذت اسمها منهم 'Boii - home' بالألمانية وليس الكلتية)، ولهم مستوطنة كبرى في شمال شرق إيطاليا (حول مدن حديثة مثل بولونا وبارما ومودينا). وبطريقة ما ظهروا كحلفاء لقبائل هالفيتي في بلاد الغال الجنوبية. وقد هزمهم قيصر في بيبراكت في العام 58 ق.م. واسمهم معناه 'الضاربون' حسبما يقول لامبرت (1997، ص 44).

(**) ليس من الواضح أبداً كيف كانت لهم علاقة مع الكلت في أوروبا الغربية، فإن يوغوسلافيا

وأخيراً فإن هناك الأدلة على ما هي اللغات المحكية اليوم، وأين، في يومنا هذا. فاللغات الكلتية المحكية في الجزر البريطانية حتى اليوم هي السليلة المباشرة للألسنة التي سمع عنها الرومان على مدى القرون الأربعة التي كانوا يحتلون بريطانيا أثناءها، وقيامهم بزيارة إيرلندا بين حين وآخر. وهناك أيضاً تقليد مستمر من اللغة الكلتية في زاوية بريتون في شمال غرب فرنسا، حتى إذا ظل غير واضح إن كانت هذه غير محكية، أي إن كانت بريتون استمراراً للغة بلاد الغال أو إعادة استيراد للغة من كورنويل في الألفية الأولى بعد الميلاد. ربما كان الأمران معاً، في عملية إعادة للخلط والمزج.

ولذا فمهما كانت الأسفار التي جاءت بالناس إلى هناك عند حلول القرن الثالث قبل الميلاد، فإن لدينا دليلاً على أن خليطاً متنوعاً من الناس الناطقين بالكلتية على الأرجح قد سيطروا على أوروبا الغربية وجزرها، ولكنهم توسعوا بالضبط حول جبال الألب شمالاً وجنوباً حتى دالماسيا. وكانت أغلبيتهم من السكان المستقرين، الذين يعيشون في قرى زراعية، مع طرق تربط بينها. وقد أظهرت اللاتينية واحدة من خصائص بلاد الغال المعاصرة عن طريق استعارةٍ (تمت على وعي تام على ما يبدو) لكلمات كثيرة من لغة الغال للدلالة على العربات ذات العجلات، مثل "بِنّا"، أي 'عربة بمقعد وحيد يجرها حصان واحد' و"كاروس"، أس 'عربة يدوية'، و"سيزيوم"، أي 'مركبة ذات عجلتين وحصان واحد'، و"كاربنتوم" أي 'عربة' و"إيسيدوم"، أي 'مركبة حربية'، و"رائدة"، أي 'مركبة كبيرة'. والواقع أن العربات الفخمة ذات الأربع عجلات هامة كعربات جنائزية في كثير من قبور لاتين. وهكذا فعلى الرغم من أن مجتمع بلاد الغال كان مستقراً بصورة أساسية، فإنه كان بوسعه أن يصبح شديد التنقل عندما يشاء.

وهنغاريا هما في الحقيقة قلب ما يسمى ثقافة أورنفيلد، التي يرجعها علماء الآثار إلى النصف الأول للألفية الأولى قبل الميلاد. وهكذا فإنها تسبق النقاط العليا في هالشتات ولاتين. وكانت ثقافة أورنفيلد على طريق انتشار حضارة العصر الحديدي من منطقة بحر إيجه، وهكذا فإن من الممكن تماماً أن يكون الكلت موجودين في المنطقة فترة أطول حتى من وجودهم في أوروبا الغربية. ولكننا كمؤرخين للناطقين باللغة الكلتية لا نستطيع إلا أن نقول إننا لن نعرف شيئاً عن العلاقة بهذه الثقافات المادية لعصور ما قبل التاريخ.

ولكن بالنسبة للغويين، فإن أقوى دليلٍ على المكان والزمان اللذين استُخدمت فيهما اللغة يأتي من الكتابة. وبما أنه لم يكن لدى أي أحد من الكلت تقليد أدبي مكتوب حتى القرن الخامس الميلادي، في إيرلندا، فإن هذا يعني أننا نعتمد إلى حد كبير على النصوص الخطية. وهذه تأتي من أماكن مختلفة كثيرة. ويظهر أن الكلت لم يكونوا متعلمين عارفين بالقراءة والكتابة إلا حيثما كان لديهم جيران قادرون على تعليمهم. والأماكن التي حدث فيها ذلك متباعدة حقاً، رغم أنها تميل بشكل طبيعي على أن تكون على هوامش المناطق الناطقة بالكلتية. ومن المحزن ولكنه غير مدهش أنها لا تشمل مواقع ثقافات هالشتات أو لاتين La tène.

كيف يمكن تمييز الكلتية؟

إن تمييز نصّ ما على أنه كلتي يعني معرفة شيء ما عن خصائص اللغات الكلتية القديمة. ويتضح أن إحدى الخصائص الهامة للغة الكلتية هي فقدانها للصوت (p). فالكلمات اللاتينية الأساسية مثل *pro, super, plenus, piscis, pater* التي تعادلها بالإنكليزية على التوالي كلمات *father* (أب) و*fish* (سمكة) و*full* (مليء)، و*over* (أعلى) و *before* (قبل) لا تزال تظهر في لغة Gaelic الإيرلندية في الكلمات الآتية على التوالي: *athair, iasc, lan, for, roimh*. ويمكن رؤية ظاهرة مماثلة في بعض الآثار الباقية من الغالية أو البريطانية: فعبارة *Cambo - ritum*، الاسم البريطاني للاكفورد في صفّولك يبدو أنها تعني 'الجدول المتلوي'، فالعنصر الأخير يشبه كلمة *rhyd* الويلزية، التي تعني 'الجدول' أو 'المخاضة' (قارن مع *poros* اليونانية و*portus* اللاتينية). وهناك تخمين بأن أصل الاسم هو من 'الغابة السوداء' سيئة الصيت التي يذكرها قيصر وتاسيتوس (ولكنها تمتد على طول الطريق عبر المرتفعات الألمانية إلى مدينة لايبزغ الحديثة) ولا بد أن هذا المصدر جاء من ناطق بالكلتية التي سقطت منها حروف الـ p: ولو كان اسمها الحقيقي *perkun* فإن هذا سيجعلها شبيهة ببعض الكلمات الألمانية التي تعني 'الجبل' (*fairguni* باللغة القوطية، و*firgen* بالإنكليزية القديمة)، ولكنه سيسمح أيضاً بربطها بشكل لطيف مع أصل الكلمة

اللاتينية *quercus*، أي 'شجرة البلوط.' ومن الطبيعي أن تشتق هذه من كلمة *perquus*(*) (قارن مع شبيهات معروفة لها مثل *quinque*، أي 'خمسة'، من *penque*(*) و*caquo*، أي 'طباخ'، من pequo(*)). ومن ثم فإنها تبدو شديدة الشبه باسم الإله الليتواني Perkunas، المعروف بارتباطه بأشجار البلوط(*)!

وبطرق أخرى فإن اللغات الكلتية من هذه الفترة شبيهة باللاتينية إلى حد لافت للنظر. فنظام التصريف الإعرابي للأسماء باللغة الغالية كان أعقد بقليل جداً من النظام اللاتيني، ففيه سبع حالات بالمقارنة مع ست حالات باللاتينية، ولكنه قريب منه تماماً. وهكذا مثلاً فإن الاسم *EQVOS* أي 'حصان' له حالة التملك *EQVI* أي 'للحصان' - وهما الكلمتان نفساهما باللاتينية والغالية. وعبارة 'لقد أعطى لأمهات نايمز' تأتي على صيغة *DEDE MATREBO NAMAUSIKABO*، وفي اللاتينية يمكن أن تكون *DEDIT MATRIBUS NEMAUSICABUS*(*). إن قطعة يومية من اللغة الغالية الأصلية الحقيقية يمكن أن تكون قريبة الشبه جداً بما يعادلها في اللاتينية. وخذ مثلاً نصين نمونجين مرحين على فلكة مغزل دوار:

MONI GNATHA GABI BVOOVTON IMON

NATA VIMPI CURMI DA

(*) (هذه العلامات النجمية تظهر صيغاً أعاد تركيبها اللغويون، ولكنها ليست موجودة في بعض النصوص فعلاً). وغياب حرف p ليس غريباً بقدر ما يظهر. ويبدو أيضاً أنه قد أصاب اللغة الأهلية الأصلية في إيبيريا، وحتى لغة الباسك المبكرة، وهو غياب نموذجي في العربية الحديثة. ولكن الكلتية لم تبق زمناً طويلاً بدون هذا الحرف. فبعض تنويعاتها على الأقل، بما فيها معظم لهجات لغة الغال، وكذلك اللهجات البريطانية (المؤدية إلى لهجات ويلز، وكورنويل، وبريتون) راحت فيما بعد تلفظ الصوت qu مثل لفظ الحرف p. ومن هنا يأتي وجوده في الكلمتين اللتين معناهما "أربعة" و"خمسة" *pedwar* و*pump* في الويلزية الحديثة، وربما تكونان *petuar** و*pinpe** في لغة بلاد الغال، بناء على دليل من سجلات مخبورة، مذكورة في الحاشية رقم 22 من حواشي الفصل السابع). ونتيجة لذلك، حيثما ورد الحرفان qu في البداية فهما علامة كلمات استفهامية في اللغة الأصلية (قارن الكلمات اللاتينية المحافظة *quando, quid, quis* التي معناها على التوالي "من" و"ماذا" و"متى")، وإن حرف الـp في البداية له هذا الدور في هذه التشكيلة المتنوعة من اللغة الكلتية (قارن مع الكلمات الويلزية *pwy* و*pa* و*pam* التي معناها على التوالي "من" و"أي" و"لماذا"، والمفروض أن هذا كثير الشبه بما في لغة بلاد الغال).. كما أن اللغات الكلتية الأخرى غيرت حرفي الـ qu، ولكنها بسّطته ليعطي الصوت k. ومن هنا تأتي الكلمتان الويلزيتان ceithir وcoic (أي أربعة وخمسة على التوالي) وكذلك الكلمات ce وcad وca (أي من وماذا وأين على التوالي). والدليل الموجود بالنسبة للغة كالتبريان [في شمال إسبانيا] يوحي بأنها كانت تشبه الإيرلندية أكثر من شبهها بلغة بلاد الغال في هذا الصدد.

فترجمتها باللاتينة هي

MEA NATA, CAPE MENTVLAM MEAM

NATA BELLA, CERVISIAM DA

ومعناهما على التوالي: 'يا ابنتي، خذي ملابسي' و'أيتها البنت الحلوة أعطيني بعض الشراب[22]'.

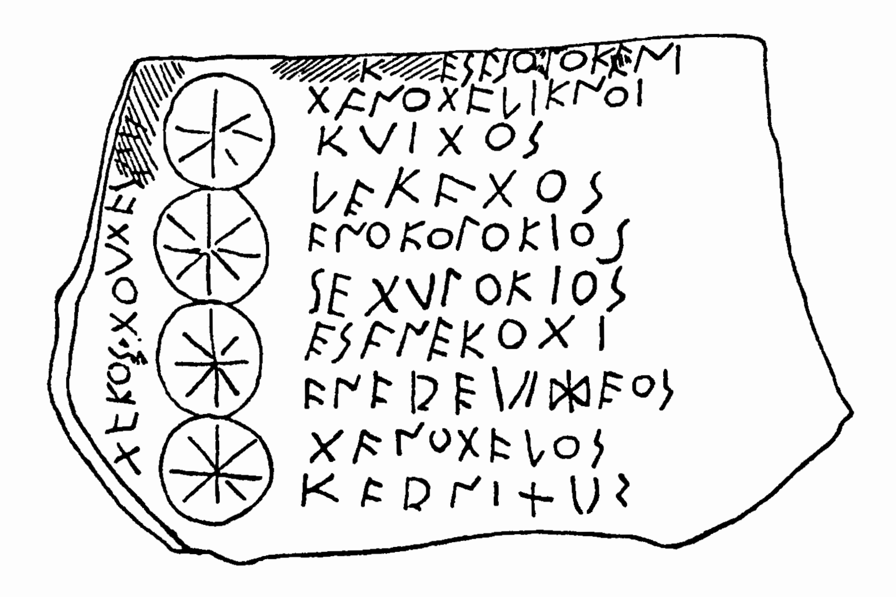
وحسب تقدير حديث، فإن هذه الفوارق أو التباعدات تمثل شيئاً يشبه ألفاً وخمسمئة عام من التطور المنفصل، أو ستين جيلاً. ورغم أن الطرفين كانا يتكلمان تنويعين من لغة كانت واحدة ذات مرة، فإن هذا زمن يكفي لكي يتطور تقليدان شديدا الاختلاف في كل تنويع منهما.

معرفة القراءة والكتابة بالكلتية

إن أقدم النصوص المعروفة بالكلتية (من حوالي العام 575 ق.م. إلى 1 ق.م.) عثر عليها في السفوح الجنوبية لجبال الألب قرب البحيرتين كومو وماغيور. فهنا كان موطن ليبونتي. ومن هنا فإن لغة هذه النصوص معروفة باسم الليبونتية، وهي مكتوبة بأبجدية 'لوغانو'، ومن الواضح أنها مستعارة من الإتروسكان الذين كانوا هم الشعب المتعلم المسيطر في إيطاليا الشمالية(*). وطول كل نص في العادة كلمتان أو ثلاث كلمات، مما يجعل الترجمة صعبة، ومن المحتمل أن معظم الكلمات أسماء أعلام.

ولم يصنف أي مؤلف كلاسيكي الليبونتي باعتبارهم من الكلت (رغم وجود شائعات غامضة عن مستوطنة غالية قديمة جداً في هذه المنطقة في بوليبوس وليفي)[23]. ومع ذلك فإن هناك أساساً لاعتبار اللغة الليبونتية نوعاً من الكلتية. ويبدو أنها فقدت الصوت P، وامتلكت *latu* و*uer* لتحل محل الكلمتين

(*) إن أقدم النصوص الإتروسكانية المعروفة يعود تاريخها إلى ما قبل ذلك بحوالي قرن، إلى حوالي العام 700 ق.م. فالإتروسكان أنفسهم كانوا قد تعلموا الكتابة من اليونانيين، ولو من خلال اتصالات أبعد بكثير إلى الجنوب، حول كوماي في خليج نابولي.



نقش نص إنسوبري في بريونا

الهنديتين الأوروبيتين *uper*، أي 'فوق' و*platu*، أي 'مسطح'، وفيهما أيضاً بعض أسماء الأعلام التي تذكرنا كثيراً بسكان بلاد الغال، مثل *Alkouinos* التي تشبه Alkovindos التي تحتوي على الجذر *windo*، بمعنى 'الأبيض'، التي نشاهدها أيضاً في *Winchester* (التي تدعى بوضوح مرة أخرى *Vindobona*)، وكذلك *Guinevere*.

وبعد ذلك بأكثر من أربعمئة عام، من حوالي العام 150 ق.م، استخدمت أبجدية لوغانو نفسها في صورة مرآة (من اليسار إلى اليمين آنذاك) على مبعدة إلى الجنوب حول نوفارا، من أجل تسجيل لغة غالية بوضوح أكبر. فكان ذلك من آثار الإنسوبريين الذين كانوا قد هاجموا شمال إيطاليا في فترة العصر التاريخي. ويلاحظ ليفي (5 ـ 34) أن مدينة ميديولانون (ميلانو ـ وهي كلمة غالية تعني 'وسط السهل') قد أسسها القادمون من بلاد الغال، الذين سَرَّهُمْ أن يجدوا أن الاسم إنسوبريان (المعروف عندهم كاسم مقاطعة في موطنهم عبر جبال الألب) كان مترسخاً بجوارهم المحلي.

وكان النص النموذجي المكتوب يقول:

إن دانوتالوس ـ ابن كوينتوس، الموفد الرسمي،
وآندوكومبوجيوس سيتوبوجيوس (أبناء) إيساندكوتوس
أنداروبسيوس دانوتالوس، بنوا ركام التراب فوق القبر

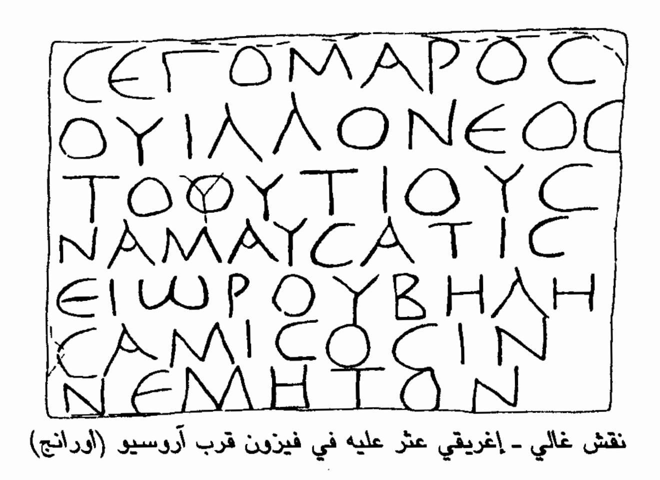
مع ملاحظة عمودية على الجانب تقول:

قرار القبيلة.

ولكن قيصر يلاحظ أن النص المألوف أكثر من غيره عند الغاليين هو الكتابة اليونانية، وبالتأكيد فإن النصوص الغالية المكتوبة باليونانية التي عثر عليها تعود بتاريخها من العام 300 ق.م. إلى العام 50 م. وما هو اليوم الريفييرا الفرنسية كان عندئذٍ شاطئاً يونانياً إلى حد كبير، مع مستعمرات مثل نيسيا (نيس) وأنتيبوليس (أنتيب) تتركز كلها على المدينة الأم ماسيليا (مرسيليا) التي كانت قد تأسست حوالي العام 600 ق.م. وهناك حوالي سبعين من أمثال هذه النصوص المنقوشة على الحجر التي اكتُشِفَت حتى الآن، معظمها حجارة قبور وأوقاف مكرسة، وهناك أيضاً 220 قطعة أخرى من الفخّار المكسور وعليها كتابة: وإن من المرضي أن لها في أغلب الأحيان ديمومة. وهي تعادل فتات الورق وبقايا القناني والعلب القديمة.

'سيغوماروس بن ويلو، المواطن من نيموسوس، وَقْفٌ مكرّس لهذا المزار'

إن هذه النصوص ذات الحروف اليونانية يعثر عليها على طول الساحل وعلى طول الطريق المؤدية إلى أعالي نهر الرون، مع بضعة نصوص أخرى في وسط فرنسا، على التخوم العليا للوار والسين. ويشير قيصر إلى سجلات هالفتية مكتوبة باليونانية ومحفوظة على ألواح خشبية. ولكن هذا ينقلنا إلى زمن طويل بعد فترة غزو روما لبلاد الغال (الذي اكتمل في العام 51 م.). وبعد ذلك نجد فعلاً نصوصاً غالية مكتوبة بحروف رومانية، ولكن لمدة قرن فقط. وهي لا تحل محل النصوص اليونانية أبداً: فهناك ستة عشر نصاً غالياً ـ رومانياً فقط تم اكتشافها حتى الآن. وإن أفخم بقية من هذه الفترة اكتشفت حتى الآن هي أجزاء



نقش غالي ـ إغريقي عثر عليه في فيزون قرب آروسيو (أورانج)

من تقويم باللهجة الدرُويديّة منقوشة على البرونز عثر عليها في كوليني، غير بعيد عن المركز الإداري الروماني في لوغدونم (ليون).

وإلى الشمال من نهر السين، فإن النصوص الوحيدة التي ظهرت كانت على أختام لصانعي الفخار ربما جاءت من الجنوب أكثر. فالإعلان أيضاً يمكنه استخدام 'حلوى العيون' بطريقة من المؤكد أنها تذكرنا بالقرن العشرين. والنص يقول:

ركستوجينوس (بن) صولا صنع (هذه القِدْر)

وفيما عدا ذلك، فإن الدليل الوحيد من الغالية المكتوبة هو بضعة أسماء شخصية كلتية على قدور فخارية في مانتشينغ في جنوبي ألمانيا، وعلى سيف في بورت في سويسرا الغربية.

ولكن هناك دليلاً قوياً ملموساً على لغة كلتية أخرى تعرف باسم كلتيبريان، مكتوبة في شمال شرق إسبانيا الوسطى. فهناك في الحقيقة خمسة وثمانون نصاً، وعشرون أسطورة منقوشة على قطع العملة من القرنين الأخيرين قبل الميلاد. وليس فيها الكثير مما يثبت بلا نزاع أنها كلتية(*)، وليست سلالة

(*) قارن مع اللغة اللوسيتانية، المحكية على مبعدة إلى الجنوب: إننا لا نكاد نعرف أكثر من كلمتين من



ختم صانع فخار عثر عليه في كوديبك ـ إن ـ كوكس قرب روتوماغوس (روان)

أخرى ذات صلة من اللغات الهندية ـ الأوروبية، رغم ظهور الاسم الطنان ديفوريكس بشكل مناسب: أي 'الملك الإلهي'، مقارنة مع دومنوريكس، أي 'الملك الدنيوي'، الخصم القديم ليوليوس قيصر. ولكنهما في المكان والزمان الصحيحين لجعلهما بلغة كلتيبريان، ولقد كان من الحقائق المقبولة في العالم القديم أن هؤلاء الناس من الكلت: فالشاعر مارشيال، المولود في القرن الأول الميلادي في العاصمة المحلية بلبيليس، كان يحب أن يزعم أن أجداده من الكلت والإيبيريين[24].

غير أنه بحلول العام 50 م. يظهر أن اللغة الغالية، وكذلك لغتي الإنسوبريان والكالتيبريان قد فقدت مكانتها التعليمية إلى حد كبير، حتى في قلب مناطقها الداخلية.

انتشار لغة بلاد الغال

إذن، كيف وصلت هذه اللغات إلى الأجزاء البعيدة في أوروبا حيث كانت محكية؟ إن انتشار الكلتية عبر أوروبا، رغم أنه كان استثنائياً وغير عادي، حدث قبل التاريخ المسجل. والقوى التي دفعت بهذا الانتشار هي مسألة تكهن وتخمين، لا

هذه اللغة، ولكن هاتين الكلمتين كافيتان لإلغاء كونها كلتية. والكلمتان هما "پوركوم تافروم"، أي 'الثور الكبير'، فالأولى فيها حرف P والثانية فيها حرفا V وR بالترتيب الخطأ. قارن مع الكلمة الغالية "تارفوس"، والإيرلندية القديمة "تارب"، والويلزية الوسطى "تارو".

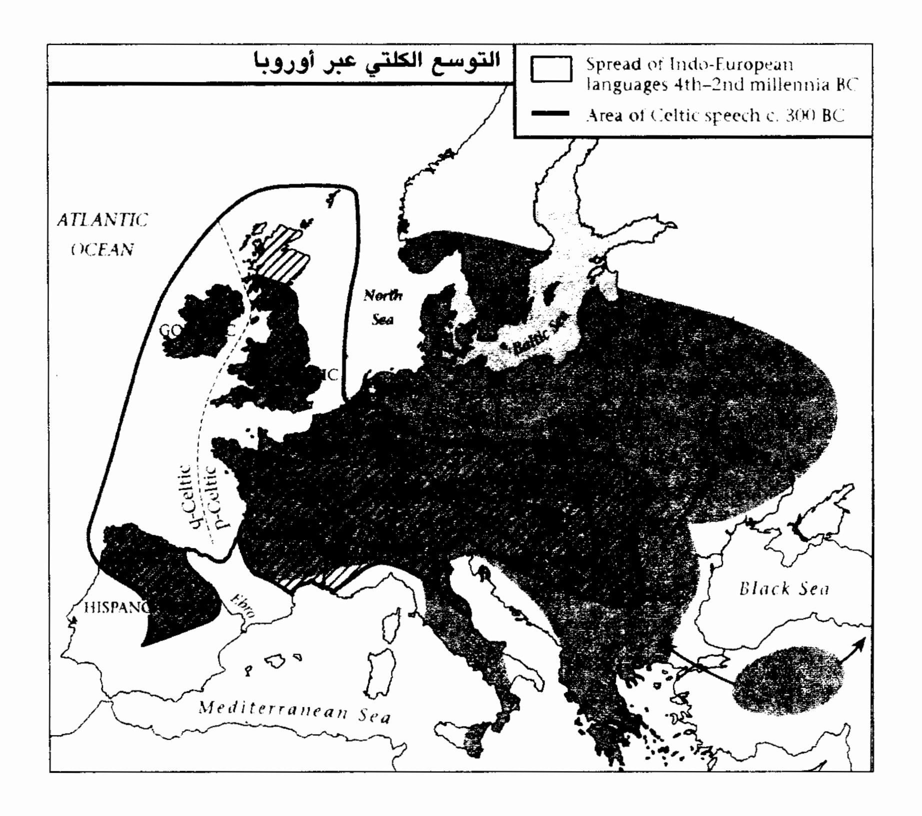
ملاحظة ولا استخلاص. ولكن إذا أخذنا الثقافة حسب تقييمها لنفسها، فإن لغة بلاد الغال مدينة بنجاحها، أو بالأحرى بنجاح الأنساب التي تقيدها، إلى معداتها المتميزة، ولا سيما المركبات ذات العجلات التي تجرها الخيول، وللمنتجات الرائعة لحدّاديها، وخاصة الأدوات الحديدية لسيوف المقاتلين، وخوذهم، وحلقات الزرد في دروعهم.

وهناك ملاحظة لغوية تؤكد ذلك. فالكلمات التي تعني 'الحديد' (iron)، وهي "سيديرون" sidèron باليونانية، و"فيرّوم" (ferrum) باللاتينية و"إيسارنو" (-isarno)(*) بالكلتية لها أصول منفصلة. ولكن الكلمة الجرمانية (مثل "إيسارن" (eisarn) القوطية، و"إيسرن" (isern)، و"آيرن" (iren) بالإنكليزية القديمة) يظهر أنها قد استعيرت من الكلتية[25]. وليس هذا مدهشاً، لأن من الواضح أن الكلت كانوا هم الوسطاء في نقل المصنوعات الحديدية إلى شمال أوروبا (بل إن تاسيتوس يذكر في كتابه "جرمانيا"، 43) أن قبيلة كوتيني الغالية، كانت تدفع الجزية للألمان بالحديد الخام. ويضيف بشكل نموذجي: 'وفي هذا أشد العار عليهم': أي أنهم كان يجب أن يتمكنوا من استخدام الحديد لقلب هذه الأوضاع)(**).

ورغم أن المستوى التقني كان عالياً آنذاك، فإن التطبيق العسكري كان يميل إلى التركيز على بسالة القادة الفرديين، تدعمها وتغذيها هذه المنتجات المتميزة، بدلاً من تطوير منظمة ساحقة واسعة النطاق. فقد ظلت مجتمعاتهم صغيرة، لا تملك حتى تركيباً إقطاعياً من السادة والملوك. ولم تكن معرفة القراءة والكتابة ضرورية، بل كانوا يتجنبونها إلى حد كبير. ومثلما فعل بعض المتحدرين منهم على الجانب الآخر من العالم بعد ألفي سنة، فلعلهم استطاعوا أن يعتمدوا

(*) مسجلة في الاسم الغالي لقرية قديمة في منطقة جورا الفرنسية: "إيسارنودوري فيري أوستي"، أي 'الباب الحديدي': غريم (1876، المجلد الأول، الفصل الرابع، ص 5).

(**) وعلى عكس ذلك، فإن اللغة الألمانية كانت تملك الجذر نفسه الموجود في اللاتينية الكامن تحت كلمة 'برونز' (bronze)، وهو في القوطية "إيز" (aiz)، وفي الإنكليزية القديمة "آر" (ār)، وفي الألمانية العليا القديمة "إير" (ēr)، مقابل اللاتينية "آيس" (aes)، مما يوحي بأن هذه التكنولوجيا كانت تقليداً راسخاً قبل أن ينفصل الأسلاف المشتركون للناطقين بالإيطالية والجرمانية ويذهب كل منهم في طريقه.



التوسع الكلتي عبر أوروبا

على أسلحتهم المتفوقة ويتغلبوا على عقبات كبيرة دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التغلب على خصومهم بالعقل والفكر.

ورغم أن المحاربين الكلتيين وقراهم صاروا واسعي الانتشار، فإنهم لم يزيلوا أو يغرقوا المجتمعات التي كانت في طريقهم. (وهم في هذا يتناقضون بشكل بارز مع انتشار "السلام الروماني" ومعه اللاتينية). وإذا ذكرنا فقط بعض المجتمعات القديمة التي نستطيع العثور على بعض آثار لغتها، فإن الناطقين بالكلتية يوجدون متعايشين مع الألمان في شمال جبال الألب، ومع الفينيتي والإتروسكان في جنوبها، ومع الناطقين بالباسك (أكويتاني) في بلاد الغال الجنوبية، ومع الإيبيريين والتارتسيانيين في إسبانيا، ومع المقدونيين والتراسيين في البلقان. فقد كانت هذه ثقافة تُنهك جيرانها وتزيحهم جانباً، ولكنها لا تخضعهم أو تدمجهم.

ولكن إلى جانب الإغارة والغزو العسكري لأرض جديدة، ربما كانت هناك قناة أخرى انتشرت عبرها اللغات الكلتية، بل وتطورت إلى لغات جديدة ومنفصلة. كانت تلك القناة هي الملاحة.

كان من التقاليد المقبولة في أوروبا العصور الوسطى أن إيرلندا كانت مأهولة بأناس من ساحل إسبانيا. والأسس المعتادة المنقولة للاستشهاد بها على ذلك كان فيها خطأ مزدوج في الجغرافيا وفي تفسير أصول الكلمات. فجدول "بوتنجيريانا" المعاد تركيبه يظهر إيرلندا كجزيرة على مبعدة من بريغانتيا (لاكورنيا)، وكتاب سانت إيزيدور الشهير "أصول الكلمات"، الذي يعود إلى القرن السادس يقول: 'هيبرنيا ... تمتد شمالاً من إفريقيا. وأجزاؤها الأمامية تواجه (هـ) إيبيريا والمحيط الكانتابري [أي خليج بسكاي]. ومن هنا فإنها أيضاً تسمى هيبرنيا'[26].

غير أنه ربما كان هناك الكثير من المزيد عن هذه العلاقة. فإن آفينوس، الذي كان يجمع معلومات عن الملاحة الساحلية في القرن الرابع يقول عن 'الجزيرة المقدسة': 'إن عرق هيرني يسكنها بشكل بعيد وعريض. ومرة أخرى فإن جزيرة الألبيونيين تقع قريباً منها. وكان التارتسيان معتادين على حمل تجارتهم إلى نهاية الأوستريمنيدز. كما أن القرطاجيين والناس العاديين من حول أعمدة هرقل كانوا يذهبون إلى هذه البحار'[27].

وكانت 'إيرنيه' هي التسمية التي شاعت كمصطلح يوناني لإيرلندا. أما الأوستريمنيدز فربما كانت هي جزر سيلي أو كورنويل، ما دام أفينيوس يلاحظ أيضاً أن هذه الجزر 'غنية بمناجم القصدير والرصاص'[28]. والمقطع كله دليل على علاقة بين الجزر البريطانية ومنطقة تارتيسوس الإيبيرية الجنوبية المعروفة بأنها بؤرة تركيز للإمبراطورية التجارية القرطاجية.

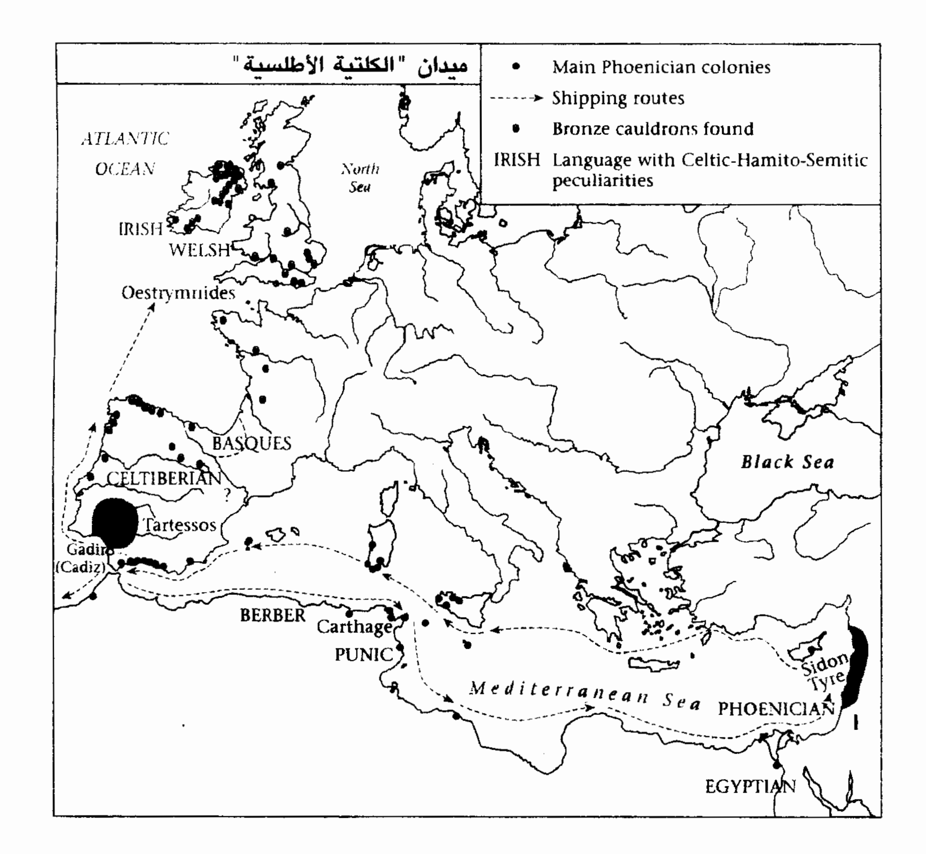
وهذه العلاقة تؤكدها أدلة أثرية وفيرة. فقد أعجب باري كنليف بالغزارة الظاهرة لعلاقات التبادل بين القطاعات المواجهة للأطلسي من السواحل الأوروبية، بما في ذلك إيرلندا، وويلز، وكورنيل، وبريتاني، وغاليسيا، والبرتغال في العصر

البرونزي المتأخر (1200 ـ 200 ق.م.)، فاقترح أن 'الكلتية الأطلسية' ربما تكون قد نمت كلغة مشتركة، أو ربما كلغة للنخبة بين المجتمعات المتنوعة على رقعة الساحل الشرقي[29].

إن هذه الفرضية، ولو أنها مستلهمة من الآثار، فيها جاذبية معينة من وجهة النظر اللغوية والثقافية. فهي تعطي وسيلة لانتشار الكلتية عبر الجانب الجنوبي من جبال البيرينيه عندما لا يكون هناك تقليد عن غزو من الشمال، وكان معظم الإقليم الواقع بين جنوبي بلاد الغال وإسبانيا الوسطى دائماً في أيدي الباسك في الحقيقة. وهي فرضية تعطي أساساً في التاريخ لموضوع ثابت وملحّ في الأدب الإيرلندي القديم، هو حكايات "إمراما" عن الرحلات البحرية المسحورة، مثل رحلة القديس برندان. وهي تقدم تفسيراً لحقيقة من حقائق اللغويات التاريخية الكلتية تتطلب عناية فائقة: وهي تشابه اللهجات بين اللغات الكلتيبريانية والغويدلية في إيرلندا واسكتلندا الغربية.

فاللغات الليبونتية، والغالية والبريثونية (الكلتية ذات الـ p) كلها في العادة تقلب الحرف القديم k^w إلى *p*، ولكن الكلتيبريانية والغويدلية (الكلتية ذات الـ Q) تحتفظ بالعنصر *k*. فمن الممكن إذن اعتبار الكلتية ذات الـQ هي الصيغة الأصلية التي انتشرت إلى سواحل بلاد الغال على أيدي المستعملين النهائيين للحديد، ثم عن طريق إقامة علاقات تبادل وتجارة، إلى ما وراء ذلك شمالاً وجنوباً عبر البحر. وبعد ذلك قام الكلت في بلاد الغال وفي الألب بالتجديد بقلب الـ k^w إلى *p*، وتبعهم ذوو العلاقة الوثيقة بهم في بريطانيا، أما الذين على المحيط، أي الكالتيبريان والغويدليين، فقد احتفظوا بالـ k^w، وأما الذين في الشمال، أي الإيرنيه فقد بسطوها فيما بعد إلى *k*(*).

(*) الواقع أن عدداً قليلاً فقط من اللغويين يعتبر معيار الـ P/Q هذا عامل تمييز شديد القوة. فالتغيير يمكن أن يحدث في أي مكان: بل لقد حدث في لغة رومانيا الحديثة، وبصورة مستقلة تماماً في اللهجات



والواقع أن تغييرات غريبة طرأت على اللغة الكلتية في الجزر البريطانية، كما لم يحدث في أي مكان آخر: ومنها الفعل ـ فالفاعل ـ فالمفعول به كترتيب أساسي للكلمات، والتحول الأساسي المفاجئ للحروف الصامتة، وحروف الجر المتصرفة، والأساليب الغريبة للتعبير عن المكانة والنشاط مثل 'أنا في طالبي'، 'أنا في قراءة لكتابي') وغير ذلك كثير. وهناك من يعتقدون بأن هذه الغرائب هي في الحقيقة موروثة من لغات سابقة مفقودة كان يتكلمها السكان الأقدمون،

الإيطالية (فمثلاً تغيرت الأوسكانية إلى الـ P، ولكن اللاتينية لم تفعل) وحتى في قلب لهجات الـ P فإنه لم تتغير جميع حروف الـ Q إلى P: فعلى التقويم الكوليني في وادي الرون نجد EQVOS، EQVI. 'الحصان' (حتى ولو كان الاسم المعتاد لإلهة الفرس في اللغة الغالية هو Epona). كما يبدو أن 'السيكواني' لغة الذين يعيشون على نهر 'سيكوانا' (أي نهر السين) لم تتأثر. ولكن الكلتية ذات الـ Pوالكلتية ذات الـ Q موضوع مطروق متكرر إلى حد الابتذال في التقليد بحيث يبدو أن تركه من المناقشة سيكون شيئاً مخادعاً مضللاً.

وربما كانت تتكلمها الحضارات التي أقامت النصب التذكارية الصخرية الضخمة. فعندما فشلوا في تعلم اللغة القادمة بصورة تامة، استمروا ببساطة في كثير من ملامح لغاتهم القديمة. وهذه هي فرضية الطبقات "التحتية"؛ إنها مثيرة للاهتمام، ولكنها لا تفسر شيئاً، ما دمنا لا نعرف أي شيء عن لغات الجزر البريطانية قبل مجيء الكلتية.

والفرضية الأخرى هي اختلاط اللغات، أي استخدام مزيج من اللغات القديمة مع اللغة الجديدة. ويمكن إدخالها مع نظرية انتشار الكلتية عن طريق الملاحة على سواحل المحيط الأطلسي، مع ملاحظة أن الشركاء الكبار في هذه الشبكة طيلة القسم الأكبر من الألف الأول ق.م. كانوا هم الفينيقيين، الذين كان مقر الكثيرين منهم (والقرطاجيين تحديداً) في شمال إفريقيا، فكانوا قادرين تماماً على الحفاظ على العلاقات على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط. ويتصادف أن الأسر اللغوية في الشمال الإفريقي، المصرية والسامية والبربرية، فيها أشباه مباشرة لسبع عشرة من هذه الخصائص الغريبة للغات البريطانية والإيرلندية الكلتية ليس لها شبيه في أي لغة هندية - أوروبية، ولا في أبناء عمومتها الكلتيين، وهي خصائص شديدة الندرة عالمياً[30]. فإذا كانت الكلتية قد انتشرت حقاً كلغة ساحلية مشتركة، فلا بد أن هؤلاء الأفارقة الشماليين كانوا من الناطقين بها، وكانوا فعالين في قولبتها.

ولكن ليس هناك دليل على أي شيء من هذا في الوقت الحالي: فبالنسبة لانتشار لغة الغال عبر معظم أوروبا، ولأصول الكلتيبريان واللغات الكلتية في الجزر البريطانية، فإننا لا زلنا في مجال التكهنات وإعادة التركيب. وعلى عكس ذلك، فإننا نملك شهادة مباشرة على مجيء الناطقين بالكلتية إلى إيطاليا وإلى شرقي البحر الأبيض المتوسط.

حالات تقدم لغة الغال في السجل التاريخي

من الواضح أن الغاية من الغارة، التي تبحث فيها فرق من الشباب عن الحصول

على المجد والغنائم، لم تتوقف أبداً عن الاستمرار في المجتمعات الكلتية التي بقيت مستقلة. فالغارات الناجحة، وخاصة عندما يرتكبها الأبناء الشباب الذين ليست لديهم إمكانيات النجاح في وطنهم، يمكن أن تتحول إلى غزو يفرض الأمر الواقع. ونواجه أيضاً أمثلة على قرارات متعمدة تتخذها قبائل كلتية للبحث عن أرض جديدة في هجرة جماعية: ومن هذه القرارات الشهيرة قرار قبيلة هالفيتي، التي قام يوليوس قيصر بإحباط عزمها على الانتقال من الألب إلى جنوب بلاد الغال في بدء الحروب الغالية.

وقد أدت هذه الأنواع من التحرك مرتين إلى تغلغل كبير لمجموعات من أهالي الغال إلى داخل مراكز الحضارة الإغريقية ـ الرومانية. فكانت المرة الأولى هي قيام برينوس بنهب روما في العام 390 ق.م. وتبعها بشكل فوري تقريباً انسحاب مع غنائم هائلة وفرض دفع إتاوات. ويصف بوليبيوس خصائص الغاليين الذين دخلوا إلى وادي نهر البو في حوالي ذلك الوقت بقوله:

> كانوا يعيشون في قرى بلا جدران أو أسوار، ولا يعرفون شيئاً من تهذيب الحضارة. وبما أنهم كانوا ينامون على القش وورق الشجر ويأكلون اللحم، ولا يمارسون مهناً أخرى غير الحرب والزراعة فقد كانت حياتهم بسيطة جداً. وكانوا جاهلين تماماً بأي فن أو علم. وكانت ممتلكاتهم تتكون من المواشي والذهب، لأن هذه هي الأشياء الوحيدة التي يستطيعون أخذها معهم مهما كانت ظروفهم وأينما أرادوا الانتقال. وكان أهم شيء عندهم أن يكون لهم أتباع. وكان أقوى رجل يخافونه في القبيلة هو الرجل الذي يعتقدون أن لديه أكبر عدد من المرافقين المعتمدين عليه[31].

وكانت المرة الثانية هي نهب دلفي، المركز الديني اليوناني في العام 279 ق.م. الذي قام به برينوس آخر، ولكنه سرعان ما هزم على أيدي اليونانيين الذين احتشدوا لمواجهته. وقد بقيت من المهاجمين بقية كمرتزقة جوالين في مقدونيا. ولكن فرقة منهم (كان عددها عشرين ألفاً نصفهم من النساء والأطفال ـ أي أنهم لم يكونوا عصابة حرب فقط) دعيت في العام التالي

لعبور بحر مرمرة إلى الأناضول، للقتال نيابة عن نيكوميديس، ملك بيثينيا ضد الملك السلوقي أنطيوخوس. فقدموا خدمة جيدة، ولكنهم أصبحوا بعد ذلك عبئاً إلى أن استقروا بشكل أكثر دواماً في المنطقة المحيطة بأنقيرا. فصارت هذه عاصمة هذا المجتمع المستوطن الجديد، الذي صار يعرف باسم الغلاطيين أو الغالوا ـ إغريق. واستمرت حروبهم مع جيرانهم، وخاصة مع مدينة بيرغاموم، وخدماتهم كمرتزقة (التي امتدت إلى مصر) لمدة قرن آخر من الزمن.

وفي شمال إيطاليا وفي الأناضول، كان الرومان في آخر الأمر هم الذين وطّنوا هذا الخليط غير المستقر من المغيريين الغاليين.

وشن الرومان سلسلة من الاعتداءات على سواحل بحر الأدرياتيك وأسسوا مستعمرات عسكرية في المنطقة بين العامين 330 و270 ق.م. فأكسبهم ذلك احتراماً كبيراً. وتدخلت الحرب البونية الأولى (264 ـ 241 ق.م.) ولكن الرومان طردوا القرطاجيين ثم عادوا إلى المعمعة. ومن العام 232 إلى العام 218 ق.م. تغلغلوا أبعد في قلب إيطاليا الشمالية، مع معارك عنيفة، ومستعمرات جديدة راحوا يقيمونها لمواطنيهم وحلفائهم (ومن هنا جاءت الجيوب الدائمة للناطقين باللاتينية) في بلاسنتيا (بياسينزا) وكريمونا. ومرة أخرى قطع عليهم القرطاجيون عملهم بهجوم مباشر عبر قلب إيطاليا هذه المرة (قام به هنيبعل وفيلته في العام 217 ق.م.)، ومن المذهل أن هذا لم يكن له تأثير ضد تقوية الرومان لقبضتهم على المنطقة. وعند إزالة هنيبعل ـ وكانت هذه بحد ذاتها محنة استغرقت ستة عشر عاماً ـ استأنف الرومان معاركهم بنصر على الإنسوبريانيين في كومو في العام 196 ق.م. مع مزيد من المستعمرات في وادي البو عند بولونيا ومودينا وبارما، فثبتوا بشكل فعلي حدود المنطقة التي تمكن الغاليون من تنظيم الغارات منها في الماضي. ودحر الرومان قبيلة البويي Boii المحاربة الرئيسية وسلبوها نصف أراضيها. وبعد ذلك بخمسين عاماً، زار بوليبيوس وادي البو فكتب ملاحظة قال فيها إن ’غاليا سيزالبينا‘ لم تعد الآن سوى مجرد اسم: لقد أصبح هذا المكان جزءاً من إيطاليا[32].

وفي الأناضول، بدأ الرومان يحاولون لجم الغلاطيين المستقلين بعد أن أنهوا عملهم ضد أقاربهم في إيطاليا. ففي العام 189 ق.م. وكجزء من حملة لدعم مدينة بيرغاموم (التي كانت لا تزال تعاني من المرتزقة الغلاطيين)، قام قائد روماني بدحر قبائلهم الثلاث كلها، التولستوبوغي، والتروكمي، والتكتوساجيين، وباع أربعين ألفاً منهم كعبيد (كان من الواضح أن القرن السابق كان جيداً بالنسبة لهم، فقد تكاثر سكانهم بشكل جماعي كثيف). ولكن الاستفزاز الغلاطي استمر، ليس ضد بيرغاموم وحدها، بل ضد جيران آخرين كذلك، مثل كابادوكيا في الشرق، وبونتوس في الشمال. وبعد ذلك بقرن، تحت حكم الملك ديوتاروس، تحالف الغلاطيون مع روما على أساس عداوة الطرفين لملك بونتوس الطموح، ميثراداتس السادس. ففي عمل فريد من نوعه من التلاعب السياسي، تدبر أمر بقائه مفضلاً طيلة الحرب الأهلية التي أعقبت اغتيال قيصر، وأن يموت على فراشه في العام 40 ق.م. وبعد ذلك لم يعد أحد يسمع شيئاً يذكر عن طرق الغلاطيين المتهورة غير المسؤولة، ولكن في العام 25 ق.م. جعل أغسطس غلاطيا جزءاً من وحدة أكبر بكثير تشمل كل المقاطعات الواقعة إلى الجنوب منها مباشرة، فأذاب أي هوية كلتية متبقية.

ولم يترك الغاليون الإغريق أي أثر مكتوب باللغة الغالية رغم أنهم قدموا أجمل الاستحضارات الفنية للغاليين في تماثيل منحوتة في بيرغاموم، ودليل أسمائهم صحيح وأصيل جداً (مثل "تكتوساجيس"، أي 'الباحثين عن بيوت'، وديوتاروس *Deiotarus*، أي 'الثور المقدس'(*)). ومع ذلك فقد بقيت ذكرى من هويتهم اللغوية: فعند نهاية القرن الرابع الميلادي، فإن القديس جيروم، المشهور بترجمته اللاتينية للإنجيل، وهي الترجمة التي صارت معتمدة في الكنيسة الكاثوليكية، كان يعلن أنه قادر على التواصل مع الغلاطيين في أنقيرا باللغة نفسها التي كان يسمعها محكية في شبابه قرب ترابر، على نهر موسيل. ولكن أربعمئة عام مدة طويلة بشكل رهيب لبقاء لغة بلا تقليد مكتوب وسط آسيا

(*) ربما كانت هذه لمحة من اللغة الغالية بلكنة يونانية: فهي باللغة الغالية الطبيعية هكذا: - Deiwo tarwos، ولكن اليونانية كانت قد أسقطت كل حرف [w].

الصغرى المكتسبة للطابع الإغريقي. فلعل جيروم كان يشير فقط إلى شيء قد قرأه.

إن هذه المغامرة إلى داخل آسيا الصغرى، بتأثيرها اللغوي على المرتفعات الوسطى حول أنقيرا، تعطي معلومات عن الطريقة التي يمكن بها نشر لغة كالغالية، وعن شروط بقائها. فقد كانت لغة ذات نسب، فعندما كان الناطقون بها ينتقلون، كان مجالها ينتقل معهم، وإذا تنامى حجم المجتمع، نما معه عدد الناطقين بها. وإذا فقد المجتمع هويته، أو عاداته المميزة، فإن اللغة ستختفي.

التشاور: الأساس المنطقي لسيادة اللغة الرومانية

التشاور : (أ) المداولة، الاستشارة، التباحث معاً، النصيحة (ب) استنتاج يتم بالتأمل، بالتصميم، بالبت، بالقياس، بالخطة، بالغرض، بالقصد، (ج) الأشخاص الذين يتداولون، مجلس.

لويس وشورت، قاموس لاتيني

أثبت الناطقون بالكلتية في بريطانيا بشكل مدهش أن لديهم مناعة ضد التأثر باللاتينية على المدى الطويل، حتى ولو كانت لغة الهيئات الرسمية ولغة التعليم في البلد لمدة أربعمئة عام. فلم تصبح اللاتينية لغة الناس العاديين في بريطانيا على الإطلاق. وهكذا فإن سمعة بريطانيا المثيرة للسخرية عند الرومان هي التي تحققت في آخر الأمر: 'فهم ليسوا شجعاناً في المعركة، ولا مفيدين في السلم'[33]. فيجب أن نسأل كيف أن الغة الغازي هذا قد فشلت في الانتشار.

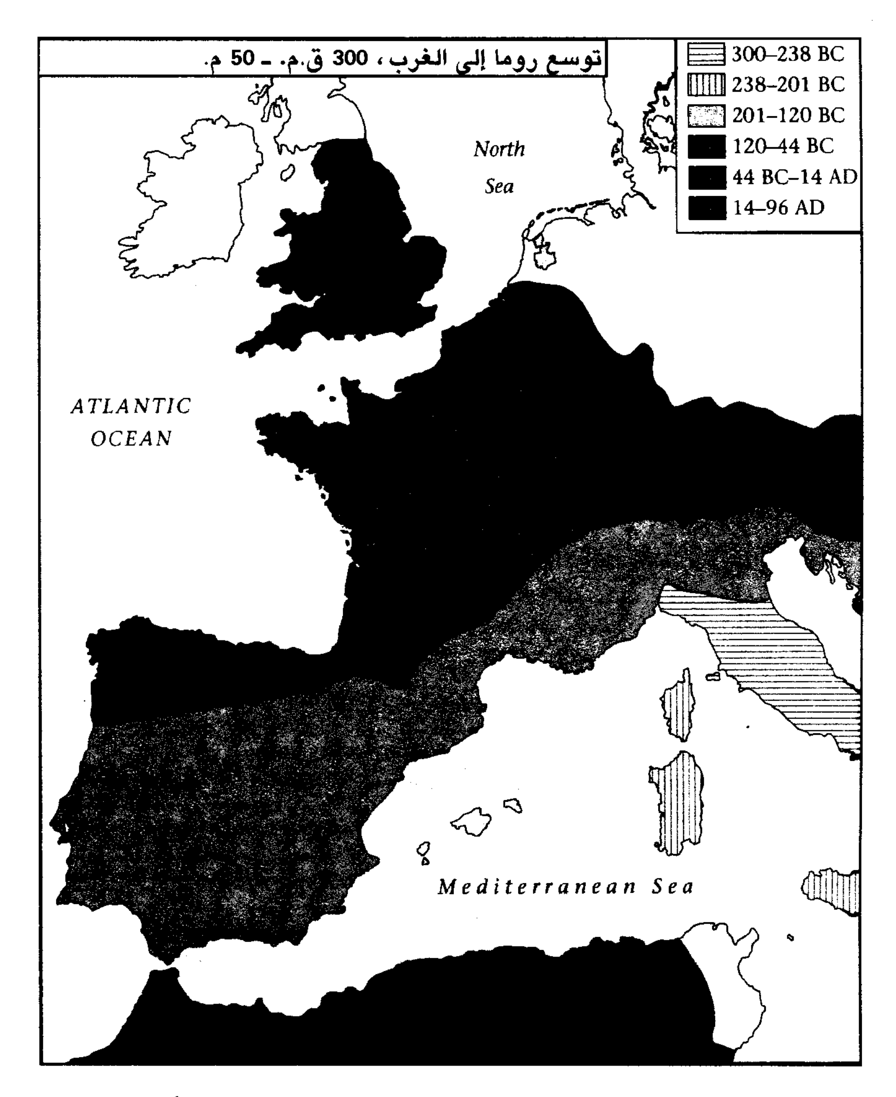
موس مايورام - الطريقة الرومانية

ليس سراً أن أساس انتشار اللاتينية كان هو انتشار السيادة imperium الرومانية سياسياً وعسكرياً (وهذه كلمة تعني في الأصل "السيطرة"، ولكنها حملت فيما بعد كل المعاني الضمنية لترجمتها الفرنسية، وهي "إمبراطورية").

وفي هذا السياق كانت اللاتينية على خلاف الكلتية، ولكنها أشبه بالإنكليزية في بداية تطورها الحديث. ولكن الرومان، مثل المتحدثين بالإنكليزية أيضاً، (ومرة أخرى بخلاف الكلت) نادراً ما كانوا عدوانيين أو محاربيين بشكل سافر في إعطاء دافع لحملاتهم. وكان هناك أيضاً بين المجموعتين من بناة الإمبراطوريات عدم رغبة في الحديث علناً عن الفوائد التجارية والمادية لما يتم تحقيقه - وهذا أيضاً مخالف للكلت الذين كانوا يؤكدون على أفراح كسب الغنائم. فما الذي أخرج روما فعلاً ودفعها لغزو كل بلد حول البحر الأبيض المتوسط؟

لقد رأينا أنه منذ وقت مبكر جداً (من القرن الثاني ق.م.) كانت مسألة سبب انتصار الرومان بسرعة، وضد كل القادمين على ما يبدو، تثير فضول اليونانيين للبحث فيها، مثل بوليبيوس. فرغم انه أبدى ملاحظات لاذعة عن الشخصية الرومانية (انظر: 'المتصارعون: الآراء اليونانية والرومانية' ص 393)، فإنه لم يستقر على جواب سهل أو بسيط. وحتى مع فائدة النظر إلى الوراء بألفي عام، فإن مسألة متابعة الأسباب التي جعلت هذه القرية بالذات على منتصف الطريق على ساحل شبه الجزيرة الوسطى في البحر الأبيض المتوسط هي المقدر لها أن تستولي على دائرة سواحله بكاملها هي مسألة مغرية لها نكهة خاصة (أو تعليل لأساس منطقي بطريقة ارتجاعية). ومع ذلك، فإن من الممكن رؤية الفوارق بين طريقة الرومان وطريقة جيرانهم، وخاصة الذين في أوروبا الغربية. وهي ما يهمنا على نحو خاص في هذا الفصل.

كان الرومان مجتمعاً مدنياً بشكل حاد، مع كراهية غلابة وملحة لسيطرة رجل واحد على المدى الطويل. فقد أوصل نظام حكمهم الكوابح والتوازنات إلى مستويات عالية لم يسبقها ولم يأت بعدها مثيل. فمنذ العام 510 ق.م.، وهو التاريخ التقليدي لتأسيس "جمهوريتهم" (وهذا المصطلح اللاتيني لدستورهم وأساس كلمة "جمهورية" عندنا معناه ببساطة 'ملك الجمهور')، وكانوا ينظمون انتخابات سنوية للوظائف الرئيسية في الدولة. وكان كل شاغل منصب يتواءم مع زميل له أو أكثر يجب عليه اقتسام سلطته معه أو معهم. وكان الحاملان لأعلى منصب تنفيذي، وكل منهما يسمى قنصلاً، يعتبران بالنتيجة ملكين مشتركين



لمدة عام. ولكن سلطتهما ليست مطلقة إلا عندما يكونان في حَمَلَة خارج المدينة، وفيما عدا ذلك، فإن أي قرار، مثل قرارات كل حَمَلَة المناصب، يكون عرضة للتحدي ـ أي للاستئناف أمام الشعب الروماني (بل إن هذه الطبيعة المشتركة لوظيفة القنصل أدت إلى جعل القنصلين يتناوبان على ممارسة منصب رئيس الأركان بشكل دوري يومي، مما يمكن أن يسبب الفوضى في أوقات الأزمات). وكانت المؤسسة التنفيذية الوحيدة المستمرة باطراد هي مجلس الشيوخ، المكون

في العادة من حوالي ثلاثمئة عضو، معظمهم ممن شغلوا وظيفة سابقة، فكانوا مسؤولين عن وضع مستوى الضرائب. وكان المجلس دائماً خاضعاً لسيطرة الأسر القديمة التي تحملت مسؤولية الحكم منذ البداية. ومع ذلك فقد كان هناك متسع لرجل جديد بين الحين والآخر، يملك الموهبة (ومعها الموارد المالية الضرورية(*)) كي يخترق الصفوف ويحظى بهذه الرتبة من وقت لآخر.

وكان حاملا المنصبين الأعليين، القنصلان والقاضيان يمكن أن يتوقعا منصب حاكم في الخارج، لممارسة السلطة 'نيابة عن القنصل' أو 'نيابة عن القاضي' لفترة سنوات بعد انتهاء ولايتهما. وقد اضطلع هؤلاء الحكام بكثير من حروب روما الخارجية. وعند حدوث حالة طوارئ وطنية، فإن من الممكن تعليق النظام القنصلي لمدة ستة أشهر في كل مرة. وعندئذ يتم تعيين دكتاتور (وحيد). ورغم وجود مشاكل ملحة اعتباراً من أواخر القرن الثاني ق.م. فصاعداً، مع قادة عسكريين ذوي قوة أكبر وغير مستعدين لقبول الحدود التي يفرضها عليهم النظام، فإن هذه المؤسسات كلها ظلت تعمل على وجه العموم أثناء حصول روما على إمبراطوريتها في الخارج، وهي إمبراطورية اكتملت إلى حد كبير عند حلول العام 44 ق.م.، عندما نُصِّب يوليوس قيصر دكتاتوراً مدى الحياة، ثم اغتيل، مما أدى إلى سقوط الجمهورية. وبقيت المؤسسات كلها موجودة لمدة خمسمئة عام أخرى. ولكنها كانت دائماً منذ ذلك الحين تحت سيطرة 'رجل القمة' كما كان الإمبراطور يدعى، فكان يحكم مدى الحياة (ولو أن هذه الحياة كانت على الأغلب قصيرة فتأتي نهايتها قاسية على الناس أو رحيمة بهم). وقد ظلوا يتجنبون لقب 'ملك'. فكان ذلك من المحرمات الباقية منذ العام 510 ق.م. ولكن روما كانت في الحقيقة قد عادت لتكون ملكية، مهما بلغت مهارتها في النفاق والمخادعة.

ومن الواضح أن هذا النظام كان معقداً أو مفصلاً بشكل محكم، وكان

(*) كان الشيوخ بحاجة إلى أن يكونوا برتبة فارس على الأقل. وقد حددت مواردها المؤهلة (من الممتلكات العقارية) بقيمة 400,000 سسترتيوم. وحسب تقييم عام 1879 في "القاموس اللاتيني" الذي ألفه لويس وشورت، ومع تطبيق معدلات التضخيم منذ ذلك الحين فإن هذا المبلغ يعادل في الوقت الحالي (2003) ما قيمته 186,000 جنيه إسترليني، أو 315,000 دولار أمريكي.

يعمل فقط بفضل وجود احترام متأصل للتقليد والقانون. وقد قدم إطاراً تستطيع من خلاله المدينة ـ الدولة أن تحكم نفسها بأسلوب نظامي، مع إبقاء السيطرة على القوة المنظمة، أي الجيش، في أيدي الطبقات الراسخة الأسس. وكان الرومان يفضلون المبدأ الذي يسهل التنبؤ به على القيادة الفاتنة الآسرة للجماهير. وعندما ازداد تأثيرهم ونفوذهم (لأنه يبدو أن تنظيمهم العسكري المنضبط كان في الحقيقة يعطيهم ميزة التفوق في معظم النزاعات)، صدّروا هذا النمط من الحكم إلى المدن التي غزوها ثم جندوها. وشيئاً فشيئاً، امتدت فوائد المواطنة الرومانية إلى جميع أنحاء إمبراطوريتهم الآخذة في الاتساع، فأعطت بعض رعاياهم الجدد دافعاً قوياً للولاء لهم. وبالنتيجة، فإن الإمبراطورية الرومانية في يومها كانت تمثل فوائد العولمة: مثل الاتصالات الجيدة، والوصول إلى كل ما يمكن أن يقدمه العالم، والتحرر (عادة) من الحكم التعسفي والقمع. وكانت هناك عبارة رومانية مفضلة ومعتمدة هي 'السلام مع الشرف'، أو (بشكل يعادلها) الفراغ مع القيمة الجيدة.

ولكن هذا الاحترام للتقاليد لم يمتد إلى احترام خاص للبقايا الأقدم للغتهم، اللاتينية. ورغم أن أقدم مجموعة قانونية لدى الرومان، وهي الجداول الاثنا عشر المشهورة، كانت مكتوبة باللاتينية، فلسبب ما لم تبق منها نسخة حتى نهاية الجمهورية. فلم يكن الرومان عاطفيين تجاه لغتهم، وحتى كُتُب التنبؤ التي هي أقرب شيء عندهم لنص الإنجيل المقدس، والتي كانوا يستشيرونها للإرشاد والهداية في أوقات الاضطرابات، لم تكن مكتوبة باللاتينية، بل بالشعر اليوناني السداسي التفاعيل.

فكانت اللاتينية ببساطة هي اللغة التي نشؤوا عليها. فعند التعامل مع الأجانب كان من العملي استخدامها، لأن الأساس الصلب للجمهورية الرومانية كان يعني أن الأجانب في المفاوضات هم في موقع الطرف الأضعف المستعطف بشكل دائم تقريباً. وقد أوجدت اللغة اليونانية استثناءً لهذا التفضيل لأن الرومان عندما وسعوا معرفتهم بإيطاليا والعالم الذي وراء سواحلهم، اكتشفوا مستعمرات يونانية في كل مكان، تقوم بأعمال تجارية، وتظهر بصفة عامة موقفاً من الثقة

بالنفس مستمداً من ثقافة متعلمة هجومية وعلاقات 'بأمهات المدن' العالمية في شرق البحر الأبيض المتوسط. وعندما اكتشف الرومان الذرا العليا التي تطورت إليها الثقافة الإغريقية بما يفوق الأحلام، كانوا سعداء (في أول الأمر) باستخدام اللغة اليونانية في أعمالهم الفكرية، بدلاً من الاضطلاع بالمهمة الشاقة لمحاولة بناء اللاتينية كي تنافسها. فكان أول إنتاج أدبي معروف ألفه الروماني فابيوس بيكتور، وهو تاريخ روما (في أواخر القرن الثالث ق.م.)، باللغة اليونانية. ورغم أنه كانت هناك محاولة في وقت مبكر لبناء تقليد أدبي روماني أكثر، مع قيام ليفيوس آندرونيكوس ونايفيوس بكتابة ملاحمها اللاتينية بأوزان الشعر الساخرة، فقد فشلا في جعل هذا الأسلوب يترسخ وينتشر. ومنذ ذلك الحين، راحت كل الأعمال اللاتينية تقولب على غرار الأصول اليونانية بتقليدها بشكل وثيق.

وكان هناك صدى فوري لأحد جوانب الثقافة الإغريقية في روما، وهو احترام فن الخطابة، الذي أطلق عليه الرومان: 'مهارات الإقناع'. وهي مهارات كانت أهميتها تعادل أهمية مهارات القتال والقيادة العسكرية في هذه المدن - الدول (اليونانية والرومانية على حد سواء)، حيث كانت القرارات تتخذها الاجتماعات، وليس الأفراد. فأصبح التدرب على الخطابة هو قلب التعليم الروماني العالي، حيث يعمل الطلبة في المجادلات والمداولات والخطب السياسية بالطريقة التي يكتبون فيها المقالات في أيامنا هذه، فكان تأثير ذلك على اللاتينية كثير التشعب، واستمر زمناً طويلاً بعد تدهور المؤسسات الحرة. وحتى الشعر الغرامي اللاتيني صار من الممكن أن يحمل لهجة التهديد والضغط وكان أحد الأساليب المفضلة في ذلك هو توجيه خطاب إلى جمهور متخيل غير حقيقي. وصارت الأشعار والخطب تعتبر لعبة واحدة إلى حد كبير: وفي القرن الثاني الميلادي كان ماركوس آبر (مارك هوغ)، المحامي المعروف من بلاد الغال، يلاحظ مدى صعوبة كسب المرء لسمعة مشهورة لنفسه عن طريق الشعر بدلاً من طريق الخطابة، ولا سيما في المقاطعات[34].

ولم يكن الجيش أقل العوامل أهمية في نشر اللغة اللاتينية في أنحاء الإمبراطورية. وكان في الأصل مكوناً من المواطنين، ولكن راح يُجَنِّد فيه رجال

من كل مكان بصورة متزايدة. وكانت هناك سياسة رومانية عامة تقضي بإعطاء الجنود أرضاً يستقرون فيها بعد تسريحهم. (وقد لاحظنا من قبل دور الجيش في إضفاء الطابع اللاتيني على واحد من أقدم شعراء الرومان، وهو إينيوس، الذي كان في الأصل ناطقاً باللغة الأوسكانية، وكيف أن المستعمرات ذات المواقع الاستراتيجية قامت في آخر الأمر بتحويل بلاد الغال السيزالبينية إلى جزء آخر من إيطاليا). ولم يكن لهذا أي تأثير كبير في شرقي الأبيض المتوسط، حيث كانت اللغة المشتركة، وهي اليونانية، راسخة بشكل أقوى من أن تهتز. ولكن يبدو أن المستعمرات الرومانية في بلاد الغال وإيبيريا قد أدت إلى انحطاط اللغة الكلتية في هذين البلدين وحلول اللاتينية محلها.

هجر لغة الغال

تلاشت النصوص المكتوبة باللغة الغالية واختفت بعد مئة عام من الغزو الروماني، رغم وجود حكايات مبعثرة تشير إلى بقاء بعض اللغة في الكلام المحكي لمدة قرنين آخرين. وفي القرن الثاني الميلادي، فإن القديس إيرنايوس، الذي جاء إلى الغرب من آسيا الصغرى ليتولى منصب الأسقفية في لوغدونم (ليون) يذكر أنه اضطر إلى تعلم 'لسان بربري' عندما وصل إلى هناك[35]. وفي القرن الثالث الميلادي ذكر المحامي العظيم أولبيان أن هناك عبارات معينة مقولة تحت القسم يمكن تأديتها باللغة الغالية[36]. ثم، قرب نهاية ذلك القرن، يذكر المؤرخ لامبريديوس أن عرّافة درويدية قد استخدمت اللغة الغالية لتتنبأ بموت ألكسندر سفيروس (الذي حكم من العام 222 إلى العام 235). وفي حوار ألفه سولبيشيوس سفيروس (363 ـ 425) هناك شخص من بلاد الغال لا يتكلم اللاتينية يقال له: 'كلمنا بالكلتية، أو بالغاليّة إن كنت تفضل ذلك'. وحتى في القرن الخامس الميلادي، يعلن صيدونيوس آبوليناريس[37] أن نبلاء قبيلة أرفيرني في وسط بلاد الغال الجنوبية قد تعلموا اللغة اللاتينية للتو وتخلوا عن 'الأوزان الثقيلة الخشنة للكلام الغاليّ'.

ولكن من دليل نتاج اللغات (أي الحقيقة المؤسفة لعدم وجود نتاج لها)

يتضح أن الغالية والكلتيبريانية قد انتهتا فعلياً مع دخول الاحتلال الروماني وإدخاله للغة اللاتينية. ورغم احترام أهل بلاد الغال للبلاغة كما لاحظ لوسيان، فإن الثقافة الكلاسيكية لم يكن لديها شيء إيجابي تقوله عن قيمة تقاليد اللغة الكلتية، التي تركوها للتلاشي والنسيان.

وهذا الفقدان الكامل مثير للدهشة، ما دامت أساطير كثيرة جداً قد كتبت باللغتين الإيرلندية والويلزية بعد ذلك بخمسمئة عام أو أكثر، تعيد سرد مغامرات آلهة مثل نوادا ذات اليد الفضية ("نودنز" باللغة الغاليّة)، ولوف صاحب الذراع الطويلة - أو ليو صاحب اليد البارعة - (لوغوس) وبريجيد العالي (بريجيندونا أو بريغانتيا)، وغويبنيو أو غوفانون الحداد (غوبانيو)، وموريغان أو ريانون الملكة العظيمة (ريغانتونا)، ولا ننسى أوغما (أوغميوس) نفسه؛ كما أن صناعة الأيقونات التي بقيت (مثل تلك المنقوشة على المرجل الفخم الذي عثر عليه في غونديستروب) تظهر أن هناك آلهة أخرى، مثل سيرنونوس صاحب القرنين، لها أساطير معقدة. وهذا يبين أنه لا بد أنه كانت هناك ثروة مذهلة من الموضوعات غير المألوفة التي كان بوسع أهل بلاد الغال أن يعيدوا روايتها لو كانت لهم الإرادة.

ولم يكن فقدانها محتوماً، لأن التحول الذي حدث في اللاتينية من أجل دمج اليونانية المتميزة المتنفذة يظهر أنه كان من الممكن للغة قديمة أن تحمل معها ثقافة لغة أخرى دون أن تنقلب(*)؛ كما أن بقاء الإغريقية نفسها في الشرق يبين أنه حتى اللاتينية لم تكن لغة لا تقهر في مواجهة تقليد واثق من نفسه. ولكن أياً من اللغتين الكلتية والكلتيبريانية لم تقم بأي محاولة نعرفها لإعادة قولبة الثقافة الرومانية وفق شروطها الكلتية ذاتها. وبدلاً من ذلك فإنه يبدو أنهما قد سارعتا بنشاط إلى الأخذ بالطرق الرومانية والتكلم باللاتينية. إذ إن مناطق أوروبا الغربية التي كانت تتكلم الكلتية في العالم القديم هي بالذات التي تملك الآن لغات مستقاة من اللاتينية: مثل الفرنسية، والأوكسيتانية، والإسبانية، والقطلانية، والبرتغالية، وكذلك بضع لغات أخرى أصغر مستمدة من اللاتينية.

(*) وفي حوالي ذلك الوقت نفسه تماماً، كانت اللغة الأرمنية تفعل الشيء نفسه مع فيض من اللغة الفارسية المتدفقة فتتشرّبه.

وهذا يثير دهشة مضاعفة عندما نقارن طبيعة المجتمع الروماني مع ما كان الغاليون والكلتيبريانيون يعرفونه في الماضي. فقد حل مجتمع مدني، حضري، مركزي، محل حياة القرية الماضية التي كانت مبعثرة وأكثر تنقلاً في بعض الأحيان. فمن الواضح بالنسبة للكلت أنهم شعروا بأن هذا تقدم. إذ لا بد أن الرومان قد كسبوا ولاء الجيل الناشىء، لأن فرسينجيتوركس، منظم آخر نضال خاضته بلاد الغال من أجل استقلالها، لم يستحضر أحد ذكراه أبداً (إلى أن رفع من شأنه نابليون الثالث بعد ذلك بألف وتسعمئة عام)، ولم يحدث سوى تمردين، تم قمعهما بسهولة شديدة، في الجيل الذي أعقب الغزو الروماني لبلاد الغال. وكانت بلاد الغال قد سقطت في يد قيصر في هجوم صاعق لم يستغرق سوى ثمانية أعوام. وعلى عكس ذلك، فقد احتاجت روما إلى قرنين لتفرض سيطرتها الكاملة على إسبانيا (من طرد القرطاجيين في العام 206 ق.م. إلى حروب أغسطس الكانتبريانية التي انتهت في العام 19 ق.م.). ومع ذلك فإن إسبانيا قد هدأت أيضاً في حوالي الوقت نفسه، وقبلت في آخر الأمر أن مصيرها هو الخضوع للسلام حسب مشيئة روما (السِلْم الروماني Pax Romana).

اللاتينية بين الباسك والبريطانيين

كان الاستسلام إذن، بل والأخذ باللاتينية بحماس، هو رأي الأغلبية عندما تم ضم سكان أوروبا الغربية القديمة إلى الإمبراطورية الرومانية. ولكن من المفيد إعطاء لحظة للنظر في حالتين لم يؤخذ فيهما بهذا الرأي.

كانت إحداهما هي حالة الباسك، المفروض أنها لغة أهل أكويتانيا في جنوب غربي بلاد الغال[*] (والفاسكون في إيبيريا) في أيام قيصر. وقد بقيت هذه اللغة بعد تدفق اللاتينية لتحل محل لغات جيرانها الغاليين والكلتيبريان، كما بقيت بعد كل شيء رماها به التاريخ في الألفي عام الأخيرة. وهي الحالة

(*) يبدو أن الأسماء المذكورة في النصوص الأكويتانية لها جذور باسكية، مثل سيزون، وأندير، ونسكاتو، وبيهوكسف، بالإضافة إلى الكلمات الباسكية جيزون ، أي 'الرجل'، وآندير، اي 'السيدة'، ونسكاتو، أي 'الفتاة'، بيهوتز اي 'القلب' (انظر غوروتشاتغوي 1995: ص 38).

الخاصة بامتياز في التاريخ اللغوي الأوروبي، لأنها سابقة لكل اللغات الهندية ـ الأوروبية. فهناك سجلات لناس من الباسك خدموا في الجيش الروماني (والحق أن مجموعة منهم كانت مسافرة مع الجنرال القوي ماريوس قد سمحت له بإقامة عهد من الإرهاب في روما في العام 86 ق.م[38]. وآخرون عُرف عنهم أنهم خدموا عند سور هادريان في بريطانيا)، ولكن هويتهم أثبتت قدرتهم على تحدي الحكم الروماني. وقد استعاروا الكلمات التي معناها 'زيتون' و'زيت' و'تمثال'، وبذلك أظهروا قبولهم جوانب معينة من الحياة الرومانية كانت جديدة عليهم، ولكنهم فيما عدا ذلك لا يظهرون أي تأثير لحضور الإمبراطورية الرومانية لمدة خمسمئة عام.

أما القضية الأكثر تعقيداً في البقاء اللغوي فكانت في بريطانيا. فقد رأينا من دلالة أسماء الأماكن أنه كانت في بريطانيا وقت الغزو الروماني لغة محكية إما أنها شبيهة جداً باللغة الغالية، أو أنها إحدى لهجاتها. وتحكي الأسماء الشخصية القصة نفسها. فمن بين الأسماء البارزة للملوك والملكات بين البريطانيين لدينا "كاسي ـ فيلونوس"، أي 'المسيطر على البلوط'، و"تاسيو ـ فانوس"، أي 'قاتل الغرير'، و"كونو ـ بلينوس"، أي 'كلب الإله بلينوس' ـ من مسرحية سيمبلين لشكسبير، و"كاراتاكوس"، أي 'المحبوب'، و"بوديكا"، أي 'فكتوريا' (قارن مع "بوداك" بالإيرلندية، أي 'المنتصرة').

وبعد الغزو في العام 43 م.، الذي أدى إلى احتلال دائم على نطاق واسع، بذل الرومان جهداً واعياً لنشر اللاتينية، والتعليم الروماني في الواقع، بين نخبة البريطانيين. ويعلق تاسيتوس بشكل ساخر على الخطط التعليمية لأغريكولا (حاكم بريطانيا من العام 77 إلى العام 84 م، وهو بالصدفة أبو زوجة تاسيتوس):

> علّم أبناء رؤساء القبائل دروساً في الفنون الحرة، وعبّر عن تفضيله ذكاء البريطانيين وحضور بديهتهم على دراسات الغاليين، بهدف أن يزرع رغبة بالبلاغة في نفوس أناس كانوا في السابق قد رفضوا اللغة الرومانية بالمرة. وهكذا قلدونا في الملابس، وارتدوا الثوب الروماني الفضفاض.

> وبالتدريج انزلقوا في تفسخ، وصار عندهم صفوف من الأعمدة، وحمّامات، وحفلات أنيقة. وسمي هذا كله حياة متحضرة من قبل هؤلاء الأبرياء السذج، بينما كان في الحقيقة جزءاً من استعبادهم[39].

وفي مفارقة مريرة السخرية، فقد انطلقت هذه الدراسات في الشتاء الذي أعقب قيام أغريكولا بإبادة مركز التعليم الدرويدي على جزيرة أنغليسي، مع مذابح كبيرة في آخر الأمر.

ورغم أنهم بدؤوا من اللغة نفسها، فإننا نستطيع، من الملاحظات الغريبة التي أبداها الرومان، أن نتتبع آثاراً تدل على أن البريطانيين، في أخذهم باللاتينية، كانوا محاطين بالغاليين القاريين، ولكنهم لم يكونوا أكفاء تماماً لهؤلاء الغاليين. وفي قصيدة هزلية ساخرة من جنوب العالم، كتب جوفينال (وهو معاصر لتاسيتوس في القرن الثاني الميلادي):

> اليوم يملك العالم كله أثيناه اليونانية والرومانية،
> وقد علم الغاليون البليغون البريطانيين أن يكونوا محامين،
> وثول يتحدث عن استئجار مدرّس خطابة[40].

إن نكر 'ثول' هنا، وقد تكون القطب الشمالي بالنسبة للرومان، يدل على أن جوفينال كان يفكر بطريقة فيها مبالغة وتطرف. فهذا هو تنازل المؤسسة الرومانية، الذي يظهر الكثير مما هو مشترك بين الاستعماريين القديم والأحدث: فالغزاة قد يقولون للأقليات من رعاياهم إن أملهم الوحيد كامن في تحضير أنفسهم، ولكنهم لن يأخذوهم على محمل الجد عندما يحاولون تحقيق هذا التطلع.

وهناك أدلة مباشرة على أن اللاتينية قد انتشرت إلى أبعد من الاستخدامات الرسمية والحكومية. فهناك قِطَعُ بلاطٍ عليها خربشات عثر عليها في بعض المواقع، وأكثرها إثارة للتسلية والمرح في نيوغيت بلندن: 'إن غاس يتجول مبتعداً كل يوم لمدة ثلاثة عشر يوماً'. وهذا مثال على الوشاية والنميمة في الزمن القديم. أما المياه التي طوّرها الرومان في المنتجع الصحي ومركز قضاء العطلات في مدينة باث فقد أنتجت أكثر من مئة لعنة طقوسية ورمز

للشتائم، مكتوبة بلغة لاتينية خشنة وغير مصقولة (ومكتوبة بالمقلوب أحياناً). مثل: 'فَقَدَ دوسيميدس زوجاً من القفّازات. فليت الذي هرب بها يفقد عقله وعينيه في المعبد الذي تختاره [الإلهة]'.

والويلزية، المتحدرة الحديثة من اللغة البريطانية التي كانت محكية في اللغة اللاتينية العامية الدارجة وبين ثناياها، احتفظت بأكثر من ستمئة كلمة مستعارة منها، مثل الكلمات المنزلية التي معناها (حائط، شبّاك، زجاج، مطبخ، سكين، فرن، صابون، إسفنجة) وكذلك (الكرز، الكستناء، الزنبقة، الوردة، البنفسجة). وهناك مزيد من الكلمات في مجالات فكرية أخرى مثل القانون والمسيحية.

وفي العصر الحديث، كان هناك حجة جدلية مبنية على بعض الخصائص اللفظية لهذه الكلمات المستعارة، بأن اللاتينية كما هي محكية في بريطانيا كانت أكثر نزوعاً إلى المحافظة من أجزاء أخرى من الإمبراطورية الرومانية(41). ومن المتصوّر أن هذا قد يشير إلى أنها كانت أقل رسوخاً في التداول العادي وأنها بدلاً من ذلك بقيت وسيلة جامدة ورسمية من وسائل التعبير. فالقديس باتريك، الذي نشأ على الحدود الاسكتلندية في القرن الخامس الميلادي، شكا من كون لاتينيتِهِ ضعيفة دائماً لأنه عندما أسره المغيرون الإيرلنديون وهو في السادسة عشرة قد فاتته فرصة التعلم في السنوات الحساسة من عمره. ومن الواضح أن اللاتينية لم تكن من صيغ التعبير اليومية، حتى في أسرته الميسورة الحال.

ولكن مهما تكن لمحة الحقيقة التي قد يمكن تتبعها هنا، فإن اعتمادنا على السجلات المكتوبة يشوش إحساسنا بالدور الذي لا بد أن اللغة البريطانية استمرت تؤديه. وهذا الغياب للغة البريطانية المكتوبة مثير للدهشة تماماً، ولم يتم تفسيره. فلغة بلاد الغال كثيراً ما كانت مكتوبة في القارة الأوروبية، ولكن من الواضح أن اللغة البريطانية لم تكن كذلك: ففي بريطانيا، لم يُكتشف سوى نصين اثنين من الفترة الرومانية مكتوبين بلغة غير اللاتينية. وهما من النصوص المنقوشة على صفحة قصديرية/رصاصية من

مياه باث، ويظهر أنهما بلغة تشبه الكلتية، ولكن لا يمكن فك رموزها على الإطلاق[42].

وقد استمرت اللاتينية بعد الغزو الروماني باعتبارها لغة التعليم: في بريطانيا، كما في أماكن أخرى، فلم تتعرض لتحدٍ جوهري حتى زمن النهضة فعصر التنوير في القرنين السادس عشر والثامن عشر، عندما صارت اللغات الأوروبية العامية الدارجة مقبولة الاستخدام في الكتابة الجادة والواقعية. ولكن بطريقة ما، وفي وقت ما في القرن الخامس الميلادي، بين الانسحاب الروماني من بريطانيا والغزو الساكسوني لإنكلترا، ضاعت اللاتينية كلغة للشعب البريطاني.

وليس هناك جدوى من أن نكتفي، كما اكتفى البعض، بدون تفاسير، مثل التراجع العام، المرئي في تلك الفترة، من المدن، وهذا شيء يدل عليه تدهور الخدمات المتطورة، كقنوات جرّ المياه، وجزء من انحطاط الإمبراطورية ككل، قبل الغارات المتغلغلة من الشرق. فلعل ذلك قد حدث حقاً، وربما يكون قد أضعف المناطق البريطانية التي من المرجح أن تكون اللاتينية مستخدمة فيها. ولكنه لا يميز بين الوضع في بلاد الغال والوضع في بريطانيا: فنحن نبقى بحاجة إلى تفسير سبب بقاء اللاتينية لغة للمدن في بريطانيا فقط، تاركة اللغة البريطانية قوية في البلد، بينما انتشرت اللاتينية في كل زاوية من الأرض في معظم بلاد الغال.

وسوف نعود إلى هذه النقطة عندما ننظر فيما آل إليه أمر اللغة البريطانية فيما هو الآن إنكلترا. ولكن مهما بلغ الضعف الذي تكشفت عنه اللغة البريطانية في تنافسها مع الإنكليزية، فيجب التذكّر بأن اللغة البريطانية عاشت عمراً أطول من اللاتينية على هذه الجزيرة، حتى ولو لم تعتبر لغة جديرة بالكتابة والتدوين أبداً. فليس هناك أثر لأي لغة رومانسية تتخذ لنفسها حياة خاصة بها في بريطانيا بعد انسحاب آخر الحاميات الرومانية من بريطانيا للدفاع عن إيطاليا في أوائل القرن الخامس الميلادي.

السقوط: حالات تقدم الألمانية والسلافية

السقوط: (أ) الانهيار، الغور(ب)، في الأرض= غزو (بلد)، (جـ) (الليل) = هبوطه، (الشتاء)= حلوله، (د) (حزمة من الضوء) = أن يكون تابعاً عرضياً، (هـ) (طيور الصيد) = أن تأتي لتجثم وتستقر، (و) الانضمام، المشاركة (في قطعة موسيقية)، التدخل (في محادثة)، (ز) (فكرة) = أن تخطر على بال شخص مّا....

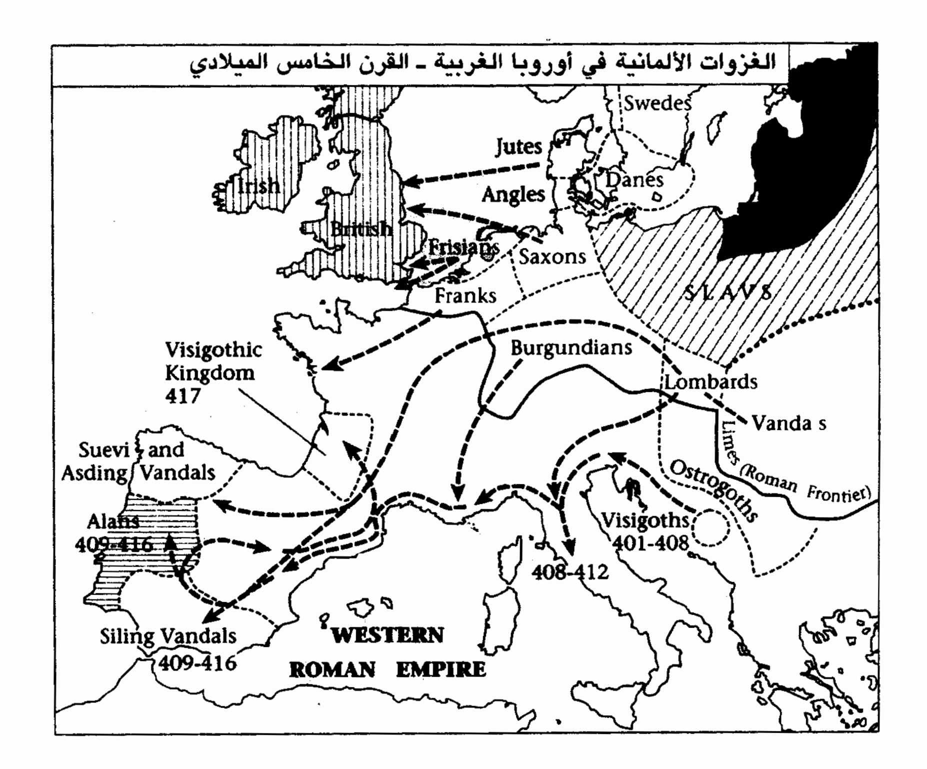
معجم كولنز الألماني

einfallen: ...... ترجمة مستعارة للكلمة اللاتينية *incidere*

الغزوات الألمانية - لا تقاوم وغير فعّالة

عندما جاءت نهاية الاحتلال الروماني لبريطانيا، كانت مصيرية حاسمة ومفاجئة. فقد كان ألاريك، زعيم الفيزيقوط، يهدد بغزو إيطاليا. وفي العام 401 م قام استليكو، وهو نفسه من قبائل الفاندال ولكنه كان القائد العام لقوات الإمبراطورية، بسحب الحامية من بريطانيا كي يعزز قلب الإمبراطورية. وأدى ذلك إلى ترك بريطانيا بلا دفاع ضد الغارات الألمانية المتزايدة باطراد على 'ساحلها الساكسوني'، الشاطئ المواجه لأوروبا. وفي العام 410 م، أرسل البريطانيون التماساً للإمبراطور كي يبعث لهم بقوات تعزز دفاعهم: فكان رده أن عليهم أن يهتموا بذلك بأنفسهم، وبطريقة غير واقعية أضاف بأن تجنيدهم لقوات محلية لن تعتبره روما عملاً عدائياً ضدها. فكان ذلك آخر ما سمعوه منه. وفي غضون جيل واحد، لم تعد هناك مقاطعة بريطانية للدفاع عنها. فقد جاء الساكسون ليبقوا.

وسرعان ما تبعت ذلك نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب. ففي 31 كانون الأول/ديسمبر من العام 406 م. حدث عبور جماعي لنهر الراين المتجمد: فالسويبيون من الضفة الشرقية للراين، مع الفاندال الذين جاؤوا أصلاً من الشرق على مبعدة، والآلانيين (غير الناطقين بالألمانية أبداً، بل هم من الفرس الذين طردتهم قبائل الهون من سهوب البونتيك)، قطعوا شريحة أرض من بلاد الغال ودخلوا إسبانيا. واستمر الفاندال في زحفهم، فعبروا مضيق جبل طارق (الذي



كان عندئذٍ لا يزال معروفاً باسم أعمدة هرقل)، وبحلول العام 439 م. كانوا قد رسّخوا أقدامهم في قرطاجة بشمال إفريقية (حيث بنو أسطولاً وصاروا قوة جديدة في البحر الأبيض المتوسط).

وكان آلاريك قد نجح في دخول روما في العام 410 م (رغم أن مركز الحكومة كان قد انتقل إلى رافينا)، وارتكب أقصى درجات الإرهاب في نهبها، ولكنه مات بعد ذلك بوقت قصير. واستمر الفيزيقوط في تقدمٍ أوصلهم عبر فرنسا الجنوبية إلى داخل إيبيريا، فحصروا في زواياها السويبيين والآلانيين والفاندال الذين سبقوهم إليها. وهناك أسسوا مملكة جديدة استمرت 250 عاماً، حكموها أولاً من طولوز، وبعد ذلك من طليطلة(*). وفي آخر الأمر انتهى عهدهم

(*) تميز صعودهم بصراع لا ينتهي ضد الباسك: وصار كل ملك من ملوكهم يذكر في سجله التاريخي تبجحاً متفاخراً ولكنه فارغ على ما يبدو، بالزعم بأنه 'دجّن الباسك'.

بشيء جديد تماماً على أوروبا، وهو غزو إسلامي (ناطق بالعربية) من الجنوب في العام 711 م.

ولكن في الشرق، شهد الجيل الذي أعقب آلاريك آتيلا، ملك الهون الناطقين بالتركية من العام 435 إلى العام 453، وهو يوسع ممتلكات الهون لتشمل ألمانيا كلها(*). وقد أوقف على مبعدة من بلاد الغال في العام 451، وعندما مات بعد ذلك بوقت قصير تفككت إمبراطوريته إلى فسيفساء من القبائل الألمانية في الغرب، ومنطقة سلافية في الشرق، ولم يعد الهون يسيطرون إلا على منطقة في الخلف حول البحر الأسود.

وبحلول العام 476، كان المركز السياسي في روما قد سقط، وكان الإمبراطور الأخير، القاصر رومولوس أوغستولوس قد أزيح بطريقة إنسانية على يد أودواكر، الذي كان ذات يوم واحداً من أتباع آتيلا ناطقاً بالألمانية، ولكنه صار بعد ذلك واحداً من قادة الإمبراطورية أنفسهم. ثم انتشرت القبائل الجرمانية واستقرت بسرعة مذهلة على جثة الإمبراطورية القديمة. وفي غضون خمسين عاماً كان الفرانك (الذين استقروا مئتي عام في منطقة بلجيكا الحديثة، بل واستخدمتهم الإمبراطورية في دوريات على الحدود) قد تسلموا السيطرة على معظم بلاد الغال، منتشرين من الشمال، مع استيلاء البورغانديين على منطقة كبيرة ولكنها آخذة بالتقلص في الجنوب، أما الأوستروقوط، الذين سرعان ما سيطيح بهم اللومبارديون الجرمان مثلهم فقد أمسكوا بإيطاليا وجنوب غرب الغال ودالماسيا على الساحل الشرقي لبحر الأدرياتيك. وبعد ذلك بدأ غرب أوروبا يستقر، ولكن شرقها كان سيتعرض لغارات متناوبة من الآفار (من العام 550) والبلغار، يتبعهم الخزر بسرعة (من العام 650، والمجر (من العام 750)(**) .

(*) من الغريب أن آتيلا هو اسمه للتحبب في القوطية، ومعناه 'الأب'.

(**) من بين هؤلاء، كانت لغة المجر هي وحدها الواضحة، وهي الهنغارية، ذات العلاقة باللغات الأورالية في سيبيريا الشمالية. أما بالنسبة للغات الأخرى فلعل الآفار كانت مغولية بينما البلغار والخزر كانتا تركيتين. والآفارية القديمة يبدو أنها ليست هي نفسها ما يعرف الآن بالآفارية، التي هي من شمال شرق القفقاس، محكية في داغستان وأذربيجان، ولا علاقة لها بالتركية أبداً. وقد تكون البلغارية باقية في جيوب مبعثرة عبر سيبيريا حتى اليوم، وتعرف باسم كوباش (وهذا الاسم متماثل مع طابغاش، اسم

ومن المذهل أن التأثيرات اللغوية لهذا الاضطراب السياسي السكاني الذي استمر مئة وخمسين عاماً في غرب أوروبا كانت طفيفة. فمن المؤكد أنه قد تم سماع أصوات عديدة للغات جديدة، ولو لمدة قصيرة، في غربي الأورال بين العامين 400 و850. ولكن في غرب الألب لم يكن هناك تغير يذكر في الأوضاع التي أحدثها غزو قيصر لبلاد الغال حوالي العام 50 ق.م.، فيما عدا الأصداء المتلاشية للغات الجرمانية، مثل الساكسونية والألمانية والقوطية، عند مرورها بسرعة عبر السهول الوسطى لبلاد الغال، بعيداً عن الأسماع في المساحات الممتدة على مبعدة إلى الجنوب والغرب.

وعندما انقشع الغبار المنبعث من حوافر الخيل العادية، وتلاشى زعيق العربات المغطاة، وجفّ البريق شبه المذهّب الذي طُليت به قصور العوائل الجديدة التي نصبت نفسها ملوكاً على أوروبا العصور الوسطى، كانت الحدود اللغوية مألوفة بشكل غريب. فلعل حافة الجرمانية انزلقت قليلاً إلى الغرب أثناء الفترة الطويلة التي كانت فيها حدود الإمبراطورية ما تزال محمية، ولم يكن أقل أسباب ذلك دعوة الألمان المجاورين إلى اجتياز تلك الحدود، باعتبارهم 'شعب معاهدة'، أو 'أناساً مرحين'، للخدمة في الجيش، أو على الأرض، لمنفعة المجتمع الروماني. ولكن الخط الفاصل بين اللغتين الجرمانية والرومانسية كان لا يزال يرتسم من الطرف الغربي عند مصب نهر الراين باتجاه جنوبي شرقي. وإن السقوط المتكرر لأجزاء من الغال تحت سيطرة ألمانية، واستقرار قبائل الفرانك فيها بثبات آخر الأمر لم يعمل على ترجمة هذا الخط أو نقله بشكل دوار أبعد أو أكثر.

إن فشل السيطرة الفرانكية في الحلول محل لغة الغال كان هناك ما يوازيه في الممالك الألمانية الجديدة الأخرى. ففي إيطاليا تحت حكم الأوستروقوط واللومبارديين، وفي إيبيريا تحت حكم متعاقب على التوالي من الفاندال والسويبي

الناس المشهورين بغزوهم للصين الشمالية في القرن الرابع عشر) (انظر الفصل الرابع: 'اللغة من هوانغ - هي إلى يانغتسي'، ص 206). وقد حكم الخزر بحر قزوين إلى كييف مدة قرن (من حوالي 650 إلى 750) وهم مشهورون بشكل رئيسي باختيارهم اعتناق اليهودية في العام 861. وقبيلة كارايم اليوم متحدرة منهم. وهناك مجموعة تركية أخرى هم تتر الجحفل الذهبي الذين انتقلوا عابرين في القرن الثالث عشر [ومعهم هولاكو].

والألان. والفيزيقوط، وفي سواحل شمال إفريقيا تحت حكم الفاندال، فإن اللغة التي تأسست تحت حكم الإمبراطورية الرومانية تشبثت بالبقاء(*). فرغم أن الفيزيقوط حكموا إسبانيا مدة 250 عاماً، لا يستطيع المرء حتى أن يعثر على عدد هام من الكلمات القوطية التي استعارتها الإسبانية من هذه الفترة. وقد كتب ميناديز بيدال، المؤرخ اللغوي الإسباني:

> يظهر أن العناصر الألمانية في اللغة الإسبانية لا تنبع بصورة عامة من سيطرة الفيزيقوط على شبه الجزيرة، كما كان من الممكن توقعه: فعدد الغزاة كان خفيفاً نسبياً بحيث لم يكن لهم تأثير كبير، وعلاوة على ذلك، فإن الفيزيقوط قبل أن يصلوا إلى إسبانيا كانوا قد عاشوا لمدة قرنين على اتصال وثيق مع الرومان، تارة كحلفاء، وتارة كأعداء. وفي داسيا، ومويسيا، وفي إيطاليا نفسها وفي الغال، فكانوا متشربين كثيراً بالثقافة الرومانية(43) .

إن تفسيراتنا لا بد أنها مغالطة منطقية. فلا شك أن غالبية الألمان المتقدمين كانوا رجالاً مقاتلين. ولا شك أنهم قد اخذوا زوجات من السكان الذين استقروا بينهم. فاللغة في البيوت الجديدة، البعيدة عن ألمانيا، لا بد أن تكون الأم المحلية وعائلتها هم الذين وضعوها. ولكن هذا الشيء نفسه يمكن أن يقال عن الغزاة الألمان لبلاد الغال قبل ذلك بخمسة قرون، أو حتى عن المكسيك وبيرو بعد الغزو الإسباني بعد ذلك بألف سنة. ومع ذلك فإن لغة الغزاة التي انتشرت بلا شك عن طريق الفرص التي قدمتها ليصبح الآخذون بها جزءاً من النظام

(*) كانت للاتينية حياة فاتنة مسحورة في شمال إفريقيا لمدة قرن من الزمن (428-533) تحت حكم الفاندال، ثم تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية منبعثة من القسطنطينية حتى العام 696. فسيرة حياة أشهر السكان، أي القديس أوغسطين (354-430)، أسقف هيبو، ما كان يمكن التفكير فيها خارج وسط ناطق باللاتينية. فالملاحظات التي يبديها في بعض مواعظه تقدم دليلاً على أن ثنائية اللغة مع البونية، لغة قرطاجة القديمة، ربما تكون قد استمرت باقية حتى القرن الرابع (سينيسر 1996). ومن الواضح أن الناس العاديين استمروا يتكلمون اللغة البربرية (كما يفعلون حتى يومنا هذا). ولكن الاستيلاء العربي على شمال إفريقيا، يدعمه اعتناق الإسلام في الأراضي الداخلية الناطقة بالبربرية، كان له تأثير في تغيير اللغة العاملة في المنطقة أسرع بكثير من تأثير الفاندال (وربما أسرع حتى من تأثير الرومان منذ الأعوام السبعمئة والخمسين التي مضت على تدمير استقلال قرطاجة).

الاقتصادي الجديد، سرعان ما بدأت تفوز. ويظهر هنا أن الغزاة لم يكونوا يرغبون في شيء سوى وضع النظام القديم تحت إدارة جديدة. ولكنهم بعد أن هزموا المدافعين عن ذلك النظام، اعتمدوا في آخر الأمر على ضحاياهم لتقديم الحياة التي كانوا يبحثون عنها. إنها حكاية مألوفة في الصين أكثر منها في أي شيء من تاريخ الغرب(*).

واعتباراً من هذه النقطة فصاعداً تسمى اللاتينية المحكية رومانسية، إشارة إلى أن لهجات اللاتينية العامية الدارجة الآخذة في الظهور كانت حرة في أن تتطور بشكل تستقل فيه كل منها عن الأخرى (رغم أن أول وثيقة عامية باقية كسلف للغة الفرنسية لم تظهر إلا في العام 842)(**). وكانت الغزوات الألمانية والآلانية إيذاناً بالفشل النهائي، والكلي، للدفاع المدني عن الإمبراطورية الرومانية. وكان من بين تأثيرات التخلخل الاجتماعي الذي جاء في أعقابها انهيار توفر التعليم. والحقيقة أن هناك أدلة على أن الأمية كانت تنمو في كل مكان منذ عدم الاستقرار في القرن السابق. وينخفض عدد النصوص المحفوظة في القرن الثالث الميلادي انخفاضاً شديداً في إيطاليا، وقاسياً في منطقة الحدود، مثل موسيا العليا (البوسنة الحديثة)، وتتلاشى وتختفي في كل مكان في حوالي العام 400م[44]. وعندما كان أوغسطين يكتب في شمال إفريقيا في أوائل القرن الخامس، روى قصة عبد رقيق كان يستطيع القراءة، باعتبار هذه القصة معجزة[45]. وفي منتصف القرن السادس، يدرك سيزاريوس في أريليت (آرل، قرب مرسيليا) أن التجار، وحتى رجال الأعمال، قد يكونون عاجزين عن القراءة[46]. وبدون تعليم واسع الانتشار فإن معايير اللاتينية الفصحى الكلاسيكية لن تعود قادرة على العمل ككابح لاجم للنقل الشفوي.

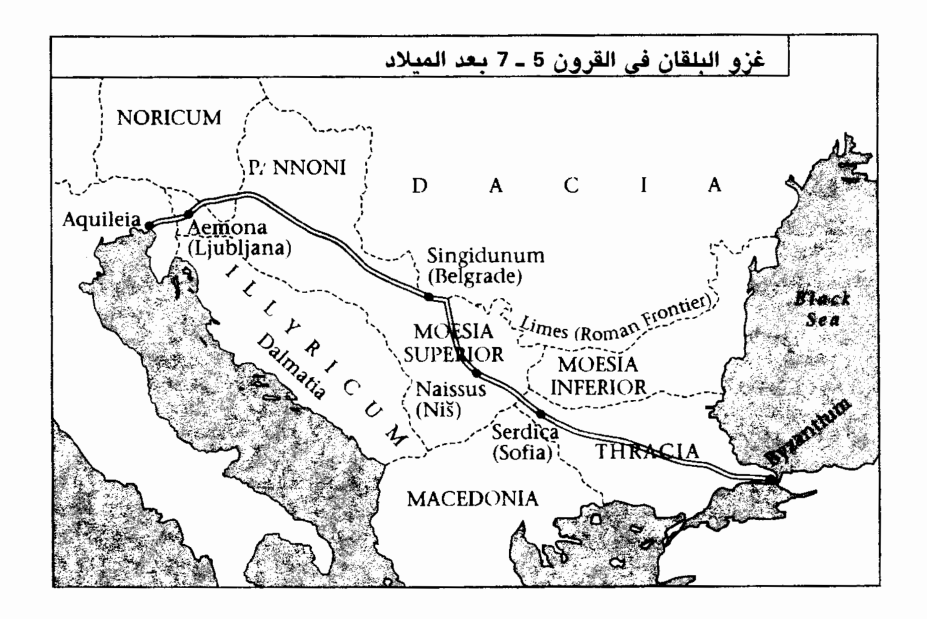
(*) وآخر مثال على ذلك تماماً سلالة مانشو، الذين حكموا الصين من العام 1644 إلى العام 1911، ولكن شعبهم الخاضع لهم امتصهم واستوعبهم بشكل كلي. ولغتهم الآن على حافة الانطفاء (انظر الفصل الرابع: 'اللغة من هوانغ - هي إلى يانغتسي'، ص 210).

(**) 'أيمان ستراسبورغ'، معاهدة بين لودفيغ الألماني وتشارل الأصلع. ومن المفارقة أنها لا تأتي إلا بعد إعادة حكومة واحدة عبر معظم أنحاء فرنسا وألمانيا وإيطاليا. (انظر الفصل الثامن، ص 444).

وبالإضافة إلى ضعف التقليد الدراسي والذاكرة، هناك قوتان دعمتا تفتت اللاتينية كلغة وحيدة. إحداهما أن اللاتينية في كافة أنحاء مجالها كان لها ناطقون يشغلون مناصب متميزة ومتنفذة، ولكن أولياء أمورهم قد نشؤوا وهم يتكلمون شيئاً آخر، هو لغة جرمانية في أغلب الأحيان. أما القوة الثانية فكانت تنبع من انهيار الإدارة المركزية المنهجية المنتظمة وصعود المجتمع الإقطاعي: فقد تم تنظيم الأفراد والأسر بشكل كبير في تراتب تسلسل هرمي شخصي، من الملك ومؤيديه النبلاء من البارونات نزولاً إلى صغار الملاّك، وعبيد الأرض. وكل حلقة في السلسلة مرتبطة بالولاءات الشخصية ومبايعة السيد الإقطاعي. وكان هذا يعني أن السلطات المحلية صارت متجهة إلى الداخل أكثر: وظل الناس مستقرين في أماكنهم على نحو متزايد، وعلى اتصال بجيرانهم فقط، فكانت النتيجة انقساماً أسرع للكلام الروماني إلى لهجات ولغات محلية.

الفجر السلافوني في البلقان

ولكن، من وجهة النظر اللغوية، فإن تأثير الانتشار الشعبي الألماني إلى الغرب كان صفراً. فقد كان شركاؤهم في الوقوع ضحايا للغارات من الشرق، وهم السلاف (الذين يسميهم تاسيتوس "الفينيتي") أفضل حظاً منهم بكثير. ففي منتصف القرن الخامس، تدفق الهون من خلالهم إلى ما وراءهم، ثم انسحبوا إلى البحر الأسود، تاركين الفينيتي وأقاربهم ينتقلون بشكل دائم إلى السهول الشرقية لبولندا التي أخلاها الفاندال واللومبارديون، من بين آخرين. أما التدفقات التالية من الآفار والبلغار فقد لقيت مقاومة ناجحة على وجه العموم من قبل الإمبراطورية الرومانية الشرقية. ولكنها عملت على إزاحة الألمان الباقين (من قبائل الجبيد Gepids، والأوستروقوط، واللومبارد) من المناطق الأبعد إلى الجنوب، مناطق الكارباثيان والبلقان، كما عملت على تغطية اندفاع السلاف إلى الجنوب. وفي القرن السادس، استولى السلاف على الطريق الشرياني من أكويليا على بحر الأدرياتيك إلى القسطنطنية، وهو الطريق الوحيد في الشرق الذي أبقى هذا الجزء من الإمبراطورية على صلة قوية بإيطاليا الناطقة باللاتينية. وبهذه الطريقة انتقلوا في آخر الأمر إلى المناطق البلقانية من



الإمبراطورية الرومانية، بما فيها اليونان نفسها ـ كما رأينا من قبل (انظر الفصل السادس: 'تلميحات عن التدهور'، ص 370). وفي ذلك المركز التقليدي من العالم المتحضر انتشر السلاف فامتصهم السكان واستوعبهم، ولكن أعدادهم النسبية على مبعدة إلى الشمال كانت غالبة أكثر من ذلك. وبحلول القرن السابع كان السلاف قد استولوا لغوياً على معظم أوروبا الشرقية، حيث هم باقون إلى اليوم(*).

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا رسّخت لغة الغزاة السلاف نفسها، بينما اختفت لغة الألمان إلى حد كبير؟ ولكن ليس هناك جواب واضح. فاللغة اللاتينية بقيت لأنها لغة الرومان على الأقل، وهذا يشير إلى أنه، كما حدث في أوروبا الغربية، تخلى الغزاة السلاف عن لغتهم في منطقة واجهوا فيها ثقافة أكثر تنظيماً. ولكن الجغرافيا لا تطابق ذلك، إذ إن دالماسيا وموسيا (أي يوغوسلافيا السابقة وبلغاريا) هما اللتان كانتا مقاطعتين في الإمبراطورية الرومانية على المدى الطويل بدون أي تحدٍ منذ أن غزا تراجان منطقة البلقان

(*) لقد أحدثوا استثناءً متأخراً بإفساحهم المجال للمجريين في القرن العاشر، وبذلك أوجدوا جيباً هنغارية في وسط أوروبا الوسطى السلافية.

كلها في العام 106 ـ 107 م. وقد تم التخلي عن داسيا (رومانيا الحديثة) لأسباب استراتيجية في العام 271، عندما سيطر الجبيد والفيزيقوط. وصحيح أن تراجان قام أول الأمر بتوطين المستعمرين في داسيا بشكل كثيف[47]. وكان هناك ناطقون باللغة الرومانسية باقون في الأجزاء العليا والدنيا من الساحل الدلماسي، حتى بداية القرن العشرين (وكان الإغريق يعرفونهم باسم "رومانوي"). ولكن يبدو أن التفسير هو أن السكان الناطقين باللاتينية قد زحفوا شمالاً من موسيا إلى داخل داسيا على مدى بضعة القرون التالية، وصار بدو الفلاتش الرحّل هؤلاء من ملامح المشهد في التخوم الشمالية للإمبراطورية حتى القرن الحادي عشر[48].

ومهما كان التاريخ المتداخل بين هذه الأحداث، فإن الثقافة الرومانية لمنطقة البلقان، التي كانت دائماً شيئاً يشبه موقعاً خارجياً، لم تكن على ما يبدو قوية. بما يكفي لإحيائها في ظل حكم الأسياد السلاف الجدد.

ضد الأخطار: مجيء الإنكليزية

وقد حدث شيء لعله شبيه بذلك على الطرف الآخر من الممتلكات الرومانية، لأن بريطانيا أيضاً فقدت لاتينيتها في وجه الغزوات في هذه الفترة. وفقدت لغتها البريطانية كذلك. وحادثة تبديل اللغة هذه، التي كانت أصل اللغة الإنكليزية أيضاً، لم يكن لها شبيه في عصرها ـ فهي المرة الواحدة والوحيدة التي استطاع فيها الغزاة الألمان أن يتمسكوا بلغتهم الخاصة بهم.

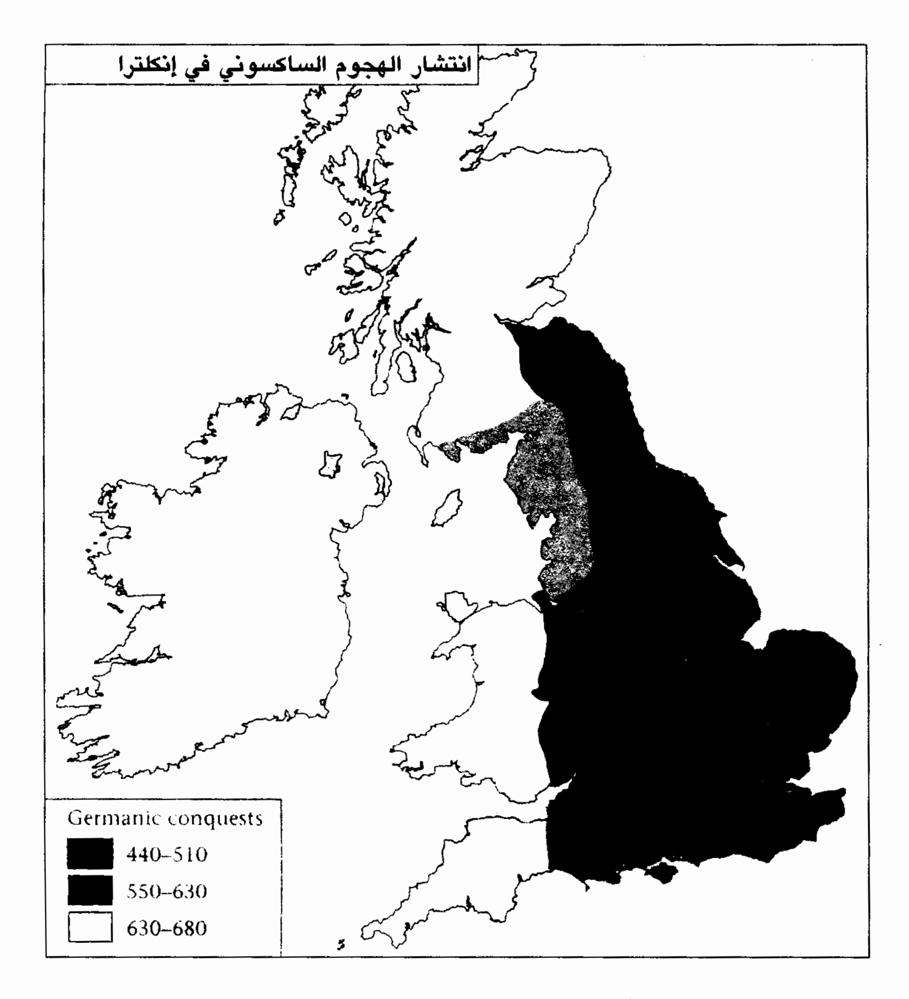
ويبدو لأول وهلة أن مصير بريطانيا كان ينبغي أن يكون مثل مصير بلاد الغال، أو إيبيريا، أو حتى إيطاليا. فالغزاة الألمان، الذين جاؤوا في هذه الحالة من ساحل أوروبا الشمالي الغربي، دخلوا مقاطعة مترنحة مضطربة من الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي. ولم يعودوا منها إلى وطنهم أبداً. وعلى ضوء تجربة أوروبا الغربية. فإن هذا كان ينبغي أن ينجم عنه اضطراب يستمر بضعة قرون قبل تأسيس مملكة مستقرة إلى حدٍ ما، أو سلسلة من الدويلات (إذا فشل التوحيد) ينتهي بها المطاف إلى تكلم تشكيلة من اللاتينية. والواقع أن ما حدث كان تقدماً وتوطناً تدريجياً للغزاة (الذين قد نصفهم بطريقة مفرطة

البساطة بأنهم الساكسون)(*)، من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، مع التسليم بأنها عملية لم تكتمل أبداً، ولكنها على الأقل شملت مناطق الأراضي المنخفضة إلى سلسلة جبال البناين ودارتمور عند نهاية القرن السادس، ومعظم إنكلترا الحديثة وجنوب شرق اسكتلندا عند نهاية القرن السابع. وبالتدريج، على مدى الفترة نفسها تناقص عدد الممالك الإقليمية إلى ثلاث، هي نوثمبريا، وميرسيا وويسكس.

ومن الناحية اللغوية، فإن المراحل الوسطى مبهمة، ولكن انتصار اللاتينية كلغة شعبية، بشكل شبيه بما كان يحدث على القارة دائماً، لم يكن يبدو حتى ممكناً على الإطلاق. فليس هناك أي إحساس باستيلاء الساكسون على المجتمع البريطاني، بل إنها هي القصة الكلاسيكية التقليدية لغزاة أجانب يقيمون رأس جسر بالتدريج، ثم ينتشرون منه إلى الخارج، ويبنون نظاماً جديداً وفق شروطهم، كما فعل المستعمرون الأوروبيون في العالم الجديد في الأمريكتين. وليست هناك سجلات باللغة البريطانية من هذه الفترة، ولكن السجلات الباقية باللاتينية (ولا سيما كتاب غلداس المعنون "تدمير البريطانيين" من حوالي العام 540، ومجموعة "مقتطفات نينيوس" حتى حوالي العام 800 م) ترسم صورة معادية للساكسون باعتبارهم مدمرين. وكان الساكسون الغربيون متعلمين من القرن التاسع بلغتهم الخاصة (وهي نفسها شيء غريب مثير للفضول من غزاة جرمان)، ورجال الشمال Norsemen بعد ذلك بقليل. ولا يظهر أي منهم اهتماماً يذكر بأسلافهم البريطانيين.

فكيف أمكن ذلك؟ فبعد كل شيء كان البريطانيون ورثة أربعمئة عام من

(*) هناك في الحقيقة نزاع ضمني في المصادر حول من كان هؤلاء الغزاة. كان من الواضح أنهم ناطقون بلهجة ألمانية دنيا، ولكن غلداس (وهو كلتي كان يكتب قبل العام 550 م) يسميهم الساكسون، (أو بصورة أدق أولئك الساكسون الشرسين ذوي الاسم الرديء الكريه عند الله والناس، 23-1)، أما بروكوبيوس (وهو يوناني - أقل انغماساً شخصياً في المسألة - وكان يكتب أيضاً قبل العام 550م.، ولعله استخدم معلومات من مبعوثين من الآنغل في مهمة فرانكية إلى بيزنطة) فيقول إنهم كانوا من الآنغل والفريسيين (الحرب القوطية، 20:4). وكان المحترم بيد، في تاريخه المنشور في العام 731، هو الذي سماهم الآنغل والساكسون والجوت (15:1). وقد جاء اسم الساكسون من سلاحهم المفضل، وهو الساكس، أي السكين. وكذلك اسم الفرانك من سلاحهم المفضل، وهو الفرانكا، أي الرمح. ولم يكونوا بين القبائل المعروفة عند تاسيتوس، ولكنهم كانوا يعيشون في المكان الذي يُحدّد فيه وجود قبائل التشاسي والتونغري، عند مصبي نهري ويزر والراين على التوالي.



الحضارة الرومانية، تماماً مثل أهالي الغال، وإن كانت لهم صفة مشهورة فهي بسالتهم الحربية. بل إن حكاماً من بريطانيا (ماكسيموس في العام 388، وقسطنطين في العام 407) كانوا قد قادوا مرتين قوات ناجحة إلى القارة في غضون الخمسين عاماً السابقة. ومع التسليم بأن الرومان كانوا قد سحبوا قواتهم الكبرى إلى إيطاليا، فأتيحت للساكسون فرصة إقامة رأس الجسر، فقد كان على البريطانيين أن يعيدوا تجمعهم في الأجيال التالية، في عمق تسعة أعشار بريطانيا التي ظلوا مسيطرين عليها، وبالاعتماد على خبرتهم إما أن يطردوا القادمين الجدد على أعقابهم، أو أن يفرضوا عليهم تسوية ما.

ولكننا نرى بدلاً من ذلك تراجعاً مطرداً، وانتشاراً غير متمازج عبر البلد من تشكيلات متنوعة من الألمانية الدنيا، والإنكليزية الأنغلية، والساكسونية، والفرنسية، وربما الجوتية. والواقع أن الشبه الوحيد لهذا الانتشار للغة الجرمانية هو ما حدث عندما واجه الغزاة الجرمان أرضاً بكراً، في جزر بحر الشمال وفي إيسلندا. فهناك بالطبع انتشرت لغة الفايكنغ الشمالية القديمة Old Norse لأنه لم يكن لها منافس. فهل ذاب البريطانيون وتلاشوا من الأراضي المنخفضة المتمدنة؟ ليست هناك حاجة إلى شيء أقل من ذلك لتفسير هذا الانتشار السهل والكامل لتلك اللغات الجرمانية ضمن بريطانيا، وقبل كل شيء اللغة الإنكليزية.

وتقول نظرية حديثة من ديفيد كيز إن البريطانيين ربما يكونون قد ذابوا فعلاً[49]. فقد كان منتصف القرن السادس (بالقرب من العام 550) هو الزمن الذي دخل فيه الطاعون الدمّلي من بريطانيا على طول الطرق التجارية من البحر الأبيض المتوسط. ومن المهم أنه قد أصاب بريطانيا (غرب الجزيرة ووسطها) وليس إنكلترا (الجنوب الشرقي)، لأن بريطانيا وحدها هي التي كانت تحافظ على روابط تجارية مع الإمبراطورية الرومانية. فكان احتمال انتشار الطاعون إلى الساكسون أقل لأنهم لم يتزاوجوا مع البريطانيين ولم يختلطوا بهم، وكانوا يعيشون خارج المدن الرومانية القائمة، فربما كانت كثافتهم أقل. فكان الطاعون متزامناً مع " الموت الأعظم"، الذي أصاب إيرلندا، حسبما جاء في "حوليات آلستر"، فدمر الأرستقراطية (وكل طبقة أخرى بلا شك). وقد مات بالطاعونأيضاً ميلغون، ملك غوينيد في ويلز، في العام 547 أو 549، حسبما جاء في "حوليات كامبريا". وقد بقيت ذكرى شعبية عن هذا المرض والتفريغ السكاني الذي سببه في أسطورة الأرض اليباب المرتبطة بالملك آرثر، جمعت بين المجاعة والهزيمة العسكرية، وجرح غامض أصاب الملك في أصل الفخذ ـ وهو من خصائص الطاعون الدملي.

بل إن هناك دليلاً وراثياً يؤكد ذلك بشكل لافت للنظر. فبمقارنة كروموسوم Y من حمض الدنا DNA الخاص بعيّنات في خط عابر من آنغلسي إلى فريزلاند، وجدت دراسة حديثة أن الويلزيين كانوا حتى يومنا هذا متميزين بوضوح عن الويلزيين في إنكلترا الوسطى، ولكن العينات الإنكليزية والفريزية

متشابهة إلى درجة أنها تشير إلى أصل مشترك لـ 50 ـ 100 بالمئة من السكان (الذكور)؛ وربما نتج ذلك عن هجرة جماعية كثيفة من فريزلاند[50]. وبموجب الافتراض المعتاد بأن عدد سكان الجزيرة في فترة الحكم الروماني قد وصل إلى 3 ـ 4 ملايين، يبدو أنه لا يمكن لأي شيء سوى الوباء أن يزيل البريطانيين إلى هذا الحد من أسلاف إنكلترا الوسطى.

وهكذا فإن الإنكليزية تعرضت لأحداث طارئة غير متوقعة. فلم تملك المناطق الشرقية والوسطى من الجزيرة لنفسها، بل دخلت إلى النظام قوة جديدة في أواخر القرن الثامن، هي مجموعة جديدة من الغزاة الألمان، من رجال الشمال، أي الفايكنغ من شبه جزيرة اسكندنافيا. فتقدموا من غارات ساحلية إلى الاستيطان في غرب اسكتلندا وشرق نورثمبريا، إلى تقاسم الجزيرة مع الساكسون بموجب معاهدة (في حوالي العام 886 م)، وأخيراً إلى غزو سافر مكشوف للمملكة كلها في العام 1013. وكان ذلك على يد سفين فوركبيرد، الذي خلفه ابنه كنوتر، المعروف أفضل باسم الملك كانوت.

وعلى عكس الانقسام البريطاني ـ الإنكليزي، فإن العلاقات بين الأنغلو ـ ساكسون والفايكنغ، وإن كانت عدائية في بادئ الأمر، قد أثبتت أنها متداخلة متخالطة على المدى الأطول. وإن إحدى الطرق لفهم ذلك هي النظر إلى الفايكنغ باعتبارهم غزاة جرمانيين تقليديين كلاسيكيين، مغيريين عسكريين، كسبوا معظم المعارك ولكنهم خسروا السلام، وذلك باستقرارهم ـ ربما مع زوجات إنكليزيات ـ وأخذهم إلى حد كبير بلغة رعاياهم، أو ضحاياهم. ومع ذلك، فبما أن اللغة التي استقروا عليها كانت من أقاربهم القريبين (ولو كان وراءها أكثر من عشرين جيلاً من التطور المستقل)، فقد كان هناك مجال سهل لثنائية اللغة ولدرجة من التفاهم المتبادل. فكانت النتيجة دفقاً وفيراً من الكلمات الشمالية التي استعارتها الإنكليزية، وتأثيراً كبيراً على قواعدها النحوية. وفي الإنكليزية الحديثة هناك حوالي سبعة بالمئة من المفردات الأساسية من أصول شمالية متميزة (بما في ذلك كلمات مثل *take*، *get*، *keep*، *leg*، *sky*، *skin*، *skirt*، أي على التوالي: خذ، احصل، احتفظ، ساق، سماء، جلد، تنورة)[51]، وهذا الخليط من اللغتين هو الذي

نشأت عنه بشكل شاذ وغريب وغير ذي صلة مجموعة ضمائر الشخص الثالث الغائب *(he)* هو، و*(it)* هي، و*(she)* هو أو هي لغير العاقل، و*(they)* هم(*).

وهكذا انتهت المرحلة المبكرة من الغزوات الأوروبية الغربية بتحول الألمان إلى الغرب بطريقة ذات منظور متعدد الأشكال والزوايا، وتحول السلاف إلى الجنوب. ولم يستطع الألمان أن يحتفظوا بلغتهم إلا عندما كانوا يغزون مناطق خالية إلى حد كبير أو خالية كلياً ـ مثل بريطانيا المدمرة بالطاعون، وإيسلندا غير المأهولة سابقاً. فإن غزواتهم في الأراضي الغربية الداخلية من الإمبراطورية الرومانية لم يكن لها أي تأثير لغوي جوهري. فقد بقيت اللاتينية قوية في غرب القارة وجنوبها، فالتأثيرات اللغوية للغزو الروماني هناك لم يتم إلغاؤها أبداً. أما السلاف فقد كان لهم تأثير أكبر بكثير حيث استقروا في البلقان، ربما لأنهم كانوا يغزون مناطق أقل تحضراً وبالتالي فهي أقل كثافة سكانية؛ ولكن السلاف أيضاً تم امتصاصهم أو حذفهم في مناطق الحضارة القديمة التي اجتاحوها، وهي أجزاء من اليونان والأناضول.

كان الأثر الطويل الأمد تقسيماً لغوياً لأوروبا ظل معروفاً مألوفاً منذ ذلك الحين: الرومانسية في الجنوب والغرب، والجرمانية في الشمال والوسط، والسلافية في معظم الشرق، واليونانية في أقصى الطرف الجنوبي الشرقي. وكان الحدث الرئيسي في القرن الخامس هو في الحقيقة تحول بريطانيا في الشمال الغربي من الرومانسية (أو ربما من الكلتية الباقية) إلى المنطقة الجرمانية، أي المجال الألماني. وكان لا يزال هناك تغيير كبير سيحدث في هذه الجزيرة: وهو انتشار الألمانية في المستقبل إلى آخر معقل كلتي حصين على مدى الألف عام التالية، تتخلله وتصحبه محاولة أخيرة للتأكيد على الرومانسية ضد الألمانية، والغزو النورماندي لإنكلترا. ولكن حكاية هذه الأحداث يجب أن تنتظر حتى نلتفت إلى نمو اللغة الإنكليزية نفسها.

(*) قارن هذه الضمائر في الإنكليزية القديمة *(hê, hit, hēo, hīe)* مع اللغة الشمالية القديمة *(hann, that, hon, their/thau/thoer)* باستخدام th الإنكليزية، بدلاً من þ الشمالية. إذ إن الاختلاط بين نظامين مختلفين من النهايات حفظتهما جيداً الإنكليزية القديمة والشمالية ربما يكون قد سبب انهيار إعراب الأسماء وحالاتها الصرفية.

8
الموت الأول للاتينية

التفلسف الخطابي يفهمه قليلون، ولكن كلام الرجل العادي يفهمه كثيرون.
غريغوري أسقف تورز، مقدمة للتاريخ الفرنسي (حوالي 575 م)[1]

إن تاريخ أوروبا الغربية عقب الغزوات الجرمانية هو حكاية كيفية تحول الممالك التي أسستها القبائل الغازية إلى أمم متمايزة. فقد اتسعت الفوارق بين اللهجات اللاتينية التي كان الناس يتكلمونها، وصار السفر الواسع النطاق أقل شيوعاً، بينما تدهور واضمحل نظام الطرق، وأصبح تطبيق النظام العام بعيداً عن المدن غير ممكن. فلم يعد هناك جيش روماني له تقليد عام مشترك، وقوات يمكن توقع نقلها إلى أي مكان. وحيثما بقيت معرفة القراءة والكتابة، في الكنيسة بشكل رئيسي، بقيت معها اللاتينية المكتوبة كذلك. ولكن هذا لم يكن كافياً للحفاظ على أي مستوى للغة المحكية. فقد اتسعت الفجوة بين اللغة المحكية والمكتوبة، ولكن دون أن يكون لدى الناس أي شعور بما كان يحدث في الحقيقة، وهو أن اللغة المحكية كانت آخذة في التغير. وشيئاً فشيئاً صارت التهجئة اللاتينية تبدو مضطربة ومنحرفة وغير منتظمة أكثر فأكثر: ولكن هذا الغموض كان مقبولاً، بل مرغوباً فيه، لأن القراءة والكتابة صارت حكراً على نخبة قليلة، أغلبها من المحامين ورجال الدين.

وهذه الحقبة، في النصف الثاني من الألف الميلادي الأول، تعطينا الدليل على ما يحدث للغة عالمية في التقليد الأوروبي الغربي المسيحي عندما تبدأ بفقدان تداولها، عندما يبدأ الناس، رغم استمرارهم في تكلمها، يفقدون رؤية

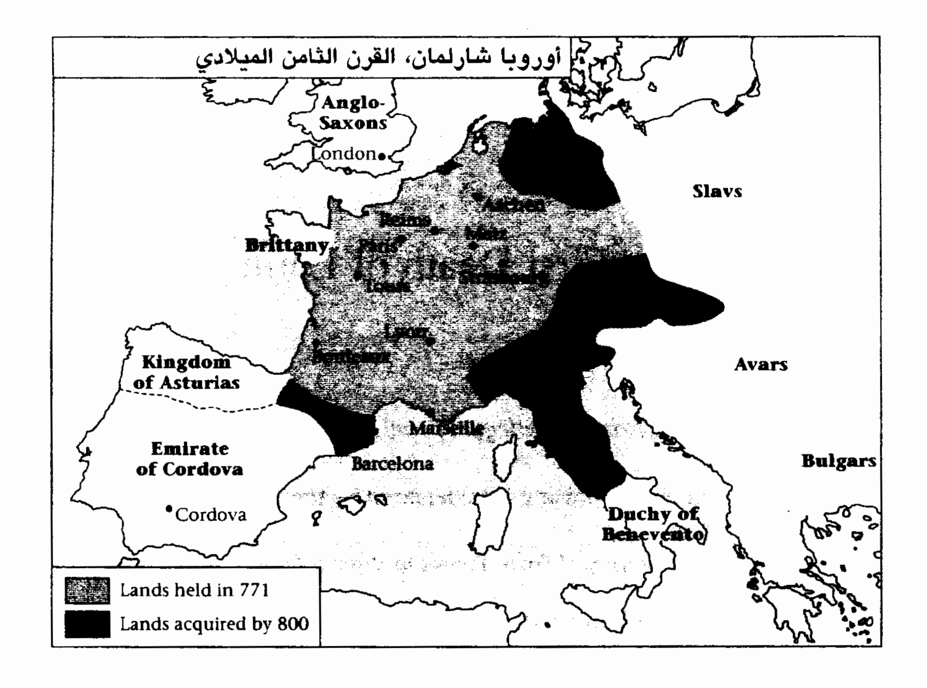
مجالها الواسع، ويعيشون قبل كل شيء في مجتمعاتهم المحلية. فبعد ثلاثمئة عام من اقتسام القوط والألمان لمناطق الإمبراطورية، صار من الصعب جداً على الناس في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا أن يفهم كل منهم كلام الآخر عندما يلتقون فعلاً. أما المتعلمون، وهم الواعون الوحيدون للمشكلة، فقد صاروا يسمّون الكلام العادي لأي شخص "إيديوما"، أي غريباً وشاذاً بالمقارنة مع عالمية الكلام الموصوف بأنه "غراماتيكا" أي الكلام الطبيعي المنتظم الذي كانت توصف به اللغة اللاتينية في العصور الوسطى(*).

ومن أوائل القرن الخامس إلى منتصف القرن الثامن، كانت السلطات تنتقل في أوروبا الغربية من جيل إلى جيل، مما سمح بترسيخ الفكرة القائلة بأن الممالك العالمية أو المواطنيات العالمية لا يمكن أبداً أن تكون من هذا العالم. ولكن منذ أواخر القرن الثامن، أخذت سلطات الملك الفرانكي تنمو بالتحالف مع البابوية. ولمدة قرن من الزمن اتحدت مناطق فرنسا، وألمانيا الغربية ومعظم إيطاليا. وكان الملك الفرانكي الذي ترأس ذروة هذا المجد هو شارلمان، الذي حكم من العام 768 إلى العام 814. وكانت تطلعاته ثقافية كما هي سياسية كذلك. وفي العام 781 دعا آلكوين، مدير المدرسة الكاتدرائية في يورك ليترأس أكاديمية جديدة للباحثين في عاصمته بمدينة آخن. فصارت ثمرة هذا الحشد الديني تعرف باسم النهضة الكارولينجية. وفي خلال هذه الدورة، وإلى جانب إصلاحات تعليمية كثيرة أخرى، أسس آلكوين معايير موحدة للتهجئة واللفظ في اللغة اللاتينية(**).

كان آلكوين، باعتباره ناطقاً بإنكليزية البلد الشمالي، يقترب من اللاتينية كلغة أجنبية ينبغي تعلمها من الكتب من البداية، وهو في ذلك ربما كان متفقاً مع أغلب الباحثين في آخن، الذين كان الكثيرون منهم من الشرق الناطق بالألمانية

(*) إن كلمة *idioma* استعارتها اللاتينية من اليونانية، وهي تعني الشذوذ أو الغرابة، أما كلمة *grammatica* فهي بالطبع اسم الموضوع المدرسي الذي كان الجميع يتعلمون به لغتهم اللاتينية.

(**) كان آلكوين هو الذي أسس الفرق المنهجي المنظم بين الحروف الكبيرة والصغيرة في النصوص الرومانية (مثل الفرق الموجود في الإنكليزية)، وقد استمر ذلك حتى يومنا هذا.



أوروبا شارلمان، القرن الثامن الميلادي

في إمبراطورية شارلمان. وقد نجح في تأسيس لفظ مشترك للاتينية، قريب مما نعتقد اليوم أنه هو 'اللفظ الحديث'، فكانت تلك محاولة ذكية لإعادة تركيب صوت اللغة حسب نموذج قديم أصيل وكما عنون عمله:

> فليقرأني كل من يرغب في متابعة صيغ الكلام القديمة؛
> ومن لا يتبعني فهو يرغب في التكلم بدون قانون(2) .

وقد انطوى ذلك على تحول عملي كان هو الأعظم بالنسبة للباحثين الناطقين باللغة الرومانية. فعند قراءتهم نصاً ما، صار عليهم أن يبتعدوا عن لفظهم التقليدي العامي الدارج للغة. فمثلاً كلمة *viridiārium*، أي 'بستان' لم تعد تلفظ *verger* كما كانت عندما كانوا يتكلمون بصورة طبيعية(3). وأدى التحول العملي في آخر الأمر إلى تحول مفهومي. وبالتدريج بدأوا يرون هذا الأسلوب المكتوب بطريقة مختلفة: فكلمة *grammatica* ليست هي فقط الطريقة الطبيعية بل والصحيحة الوحيدة للكتابة للناطقين بلغة الرومانس الغريبة الشاذة *idioma*؛ فعند إعطائها أسلوباً متميزاً للفظ فإنها ستكون لغة منفصلة، تماماً كما كانت بالنسبة

لمواطنيهم الناطقين بالألمانية (والباحثين الناطقين بالإنكليزية والإيرلندية عبر البحار).

وعندما أصبحت اللاتينية المكتوبة راسخة كلغة متميزة، وإن لم تكن أجنبية بعد، بدأت تظهر مناسبات فيها حاجة إلى كتابة شيء يسجل أصوات اللغة العامية المحكية تسجيلاً واضحاً وصريحاً. وكان أقدم مثال معروف لذلك هو ما سمي 'أيْمان ستراسبورغ' في العام 842، عندما اضطر الأخوان لودفيغ الألماني وتشارلس الأصلع، حفيدا شارلمان، إلى حلف يمين بأن يدعم كل منهما الآخر على مسمع من أتباعهما، ولكن في وضع معقد من كون جمهورهما يتكلم لغات مختلفة، ألمانية ورومانسية. وقد سجلت كلماتهما لنا بحرفيتها على يد نيتراد، وهو حفيد آخر لشارلمان[4]، وتقدم النسخة الرومانسية منها أول نص باق منها بالرومانسية وليس باللاتينية. ويبدو أن النصوص قد دونت قبل النطق بها. وكان من غير المعتاد تدوين أي شيء غير اللاتينية الفصحى وشرحه وتفسيره. ومن المفروض أن الغرض من ذلك كان إعطاء قصاصة نسخة لكل واحد من الأخوين[5]. وبالطبع كان بوسع أي ناطق بالرومانسية أن يقرأ علناً نصاً لاتينياً للناس العاديين بلفظ يمكنهم فهمه: فما عليه إلا أن ينطق بالكلمات العامية الدارجة التي يشير إليها أو يوحي بها النص اللاتيني. ولكن المسألة مختلفة جداً لو طلب من ناطق بالألمانية أن يفعل ذلك. وهكذا عُرِضَ على لودفيغ ما يعادل الملقن في القرن التاسع.

إن العبارات الأولى من النص التالي تظهر أن التكلم بالرومانسية لم يعد مسألة تغيير بضعة تفاصيل في اللغة اللاتينية، لأن ترجمته اللاتينية لن تكون شديدة القرب من النص الأصلي، وهو كما يلي:

> من أجل محبة الله والشعب المسيحي وخلاصنا المشترك، ومن هذا اليوم فصاعداً، وبقدر ما يعطيني الله من معرفة وقوة، فإنني سوف أحافظ على أخي بالمساعدة وبكل شيء كما يحافظ أي رجل على أخيه بحق....

إن هذه الحاجة إلى التنقّل بين اللغة المكتوبة واللغة المحكية هي المعضلة الكبرى التي تركتها إصلاحات آلكوين بلا حل. وكان قد قدم صيغة عامة محكية

ومكتوبة من اللاتينية من شأنها توحيد المتعلمين عبر المناطق المسيحية الغربية من دونيغال إلى دلماسيا. ولكن كلفة ذلك كانت هي أن المنتسبين العاديين إلى أبرشية رومانسية لم يعودوا قادرين على فهم قساوستهم أثناء طقوس العبادة في الكنيسة؛ وفي هذه الفترة، ومن أجل ضمان الصحة والاستقامة، صار من الضروري ليس فقط قراءة الطقوس، بل وتلاوة المواعظ أيضاً من نص لاتيني مكتوب، بدلاً من تقديمها بصورة مرتجلة. ونتيجة لذلك، ففي مجلس تورز في فرنسا الوسطى في العام 813، وكذلك في مجلس مينز في ألمانيا في العام 847، تم السماح باستثناء صريح لضمان استمرار الناس في الفهم. '... وعلى كل واحد أن يعمل على تحويل المواعظ نفسها إلى لغة رومانسية أو ألمانية بسيطة، لكي يفهم الجميع ما يقال بسهولة'[6].

إن المحافظة على الوثائق مدة ألف عام ما كان يمكن أن تتم بدون قصد متعمد. وهكذا فإنه ليس عجيباً أن لا توجد سجلات تذكر للغات العامية والدارجة عندما كانت كل السجلات الجدية لا تزال تحفظ باللغة اللاتينية. وهناك قائمة من مكان لحفظ الأجبان في دير إسباني يمكن إعادة تاريخها إلى أواخر القرن العاشر، وقد حفظت لأنها مخربشة على ظهر وثيقة تبرّع[7]. ولكن في القرون التاسع، والعاشر والحادي عشر، كانت النصوص اللفظية باللغات العامية الدارجة توجد في العادة على شكل نتف وقصاصات مدونة على الوثائق اللاتينية. فهناك تصريحات وبيانات حرفية بالإيطالية، مسجلة كما هي تحت القسم لإثبات ملكية أراض تعود إلى أديرة مونتي كاسّينو. وهناك ترويسة واضحة على لوحة جصية على جدار كنيسة سانت كليمنت في روما من أواخر القرن الحادي عشر توضح محاولة مشهورة ولكن فاشلة بدون جدوى لاضطهاد القديس كليمنت، عندما حدثت معجزة ضللت مهاجميه فظنوه عموداً، وقائدهم يصيح بهم:

يا أبناء العاهرات، اسحبوا! يا غوزماريو، ويا آلبرتلّو،
اسحبوا! وادفع إلى الخلف بالعصا، يا كارفونسيلو!

بينما يعلق القديس بلغة لاتينية (غير فصيحة في قواعدها) قائلاً:

إنكم تستحقون أن تسحبوا الصخور القاسية مثل قلوبكم.

ولم تصبح المكانة الحقيقية للغات 'الريفية' واضحة إلا بعد أن بدأت تظهر أعمال أدبية جدية باللهجات العامية الدارجة، فاقتحمت المجال الذي كانت تحتفظ به اللغة المكتوبة. وقد حدث هذا أولاً عند الطرف الآخر من العالم الناطق بالرومانسية، في النورماندي وإنكلترا، حيث بدأ النورمان يكتبون قصائد قصصية وأغنيات شعبية من النوع الذي كانوا يسمعونه من الشعراء المغنين. وكانت "أغنية رولاند"، من أواخر القرن الحادي عشر، أقدم هذه الأعمال وأفضلها، وهي تحكي قصة قتال المؤخرة البطولي الدفاعي ضد فاتحي الأندلس المغاربة في أيام شارلمان. وهي موقعة في سطرها الأخير:

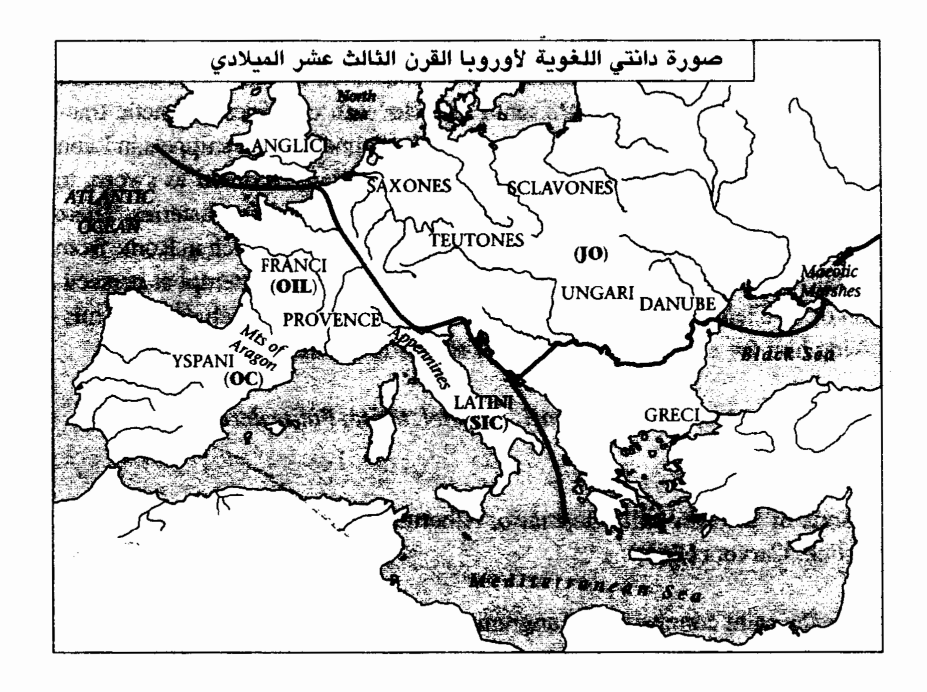
هنا تنتهي المغامرة التي أعاد سردها ترولدوس

ولا يبدو أن هناك سبباً يمنع من مطابقة اسم ترولد هذا مع شخصية مسماة بشكل خاص تظهر على سجّادة في بايويكس أثناء نقل رسالة إلى وليام الفاتح [الذي غزا إنكلترا في العام 1066م].

وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر بدأ الشعر باللغات الرومانسية يدون في جميع أنحاء أوروبا الغربية، في شمال فرنسا، وفي غاليسيا، وفي قشتالة وقطلونيا، وفي إيطاليا. وقد جاء هذا الاختراق في مناطق لم يكن فيها أبداً تمثيل قوي للغة اللاتينية. وكان هذا الشعر يحتفل بالحب العذري - والمعنى الحديث لكلمة رومانس "أي الخيال الحالم" ليس صدفة - وكذلك بالحكايات البطولية عن الفروسية والحرب. وكانت اللاتينية تدّخر بشكل متزايد باعتبارها لغة المتعلمين في الأديرة والمدارس والجامعات.

ولم يكن المُنظِّر الأول لهذه التطورات اللغوية الجديدة سوى الشاعر الإيطالي البارز دانتي أليغيري الذي عاش من العام 1265 إلى العام 1321. ففي كتابه "بلاغة اللغة العامية" اعترف بأن اللاتينية "الفصحى" هي في جوهرها الصيغة القديمة المحفوظة للغات الرومانسية(*).

(*) في كتاب (بلاغة اللغة السوقية، 1:8) يميز دانتي اليونانية عن اللغات الجرمانية، وعن اللغات الرومانسية كذلك. ومعياره هو أن (الكلمة التي معناها 'نعم -jo' بالألمانية) تميل إلى أن تقسم اللغات الرومانسية إلى ثلاث مجموعات على الأقل (oc, oil, si)، ولكنه يلاحظ أن فيها كمية كبيرة من المفردات



صورة دانتي اللغوية لأوروبا القرن الثالث عشر الميلادي

ويبدو أنه قد وجد صعوبة كبيرة في إقناع جمهوره بأن هذه الفوارق المتوارثة عن الأسلاف كانت هي النتيجة المتوقعة للتغير التدريجي في اللغة واللهجات، بقدر الصعوبة التي لقيها دارْوِن في موضوع وجدول زمني مختلفين بعد ذلك بخمسمئة عام.

ويجب أن لا يظهر أي شيء نقوله أغرب من رؤيتنا شاباً وقد نما دون أن نكون قد رأيناه وهو ينمو: لأننا لا نلاحظ الشيء الذي يتحرك بالتدريج أبداً. وكلما احتجنا إلى وقت أطول لملاحظة التغير في شيء ما زاد اعتقادنا بأنه مستقر لا يتغير. وهكذا فإننا لا نتعجب إذا كان رأي البشر، الذين ليسوا بعيدين كثيراً عن البهائم، هو أن مدينة معينة قد وجدت دائماً باللغة نفسها، ما دام التغير في اللغة في مدينة ما لا يحدث إلا بالتدريج وعلى مدى زمن متلاحق طويل جداً، كما أن حياة البشر، بطبيعتها نفسها،

المشتركة، لأنها كما يظهر تطلق الكلمات نفسها على أشياء كثيرة: مثل الله، السماء، الحب، البحر، الأرض، يكون، يحيا، يموت، يحب، وكل شيء آخر تقريباً. ومن المدهش أن دانتي يرى أن كلمة oc تدل على الرومانسية الأسبانية، وليس على لغة مقاطعة بروفانس في جنوب فرنسا (المعروفة على أي حال بلغة oc). فلعله قد تأثر بالشبه بين لغة بروفانس ولغة قطلونيا الإسبانية.

قصيرة جداً. ولذلك فإذا كانت اللغة على مدى حياة شعب واحد تتغير كما رأينا على نحو متلاحق مع الزمن، ولا تستطيع أن تقف ساكنة بأي حال من الأحوال، فلا بد أنها سوف تتغير بطرق مختلفة عما يبقى ثابتاً تماماً كما تتغير العادات والملابس بطرق مختلفة، لا تؤكدها الطبيعة ولا المجتمع، ولكنها طرق تنشأ حسب رغبات البشر والذوق المحلي. وقد كان هذا هو دافع مخترعي الفصحى، لأن الفصحى ليست سوى هوية الكلام غير القابلة للتغير مع تنوع الأزمنة والأمكنة[8].

وبالإضافة إلى هذا العمل المكتوب باللاتينية، ألف دانتي كتاباً آخر بالإيطالية، هو: "المأدبة"، وهو ليس قصيدة، بل عمل نثري يهدف إلى شرح أشعاره السابقة، ولكن أيضاً إلى تعليم الناس العاجزين عن قراءة اللاتينية في الوقت نفسه: 'كان يحركني الخوف من العار، وكانت تحركني الرغبة في تقديم تعليم لا يستطيع الآخرون تقديم مثله في الحقيقة'[9].

وكانت هذه بداية نهاية احتكار اللاتينية للمعلومات الثقافية الرفيعة. فمنذ ذلك الحين لم يعد هناك مجال للخطاب أو مهمة للكلام محجوز لها. فاللاتينية، لغة كتب القواعد النحوية، التي كان الناس ذات مرة يشعرون أنها خالدة، ولكنهم في ذلك الوقت أدركوا أنها مصطنعة، راحت تواجه منافسة متزايدة من لغات محكية صارت تدون بالكتابة. فبدأت اللاتينية تموت.

القسم الثالث

اللغات في البحر

ومن يعرف، في الوقت المناسب، أين يمكننا تصريف
كنز لساننا، وإلى أي شواطئ غريبة
سوف يرسل هذا الكسب لأفضل أمجادنا،
لإغناء الأمم غير العارفة بمخزوناتنا؟
وأي عوالم في الغرب الذي لم يتكوّن بعد
قد تصبح مصقولة بالنبرات التي لنا؟

من صاموئيل دانيال، موسوفيلوس (1599)

ديفيد: ما الأخبار؟ ألم تسمع
شيئاً عن مجيء أي سفينة؟
أبراهام: سمعت هدير مدفع، وهذه علامة قدوم سفن.
د: وأنا سمعت أن سفينة جاءت من غويزرات.
أ: وما البضاعة التي تجلبها؟
د: إنها محمّلة بالرز، واللوز، والزبيب، وهي تجلب أيضاً ملابس كثيرة من كل الأنواع، وكثيراً من الحلوى.
أ: هل الأمر كذلك؟ مؤكد أن هذه الأخبار مرغوبة كثيراً.
د: لقد سمعتها مؤكدة كحقيقة.

أوغسطين سبولدينغ

حوارات باللغتين الإنكليزية والملايوية، 1614، ص 1-2[1]

9
الموت الثاني للاتينية

إن اكتشاف الأوروبيين الغربيين بأن سفنهم قادرة على عبور المحيطات، وإيصالهم مباشرة إلى أراض نائية، سواء للتجارة أم للغزو الفوري والاستغلال، يفتح عهداً جديداً في التاريخ العالمي لانتشار اللغات. وفي أغلب الأحوال، فإن المجتمعات اللغوية في الأماكن التي قصدتها السفن الأوروبية أثبتت أنها عاجزة عن حشد مقاومة عسكرية أو سياسية فعالة للغزاة المغامرين. وعندما حدث هذا، كان الضحايا في أغلب الأحيان يهلكون بمعظمهم، ويرغمون دائماً على الخضوع لنخبة جديدة. فكان انتشار اللغة عن طريق سيطرة النخب الجديدة أكثر تغلغلاً من أي شيء شوهد من قبل. والنتيجة واضحة اليوم في حضور ست لغات استعمارية على قائمة أعلى اللغات العشر سكاناً في العالم(*).

وكما رأينا، فإن النصف الرومانسي من هذه اللغات كان مديناً بوجوده ذاته للتغيرات التي طرأت على الإمبراطورية الرومانية بعد أن أذابت الغزوات الجرمانية مناطقها الغربية. فتضاؤل التفاهم المتبادل، وإعادة تعريف اللاتينية أو الفصحى المنتظمة القواعد بحيث لم تعد هي الصيغة المكتوبة لهذه اللغات الرومانسية، بل صارت لغة منفصلة عنها، أدى إلى تطورها كأدوات لنوع جديد من المجتمعات.

(*) انظر الفصل 13. كانت اللغات الست هي الإنكليزية والأسبانية والروسية والبرتغالية والألمانية والفرنسية. وكانت لغة سابعة هي الهولندية، التي تحتل المرتبة 21 في مجموعات السكان. إن سيرة الحياة الاستعمارية لهذه اللغات تبحثها الفصول 10 و11 و12.

فكان هذا المجتمع أقل فكراً ولكنه في كثير من الأحيان ذو غنى ثقافي يعادل غنى الكنيسة، التي استمرت تعتمد على اللاتينية، محكية ومكتوبة.

ومع ذلك، فقبل أن تبدأ هذه اللغات تقدمها المتسارع حول العالم، حدث تطور هام أوجد حقبة تاريخية جديدة أكدت وعززت انتشار التعلّم ومعرفة القراءة والكتابة في أوروبا الغربية. ووسعت مدى التنافس بين اللاتينية واللغات العامية الدارجة، بما فيها اللغات الرومانسية، والرهانات الكبيرة الكثيفة التي وضعت على المحك في الصراع. فكانت النتيجة إسقاط اللاتينية عن عرشها كلغة مشتركة للغرب المسيحي: وبالتالي موتها، بعد أن ظلت ألفي عام لغة أي تواصل وإبداع حقيقيين.

وكان هذا التطور الهام هو نشوء سوق جملة كبيرة للكتب المطبوعة. ومثلما تعيد ثورة المعلومات تنظيم العالم في عصرنا هذا، فقد كان هذا التطور في جوهره هو التأثير الاقتصادي لانتشار تكنولوجيا جديدة. فقد طبع يوحنا غوتنبرغ نسخته من الإنجيل في مينز في العام 1450، وسرعان ما نشأت دور الطباعة في جميع أنحاء أوروبا. وبحلول العام 1475 كانت معظم الأعمال الكلاسيكية باللاتينية متاحة ومتوفرة على شكل كتب مطبوعة[(2)]. وعند مجيء العام 1500 كان قد تم إنتاج عشرين مليون مجلد، وقدرت بأنها تمثل ما معدله كتاب واحد لكل خمسة أشخاص في أوروبا الغربية[(3)].

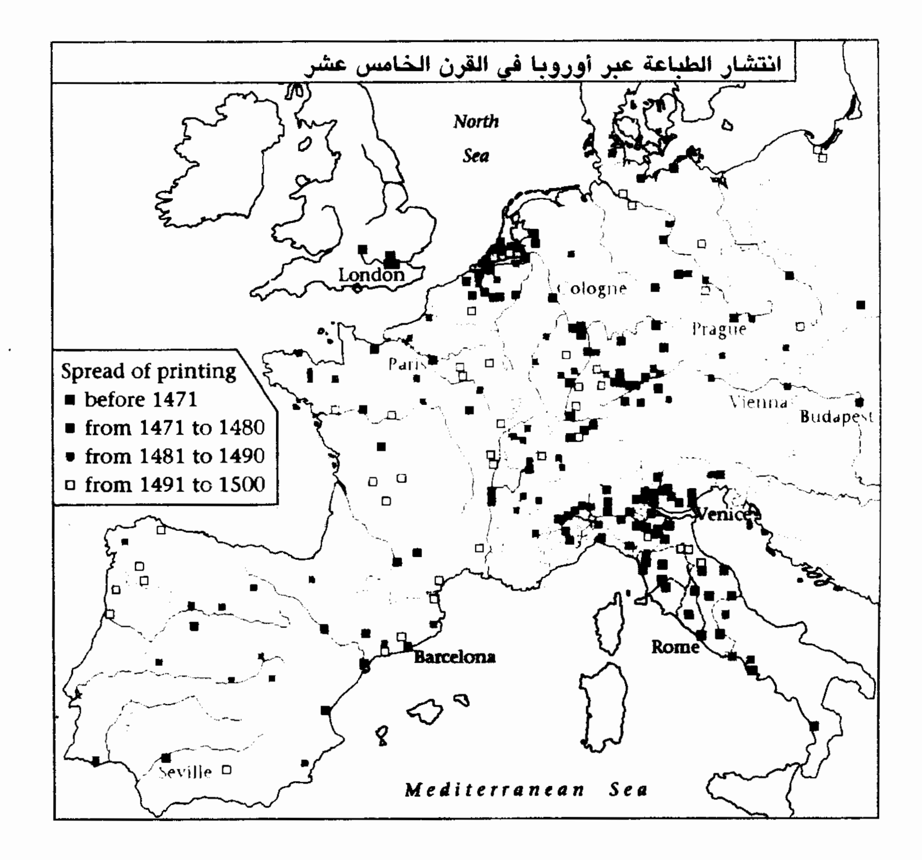
ويأتي بعد ذلك على الفور الإصلاح الديني، ونهوض الكنائس البروتستانتية المعارضة لمؤسسة البابا المسيحية المترسخة في روما. ولم يكن هذا صدفة بالطبع، ولكنه إشارة إلى أن الثورة الجديدة لطباعة الكتب قد فتحت الباب على مصراعيه للوصول إلى وسائل الاتصال الذي كان في السابق مغلقاً وتحت حراسة جيدة. وهكذا فإن أعمال لوثر، التي بدأت بطريقة مسرحية بالمقولات الخمس والتسعين التي علقها بالمسامير على باب كنيسة ويتنبرغ في العام 1517، طبعت ووزعت بترجمة ألمانية. وتبعت ذلك بسرعة ترجمته للكتاب المقدس بكامله (أي العهدين القديم والجديد). فكانت حصيلة دور الطباعة باللغة الألمانية في عشرينيات القرن السادس عشر وثلاثينياته ثلاثة أضعاف ما أنتجته في

العشرين عاماً التي سبقت ذلك. وشكلت أعمال لوثر ثلث كل المطبوعات الألمانية فيما بين العامين 1517 و1524[4].

فكان فيض المعلومات غير المصفّاة أكبر من اللازم بالنسبة لبعض الناس آنذاك. ففي العام 1535 أعلن ملك فرنسا فرنسوا الأول أن طبع أي كتب على الإطلاق جريمة عظمى عقوبتها الموت ـ ولكن ذلك الإعلان كان قصير المدة، وبلا جدوى ـ وبشكل أكثر حذراً أنشأ الفاتيكان "قائمة بالكتب الممنوعة"، وقد أطلق عليها هذا الاسم لأول مرة في العام 1559. ولكن الفيض المتدفق لم يكبح. فكان الأثر الهام هو أن قنوات الخطاب الطويل المدى والعالي المستوى كانت تتحول من النشر الشفوي في المحكمة والجامعة بواسطة الرسائل المخطوطة إلى التوزيع الكثيف بالجملة للنصوص المطبوعة. واحتفظت اللاتينية بسيطرتها باعتبارها أداة الاتصال العتيقة الطراز. ولكنها تحت وطأة الحجم المحض تراجعت أمام الوسيلة الجديدة آنذاك. فالكتب يمكن طبعها باللاتينية بشكل جيد كما في أي لغة أخرى. والكتب التي تم طبعها يمكن أن يتوقع المرء أنها ستحظى بتوزيع وتداول أوسع لأنها مكتوبة بلغة عالمية، ولكن اقتصاديات تجارة الكتب جعلت الكتب اللاتينية الكاسدة تباع بأسعار مخفّضة لإخلاء رفوفها للكتب المؤلفة باللغات العادية الدارجة التي تباع بكميات كبيرة وبالقرب من أماكن إنتاجها[5].

إن ما كان يحدث هو جانب واحد من جوانب سلطة الأمة ـ الدولة الآخذة بالتنامي في أوروبا الغربية، أي إزاحة نخبة فكرية دولية كانت تقدم أرضية مشتركة لحكومات الملوك المختلفة لتحل محلها طبقة بورجوازية أعلى صوتاً وأكبر نفوذاً وتأثيراً [وهي طبقة متوسطة مكونة على الأغلب من التجار سكان المدن] تسيطر على ممالكها المحلية وتجعلها تخدم أغراض التجار الدنيوية. وكان من الآثار اللغوية لذلك إحلال اللغات العامية الدارجة محل اللاتينية، ليس فقط من أجل أغراض محلية، ولكن حتى على مستوى آخر بحث دراسي.

وظلت اللاتينية، نظرياً، أداة متفوقة للخطاب الفكري ذي المستوى العالي: فهي كلغة كانت تملك مفردات تراكمت على مدى أكثر من ألفي عام في ميدان



الفكر والجدل والنزاع والمناظرة، وهي كمجتمع كانت تملك باعاً طويلاً لأن الباحثين من جميع أنحاء أوروبا الغربية كانوا معتادين على التكلم، والتفكير، والكتابة بها. وعلى عكس ذلك، كانت كل لغة دارجة مضطرة لبناء قوة تعادل قوة اللاتينية شيئاً فشيئاً، ومن قاعدة أصغر منها بكثير.

ولكن حيثما كانت هناك مشاغبات، أو سوق، فإن اللهجات المحلية الدارجة كانت تقف إلى جانبها القوة العددية، وقد أظهرت النزاعات والحروب الدينية في القرنين السادس عشر والسابع عشر أن القضايا الفكرية كانت قادرة على توليد ازدهار كبير ومفاجئ في المبيعات، وتوليد شغب واضطرابات، وحروب أهلية على نحو يعادل قدرة الخصومات أو الصراعات بين الأسر والسلالات على توليد هذه الأشياء. ولم يحدث إلا في القرن العشرين أن صارت وسائل الاتصال قادرة على

التغلغل والاختراق إلى عمق كاف لتمكين لغة عالمية من التنافس على الشارع بصورة فعالة مع اللهجات العامية الدارجة. ووجدت اللغة الإنكليزية الحديثة في الإذاعة الجواب على التهديد الذي شكلته طباعة الكتب بلاتينية العصور الوسطى.

وبالتدريج راحت الحياة الفكرية المدارة باللاتينية تبتعد وتتلاشى. واستغرق ذهابها حوالي قرن. وعندما نشر فرانسيس بيكون كتابه "تقدم التعليم" بالإنكليزية في العام 1605 أراده أن يترجم إلى اللاتينية 'كي يقرع جرساً ينادي العقول الأخرى معاً ... وكي يتم سماع ذلك الجرس إلى أبعد مدى ممكن'. ولم يخرج كتابه هذا باللاتينية في الحقيقة إلا في العام 1623، عندما أبدى ملاحظة: 'لأن هذه اللغات الحديثة سوف تؤدي في وقت أو آخر إلى إفلاس الكتب. وبما أنني قد خسرت كثيراً من الوقت مع هذا العمر، فإنني سأكون مسروراً لو سمح الله لي أن أعوض هذه الخسارة في ذريتي من الأجيال القادمة'.

وكان آخر عمل فكري كبير ينشر باللاتينية في إنكلترا هو كتاب نيوتن "الفلسفة الطبيعية لمبادئ الرياضيات"، في العام 1687. ومنذ ذلك الحين صار العلم عموماً مضطراً لأن يدار على نحو أقل مناسبة ولياقة بتشكيلة متنوعة من اللغات. وهذا هو الثمن الذي دفعه العالم الحديث لإبقاء العلماء والمفكرين على تماس أوثق مع المجتمع عموماً(*).

وكان هذا الموت الثاني للاتينية أعمق من موتها الأول. فلم يكن الأمر شبيهاً بالحركات العامية الدارجة قبل ذلك بخمسمئة عام، عندما كانت اللاتينية قد فقدت لتوها استخدامها كقناع مكتوب للغات الرومانسية. فقد راحت اللغات تبتعد عن اللاتينية وتتحرك منفصلة عن بعضها بعضاً في طريقة اللفظ وفي التركيب. فكانت محاولة الوصول بصياغة مكتوبة عن طريق غطاء لاتيني عملاً شاقاً، وبلا فائدة على نحو متزايد. ولكن حتى عندما تراجعت اللاتينية وأفسحت المجال

(*) قارن مع ألكوين الذي كان يروّج لمستواه القياسي الجديد من اللاتينية في القرن التاسع، ويعمل في الاتجاه المعاكس تماماً: لأن المهمة الهامة عندئذٍ كانت هي إعادة اتصال العالم الفكري مع نفسه، ومع تقاليده القديمة ذاتها.

للأدب باللهجات المحلية الدارجة، فإنها حافظت على استعمال هام: فقد ظلت أداة الخطاب الفكرية التي تذهب إلى أبعد من المواضيع الشعبية التي كان يتم إنتاجها (وتقديرها) باللغات الرومانسية. وعندئذ توقف استخدام اللاتينية في أي تفكير جديد على الإطلاق.

وتظهر معلومات مفيدة من مقارنة المراحل النهائية لحياة اللاتينية مع مراحل حياة زميلاتها من اللغات الكلاسيكية التقليدية، اليونانية والصينية والسنسكريتية. فبعد كل شيء، تمثل كل واحدة من هذه اللغات الأهداف اللغوية المتكاملة لمنطقة واسعة بما يكفي للانقسام إلى عدد من التنويعات الشعبية. ولكن اللاتينية وحدها هي التي انتهى بها الأمر إلى أن تحل محلها مجموعة من بناتها من اللغات.

فاللغة اليونانية لم تغرس أبداً جذوراً عميقة في المناطق التي انتشرت إليها، وعندما تعرضت هذه المناطق لغزو من الآخرين بحيث توقفت اليونانية عن كونها النخبة المسيطرة، فإنها قد ضاعت في هذه المناطق. وكانت النتيجة أن اللغة اليونانية انتهى بها الأمر إلى الانحصار في منطقة صغيرة نسبياً، وفي أغلب الأحيان تحت حكومة وحيدة مستبدة. وعندما تناقصت سلطة الحكومة ثم لم تعد موجودة بعد اللاتينية، وخصوصاً الغزوات التركية، ضعفت المبادئ والمعايير التقليدية الكلاسيكية التي كانت تبقي اللغة موحدة. ولكن عندما أعيدت الحكومة المتكاملة، أثبتت أن من الممكن تدريجياً الانتقال إلى مستوى قياسي وحيد جديد للغة بكاملها ككل.

وقد احتفظت اللغة الصينية بدورها كبؤرة سياسية وفكرية عالية المستوى لكل المجتمعات التي تتكلم لهجات تتصل بها (أو هي بناتها اللغوية). وعلى عكس اليونانية، فإن الصينية فقدت وحدتها اللغوية في جميع أنحاء مقاطعاتها الجنوبية الشرقية. ولكن الوحدة السياسية ظلت متماسكة عموماً. وإن عدم الوضوح اللفظي في نظام كتابتها إلى حد ما قد أتاح لها أن تتجاهل الفوارق التي أخذت تظهر بين جوهرها القياسي وبين تلك اللهجات. وهذا الغموض نفسه قد مكّن اللغة الصينية في القرن الماضي من تحويل معيارها من نموذج وينيان

الكلاسيكي إلى نموذج بيهوا البيجينغي دون أن تخسر ولاء المجموعة الكاملة من المجتمعات الناطقة بالصينية. وإذن، فإن نظام الكتابة بالرموز الممثلة للكلمات قد مكّن اللغة الصينية من النجاة من 'الموت الأول'، ودون أن تمنع بناتها اللغويات من الابتعاد والافتراق عنها.

وأما السنسكريتية فإنها مثل اللاتينية، نشأ عنها عدد من بناتها اللغويات (وكانت مرتبطة بها بشكل وثيق)؛ وهذا يشير إلى خاصية مشتركة بين تاريخها وتاريخ اللاتينية، وهي تحطم الوحدة السياسية في منطقة النطق بها لزمن طويل. وكما في حالة اللغة اللاتينية، فإن ذلك أدى إلى قيام البنات اللغوية بترسيخ نفسها كلغات أدبية مستقلة للموضوعات الشعبية. ولكن السنسكريتية احتفظت بدورها طويلاً كمركز فكري عالي المستوى، ولم يحل محلها أي شيء أبداً باعتبارها الأداة الدينية المركزية لغالبية الهنود.

إن الحكاية التالية في هذا التاريخ هي حكاية الانتشار الاستثنائي الكبير لبنات اللغة اللاتينية؛ وسوف ننتقل إليها حالاً. فهذه بعد كل شيء هي قصة مجتمع التكلم باللاتينية. ومع ذلك، فإن اللاتينية كلغة حية وجدت قناعاً جديداً تختفي وراءه.

فمن القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر كانت أوروبا الغربية قد استنارت عن طريق معرفة جديدة ومباشرة أكثر باللغة اليونانية القديمة واللاتينية، بمساعدة دفق من الباحثين البيزنطيين بعد سقوط القسطنطنية وإمبراطوريتها. ولأول مرة في ألف عام بدأ الغربيون يملكون معرفة بقراءة اليونانية، وبدأوا يتذوقون المذاهب الأسلوبية المرتبطة باللهجة الأتيكية الإغريقية (انظر الفصل السادس: 'أزمة منتصف العمر: محاولة بداية جديدة'، ص 360). وربما بسبب التناقض، وربما بسبب طبيعة الوعي بالذات في الدراسات الكلاسيكية، فقد بدأ كثير من الباحثين يطوّرون عجرفة لغوية حول معرفتهم باللاتينية، ويريدون العودة إلى أقدم المصادر. فلم يعد يكفيهم إلا أعمال شيشرون. ولكن هذه العدوى لم تصب جميع الباحثين في القضايا الإنسانية: ولا سيما إيرازموس، وهو دارس للعصور الكلاسيكية ذكي كان يكتب في أوائل القرن

السادس عشر. فقد كتب مقالة "حوار شيشروني" للسخرية من التطلع، متصوراً شخصية أسماها نوسوبونس، أي 'العمل مع معاناة المرض'. وقد أجهد نفسه في التعرف على صيغ تصاريف كل من الأفعال الموجودة في أعمال شيشرون، وأيها لم تكن أفعالاً متصرفة (وهذا هو الأهم). وبالنسبة لرجل كهذا، فحتى أحلامه كانت مقتصرة على شيشرون. وقد علق الشاهد الساذج هيبولوغوس بأنه كان يبدو كشبح أكثر منه رجلاً.

وعندما رسخ هذا النوع من الإخلاص للتفاصيل نفسه كشيء محترم، صار من الممكن اعتبار أسلوب التعبير أهم بكثير من المحتوى، واعتبار معرفة ما قيل متفوقة بكثير على القدرة على التجديد والسعي للتقدم. وهكذا فمثلما كان أعلى تطلع للباحثين في اليونانية في الغرب هو قراءة النصوص (وربما كتابة مقطع يحاكيها - ولكن بأسلوب كلاسيكي فقط)، صار الناس يفكرون أنهم يحافظون على قيمة اللغة اللاتينية إذا أصبحوا خبراء في اللغة وأدبها القديم الموجود، ومن أجل أنفسهم فقط. وصارت الاستعمالات الأساسية الأولية للغة، والتفكير، والإحساس، والتعبير عن الأفكار وإيصالها، أشياء خاضعة فقط لهذه 'الدراسة الكلاسيكية' المتخصصة(*).

وكان من الأفضل أن يقبل الدارسون المختصون باللاتينية حكم الإذعان المستسلم الذي أطلقه أحد شعرائهم المفضلين:

(*) هذه الروح من النظر إلى الوراء لا تزال مألوفة عندي من أيام دراستي في المجرى الكلاسيكي في مدرسة إنكليزية عامة في ستينيات القرن العشرين. وهناك تعبير عنها في ألف مقدمة لنصوص كتب مدرسية مقررة. وتأمل ما يلي من كتاب ألفه إينغر ووينتل (1890، الطبعة السابعة عشرة، 1963، ص 3): 'إن تأليف الشعر اللاتيني.... هو البرهان على زهرة ذلك البحث الدراسي الذي يحب الكتاب القدامى حباً بلا أنانية، ويستمتع بكسوة الأفكار والتعابير الحديثة بلباس الأوزان والإيقاعات الموسيقية القديمة'. أو تأمل كلام بيم وسيلفر (1952)، اللذين يقولان إن فصلاً 'يوضح استمرار حيوية اللغة اللاتينية في إنكلترا أثناء القرنين الأخيرين'، رغم أن كل محتويات ذلك الفصل هي كلمات رثاء قصيرة، وخطابان في البرلمان (بالإنكليزية) فيهما إشارات إلى الأدب اللاتيني، وقسم من منشور بابويّ عام، وقصيدة نعترف أن فيها (ذكاء وحضور بديهة) حول أزمة الوقود في العام 1947، وعدد من مواضيع التنكيت الإنشائية لمسابقات الحصول على جوائز في المدارس وفي جامعة أكسفورد. بل إن عنوان الكتاب نفسه: "حية على السنة الناس" هو كذبة فيها مفارقة كبرى، لأنه مجرد ترجمة لعبارة من مرثية ألفها إينيوس الذي مات في القرن الثاني قبل الميلاد.

الشموس يمكن أن تغيب، ويمكن أن تعود ثانية
وبالنسبة لنا فعندما يغيب الضوء القصير
هناك ليل واحد دائم للنوم

كاتولوس

10

مغتصبو العظمة:
الإسبانية في العالم الجديد

عندما أتأمل جيداً، أيها الملكة الشديدة اللمعان، وأضع نصب عيني قِدَمَ جميع الأشياء الباقية المدونة لسجلنا وذاكرتنا، فإنني أجد شيئاً واحداً واستنتج بكل تأكيد أن اللغة كانت دائماً مرافقة للإمبراطورية، وكانت تتبعها بحيث أنهما بدأتا، ونمتا، وازدهرتا معاً، وكان سقوطهما بعد ذلك معاً.

أنطونيو دي نبريجا، الكلمات الافتتاحية لمقدمة كتابه "قواعد اللغة القشتالية"، 1492

صورة فاتح

إن بدايات الانتشار العالمي للغات الأوروبية جاءت بالضبط عندما كان أصحاب المطابع والناشرون يؤكدون وجود اللهجات العامية الدارجة، الإسبانية، والبرتغالية، والفرنسية، والإيطالية، والإنكليزية، والهولندية، والألمانية، على جثة اللغة اللاتينية التي كانت حياتها آخذة بالاستنزاف بالتدريج. فكانت اللغات التي انتشرت هي لغات الدول التي خلفت الإمبراطورية الرومانية الغربية، وهكذا فإن نخبها المثقفة لم تكن غريبة عن الهدف، ولا عن الخيال الحالم حقاً للإمبراطوريات الواسعة المتعددة الجنسيات. فقد نشأت تلك الدول على تواريخ روما والإسكندر، وكانت تملأ خيالات شعوبها بحكايات الفروسية، والغزو والمغامرة في أراضٍ غريبة، حكايات آماديس من بلاد الغال (بطل القصة الخيالية الشعبية من القرن الخامس

عشر، التي نشرت في سرقسطة في العام 1508)، وولده إسبلانديان (1510)، وآخرين كثيرين(*). وكان التاريخ على وشك تحقيق أحلامهم.

وكان البلد الذي سيؤدي الدور القيادي في غزو الدنيا الجديدة واستعمارها يشعر بأنه يدخل عصره الذهبي. فقد تم حل مشكلة قرن من المكائد والمؤامرات غير المؤكدة عن طريق التوحيد السلمي للمملكتين الإسبانيتين المتنافستين، قشتالة في الشمال والوسط، وآراغون في الشرق: وكانت قشتالة قد وقعت في يد إيزابيلا في العام 1474، وآراغون في يد فرناندو في العام 1479؛ فتزوج الاثنان ورضي عنهما البابا بحيث منحهما لقب "العاهلين الكاثوليكيين"، وقدر لهما أن يحكما معاً لمدة خمسة وعشرين عاماً أخرى، أكملا خلالها الغزو المسيحي لإسبانيا. فسقطت في أيديهما غرناطة، آخر مملكة إسلامية في الأندلس، في اليوم الثاني من بدء العام 1492، ولكن الحرب التي استمرت عشر سنوات كانت قد استنزفت الخزينة الإسبانية إلى أقصى حد لها.

ومن الناحية اللغوية، كانت إسبانيا تحالفاً من ثلاث لغات رومانسية كبرى هي الغاليسية في الغرب، والقشتالية في الوسط، والقطلانية في الشرق(**). والقطلانية كلغة كانت أكثر شبهاً بالأوسيتانية، أو البروفنسالية كما هي محكية في فرنسا الجنوبية. ومن الممكن رؤية جزء من أصول اللغات الإسبانية الثلاث في المجموعات الجرمانية المختلفة التي سيطرت على إيبيريا في القرن الخامس، وهم السويفي في الشمال الغربي، والفيزيقوط في الوسط والجنوب(***)، وعلى أية حال فإن قشتالة قد رسخت نفسها كأقوى دولة في المنطقة، بعد أن امتصت

(*) كانت هذه الخيالات نمواً متكيفاً ناجماً عن الأغاني البطولية للرومانسية المبكرة قبل ذلك بثلاثة قرون، مثل "أغنية رولاند"، بالفرنسية النورمانية وقصيدة "السيد" بالإسبانية القشتالية. وكثير من العناوين الأحدث مدرجة في الفصل السادس من قصة سرفانتس: "دون كيشوت من دي لامانكا" (المطبوع نصفها في العام 1605) حيث يكون معظمها محضراً للإحراق. وكان الحماس لقصة الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة جزءاً من الظاهرة الأوروبية نفسها. فقصة "موت آرثر" لمؤلفها السير توماس مالوري نشرها وليام كاكستون في وسيمنستر في العام 1485.

(**) من الناحية اللغوية، كانت الغاليسية (ولا تزال) تشبه البرتغالية، فلا يفصلها عنها سوى مجرى نهر مينهو، والحقيقة السياسية لكون البرتغال قد استقلت عن قشتالة في العام 1143.

(***) هناك مجموعة ثالثة (غير جرمانية) هم الآلانيون، ذهبوا إلى الجنوب الغربي، وليس إلى الشرق،

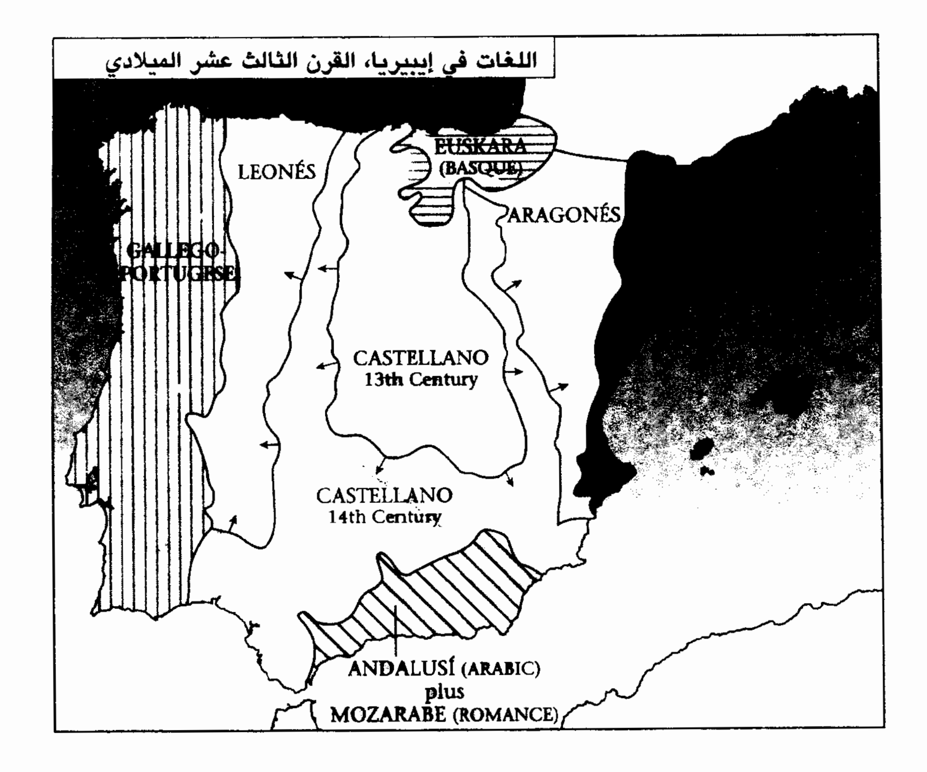
المملكة الغربية (المحكومة من ليون) في العام 1230. وفي موازاة ذلك كانت آراغون قد سيطرت على الغرب واتحدت على قدم المساواة مع قطلونية في العام 1140.

وكانت النتيجة اللغوية لاتحاد قشتالة وأراغون، مع كون أراغون هي الشريك الأصغر، هي جعل اللغة القشتالية المعيار الموحد لإسبانيا كلها، وقبل ازدهار الأدب بالضبط في أوائل القرن السابع عشر. وعندما حلت القشتالية محل المسلمين المغاربة في تخوم الأندلس الجنوبية، أعادوا توطين الناطقين بهذه القشتالية في جنوب إسبانيا. وبالتالي فرغم احتفاظ الغاليسية والقطلانية باستقلالها واستمرار امتلاك كل منهما للتقاليد الأدبية الخاصة بها، فقد أصبحت "القشتالية" مرادفة 'للغة الإسبانية' كما هي اليوم.

وقد أكد النهج الإسباني في المسيحية على السلطة العالية المستوى كضمانة لاستقامة العقيدة وصحتها، وقاد العالم المسيحي كله في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لمتابعة هذه العقيدة بقوة. فتأسست محاكم التفتيش في العام 1480. وفي العام 1492 اتخذ الإجراء الاستثنائي بطرد جميع اليهود من المملكة. ثم في العام 1502 تم تحريم كل ممارسة للعقيدة الإسلامية بشكل مفاجئ، رغم أن تلك الممارسة كانت مضمونة في شروط استسلام المسلمين بغرناطة قبل ذلك بعشرة أعوام. فقد كان هناك شعور في الدوائر الإسبانية الحاكمة بأن الحقيقة غير موجودة إلا في التقليد المتوارث؛ وبالمثل فقد كان الهدف السياسي هو وحدة الغرض الكلية بين البابا والملك، بين الكنيسة والدولة.

وقُدِّر لهذا أن يترك بعض الآثار الغريبة على السياسة اللغوية في الأمريكتين. فقد كان التفكير الحر يعتبر خبيثاً ومؤذياً، بل ومعدياً. وكان من

حتى ولو كان الأصل اللغوي الشعبي للقطلانية هو 'القوطية - الآلانية'. فقد ترك الفاندال اسمهم في الأندلس، ولكنهم عبروا إلى تونس، فتمت إزاحتهم من هناك بواسطة الغزو الإسلامي الذي أعقب ذلك.



عواقب ذلك عندما صارت إسبانيا مسؤولة عن التعليم في الأمريكتين أنها فضلت أن يتعلم الطلبة من أبناء الأهالي الأصليين اللاتينية بدلاً من القشتالية: لأن الأدب المحلي الدارج لم يكن ممكناً ضمان خلوّه من التأثيرات المضللة أو الخداعة. ولكن عند نشر الحضارة الإسبانية بين الناطقين بلغات أجنبية سيصبح واضحاً أن الأولويات اللغوية لما هو دنيوي ولما هو مقدس سوف تفترق. فلم يكن هناك شيء يضاهي القوة الرمزية للغة الإسبانية للدلالة على الإمبراطورية ـ ولكنها كانت أسهل وأسرع وأكثر موثوقية لنشر الفهم، وبالتالي العقيدة، في واحدة من اللغات الأهلية المحلية.

وقد تكون العقيدة والحكومة شيئاً، ولكن الحصول على الثروة شيء آخر. وهنا كان يوجد مجال للابتكار. بل إن الابتعاد الجديد الذي سمحت به قشتالة كانت له عواقب بعيدة المدى تجاوزت حتى أغرب الأحلام الخيالية للقرن الخامس عشر. وكان البرتغاليون يقومون بالاستكشاف في الجنوب والشرق في هذه

الفترة للعثور على طريق حول إفريقيا إلى الهند وجزر التوابل. فقد طافوا حول رأس الرجاء الصالح في العام 1488 وقدر لهم أن يصلوا إلى الشرق الخرافي في حملات لاحقة، إلى الهند في العام 1499 وإلى ملقة في العام 1511، وإلى غوانغجو (كانتون) في العام 1514. ولكن في تلك السنة الأساسية 1492، قدم المغامر الجنوي كريستوفر كولومبوس للإسبان عرضاً بالذهاب في طريق محفوف بالمخاطر إلى مقاصدهم هذه نفسها بالسفر باتجاه الغرب تماماً. فأيدته الملكة إيزابيلا. فكانت النتيجة شيئاً مختلفاً تماماً عما كان مأمولاً. إذْ لم تكن باباً اقتصادياً خلفياً إلى الشرق، بل مجموعة جديدة من العوالم لغزوها، وبالتالي جائزة أغنى بكثير.

إمبراطورية لم يسبق لها مثيل

كاليبان لبروسبيرو:

لقد علمتني اللغة، وما ربحته منها هو
أنني أعرف كيف ألعن: فليأخذك الطاعون الأحمر،
لأنك علمتني لغتك!

شكسبير، العاصفة (1611) 1 ـ 2 ـ 1: 1 ـ 321

مما هو جدير بالملاحظة أن الهنود الحمر في بيرو قبل مجيئنا نحن المسيحيين إليهم، كانت لديهم أساليب معينة خاصة باللعن، متميزة عن أساليبنا. فلم تكن لديهم أيمان توكيدية، مثل 'والله' أو 'بحق السماء' بل شجب أو لعنات فقط، مثل: 'إذا لم أكن صادقاً، فلتقتلني الشمس'. وذات مرة، عندما سألت رئيس القبيلة في مقاطعة معينة إن كان مسيحياً، قال: 'إنني لست كذلك بعد، ولكنني قمت بإجراء بداية'. وسألته عما يعرفه عن كون المرء مسيحياً، قال: 'أعرف كيف أحلف بالله، وألعب الورق قليلاً، وقد بدأت أسرق'.

فراي دومنغو سانتو توماس

فن اللغة العام ... في بيرو (1560)، الفصل 23.

كان انتشار اللغة الإسبانية في الأمريكتين أول نتيجة لغوية لتطور جديد كلياً في

التاريخ الإنساني المسجل. فقد اكتشف الإسبان والبرتغاليون في أواخر القرن الخامس عشر، أن تكنولوجيا جديدة، هي السفن التي تبحر في المحيط، بقوة الأشرعة، وتقودها البوصلة المغناطيسية، ومعرفة متطورة بالرياح السائدة، يمكنها أن تعطيهم وصولاً مباشراً إلى أجزاء نائية من العالم. ورغم أن هذا قد جاء كمفاجأة لهذه الأمم الملاحية، فإن الصدمة كانت أقسى وأعظم على الناس الذين يعيشون في تلك الأجزاء التي اقتحموها بشكل متفجر. فعلى الفور خسر عرب المحيط الهندي احتكارهم للتجارة مع الهند والصين، أما الهنود والصينيون وكل الذين بينهم فقد واجهوا تهديداً عسكرياً جديداً من الأوروبيين الجشعين السلاّبين. ولكن بالنسبة لسكان الامريكتين الذين لم يكن لديهم تقليد ملاحة بحرية، وكانوا معزولين آلاف السنين عن أي أخطار من اتصالات من مسافات بعيدة، فقد كانت الصدمة في العادة مميتة.

ولقد سُجِّلت مفاجأة الاقتحام الإسباني للعالم الجديد بطرق كثيرة. فعدم الفهم الإسباني يمكن رؤيته من التسميات المغلوطة دائماً لرعاياهم الجدد، الذين دعاهم كريستوف كولومبوس 'الهنود'(*). ويمكن رؤيته أيضاً من افتراض كولومبوس، الذي تابعه فيه كثير من مؤرخي الأخبار، أن سكان جزر البحر الكاريبي المعادين هم بوضوح من آكلة بني جنسهم *cannibals* (وهذا اصطلاح صار بالنتيجة مرادفاً 'لآكلة لحوم البشر')(**). وهو افتراض لم يثبت على الإطلاق، ولعله من بقايا حكايات الرحالة الأوروبيين عن آخر أطراف الأرض: فقد قال هيرودوتس أنه فيما وراء السكيثيان كان يعيش آكلة لحوم البشر، وكرر

(*) '.... وصلوا إلى جزيرة صغيرة من اللوكايا كانت تسمى غواناهاني بلغة الهنود'. كولومبوس: "المذكرات اليومية للسفينة"، الجمعة، 12 تشرين الأول/أكتوبر سنة 1492، مقتبسة من قبل دي لاس كاساس (1957 [حوالي العام 1530]). كان كولومبوس يظن أول الامر أنه ضمن ممتلكات الخان الأعظم الصيني، ثم (في 12 تشرين الثاني/نوفمبر) وسط 'جزر الهند'. ولم يعد يسمي الناس الذين يلتقي بهم "هنوداً" بعد منتصف كانون الأول/ديسمبر من ذلك العام، ولكن التسمية لصقت بهم (سيل 1990، ص 109).

(**) '.... وهذه الجزر يقطنها آكلة بني جنسهم *canabilli*، وهم عرق متوحش لم يخضعه أحد، ويعيشون على أكل لحوم البشر، وسأكون محقاً لو أسميتهم المقتاتين على الإنسان anthropophagi. وهم يشنون حروباً لا تتوقف على الهنود اللطفاء الجبناء ليتزودوا باللحم...'. رسالة من غويليرمو كوما عن رحلة كولومبوس الثانية، عن يوم الأحد 3 تشرين الثاني/نوفمبر 1493.

سترابو سرد القصة نفسها عن السكيثيان أنفسهم، وحتى عن الإيرلنديين[1]. ولكن البحارة الأوروبيين ربما كانوا يسيئون تفسير ممارسة السكان الأصليين لطقوس تقديم الأضاحي البشرية - لكي تناسب قصص الرعب التقليدية، حسب الأدلة التي عثروا عليها عن هذه الممارسة التي كان من الصعب تصور صحة حدوثها آنئذٍ.

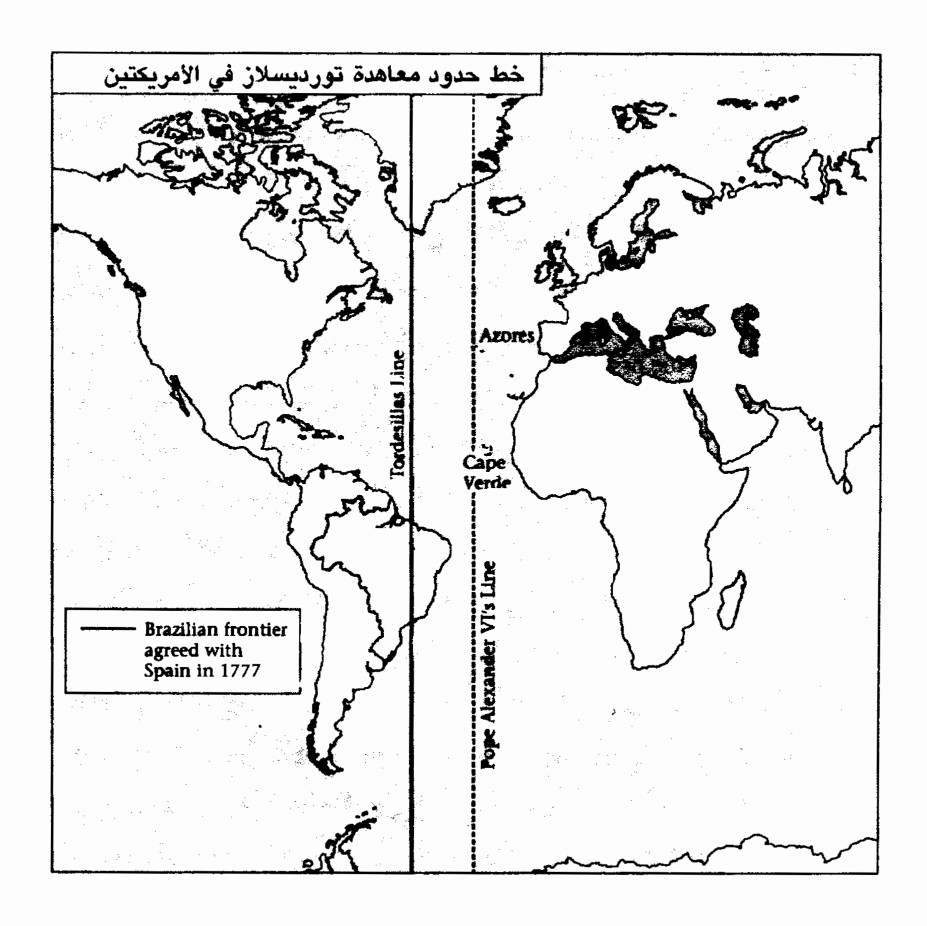
إن الشيء الذي يخدم أغراضنا بشكل مباشر أكثر هو أن عدم الفهم الإسباني يمكن رؤيته عند اللغويين الذين اختار كولومبوس أن يجلبهم على أمل تسهيل الاتصال، مثل لويس دي توريز، الذي كان يعرف العبرانية، والآرامية ('الكلدانية')، وقليلاً من العربية، ورودريغو دي جيريز، الذي ربما زار بعض المستعمرات البرتغالية في غينيا. ورغم أنه قد اعتقد بشكل معقول أنه قد يصادف تجاراً من العرب عند وصوله إلى الصين، فإن اختياره بليغ الدلالة على الجهل المحض بماهية الوضع اللغوي في باقي أنحاء العالم عندما يكون الأجنبي الوحيد الذي يحتمل أن يلتقي به حتى الإسباني المثقف مغربياً أو يهودياً[*]. بل إن الإسبان قد استمروا يطلقون على المراكز الروحية للأمريكيين الأصليين اسم 'المساجد'. وعلى سبيل المثال فقد كتب كورتيز في رسالة إلى ملكه في العام 1520 عن مدينة في المكسيك لم ير فيها أي مسلم أبداً: 'وأؤكد لجلالتكم أنني قد أحصيت في مسجد حوالي 430 برجاً في المدينة المذكورة، وكلها تعود إلى المساجد'[2].

وبالطبع، فإن عدم فهم مدى الآفاق الجديدة التي كانت آخذة بالانفتاح عندئذٍ لم يكن محصوراً بالإسبان. فقد رأوا أنفسهم بوضوح تام كمبعوثين للعالم المسيحي إلى هذه الممالك الجديدة، فالتفتوا إلى البابا - ألكساندر السادس، وكان (بصدفة مناسبة) إسبانياً - ليصادق على لقبهم هذا كموفدين إلى تلك المناطق.

(*) كانت رؤية كولومبوس للعالم تغذيها قراءات وفيرة. فلدينا سبعة من كتبه وعليها تعليقاته، محفوظة حتى اليوم في مكتبة بيبليوثيكا كولومبيانا في إشبيلية. وهذه الكتب تشمل أعمال ماركو بولو وكتاب بليني الأكبر: "التاريخ الطبيعي"، وغيرها من الكتب الأكثر خيالاً. وقد حكى ابنه فرناندو قصة قراءات أبيه، في الفصلين السادس والسابع من سيرة حياته (سيل 1990، ص 15).

فكان هذا الوضع مألوفاً لدينا من الاندفاع الحديث للحصول على براءات اختراع للمناطق غير المرسومة خرائطها من تكنولوجيا المعلومات وعلم الوراثة. أما في العام 1493، فبعد أن منح البابا إسبانيا سيادة على مكتشفات كولومبوس في رحلته الأولى تابع فمنحها حقاً في كل الأقاليم على بعد أكثر من مئة فرسخ إلى الغرب من جزر الآزور وجزر الرأس الأخضر، حتى خط الطول °30 غرباً، أي بوضوح على طول الطريق إلى الهند. ولو ترسخ هذا الحق لأعطى إسبانيا السيطرة على الأمريكتين كلتيهما. ولكن لم يكن بوسع أحد أن يعرف ذلك بعد عام واحد من رحلة كولومبوس الأولى. وفي تلك المرحلة كان البرتغاليون هم المنافسين الكبار الوحيدين، وكانوا قلقين في ذلك الحين من تدابير البابا، وكانوا يريدون قبل كل شيء ضمان طرقهم عبر الأطلسي إلى إفريقيا وما وراءها. فنجحوا في التفاوض مع الإسبان لنقل خط الحدود بين الشمال والجنوب مئتين وسبعين فرسخاً أخرى إلى الغرب، وبالنتيجة إلى خط الطول °45، فتم الاتفاق على هذا الحد الوطني في معاهدة توردیسلاز في العام 1494. ولم يتم تحديده بوضوح من الناحية العملية أبداً. ولم تكن هناك أي حدود حديثة تضاهيها - فالبرازيل مثلاً تمتد أرضها الداخلية على كل الطريق إلى خط الطول °74 غرباً، وحتى على الساحل حتى خط الطول °50 - ولكن هذه المعاهدة عملت فعلاً كقاعدة مختصرة فأعطت البرتغال حقاً ذا أولوية في البرازيل التي كانت السفن الإسبانية والبرتغالية على حد سواء تزور ساحلها الجنوبي الشرقي في العام 1500، ولكنها حظرت مصلحة البرتغال في الأمازون حتى العام 1637.

أما على الجانب الأمريكي، فإن صدمة عدم الفهم قد سجلت بوحشية أكبر، بفقدان أعداد هائلة من السكان. ومن المستحيل إعطاء أي تقدير سليم لعدد سكان الأمريكتين قبل الاتصال بالأوروبيين. فالتقديرات تختلف متراوحة بين 13 مليوناً و180 مليوناً. ولكن في كل مكان دليل على سقوط ضحايا بالجملة وبكثافة في السنوات الأولى عقب وصول الأوروبيين. فأولاً وقبل كل شيء شكا الإسبان من تفريغ أول الجزر التي استعمروها من سكانها، وهي كوبا وهسبانيولا.



وتؤكد الأرقام سبب شكواهم. فعند إحصاء سكان هسبانيولا في العام 1494 بلغ تعدادهم 1.1 مليون نسمة، ولكن بعد ثمانية عشر عاماً فقط سجل إحصاء العام 1514 اثنين وعشرين ألف نسمة. وشهدت المكسيك سلسلة من الأوبئة بدأت بالزيارة الإسبانية لعاصمتها تينوكتيتلان، التي أبعدت عنها غالبية سكانها الأصليين، وانتشرت جنوباً إلى داخل غواتيمالا. وكتب جوزيف دي أكوستا في ثمانينيات القرن السادس عشر عن حوض البحر الكاريبي كله: 'إن سكان سواحله قد تعرضوا للضياع والتشرد بحيث فُقِدَ منهم تسعة وعشرون جزءاً من مجموع ثلاثين جزءاً، ومن المحتمل أن باقي الهنود سيضمحلون بعد وقت قصير'[3].

وقاد هرناندو دي سوتو حملة من خلال فلوريدا والساحل الجنوبي الشرقي لأمريكا الشمالية في منتصف القرن السادس عشر، فوجد زحاماً كثيفاً من السكان الهنود، متكتلين في مدن صغيرة على نهر المسيسيبي قرب ممفيس الحديثة. وفي العام 1682 عند الزيارة التالية للمنطقة من قبل الرجال البيض (وكانوا فرنسيين في هذه المرة) كانت مهجورة.

كانت الأمراض تسافر بسرعة أكبر من سرعة رؤوس حراب الغزو الإسباني: فقد وصل الجُدَري إلى بيرو في العام 1525، وإلى فرانسيسكو بيزارو في العام 1532. وكان قد أودى بحياة هواينا كاباك، من عشيرة الإنكا وكثير من أقاربه، وسبب صراعاً بين السلالات على الحكم استغله الإسبان لصالحهم. وبعد ذلك، وكما في كل مكان، جاءت أوبئة أخرى، كالتيفوس، والإنفلونزا، والدفتريا، والحصبة، وكذلك المزيد من الجُدري فدمرت السكان(*).

ولم يكن الإسبان غزاة إنسانيين على نحو ملحوظ. ولكن لم تكن لهم مصلحة في حرب الإبادة. فمن أول أيامهم في هسبانيولا، كانوا يأملون في استغلال عمل الأهالي الأصليين. ولهذا السبب وحده أفزعهم هذا الانهيار الكارثي في أعدادهم. ومع ذلك، فإن ذوبان السكان السابقين وتلاشيهم كان يساعد مادياً على انتشار لغة الغزاة على الأمد البعيد، مما يغير التوازن العددي بطرح قسم كبير من المجتمعات الناطقة باللغات الأهلية الأصلية.

ومن منظور عالمي، ومع الاستفادة الكاملة من الإدراك المتأخر للأحداث بعد وقوعها، تبرز ثلاثة جوانب من التقدم الإسباني إلى داخل العالم الجديد باعتبارها جديدة على التاريخ تماماً.

أحدها أن هذه كانت أول مواجهة مباشرة لأعراق من البشر من سلالات منفصلة تماماً، تفصل بينها عشرات الألوف من سنوات التطور المستقل. فآخر جد مشترك لكريستوفر كولومبوس وغواكاناغاري، أول ملك قابله في هسبانيولا

(*) [ملاحظة: اليست هذه محاولة لتبرئة الغزاة الأوروبيين من جريمة حرب الإبادة التي شنوها عمداً على السكان الأصليين، أو لتخفيف مسؤوليتهم عن هذه الفظائع؟؟! ـ المترجم].

لا يمكن أن يكون قد عاش قبل أقل من ألفي جيل، وهذه فترة تزيد عشرين مرة على طول الوقت الذي مضى منذ مولد السيد المسيح. وذلك الجد سيكون قد عاش في إفريقيا. وهكذا فإن سلالة نسب الرجلين يجب أن تمتد حول العالم كله قبل أن يمكنهما أن يلتقيا. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً لن تعود الاتصالات محصورة في هذا الخط الطولي الجوهري المتأصل في التوطّن البشري في العالم: فتتكلم أمة مع أمة، من أي مكان إلى أي مكان.

وهذا الجانب أساسي بالنسبة للكارثة الخاصة التي أصابت السكان الأمريكيين، كما رأينا، فقد ثبت أن ألوف السنين الطويلة من التطور التي توجت في أمريكا وإسبانيا قد أعطت النسل الأوروبي صفة عملت كسلاح سري: وهي مقاومة تشكيلة متنوعة من الأمراض التي يحتمل أن تنتشر بين أي سكان آخرين قد يتصلون بهم لأنها أمراض وبائية. وقد عملت هذه الصفة (أكثر بكثير من التفوق التقني في أسلحة الأوروبيين الذي كان يعني قدرتهم على كسب معارك ضد كثرة عددية ساحقة) على إزالة حشود عريضة من الأهالي الأصليين قبل أن تتاح لهم فرصة التكيف ثقافياً أو التعافي واستجماع قوتهم على المدى الطويل. إن هذا العامل البيولوجي قبل كل شيء هو الذي يفسر سبب كون غالبية سكان بلدان أمريكا الهسبانية اليوم هم "هجناء" في كل مكان.

والجانب الآخر الذي لم يسبق له مثيل في التقدم الإسباني هو أن هذه هي أول مرة تتعرض فيها قارة أجنبية لغزو محمول بحراً. فمن المؤكد أن الإمبراطوريات البحرية كانت إحدى ملامح البحر الأبيض المتوسط في العصور القديمة والوسطى (وتبرز من بينها إمبراطوريات أثينا وقرطاجة والبندقية)، وفي الألفية الميلادية الأولى كانت الهند قد عرضت حضارتها عبر خليج البنغال، رغم أن ذلك كان بدون أي نية عسكرية ظاهرة. وقبل أن يؤسس الإسبان إمبراطوريتهم بثمانين عاماً فقط، كان الأميرال الصيني جنغ - هي يطوف في المحيط الهندي فارضاً إتاوات على سريلانكا، ومظهراً قدرة الصين على الوصول إلى سواحل إفريقيا الشرقية إذا شاءت. ولكن لم يسبق أن تم كسب إمبراطورية أو الحفاظ عليها من خلال السيطرة على طرق الملاحة المحيطية. أما الآن [في

القرن السادس عشر] فقد صار من الممكن لأول مرة أن يكون الإقليم الخاضع بعيداً عن حكومته مسافة قارّة، مع الحفاظ على الصلة عن طريق قوة أسطول حربي عبر المحيطات.

أما الجانب الثالث، فإن احتلال العالم الجديد كان أول غزو كبير يتم عن طريق عدد من المبادرات المستقلة التي اضطلعت بها على الأغلب المشاريع التجارية الحرة، حتى ولو كانت 'طلائعهم' (كما كان يسمى قباطنة البحر العامّون الرواد، وهو لقب كان في السابق مخصصاً لحكام مقاطعات الحدود المواجهة للمسلمين) كلهم يزعمون أنهم يعملون نيابة عن ملك إسبانيا. وكانت قوات الغزو تميل إلى أن تكون صغيرة (607 جنود مع كورتيز في المكسيك، و160 جندياً مع بيزارو في بيرو) بحيث إن قادة المدافعين كانوا يُضلَّلون عن طبيعة التهديد، فيتأخرون في تنظيم دفاعاتهم بمحاولة التفاوض مع زوارهم الإسبان غير المرغوب فيهم، أو مراقبتهم على الأقل. وهكذا تم غزو العالم الجديد عن طريق خليط مرقّع من حملات متفرقة لجنود مغامرين: كولومبوس في البحر الكاريبي (في تسعينيات القرن الخامس عشر)، وكورتيز في المكسيك، وألفارادو في غواتيمالا، وغارسيا في بوليفيا، وبيزارو في بيرو (في عشرينيات القرن السادس عشر)، وقويسادا في غرناطة الجديدة (كولومبيا في المستقبل)، ومندوزا في الأرجنتين (في ثلاثينيات القرن السادس عشر)، ودي سوتو في فلوريدا، وكورونادو في تكساس، وغابريلّو في كاليفورنيا، وفالديفيا في تشيلي (في أربعينيات القرن السادس عشر)، وهؤلاء هم الأشهر والأنجح فقط. وكان الهدف الأولي الرئيسي لكل حملة هو إثراء المشاركين فيها، حتى عندما كان التبرير الرسمي هو المطالبة بولاء أوسع للملك، وإنقاذ الأرواح بكسب معتنقين جدد لعقيدة الكنيسة الصحيحة.

كانت هذه الجوانب الثلاثة من واقعة الغزو طليعة دخول عصر جديد. وقدر لها أن تصبح ملامح عامة مشتركة للاتصالات اللغوية الكبرى اللاحقة، عندما راحت الأمم البحرية الأوروبية ترسل أساطيلها إلى كل جزء معتدل ومداري واستوائي من العالم له خط ساحلي، وتحاول ضمها إليها كمستعمرات، وضم

أهلها كزبائن أو كرعايا أو كمتنصرين. وصارت هذه السلسلة من الغزوات معلماً من معالم التحول الحاسم في تطور الدنيا المعولمة اليوم حيث إن أي مكان على الكوكب صار محصوراً ضمن سفرة طولها أربع وعشرون ساعة فقط من أي مكان آخر(*).

وكفكرة تالية لاحقة تقريباً، فإن غزو أمريكا قد عمل في آخر الأمر على تحقيق الغرض الذي كان يقصد إليه كولومبوس في الأصل، وهو إقامة صلة مع آسيا. ففي العام 1565، وبناء على تعليمات من الملك فيليب الثاني، قامت حملة من المكسيك بعبور المحيط الهادئ إلى جزر سيبو ولوزون فأسست بداية حكم إسباني فيما كان سيعرف باسم الفليبين. وكانت هناك مستعمرات إسبانية أخرى أصغر حجماً في المحيط الهادئ، شملت جزر ماريانا وغوام. فاستمرت السيطرة الإسبانية ومحاولة نشر اللغة الإسبانية هنا حتى استولت الولايات المتحدة الأمريكية على المنطقة في العام 1898 بعد انتصارها في الحرب الأمريكية الإسبانية.

وبما أن هذه المستعمرات في المحيط الهادئ قد تم الحصول عليها في حوالي وقت غزو الأمريكتين نفسه، ولكنها كانت جزءاً من العالم القديم لجزر التوابل، على حافة مناطق نفوذ الهند والصين، فإنها تقدم مقارنة مفيدة لإبراز ملامح تقدم اللغة الإسبانية في العالم الجديد. فهذه اللغة لم تنتشر على نطاق واسع ولم تحرز تقدماً عميق الجذور في الفليبين أبداً، ورغم حضورها هناك لمدة ثلاثة قرون أو أكثر فسرعان ما أزاحتها الإنكليزية جانباً في أوائل القرن العشرين. وسيكون من المثير للاهتمام أن نفكر في جذور الفرق بينها وبين الإسبانية في الأمريكتين، حيث لا تزال الإسبانية تنمو على حساب الإنكليزية رغم السيطرة الاقتصادية للولايات المتحدة.

ويستطيع المرء أن يقول في البداية إن غزو الفليبين لم يشترك مع غزو

(*) رغم أن الاتصالات على مدى القرون القليلة الأولى كانت تتضمن دائماً عرض لغات البحّارة على الشعوب التي تتلقى طلائعهم على اليابسة، فقد رأينا في العصر الحديث أن الصلات الجديدة يمكن أن تعمل في كلا الاتجاهين، عندما تتجمع مجموعات من المهاجرين من البلدان المستعمرة في موطن القوى التي كانت تستعمرها، وتأتي هذه المجموعات بلغاتها الخاصة معها.

الأمريكتين في كل الخصائص التي لم يسبق لها مثيل. صحيح أنه كان غزواً محمولاً عن طريق البحر، وأن أصله جاء من المكسيك، مثل كثير من حملات الاستكشاف في أمريكا الشمالية، ولكن الأرض المستهدفة كانت جزءاً من العالم القديم، لا الجديد، ومن هنا فإنها لم تكن تعاني من نقص المناعة من الأمراض الأوروبية التي دمرت أمريكا: فدخول الإسبانية في المحيط الهادئ لم يتبعه أي انهيار في السكان الأصليين. وعلاوة على ذلك فإن استيطان الفليبين لم ينطلق من مجموعات فردية انتشرت لتستكشف وتستغل لمصلحتها الخاصة. بل كانت مؤسسة إسبانية حكومية أقيمت أولاً في سيبو، ثم بصورة أكثر ديمومة في مانيلا. وفيما بعد فإن توسع الوجود الإسباني، وبالتالي اللغة الإسبانية، جاء على وجه العموم عن طريق الأنشطة غير المهتمة بالربح التي قام بها المبشّرون. ولم تكن في الفليبين معادن نفيسة كالتي وجدت في الأمريكتين. وكان الوصول إليها من إسبانيا أصعب بكثير لأن الطريق الوحيدة التي لا تكاد تكون عملية إليها هي عبر المكسيك: ولذا فلم يكن في هذه المستعمرة حافز يذكر لنمو وتوسع مجتمع ناطق بالإسبانية هناك.

الشقوق الأولى في حاجز اللغة: المترجمون وثنائيو اللغة والنحاة

حاول القائد قويسادا أن يكتشف ماهية الناس الذين احتشدوا ضده. كان هناك هندي أسروه بكعكتين من الملح فقادهم إلى المكان الذي كانوا فيه في هذه المملكة. وكان من خلال المحادثة يتكلم بضع كلمات بالإسبانية. فطلب منه القائد أن يطلب من بعض هنود البلد الذي استولى عليه أن يعملوا كمترجمين فأجابوا بلغتهم قائلين "موسكا بوينونغا"، التي هي عبارة معناها 'أناس كثيرون'. فقال الإسبان الذين سمعوها: 'إنهم يقولون بأنهم مثل الذباب [موسكاز]' ... فأطلق عليهم [قويسادا] النار من البنادق. وعندئذٍ لما رأى الهنود أن الإسبان كانوا يقتلونهم من دون الاقتراب منهم، هربوا دون أن ينتظروا لحظة. فطاردهم رجالنا وهاجموهم، حتى تشتت جمعهم الكبير واختفى. وفي المطاردة يقولون إن الإسبان قالوا: 'لقد كان

عددهم أكثر من الذباب، ولكنهم فروا كما يفر الذباب'، وبذلك التصقت بهم تسمية [موسكا]. وأنهى هذا الهجوم الحرب كلها.

جوان رودريغز فريل: "غزو واكتشاف مملكة غرناطة الجديدة": الفصل 6 (كتب في العام 1636 لوصف الأحداث في منطقة بوغوتا في العام 1536).

لعل كولومبوس قد خاب أمله بالدعم اللغوي غير الكافي الذي جلبه معه في رحلته الأولى، لأن مقدمي هذا الدعم قد ضللوا، فاختطف حفنة من الناس بينما كان مستمراً في إبحاره في سفنه حول الجزر التي يستكشفها، ثم عاد بهم إلى إسبانيا. 'فقد بدا له أن يأخذ إلى قشتالة من جزيرة كوبا هذه، أو من البر الرئيسي كما كان يعتبرها، بعضَ الهنود [الحمر] لعلهم يتعلمون لسان قشتالة، وكي يعرف منهم أسرار الأرض، وكي يعلمهم في قضايا الإيمان'[(4)].

فقدّم عدة منهم في البلاط، وتلقوا التعميد، مع عرّابين ملكيين لا أقل. وقد مات معظمهم في إسبانيا، أو هربوا بمجرد عودتهم إلى جزر الهند الغربية. ولم يخدم منهم كمترجم إلا شخص واحد (بعد التعميد) عُرِفَ باسم دييغو كولون. وكان عند كولومبوس في أول الأمر انطباع بأن جميع 'الهنود' الذين لقيهم يتكلمون اللغة نفسها. ولكن محدودية الفائدة التي قدمها له دييغو حتى وهو يطوف بقية جزر الكاريبي أعطته لمحة طفيفة وغامضة عن مدى تنوع المخزون اللغوي لهذه الأراضي بالفعل. فكان أول أوروبي يدرك ذلك.

غير أن هذا النوع من محاولة أسر بعض الأولاد المحتملين وتدريبهم كمترجمين لم يحرز نجاحاً كبيراً على الإطلاق، رغم الإصرار على الاستمرار فيه لمدة ثلاثين عاماً أو نحوها. فقد سبب الغضب عندما كان المرشحون لهذا العمل يؤخذون بالقوة ـ فقد كان للسكان الأصليين من هنود تاينو Taino تجربة مريرة في ثقافتهم نفسها من غارات جيرانهم لاستعبادهم وتقديمهم كأضحيات بشرية ـ وفي كثير جداً من الأحيان كان المتدرب يموت من نوعية الحياة غير الطبيعية التي يعيشها في أوروبا.

فكان الشيء الأكثر فاعلية هو العملية الطبيعية التي بموجبها يأتي شخص إسباني منعزل غرقت سفينته أو هرب من قومه أنفسهم ليعيش في قرية هندية،

فيتعلم لغة أهلها قبل أن يعود ليعمل كمترجم. وهناك ذرينة كاملة مسجلة من مثل هذه الحالات[5]. وقد ثبت أن واحدة منها كانت حاسمة لأول تقدم إسباني إلى داخل أمريكا، في العام 1519، عندما تغلغل كورتيز إلى قلب الإمبراطورية المكسيكية. فأجرى التواصل عن طريق نقل قام به مترجمان، أحدهما جيرونيمو دي أغويلار، وهو إسباني أمضى ثمانية أعوام في إحدى قرى المايا بعد غرق سفينته على ساحل يوكاتان، والأخرى هي مالين - تزين الشهيرة، وهي امرأة ناطقة بلغة الناحواتل من كوتزاكوالكوس كانت قد بيعت لجماعة مايا المجاورة، كسيكالانغو، في طفولتها.

وقد ظل كثير من الأهالي الأصليين المتدربين غير كافين كمترجمين للإسبانية، وتنقصهم الأرضية الخلفية لفهم مصالح الإسبان الحقيقية، حتى ولو كان لديهم حافز ذاتي مثل فيليبيلو البيروفي الذي 'كان قد تعلم [الإسبانية] دون أن يعلّمه إياها أحد ... [و] كان أول مترجم حصلت عليه البيرو'[6].

فكان هو المترجم الرئيسي أثناء غزو البيرو، وتوسط في المحادثة الأولى، الحاسمة مع أتاهوالبا، إمبراطور الإنكا، تماماً قبل معركة كاجاماركا الحاسمة. ودُعِيَ فيليبيلو لترجمة خطاب قاسٍ وبليغ للراهب الدومينيكاني فراي فنسنت فالفيرد، تحدث فيه عن المبادئ الأساسية للمسيحية، وعن الواجب الظاهر للبابا والإمبراطور الإسباني تشارلز لتنصير العالم، وبالتالي عن حاجة أتاهوالبا للخضوع لهما دون مزيد من الضجة.

ونُقِلَ رد أتاهوالبا عن طريق إنكا غارسيلاسو، وهو هجين ثنائي اللغة في الإسبانية والقيشوَا لغة الإنكا، ولكنه أيضاً طالب عالي الثقافة يتقن خطابة شيشرون. وقد كتب عن تلك الواقعة بعد مرور أكثر من حياة إنسان كاملة على حدوثها. وحسب روايته، فإنه يبدو أن سوء الترجمة قد أفسد أي فرصة لإمكانية الحفاظ على التفاهم، أو المجاملة على الأقل. فالمفروض أن أتاهوالبا قد أعطى إجابة مطولة، مبتدئاً بتعليق على نوعية الترجمة السيئة:

> كان يمكنني أن أشعر بكثير من الرضا ما دمت تنكر علي كل شيء طلبته من

رسلك، لو أنك أعطيتني طلباً واحداً، هو أن تخاطبني عن طريق مترجم بارع ومخلص، لأن تحضّر الناس وحياتهم الاجتماعية يمكن فهمها عن طريق الكلام بسهولة أكثر من فهمها عن طريق العادات. فرغم تمتعك بفضائل عظيمة، فإنك إذا لم تظهرها بالكلمات، فلن أكون قادراً على إدراكها بالملاحظة والتجربة. وإذا كانت هناك حاجة إلى ذلك بين كل الشعوب والأمم، فالحاجة أكبر بكثير بين الذين يأتون من مناطق شديدة الاختلاف مثلنا. فإذا كنا سنتعامل ونتحدث عن طريق مترجمين ورسل يجهلون كلا اللغتين فسيكون الأمر كما لو كنا نتحدث من خلال أفواه حيوانات الحمل[7].

إن خطاباً بهذا المستوى من الإتقان والتفصيل كان سيهزم مترجماً بسيطاً مثل فيليبيلو، ولكنه على الأرجح نتاج خيال غارسيلاسو بحسب أفضل التقاليد الكلاسيكية لكتابة التاريخ. ومع ذلك، فقد زعم غارسيلاسو أن الإسبان 'الذين لم يطيقوا طول الخطاب غادروا أماكنهم وانقضوا على الهنود'. وهكذا فإن عدم التسامح مع طول النفس في خطاب بلغة غير معروفة ربما يكون قد لعب دوراً في العمل الذي تطور بعد ذلك فعلاً.

وبعد تحقيق الغزوات وتنصيب إسبان في مواقع السلطة، لم يكن هناك شيء يذكر في النظام الاقتصادي الجديد، حيث كان السكان الأصليون في كل منطقة يُسْتَغَلُّون للعمل في الأرض أو في المناجم، يمكن أن يشجع الانتشار الواسع للغة الإسبانية. فالواجبات المتكررة بين سكان في حالة سكون وخضوع كان من شأنها تقليل الحاجة إلى الاتصال بين السادة والرعايا. فلم يكن هناك شيء يضاهي الخدمة العسكرية في الإمبراطورية الرومانية، أو انتشار الأديرة والجامعات في أوروبا العصور الوسطى، مما كان سينشر لغة السادة الإسبان في أنحاء ممتلكاتهم. وكان هناك على أي حال تدفق مستمر للناطقين بالإسبانية مهاجرين من إسبانيا نفسها ليزيد عدد السكان الناطقين بها. ومع ذلك فقد كانت هناك حاجة إلى عدد كبير من ثنائيي اللغة لتنظيم عمل الأهالي الأصليين. فنشأ مثل هؤلاء الأشخاص بشكل طبيعي لأن المهاجرين الإسبان، الذين كانت أغلبيتهم الساحقة من الذكور، راحوا يتخذون زوجات أو "عشيقات" هنديات ويؤسسون معهن أُسراً. فأخذ الأطفال المعروفون "بالهجناء" يتعلمون كلا اللغتين من آبائهم

وأمهاتهم: 'ففي وقت مبكر مثل العام 1503 أوصى البلاطُ حاكمَ هسبانيولا بأن يتزوج بعض المسيحيين نساءً هنديات لكي يتصل كل من الطرفين بالطرف الآخر ويعلمه لغته'[8].

إن مثل هذا الحماس "للجنس الجديد" المتولد من هذه الزيجات المختلطة الأعراق هو أحد الملامح التي تميز تمييزاً قوياً بين الاستعمار الإسباني وبين مواقف بناة الإمبراطوريات الأنغلو - ساكسون الذين جاؤوا فيما بعد. فبين "الغزاة" الإسبان كان كل واحد تقريباً لديه أطفال "مهجنون"، ومن عدة نساء مختلفات في كثير من الحالات، وكان معترفاً بهم كورثة لآبائهم. وقد امتثل لهذا التقليد كل من كورتيز، وبيزارو، وبنالكازار، وألفارادو؛ بل إن البابا كليمنت السابع أصدر أمراً بابوياً رسمياً بإضفاء الصفة الشرعية على ثلاثة من أبناء كورتيز في العام 1529، ولو أنه تأخر في ذلك قليلاً: (فجمال 'الفضائل' في الأبناء يطهرهم من لطخة مولدهم، وبالتطهير يمحى عار الأصل).

وقد شاع التزاوج المختلط الأعراق (الذي سرعان ما تعقد باستيراد العبيد السود من إفريقيا) إلى درجة استنباط تصنيف لمراتب أطفال هذا التزاوج وتوضيح مصطلحات طبقاته على نحو مشهور[9]. ويميل المعلقون الهسبانيون المحدثون إلى إضفاء نظرة مثالية على هذه الأوضاع، فيشيرون مثلاً إلى خلفية الإسبان العرقية المختلطة في أوروبا، ولكن الحقائق تقول إن محاولة قد تمت لإبقاء كل شخص خاضعاً للتصنيف، وأن سلطة ومكانة العوائل الإسبانية النقية ظلت عالية إلى نهاية الإمبراطورية ـ فلم تتفوق عليها إلا سلطة ومكانة المهاجرين من إسبانيا ـ وهذا كله يشير إلى أن المجتمع لم يكن ـ كما يُزْعَمُ في بعض الأحيان ـ خالياً من الظلم القائم على أساس عرقي عنصري. وعلى كل حال، ومهما كانت درجة القبول والتشجيع للأنماط المتنوعة من الزيجات التي حظيت بالشرعية الدينية الرسمية (أم لا)، فليست هناك أدلة وثائقية تذكر على كيفية استخدام اللغة في هذه العائلات.

فالدليل الموجود يأتي من حقيقة لا يمكن تحديها وهي التميز الأدبي في كثير من الأبناء "المهجنين" في وقت مبكر من هذه الفترة. فلم يكونوا

مترجمين فقط، بل مترجمين أدبيين ومؤلفين كذلك، بالإسبانية وباللاتينية أيضاً(*). فهناك فرناندو دي ألفا إختلخوكيتل من نسل ملوك تزكوكو، (حلفاء كورتيز)، الذي كان معروفاً باسم 'ليفي من أناهواك' وقد ألف كتاب "تاريخ شيشيميكا". وابنه بارتولومي ترجم إلى لغة الناحواتل مسرحيتين إسبانيتين من الأدب المعاصر له من تأليف لوبي دي فيغا، ومسرحية أخرى من تأليف كالديرون. ولم يكن هذان وحدهما، بل إن السرد التاريخي للغزو في جميع أنحاء الإمبراطورية في العالم الجديد سرعان ما راح يكتب بالإسبانية على أيدي المواليد الذين أنتجهم ذلك الغزو نفسه[10].

وربما كان أبرز الأدباء الهجناء تميزاً غارسيلاسو دي لا فيغا من قبائل الإنكا (1539 ـ 1616)، المولود في كوزكو عاصمة الإنكا، بعد غزوها بسبعة أعوام. وكان أبوه هو النبيل الإسباني القبطان سباستيان غارسيلاسو دي لا فيغا إي فارغاس، وأمّه بالا شيمبو أوكلو، ابنة عم من الدرجة الثانية لآخر اثنين من حكام الإنكا، وهما هواينا كاباك وأتاهولابا. وقد هاجر إلى إسبانيا في أوائل العشرينيات من عمره، وعاش هناك حتى وفاته. وهكذا فإن سيرة حياته ليس فيها شيء مباشر يذكر عن القوة النسبية للغات في البيرو. ولكنه كان عارفاً بمعنى اللغات المختلفة: فقد تعلم لغة قيشوَا والإسبانية في طفولته، واللاتينية في شبابه. ثم تعلم من الإيطالية ما كان كافياً لتمكينه من ترجمة كتاب عنوانه: "محاورات الحب". وتابع عمله فكتب من تأليفه كتابين تاريخيين طويلين، أحدهما: "فلوريدا الإنكا"، عن حملة دي سوتو عبر فلوريدا، والآخر تاريخ من جزأين معنوين: "تعليقات ملكية من الإنكا"، و "تاريخ البيرو". وفي عمله الأخير كان لديه الكثير مما قاله عن الأدوار النسبية للغتين القيشوَا والإسبانية، وكثيراً ما كان يستشهد بآراء أديب آخر "هجين" مشهور هو الأب بلاس فاليرا (الذي كان قد كتب تاريخاً للبيرو باللاتينية).

(*) الحق أن كلمة *'Ladino'* المنقولة عن تطبيقها على المسلمين المغاربة في إسبانيا كان اصطلاحاً كثيراً ما يستخدم للدلالة على غير الإسبان الذين يتقنون الإسبانية. وقد طبق أول الأمر على الهنود [الحمر] ثم صار يطبق فيما بعد على العبيد الأفارقة.

وكان غارسيلاسو وبلاس فاليرا يريان أن مجيء السلطة الإسبانية إلى البيرو، مع الحروب الأهلية والتمزقات الاجتماعية التي جلبتها في أعقابها، هي التي عطلت الوحدة اللغوية المناسبة التي كان الإنكا قد نجحوا في فرضها على إمبراطوريتهم، والتي كان يجب استغلالها للترويج للعقيدة المسيحية:

> ومن هنا حدث أن كثيراً من المقاطعات التي كان باقي الهنود فيها يعرفون هذه اللغة المشتركة قد نسوها تماماً عندما دخل الإسبان كاجاماركا، لأنه مع نهاية عالم الإنكا وإمبراطوريتهم لم يكن هناك أحد ليتذكر شيئاً مناسباً وضرورياً لإلقاء مواعظ عن بشارة المسيح المقدسة، بسبب النسيان الواسع الانتشار نتيجة الحروب التي اندلعت بين الإسبان، ولأسباب أخرى بعد ذلك زرعها الشيطان الشرير لمنع تشغيل مثل هذا النظام المفيد ... وهناك البعض ممن يظهر لهم أن من المعقول إجبار كل الهنود على تعلم اللغة الإسبانية، كيلا يضيّع القساوسة جهودهم في تعلم اللغة الهندية. ولا يشك أحد يسمع هذا الرأي أنه ناشئ عن فشل الجهد، وليس عن غباء التفكير..... [11].

وكان هناك ادعاء[12] بأن النقطة الكامنة وراء كلام غارسيلاسو هي أن الإنكا فهموا أحسن من غزاتهم النقطة الأساسية عند نبريجا، الذي كان كتابه المبتكر عن قواعد اللغة الإسبانية قد بدأ كما رأينا بمقولة 'أن اللغة ترافق الإمبراطورية على الدوام'. ومن المؤكد أن غارسيلاسو كان له رأي لا يزال واسع الانتشار حتى اليوم، وإن لم يكن في صفوف اللغويين العارفين، أن اللغة المشتركة تمهد للفهم المشترك وللعلاقات الطيبة المتبادلة، 'لأن الشبه والتماثل في الكلمات يميل دائماً إلى التوفيق بين الناس ويؤدي بهم إلى اتحاد وصداقة حقيقيين' [13].

ومهما تكن الحقيقة حول هذه الإيديولوجية، فإن كتابي أنطونيو نبريجا حول قواعد اللغتين اللاتينية (مقدمات للاتينية) والإسبانية المعاصرة ("قواعد اللغة القشتالية") يوضحان أن من الممكن الإمساك 'بفن' اللغة على الصفحة بوضوح. وسرعان ما استفاد المبشرون الذين تدفقوا على العالم الجديد من هذا التوضيح ليؤسسوا علم اللغويات الوصفية لأول مرة في العالم.

فعندما دخل الرهبان الفرانسيسكان، والدومينيكان، والأوغسطينيون المكسيك

كانت أرضاً بكراً للكنيسة، ولم تكن فيها ثنائية لغوية على أي مستوى في المجتمع، فأدركوا أنهم سيضطرون إلى العمل من خلال لغات الناس الأصليين أنفسهم إذا كان لهم أن يحققوا أي تقدم في نشر عقيدتهم(*). فكان هذا يعني أن عليهم أن يتعلموا تلك اللغات. فقد كان عدد الناس الذين يتعين عليهم الاتصال بهم هائلاً. فهم عدة ملايين في مقابل 802 من الرهبان الموجودين في المكسيك في العام 1557[14]. فكان من الواضح أن هذا عمل لعدة أجيال. وبما أنه سيكون هناك بالضرورة تناوب للمبشرين مع تقاعد كبار السن ومجيء متطوعين جدد من إسبانيا - أي أنه يجب استمرار التقليد بدون الانتقال الطبيعي للغات من خلال تنشئة الأطفال - فإن اللغة يجب تدريسها من جديد، وبصورة مستمرة لكل جيل جديد من المتعلمين الكبار البالغين. ولأول مرة في تاريخ العالم، صار هناك طلب واضح على نصوص كتب مقررة لتعليم اللغة، ولا سيما القواعد النحوية، والمعاجم، وكذلك نسخ من كتب الصلوات والاعترافات للكهنة بلغات الأهالي الأصليين، فتلك هي الأدوات المهنية للتبشير الكاثوليكي(**).

وكان من المناسب عندئذٍ توفر الوسائل التقنية لتلبية هذا الطلب. فأقيمت المطابع في مدينة المكسيك في العام 1535، فكان أول إنتاج معروف إليها كتاباً عن تقديم القداس بصورة جماعية لتعليم العقيدة المسيحية من أجل الاستخدام الكهنوتي نشر في العام 1539، رغم أن عنوانه قد كتب بلغة الناحواتل. وتبعه في العام 1546 كتاب من تأليف الراهب فراي ألونصو دي مولينا عن العقيدة المسيحية بالتقليد اللغوي المكسيكي، وفي العام 1547 كتاب عن قواعد اللغة المكسيكية من تأليف الأب أندريه دي أولموس، ومجلد مرافق له عن مفردات

(*) كان الأهالي الأصليون في هسبانيولا، وكوبا، وباقي جزر الكاريبي التي اكتشفت في الجيل الأسبق وأخضعت فوراً للعبودية للأسبان الذين عينوا أنفسهم سادة عليها، يتكلمون لغات أكثر من اللازم ولها ناطقون بها أقل من اللازم، وهي لغات ماتت وتلاشت بسرعة أكثر من اللازم، إلى درجة منعت ترسخ الجهد التبشيري هناك.

(**) حول كون هذا الشيء فريداً من نوعه، انظر أوستلر (2004). كانت جميع المعاجم تقريباً من اللغة الإسبانية إلى اللغات الغربية الأخرى وليس العكس. فكان الهدف هو التدريس، وليس التعلم، وصياغة رموز للفكر الإسباني، وإمراره بالتالي إلى الهنود [الحمر]، وليس حل رموز أي شيء جديد قد يقوله أولئك الهنود.

اللغة المكسيكية(*). وتبعت ذلك مجلدات بلغات البلد الأخرى، بدءاً بالشروح التفسيرية للعقائد المسيحية بلغة الهواستك Huastec في العام 1548، ولغة المكستيك Mixtec في العام 1550. ولم تستطع البيرو أن تنتظر مجيء المطابع. فتم طبع أول كتاب عن قواعد لغة قيشوَا في الحقيقة في مدينة بلد الوليد في إسبانيا في العام 1560. ولكن عندما بدأت الطباعة في ليما (في بيرو) في العام 1583 كان من بين منتجاتها الأولى كتب عن تعليم اللغة الإسبانية للناطقين بلغة قيشوَا، وتعليم لغة قيشوَا للناطقين بالإسبانية، وعن تعليم العقائد المسيحية بلغات أخرى لعامة الناس وذلك في العامين 1583 و1584 على التوالي[15].

ولم يكن هذا سوى خدش على السطح للغات القارة غير المعروفة. إذْ إن الحصاد النهائي للمعرفة اللغوية التي تم كسبها في الأمريكتين من أجل خدمة النشاط التبشيري بالدرجة الأولى كان هائلاً. ففي العام 1892، أدرج الكونت فينيازا قائمة من 493 لغة متميزة حددها وتعرف إليها اللغويون الإسبان في الأمريكتين على مدى ثلاثة قرون ونصف القرن من البحوث، وكذلك عناوين وثائق هامة تصف بعض جوانب 369 لغة منها. وفي تلك الفترة قام 667 مؤلفاً منفصلاً بإنتاج 1,188 عملاً[16].

إن العودة إلى الوراء للنظر إلى هذا التعدد اللغوي الهائل في الأمريكتين الذي كشف عنه تغلغل الإمبراطورية الإسبانية تجعلنا نكاد نرتجف من ضخامة ما اضطلع به الإسبان، لأن نشر اللغة الإسبانية كلغة أولى أو ثانية لأناس ينتمون إلى تقاليد كثيرة ومختلفة لم يكن محتوماً بأي حال من الأحوال.

إن وضع اللغة الإسبانية في إمبراطوريتها في القرن السادس عشر، وحتى في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كان شديد الاختلاف عن وضع الإنكليزية في القرنين التاسع عشر والعشرين. فرغم أن الإمبراطورية كانت مؤسسة مفتوحة للإسبان، الذين استمروا يهاجرون إلى المستعمرات إلى أن حققت استقلالها في أوائل القرن التاسع عشر، إلا أنها كانت شيئاً آخر بالنسبة للأهالي الأصليين الريفيين، الناطقين بتلك اللغات الغريبة الـ 493 أو نحوها. فبالنسبة

(*) إن عبارة اللغة المكسيكية تشير إلى لغة الناحواتل، وهي اللغة الرئيسية المشتركة لإمبراطورية الأزتيك (مكسيكا)، وكذلك لإمبراطورية إسبانيا الجديدة التي خلفتها.

لمعظمهم، ممن كانوا على الأغلب يعيشون في مستوطنات جماعية، لم تكن هناك قابلية للحركة جسدياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً، إلا ربما عن طريق التسلسل الهرمي في الكنيسة. فمن الممكن أن يعنى بهم القسس الناطقون بلغاتهم. وفيما عدا ذلك، فقد كانوا منفصلين تماماً عن الاتصال بالسادة الأسبان. فقد عُرِضَتْ على الهنود بطاقة للخلاص في العالم الآخر، ولكن ليس لأي نوع من التقدم في هذا العالم. فكان هذا وضعاً شبيهاً بوضع أوروبا العصور الوسطى أكثر من شبهه بعصر الإصلاح الديني. ومن هنا فإنه لم يكن ممكناً إجراء تحول سريع وتلقائي نحو الإسبانية خارج مجتمعات "الهجناء" والمدن.

بل إن المرء يستطيع أن يتكهن بأنه لو جاءت قوة سياسية فانتقصت من السيطرة الإسبانية أو تفوقت عليها في تلك الفترة لتلاشت اللغة الإسبانية بسرعة شديدة. فبعد كل شيء، نستطيع أن نتذكر ما حدث للسنسكريتية في جنوب شرقي آسيا عند نهاية الألف الميلادي الأول، أو ما حدث لليونانية في الشرق الأدنى عندما تقدم البارثيون ومن بعدهم المسلمون: فقد كانت أوضاع هاتين اللغتين شبيهة بوضع الإسبانية: لغات على أعلى مستوى بقيت محجوزة لنخبة صغيرة، بل إن هناك تجربة شبيهة تبرهن على نقطتنا، بعد طرد الإسبان فعلاً من مستعمراتهم في المحيط الهادئ عند نهاية القرن التاسع عشر.

ولكن عندما ننظر في الطريقة التي شددت فيها الإسبانية قبضتها على السكان الأمريكيين الأصليين، فإننا نحتاج إلى النظر في الأرضيات الخلفية لبعض اللغات الأمريكية التي كانت لا تزال محكية بشكل واسع في القرنين السادس عشر والسابع عشر ولم تكد تخسر شيئاً من مواقعها.

الصراعات الماضية: كيف انتشرت اللغات الأمريكية

في وقت مبكر، كما رأينا، شعر كولومبوس بالإحباط والاكتئاب بسبب العدد الهائل من اللغات وعدم التفاهم المتبادل بين الناطقين بها حسبما رأى في رحلاته. فعند تحركه على طول ساحل البر الرئيسي للأرض الأمريكية، لاحظ

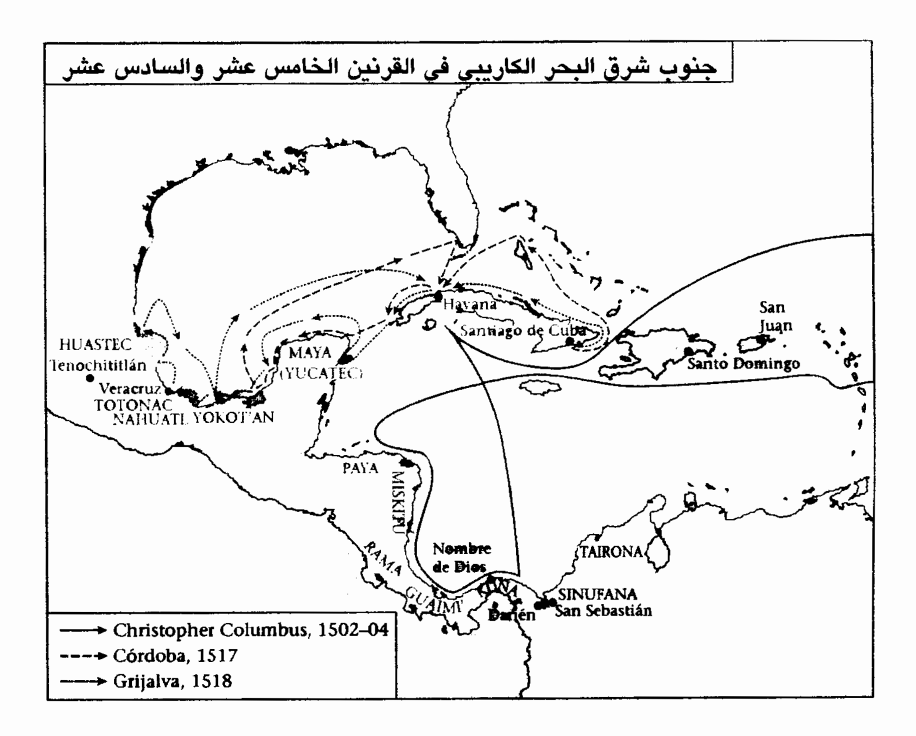
لخيبة أمله أنه 'لا يفهم كل منهم الآخر أكثر مما نفهم نحن العرب(17)'. فالناس الذين التقى بهم أثناء تطوافه عند سواحل ما يسمى اليوم هندوراس، ونيكاراغوا، وبنما، لا بد أنهم كانوا يتكلمون بلغات بايا، وميسكيتو، وغويمي، وكونا.

ولم يكن هناك خلاص من هذه البابل المليئة بلغات يبدو أنها لا تنتهي عندما انطلق الإسبان من قاعدة في سانتياغو دي كوبا لاستكشاف خط الساحل على مبعدة إلى الشمال. وكان هرنانديز دي كوردوبا قد طاف إلى الشمال والشرق من يوكاتان في العام 1517 فالتقى فقط بعشائر مايا الناطقة بلغة يوكاتيك Yucatic عند نزوله إلى البرّ مرتين. وكانت لغة واحدة ولكنها متميزة عن أي لغة إسبانية سبق له أن التقى بها - وليست هناك أي إشارة لأي محاولة للتعرف إلى تلك اللغة أو تعلم أي شيء منها(*). ثم في العام 1518 قام خوان دي غريزالفا برحلة أطول لاستكشاف السواحل، مع مزيد من التوقف في يوكاتان، وتوقف في كسيكالانكو، حيث التقى مع لغة مايا أخرى مختلفة أطلق عليها الإسبان اسم كونتال دي تاباسكو - رغم أن الناطقين بها يسمونها الآن يوكوتان - ثم قام بتوقفات أخرى في بوتونتشان، حيث كانت اللغة السائدة هي زابوتيك، وتبع ذلك توقفان في منطقة فيراكروز الحديثة، حيث كانت اللغة هناك هي توتوناك. وفي تلك الأثناء ظلت لغة الإشارة هي وسيلة الاتصال الأفضل.

لم تكن هذه بداية مشجعة إن كان الإسبان يأملون في إقامة اتصال واسع مع الهنود [الحمر]؛ ولكنها لم تكن بلا جدوى تماماً: فقد كان في أمريكا ألفان من اللغات المحكية في ذلك الوقت، منها 350 لغة في المنطقة الوسطى من المكسيك والبرزخ الذي استكشفه الإسبان أولاً(18).

ورغم ذلك فعندما نجح الإسبان في الاتصال بالولايات الكبيرة المتعددة القوميات

(*) بالإضافة إلى الخطأ في تحديد بعض العبارات بتلك اللغة، وتطبيقها بشكل دائم على الأراضي التي كان هرنانديز دي كوردوبا 'يستكشفها' (ويدعي الحق بها طبعاً باسم التاج الإسباني)، فقد أصبحت عبارة 'نحن من إيكاب' كابو (أي رأس) قوتوش، هي اسم المنطقة إلى اليوم. وإذا تابعنا كتاب دييغو دي لاندا ("علاقة ساحل يوكاتان"، الفصل الثاني، المكتوب في حوالي العام 1566) فهو يقول إنهم يسمونها 'أرض الديكة الرومية والغزلان' وهكذا انتهى بها الأمر لأن تدعى 'يوكاتان'.



في أمريكا ثم في غزو تلك الولايات، وجدوا أن مقولة نبريجا، بل نظريته النبوئية عن كون 'اللغة هي المرافقة الدائمة للإمبراطورية' تؤيدها وتثبتها الأوضاع في العالم الجديد بشكل كبير. وكانت الإمبراطوريتان الكبيرتان القديمتان، الأزتيك والإنكا، في الأمريكتين، قد نشرتا لغاتهما في جميع أنحاء ممتلكاتهما التي شملت معظم المكسيك وجبال الأنديز الوسطى والجنوبية، نزولاً حتى المحيط الهادئ. وكانت المستوطنات الكاريبية في شمال الأنديز (في وسط ما يسمى الآن كولومبيا) أقل لفتاً للأنظار من حيث التطور السياسي والاجتماعي، ولكنها مع ذلك مرضية كثيراً للإسبان الباحثين عن الذهب. وكانت تتميز بلغة مشتركة واسعة الانتشار تعرف باسم مويسكا. وعندما وصلت إسبانيا إلى منطقة ريو دي لابلاتا وغران تشاكو في الجنوب، وجدت منطقة شاسعة يتكلم فيها كل واحد لغة توبينامبا أو لغة غواراني(*).

(*) غواراني تسمى هكذا لأسباب تاريخية، لأن أول الناطقين بها الذين التقى بهم الأوروبيون (مع سباستيان كابوت في الأعوام 1526-1529) كانوا هم الغواراني، من الجزر التي في ريو دي لابلاتا والتخوم السفلى لبارانا، وكانت تسميتهم المفضلة هي "آفاييني"، أي 'لغة أهل السهل'.

وهما لغتان متقاربتان بشكل وثيق ويمكن فهمهما بشكل متبادل. وعلى مبعدة إلى الجنوب، في أرض أروكانيا الصقيعية والجبلية كان يعيش المابوش، المحاربون الذين ظلوا يقاومون الاستيلاء الإسباني بنجاح حتى منتصف القرن التاسع عشر، وكانت توحدهم أيضاً لغة مشتركة، تدعى مابودونغون.

وكانت هذه اللغات الواسعة النطاق هي الاستثناء إلى حد كبير، فلا يفهمها إلا أقل من عشرة بالمئة من إقليم أمريكا الوسطى والجنوبية، ولكن هذا الإقليم كان مأهولاً بكثافة من قبل أربعين بالمئة من الشعب. وقد أثبتت اللغات الواسعة الانتشار فائدتها الكبيرة لقوة غازية، لأنها عندما تم توحيدها كلغات مساعدة في الإمبراطورية الجديدة صار بوسعها اختصار عملية الاتصال الطويلة والمرهقة. وبضربة حظ مذهلة تبين أن هذه اللغات كلها عدا واحدة (هي لغة توبينامبا) كانت محكية في أجزاء القارة التي سيتملكها الإسبان. فكانت هذه المجموعة الكبيرة من الفوائد والمزايا اللغوية أحد الأسباب التي جعلت التطور الاقتصادي لإمبراطورية إسبانيا في الأمريكتين يبدأ قبل قرن من تطور اقتصادات البرتغال أو فرنسا أو بريطانيا. ذلك أن نظام الدعم الواسع الكامن وراء تعدين الذهب على نطاق واسع في مناجم زاكاتيكس في المكسيك، والفضة في بوتوسي بجبال الأنديز، كان من المستحيل أن يوجد فيه نوع من اللغة المشتركة، ولكن اللغة لم تكن إسبانية في تلك الأيام.

وهذه اللغات الواسعة النطاق لم تكن دائماً واسعة الانتشار هكذا. وقبل النظر في الفائدة التي استخلصتها الإسبانية منها، يجدر بنا أن نتأمل عملية نشوء المناطق اللغوية لهذه اللغات الأصلية.

انتشار لغة الناحواتل

هل سأذهب، تماماً مثل الزهور التي تذبل؟
هل سيصبح مجدي لا شيء ذات يوم؟
وهل ستكون شهرتي لا شيء في الأرض؟
أفلا تكون زهوراً على الأقل، وأغاني على الأقل!
وا أسفاه وما الذي سيفعله قلبي؟
إننا نمر بلا جدوى في هذه الطريق عبر الأرض!

أغنية بالناحواتل (أغان مكسيكية، المجلد 10، القسم 2 ص 23 وما يليها.)

كانت الأولى من حيث الروعة ومن حيث السكان أيضاً هي المنطقة الناطقة بالناحواتل(*). وكانت هذه اللغة معروفة في الفترة الإسبانية باسم "اللغة المكسيكية"، ما دام الأزتيك (انظر المقدمة) يشيرون إلى أنفسهم باسم مكسيكا، وإلى أرضهم باسم مكسيكو(**). ولكن هذه اللغة لم تكن أبداً محصورة في مجتمع الأزتيك وحدهم. وعلى وجه الدقة، عندما وصل كورتيز إلى وادي المكسيك في العام 1519، كانت الناحواتل محكية عند جيرانهم في تلاكسكالان إلى الشرق أيضاً، خارج دائرة الدويلات التابعة للأزتيك، وهم جيران ثبت أنهم كانوا مستعدين للتحالف مع الإسبان ضد زملائهم الناطقين مثلهم بلغة الناحواتل. ولكن هذا كان واحداً فقط من آثار توزيع الناحواتل الذي سبق الأزتيك تاريخياً. والواقع أن هناك دليلاً على أن حضور اللغة في المنطقة العامة للمكسيك الوسطى يعود إلى القرن السابع الميلادي على الأقل، عندما دمرت النيران مدينة تيوتيهواكان التذكارية الضخمة: ففي ذلك الوقت كان من المفروض أن مجتمع بيبيل قد انتقل إلى الجنوب عن طريق شيء من التفاعل مع حضارة تولتيك التي كانت مسيطرة آنذاك. ولم يترك التولتيك أي أثر ملموس سوى ذكرى مقدسة بين الأزتيك، الذين سيطروا على المكسيك الوسطى بعدهم. ولكن من بين سليلي البيبيل الباقين اليوم الذين يعيشون بعيداً إلى الجنوب في السلفادور، هناك عشرون شخصاً أو نحو ذلك لا يزالون يتكلمون أحد أشكال الناحواتل. وإن الافتراض المباشر ببساطة هو أن الناحواتل كانت لغة جميع الناس الذين كانوا يعيشون في وادي المكسيك عند نهاية الألفية الميلادية الأولى، محيطين بما كان آنذاك بحيرة: التيبانك في آتزكابوتزالكو على الشاطئ الجنوبي الغربي، ولايات تيزكوكو وكولهاكان التي يبدو أنها خلفت التولتيك على الشاطئ الشرقي. وكانت هناك مناطق ناحواتل على مبعدة، إلى الغرب في جاليسكو على شاطئ المحيط

(*) هذا الاسم مشتق من الفعل "ناواتي" أي 'الجهر بالكلام'. وسوف نتمسك بالتهجئة التقليدية لهذا الاسم، المبنية على الإسبانية، وهكذا تلفظ نواتل. وهناك لهجات كثيراً ما تسمى نوات ونوال، وهي (كما يبين اسمها) تختلف في لفظ هذا الحرف الصامت الأخير.

(**) إن حرف x يلفظ أصلاً 'ش' مثل sh بالإنكليزية، ويقع التشديد على حرف الياء 'i' متبوعة بوقفة في أعلى الحنجرة. فكأنها مشيكو.

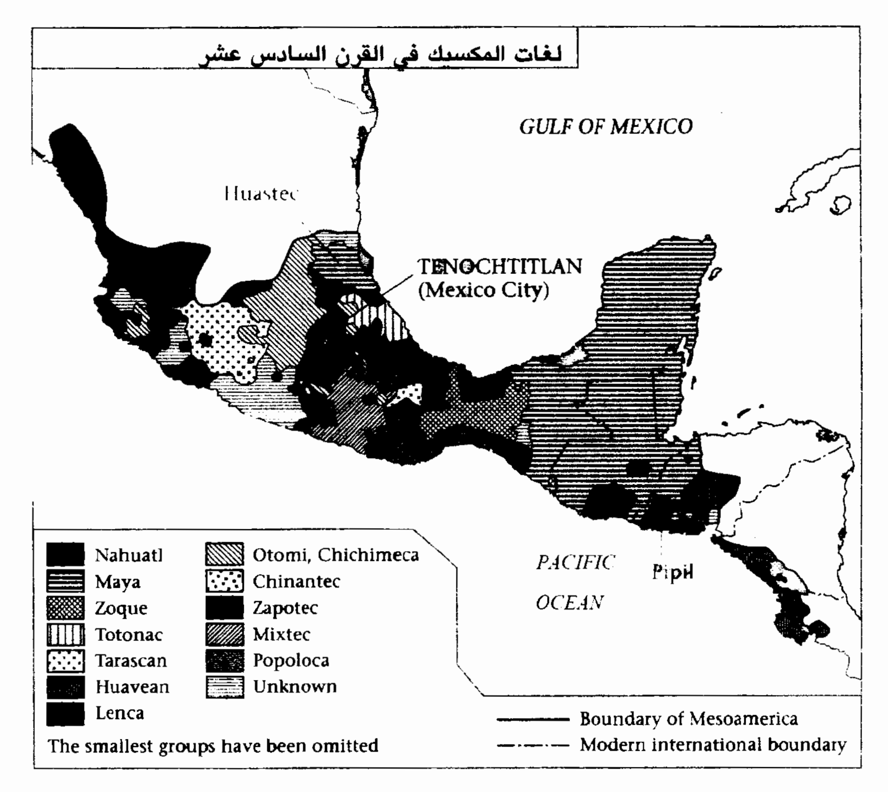
الهادئ، وإلى الشرق في برزخ تهوانتيبيك، ولعلها بقايا إمبراطورية قديمة كانت متركزة على التولتيك أو حتى على التيوتيهواكان.

وقد أظهرت الدراسات المقارنة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أن الناحواتل هي تقريباً العضو الجنوبي الأخير في عائلة تعرف باسم أوتو ـ أزتيكان أو يوتا ـ ناوان. وهي تمتد في قطاع عريض يصل شمالاً إلى شعوب الشوشون والبايوت في أوريغون الحديثة. وهذه الجغرافيا اللغوية المعادة التركيب تتناسب مع أسطورة تأسيس الأزتيك، التي يزعمون بموجبها أنهم جاؤوا من أزتلان، أي 'مكان طيور مالك الحزين'، وهي جزيرة في مكان غير معروف في الشمال الشرقي. وهكذا فربما تعلموا لغة الناحواتل قبل مجيئهم إلى وادي المكسيك في العام 1256، حيث كانوا في البداية جوّالين متشردين وباحثين عن الطعام وآكلين للثعابين(*). ومع ذلك كانوا يعتبرون أنفسهم دائماً فرعاً من شعب شيشيميكا، المشهور بأنه مكون من البدو الصيادين القاطنين في الشمال. فإذا صحت هذه القصة، فلا بد أنهم قد تعلموا لغة الناحواتل في وقت متأخر جداً، لأن لغة شيشيميكا أو 'بيم' لها علاقة بلغة 'أوتومي'، المحكية أيضاً في الشمال والغرب من وادي المكسيك، ولكنها لا تشبه الناحواتل أبداً. فالأزتيك ربما كانوا مثل النورمان في فرنسا، أي أنهم استقروا وتعلموا لغة جديدة قبل أن يبرزوها عن طريق الغزو.

فقد استقروا في بادئ الأمر في منطقة تشابولتيبيك الغربية، ثم طردوا منها فتطوعوا كمرتزقة مع الكولهواكان (وهم شعب آخر كان يدّعي أنه من نسل الشيشيميكا)، فقبلوا مأوى متواضعاً جداً على قاع حمم تيزابان المتجمدة.

قال كوكسكوكستلي [ملك كولهواكان] 'حسناً إنهم وحوش، إنهم شرّيرون.

(*) إن التواريخ المقتبسة هي في الحقيقة محددة بدقة تعادل دقة النص الأصلي في سرد وقائع التاريخ المكسيكي. كانت شعوب أمريكا الوسطى الكثيرة والمختلفة متشاركة في نظام متقن ومفصل من دوائر التقويم الزمني المتداخلة التي لا تسمح بالغموض، حتى ولو لم تكن منسجمة دائماً مع بعضها بعضاً.



فربما يلقون نهايتهم هناك، وتبتلعهم الأفاعي،
لأن هذا مكان إقامة أفاعٍ كثيرة'.
ولكن المكسيكيين فرحوا كثيراً عندما رأوا الأفاعي.
فطبخوها، وشووها، وأكلوها ....

وبعد ذلك بخمسة وعشرين عاماً، أوصلوا الأمور إلى ذروة التأزم. فقد طلبوا أميرةً من الكولهواكان، كعروس كما هو مفترض، ثم ارتكبوا بحقها فظائع نموذجية.

ثم ذبحوا الأميرة وسلخوها،
وبعد سلخها ألبسوا جلدها لكاهن.
وكان الطائر الطنان على اليسار (وهو الإله القَبَلِيّ للأزتيك)، ثم قالوا:
'يا زعماءنا، اذهبوا واستدعوا آكيتومتل [والد الأميرة]'.
فذهب المكسيكيون ليستدعوه
وقالوا: 'يا مولانا، يا حفيدي، يا سيدي، أيها الملك ...
أجدادك المكسيكيون يرجونك، ويقولون،

فليأت ليرى، فليأت ليسلم على الإلهة .
نحن ندعوه'...
وعندما وصل آكيتومتل إلى تيزابان، رحب به المكسيكيون قائلين:
'لقد أتعبت نفسك يا حفيدي، يا سيدي، أيها الملك،
نحن أجدادك، نحن أتباعك، سوف نسبب لك المرض.
فلتشاهد إلهتك، ولتسلم عليها'(*).
فقال لهم: 'حسناً، يا أجدادي'.
وأخذ المطاط، والصمغ، والورود، والتبغ، وتقدمة الأطعمة، وقدمها لها،
ووضعها أمام الإلهة المزيفة التي كانوا قد سلخوها.
ثم قطع آكيتومتل رؤوس طيور السمان أمام إلهته:
ولم يَرَ الشخص الذي قطع رؤوس الطيور أمامه.
ثم قدم البخور، فاشتعل وعاء حرق البخور
ورأى آكيتومتل رجلاً داخل جلد ابنته
فأصابه الرعب فصرخ.
وصاح بأسياده وأتباعه
قائلاً: 'من هم، إيه، أيها الكولهواكان؟
هل رأيتم؟ لقد سلخوا جلد ابنتي!
لن يبقوا هنا، فهم الشياطين!
سوف نذبحهم، سوف نقتلهم بالجملة!
إن الشريرين سوف يُبادون هـهنا!'

فرناندو ألفارادو تيزوزوموك: وقائع التاريخ المكسيكي، ترجمة ثيلما د. سوليفان.

ثم سيق الأزتيك إلى البحيرة، فصنعوا بسرعة مرتجلة أطوافاً من أسهمهم ودروعهم، وعندما وصلوا إلى الضفة الأخرى كانوا ملهمين. فقد كانت هناك نبوءة بأنهم يجب أن يستقروا 'حيث يصرخ النسر، وحيث ينشر جناحيه، وحيث يأكل النسر، وحيث يطير السمك، وحيث يتمزق الثعبان نتفاً'. وعلى مبعدة، وفوق

(*) إن صياغة العبارات شديدة الشبه بتحيات موتيكوهزوما الرسمية لكورتيز. انظر المقدمة والفصل الأول: 'تاريخ متجه للداخل أيضاً' ص 15. ولاحظ أيضاً أنه بموجب تصورات قواعد التشريفات الأزتكية المبحوثة هناك فإن الفريق الأصغر، أي الأزتيك، يقدمون أنفسهم على أنهم هم الأجداد.

نبتة صبار شائكة، شاهدوا هذه الرؤيا لنسر يأكل ثعباناً، وصرخ فيهم صوت يقول: 'أيها المكسيكيون، هنا سيكون مقركم!' ولكن لم يَرَ أحدٌ منهم المتكلم. فعرفوا أن الجزر المليئة بالقصب والتي يمكن الدفاع عنها في وسط البحيرة ستكون موطنهم، وهي تينوكتيلان، أي 'مكان الصبارة الشائكة.' وكانت تلك سنة 'البيت الثاني' أي عام 1325.

كان هذا أصل مدينة المعجزة في البحيرة الواسعة، التي سلبت عقول الغزاة الإسبان عندما وصلوا إليها في تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1519. كان الأزتيك قد أعادوا تجمعهم وازدهروا في موطنهم على أرض البحيرة مدة مئة عام، ثم بدؤوا يوسعون ممتلكاتهم عن طريق سلسلة من الحروب العدوانية. فأولاً، تحت حكم إتزكوتل أي 'الثعبان الأسود'، 1427 ـ 1440، سيطروا على وادي المكسيك ككل. ثم تحت حكم موتيكوهزوما الأول إلهويكامينا (أي 'مستهدف السماء') طوقوا أرض جيرانهم المقاومين لهم من الغرب في هوتكسوتزينغو وتلاكسالا، كي يصلوا إلى ساحل البحر الكاريبي والمرتفعات الوسطى إلى الجنوب. وأضاف إلى الإمبراطورية حاكمان آخران طال عهدهما، بحيث كان الأزتيك عند بداية القرن السادس عشر قد غزوا حوالي مئة ألف كيلو متر مربع من الأرض في وسط المكسيك الحديثة، من الكاريبي إلى المحيط الهادئ، بما في ذلك مقاطعة كسوكونو تشكو الغربية المحصورة على ساحل المحيط الهادئ عند حدود غواتيمالا.

وقد تزعم وزير واحد، هو تلاكاليل، هذا التوسع الدموي على مدى العقود الخمسة الأولى. فكانت عينه على المستقبل، وكانت سياسته هي إحراق جميع كتب الشعوب التي غزاها كي يزيل ذكريات ماضيها الذي سبق الأزتيك. ورغم أن هوتكسوتزينغو وتلاكسالا قد تم تجنبهما والالتفاف عليهما في التقدم الأزتيكي، فقد فرض عليهما اتفاقاً غريباً لشن حرب مستمرة ولكنها منظمة هي 'حرب الوردة'، وهي اشتباك منظم لأسر سجناء من أجل تقديمهم كأضحيات. وكلمة 'وردة' لها معنى إيجابي خيالي في التصوير بلغة الناحواتل (فهناك مثلاً عبارة 'وردة الغناء'، بمعنى 'الشِّعْر'، كما استخدمت في الأبيات الواردة في بداية هذا القسم، ولكنها لا تأتي أبداً متحررة من الارتباط بدور الورد في حالات تقديم الأضاحي، تماماً كالدم البشري.

وعن طريق عدوان الأزتيك الناجح هذا، انتشرت معرفة الناحواتل في جميع أنحاء المكسيك الوسطى، ولكن يبدو أن ذلك لم يحدث على حساب لغات الناس الفرعيين. بل إن الأزتيك قد نصبوا مسؤولين، وخاصة مراقبين لجباية الإتاوات، في كل المدن الكبرى، وضمنوا أن تقدم الشعوب الخاضعة لهم هيئة من المترجمين كي يضمنوا إيصال رغبات الحكام. فقد كان هناك اثنان من الناطقين بالناحواتل بين المسؤولين من إقليم توتوناك الخاضع لهم التقيا مع كورتيز عند نزوله. ومن الواضح أن لغة الناحواتل قد انتشرت عن طريق تحركات أخرى مجهولة للسكان قبل ذلك. وعلى سبيل المثال، فإن مترجمة كورتيز وهي مالين - تزين، كانت من الناطقين الأصليين بتلك اللغة، ولكنها حصلت عليها في كوتزاكولاكوس، على ساحل الكاريبي على بعد 50 كيلو متراً إلى الجنوب من حدود إمبراطورية الأزتيك.

وقبل الغزو الإسباني، يجب اعتبار الناحواتل في أفضل الحالات لغة مشتركة فعالة لإمبراطورية متعددة القوميات واللغات: فقد كانت الإمبراطورية تضم مناطق يتكلم أهلها الأصليون حتى اليوم بلغات زابوتيك، وميكستيك، وتاراسكان، وأوتومي، وهواستيك، وتوتوناك، ولا صلة لأي منها بالأخرى ولا بلغة الناحواتل. ولكن في القرن الخامس عشر لا بد أن الاتصال بين الأراضي الخاضعة وبين المركز في تينوكتيتلان كان كثيفاً على مستوى جباية الإتاوات، وكذلك عن طريق شبكة التجار، الذين كانوا يعملون أيضاً كسفراء وجواسيس، ويحتلون أماكن عليا في التسلسل الهرمي الأزتيكي بحيث كان بوسعهم أن يقدموا عبيدهم كأضاحٍ إلى هوتزيلوبوكتلي مع أسرى الحرب الذين كان يقدمهم المحاربون الكبار.

انتشار لغة قيشوا

أيها الرجل الأحمر المتوهّج مثل النار
وعلى ذقنه يرفع صوفاً سميكاً،
من المستحيل عليَّ تماماً
أن أفهم لغتك الغريبة المشؤومة.

فأنا لا أعرف ماذا تقول لي،
ولا أستطيع أن أعرف بأي طريقة.

(شخص من الإنكا، يخاطب بيزارو، قبل معركة كاجاماركا)
مأساة نهاية أتاوالبا[19]

كان انتشار اللغة عملية أكثر تعقيداً في نمو الإمبراطورية العظيمة الأخرى السابقة لكولومبوس، وهي مملكة الإنكا المعروفة باسم 'الحصص الأربع'. فعندما وصلت الإسبانية إلى بيرو كانت إمبراطوريتها ولغتها تشمل السهل المرتفع بكامله إلى الغرب من جبال الأنديز، من كويتو في الشمال إلى تالكا في الجنوب، وتربطهما الطريق الملكية الممتدة لمسافة 4000 كيلو متر، وتوحد في ظل حكومة واحدة قطاعات الأنديز والمحيط الهادئ من الأكوادور الحديثة، والبيرو، وبوليفا، وتشيلي الشمالية. وكانت اللغة معروفة لدى الناطقين الأصليين بها باسم "الكلام البشري". ولكن لم يكن لها مصطلح مقبول عندما وصل الإسبان. فالإنكا غارسيلاسو، وهي كتابة ثنائية اللغة جيدة الاتصالات عند نهاية القرن السادس عشر، تشير إليها دائماً باعتبارها 'لغة البلاط في كوزكو'. غير أن أول كتاب قواعد نحوية منشور من تأليف دومنغو دي سانتو توماس في العام 1560 يطلق عليها اسم "اللغة العامة في بيرو، ... قيشوا"، متبعاً بذلك تقليداً تحت المصادقة عليه لمدة عشرين عاماً على الأقل[20]، فالتصق بها هذا الاسم. ويشير مصطلح "قيشوا" في الحقيقة إلى 'المنطقة المعتدلة'، أو 'الوادي' الذي يتوسط بين الساحل والمرتفعات. وكان الرأي السائد عموماً في ذلك الوقت هو أن المنطقة المعتدلة حول أنداهوايلاس في مقاطعة أبوريماك إلى الجنوب من مدينة كوزكو (أي 'السرة' ـ عاصمة الإنكا) كانت هي الأرض الداخلية للغة[21].

والواقع أن هذا يبدو عقلنةً متأخرة جاءت فيما بعد[22]. فالقيشوا كانت في الأصل لغة منطقة ساحلية حول ليما، ولها عرّاف موقعه في باتشاكاماج، أي 'حاكم الأرض'، وهي قاعدة مجتمع تجاري محمول بحراً يدعى تشينكا، فنشروا لغتهم أساساً كلهجة تجارية اصطلاحية باتجاه الشمال، وخاصة إلى المرتفعات الشمالية حول كاجاماركا، وإلى داخل الإكوادور، المنطقة التي كانت ستدعى

"تشينكا ـ سويو"، في الجزء الشمالي الأقصى من إمبراطورية الإنكا. وقد حدث هذا كله في الألف الميلادي الأول، قبل زمن طويل من تحول الإنكا إلى قوة يحسب حسابها. فإلصاق اللغة بإمبراطورية الإنكا المتنامية قد جاء على شكل فكرة لاحقة تقريباً، عن طريق عملية شبيهة بتبني الإمبراطور الفارسي الداهية دارا اللغة الآرامية (انظر الفصل الثالث: 'القصة باختصار: الوثبات اللغوية'، ص 84).

وقد بدأت قصة الإنكا على مبعدة إلى الجنوب، على السواحل الجنوبية لبحيرة تيتيكاكا، حيث أقامت مجموعة ناطقة بلغة بوكينا مركزاً كبيراً يعرف الآن باسم تياهواناكو. ويبدو أنهم قاموا في الألف الميلادي الأول، بالتنسيق مع الناطقين بالخاكي، وهي لغة أخرى إلى الشمال (وهي سلف لغة الآيمارا الحديثة، التي لا تزال محكية في بوليفيا) فطوروا معاً منطقة تجارة إلى الشمال والغرب، وهذه التجارة نشرت المعرفة بلغة أيمارا، وشقيقتيها لغتي كاواكي وخاكارو (اللتين لا تزال بعض آثارهما باقية في جنوب شرقي ليما)، فوق جزء كبير من منطقة بيرو الجنوبية. وهي مشاهَدَة في السجل الأثري في طراز متميز من الفخّار، تصور وجهاً تحيط به أشعة أو ثعابين، لعله الإله الخالق [في اعتقادهم] فيراكوتشا. وفي الحقيقة لا يزال من الممكن العثور على أسماء أماكن تنبع من هذه الفترة، مثل كاجاماركا نفسها (ومعناها 'مدينة الوادي').

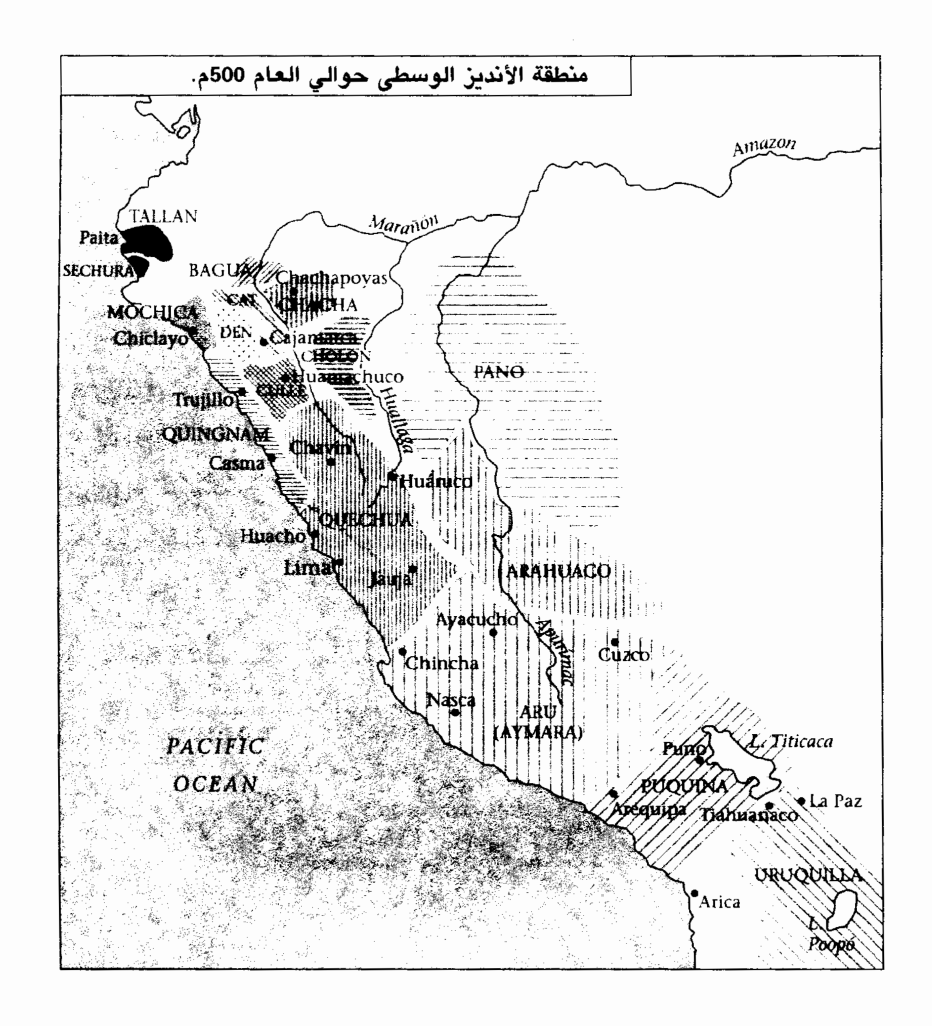
ويبدو أن حكام تياهواناكو وجدوا أن موطنهم القديم مهدد بالوحول المنزلقة، فانتقلوا عبر بحيرة تيتيكاكا أو حولها، ليقيموا قاعدة قيادة جديدة في كوزكو: فكان ذلك بدء صعود الإنكا الذي خلدته أساطيرهم باعتباره سيرة حياة ملكهم الأول مانكو كاباك الذي ظهر من البحيرة، حاملاً صولجاناً ذهبياً يريهم أين يجب أن يستقروا. (ولم يكن ممكناً غرس ذلك الصولجان في الأرض رأساً إلا في كوزكو). وقد جاء الملك مع زوجته ماما أوكلو. فقاما معاً (ولكن على التوالي) بتعليم الرجال والنساء فنون الحضارة. وعند هذه النقطة، تقبل الإنكا آيمارا كلغة الأمر الواقع لمملكتهم، وحافظوا على البوكينا كلغة النخبة المستعملة في البلاط (وبالطبع فقد ظلت تستخدم من قبل 'أقاربهم الفقراء' الذين خلفوهم

وراءهم جنوبي بحيرة تيتيكاكا.) ولا بد أن كوزكو كانت مدينة ثنائية اللغة. وبقي هذا الوضع بلا تغيير طيلة حوالي تسعة أجيال (من إنكا مانكو كاباك إلى باتشاكوتيك)، بينما راحت مملكة الإنكا تتسع شرقاً وجنوباً ثم شمالاً في آخر الأمر.

ثم بدأ العدوان الخطير في أيام إنكا باتشاكوتيك. فالتوسع نحو الشمال ورط ممتلكات الإنكا في نزاع مع التشينكا: ولكن الحل الذي تم التوصل إليه كان سلمياً، وإيجابياً للغاية. إذ إن باتشاكوتيك (الذي كان متزوجاً من أخته)، قدم ولده توباك يوبانكوي الرهيب للزواج من أميرة من التشينكا. فكانت النتيجة اندماج ممتلكات الإنكا والتشينكا. وأدى ذلك إلى تغيير اللغة الإمبراطورية، من الآيمارا إلى القيشوا. والمفروض أن ذلك كان انعكاساً لحكم على أي اللغتين كانت أوسع انتشاراً وفائدة لممالك الإنكا والتشينكا مجتمعة. ولمدة من الزمن صارت كوزكو مدينة ثلاثية اللغات. وكان ذلك قبل الغزو الإسباني في العام 1528 بأقل من مئة عام بكثير. وكانت لغة القيشوا في مدينة كوزكو، برغم كل أهميتها السياسية، ما تزال تعتبر نوعية دون المستوى يحب المترجمون من الشمال أن يحتقروها. وبعد ذلك تم تقديم اللغة الجديدة مع التغلغلات المفاجئة والحربية للغاية للإمبراطورية التي نقلتها تحت حكم توباك يوبانكوي شمالاً إلى كويتو، وفي طريقها ضمت إليها مملكة شيمو الهامة، وجنوباً إلى داخل تشيلي.

ويصر الأب بلاس فاليرا على سياسات التلاقح اللغوي الثقافي التي تابعها الإنكا ضمن ممتلكاتهم.

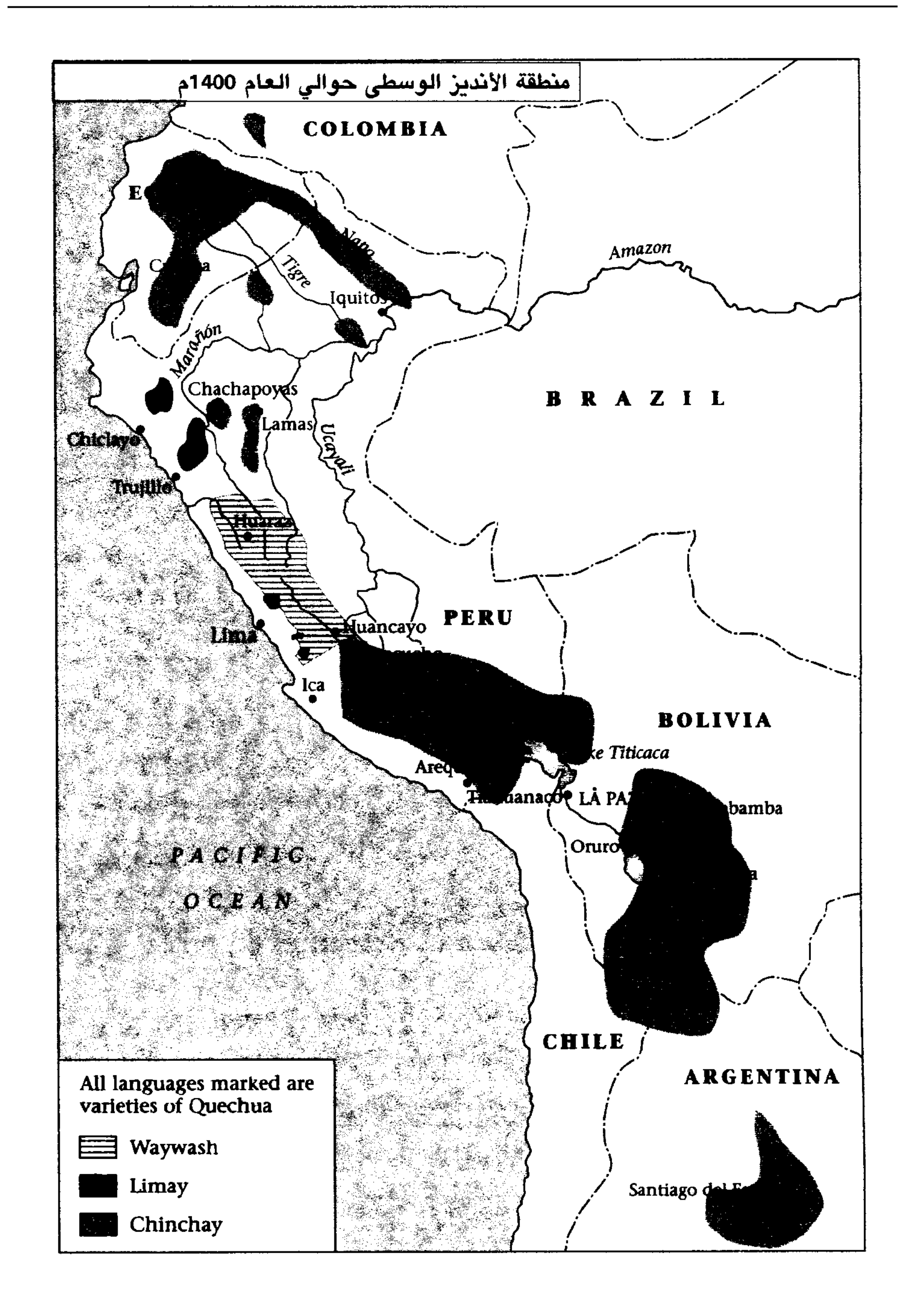
> ويبقى أن نقول شيئاً عن اللغة العامة لأهالي البيرو الأصليين. صحيح أن كل مقاطعة كانت لها لغتها الخاصة بها والمختلفة عن اللغات الأخرى، ولكن هناك لغة جامعة يسمونها كوزكو كانت مستخدمة في أيام ملوك الإنكا، من كويتو إلى مملكة تشيلي ومملكة توكومان. وقد راح يستخدمها رؤساء القبائل والهنود [الحمر] الذين احتفظ بهم الإسبان كخدم لإدارة الأعمال. وكان ملوك الإنكا منذ الزمن القديم كلما أخضعوا أي مملكة أو مقاطعة ... يطلبون من أتباعهم الذين ينصّبونهم لحكمها أن يتعلموا لغة الكوزكو المستخدمة في البلاط وأن يعلموها لأطفالهم، ولكي يتأكدوا أن هذا الأمر ليس عبثاً، كانوا يعطونهم هنوداً ناطقين أصليين بالكوزكو



منطقة الأنديز الوسطى حوالي العام 500م.

ليعلموهم اللغة وعادات البلاط. وفي مثل هذه المقاطعات والقرى كانوا يعطونهم بيوتاً، وأراضي، وممتلكات عقارية، بحيث يعوّدون أنفسهم على العيش بشكل طبيعي هناك ليصبحوا معلمين دائمين لأطفالهم من بعدهم. وكان حكام الإنكا يفضلون في وظائف الدولة، في الحرب وفي السلم، أفضل الناطقين "باللغة العامة". وبموجب هذه الشروط، حكم الإنكا وأداروا إمبراطوريتهم كلها في سلام وهدوء. وكان حكام الأمم المختلفة مثل الإخوة، لأنهم جميعاً كانوا يتكلمون لغة واحدة...[23].

ويضيف إنكا غارسيلاسو:



منطقة الأنديز الوسطى حوالي العام 1400م

أرسل أولئك الملوك ورثة أسياد الأتباع ليتعلموا في البلاط ويقيموا هناك حتى يحصلوا على إرثهم، كي يتثقفوا ويعوّدوا أنفسهم على ظروف الإنكا

> وعاداتهم، ويعاملوهم بلطف، بحيث إنهم فيما بعد، وبناء على قوة ماضيهم في التواصل الاجتماعي ومعرفتهم سيحبونهم ويخدمونهم بتعاطف: وكانوا يسمونهم "ميتماك"، لأنهم كانوا قادمين جداً ... وهذه النصيحة سهلت تعلم "اللغة العامة" بمتعة أكثر وبجهدٍ وحزنٍ أقل .... فكانوا كلما عادوا إلى أراضيهم أخذوا معهم شيئاً تعلموه من لغة البلاط، فيتحدثون به بتفاخر بين أبناء شعبهم، باعتباره لغة قوم يشعرون بأنهم مقدسون ومحسودون إلى درجة أن الباقين يرغبون في تعلمها ويكافحون من أجل ذلك .... وبهذه الطريقة، بحلاوة وسهولة، وبدون الجهد الخاص لمدراء المدارس، تعلموا وتكلموا اللغة العامة لكوزكو في مملكة مساحتها أقل من 1300 فرسخ (4000 كيلو متر) من الامتداد الذي كان قد كسبه أولئك الملوك[24].

وإلى جانب هذه الطرق اللطيفة أضاف الإنكا طريقة أقسى في إعادة توطين بعض العائلات المهاجرة الناطقة بلغة القيشوا في بعض مناطق المستعمرات، وقد عرفت تلك العائلات باسم ’المُعاد زرعهم‘. وكان الغرض من ذلك إذابة السكان الأصليين وتهدئتهم. وكان هناك عشرة آلاف أو اثنا عشر ألفاً، تم توطينهم بشيء من الدهاء والبراعة[25]: ’فقد تم نقلهم إلى قرى ومقاطعات لها نفس مزاج وعادات القرى التي جاؤوا منها، لأنهم لو كانوا من بلد بارد لتم أخذهم إلى بلد بارد، ولو كانوا من بلد حار فإلى بلد حار ... وقد تم إعطاؤهم ممتلكات في حقول عملهم وأراضيها، مع مكان لبناء منازلهم[26]‘.

انتشار لغات تشيبتشا، وغواراني، ومابودونغون

> أبو نيامانdue الحقيقي، أول واحد .....
> وقف مستقيماً
> ومن الحكمة التي في رأسه الإلهي
> وبفضل حكمته المعطاة
> تصور أصل اللغة الإنسانية
> وصنعها من جزء من رأسه الإلهي.
> قبل أن توجد الأرض

وسط الظلام الأزلي
وقبل أن تكون هناك معرفة بالأشياء
أنشأ ما سيصبح أساساً للغة الإنسانية
الأب الحقيقي الأول لنياماندو
وصنعها من جزء من رأسه الإلهي.

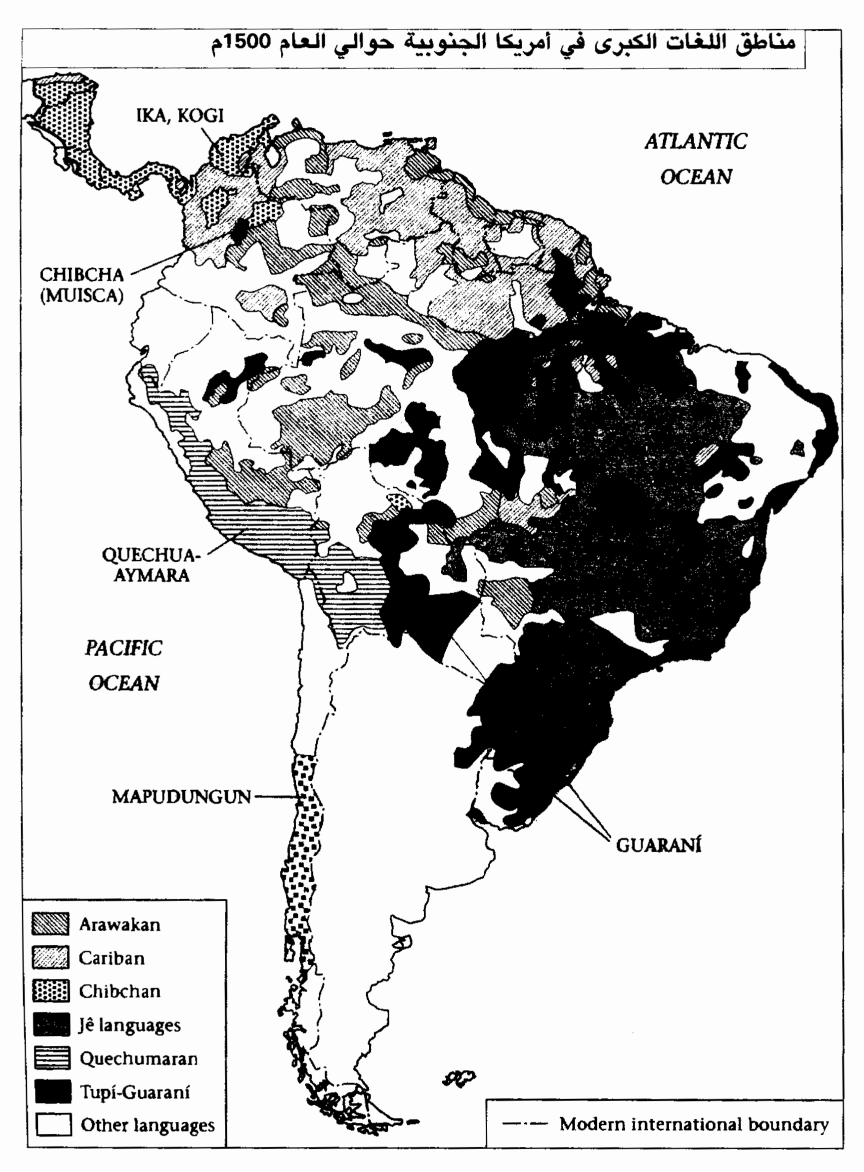
آيفو رابيتا، 'أساس اللغة الإنسانية'
أسطورة مبايا غواراني عن الخلق[27]

وتدريجياً ابتعدنا عن الحيوانات أكثر فأكثر. فالفرق كان ضئيلاً في العصور الأولى. وكان لجميع الكائنات الحية جسد آشي، أي جسد شخص، وتتصرف على هذا الأساس. وكان الشبه الرئيسي بينها هو امتلاكها للغة.

آشي بيتي، 'بداية آشي'
أسطورة آشي - غواراني عن الخلق[28]

وأقل من ذلك بكثير هي المعلومات المعروفة عن سيرة حياة اللغات الأخرى التي صارت واسعة الانتشار قبل مجيء الإسبان.

إن سهل كانديناماركا المرتفع في الأنديز الشمالية كان أحادي اللغة إلى حد كبير في لغة تشيبتشا (أو 'مُوْيِسْكا') عندما وصل الإسبان في العام 1536، ولم تكن المنطقة موحدة سياسياً في ذلك الوقت على أية حال. ومع وجود ثلاثة مراكز كبرى على الأقل، في تونجا (هونزا) في الشمال، وبوغوتا (مويكيتا) في الجنوب، وسوغاموسو (سوغاموسي)، المركز الديني الكبير في الشمال، كان هناك أيضاً شيء من الفرق في اللهجات. وكان الغازي غونزالو خيمينيز دي قويسادا (وهو محام حر آخر، مثل كورتيز) قد جلب معه مترجمين من الساحل، ولكن نظراً لكون اللغات الساحلية عندئذ كما هي الآن، (مثل الإيكا، والكوجي)، فليس من المحتمل أن يكونوا قد توصلوا بأي شيء مثل لغاتهم نفسها: والأرجح أنه كان لهم إلمام بلغة تشيبتشا من العلاقات التجارية التقليدية بين الجبال والساحل. ورغم أنه كان هناك تسلسل هرمي اجتماعي بين التشيبتشا وتنظيم عسكري مرتبط بالحملات الرسمية بين المراكز المختلفة (وكذلك بين جيرانهم غير الناطقين بلغة التشيبتشا)، فليس هناك دليل على أن اللغة قد انتشرت



بواسطة أي نفوذ أو تأثير سياسي، أو عسكري، أو اقتصادي. والأرجح أن اللغة قد ترسخت ببساطة على أيدي القبائل التي استقرت هناك. ومن الواضح أن مجموعتهم العرقية كانت هناك لبعض الوقت؛ وكانت هناك لغات علاقاتها متقاربة ووثيقة قد تطورت على بعد مئتي كيلو متر إلى الشمال الشرقي في صفوف

قبائل الدويت Duit (المنقرضة الآن) والتونيبو (المعروفة أيضاً باسم أووا) التي لا تزال تعيش وتُحكى لغتها على السفوح الشرقية لجبال الأنديز.

والمعلومات المتوفرة عن توبي ـ غواراني أقل حتى من ذلك، ولكن اللغة كانت محكية على نطاق أوسع بكثير عبر الأراضي المنخفضة في أمريكا الجنوبية. فقد عُثِرَ على أشكال منها في الشمال حتى سورينام، شمالي نهر الأمازون، وإلى الغرب في جيوبٍ على حدود كولومبيا بين البرازيل وبيرو. وكانت محكية (باسم لغة توبينامبا) في جميع أنحاء البرازيل الوسطى والجنوبية الشرقية، وفي بوليفيا الشرقية (حيث عرفت هناك باسم لغة تشيريغوانو)، وفي باراغواي (باسم غواراني). وربما كان انتشارها مرتبطاً بتقدم الزراعة بأسلوب أمريكا الوسطى عبر القارة لمحاصيل الذرة، والفاصولياء، والقرع، تدعمها وتكملها البطاطس، والمنيهوت، والفستق، والفلفل الحار[29].

والمعلومات المعروفة أو التي يمكن استخلاصها عن ماضي قبائل المابوش أقل حتى من ذلك. فقد حافظوا على استقلالهم حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهكذا فإن الاتصال الإسباني بهم قد جاء بعد فوات أوان أي استخدام للغتهم، المسماة مابودونغون، كلغةٍ عامة. إن استخدام لغة وحيدة عبر منطقتهم الشاسعة يوحي بأنهم كانوا مجموعة وحيدة استولت على منطقة لم تكن شديدة الخصوبة، وانتشروا فوقها بشكل خفيف غير كثيف.

ويجب أن نلتفت الآن إلى السياسات التي اتبعها الإسبان لتنظيم مستعمراتهم لغوياً. ولكن قبل أن نفعل ذلك يجدر بنا أن نشير إلى أن هناك علاقة ترابط واضحة بين درجة التنظيم السياسي لمجموعةٍ ذات لغة واسعة الانتشار، وبين تطور أدبها بعد اتصال الإسبان بها (والذي استفاد من نقل نظام كتابةٍ بالحروف الرومانية). فهناك أعمال أدبية كثيرة بلغة الناحواتل ولغة القيشوا يعود تاريخها إلى الفترة التي تلت الغزو الإسباني مباشرة، وهي مكتوبة في أغلب الأحيان بأيدي النسل المتحدر مباشرة من النخب التي حكمت المكسيك وبيرو من قبل(*). وعلى عكس ذلك، فإن

(*) يبدو أن شيئاً شبيهاً بذلك قد حدث مع لغات المايا، ولكن بتعاونٍ واعٍ أقل مع الإسبانية أو تقليدها

لغات آيمارا وتشيبتشا وغواراني لم تطور أدباً محلياً أصلياً مكتوباً، رغم أن كلاً منها قد تلقت مقياساً مكتوباً من اللغويين المبشرين بالنصرانية[30]. وبقدر ما نستطيع أن نرى، فإن الأدب بتلك اللغات ظل محصوراً فيما أنتجه الإسبان، ومن أجل دعم عملية التنصير إلى حد كبير.

الحل الكنسي: اللغات العامة

"لقد أمرتم يا صاحب الجلالة أن هؤلاء الهنود يجب أن يتعلموا اللغة القشتالية. وهذا غير ممكن أبداً، إلا إذا كانت اللغة شيئاً غامضاً يتعلمونه بشكل سيئ. فنحن نرى برتغالياً لغته تكاد تكون شيئاً واحداً هي واللغة القشتالية، يمضي ثلاثين عاماً في قشتالة دون أن يستطيع تعلم لغتها. وإذن فهل يتعلمها هؤلاء الناس الذين تختلف لغتهم كثيراً عن لغتنا، ليتكلموها بأسلوب طلق وعذب؟ وإنه يبدو لي أن تأمروا جلالتكم بأن يتعلم كل الهنود اللغة المكسيكية، لأنه يوجد اليوم في كل قرية كثير من الهنود الذين يعرفونها ويتعلمونها بسهولة، وعدد كبير جداً منهم يؤدون طقوس الاعتراف بها. وهي لغة شديدة التألق، متألقة كأي لغة في العالم، وقد كتب لها نحو لقواعدها ومعجم، وترجمت إليها أجزاء كثيرة من الكتاب المقدس، وتم عمل مجموعات من المواعظ بها، وبعض الرهبان باحثون لغويون كبار جداً بهذه اللغة.

الأب رودريغو دي لا كروز، إلى الإمبراطور تشارلس الخامس
المكسيك، رسالة في 4 أيار/مايو [آذار/مارس؟] سنة 1550[31]

نحن أقل من أن نستطيع تعليم الهنود اللغة القشتالية. وهم لا يريدون أن يتكلموها. فمن الأفضل جعل المكسيكية لغة عالمية، فهي واسعة التداول،

في أشكالها الأدبية. ولم يكن الناطقون بتلك اللغات قد اتحدوا تحت حكم قادة أهليين منهم. ومع ذلك فقد طوروا أدباً بالفعل، ولكنه أدب اتبع المبادئ والمعايير والمحتويات المستقاة من تقاليدهم القديمة. وهو يشمل أساطير بوبول فاه البطولية، والمراثي، والحوار المأساوي مع محارب مصيره الموت المحتوم (رابينال آشي)، وكتب تشيلام بالام، التي هي تقاويم روزنامة تقليدية. فكانت أشكالاً وصيغاً من المقاومة السرية للسيطرة المسيحية.

وهم يحبونها. وهناك عقائد ومواعظ، وقواعد نحوية، ومفردات مكتوبة بها.

الأب خوان دي مانسيلا، المفوض العام، إلى الإمبراطور تشارلس الخامس

غواتيمالا، رسالة مؤرخة في 8 أيلول/سبتمبر 1551[32]

إذا كان الإسبان بعقولهم الحادة الذكاء، ومعرفتهم بالعلوم، عاجزين، كما يزعمون، عن تعلم لغة كوزكو العامة، فكيف يستطيع الهنود غير المصقولين وغير المثقفين أن يتعلموا القشتالية؟

الأب بلاس فاليرا

بيرو: منتصف القرن السادس عشر[33]

في الأمر البابوي الرسمي للعام 1493، الصادر من البابا ألكساندر السادس، والذي شكل حق إسبانيا في مستعمراتها، وفي التعليمات الصادرة إلى كولومبوس من الملك فرديناند والملكة إيزابيلا، كان الشيء المأمور به هو تنصير الأهالي الأصليين باعتباره الهدف الأعلى من بناء الإمبراطورية الإسبانية في العالم الجديد. وفي العام 1504 كان الأب بويل، الذي أرسل مع كولومبوس في رحلته الثانية، يشرح لأسياده الملكيين أن نشر البشارة كان يؤخره نقص المترجمين.

ومع ذلك، فقد تحقق تقدم سريع في تنصير منطقة البحر الكاريبي عن طريق اللغة الإسبانية إلى حد كبير. وكما رأينا، فقد كان هناك خليط من اللغات المختلفة المستعملة هناك. ومع عدم وجود لغة مشتركة فقد كان البديل الوحيد هو استخدام كل واحدة من تلك اللغات. وفي العام 1516 طلب الكردينال سيسنيروس حفظةً لغرف المقدسات في الكنائس ليقوموا بتعليم أبناء رؤساء القبائل والناس المهمين القراءة والكتابة، 'ولتعليمهم كيف يتكلمون القشتالية الرومانسية، وكيف يعملون مع رؤساء القبائل والهنود بقدر المستطاع لجعلهم يتكلمون القشتالية'[34]. وتم إيصال عشرين نسخة من كتاب نبريجا: "قواعد اللغة القشتالية " إلى هسبانيولا في العام 1513، أرسلتها الهيئة الحكومية المسؤولة عن شؤون الهنود. فكانت العملية فعالة في تحقيق هدفها المباشر لنشر الإسبانية. وهناك تقارير كثيرة عن رؤساء قبائل السكان الأصليين الذين أتقنوا اللغة وتعلموا قراءتها وكتابتها[35]. ولكن على المدى الأطول قليلاً، فإن الهدف الحقيقي،

وهو تكوين مجتمع جديد من المتنصّرين قد أحبطه الاتجاه المقلق لموت الهنود تحت تأثير الضغط الهائل للاستغلال الإسباني، الذي تبعه استيراد العبيد السود بالجملة من إفريقيا. وعلى أية حال، ففي وضعٍ من الانهيار الكارثي للسكان، وعدم فصل الإسبان عن الهنود، لم يكن عجيباً أنْ تبقى اللغة الإسبانية وحدها.

وأدى انتشار السلطة الإسبانية في القارة إلى خلق وضع مختلف جداً. فبفضل الاندفاع الهائج لحملات الأب دي لاس كاساس من جهة، وحقيقة اختفاء السكان وتلاشيهم من جهة أخرى، كان هناك شعور بالذنب مما فعله الاستغلال الجائح الجامح بسكان جزر الكاريبي الأبرياء، وكان تصميم (في الكنيسة والبلاط الملكي على الأقل) أن ذلك يجب أن لا يحدث. فانتشرت الأوامر والتنظيمات الدينية عبر المستعمرات الجديدة، وحاولت على الفور أن تصل إلى السكان الأصليين بلغاتهم نفسها.

وبسبب أنشطة الهنود السابقة التي استعرضناها، فقد وجد المبشّرون أن التعامل مع الوضع اللغوي في كثير من المناطق كان أسهل بكثير من التعامل مع الوضع في حوض البحر الكاريبي. فقد كانت بعض اللغات منتشرة على نطاق واسع؛ وحتى لو كانت غير معروفة لدى السكان الأصليين جميعاً، فإن كل واحد كان يعرف بأمرها، بل ويجد عادةً أن تحصيلها أسهل من تحصيل الإسبانية الغريبة عنه كلياً.

وبعد جيل من العمل في الميدان، أصدر البلاط الملكي توجيهاً في 7 حزيران/يونيو من العام 1550 يجب بموجبه أن يتعلم رعايا إسبانيا الجدد اللغة الإسبانية بأسرع وقت ممكن:

> بما أن أحد الأشياء الرئيسية التي نرغب بها لصالح هذه الأرض هو الخلاص وتعليم أهلها الأصليين اعتناق عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة، وكذلك أخذهم بسياستنا وعاداتنا الحميدة ومعالجة الوسيلة التي يمكن الحفاظ بها على ذلك إلى النهاية، فإن أبرز هذه الأشياء الرئيسية هو إعطاء الأمر الذي يمكن بموجبه تعليم هؤلاء الناس اللغة القشتالية، لأنه بهذه المعرفة يمكن أن تزيد سهولة تعليمهم قضايا البشارة المقدسة وإكسابهم باقي الأشياء المناسبة لطريقة حياتهم[36].

فكانت هناك مقاومة فورية مباشرة من رجال الكنيسة الذين طلب منهم تنفيذ هذا الأمر. وكانت طبيعة حججهم الجدلية واضحة من الأقوال المقتبسة في أول هذا القسم. فقد كانت وسائل نشر العقيدة متوفرة تحت أيديهم كما قالوا. وهي تستخدم اللغات المحكية على نطاق واسع في المراكز السكانية الكبرى. فكان يبدو أنه لا فائدة من إحلال الإسبانية محلها. وحتى في الأماكن التي لم تكن فيها "لغة عامة" مناسبة وفعالة، فقد كانوا يشعرون بأن اللغات المحلية الأصلية هي الأفضل لتحقيق أغراضهم. فكتب رئيس أساقفة بوغوتا إلى الملك في 12 شباط/فبراير من العام 1577:

> وللأخذ بأيديهم وتجميعهم بوسيلة جيدة، توصلتُ إلى أن أفضل طريقة لذلك ولا شبيه لها هي الوعظ وإعلان البشارة المقدسة لهم بلغاتهم الخاصة. وأقول 'بلغاتهم الخاصة' لأن كل وادٍ أو مقاطعة لها لغة خاصة بها ومختلفة عن لغات الآخرين. وهي ليست مثل البيرو أو إسبانيا الجديدة، حيث لديهم رغم اختلاف اللغات "لغة عامة" مستخدمة في جميع أنحاء هذه الأراضي"[37].

وكان هناك من يقولون إن الكنيسة لم تكن لامبالية في ترويجها لاستخدام اللغات الأصلية المحلية هنا. فالحفاظ على الاتصال عن طريق 'اللغة العامة' أو اللغات الأخرى التي يقل الوصول إليها كان معناه أن القساوسة ظلوا هم قناة الاتصال الوحيدة الفعالة بين الهنود الأصليين ذوي الدم النقي (الذين يشكلون 99 بالمئة من سكان المكسيك عند نهاية القرن السادس عشر، والذين ظلوا يشكلون 55 بالمئة في العام 1810)[38] وبين باقي أنحاء العالم. فبالإضافة إلى الاحتفاظ بهم كنوع من قاعدة للسلطة، فإنهم يستطيعون حمايتهم من مذاهب الإصلاح المؤذية التي كانت متداولة في أوروبا، وحماية الهنود من المصالح الاستعمارية الإسبانية الجشعة. ولكن ليس هناك دليل على أن الكنيسة تعمدت تقييد الوصول للإسبانية: بل لقد جعلتها جزءاً من المنهج، إلى جانب اللاتينية في جميع المدارس. بل إنها عجزت ببساطة عن اللحاق بالتواصل مع جموع الهنود المنعزلين إلى حد كبير

في مستوطنات نائية، أو في مجتمعات منفصلة ليس فيها عدد كبير من الإسبان غير ثنائيي اللغة للتكلم معهم.

وعلى أية حال، فقد كان رد فعل التاج الإسباني مهدئاً. فلم تجر محاولة لفرض "الهوية الملكية" تحت حكم شارل الخامس. وكان بعض رجال الدين في أمريكا مقتنعين بضرورة بذل محاولات لجعل اللغة الإسبانية إجبارية 'ضمن شروط مناسبة'، لأنه لم يكن هناك اصطلاح قياسي معياري موحد وواضح للوعظ[39]. وفي العام 1586 أمر فيليب الثاني نائبه حاكم البيرو بالنظر في المسألة، واتخاذ أي إجراء يبدو له هو الأفضل، ولكنه في العام 1596 رفض مسودة 'الهوية' التي كانت ستنص على تعليم الهنود اللغة الإسبانية بصورة إلزامية في إسبانيا الجديدة، إلى جانب منع أي واحد من رؤسائهم من التحدث إلى شعبه بلغتهم الخاصة. وأضاف إلى ذلك ملاحظة شخصية بقوله: 'استشرني حول هذه القضية بكاملها هنا'. وفي 3 تموز/يوليو عندما تم توقيع الهوية في آخر الأمر احتوت بدلاً من ذلك على تعليمات 'بتعيين مدراء مدارس للراغبين في تعلم اللغة القشتالية بصورة طوعية'، ولكن مع ضمان أن يكون 'رعاة الأبرشيات عارفين جيداً بلغة الهنود الذين يتعين عليهم أن يعلموهم'.

فكانت النتيجة التي ظلت سائدة في القرنين التاليين هي استمرار الوضع الراهن كما هو إلى حد كبير: أي استخدام الإسبانية في المدن، وبصورة متزايدة في المجتمع الهجين؛ ولكن اللغات العامة ظلت تستخدم في الأماكن الأخرى، وعند انعدام وجودها تستخدم اللغات المحلية الأصلية الأخرى. ويبدو أن المحصلة في المدى البعيد صارت تعتمد على وجود مستوطنات هندية مستقلة: وعلى سبيل المثال، ففي غرناطة الجديدة حيث كانت هذه المستوطنات نادرة، فقد تلاشى بالتدريج استخدام لغة تشيبتشا، رغم الاعتراف بها 'كلغة مشتركة عامة' رسمية، فحلت محلها الإسبانية. ومع ذلك فحتى هنا بقيت اللغات الهندية في المناطق النائية. وفي تلك الأثناء ازدهرت اللغات العامة في المكسيك، والبيرو وباراغواي، سواء في مجال الكلام أم في مجال الكتابة، حتى عندما استمرت مجتمعات صغيرة تتكلم لغاتها الخاصة بها.

وكان ما حدث عندئذ هو عملية نقل لمحتويات رؤية إسبانيا للعالم عن طريق اللغات السابقة ذات التداول الأوسع. وهكذا أعفي الإسبان من مشقة تعليم لغتهم على نطاق واسع أو انتظار بضعة أجيال ريثما تنتشر معرفتها؛ وبدلاً من ذلك حصلوا على معرفة اللغات القديمة وحولوها لصالحهم، سواء أكانت تلك اللغات قد نشرتها سلطات حاكمة سابقة - ولا سيما لغات مكسيكا، وإنكا، و(إلى حد ما) تشيبتشا - أم كانت لغات سابقة للتجارة والتواصل - ولا سيما لغة آيمارا في البيرو الجنوبية وبوليفيا، ولغة غواراني في باراغواي.

وكانت أكثر اللغات ازدهاراً في هذين البلدين الأولين في خضوعهما للحكم الإسباني هي لغة الناحواتل بالتأكيد. وبما أن الحكم الإسباني في المكسيك قد أوجد 'جمهورية للهنود' منفصلة عن جمهورية الإسبان وببلاطات منفصلة، فإن الاستخدام الإداري للغة كان منتعشاً. وعلاوة على ذلك، لم يقتصر الأمر على الجهود الكبيرة التي بذلها رجال الدين الإسبان لترجمة المواد الوعظية والطقوسية ونشرها مدعمة - كما رأينا - بملخصات لغوية للمساعدة في تدريب متعلمي اللغة الإسبانية فحسب، بل سرعان ما كان هناك أيضاً أدب أعاد خلق وسرد تاريخ البلد في الفترة السابقة للغزو الهسباني. وقد شمل ذلك قبل كل شيء كتابة التاريخ، والشعر الغنائي. غير أنه قد أضيفت إلى الأجناس القديمة أجناس جديدة، منها ترانيم دينية كالترنيمة التالية التي ألفها الأب برناردو دي ساهاغون الموسوعي بلغة الناحواتل: 'إن حجارة اليشب الكريمة التي أشكلها بشفتي، والتي بعثرتها، والتي نطقت بها هي أغنية مناسبة. وهذه كلها ليست هدية لك وحدها يا بنيّ المحبوب، يا ابن الكنيسة المقدسة، بل إنك تستحق أكثر منها ... إذا اتبعت المسيحية جيداً كطريقة حياة ...'[40]، وكذلك مسرحية دينية عنوانها "أوتو" تتابع التقليد المكسيكي في استعمال الدراما لخدمة العقيدة المسيحية. وموتولينا، واحد من مجموعة بطولية من اثني عشر مبشراً من أول الذين أرسلوا لتنصير المكسيك(*)، يروي بحماسة عدداً

(*) كان "موتولينا" اسماً مستعاراً بلغة الناحواتل، وقد تبناه لأن معناه هو 'الفقير'. وكان الاسم الأصلي لهذا الراهب الفرانسيسكاني هو الأب توريبيو بينافنتي.

من مثل هذه المسرحيات التي تم تمثيلها في العامين 1538 و1539، بما فيها إعلان البشارة، وسقوط آدم وحواء، واستيلاء الصليبيين على القدس، والمفروض أنها كتبت وأخرجت على أيدي الرهبان، ولكن قام بتمثيلها الهنود حصراً[41]. وبعد ذلك بسبعة أجيال كان التقليد ما يزال حياً: ففي العام 1714 قام الكاتب التلاكسكالاني خوان فنتورا واباتا بتأليف عمل أكثر خيالاً إلى حد ما بعنوان "اختراع الصليب المقدس"، وفيه مشهد يواجه فيه إله الأزتيك مكتلانتيكوتلي الإمبراطور الروماني قسطنطين[42]. وحتى يومنا هذا فإنهم يعرضون في مدينة تيبوزتلان مهرجاناً لاعتناق المسيحية في كل عام في الثامن من أيلول/سبتمبر:

> تلاكابايان: يا ساكن الجبال! تلاكابايان يبحث عنك. وها أنذا جئت الآن. لقد جئت لأحيلك إلى طين وتراب، وإلى طين وتراب سأحيلك. فما الذي تخافه الآن عندما تسمع عن شهرتي وكلماتي؟ أين تركت آلهتنا المبجلين؟ لقد سلمت نفسك للأجانب، لأولئك القساوسة السيئين. فاعرف ما الذي يرغب فيه تلاكابايان. فهو لم يفقد رؤيته أبداً. إنك سوف تدمر وتهلك. وقويٌّ قلبي.

> تيبوزتيكو: كيف حدث ذلك في هذا الوقت بالذات، ولماذا جئت الآن بالضبط وأنا أستمتع بوقتي، وأرتاح، وامرح، وأحيي ذكرى العذراء الخالدة، أمّ المسيح، وأمنا الغالية؟ ... ممجدةٌ حقاً هي أمنا الغالية السيدة العذراء، كما يقول المؤلف الإلهي لكتاب الحكماء. فهناك تقول الأغاني المقدسة إن اثنتي عشرة نجمة تحيط برأسها، وأن قدميها يدعمهما القمر المنير، وبذلك فإنه ينتشر فوق كل الأرض والسماء[43].

أما في بيرو، فقد كان الموقف من "اللغة العامة" أكثر تعقيداً. إذ إن لغة القيشوا، مثل الناحواتل كانت مستخدمة على نطاق واسع للتبشير بسيرة حياة المسيح، وأصبحت في الوقت نفسه أداة أدب فيه حنين إلى الماضي يستعيد حياة ما قبل الغزو. ولكن أخذت بها طبقة ملاك الأراضي ذوي الدم الإسباني الصافي، فلم يكونوا متحدرين من

نسل الهنود، كرمز للشرعية المحلية: وهذا يميزهم فوراً عن النخبة الحضرية الناطقة بالإسبانية في مدينة ليما، ولكنه حرم الناس الريفيين من وسيلة لغوية تُبقي سادتهم الإقطاعيين على مبعدة. ومع ذلك فعلى مدى القرنين ونصف القرن اللذين أعقبا الغزو، صارت القيشوا تمثل بشكل متزايد سخط الفلاحين في بيرو؛ وقد انفجر ذلك على شكل تمرد في نصف القرن الأخير، وتوج ذلك بالتمرد العام في العام 1780 تحت حكم الشخص الذي نصَّب نفسه باسم توباك آمارو الثاني (أي 'الثعبان الملكي'). ويقال إنه قبل سحق التمرد، كانت مسرحية "أولانتاي" تمثل على المسرح أمام القادة. وهي معروفة بأنها أفضل عمل في مسرح القيشوا، وهي تحكي قصة حب معذبة تعيشها أميرة من الإنكا تحب محارباً من عامة الناس في ذروة أيام حاكمي الإنكا باتشاكوتيك وتوباك يوبانكي (في منتصف القرن الخامس عشر). وفيما يلي القسم الذي يظهر فيه الإنكا خاصية رحمته بشكل مفاجئ إلى حدٍ مّا.

إنكا يوبانكوي : اختر عقوباتك. تكلم يا ويلاك أومو.
ويلاك أومو : لقد أعطتني الشمس قلباً رحيماً.
إنكا يوبانكوي : يا رومي، إذن يجب أن تتكلم أنت.
رومي نياوي : إن ثمن الذنب يجب أن يكون ميتةً قاسية يا إنكا. فهذا ما يستحقه الرجل صاحب أعظم خطيئة...
إنكا يوبانكوي : هل سمعت تحضير الخوازيق؟ خذوا هؤلاء المتمردين هناك! اقتلوا هؤلاء الرجال الشريرين!

....

أطلقوا السجناء: قفوا أمامي.
لقد أُنقِذتَ من الموت، فاهرب الآن، يا أيل الجبال.
لقد سقطت عند قدمي، واليوم سيعرف العالم
طيبة قلبي. فعليَّ أن أنهضك.
مئة مرة، أيها العدو المنفي. لقد كنت
حاكم آنتي ـ سويو. وأنا أشهد اليوم
إذا كان ذلك يسرني، أنك ستصل إلى أي مستوى ترغب فيه.
كن حاكماً لآنتي ـ سويو، وأحد قوادي إلى الأبد ....

إن لغة آيمارا، التي ظلت محكية في جنوب بيرو، وفيما هو الآن بوليفيا، تعرضت لنوع من اختلاط مفرداتها مع الإسبانية. فكانت الكلمات الكثيرة التي استعارتها من الإسبانية يعبر معظمها عن أفكار مسيحية أو غربية جديدة. ولكنها في بعض الحالات كانت مكيفة للتعبير عن مفاهيم تقليدية. فكلمة 'العذراء' وعبارة 'الأرض المقدسة' صار معناهما 'الأرض الأم' بلغة قيشوا. وفي كثير من الحالات الأخرى فإن بعض كلمات آيمارا صارت لها معانٍ مسيحية، مثل كلمة 'الذنب' أو 'الخطيئة'. وفي هذا المقطع القصير من موعظة في القرن الثامن عشر، نبرز الاستعارات من الإسبانيه بالحرف الأسود:

> ماذا تقول، أيها **المسيحي**؟ ألا ترتعش عندما تسمع هذا؟ استيقظ وأبعد عنك **خطيئة** السكر. وكإنسان **مفكر**، كن عاقلاً، وعش في الطريق الذي حدده **الله**. ولا تجعل نفسك **حيواناً**. ولا تعد لتصبح شيئاً بدون اسم. وضع نهاية لخطيئة السكر والعربدة. ضع نهاية لها، أيها المحبوب[44].

وكانت لغة غواراني هي اللغة الأمريكية الأصلية الوحيدة التي حصلت على اعتراف دائم بها كلغة وطنية رسمية. وكان تغلغل الإسبانية القليل فيها في السنوات المبكرة سببه البعد الشديد للمناطق الناطقة بلغة غواراني في الأمريكتين، وما نتج عن ذلك من نقص النساء الناطقات بالإسبانية لتأسيس عائلات ناطقة بالإسبانية هناك. ولكن اللغة مدينة بمرونتها وصمودها إلى الاستيطان المثالي لمبشرين يسوعيين ببعثاتهم في باراغواي. وقد أقيمت مجتمعاتهم كرد فعل ديني مقدس ومحب للإنسانية ضد نظام "الإنكوميندا"(*) القمعي الظالم حول آسونسيون، فسيطرت على العلاقات بين الأوروبيين والهنود في الفترة من العام 1609 إلى العام 1767. وقد تعطل عملها بفعل غارات تجار

(*) كانت الإنكوميندا *encomienda* مؤسسة اقتصادية عالية في المستعمرات الإسبانية الامريكية؛ كانت أرضاً مستأجرة يمنحها الملك فيعطي الآمر المعين بموجبها حقوقاً كاملة باستغلال عمل الهنود في إقطاعية عقارية، مقابل تلقي الهنود تعليماً دينياً.

الرقيق (المخيفين المعروفين باسم "مملوكوس") فيما بين العامين 1628 و1640، وبفعل أمراء "الإنكوميندا". وفي مجتمعاتهم كان التدريس كله يتم بلغة غواراني. وبذلك كسبت هذه اللغة أساساً قوياً جداً في الثقافة التنصيرية. وإن الطبيعة المثالية للعالم الذي خلقه الرهبان اليسوعيون بهذه الطريقة يمكن رؤيتها في المعنى الحرفي لبعض الكلمات الجديدة التي صارت متداولة، مثل 'سيد العصا الغليظة'، أي رئيس الشرطة، و'غائط المناجم'، أي المال (وهو شيء لا فائدة منه في المجتمعات)[45].

وكان من الدوافع الواضحة لنظام اليسوعيين اللغوي حماية الهنود من الرذائل الأوروبية. ولكن رعاية الإبهام المحتشم اللائق للغة كلاسيكية، وللاتينية تحديداً، كانت سياسةً يتبعها الآباء المثقفون في الأمريكتين، ولم يكن أقل الأسباب لذلك هو سعيهم لإقامة نظام كهنوتي من السكان الأصليين هناك. وقد فتن بعض الآباء بمنجزات تلاميذهم في التعليم الكلاسيكي. فالأب توريبيو موتولينيا، أحد المبشرين الفرانسيسكان الاثني عشر الأصليين المبعوثين إلى المكسيك، يحفظ الحكاية التالية عن انهيار فريق قوي من قشتالة:

> لقد حدث شيء لطيف لقسيس وصل حديثاً من قشتالة، ولم يكن يصدق أن الهنود يعرفون العقيدة المسيحية؛ ولا صلوات الرب، ولا قانون الإيمان المسيحي، وعندما أخبره إسبانيون آخرون أنهم يعرفونها ظل متشككاً، وفي ذلك الوقت تماماً، خرج طالبان من صفهما، فظن القسيس أنهما من باقي الهنود، فسأل واحداً منهما إن كان يعرف صلاة الرب، فأجابه بأنه يعرفها، فطلب منه أن يتلوها، فتلاها، ثم جعله يردد قانون الإيمان المسيحي، فردده الطالب بصورة جيدة تماماً. فتحدى القسيس كلمة منه كان الطالب قد رددها بشكل صحيح. وبما أن الطالب الهندي أكد صحة ما قاله، فقد أنكر القسيس ذلك، فاضطر الطالب إلى سؤاله عن الطريقة الصحيحة، فطرح سؤاله باللاتينية قائلاً: أيها الأب المبجّل، ما هي الحالة الصحيحة؟ وبما أن القسيس لم يكن يعرف قواعد النحو، فقد شعر بالحيرة والضياع وغلب عليه الارتباك[46].

وفي بعض الأماكن، نشر الإسبان "اللغات العامة" إلى ما وراء نطاق

الإمبراطوريات التي أوجدتها قبل مجيء كولومبوس. وتحت حكم الإسبان، وبمساعدة حلفائهم الناطقين بلغة الناحواتل، ولا سيما من تلاكسكالان، الذين كانوا سعيدين جداً بتجريد الأزتيك من ممتلكاتهم، انتشرت لغة الناحواتل نزولاً إلى غواتيمالا، التي كانت حتى ذلك الحين محجوزة للناطقين بلغة مايا. وهذا هو سبب كون كثير من أسماء الأماكن في غواتيمالا من أصل ناحواتلي: فاسم بحيرة آتيتلان الجميلة معناه 'دائرة الماء'، أو كما سموها بلغة تزوتوجيل المحلية: 'بجانب المياه العظيمة'، أما غواتيمالا نفسها فاسمها هو "قواش - تيمال - لان"، أي 'الأرض التي تنتشر فيها الأشجار'، وهي ترجمة لكلمة "كايتشي" (التي لا تزال تستخدم للإشارة إلى أكبر مجموعة لغوية في البلد، حيث إن تهجئتها التقليدية هي Quiche). وهناك نهاية شائعة لأسماء المدن، وهي تينانغو، المأخوذة من "تينانكو"، ومعناها 'في قلعة ...'، فعبارة كتزالتينانغو معناها 'في قلعة طير الكتزال' (وهو من طيور أمريكا الوسطى، له ذيل طويل جداً متعدد الألوان)، وهوهويتينانغو معناها 'في القلعة القديمة' ومومستينانغو معناها 'في قلعة الكنيسة الصغيرة'. وشيشيكاستينانغو معناها 'في قلعة نبات القراص المُر'. وهذه كلها فيها نغمة أجنبية بالتأكيد اليوم، حيث لم تعد الناحواتل محكية في شرق برزخ تيبيهوانتيبيك أو جنوبه، على بعد 500 كيلومتر. كما أن عشائر تلاكسكالان أخذوا لغة الناحواتل إلى الشمال، حتى زاكاتيكس على الأقل، وفي الغرب كان المبشرون يستخدمون لغة الناحواتل لوعظ عشائر تاراسكان في ميشوكان (ناحواتل ميشواكان، أي 'مكان الذين يملكون السمك')، التي لم تكن أبداً جزءاً من ممتلكات الأزتيك[47].

وفي البيرو، تشير الأدلة إلى أن القيشوا كانت قد انتشرت، سواء عن طريق غزوات توباك يوبانكي في القرن الخامس عشر أم عن طريق أسفار تجار تشينتشا شمالاً حتى حدود كولومبيا الحديثة قبل زمن طويل من الغزو الإسباني[48] . وكان الإنكا أيضاً قد أقاموا مستوى معيناً من العلاقة الاقتصادية مع منطقة توكومان إلى الجنوب منهم: فكانت هناك طرق، ومحطات للحاميات، وخانات، وربما أعمال سخرة إلزامية بين فترة وأخرى، من النمط المألوف في إمبراطوريتهم. ولكن التأثير

اللغوي لهذا غير واضح. وعلى أية حال، فتحت الوصاية الإسبانية، قدر للغة أن تعزز انتشارها باتجاه الجنوب. فقد كانت هناك هجرة صافية من بيرو جنوباً إلى منطقة بوتوسي في بوليفيا الحديثة، لتعزيز تطوير تعدين الفضة هناك. وفيما بعد، انتشرت لغة قيشوا أيضاً إلى مقاطعات توكومان، وسانتياغو دل إستور، وقرطبة في الأرجنتين الحديثة. وفي كل هذه المنطقة كانت التغلغلات الإسبانية مصحوبة بأعداد كبيرة من الحاضرين من بيرو ومن المهجنين؛ وهكذا فإن التقدم اللغوي للإمبراطورية كان يميل إلى استخدام لغة قيشوا بدلاً من الإسبانية. وكان النشاط التبشيري أحد العوامل أيضاً بعد أن قام مجلس ليما في العام 1582 ـ 1583 بوضع خطة عامة لتنصير الأمريكتين. وكما هي الحال في كل مكان، فقد وجد الرهبان أن الوعظ باللغة العامة أسرع وأسهل، وفي هذه الفترة، كانت لغة قيشوا لا تزال تحمل نكهة من نفوذ الإنكا ملتصقة بها(*). وعند بداية القرن الثامن عشر، كانت توكومان قد فقدت لغاتها السابقة، وصارت بشكل جوهري منطقة ناطقة بالقيشوا[49].

حلّ الدولة: اعتماد الإسبانية

> إن قساوسة الكنيسة الذين لا يحاولون توسيع أثر القشتالية ودفعها إلى الأمام، والاهتمام بتعليم الهنود كيفية قراءتها وكتابتها فيتركونهم منغلقين على لغتهم هم حسب تفكيري الأعداء العلنيون للأهالي الأصليين، ولسياستهم، ولعقلانيتهم ...
>
> أنطونيو دي لورنزانا إي بويترون، رئيس أساقفة المكسيك، 1769[50]

في منتصف ـ القرن الثامن عشر، عندما كانت إسبانيا قد سيطرت على الأمريكتين لمدة عشرة أجيال كاملة، خاب أمل كثير من الإسبان بانتشار لغتهم بشكل أقل من العالمي بكثير. ويقدر روزنبلات بأنه كان هناك ثلاثة أشخاص ناطقين بلغتهم الأصلية الأم في مقابل كل شخص نشأ على اللغة الإسبانية في

(*) إن أصداء هذه الفخامة السابقة واسعة الانتشار. فقد كانت القيشوا واحدة من اللغات الإحدى عشرة التي استخدمها اليسوعيون في بعثاتهم التبشيرية في باراغواي. وهي لا تزال مأخوذاً بها حتى اليوم في مجتمعات صغيرة في شمال تشيلي، وفي آكر في غرب البرازيل.

المستعمرات الإسبانية عام 1810: فكان هناك تسعة ملايين من الهنود الريفيين في مقابل ثلاثة ملايين من البيض ومختلطي اللغات و "المهجنين "[51]. وقد تعامل رئيس أساقفة المكسيك، أنطونيو دي لورنزانا إي بويترون - وهو إسباني بالطبع - مع مسألة اللغة بشكل جدي وبحزن عاطفي عميق:

> هذه حقيقة ثابتة: إن الحفاظ على لغة الهنود حماقة من رجال حظهم وتعليمهم محصوران بتكلم هذا اللسان الذي تعلموه حتى وهم في سن الطفولة: وهذه عدوى تفصل الهنود عن محادثة الإسبان، وهذا طاعون تصيب عدواه عقيدة إيماننا المقدس؛ وهي علامة ضارة تفصل أهالي بعض القرى الأصليين عن الآخرين باختلاف ألسنتهم وتباعدها، وهي تكلفة زائدة للأبرشيات التي تتطلب قساوسة من لغات مختلفة في مجالهم نفسه، وهي مستحيلة بالنسبة لحسن إدارة الأساقفة[52].

وفي العام 1769، في رسالة رعوية إلى أبرشية رئيس أساقفة المكسيك، اقترح إلغاء كل لغات الأهالي الأصلية عن طريق الاستخدام الإلزامي للغة الإسبانية. ولقد كان ابن عصره في فترة التنوير، عندما كان هناك تقدير متزايد الاتساع لفائدة العقل للإنسانية، وكانت تُقْتَرَحُ سياسات جديدة جذرية لإعطائه فاعلية. وكان مما يعادل ذلك في الأهمية أن بويترون كان قريباً من أُذُنِ ملك إسبانيا، كارلوس الثالث. ونتيجة لذلك فرغم رفض اقتراحه من قبل حاكم المكسيك آنذاك، الذي كان يشعر بأن كل ما هو مطلوب هو التنفيذ الأفضل لمعايير تدريس الإسبانية (التي كان عمرها مئتي عام)، ثم رفضه من قبل المجلس الكامل لجزر الهند الغربية، على الأسس التقليدية التي جعلت مجلس ترنت (عام 1545) يطلب بوضوح تدريس التبشير بلغات الأهالي الأصلية، فإن الملك مع ذلك أمر "بالهوية" الملكية المصيرية المميتة ووقعها في 16 نيسان/إبريل من العام 1770 التي كانت عبارتها الحاسمة تقول: 'من أجل أن يتحقق في وقت واحد انقراض اللغات المختلفة المستعملة في الممتلكات المذكورة، واستعمال القشتالية وحدها'....(*).

(*) مقتبسة في كتاب تيريانا إي آنطورفيزا (1987)، ص 511.

وقد لاحظ المرسوم أن التوصيات الملكية للمدارس بترسيخ القشتالية في كل القرى لم تكن مجدية. ولكن كان المطلوب المادي الملموس في الحقيقة هو أن يعين الأساقفة مساعدين لهم في الأبرشيات منذ ذلك الحين دون الاهتمام بكفاءتهم في اللغات الأخرى غير الإسبانية. ولم يكن هذا موجهاً إلى المكسيك وحدها، بل إلى كل جزء من الإمبراطورية الإسبانية بصراحة واضحة، بما في ذلك الفليبين.

وتبع المرسوم في العام 1782 مرسوم آخر يطلب من السلطات المدنية والدينية أن تتبرع لتمويل أساتذة في اللغة القشتالية. ولكن ذلك لم يؤدّ إلى تحسن واسع النطاق في تعليم الإسبانية في الإمبراطورية. بل إن مكاسب الإسبانية، رغم كونها حقيقية قد حصلت من غياب اللغات الأخرى بشكل شبيه تقريباً بما تخيله مرسوم الهوية: فقد كانت هناك ببساطة رغبة بتلاشي استخدام الهنود للغتهم، بينما راحت السلطات الإسبانية تخاطبهم بشكل متزايد بالإسبانية بالقوة والقهر. وتم سحب كل دعم رسمي للتعليم باللغات الأهلية الأصلية، وانقطع تزويد الجامعات بكراسي تعليمها، وتوقف طبع اللغات المكتوبة بها. وتوقفت المحاكم في المكسيك عن النظر في الدعاوي والالتماسات المكتوبة بالناحواتل. وعلاوة على ذلك، فقد شهدت الفترة نفسها هبوطاً في نفوذ الكنيسة وسلطتها ضمن الإمبراطورية، وهي عملية تعزى عموماً إلى انتشار التنوير في أوروبا، ولكن يدل عليها بشكل كبير ومفاجئ جداً طرد اليسوعيين من كل مجتمعاتهم في أمريكا الجنوبية في العام 1767(*). كان الهنود لا يفقدون الدعم المؤسسي للغاتهم فحسب، بل فقدوا أيضاً حماتهم الأوروبيين، الرهبان والقساوسة. وثبت أن هذه الاتجاهات كانت كافية لتسبب انحدار كل "اللغات العامة".

ولكن التنوير المتحرر لم يتوقف هنا، مع محاولة تسليط ضوء اللغة الإسبانية الدارجة على زوايا عقول يفترض بأنها مظلمة من اللغات الأصلية الأم،

(*) كان التاج البرتغالي قد طرد جميع اليسوعيين من البرازيل في العام 1759. (انظر الفصل 11: 'رواد البرتغالية'، ص 540).

وازدياد تحرر المجتمع المدني من الالتزامات للكنيسة. فكانت خطوته التالية التي فرضتها الحروب الثورية في القرن التاسع عشر هي التوجه نحو الاستقلال السياسي للمستعمرات الإسبانية. ولم يكن من المدهش أن القوى التي اعتبرت استمرار الحكم الإسباني أكثر إزعاجاً هي النخب المتأوربة من المهجنين المختلطي اللغات، الأقرب إلى الطبقات الحاكمة في عاداتها ولغتها، ولكنهم خاضعون لتلك الطبقات إلى الأبد بسبب صدفة ولادتهم في الأمريكيتين. ورغم أنهم كانوا سعداء بتجنيد "المهجنين" والسود والهنود لقضيتهم، فإنهم لم يكونوا أبداً مستعدين لاعتبار اللغات المحلية الأصلية شارات مميزة لأصالة الأمم الجديدة التي كانوا يرغبون في تأسيسها: وبدلاً من ذلك قدم مختلطو اللغة لكل واحد جنسية بلا فروق وبناء على لغة مشتركة، هي الإسبانية. فقد وجدت الحركات الوطنية في أمريكا اللاتينية أن تأخذ باللغات المحلية، لأنها رأت أنه حتى اللغات الأكبر هي مصادر للانقسام، وليست وحدة غريبة عن إسبانيا. ومن الواضح أن المحصلات اللغوية قد اختلفت في وجهة الشروط المحلية ذات الأشكال المتعددة أكثر من اللازم بحيث لا يمكن مراجعتها هنا، فهناك عدد من القصص يساوي عدد أمم أمريكا اللاتينية على الأقل. فيجب أن نكتفي بالنظر في حالتين فقط، وبشكل مختصر وحيث تنافست الإسبانية مع لغة محلية أصلية كبيرة باقية.

ففي المكسيك، منذ استقلالها في العام 1821 كان وجود الهنود يشكل دائماً نوعاً من الإحراج الفكري. فقد كانت هويتهم المنفصلة تعمل كتفنيد قائم لنزعة المساواة التي جاء بها عصر التنوير: 'إن مؤسساتنا السياسية لا تميز بين السود، أو المهجنين، أو الهنود'[53]. وهذا شيء نموذجي في معظم بلدان أمريكا اللاتينية. ففي العام 1813، قام القائد الثوري موريلوس بتوجيه نداء إلى ماضي مكسيكا ليلهم إعلان الاستقلال الجديد: 'يا أرواح موكتيهزوما، وكاكاماتزين، وكواهتيموتزن، وكسيكونكتال، وكاتزونزي، كما احتفلتم بالعمل الذي ذبحكم به سيف ألفارادو الخائن، احتفلوا الآن باللحظة السعيدة التي اتحد فيها أبناؤكم لينتقموا من الجرائم والانتهاكات التي ارتكبت ضدكم ...'[54].

ولكن عند مجيء قانون ليردو في العام 1856، تلاشت الحقوق المجتمعية للهنود في أراضيهم. وفي العام 1916 كتب م. جاميو في كتابه 'صياغة الوطن' أن حل المشكلة الهندية يكمن في 'اجتذاب هؤلاء الأشخاص نحو المجموعة الاجتماعية الأخرى التي كانوا دائماً يعتبرونها العدو. فندمجهم، ونخلط الفريقين معاً، وباختصار نخلق عرقاً وطنياً متماسكاً ومتجانساً وموحداً في لغته وثقافته معاً'[55]. ومن المفارقات أن هذا الرأي في المكسيك يتصف بأنه يقدر اللغة والثقافة الأصليتين، ولكن فقط المجموعتين الكبيرتين المتنفذتين الناحواتل والمايا، وفقط كنوع من الإثبات الوطني لماضٍ ثقافي مجيد. ومما هو أقل إثارة للاستغراب أن الخلفية الفكرية هي التي سببت نمو استخدام اللغة الإسبانية منذ الاستقلال. فإذا كان 6.7 ملايين من السكان في العام 1910، و45 بالمئة منهم إسبان أو مهجنون يفترض أنهم ناطقون بالإسبانية[56]، فعند حلول العام 1995 كان هناك 95.8 مليوناً، مع 88 بالمئة منهم تماماً ينطقون الإسبانية كلغة أولى[57].

وعلى عكس ذلك، وبصورة فريدة من نوعها، فإن ثنائية اللغة التي ترسخت في وقت مبكر بين الإسبانية والغواراني في باراغواي لم تبدأ بالانزلاق أبداً. فهي تعود إلى أيام المستعمرة المبكرة، عندما كانت آسونسيون تعرف باسم 'فردوس محمد'، بسبب النسبة المفضلة كثيراً من الرجال الأسبان والنساء الناطقات بالغواراني[58]. وبصورة فريدة في الإمبراطورية الإسبانية، فإن البلد لم تكن فيه، ولا حتى في مدينته الوحيدة، آسونسيون، نخبة حضرية تعيش من خلال الاتصال مع باقي العالم الناطق بالإسبانية بدلاً من بلدها نفسه. ويبدو أن عزلة الأمة، وانقطاعها بدون خط ساحلي أو جيران ودودين قد جعل ذلك شيئاً دائماً، حتى بعد الاستقلال. فكل رئيس للبلد كان قادراً على تكلم اللغتين. والحقيقة أنهما على ما يبدو قد تطورتا باعتماد كل منهما على الأخرى بشكل متبادل، كتمثيلية مزدوجة على المسرح، بحيث تلعب الإسبانية دور الأخ الذكي، المثقف، بينما تلعب لغة الغواراني دور الشخص المحبوب ولكنه بلا مبادئ ولا ثقافة، ويتصرف بخشونة. وقدمت الغواراني خدمات تابع صغير، فعززت السرية والروح المعنوية في حربين ضد جيران باراغواي في العامين 1864 و1932، وكان لها

في أذهان الناس لزمن طويل ارتباط بالوطنية وبحزب كولورادو ضد فلسفة الليبراليين[59] عن السوق الحرة المؤدية إلى عدم الاستقرار. وتعرضت الغواراني للتثبيط الرسمي أحياناً (عندما كان الليبراليون في السلطة)، ولكنها استمرت على كل المستويات في المجتمع كلغة يتم تعلمها في البيت، بينما ظلت الإسبانية اللغة التي يتم تحصيلها بشكل نموذجي في المدرسة. وفي العام 1967 أعلن المجلس التشريعي أنهما لغتان وطنيتان، ولكنه أفرد الإسبانية باعتبارها اللغة الرسمية. وفي العام 1996 قيل إن 95 بالمئة من سكان باراغواي الخمسة ملايين يتحدثون لغة غواراني بطلاقة، و52 بالمئة منهم يتحدثون بها كلغة وحيدة. ولم يكن هناك إلا 2 بالمئة فقط يتحدثون الإسبانية كلغة وحيدة[60].

إن الحكم العام على تغلغل الإسبانية في الأمريكتين هو أنها نجت من التلاشي بصعوبة. فرغم أكثر من قرنين من الاستقرار والسيطرة النخبوية في القارة، فإن المجتمع الناطق بالإسبانية - والذي ظل يتجدد وينتعش بالهجرة من شبه جزيرة إيبيريا - لم يغرس جذوراً عميقة في المستعمرات. فحتى أواخر القرن الثامن عشر ظل الإسبان يحافظون على أنفسهم كنخبة غريبة، مع المهجنين ككيانٍ آخذ في النمو. وقد استفادوا من التوحيد اللغوي لممتلكاتهم على أيدي أسلافهم، وخاصة المكسيكا والإنكا واستخدموه للتعجيل بالاستغلال الاقتصادي لغزواتهم والمهمات التبشيرية التي شعروا بأنها تبرر حضورهم. ولكن في الأماكن التي تمتعوا فيها بهذه الامتيازات بالذات فإنهم لم يقدموا لغة عالمية مشتركة خاصة بهم. وهذه حالة تذكرنا بشكل غريب بالممتلكات الإغريقية البيزنطية في الشرق الأوسط. فقد ظلت الآرامية لغة الشعب من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي. وهكذا فإن صدمة الفتح الإسلامي كانت كافية - في غضون جيلين فقط - لمحو كل الآثار اللغوية لألف عام من الحكم اليوناني (انظر الفصل السادس: 'تلميحات عن التدهور'، ص 364).

القانون: عبر المحيط الهادئ

إن مدى سطحية القبضة اللغوية الإسبانية على مستعمرات إسبانيا يمكن رؤيتها

في حالة الفليبين، حيث وقعت صدمة مماثلة من خلال هزيمة إسبانيا في الحرب الإسبانية ـ الأمريكية (1898). فقد لاحظنا من قبل (انظر: 'إمبراطورية لم يسبق لها مثيل' ص 466)، أن هذه المستعمرة كانت مختلفة عن الأمريكتين بطرق هامة: فهي لم تستجب للغزو الإسباني بانهيار مفاجئ للسكان الأصليين بسبب وباء. ولم تجتذب أبداً أعداداً هامة من المهاجرين ذوي الأعمال التجارية الحرة من إسبانيا ـ أو حتى من المستعمرات الإسبانية الأخرى. وكما في الأمريكتين، تم قبول اللغات المحلية كوسائل للوعظ التبشيري: وكانت الطباعة قد بدأت في الفليبين في نفس الوقت الذي بدأت فيه في المستعمرات الأمريكية الأكثر تقدماً، في المكسيك وبيرو في العام 1593، وكان نتاجها الأول طبعة من كليشيهات خشبية لمجلد عنوانه: "العقيدة المسيحية واللغة الإسبانية والطاغالية"، وهو نصٌّ بالإسبانية بموازاة لغة الطاغلوغ(61). وبما أنه لم يكن هناك سوى عدد ضئيل من المستوطنين الإسبان، ولم يكن هناك أي تقدم اقتصادي جدي، فلم يكن هناك إغراء كبير لاستخدام اللغة الإسبانية خارج الدوائر الرسمية.

ومع ذلك فقد بذل جهد هام في وقت متأخر لنشر معرفتها. فمرسوم "الهوية" الملكي الذي أصدره كارلوس الثالث في العام 1770 كان ينطبق على الفليبين بمقدار انطباقه على الأمريكتين. وفي 20 أيلول/سبتمبر سنة 1794 أصدر خلفه كارلوس الرابع ملحقاً لذلك المرسوم يجعل تعليم الإسبانية مجانياً وإلزامياً للجميع. ولكن ذلك لم يتغلب على نقص الموارد المطلوبة لجعله يتحقق. واستمرت المراسيم الملكية في الصدور على أية حال، وفي آذار/مارس من العام 1815 تم فرض التعليم الابتدائي الإلزامي باللغة الإسبانية. وفي العام 1860 تم إدخال المدارس في الجيش، وصدرت الأوامر لضباط الصف الإسبان بتعليم جنودهم الفليبينيين. وفي القرن التاسع عشر كان هناك مستوى محترم جيد من الدوام في المدارس: وفي العام 1840 كان هناك طفل يداوم عن كل ثلاثة وثلاثين من السكان، وهذا رقم يشبه معدل التلاميذ في فرنسا في العام نفسه: طفل عن كل ثمانية وثلاثين من السكان (وفي روسيا كان هناك طفل واحد في المدرسة عن كل أربعة آلاف من السكان)(62).

ولكن سلب الأمريكيين لممتلكات الإسبان واحتلالهم للفليبين في العام 1898 كشف مدى هشاشة الثقافة اللغوية التي كان الإسبان قد نجحوا في زراعتها هناك. فقد أظهر الإحصاء السكاني للعام 1903 أنه من بين 7.5 ملايين من السكان كان الذين يتكلمون الإسبانية أقل من ثمانمئة ألف (أي 11 بالمئة). وبعد ذلك بخمسة عشر عاماً كان المتكلمون بالإنكليزية قد زادوا عليهم: فكان هناك 896,258 ناطقاً بالإنكليزية و757,463 ناطقاً بالإسبانية. وبعد ذلك بسبعين عاماً، في العام 1988، قدر "التقويم الأطلسي لأوغسطيني" نسبة الناطقين بالإسبانية بثلاثة في المئة[63]؛ وهذا يمكن مقارنته بـ 51 بالمئة كانوا قادرين على تكلم الإنكليزية في الإحصاء السكاني للعام 1975.

وفي دستور العام 1987، ولأول مرة، لم تعد الإسبانية مدرجةً كلغة رسمية في البلد. بل صارت لغة الطاغلوغ (التي أعيدت صياغتها وتطويرها بشكل فعال تحت اسم اللغة الفليبينية) هي التي تؤدي هذا الدور (بعد أن أصبحت متاحة لاثنين وستين بالمئة من السكان، حسب "التقويم العالمي لعام 1991")، مع الإنكليزية 'إلى أن ينص القانون على غير ذلك'. فالإسبانية الآن، مع العربية، 'يتم الترويج لهما على أساس طوعي اختياري'(*).

إن تقدم اللغة الإنكليزية فوق جثة الإسبانية المطروحة لا يمكن فصله عن التقدم العام للإنكليزية على نطاق العالم كله في القرن العشرين، وهو ما سيتم فحصه في الفصل الثاني عشر ('العالم تجتاحه عاصفة'، ص 686). وهناك شيء آخر أيضاً لا بد أن سببه يعود إلى شبكة المدارس السابقة التي أتيحت للقادمين الأمريكيين. ويقارن ذلك مع الإسبان الذين ظلوا يكدحون قروناً لبناء تلك المدارس من نقطة الصفر. وصحيح أيضاً أن الأنشطة الأمريكية في الخارج قد أتيحت لها أموال أكثر بكثير مما كان متاحاً للأنشطة الإسبانية.

ولكن الوضع يمكن مقارنته على شكل مفارقة مع التنازع بين الإنكليزية والإسبانية في أمريكا الشمالية في الفترة نفسها، حيث إن كان قد حدث أي

(*) الاقتباسات مأخوذة من الدستور الفلبيني للعام 1987 (كما هو مستشهد بها في كتاب كويليس سنة 1992، ص 83).

شيء فهو أن الإسبانية ـ في نسختها المزروعة في المكسيك، وأمريكا الوسطى، وكوبا، وبورتوريكو ـ تنمو على حساب الإنكليزية في كثير من المدن الكبيرة، وفي كثير من أنحاء جنوب غربي الولايات المتحدة الأمريكية(*). غير أن جميع هذه التطورات تميل إلى تأكيد العوامل التي تقرر انتشار اللغة: وهي نمو السكان وتنقلاتهم. فعندما تكون اللغة الرسمية شيئاً مصطنعاً خلقته نخبة دولية ونشرته إلى أبعد مدى ممكن بين السكان المحليين، فإن من المفهوم أن الميزانية الأكبر هي التي تخلق اللغة الأكبر. ولكن عندما يبدأ السكان في التكاثر، كما حدث في العاصمة مانيلا، فإن لغتهم (الطاغلوغ) هي التي تسيطر على البلد، تماماً كما يسيطر الناطقون بها، سواء وجدت الإنكليزية أم لم توجد.

وعندما يبدأ السكان بالتحرك نحو جاذب لا يقاوم، مثل الاقتصاد الأمريكي، كما يفعل سكان المكسيك وحوض البحر الكاريبي الأوسط الآن، فإن مجتمعات جيدة ناطقة بالإسبانية سوف تبدأ في الاحتشاد والتزاحم، حتى إذا كان ذلك يعني اقتحام قلب الأرض الداخلية للإنكليزية، التي هي أكثر لغات العالم حيوية وأوسعها انتشاراً.

(*) إن أرقام الإحصاء السكاني للعام 2001 تقدر نسبة سكان الولايات المتحدة الهسبان بسبعة وثلاثين مليوناً، أي 13 بالمئة من المجموع، فهم أكبر أقلية في البلد، فقد زادوا لتوّهم على عدد الأمريكيين الأفارقة، الذين هم 36.1 مليوناً. والهسبانيون هم الأقلية الوحيدة في أمريكا التي تحتفظ بالاستخدام الروتيني للغتهم الإسبانية المتوارثة. ولديهم قناتان تلفزيونيتان هما يونيفيزيون وتيليموندو، وأكثر من مئتي مطبوعة مجموع نسخها المتداولة 12 مليوناً (جريدة إلباييز *Elpais*، مدريد، 23 آذار/مارس 2003).

11

في أعقاب الإمبراطورية:
لغات أوروبا في الخارج

عند استعراض أعلى عشر لغات متداولة في العالم بحسب عدد السكان (علماً بأن اللغات الكاملة العشرين الأولى محددة ومناقشة في الفصل الثالث عشر)، نلاحظ أن ما لا يقل عن ستٍ منها قد انتشرت من خلال توسع الإمبراطوريات الأوروبية العالمية في القرون الخمسة الماضية: وهي الإنكليزية، والإسبانية، والبرتغالية، والروسية، والألمانية، والفرنسية. وقد استعرضنا لتوّنا انتشار الإسبانية، الأبكر من هذه اللغات، الذي تميز بالدور القيادي للكنيسة الكاثوليكية - ولو أن هذا الدور كان مفسداً إلى حدٍ ما. أما انتشار الإنكليزية، وهو أكثرها لفتاً للأنظار، حيث يبدو أن الحماسة للسوق العالمية قد سيطرت على الأمور من حيث تركتها السيطرة الوطنية، فإننا نحجزه للفصل التالي. وقبل ذلك نحتاج إلى النظر في سيرة حياة اللغات الأخرى، التي فيها حالات كلاسيكية تقليدية كثيرة من التوسع الإمبراطوري الحديث، يدفعه التعطش العنيف للثروة، والاستكشاف، والمجد الوطني، الذي كثيراً ما كانت تصحبه حماسة المبشّرين بالمسيحية.

إن قصة اللغات أكثر غموضاً، ومن هنا أكثر إثارة للاهتمام مما تُصوره غالبية روايات الكُتّاب الأوروبيين الحديثين، التي هي في العادة مليئة بتهنئة النفس والرضا عنها. فتوسع اللغة المحلية في أعقاب القوة الاستعمارية المتنامية لم يكن مؤكداً أو مضموناً بأي حال من الأحوال. وعلى سبيل المثال، فإن علينا أن نفسر الحقيقة الغريبة لكون اللغة المشتركة في إندونيسيا الحديثة هي شكل

من أشكال الملايوية، وليس الهولندية التي ظلت لغة سادتها لمدة زادت على قرنين، كما أن التأثيرات اللغوية لبعض حالات الحضور الاستعماري، مثل حضور فرنسا في الهند الصينية، أو روسيا في آسيا الوسطى الإسلامية، أو اليابان في منشوريا وكوريا، تبدو أقل ديمومة بكثير من تأثيرات الآخرين. فنحن بحاجة إلى التساؤل عن ماهية جوانب الغزو التي جعلت انتشار اللغة دائماً كما يظهر، كانتشار البرتغالية في البرازيل، والفرنسية في الكونغو، والروسية في سيبيريا. ذلك أن مقولة نبريجا المرتجلة بأن 'اللغة مرافقة للإمبراطورية، تتبعها بطريقة تجعلهما تبدآن، وتنموان، وتزدهران بشكل مشترك، وبعد ذلك يكون سقوطهما معاً بشكل مشترك' هي مقولة سطحية مبسطة أكثر من اللازم - في كل مزاعمها.

إن مواقف هذه القوى الاستعمارية من اللغة، ودرجة اعتقادها بوجود صلة بين اللغة والثقافة، كانت تميل إلى احترام الذات أكثر من موقف الاستعماريين الإسبان الكاثوليك: فقد كان ذلك أحد ملامح عصرهم. لقد كان الكهنوت الكاثوليكي عالمياً، ولم يكن بأي حال محتكراً أو مصنوعاً من قبل الإسبان الذين كان من حظهم أنهم نقلوه إلى الأمريكتين. وعلى عكس ذلك، فإن المغيرين الأوروبيين الشماليين كانوا يشعرون أنهم يملكون موهبة وطنية خاصة تفسر قدرتهم على السيطرة على هؤلاء 'المتوحشين الذين كانوا غارقين في الظلمات' من قبل. ولكن، بما أن مؤسسي الإمبراطوريات كانوا رجالاً عمليين، وقساةً في أغلب الأحوال، فإن من المحتوم أن تقديرهم لدور اللغة كان عملياً أيضاً، بل سطحياً كذلك. فاللغة من شأنها أن تنتشر في بادئ الأمر كلغة مشتركة، وربما بشكل مقيد تماماً، كرطانةٍ مبسّطة مختلطة، تقدم كل أنواع التنازلات للغات الأولى للذين يلتقطونها ويأخذون بها. فقد كانت اللغة تعتبر أداة لإتمام صفقات الأعمال التجارية. فاللغات الأوروبية كانت - ولا تزال طبعاً - تستعمل كلغات ثانية في التجارة وفي الحكومة، بينما استمرت اللغات التقليدية ثابتة في سياقات معروفة مألوفة. وعلى هذا الأساس، فإن انتشار مثل هذه اللغة تصعب رؤيته كانتشار المجتمع اللغوي الذي جاءت منه.

ولهذا فإن من المعقول النظر إلى انتشار كل هذه اللغات كمجموعة،

بصورة مقارنة، بدلاً من الغوص عميقاً في قصص لغات معينة في بلدان معينة. وبهذه الطريقة نستطيع أن نأمل بأن الملامح الحاسمة لهذه الظاهرة العالمية للاستعمار الأوروبي سوف تتكشف بصورةٍ واضحةٍ شفافة. وبالطريقة نفسها فإن من الصعب نقل النكهة الفردية لمواجهة لغة معينة لبيئة غريبة عنها.

روّاد البرتغالية

ضده تكلمت فينوس الجميلة؛
بمحبة للجنس العرقي البرتغالي،
لكل المواصفات التي رأتها فيه
من روما، التي أحبتها كثيراً من زمن قديم؛
في قلوبهم الشجاعة، ونجمهم العظيم،
الذين أظهروه في أرض سبتة [في غزوهم الأول]،
وفي لسانهم، الذي جعلها خيالها
تظنه لاتينياً فيه شيء من التحريف.

كامويس،(*) أوس لوسياداس ١ ـ 33

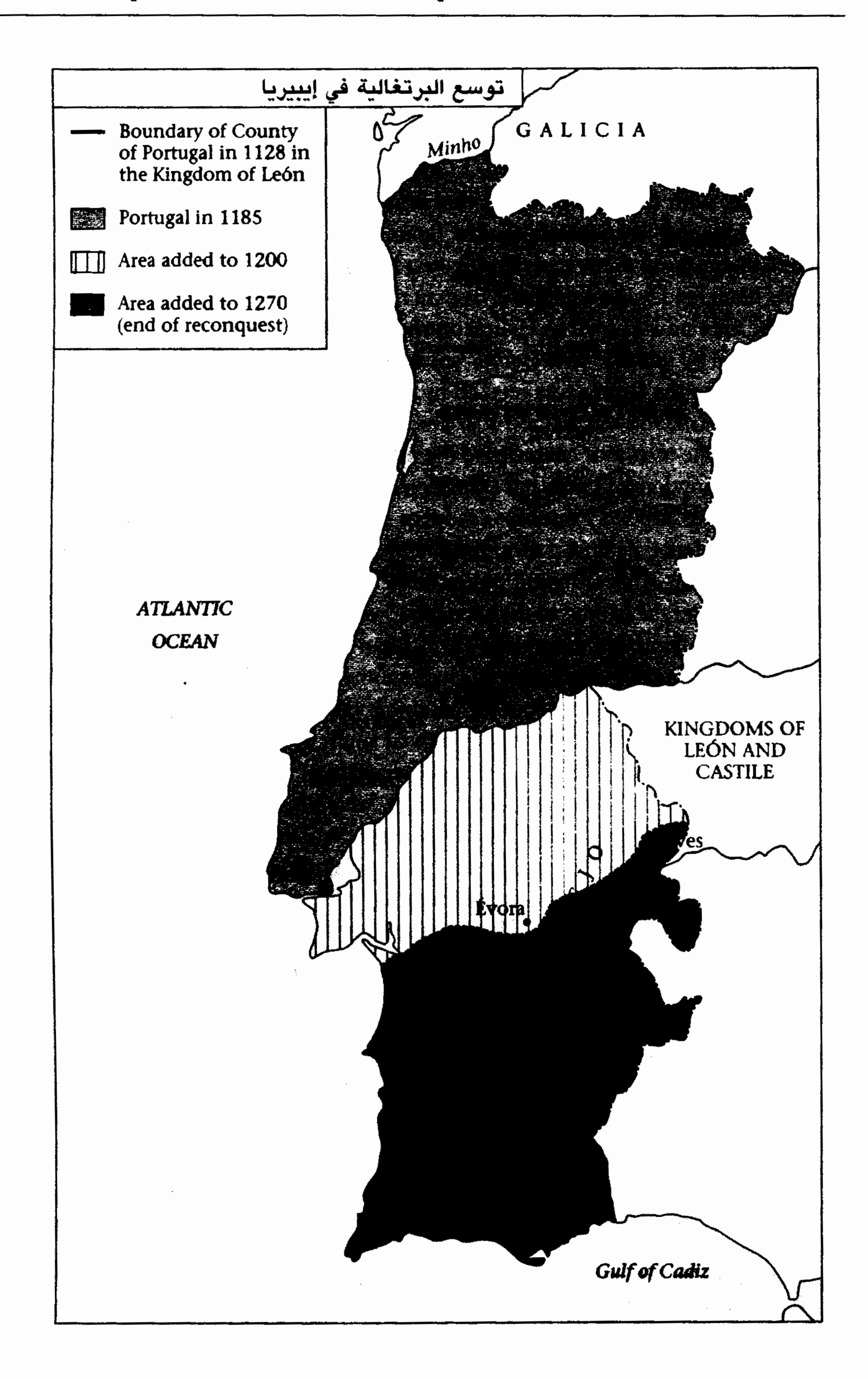
كان البرتغاليون أول قوة أوروبية تبرز نفسها، ولغتها، عبر المحيط الأطلسي، وبالتالي في العالم ككل. فكان خطهم الساحلي الطويل يتاخم البحر المفتوح ويرتكز عليه، ويبدو أن أساطيلهم لصيد السمك وقراصنتهم، وليس تجارهم، كانوا أول المستفيدين من الاختراعات البحرية العظيمة في القرن الرابع عشر، وهي الدفة المركزية المركبة على عارضة المركب الرئيسية، والبوصلة المغناطيسية، والخريطة البيانية التي تعطي توجيهات محسوبة سلفاً من نقطة إلى نقطة. وقد مكنتهم هذه المخترعات من خوض غمار المحيط الأطلسي على نطاق واسع،

(*) كامويس هو عميد الأدب البرتغالي، وأعماله العظيمة تحتفل بمنجزات البحارة البرتغاليين. واسم "لوسياداس"، رغم أنه يذكر بالإلياذة، يعادل 'البرتغالي'، بمعنى سليل لوسوس، المؤسس الأسطوري لهذا الجنس الذي عاش في لوزيتانيا. وقد ألف هذا العمل في الجزء الأكبر منه في غوا، وهكذا فإنه نتاج أولترامار، وكذلك تمجيد لها واحتفال بها. وقد تم طبعه ونشره في العام 1572.

والإغارة على موانئ سواحل شمال إفريقيا. وبالتدريج صارت هذه قضية هامة للتاج البرتغالي. فغزا خليج سبتة في شمال إفريقيا في العام 1415، واحتل الجزر الرئيسية غير المأهولة في شرقي المحيط الأطلسي مثل ماديرا (أي 'الخشب' أعيدت تسميتها بترجمة برتغالية من اسمها الإسباني السابق "لغنيم" *Legname*) في العام 1419، وجزر الآزور (غوسهوكز) في العام 1427. وبعد ذلك قام الأمير هنري (هنريك الصغير) المعروف بلقب الملاّح، بإرسال سلسلة من الحملات الاستكشافية إلى الجنوب على طول ساحل المحيط الأطلسي، وزرع المستوطنات جنوباً حتى نهر جيبا (في غينيا بيساو الحديثة) على بعد أربعة آلاف كيلو متر (800 فرسخ) إلى الجنوب من لشبونة، قبل أن تحين وفاته في العام 1460.

وكانت اللغة التي يتكلمها جنوده وبحارته (وتجاره) هي اللغة الرومانسية المتميزة المحكية على الجناح الغربي من إيبيريا، وهي من أصل واحد مع اللغة الغاليسية، التي تطورت (ربما من أيام الرومان) بشكل مختلف عن نسخ المركز (القشتالية) والشرق (القطلانية). وكانت ولا تزال تتميز بنطق الحروف الصافرة من الحنك (ش [š] وج [ž] بدلاً من الـ (س) والـ (ز))، وإظهار أصوات الحروف الصافرة عند وقوعها بين حرفي علة، ونطق حروف العلة على نطاق واسع من الأنف عندما يتبعها حرف النون [n] أو الميم [m] (وهاتان الصفتان الأخيرتان هما من خصائص الفرنسية أيضاً). وهي أيضاً تختصر حروف العلة عندما تكون غير مشددة، بل إنها تحذف مقاطع بكاملها.

وهناك مثال يُظهر جزءاً كبيراً مما يميز البرتغالية، وهو ما يعادل عبارة 'أعطني بيضاً حاراً وخبزاً'. فهذه العبارة تلفظ بطريقةٍ مختلفة عما هي باللغة القشتالية.



توسع البرتغالية في إيبيريا
Boundary of County of Portugal in 1128 in the Kingdom of León
Portugal in 1185
Area added to 1200
Area added to 1270 (end of reconquest)
GALICIA
Minho
ATLANTIC OCEAN
KINGDOMS OF LEÓN AND CASTILE
Évora
Gulf of Cadiz

وعلى وجه العموم، فقد صارت أصوات لفظ البرتغالية شديدة الاختلاف عن جارتها اللغة القشتالية، مع نتيجة غريبة هي أن البرتغاليين والبرازيلين لا يزالون بصورة عامة قادرين على متابعة الإسبانية المحكية بينما يعجز معظم الإسبان والناطقين بالإسبانية في الأمريكتين عن اختراق اللغة البرتغالية.

وكان موطنها شريطاً عريضاً من شمال جزيرة إيبيريا إلى جنوبها، وشمل المنطقة المعروفة الآن باسم غاليسيا في إسبانيا الحديثة. وكان المغاربة (الناطقون بالعربية والبربرية) قد استولوا على المنطقة كلها في العام 713، ولكن النصارى أعادوا أخذ الجزء الشمالي إلى دورو عندما اختلف البربر مع العرب في أربعينيات القرن الثامن. وأما باقي المنطقة فقد أخذ يخضع بتدرج شديد على مدى القرون الأربعة التالية للتقدم العسكري لما أصبح مملكة ليون النصرانية. ولكن ملك هذه المملكة قسمها في العام 1128، وخصص المقاطعات التي حول بورتوكال (بورتو الحديثة) لصهره، لأغراض دفاعية ضد تهديد مرهق جديد هو هجوم المرابطين المغاربة من إفريقيا. فثبت أن لذلك التقسيم عواقب طويلة الأمد جداً. فقد استمرت البرتغال، من مينهو إلى مونديغو في سعيها لترسيخ استقلالها الذاتي (1143)، وصار نبلاؤها الدوقات ملوكاً (1179)؛ ولكن طيلة القرن التالي كان توسعها إلى الجنوب فقط (على حساب المغاربة). فقد انقسم البرتغاليون والغاليسيون بشكل دائم، رغم أنهم كانوا ما يزالون يتكلمون اللغة نفسها. فانتقلت العاصمة إلى الجنوب في العام 1248 من بورتو إلى لشبونة (أوليسيبو باللغة الرومانية). ولعل اللهجات البرتغالية قد تلقت تأثيراً من اللغة اللوزيتانية القديمة، التي كانت محكية في جنوب دورو حتى أيام الرومان، وتأثيراً من لغة المستعربين التي تطورت تحت خمسمئة عام من الحكم المغربي. ولكن ليس هناك دليل مكتوب يذكر على الملامح المحلية للغة العامية الدارجة. وقد راحت البرتغالية تظهر على الصفحة المكتوبة من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر، فارتبطت بالشعر الغنائي على نحو خاص، وهو يستخدم لهذا الغرض، حتى من قبل أحد ملوك قشتالة:

وهكذا فإن القديسة ماريا	*E assi Santa Maria*

ساعدت أصدقاءها،	*ajudou a seus amigos*
رغم أنهم كانوا من قانون آخر،	*pero que d'outra lei eran*
على تشتيت أعدائهم،	*a britar seus eemigos*
فرغم أنهم كانوا كثيرين،	*que, macar que eran muitos*
فإنهم لم يعيروهم أي اهتمام،	*nonos preçaron dous figos,*
وهكذا فإن رحمتها	*e assi foi ssa mercee*
صارت معروفة للجميع.	*de todos mui connçuda*

الفونسو العاشر ملك قشتالة (1221 ـ 1284)، أغانٍ للقديسة ماريا، رقم 181، المقطع الأخير.

من بداية القرن السادس عشر، بدأت هذه اللغة تُسْمَع في جميع أنحاء سواحل إفريقيا وجنوب شرقي آسيا، وللمرة الأولى على شواطئ البرازيل.

إمبراطورية آسيوية

توقف الاستكشاف بعض الوقت بعد وفاة هنري الملاح في العام 1460. ولكن في العام 1488 أنهى بارتولوميو دياز سنوات البرتغال الطويلة من الزحف حول ساحل إفريقيا، بإظهاره أن امتداده إلى الجنوب له نهاية. ومن يعرف ماذا يوجد وراء رأس الرجاء الصالح؟ وكانت هناك فترة قصيرة أخرى، من العام 1488 إلى العام 1498 قبل اتخاذ الخطوة التالية. ولكن قضايا الاستكشاف لم يطوها النسيان. والحقيقة أن البرتغال بدأت في ذلك الوقت بالذات تتحدى حق قشتالة في الأراضي التي اكتشفها كولومبوس حديثاً في رحلته الأولى إلى الغرب (في العام 1492). ولم تتمسك البرتغال بادعائها، ولكنه كان مفيداً جداً في آخر الأمر، لأنه عندما حل النزاع بمعاهدة توردسيلاس (وهي تاردسيلهاس بالبرتغالية) في العام 1494 منحت البرتغال كل الأراضي الواقعة إلى الشرق من خط طول رسم على بعد 370 فرسخاً إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر. وهذا في آخر الأمر ضمن حقها في البرازيل.

ولكن هذا الاحتمال لم يَلْقَ سوى تقدير ضئيل، إن كان هناك أي تقدير أصلاً، في حينه. وكان الأغرب من ذلك بكثير، للوهلة الأولى، هو إنجاز فاسكو

دي غاما بعد ذلك، بأربعة أعوام، عندما دار حول الرأس الأخير وأبحر بانتصار وغطرسة في المحيط من بعده، وحقق في آخر الأمر هدف قرن من الملاحة البرتغالية، فاكتشف طريقاً بحرياً إلى الهند. فاتضح أن هذا الإنجاز يحقق أكثر أحلام القرن السابق له إسرافاً، لأنه بالإضافة إلى عثور البرتغاليين على طريقهم إلى الهند فقد اكتشفوا أن لديهم أيضاً قوة كافية لضمان وصولهم المباشر إلى بضائعها الخرافية، وبذلك يكسرون احتكار الوسطاء المسلمين لها على مدى عدة قرون. وبعد ذلك وبصورة سريعة لا تكاد تصدق. وقعت في أحضانهم جائزة عظيمة أخرى. فقد تصرفوا بسرعة شديدة لاستغلال فرصتهم الهندية الجديدة، فتصادف أن اتخذوا طريقاً التفافية حول طرف إفريقيا الجنوبي: فكانت النتيجة اكتشاف البرازيل في 22 نيسان/إبريل من العام 1500. فصارت عندهم قاعدة لإمبراطورية في العالم الجديد، ووصول حصري إلى أفخم سوق باذخة في العالم القديم. كان الحظ يبتسم ابتساماً حقيقياً للمشروع البرتغالي.

وظل يبتسم طيلة الجزء الأكبر من باقي القرن السادس عشر، وعند نهايته، كانت هناك مستوطنات برتغالية تجارية مربحة، محمية بقلاع وأساطيل، على طول ساحل المحيط الهندي، وفي النقاط الاستراتيجية فيما وراءه، في الملايو وبحار الصين الجنوبية. وكانت هناك سبع مستوطنات في إفريقيا الشرقية، وستٌ على خليج عُمان، وخمس عشرة على ساحل الهند الغربي، وأربع في سيلان، واثنتان على ساحل الهند الشرقي، بالإضافة إلى ملقا، ومكاسّار، وتيرنيت، وتيدور، وتيمور، وماكاو، التي كانت كلها ممتلكات برتغالية. ورغم أن البرتغاليين لم يحققوا الاحتكار التجاري الكامل الذي كانوا يسعون إليه، فإن المحيط الهندي ظل بعد ذلك لمدة قرن أو قرنين بحيرةً برتغالية تقريباً. ومثل الفينيقيين والإغريق في الألف الميلادي الأول، فإنهم لم يحاولوا السيطرة على الأراضي الداخلية.

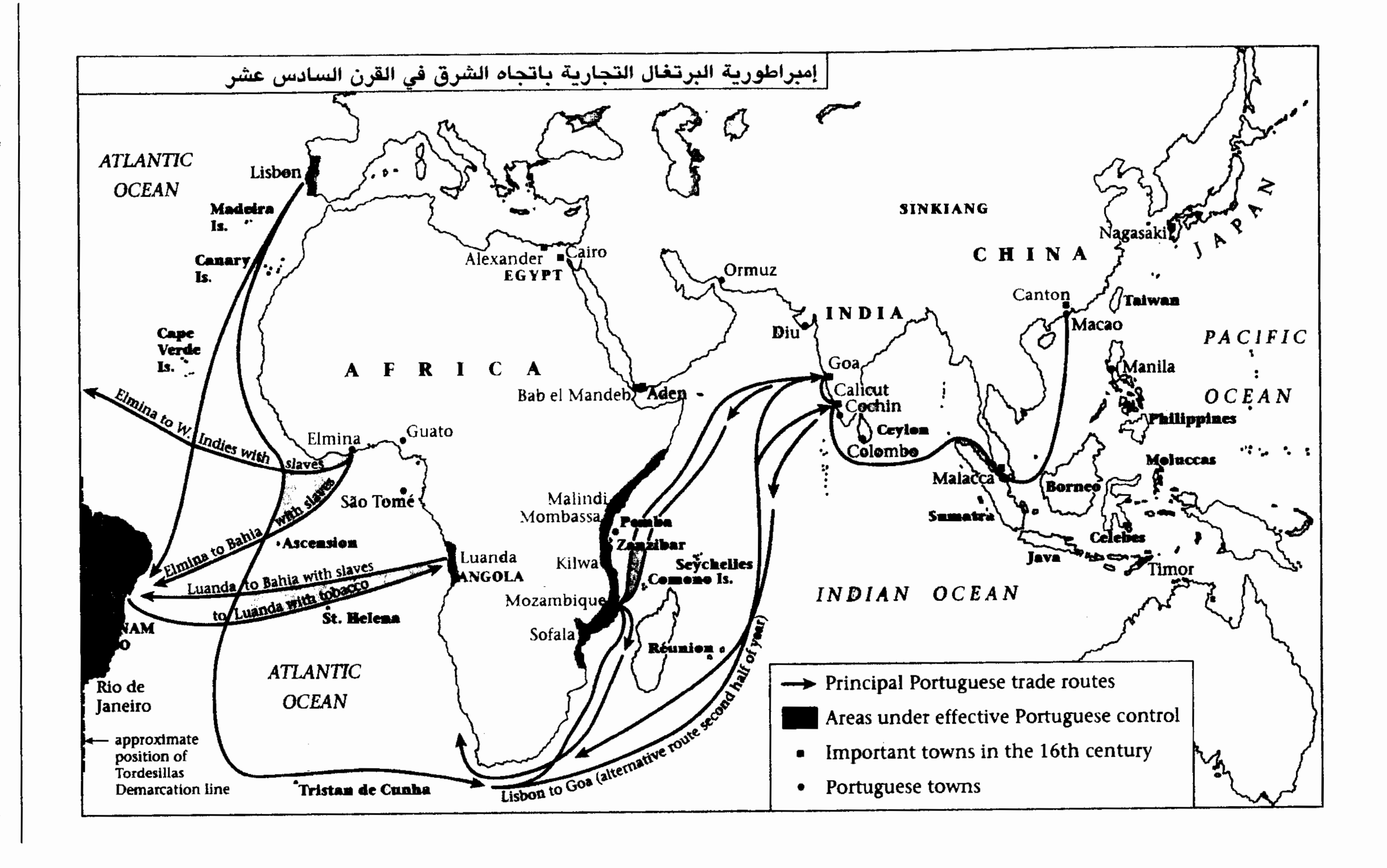
ولكنهم على عكس الفينيقيين والإغريق، كانوا مهتمين بشيء بعيد عن الربح والمغامرة: فبعد التوسع العسكري والتجاري جاء الدافع للتنصير الديني، فأقيمت أسقفيات كاثوليكية في موزامبيق في العام 1512، وفي غُوَا في العام 1534، وفي كوشين العام 1558، وفي ملقا في العام 1558 أيضاً، وفي ماكاو في العام 1575،

وفي مليابور (في شرقي الهند) في العام 1606، بل كانت هناك محاولة لنشر العقيدة بعيداً عن مأوى المواقع التجارية البرتغالية الآمنة، في إثيوبيا في العام 1555، وفي فوناي (أي اليابان) في العام 1588، وتونكين (أي فيتنام) في العام 1659. ومثل أبناء عمومتهم الإسبان في ذلك الوقت في مناطق العالم الجديد الأكثر انكشافاً وتعرضاً للعطب، كان البرتغاليون مصممين على تبرير إيمان البابا بهم، وعلى تبرير إيمانهم بالدين المسيحي.

وإلى جانب المحاولة المتعمدة لنشر كلمة الله، كان البرتغاليون يحاولون بشكل حتمي أيضاً أن ينشروا كلمتهم هم. وكانت الآثار اللغوية لهذا التوسع الذي تقوده التجارة وتعززه العقيدة معقدة. ولكنها تعطي تذوقاً مسبقاً لنوع الانتشار الذي سيولده هذا الاستعمار المحمول بحراً عندما بدأت الأمم الأوروبية الأخرى تأتي في أعقاب البرتغاليين.

فأولاً وقبل كل شيء، كانت البرتغالية هي اللغة المستعملة في القلاع والوحدات التجارية التي أقيمت كوكالات دائمة، ومجتمعات صغيرة من المهاجرين في مدن الموانئ وما حولها. ولم يكن هذا مهماً بحد ذاته، فبعد كل شيء، فإن المهاجرين يستمرون حتماً باستعمال لغتهم الخاصة بهم مع بني جنسهم، ثم يورثونها لبعض أطفالهم وخدمهم على الأقل عندما يرسخون أنفسهم في بيوت يستقرون بها في مواطنهم الجديدة، وخاصة عندما يحافظون على اتصال منتظم بمواطنيهم - وكانت المتاجرة مع أوروبا هي سبب وجود كل هذه المستوطنات البرتغالية بذاته، وحيث تمت المحافظة عليها بشكل فعال ضد منافسة متصاعدة، حتى منتصف القرن السابع عشر (وقد استمرت هذه الرحلات إلى الهند بمعدل خمس سفن سنوياً من العام 1550 إلى ثلاثينيات القرن السابع عشر)[1]. وإن قيمة الصدمة المبكرة لوصولهم والنفوذ المرافق لهم ربما شجعت الآخرين لفترة ما على الارتباط بهم، والتعلم منهم. وبالطريقة نفسها، أثبتت المسيحية أنها جذابة جداً مدة الجيلين الأولين بعد أول تبشير بها في آسيا، ولكن هذا النمو سقط وتلاشى بعد أن صارت المسيحية معروفة جيداً كالمؤسسات الهندوسية، والبوذية، والإسلامية التي كانت تحاول أن تحل محلها.

إمبراطورية البرتغال التجارية باتجاه الشرق في القرن السادس عشر



غير أن البرتغالية انتشرت من هذا الأساس المحلي الأصلي كأداة للتجارة والاتصالات الدولية، أي كلغة مشتركة. وعندما انتشرت المستوطنات البرتغالية على نطاق واسع في البقاع التي يسهل الوصول إليها من سواحل إفريقيا وآسيا، كان من الحتمي أن يبدأ شركاؤها التجاريون والمرتبطون الآخرون بها باكتشاف فائدة إضافية نافعة أخرى في اللغة التي حصلوا عليها لتسهيل الاتصالات والعلاقات مع البرتغاليين. وهذه الفائدة هي التعامل مع آخرين من شركائهم والمرتبطين بهم - الذين قد لا يملكون لغة أخرى مشتركة معهم. والحقيقة أن هذه الفائدة للغة البرتغالية عاشت أطول من سيطرتها التجارية بمئة عام على الأقل، فاستمرت حتى القرن الثامن عشر، عندما ارتأى رجل فرنسي 'أن تجار الهندوس، والمغاربة، والعرب، والفرس، والبارسيين (الزرادشتيين)، واليهود، والأرمن الذين يتاجرون مع المعامل الأوروبية وكذلك السود الذين يرغبون في العمل كمترجمين، كلهم ملزمون بتكلم هذه اللغة؛ وهي تعمل أيضاً كواسطة اتصال بين الأمم الأوروبية المستقرة في الهند'[2].

وفي العام 1551، كان الإنكليزي توماس ويندهام يزور ساحل الذهب مع مرافق برتغالي هو أنطونيو بينتيدو، فوجدا أنهما يمكن أن يتحدثا بالبرتغالية مع ملك بنين، والذي كان يعرفها منذ طفولته[3]. وفي العام 1600، عندما استقبلت اليابان أول زائر إنكليزي على الإطلاق، وهو القبطان ولْ آدامز، لم يستطع التواصل إلا عندما دبر مضيفه المندهش طوكوغاوا إياسو العثور على مترجم ناطق بالبرتغالية[4]. وفي العام 1606 فإن الأخ غاسبار دي سان برناردينو عندما اضطر إلى النزول في فارس بسبب نقص المياه، أصيب بالذهول عندما خاطبه القائد العسكري المحلي بالبرتغالية قائلاً: 'أيها الأب، ما الذي جاء بك إلى هذه الأرض بعيداً عن الهند إلى هذا الحد؟'(*). وفي العام 1638 كتب رحالة آخر: 'نادرون هم زوار غومرون(**)، ولو أنهم في الغالب من الفرس، والعرب، والهنود، الذين لا يتكلمون البرتغالية ولا يفهمونها، من التجارة التي كانت لهم مع

(*) القصة مذكورة في كتابه: تفاصيل رحلة إلى الهند عن طريق البر، مقتبسة في كتاب لوبيز (1936)، ص 33 - 35.

(**) هي الآن بندر خميني، على مضيق هرمز.

البرتغاليين في السنين الماضية، وعندما كان البرتغاليون يسيطرون على مدينة هرمز زمناً طويلاً'[5]. وبعد ذلك بقليل، عند منتصف القرن السابع عشر كان ملوك سيلان وأراكان، على الجانب الآخر من خليج البنغال (بورما الشمالية) يصرون على استخدام البرتغالية للمراسلة مع الهولنديين - رغم أن إمبراطور كاندي، راجاسينا الثاني كان يعرف الحقيقة متحالفاً معهم ضد البرتغاليين.

وسرعان ما حولت البرتغالية نفسها من لغة مشتركة مفيدة للأمراء ونخبة الرحالة إلى لغة مفهومة بصورة عامة لطبقة الخدم وأوائل المعتنقين للمسيحية (الذين كانوا غالباً من الطبقة نفسها). وفي تلك الأيام المبكرة، ربما كانت عبارات قليلة بالبرتغالية هي كل ما يكسبه المتنصرون. وإن فرنايو منديز بينتو، في زيارته لمدينة في جنوب الصين، قابل امرأة ترتدي فستاناً من الحرير الصقيل كانت تنتقد شرور الرحلات البحرية الطويلة بحماسة شديدة، ثم رفعت كمها لتكشف عن صليب أنيق كوي على ذراعها:

> .... صرخت ورفعت يديها إلى السماء قائلة بصوت عال:
> يا أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك...
> وقالت ذلك باللغة البرتغالية، ثم عادت إلى التكلم بالصينية، لأنها لم تكن تعرف من البرتغالية غير تلك الكلمات، وضايقتنا بطلبها كي نقول لها إن كنا مسيحيين.

وتابعت كلامها لتكشف أنها قد ورثت العقيدة عن أبيها الذي مارسها سبعة وعشرين عاماً، فقام بتنصير ثلاثمئة شخص، وأنهم كانوا يجتمعون للعبادة في منزلها كل يوم أحد[6].

أما الهولنديون، القوة الرئيسية التي خلفت البرتغاليين في المنطقة، فقد قبلوا الأمر الواقع اللغوي كما وجدوه. وفي العام 1692 طلبوا من القساوسة الواصلين إلى مدراس أن يتعلموا البرتغالية في غضون سنة من وصولهم بالإضافة إلى اللغة المحلية في أماكن إقامتهم (وهي عادة لغة التاميل) 'كي يتمكنوا من تدريس الديانة البروتستانتية للوثنيين الذين هم خدم أو عبيد للشركة أو لوكلائها'[7]. وفي العام

1704، لاحظ كورنيليوس جان سيمونز، حاكم سيلان (التي هي سريلانكا الآن) أن المتكلم بالبرتغالية يمكن فهمه في أي مكان على تلك الجزيرة. وفي عام 1807، كتب المبجّل جيمس كوردينر في كتابه "وصف سيلان": 'إن تحريفاً للغة البرتغالية لا يزال محكياً في جميع أنحاء السواحل البحرية. وتعلمها سهل جداً، وتثبت بأنها ذات منفعة عظيمة للرحالة الذي ليس لديه الوقت لدراسة لهجة الأهالي الأصليين لأنها أصعب'(*).

ومن المفارقات أن واحدة من أقوى قلاع اللغة البرتغالية كانت عاصمة القوة الهولندية نفسها في باتافيا على جزيرة جاوة. وقد كتب جين برون في العام 1675 أنه من أجل الوعظ التبشيري بسيرة السيد المسيح 'كانوا يحصلون على أناجيل برتغالية وكتب للعبادة باللغة البرتغالية واللغات الهندية، ويرددون التعاليم الدينية بهذه اللغات، لأنها مفهومة عند معظم الهنود....'[8]. وفي العام 1708 ناشد الأساقفة البروتستانت الحاكم العام أن يُبقي على الاستخدام الحصري للبرتغالية في بعض الكنائس، قائلين في طلبهم:

> إن اللغة البرتغالية هي لغة كل يوم واستعمالها مألوف لدى العبيد في العائلات السيلانية والتي من ساحل [كوروماندل]، ولدى كل أسياد العبيد، وأطفالهم في تعاملهم اليومي مع العبيد، والمسيحيين من السكان الأصليين، ولدى الأشخاص القادمين من سيام، وملقا، والبنغال، وساحل كوروماندل، وجزيرة سيلان، وساحل مالابار، وسورات، وحتى من بلاد فارس؛ كما أن الوثنيين القيابيين الذين يسكنون في هذه المدينة ويتاجرون مع النصارى أو عبيدهم يتعلمون التكلّم بالبرتغالية[9].

ولكن اللغة غيرت توزعها، فتحولت إلى عامية دارجة. ولا يزال شيء من البرتغالية يُسمع في معظم أنحاء هذه المنطقة حتى اليوم. ولكن في خارج معظم

(*) صارت لغة التخلف الأوروبية في جزر الهند الشرقية، وكذلك في جاوة الغربية على ما يظهر، وفي منطقة برينجر، وحتى الهولندية كانت تعرف شعبياً باسم البرتغالية الدارجة *basa Perteges*، وهذا خلط لغوي مثير للاهتمام لتسميات في غير محلها. فكلمة *basa* أصلها ملايوي مشتق من السنسكريتية *bhasa*، كما أن كلمة *Perteges* محرفة عن كلمة *Portugues* التي معناها "برتغالي" (مذكورة في كتاب لوبيز: 1936، ص viii).

مستعمرات البرتغال الهامة الطويلة الأمد (أنغولا وموزامبيق في إفريقيا، وغوا في آسيا) فإن اللغة صارت صيغتها مهجنة متأثرة كثيراً باللغات المحلية المنافسة لها. وعلى سبيل المثال، ففي البرتغالية ـ الهندية التي لا تزال محكية في مجتمعات متفرقة على طول ساحل مالابار لشبه القارة، من دامان وديو في ولاية غوجارات إلى سريلانكا في الجنوب، فإن حرف العلة الطويل المركب ei الغائب من اللغات الهندية، قد اختصر إلى حرف e فقط، وهو مختلف جداً عن البرتغالية الحديثة، حيث يلفظ على شكل [ai][*]. والتغيرات الصرفية المعقدة الموروثة من اللاتينية حلت محلها تراكيب أقل تعقيداً. ففي منطقة ديو فإن كلمة 'كلب' لا تزال *cão*، وكلمة 'ابن' لا تزال *filho* ولكنهما في الجمع صارتا الآن *cão-cão* وfi-fi بدلاً من *cães* و *filhos*. كما أن أزمنة الفعل صارت معربة، كما في الفعلين 'أنا ذاهب' و'سوف أذهب' و'أنا أكلت' و'سوف آكل' بدلاً من الصيغة القياسية الجامدة السابقة (وغير المنتظمة) *vou,comi,irei*. وفي سريلانكا استوعبوا حتى استخدام حروف الجر من اللغتين السنهالية والتاميلية، كما في المثال 'جئت عن طريق البر'[10]. وهناك تنويعات مماثلة من البرتغالية المتحولة لا تزال محكية في ملقا وماليزيا (حيث تعرف اللغة باسم كريستانغ، مما يشير إلى ظلال من المعاني الدينية، مستمدة من كلمة "كريستا" البرتغالية، التي معناها 'مسيحي' في كل من ماكاو في الصين الجنوبية وتيمور عند أقصى الحافة الجنوبية من جزر الهند الشرقية.

أما النوع الثالث من انتشار البرتغالية، وهو النمط الأهم الآن، فقد حدث عندما تم الأخذ بها، بدون أي تغيير جوهري، من قبل سكان جدد، وقد بدأ ذلك يحدث لتوه في أنغولا وموزامبيق (حيث تقول التقديرات إن عدد الناطقين الأصليين بلغة 'لوسوفون' هم 57,600 وأكثر من 30,000 على التوالي، أي 0.5 بالمئة و0.2 بالمئة من مجموع السكان في سبعينات القرن العشرين وثمانينياته ـ

(*) بالمقارنة مع اللهجات الإنكليزية، فإن البرتغالية - الهندية تلفظها E كما في الاسكتلندية الصافية لكلمة Edinburgh، وأما في البرتغالية القياسية فهي أقرب إلى لفظ حرف العلة في وسط كلمة mate في لهجة الكوكني السائدة في أحياء لندن الفقيرة.

ولكن مصادر أحدث تقترح 30 بالمئة و6 بالمئة. في كلا البلدين هناك 30 بالمئة الآن يعرفون البرتغالية أيضاً كلغة ثانية)[11]. وهناك أيضاً بقية صغيرة من البرتغالية في غُوَا(*). ولكن حدث بطريقة فيها انتصار أن البرازيل، أكبر مستعمرات البرتغال، يصل عدد سكانها الآن إلى 166 مليوناً، أن 95 بالمئة منهم، أي 158 مليوناً، لغتهم الأولى هي البرتغالية. ومعنى ذلك أن الناطقين بها في البرازيل الآن يفوق عددهم سكان البرتغال نفسها بنسبة ستة عشر إلى واحد.

البرتغالية في أمريكا

إذن، فكيف تمت زراعة هذه اللغة بشكل فعالٍ في البرازيل ولكن ليس في أي مكان آخر؟ إن الأسباب تاريخية طبعاً، ولكنها سياسية أيضاً، واقتصادية قبل كل شيء. وباختصار، فإن البرازيل كانت المستعمرة الوحيدة التي وجدت البرتغال فيها مصدراً هاماً للإثراء كان جذاباً للمهاجرين، ولم تجد فيها قوة سابقة ذات قدرة كافية لمقاومة السيطرة البرتغالية.

من المؤكد أن الهند كانت مصدراً للإثراء من المتاجرة بسلسلة واسعة من السلع. ولكن القوى المحلية التي واجهها البرتغاليون هناك قاومت بشكل فعال أي انطلاق للبرتغاليين من مستوطناتهم على السواحل. وفي سريلانكا، المعروفة عندهم باسم "سيلاو"، كانت للبرتغاليين في بعض الأوقات سيطرة فعالة، وكان بمقدورهم أن يرسخوا وجودهم، وربما وجود لغتهم في المدى الطويل لو لم يسارع الهولنديون إلى طردهم. وعلى مبعدة إلى الشرق، في جزر الهند الشرقية، بحث البرتغاليون عن الربح من المتاجرة بالتوابل، ولكن أرضية سوق هذه السلع تقوضت بسرعة كبيرة. وعلى أية حال، فإن من الممكن المجادلة - ليس على الأقل من مقارنة مصير الإمبراطوريات الأوروبية في آسيا - بأن نوعية الإثراء المستمد من المتاجرة مع هذه البلدان لم تكن لتجتذب أعداداً كبيرة من المهاجرين، وبالتالي أن تبني مجتمعاً كبيراً ناطقاً باللغة البرتغالية. فالتجارة

(*) ومع ذلك فقد أعلنوا في العام 2000 أن اللغة الرسمية للدولة هي الكونكانية، وهي لغة آرية لها علاقات قرابة مع الماراثية والهندية.

تتطلب رأس مال، أو على الأقل قوة عسكرية هامة لفرض الشروط؛ ونتيجة لذلك تملك الحكومات والمنظمات الواسعة النطاق ميزة ساحقة. وحيثما تكون التجارة، وليس الإنتاج، هي مصدر الثروة، فإن الطريقة الوحيدة لإشراك أعداد كبيرة من المهاجرين وعدد قليل من الأشخاص الخارجيين في العملية هي أن يصحبوا قراصنة.

وفي إفريقيا، كانت للبرتغال مستوطنات صغيرة على طول الساحل الغربي منذ القرن الخامس عشر، كموانئ انطلاق لتسيير السفن إلى الهند. ورغم ذلك لم يتم اكتشاف أي مصدر للإثراء أبداً سوى تجارة العبيد. فلم تجتذب هذه المستوطنات أبداً أعداداً كبيرة من المستوطنين الناطقين بالبرتغالية. ولكن هذه التجارة أسهمت بقوة في نشر البرتغالية في أمريكا الجنوبية في إحدى المراحل. فمن بين عشرة ملايين عبد إفريقي شحنوا إلى الأمريكتين بين العامين 1526 و1870، أُرسل 3.6 ملايين إلى البرازيل وحدها[12]، وذلك لتقديم قوة عاملة في مزارع السكر في أول الأمر، ثم في مزارع القطن والتبغ فيما بعد. ومثل المشاريع الاقتصادية الأخرى القائمة على تسخير الأرقاء في الأمريكتين، فإن الأفارقة لم يستطيعوا أن يجلبوا معهم لغاتهم. فكانت اتصالاتهم قليلة جداً مع جيرانهم السابقين بحيث لم يستطيعوا التكلم بلغاتهم، لأن أسواق الرقيق وزعتهم على جميع أنحاء المستعمرات من دون أي اعتبار لأصولهم، وهكذا أجبروا على تعلم لغة أسيادهم الجدد. وكثيراً ما صار أولئك الأسياد أنفسهم أيضاً هم آباء أطفالهم. وفي غضون أجيال قليلة أصبح معظم السكان ذوي دماء مختلطة، ومع ذلك لا يتكلمون إلا البرتغالية.

كما أن هجرة البيض إلى البرازيل كانت أكبر منها إلى أي مكان آخر من الممتلكات البرتغالية. ومنذ وقت مبكر، فإن البلاط البرتغالي وشعبه لم يبديا كبير اهتمام بمستعمرتهم الأمريكية، لأنها ـ بطريقة غير مفهومة ـ لم تقدم أي شيء وفير كالذهب والفضة التي كان الإسبان يستخرجونهما من مستعمراتهم في المكسيك وبيرو.

ولكن الاهتمام المعادي الذي أظهرته القوى الأوروبية الأخرى، والجهد

المطلوب لكبحها، ركزا في البرتغال شعوراً بأن هناك شيئاً يستحق الامتلاك. فقد احترم الإسبان الحقوق البرتغالية بموجب معاهدة توردسيلاس في العام 1494 - بل إن إسبانيا والبرتغال كانتا متحدتين تحت حكومة (إسبانية) واحدة من العام 1580 إلى العام 1640 - ولكن القوى الأخرى التي لم تكن طرفاً في تلك المعاهدة كانت أكثر خطراً. فقد شكل الفرنسيون التحدي الأول في العام 1555 بغارات ومحاولات للاستيطان استمرت بإلحاح حتى العام 1615. ثم جاء التحدي الإنكليزي (الأقل خطراً) من العام 1582 إلى العام 1595. وكان الهولنديون هم الأكثر عدوانية. فبعد هجمات غير مجدية في العام 1598 - 1599، نجحوا من عشرينيات القرن السابع عشر إلى العام 1641 في الاستيلاء على كل الجزء الشمالي الشرقي من البرازيل، من ساو لويس إلى أراكاخو، وظلوا مسيطرين عليه إلى العام 1654. بل لقد استولوا لفترة قصيرة في العام 1624 على قلب المستعمرة البرتغالية نفسه، أي على عاصمتها الأولى بايا (التي تسمى أيضاً سالفادور). ويبدو أن البرتغاليين لم يجدوا التصميم، وبالتالي الموارد، لاسترداد ما خسروه إلا بعد أن أقرّوا في آخر الأمر بخسارة معظم مستعمراتهم في الهند وما وراءها. (بل إن هذه أصبحت - كما سنرى - هي الهدف التالي للهولنديين).

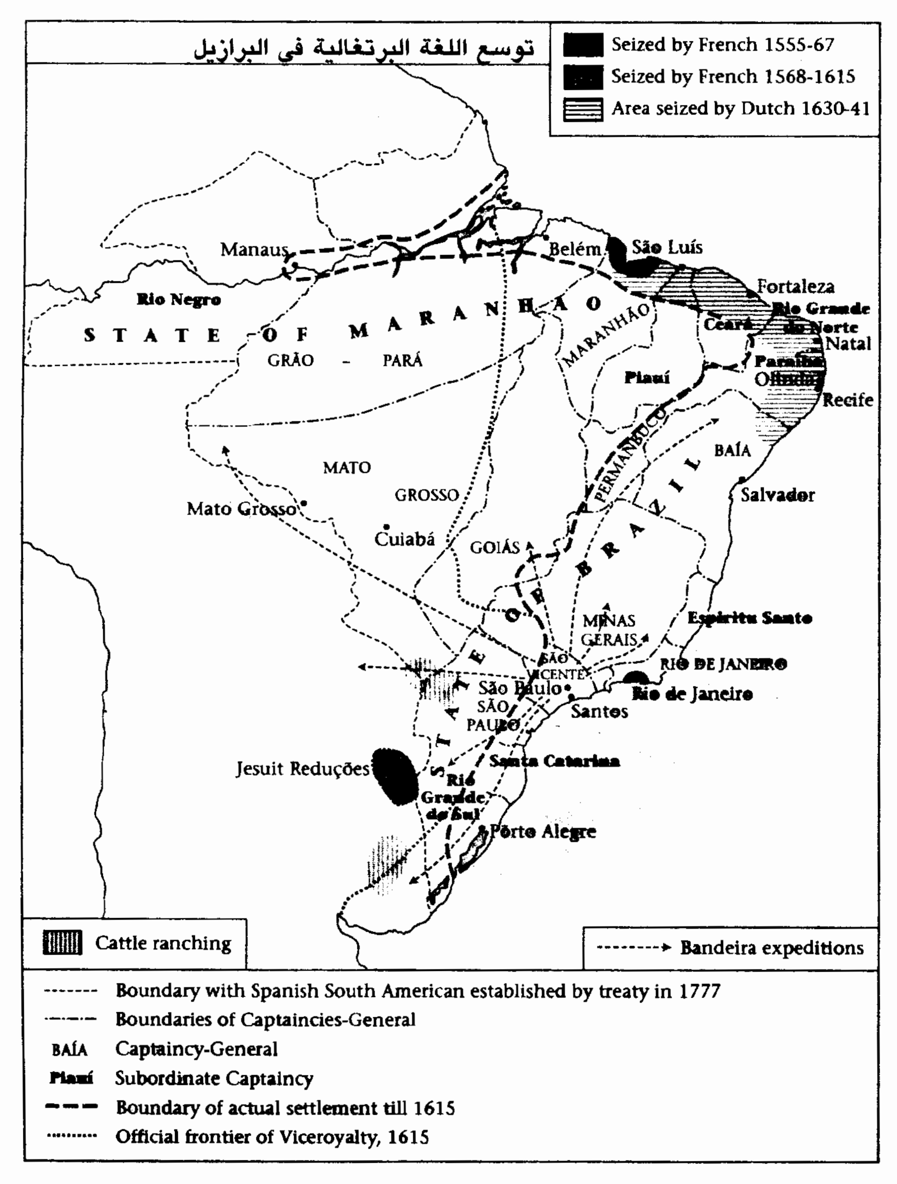
وكانت سلسلة من الحملات القوية التصميم قد رسمت خرائط لمعظم القسم الداخلي من هذه المنطقة عند حلول منتصف القرن السابع عشر. وقد عرفت تلك الحملات باسم 'الأعلام' وكان دافعها الملهم لها هو البحث (غير المجدي على الأغلب) عن الذهب والفضة، والمجوهرات، أو أسر السكان الأصليين واستعبادهم كرقيق. وكان نجاحها الرئيسي يكمن في استباق تخطيط الحدود مع المستعمرات الإسبانية التي كانت تتعرض لاستكشاف أقل فعالية، من الجانب الآخر من القارة. (وقد تم الاتفاق على الحدود فعلياً بعد ذلك بمئة عام في معاهدات مدريد في العام 1750، وباردو في العام 1761 وإلديفونصو في العام 1777 التي حذفت الخط الوهمي لمعاهدة توردسيلاس في آخر الأمر).

ورغم هذه الاستكشافات، فإنه حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر

كان البرتغاليون الوحيدون الذين استوطنوا على بعد أكثر من 400 كيلومتر من الساحل هم المبشرين، وخصوصاً اليسوعيين. وكما في المستعمرات الإسبانية، فقد وجدوا أن من الأسهل أن يعظوا بلغة غير لغتهم، وأطلقوا على معظم اللغات المحلية لقب 'الألسنة المقيدة'، مما يوضح أنهم لم يكونوا متحمسين لها. وفي موعظة مشهورة لتوديع بعثة من المبشرين عند مغادرتها إلى العالم الجديد في العام 1657، قال الأب أنطونيو فيريا إنه سمع شخصاً يطلق على الأمازون لقب "نهر بابل" لأن فيه ثمانين لغة: 'فكيف يجب أن يكون تعلم لغات نينغيبا، أو جورونا، أو تاباخو، أو تيرميمبي، أو ماماياتا التي يبدو أن أسماءها نفسها مرعبة؟ ... لقد أعطى الله الرسل ألسنةً من نار، ولكنه أعطى خلفاءهم ناراً من الألسنة. وقد انتهى دور ألسنة النار، لكن دور نار الألسنة لم ينته، لأن هذه النار، وهذه الروح، وهذه المحبة لله تجعل المرء يتعلم هذه اللغات، ويدرسها ويعرفها'[13].

ورغم كل هذا الربط الحماسي المندفع بين تعلم اللغات ومحبة الله (أو مخافته)، فقد تبين في البرازيل أن توبينامبا (وهي لغة شديدة الصلة بلغة غوارانى في بيرو) يمكن استخدامها في كل مكان (انظر الفصل العاشر: 'الصراعات الماضية: كيف انتشرت اللغات الأمريكية'، ص 484)، وصارت تدعى "اللغة العامة". وفي أوائل أيام المستعمرة، كانت هي وسيلة الاتصال الرئيسية مع الأهالي الأصليين. وقد كتب شاهد يسوعي في حوالي العام 1560: 'إن جميع الذين يأتون إلى المملكة تقريباً ويستقرون فيها ويتواصلون مع الهنود يتعلمونها في غضون وقت قصير. كما أن أولاد البرتغاليين الذكور والإناث الذين يولدون هنا يعرفونها أكثر من آبائهم، وبشكل رئيسي في قيادة مقاطعة ساو فيسينت'[14].

وقد نظم اليسوعيون الهنودَ في قرىً ومناطق محمية، وبذلك قاوموا تغلغل المزيد من المستوطنين البيض. وقدِّر لهذه المقاومة للتطور الاستعماري المحدد في المناطق الداخلية أن تستمر إلى منتصف القرن الثامن عشر. فكان من نتائجها أن استعمال البرتغالية ظل محصوراً في المقاطعات الساحلية أثناء القرنين الأولين من وجود المستعمرة. ولم يفقد اليسوعيون قدرتهم على حماية



الهنود وتنظيمهم بهذه الطريقة إلا في العام 1759 عندما جُرِّدوا من سلطاتهم وأبعدوا من البلد(*). وبالإضافة إلى ذلك فإن الاستمرار في استخدام 'اللغة العامة' قد تم حظره في الوقت نفسه.

(*) كان هذا جزءاً من التأثير العالمي لعصر التنوير على الحكومات الكاثوليكية (انظر الفصل العاشر: 'حل الدولة: اعتماد الإسبانية'، ص 514).

ولكن البرازيل كانت قد أصبحت إمكانية أكثر جاذبية للمستوطنين. فبعد إعادة تعزيز السلطة البرتغالية في العام 1654، تمت سلسلة من التطورات الاقتصادية قدمت في آخر الأمر حافزاً لهجرة واسعة النطاق من أوروبا ولانتشار اللغة البرتغالية معها. وتم العثور في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر على طبقات أرضية فيها خامات الذهب، والزمرد، والماس وغيرها من الأحجار الكريمة، وبشكل رئيسي في المنطقة الجنوبية الوسطى التي صارت تعرف منذ ذلك الحين باسم المناجم العامة. ولكن عثر على هذه النفائس أيضاً في المنطقة الداخلية، في بايا، وغوياس، وماتوغروسو. فكانت النتيجة أول هجمة عالمية على الذهب جاءت على الأغلب من البرتغال، وجاء بعدها في القرن الثامن عشر اقتصاد وعائدات حكومية تم بناؤهما على الذهب بشكل آمن. وعندما نضب الذهب في آخر ذلك القرن حلت محله أرباح التصدير من مزارع تربية المواشي، وخاصة من بيع الجلود المدبوغة، وهي صناعة استفادت من فتح مروج الرعي الشاسعة في تلك المناطق الجنوبية والوسطى نفسها.

فكانت النتيجة زيادة في عدد السكان الناطقين بالبرتغالية في البرازيل، وهي زيادة تمت المحافظة عليها وتغذيتها فيما بعد. وقد جاءت من الهجرة (بما في ذلك استيراد العبيد) ومن النمو الطبيعي. وبعد أن كان ذلك النمو يشكل أقل من مئة وخمسين ألفاً في العام 1650، صار يزيد على مليون ونصف المليون عند حلول العام 1770، وذلك في فترة كانت فيها بقية الأمريكتين (الناطقتين بالإسبانية والإنكليزية معاً) قد ضاعفت عدد سكانها فقط. وفي الفترة نفسها صارت البرازيل تضم الدرجتين الثانية والثالثة من أكثر المدن ازدحاماً بالسكان الناطقين بالبرتغالية في العالم كله. فكانت لشبونة وحدها هي المدينة الأكثر سكاناً من بايا (سلفادور) وريو دي جانيرو. وهذا التدفق من المهاجرين الأغنياء والكثيري التوالد من أوروبا، والذي عزز تدفق العبيد المقتلعين من جذورهم الإفريقية، شكل زحاماً حاشداً أزاح لغة توبينامبا العامة السابقة، واقتلع معها اللغات الصغيرة التي كانت تتكلمها فرادى القبائل. وأظهرت تقديرات العام 1985

أن عدد البرازيليين الناطقين بلغات أصلية لم يكن يزيد على مئة وخمسة وخمسين ألفاً، أي بنسبة تقرب من شخص واحد في مقابل كل ألف من الناطقين بالبرتغالية[15].

إذن، فإن نمو البرتغالية إلى مكانتها الحالية في آخر الأمر (176 مليون ناطق أصلي، مما يجعلها في المرتبة السابعة في العالم، تسبق الألمانية، والفرنسية، واليابانية) مدين بكل شيء تقريباً للنمو الاقتصادي، وتكاثر السكان التالي له في البرازيل على مدى القرون الثلاثة الماضية، وليس مديناً بشيء يذكر للانتشار من البرتغال كلغة للإرادة الاستعمارية أو كلغة مشتركة في آسيا، فهاتان الحالتان كلاهما بلغتا الذروة قبل أكثر من أربعمئة عام.

المتطفلون الهولنديون

جاء سيدجا إلى باتافيا. فطلب من رجل لطيف أن يستخدمه ليعمل عنده، فأجابه الرجل اللطيف إلى طلبه حالاً، لأنه لم يكن يفهم لغة سيدجا. لأن الناس في باتافيا كانوا يحبون الخدم الذين لم يكونوا بعد يتكلمون الملايوية، وبذلك فإنهم ليسوا فاسدين كالذين طال اتصالهم بالحضارة الأوروبية. وقد تعلم سيدجا الملايوية بسرعة، ولكنه كان حسن السلوك ...

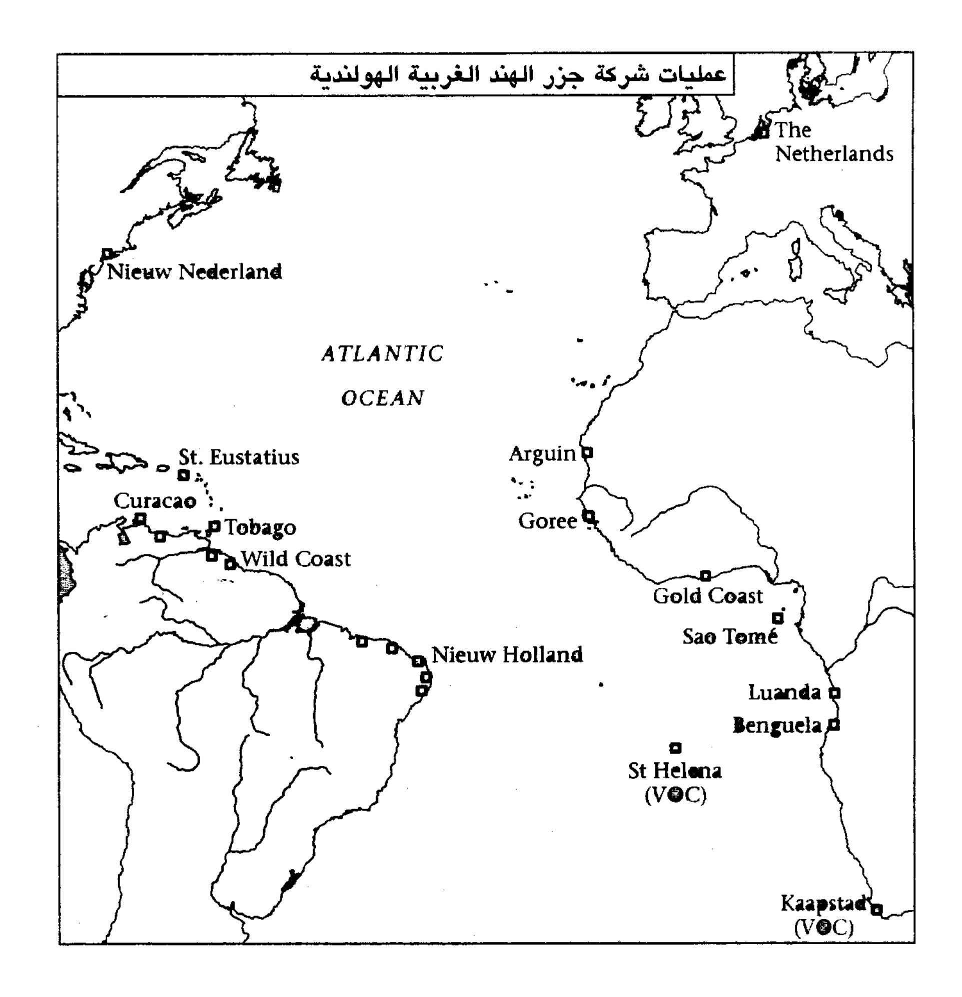
مولتاتولي، ماكس هافلار (أمستردام 1860) الفصل 17

انتهت حصة التموين، ولم تهزم بالمبانغ.

مَثَلٌ من الملايو(*)

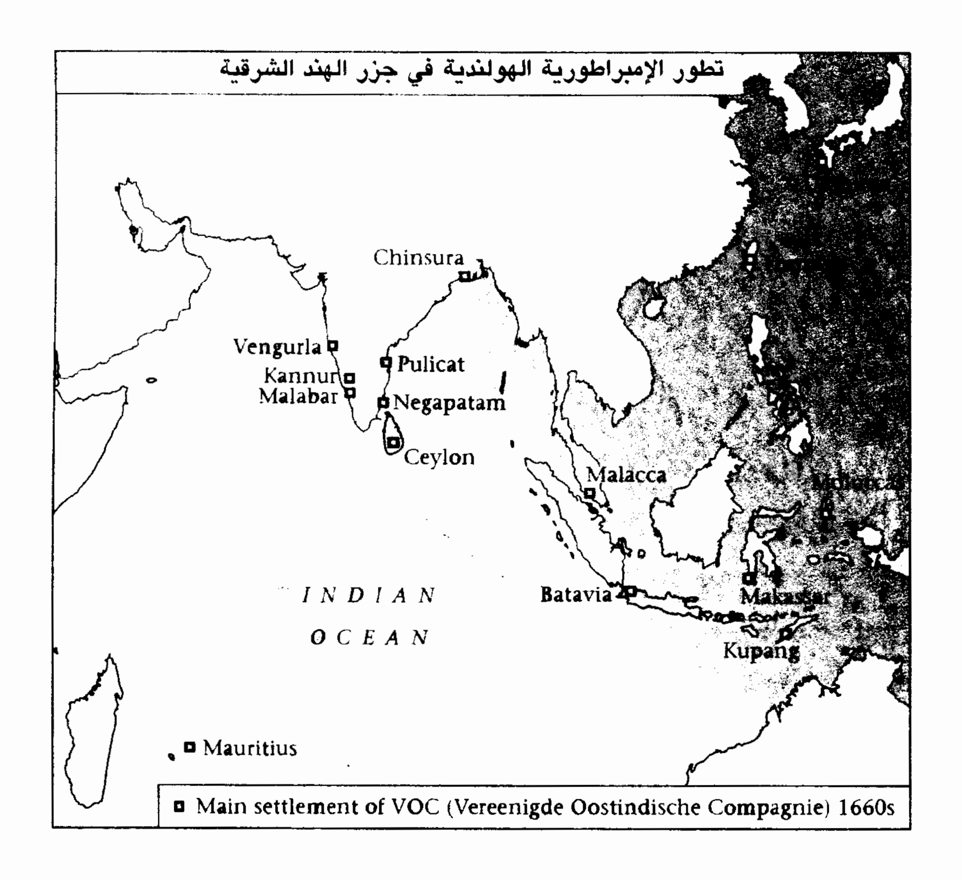
بعد مئة عام من الاستقرار، من منتصف القرن السادس عشر إلى منتصف القرن السابع عشر، خسرت البرتغال إمبراطوريتها التجارية بسرعة تكاد تعادل سرعة إقامتها. ويرجع ذلك بشكل حاسم إلى جهود قوة أوروبية صغيرة أخرى هي

(*) كانت بالمبانغ في سومطرة المدينة الرئيسية لسري فيجايا، الدولة القديمة المرجح أنها المسؤولة عن نشر اللغة الملايوية في أسواق جزر الهند الشرقية. ويقال إن هذا المثل عن الجهود الضائعة يشير إلى المحاولة الهولندية الفاشلة للسيطرة على بالمبانغ، التي كانت في حينها مصدراً أساسياً للفلفل (هاملتون 1987، ص 60).



هولندا(**). فقد جرد الهولنديون البرتغال بسرعة من مصادر دخلها الآسيوية، وصاروا شيئاً راسخاً في جزر الهند الشرقية لمدة ثلاثة قرون. ولكن في تاريخنا للغات العالم لا يلعب الهولنديون سوى دور سلبي. فسيرة الحياة الهولندية تبين أن قوة استعمارية أوروبية ناجحة يمكن مع ذلك أن لا تترك أي أثر لغوي يذكر في ممتلكاتها ـ وهذا في الحقيقة دليل آخر على أن نبريجا كان مخطئاً.

(*) كان لكل من هولندا والبرتغال عدد يتراوح بين مليون وربع ومليون ونصف من مواطنيهما في جزر الهند الشرقية في القرن السابع عشر (بوكسر 1969، ص 114).



تطور الإمبراطورية الهولندية في جزر الهند الشرقية

إن سيرة حياة الإمبراطورية الهولندية بدأت في مواجهة ظروف غير مؤاتية، وكانت تقريباً بمثابة خط جانبي للنشاط التجاري، أثناء حرب الاستقلال عن إسبانيا التي خاضها الهولنديون بشكل متقطع استمر من العام 1568 إلى العام 1648. ولكنها في الحقيقة أتاحت لسكان مدن الجمهورية الجديدة من المقاطعات الهولندية المتحدة حرية كبيرة للعمل اعتباراً من العام 1588. ورغم الأوقات الحرجة والمضطربة، فإن تزويد أوروبا الشمالية بسلع الرفاهية الباذخة (من آسيا على الأغلب وفي حالات كثيرة بإعادة تصديرها من البرتغال) صار مضرب المثل في 'التجارة الغنية' للتجار الهولنديين في العقد الأخير من القرن السادس عشر. ثم في العام 1598 تمت مقاطعة التجار الهولنديين وبضائعهم وسفنهم في جميع موانئ الإمبراطورية الإسبانية/البرتغالية. ولذلك ركز الهولنديون تفكيرهم

فكانت النتيجة الفورية انبثاق مشروعهم التجاري الكبير مع جزر الهند الشرقية. وبحلول العام 1601، أبحر ستة عشر أسطولاً هولندياً بخمس وستين سفينة تعمل نيابة عن ثمان شركات مختلفة[16]. ومثل هذه المنافسة المتبجحة اللافتة للأنظار لا تؤدي إلا إلى مشاكسة ضارة في المصدر في جزر الهند الشرقية وكذلك في أسواق الزبائن الأوروبيين. وهكذا ففي العام 1602، وبتواطؤ كل الشركات المعنية، تأسست شركة الهند الشرقية المتحدة كاحتكار لهذه التجارة تابع للدولة الهولندية. وبعد ذلك ببعض الوقت، في العام 1624 تأسست شركة الهند الغربية للسيطرة على المصالح الهولندية في نصف الكرة الغربي.

ومن بين هاتين الشركتين، كانت شركة الهند الغربية هي الأقل نجاحاً بكثير على المدى الطويل في الحصول على ممتلكات عقارية وعلى مجموعات سكانية مستعمرة. ولقد بدأت بشكل جيد؛ فمنذ العام 1623، استولت على شريحة من أمريكا الشمالية (شملت ما يعرف الآن بنيوجيرسي، وديلاوير، وبنسلفانيا والنصف الجنوبي من ولاية نيويورك) وأطلقت عليها اسم 'الأراضي المنخفضة الجديدة'. وتبعت ذلك فوراً غزوات من البرتغال لساحل غينيا في 1637 ـ 1642، ولشمال البرازيل (فسمتها 'هولندا الجديدة') في العام 1631، ولأنغولا في العام 1641، وحصلت كذلك على ممتلكات أقل أهمية في بحر الأنتيل وغويانا. وفي العام 1640 كانت شركة الهند الغربية تسيطر على الأسواق الأطلسية في السكّر، وتجارة الرقيق، والفراء. وعند حلول العام 1665 كانت قد فقدت كل شيء ما عدا جزر الأنتيل وغويانا. فإلى جانب استعادة البرتغال لمستعمراتها، فإن إنكلترا استولت بالقوة على الأراضي المنخفضة الجديدة (وجعلت من نيو أمستردام نيويورك) في العام 1664. فتقلصت شركة الهند الغربية وعادت إلى التمترس بموقعها كشركة تجارية بسيطة تعمل لكسب معيشة جيدة حيث كانت تطمح إلى الحكم في السابق. وكان في غينيا كثير من الذهب وما يزال، وكذلك طلب على العبيد الأفارقة في هولندا. وقد بقيت اللغة الهولندية في المستعمرات الصغيرة كلغة إدارية. وفي أيامنا هذه لا يكاد يوجد ألف شخص من الناطقين الأصليين بالهولندية في جمهورية سورينام (غينيا الهولندية)، بينما قد يصل عدد الذين يستخدمونها كلغة ثانية إلى

ربع السكان البالغ عددهم نصف مليون. وظلت جزر الأنتيل معتمدة على هولندا إلى حد كبير، ولكن أقل من عشرة بالمئة من سكانها البالغ تعدادهم 185,000 يتكلمون الهولندية كلغة أولى.

ومن جهة أخرى فإن شركة الهند الشرقية وصلت إلى عظمة استعمارية حقيقية. ففي جزر الهند الشرقية، مصدر تجارة التوابل، أزاحت البرتغال نهائياً من أمبون، وفيما بعد من تيرنيت وتيدور في منطقة ملقا (1605 ـ 1662)، ومن ملقا في الملايو (1641) ومن ماكاسار (يوجونغ باندانغ الحديثة) في سولاويسي (1667). وتعدت هذه الشركة إلى ما وراء نطاق الممتلكات البرتغالية فاستولت على جاكرتا في جاوة الغربية (1619) وجعلتها مركز عملياتها (مثل غوا بالنسبة للبرتغاليين) وأعادت تسميتها فصارت باتافيا(*). وعن طريق التآمر بدلاً من الحرب حلت محل البرتغاليين في احتكار التجارة مع اليابان، وصارت لها قاعدة دائمة في ناغازاكي(**). وفي شبه القارة الهندية حصلت شركة الهند الشرقية على موطئ قدم للهولنديين في العام 1613. وفيما بين العامي 1638 و1661، أخذوا من البرتغاليين سيلان وسلسلة ممتلكاتهم كلها في جنوب الهند، من كانور إلى نيغاباتام. وفي إفريقيا عجزوا لفترة طويلة عن زحزحة البرتغاليين من أنغولا وموزامبيق، ولكنهم أسسوا مستعمرتهم الخاصة بهم في جنوب إفريقيا في كيب تاون في العام 1652. ولاحظ ويليم بوسمان في العام 1704 أن البرتغاليين كانوا

(*) كانت باتافي قبيلة جرمانية تعيش في منطقة هولندا الحديثة، شمال شيلدت في نهاية القرن الأول ق. م. وبداية القرن الأول الميلادي. فاستعار الهولنديون المهتمون بالتاريخ اسم هذه القبيلة، ولم يقدّر ذلك أهل جاوة الذين استقر الهولنديون بينهم بالطبع.

(**) كان أحد الدوافع الكبرى هو ارتباط البرتغاليين بالمسيحية، التي كانت حكومة طوكوغاوا إيميتسو اليابانية مصممة على اقتلاعها بالمرة ضمن السواحل اليابانية. ولذلك فإن الهولنديين، المستعدين لحصر اهتماماتهم بقضايا التجارة الدنيوية فقط، ظلوا طيلة القرنين التاليين هم القوة الأجنبية الوحيدة المتصلة باليابانيين. وأدى ذلك إلى حادثة لغوية مشهورة في التاريخ الياباني (تشبه استخدام البرتغالية المذكور أعلاه ['إمبراطورية آسيوية'، ص 533]. ففي العام 1853، عندما قام القائد البحري الأميركي ماثيو كالبريث بيري بدخول ميناء أوراغا مع 'سفنه السوداء' مصمماً على إنهاء عزلة اليابان، كان أحد أول اليابانيين الذين اقتربوا منه هو هوري تاتسونوسوكي، فقال بلغة إنكليزية جيدة: 'أنا أستطيع أن أتكلم الهولندية'. وبما أن أحد الأميركيين، ويدعى السيد بورتمان، كان يعرف الهولندية أيضاً، فإن أول تبادل للحديث المستمر بين الأميركيين واليابانيين تم في الحقيقة باللغة الهولندية. (هوكس 1954، ص 48-49).

"كالكلاب المستعدة للانقضاض على الفريسة، وما أن بدأ السباق حتى استولى الآخرون عليها"[17].

ومن الأشياء الغريبة ولكنها هامة أن التدخل الاستعماري الهولندي كانت له ثمرة لغوية في إفريقيا فقط. فقد انجذب المستوطنون الهولنديون إليها، تماماً مثلما اجتذبت البرازيل في آخر الأمر مستوطنين من البرتغال. ولم يكن المستوطنون الهولنديون تجاراً، ولا عاملين في المناجم، بل مزارعين (أي "بوير" باللغة الهولندية). وكانت لغتهم مبسطة تبسيطاً خفيفاً من الهولندية، وتعرف باسم "الأفريكان". فتطورت ونمت مع سكانهم، حتى بعد أن كسب البريطانيون السيطرة على البلد[*]. وفيما بعد، عندما ملوا من الحكم البريطاني، انطلقوا في المسيرة العظمى في العام 1836 إلى شرقي ما يعرف اليوم باسم جنوب إفريقيا ليؤسسوا دولة الأورانج الحرة والترانسفال. وقد تقلص تأثيرهم مؤقتاً بعد اندحارهم على يد البريطانيين في حرب البوير (1899 ـ 1902). ولكن أعدادهم سادت في المجتمع الأبيض ـ كما قدر لها أن تسود فيما بعد بين الأبيض والأسود ـ وفي نصف القرن التالي صارت الأفريكان بوضوح لغة الأكثرية الحاكمة في جنوب إفريقيا. فكان الناطقون بها هناك في العام 1991 يبلغون 6.2 ملايين متركزين في بريتوريا وبلومفونتين، ومنهم مليون شخص ثنائيو اللغة من الأهالي الأصليين يتكلمون الأفريكانية مع الإنكليزية، مع أربعة ملايين آخرين يستعملون الأفريكانية كلغة ثانية أو ثالثة. وعند أخذهم معاً، فإن العشرة ملايين الذين يعرفون هذه اللغة فيهم شبه كبير من العشرين مليون نسمة الذين يتكلمون الهولندية على مستوى العالم (وهم 13.4 مليوناً في الأراضي المنخفضة، و5 ملايين آخرون في بلجيكا)[18].

وعلى مبعدة إلى الشرق، ثبت أن فترة الوجود الهولندي كانت أقصر. فقد انتقلت سيلان والهند الجنوبية، مثل مستعمرة الكاب، إلى الأيدي البريطانية عند نهاية القرن الثامن عشر كنتيجة جانبية للتغيرات السياسية في أوروبا. وبذلك انتهى التأثير الهولندي الذي دام قرناً ونصف القرن ومن الصعب تمييزه الآن.

(*) دخل البريطانيون في الأصل ليسيطروا مسبقاً على الممتلكات الهولندية عندما احتلت فرنسا الأراضي المنخفضة في العام 1795، ولكنهم ضموا إليهم مستعمرة الكاب بشكل دائم في العام 1806.

وبالمثل فقد كان هناك حركة أخذ ورد في جزر الهند الشرقية ـ أصبح خلالها ستامفورد رافلز في سن الثلاثين مساعداً لحاكم جاوة لمدة خمسة أعوام، وعثر على مدينة بوروبوور البوذية العجيبة المفقودة. ولكن تلك الحركة انتهت باكتفاء البريطانيين بالسيطرة على شبه جزيرة الملايو وبورنيو الشمالية، وحافظ الهولنديون على سيطرتهم على الجزر في آخر الأمر حتى الحرب العالمية الثانية، بعد ثلاثمئة عام من سلبها من البرتغاليين.

وإذن، فلماذا لم تعد الهولندية الآن لغة الحكومة الرسمية، أو لغةً مشتركة على الأقل في دولة إندونيسيا، خليفة شركة الهند الشرقية الهولندية؟ وبما أن الهولندية لغة جرمانية أخرى، فإن هناك ما يكاد يغري المرء بتتبع وجود 'لعنة جرمانية'. ولنتذكر أنه برغم الغزوات الرهيبة في أوروبا الغربية وشمال إفريقيا في القرن الخامس الميلادي، فإن الفرنك، والفاندال، والقوط، هم وحدهم من بين كبار الغزاة في تلك الفترة الذين لم ينشروا لغتهم عبر ممتلكاتهم. وفي العصر الحديث، من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين، فإن أحفادهم الهولنديين لم يكونوا أقدر على كسب ناطقين جدد بلغتهم، بينما كان الإنكليز من حولهم ينشرون لغتهم في الملايو، وكانت البرتغالية متشبثة بزاويتها المحصورة في تيمور، وكان الإسبان يحاولون تنشئة الفليبين على النطق بالقشتالية، بل وكان الفرنسيون يحاولون زرع النطق بالفرانكفونية في معقلهم بالهند الصينية.

وكان السبب الرئيسي لهذا الغياب الغريب للغة الهولندية هو النزعة العملية الذرائعية لدى الناطقين بها في جزر الهند الشرقية(*). فقد كانوا موجودين هناك،

(*) يقترح أندرسون (1991: ص 110) دافعين آخرين، هما غياب النزعة الوطنية بحد ذاتها في أوائل القرن السابع عشر (فقد كانت شركة الهند الشرقية بعد كل شيء شركة وليست قومية)، وكذلك نقص الثقة بالنفس لدى الهولنديين بلغتهم. وليس أي واحد من هذين الدافعين مقنعاً على نحو خاص على ما يبدو، ولا سيما بالمقارنة مع المنافسين البرتغاليين الذين كان الهولنديون يتفوقون عليهم عملياً مع الوعي بالذات. وفي الصفحة 133 يقترح أندرسون كذلك أن الأراضي المنخفضة، التي لم تكن لها سوى مستعمرة كبيرة واحدة، كان بوسعها أن تتبنى لغة غير أوروبية للإدارة. ويقول أندرسون إن مثل هذه اللغة كانت ستظل مجهولة عند قوة إمبراطورية ذات ممتلكات في عدة قارات كالإمبراطورية البريطانية. ولكن الإمبراطورية الهولندية أيضاً كانت متعددة القارات هي الأخرى في سنواتها المئة والخمسين الأولى.

ومن جهة أخرى فإنه قد يكون على حق في إشارته (في الصفحة 110) إلى السياسة اللغوية كوسيلة لإبقاء السكان الأصليين متخلفين. 'ففي العام 1940، عندما كان عدد السكان الأصليين يزيد كثيراً على 70

بعد كل شيء، بدافعين، أولهما هو كسب المال، وثانيهما ـ وهو أقل أهمية بكثير ـ هو نشر المسيحية البروتستانتية حسب صيغتهم الكالفنية العزيزة عليهم. وبالمحصلة، كان كلا الدافعين يتطلبان استخدام لغة اتصال أجنبية، بدلاً من لغتهم الأم. فبالنسبة للتجارة مثلاً، كان من الواضح أن هناك حاجة لاستخدام أي لغة مناسبة في متناول اليد. وقد تبين أن هناك لغة مشتركة لدى المجتمع التجاري في جزر الهند الشرقية مضى على استخدامهم إياها قرنان من الزمن على الأقل، وربما أطول من ذلك بكثير.

كانت تلك هي اللغة الملايوية (أو كما تكتب بالتهجئة الهولندية *Bahasa Melajoe*)، ولكنها كانت تعرف بأنها رطانة التجار الذين لهم معاملات في مراكز تخزين البضائع وتوزيعها في ملقا. ولم تكن ملقا قد تأسست إلا في بداية القرن الخامس عشر. ولكنها نمت بسرعة شديدة، من خلال استكشاف موقعها المسيطر على المضيق، وبرعاية الإمبراطور الصيني. ومن المحتمل أن يكون انتشار اللغة قد بدأ قبل ذلك. وقد تأسست ملقا على يد أمير متمرد من سري فيجايا، وهي دولة كانت ترعى مصالح تجارية واسعة من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر الميلاديين. وكانت جامبي، إحدى مدنها الرئيسية، تسمى أيضاً ملايو. ومهما كانت أصول الملايوية، فإنها كانت لغة في متناول اليد يستطيع بها أي تاجر هولندي أن يقوم بأعمال تجارية في جميع أنحاء جزر الهند الشرقية(*)، وتلك ميزة إضافية مفيدة ما دامت شركة الهند الشرقية الهولندية مهتمة دائماً بالتجارة في جميع أنحاء المنطقة، وليس مجرد عملية التصدير البسيطة من مصادر الإمداد إلى الأراضي المنخفضة[19].

وبالمثل فمن أجل نشر عقيدة كنيسة الإصلاح الهولندية وممارساتها كان

مليوناً، لم يكن يوجد منهم في الكليات سوى 637 طالباً، ولم يتخرج منهم بدرجة البكالوريس- أي الليسانس - سوى سبعة وثلاثين'.

(*) كان الإيطالي بيغافيتا يرافق البحارة الإسبان الذين يطوفون حول العالم في العام 1521، وقد استطاع أن يجمع 450 كلمة ملايوية في تيدور في منطقة ملقا. ومع ذلك فإن الملايوية لم تكن قد ترسخت هناك بعد، فحتى الكُتّاب الذين كان عليهم أن يكتبوها لسلطان تيدور الطفل في العامين 1521 و1522 أظهروا أن معرفتهم بها كانت 'بالتأكيد ناقصة وغير كاملة' (هوفمان 1979، ص 66 - 67: الحاشية رقم 9).

من الأسهل والأسرع تنصير الناس عندما لا يكون جهد المرء مقتصراً على الذين يعرفون اللغة الهولندية أو المستعدين لتعلمها، وكانت هناك محاولات لإقامة مدارس بالهولندية في أمبون، وكان هناك تشغيل لست عشرة مدرسة منها في العام 1627. ولكن لم تكن هناك فرص تذكر للأطفال الذين يتعلمونها كي يستخدموها بعد تخرجهم، وهكذا كانوا يميلون إلى نسيانها[20]. ولعل هذه إحدى الملامح الشائعة المشتركة لجماعة المتقنين للغة، عندما لم تكن الفرصة قد أتيحت لهم بعد كي ترتقي مرتبتهم في النظام، وهكذا فإنهم يتعاملون على الأغلب مع كبار بالغين لا يشاطرونهم اللغة. ولكن الذرائعيين العمليين الهولنديين لم يكونوا مستعدين للانتظار، فتم إنهاء التجربة. وصارت الملايوية ذات هوية محددة بارتباطها بديانة الكنيسة الإصلاحية أيضاً، باعتبارها 'اللغة المشتركة الشائعة للكنيسة المحلية للسكان الأصليين'[21].

وقد نتساءل باختصار عن سبب عدم امتداد النزعة العملية الذرائعية الهولندية للاستفادة من لغة مشتركة سابقة كانت سائدة في ممتلكاتهم، وهي البرتغالية، التي لاحظنا آنفاً أنهم كان مطلوباً منهم استخدامها في معاملاتهم في سيلان، وكانت بالفعل قد انتشرت طوعاً أو كرهاً إلى داخل مركز عملياتهم في باتافيا. إذ إن من المؤكد أن بعض القساوسة الهولنديين، ولا سيما فرانسوا فالنتاين في ثمانينيات القرن السابع عشر، كانوا ميالين إلى تفضيلها على اللغة الملايوية في عمل الكنيسة[22]. ومن الملاحظ أن معتنقي عقيدة الكنيسة الإصلاحية لم يكونوا كثيرين أبداً، وكان معظمهم ممن سبق أن نصرتهم الكنيسة الكاثوليكية البرتغالية. ذلك أن الهندوس، والبوذيين، والمسلمين قد ثبت أن لديهم مناعة كبيرة ضد التأثر بالعقيدة الجديدة. ولكن الترابط بين البرتغالية والكاثوليكية ظل قوياً في قلوب الهولنديين الكالفنيين، وفي أوساط العمل التجاري لا بد أنه كانت هناك بقية من كبرياء تقاوم إعطاء أي مكان للغة أعدائهم المندحرين - وذلك في الحقيقة حتى العام 1640 وانفصال إسبانيا والبرتغال - أسيادهم المغضوب عليهم في آلية تنظيمهم الخاص بهم.

وهكذا صارت الملايوية لغة جزر الهند الشرقية الهولندية، وذلك كإجراء

عملي على المدى القصير في بادئ الأمر، ولكن عن طريق السياسة الرسمية عند حلول القرن الثامن عشر(*). ففي العام 1731 ـ 1734، صدر الإنجيل بترجمة ملايوية قام بها ميلكوار ليدكر وجورج هنريك ويرندلي، ونشر الأخير منهما كتاباً عن القواعد النحوية للغة في العام 1736. ولكن رغم محاولات الوعظ بها، فإن معرفتها لم تتغلغل بشكل عميق، بل كانت الملايوية وسيلة اتصال بين الإداريين والمدراء والتجار والحكام، وهكذا بقيت. ونظراً لطبيعة الإدارة الإمبراطورية الهولندية العالية التطور، التي أبقت سلطة الزعامات المحلية للسكان الأصليين في موقعها المتواضع وجعلتهم وسطاء لها، فقد نجح هذا الترتيب وعمل جيداً في بادئ الأمر.

ولكن التاريخ اللاحق للغة كما استُخدمت في جزر الهند الشرقية الهولندية لم يكن سهلاً ناعماً. ففي منتصف القرن الثامن عشر، عندما راحت الأسواق العالمية تقدر القهوة من جاوة بصورة أفضل من التوابل من أمبون، زادت الحاجة إلى التعامل مباشرة مع حكام جاوة الذين لم تكن معرفتهم باللغة الملايوية جيدة على الإطلاق. فكانت عودة الإدارة الهولندية بعد فترة الوصاية البريطانية تحت حكم ستامفورد رافلز (1811 ـ 1816) على أساس جديد. كانت شركة الهند الشرقية الهولندية قد ألغيت في العام 1795 بعد الانهيار في ربحيتها، وكان هناك اهتمام جديد للإداريين ليكونوا على اتصال مع رعاياهم من السكان. فصدر مرسوم في العام 1811 يدعو المسؤولين إلى معرفة اللغة الجاوية. وكان رافلز نفسه شديد التأييد لذلك عندما تسلم السلطة فعبر عن رأيه بالقول: 'حتى الآن كان الاتصال مع سكان البلد يتم بشكل رئيسي عن طريق مترجمين جهلة، أو عندما يكون مباشراً فعن طريق وسيلة من لهجة ملايوية بربرية متوحشة يزيدها تعقيداً واضطراباً إدخال البرتغالية والهولندية'[23].

(*) كان هناك دائماً تكهن بأن رفض الهولنديين الغريب لتشاطر لغتهم مع رعاياهم في مستعمراتهم كان نوعاً من العجرفة، لتعزيز نفوذهم وامتيازهم بين السكان الأصليين الذين لا يعرفون الهولندية. وقد ثبطت الإدارة الهولندية ذلك تماماً باعتباره موقفاً مؤذياً. ومع ذلك فقد كان هذا الاعتقاد سائداً على نطاق واسع بين المراقبين الأجانب (مثل بوسكيه 1940، ص 88-89)؛ وقد تصادف أنه يتناسب مع جانب معين من آداب السلوك في جاوة، حيث تتميز المكانة الاجتماعية بواسطة أساليب اللغة.

ولكن عندما عاد الهولنديون إلى تولّي الأمور، تبع عودتهم نزاع استمر طيلة القرن التاسع عشر، حول الوزن النسبي الذي ينبغي إعطاؤه لكل من اللغتين الجاوية والملايوية، وصدرت قرارات في الأعوام 1827 و1837 و1839 لتعزيز الملايوية مرة أخرى. ولقد كانت القيمة العملية لمعرفة اللغة الفعلية لغالبية الناس واضحة، ولكن الحقيقة المحرجة بقيت وهي أن اللغة الجاوية بنبراتها المحكمة والمفصلة، وعلاماتها اللغوية التحتية الدالة على مستويات مختلفة من التهذيب، تجعل تعلّمها إلى حد مقبول من الإتقان أصعب بكثير من تعلم الملايوية. ولم تكن النتائج جيدة أبداً. فعاد معظم المسؤولين إلى معرفتهم المكسرة وغير المحترمة بلغة 'الخدمة الملايوية'، ولكنها معرفة يمكن تشغيلها رغم أن تلك اللغة كانت تسمى باحتقار لغة 'الهذيان المبهم' أو 'الملايوية الباردة'[24].

ورغم كل عيوبها (لم تحدد لها تهجئة قياسية موحدة بالحروف الرومانية إلا في العام 1901)[25] فإن هذه اللغة الملايوية هي التي أصبحت اللغة الرسمية لدولة إندونيسيا، تحت اللقب المحترم "بهاسا أندونيسيا". وحتى يومنا هذا، ورغم أنها لغة أولى عند 17 ـ 30 مليون نسمة فقط، فإن هذا الرقم ربما يعادل عشرة بالمئة من الذين يستطيعون استعمالها كلغة ثانية. قارن ذلك مع الخمسة وسبعين مليوناً الذين لغتهم الأولى هي الجاوية، ومع اللغات الـ726 المدرجة كلغات محكية في مكان ما ضمن إندونيسيا. وهكذا نجح الهولنديون بسياستهم المتشنجة المتقطعة في إعطاء لغة مشتركة لمستعمرتهم القديمة، ولكنها لم تكن لغتهم.

الفرانكوفونية

اللغة الفرنسية امرأة. وتلك المرأة جميلة، ومتكبرة، ومتواضعة، وجريئة، ومؤثرة، وشهوانية، وعفيفة، ونبيلة، ومألوفة، ومجنونة، وحكيمة، إلى درجة أن المرء يحبها بكل روحه، فلا يغريه شيء بأن يخونها.

أناتول فرانس (1844 ـ 1924)

إن هذا النص، المعروف على نطاق واسع لدى الناطقين بالفرنسية والمحبين لها، فيه وعي للذات واحترامها بشكل بارز، ولكنه نموذجي(*). فقد اعتاد الفرنسيون بحماسة على فكرة كون لغتهم ذات مزايا خاصة، وحتى كونها أكثر عقلانية من اللغات الأخرى - وهذا غريب بالنسبة لمثل هذه الفكرة العاطفية التي تعتبر العرف الفرنسي ذا مكانة مركزية. ولعل الفرنسيين راحوا يؤكدون، بإخلاص أكثر من غيرهم من المصممين على القيام بغزوات عالمية، أنهم يؤدون "مهمة حضارية" تتجاوز الحصول على أرباح خارجية لأنفسهم وعلى مؤمنين أجانب بإلههم.

ولقد كانت المحصلة، من حيث التوسع الفعلي للمجتمع الناطق بالفرنسية كلغة أصلية وكلغة ثانية - أي ما يسمونه الفرانكوفونية - متواضعة، على الأقل بحسب مقاييس منافسيها المباشرين (وجيرانها)(**): فالفرنسية يمكن أن تعد الآن 77 مليون ناطق أصلي بها على مستوى العالم (ثلثاهم في فرنسا نفسها) و51 مليوناً آخرين يتكلمونها كلغة ثانية(***). وهذا يضعها في المرتبة العاشرة في قائمة اللغات بحسب عدد السكان، وبالنتيجة فهي الأصغر بين اللغات الأوروبية الكبرى، وأقل سكاناً حتى من الألمانية، التي لا يكاد أحد ينطق بها خارج قارة موطنها.

(*) وهو نص يمكن للأنغلوساكسوني غير المتعاطف معه أن يعتبره مثالاً على 'ذلك الكلام الشعري - النثري المنتشي الخفيف الذي هو أحد المظاهر الأكثر إثارة للملل في الروح الفرنسية'، وهذه عبارة قالها بيتر في مراجعة نقدية له لكتاب تيلار دي شاردان المعنون: "الظاهرة الإنسانية"، يمكن الوصول إليه على العنوان: http://cscs.umich.edu/crshalizi/Medawar/phenomenon-of-man.html

(**) مصطلح الفرانكوفونية اخترعه الجغرافي أونيسيم ركلوس في العام 1880 للإشارة إلى المجتمع الناطق بالفرنسية في العالم. وهو اليوم يشير (على الأقل في العالم الناطق بالفرنسية) بشكل أفضل إلى رابطة طوعية من الدول بموجب ميثاق، وليست كلها مستعمرات فرنسية سابقة، وهي في روحها كثيرة الشبه بالكومونولث البريطاني (انظر: www/france.diplomatie.fr/francophonie).

(***) هذه الأرقام من غرايمز (2000). ويزعم موقع وزارة الخارجية الفرنسية على شبكة الإنترنت المسمى الفرانكوفونية أن هناك 160 مليون ناطق أصلي بالفرنسية كلغة أولى وكلغة ثانية. ويذكر لوكريك (2000) أن 145 مليوناً من الناس قد دخلوا مدارس تعلّم بالفرنسية. وإن أي واحد من هذين الرقمين قد يرفع مرتبة الفرنسية فوق الألمانية من حيث عدد السكان، ولكنه لن يصل بها إلى مستوى البرتغالية.

الفرنسية في أوروبا

إن الفرنسية في أصلها هي جنس اللغة الرومانسية المحكية في بلاد الغال، التي كانت تعتبر بشكل واسع مملكة الفرنجة. أما تسميتها الحديثة لنفسها "الفرنسية" فهي مستمدة من الصفة الألمانية "فرنكيسك" عن طريق التسمية اللاتينية "فرانسيسكوس". ولأسباب سياسية وطوبوغرافية صارت مميزة ومقودة من قبل لهجة منطقة إيل دي فرانس في الشمال الشرقي. وهي منطقة ذات أنهار كثيرة صالحة للملاحة تسير في اتجاهات مختلفة، ومن هنا فهي نقطة تقاطع طرق طبيعية. وهكذا صارت مكاناً يلتقي فيه الناطقون بلهجات كثيرة، فتمت تسوية الفوارق بينها. وعلاوة على ذلك، فمنذ وقت كلوفيس (في أواخر القرن الخامس) كان لها على الأغلب بلاط من الفرنجة في مكان ما في داخلها. وقد ازدهرت واضمحلت مدن مختلفة. ولكن عند حلول القرن الثالث عشر كان واضحاً أن مدينة باريس تتمتع بطابع خاص، فقد كتب أحد الشعراء:

اعذرني على لغتي
فهي جلفة، غليظة، متوحشة
لأنني لست من سكان باريس[26].

وكان من المعالم البارزة في تاريخ الفرنسية الأمر البلدي لفيلر كوتيريت الذي طلب بموجبه الملك فرانسوا الأول ـ من بين عدة نصوص أخرى ـ أن يتم إنتاج جميع الوثائق الرسمية، سواء من دوائر البلاط أم من سجلات الأبرشيات، باللغة الفرنسية الأم وليس بغيرها، وليس باللاتينية على وجه التحديد[27]. ولكن برغم كون النص طبيعياً مألوفاً، فإن الملك كان يشير في الحقيقة إلى لغته هو، لغته الأم، وليس إلى لغة رعاياه: وقد ترجم هذا الأمر على أنه يعني استخدام الفرنسية الباريسية، وهكذا فقد أثار شكاوى عجيبة من الجنوب الناطق بلغة بروفانس[28]. ومنذ ذلك الحين صار على المركز السياسي الفرنسي أن يكون واعياً باللغة، وأن يتخذ إجراءات لفرض تجانس وتماسك على المستوى الرسمي، رغم إصرار لغات مختلفة على البقاء محكية في ممتلكاته.



التشكيلات الرومانسية المتنوعة في فرنسا في القرن الثالث عشر

أي نوع من اللغات كانت الفرنسية؟ بالنسبة للأذن، كانت الخاصية الكبرى للفرنسية من بين بنات عمومتها اللغات الرومانسية هي فقدان كل حروف العلة تقريباً في المقاطع الأخيرة. وفيما بعد فقدان أصوات الحروف الصامتة في أواخر الكلمات. (وقد بقي حرف a في آخر الكلمات في العادة، ولكنه صار ينطق بصوت خافت غير متميز على شكل [ə] أو uh). وأدى هذا اللفظ الرخو المخفف إلى بعض التغييرات الكبرى في القواعد النحوية بسبب انهيار النظام اللاتيني من النهايات ذات المعنى في الكلمات (تصاريفها في الإعراب)، على الأقل

بقدر ما كانت تشير إلى وظائف الأسماء في الجمل، وفي الضمائر الشخصية اللاحقة بالأفعال (أنا مقابل أنت مقابل هو/هي/هو أو هي لغير العاقل). وهكذا صار ترتيب الكلمات في اللغة الفرنسية جامداً إلى حد ما، مع سلسلة من الضمائر القصيرة في الأقسام الأمامية من الجمل. وحيث كانت صيغة الجملة اللاتينية 'أنا أخبرك بأن' صارت معادلتها الفرنسية هي 'أنا لك أقول'. كما أن حرف o ـ اللاتيني اللاحق بآخر الفعل ليدل على الفاعل (الذي هو الضمير 'أنا' في هذا المثال) حل محله الضمير المنفصل "أنا" "*je*" باللغة الفرنسية(*). ولكن كانت الفرنسية بطرق أخرى أكثر شبهاً بالبرتغالية، فهي تحول صوت النون (n) والميم (m) في آخر المقاطع إلى غنةٍ أو رنةٍ أنفية، وغيرت صوت الـ y إلى جيم، وأعطت حرف الـ [z] صوت السين عندما يأتي بين حرفي علة. وتبدل حرف L بعد حرف العلة في معظم الحالات إلى الحرف w (كما هو منطوق في لهجة أحياء لندن الفقيرة ولهجة مصب نهر التايمز) وصار يكتب على شكل *u*، كما في *maledictum* أي 'الملعون' التي تلفظ *maudit*، وكلمة *pellem*، أي 'الجلد' التي تلفظ *peau*، وكلمة *collum* أي 'الرقبة' التي تلفظ *cou*.

وقد وقعت الفرنسية أيضاً ضحية عملية خنق شديد لأحرف العلة، وخاصة ما تسمى أحرف العلة الوسطى، الـ e والـ o، إلى درجة أن اللفظ الدقيق قد تغير كثيراً على مر القرون، فأعطى ذلك بالطبع مجالاً كبيراً للعجرفة اللغوية إذا لم تخرج أصوات حروف العلة الطويلة بشكل صحيح على ألسنة الناس. وهذه عمليات أحدثت تخريباً في التهجئة الفرنسية، كما في كلمات هذه العبارة: 'السادة الملكيون المشهورون يجب أن تكون لهم قصور جميلة'، فقد تغيرت طريقة تهجئة كلماتها وطريقة نطقها.

وفي أوائل الألف الميلادي الثاني، بدأت هذه اللغة تنتشر خارج فرنسا. وخاصة في العام 1066 عندما تم زرعها في شمال القنال الإنكليزي على أيدي الغزاة النورمان، الذين لم يكن قد مضى عليهم في نطقها سوى جيلين (انظر

(*) إن كلمة *je* هي بقية مما كان ذات مرة ضميراً لاتينياً للتوكيد: *ego* (فتم اختصاره بوحشية إلى شيء مثل *eieu* . قارنه مع ما يعادله في لغة بروفانس: *eu, ieu*).

الفصل 12: 'اختبار تحمّل: توديع الفرنسية النورمانية'، ص 624). ثم تبين فيما بعد أن تقدم اللغة لم يكن دائماً. فقد ازدهرت لمدة زادت على قرنين كلغة للنخبة في إنكلترا، ولكنها فقدت الصلة مع إيل دي فرانس بالتدريج، كما كتب تشوسر عن رئيسة ديرٍ للراهبات قرب نهاية القرن الرابع عشر:

وكانت تتكلم فرنسية جميلة تماماً وبشغف شديد
على طريقة مدرسة ستراتفورد في باو
لأن الفرنسية الباريسية لم تكن معروفة عندها[29].

ثم جاء الطاعون الذي عرف باسم الموت الأسود، وأعقبه ثورة اجتماعية مكنت الناس العاديين الناطقين بالإنكليزية من الانتقال إلى مواقع أكثر نفوذاً وتأثيراً في المدن الإنكليزية. فتلاشت الفرنسية في إنكلترا[*].

وفي حوالي الوقت نفسه، كانت الحروب الصليبية أيضاً قد نشرت اللغة الفرنسية خارج ترابها الوطني، ولكن في الاتجاه المعاكس. وقد استمدت هذه المغامرات العسكرية الطائشة معظم دعمها من فرنسا، ولم تنجح في إقامة ممتلكات متفرنجة في فلسطين التي صمدت لها طيلة القرن الثاني عشر. ومع ذلك، فإن مجتمعاتها اللغوية لم تبق طويلاً بعد تحرير المسلمين فلسطين في القرن الثالث عشر. فكان من النتائج الطويلة الأمد إيجاد رابطة خاصة من 'الفرنجة' مع فكرة الأوروبي الموجود وحده بشكل منفصل في الشرق، كما نرى في انتشار المصطلح العربي الذي يصف الأوروبي بـ 'الفرنجي'، ومصطلح 'اللغة الفرنجية' الذي لا يزال مفيداً لأنه يعني اللغة المشتركة المستخدمة للاتصال الواسع، وهو مصطلح استعمل لأول مرة في بلاد المشرق[**].

وقد انتشرت الصيغة الباريسية من الفرنسية إلى البلدان المجاورة قبل أن

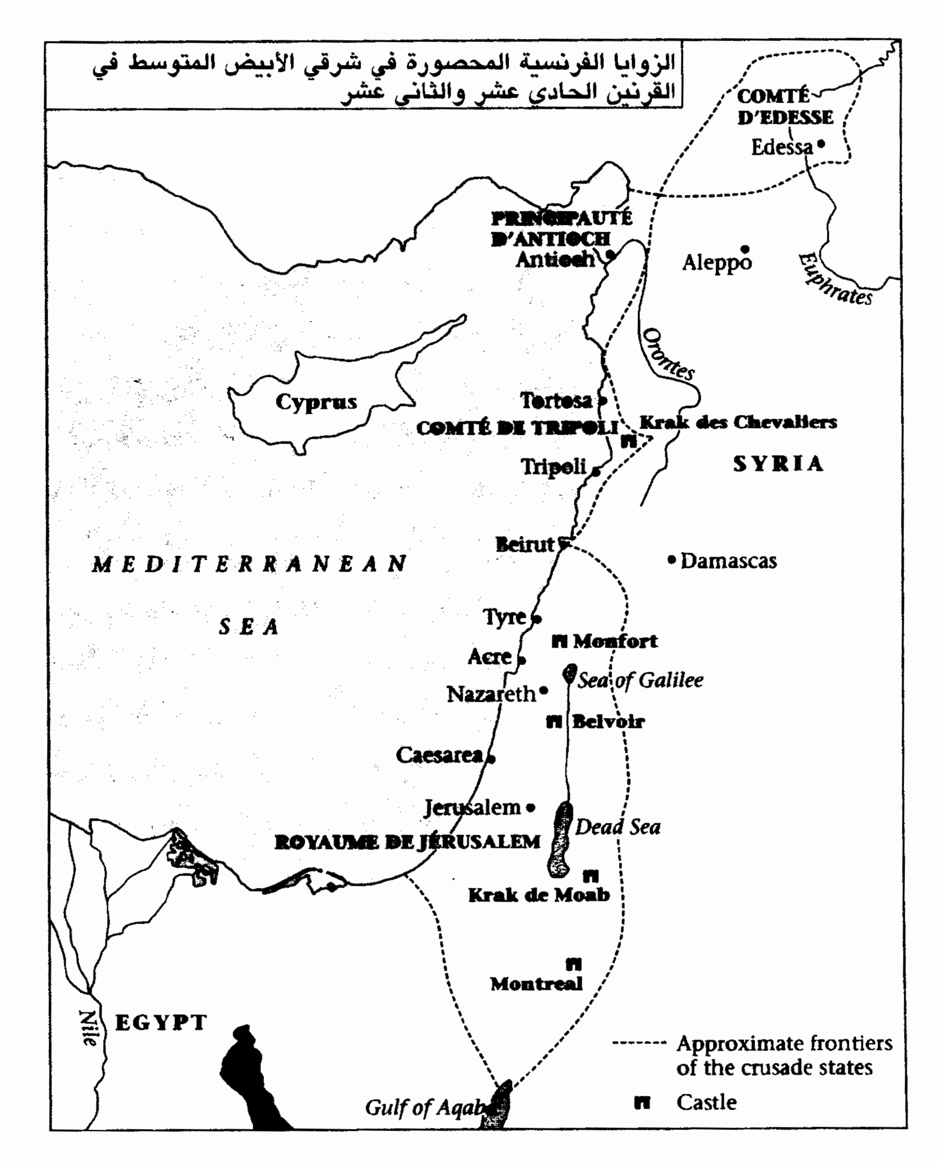
(*) سيكون هناك المزيد مما يقال عن هذا التراجع للفرنسية، من وجهة نظر اللغة التي استفادت منها، في الفصل التالي.

(**) إن المصطلح، والمؤسسة، قد استمرا في منطقة البحر الأبيض المتوسط حتى القرن التاسع عشر، ولكن اللغة الفعلية المستخدمة لم تكن قائمة على أساس الفرنسية، بل الإيطالية، ربما بسبب التأثير المتأخر لتجّار البندقية في وقت لاحق.

تبدأ الدولة الفرنسية محاولاتها الجدية لنشر قوتها ولغتها في الخارج. ولم يتم إنشاء مقياس وطني تنافسي أبداً في بلجيكا ولا في سويسرا اللتين كانت حدودهما تضم دائماً ناطقين باللغات الرومانسية طيلة وجود الحدود واللغة. فمدينة جنيف كانت لها لهجتها الرومانسية المميزة الخاصة بها، وهي لهجة سافوي، ولكنها كانت تستخدم الفرنسية للأعمال التجارية الرسمية منذ القرن الثالث عشر. وكانت هي العاصمة الفعلية للبروتستانت الفرنسيين أثناء حروب الإصلاح الديني. وعلى مبعدة إلى الجنوب هناك سافوي، ونيس، وموناكو، وكلها كانت لها صلات تاريخية عبر الألب، وقد قاومت طويلاً فكرة الانضمام إلى العاصمة الفرنسية العالمية، ولكنها قبلت لغتها إلى حد كبير.

لماذا كسبت الفرنسية مثل هذا الارتباط بالثقافة العالية في أوروبا، وخاصة الانتشار باتجاه الشرق؟ كان السبب الأساسي هو تنامي سكان فرنسا وثروتهم الزراعية. فكان الأغنياء في فرنسا قادرين على الحصول على الأفضل. وكان ذوقهم مؤثراً(*). فكانت فرنسا أكثر البلدان ازدحاماً بالسكان في أوروبا العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث، وهكذا كانت تتجه إلى وضع المعيار القياسي للآخرين. وصارت الفرنسية لغة الأعمال للتجار الأوروبيين. كما أن مبدأ المركزية الجغرافية الذي جعل باريس عقدة ملتقى طرق فرنسا هو نفسه المبدأ الذي جعل فرنسا عقدة ملتقى طرق مسيحية أوروبا الغربية. ففي العام 1164 كتب جون سالزبوري إلى توماس بيكيت: ’عرجت في طريقي على باريس. وعندما رأيت وفرة الأطعمة، وسعادة الناس، والاعتبار المعطى لرجال الدين، وجلالة الكنيسة كلها ومجدها، وأنشطة الفلاسفة المتنوعة، خِلْت نفسي أنظر بإعجاب إلى سلّم يعقوب تصل قمته إلى عنان السماء، والملائكة يمرون عليه صاعدين ونازلين‘[30].

(*) لعبت إليانور (إلينور) أكويتين (1122-1204) دوراً رئيسياً كراعية ثقافية. فقد كانت علاقاتها في المجتمع ممتازة جداً، كانت زوجة لملكين، وامّا لملكين، وحماة لملكين آخرين. ولكنها في منتصف القرن الثاني عشر جعلت بلاطها في بواتييه مركزاً للأشعار الغرامية والقصص التاريخية [تحت التأثير الثقافي الكبير للأندلس وموشحاتها التي تعلم منها شعراء التروبادور الجوّالون - المترجم].



ولم يتغير هذا الوضع حتى القرن التاسع عشر. فقد ظلت فرنسا أغنى بلدان أوروبا وأكثرها ازدحاماً بالسكان. ولم يستطع أحد أن يتحدى مزاياها الجغرافية إلى أن انتشرت قواعد السلطة السياسية الأوروبية خارج نطاق أوروبا الغربية. ومن المؤكد أن السيطرة الثقافية للفرنسية قد اهتزت بنشوء المدن ـ الدول الإيطالية أثناء النهضة في القرن الخامس عشر، وبالإصلاح الديني في القرن السادس عشر، ما دام الملك الفرنسي قد اختار أن يربط فرنسا بشكل

حاسم مع الكنيسة الكاثوليكية. وقد توقفت فرنسا عن كونها مركز العمل فترة من الوقت، ومع ذلك فإن الإصلاح الديني قد دفع كثيراً من ذوي النفوذ والتأثير الناطقين بالفرنسية إلى الهرب نحو الشرق. فاستقر البروتستانت الفرنسيون المعروفون باسم الهوغونوت في الأراضي الناطقة بالهولندية - والألمانية، وحدث انفجار في النشر والطبع باللغة الفرنسية، وخاصة عبر الحدود مع الأراضي المنخفضة بالضبط. وهكذا أضاف الإصلاح الديني زخماً إلى قوة اللغة الفرنسية المندفعة شرقاً كلغة للثقافة.

وفي القرن السابع عشر، وصلت قوة فرنسا وتأثيرها في أوروبا إلى ذروتهما أثناء العهدين الطويلين للملكين لويس الثالث عشر (1610 - 1643)، ولويس الرابع عشر المشهور بلقب 'الملك الشمس' (1643 - 1715). وتزايد رضا فرنسا عن نفسها، فبدأت تتأمل في خصائصها الثقافية. وكما تفعل كل الأمم عندما تتمتع بتفوّق بارز، بدأ الفرنسيون يبحثون عن فضائل خاصة يمكنها أن تفسر نجاحهم. فرأوا بشكل متزايد دليلاً على ذلك في امتياز لغتهم نفسها. فقام الكردينال ريشيليو، رئيس وزراء لويس الثالث عشر، بتأسيس الأكاديمية الفرنسية في العام 1635، مع اهتمام تجاوز ما هو عملي: كانت مهمتها الرئيسية بموجب نظامها الأساسي هي 'إعطاء قواعد معينة للغتنا لجعلها نقية، وبليغة، وقادرة على البحث في الفنون والعلوم'.

فكانت هذه خطوة جديدة في الوعي اللغوي، وأول أكاديمية في العالم مكرسة لرعاية اللغة(*). وفي ذلك الوقت تبلور اهتمام الفرنسية بالدقة والاختصار. والواقع أن المادة التي حثت على استخدام الفرنسية في مراسيم فيلر - كوتيريت في العام 1539 قد سبقتها مباشرة مادة طالبت بوضوح التعبير في أحكام المحاكم: فيجب 'إصدارها وكتابتها بوضوح يمنع أي غموض أو عدم

(*) ظلت الأكاديمية تتمتع بأعلى مستوى من رعاية الحكومة الفرنسية منذ ذلك الحين، فلم تنقطع تلك الرعاية إلا أثناء الثورة الفرنسية، من العام 1793 إلى العام 1803. وكانت مهمتها الأولى هي تجميع معجم. فاستغرقت نسخته الأولى في التجميع ما يقرب من ستين عاماً وظهرت في العام 1694، وظلت تحدّث بشكل دوري منتظم منذ ذلك الحين. وقد ظهرت آخر طبعة لهذا المعجم في العام 1992، وكانت هي الطبعة الثامنة.

تأكد، ولا يترك أي مجال لطلب التفسير'. وفي العام 1637، نشر الفيلسوف رينيه ديكارت، الذي كان مشهوراً آنذاك، كتابه المعنون: "مقالة عن الطريقة". فكان من الملامح اللافتة للنظر في هذا الكتاب أنه كتب بالفرنسية، وليس باللاتينية، وربما كان ذلك عملاً بالروح الجذرية الأساسية لنظام الأكاديمية. ولم يكن ديكارت ثورياً من تلقاء نفسه بل إن أحد مبادئه الأساسية في كتابه المذكور كان 'اتباع أكثر الآراء اعتدالاً وبعداً عن التطرف وكما يفعل أعقل الناس الذين يعيش معهم في المجال العملي العام'، وكذلك 'تغيير رغباته بدلاً من تغيير نظام العالم'[31]. ولكنه هنا في قلب المناقشة الفكرية الأوروبية، اقترح وجوب قيام المعرفة على أفكار واضحة ومتميزة حصراً[32]. وقد ألغى هذا النهج الحاجة إلى الوحي الإلهي، فكان نهجاً جديداً وجذرياً وصار يعتبر نهجاً فرنسياً بصورة جوهرية(*). وهو كثيراً ما يعتبر بداية الفلسفة الحديثة والعلم الحديث، رغم أن ديكارت كان يفضل السلامة دائماً، وهكذا فإن نهجه هذا قد ترك جميع القضايا العملية للإيمان والأخلاق دون أي تغيير.

أما إيمان الفرنسيين بمزايا لغتهم فسرعان ما شاركهم فيه آخرون لم يكن لهم مثل حظ الفرنسيين. فخليفة ديكارت العظيم، ليبنيز (1646 ـ 1716)، رغم أنه ألماني من لايبزيغ، كتب مؤلفاته الكبرى كلها بالفرنسية. وأصبح التفوق العقلي للثقافة الفرنسية نبوءة حققت نفسها. فلكي يضمن المرء أن يقرأ منتسبو النخبة كتبه على نطاق واسع في هذه الأيام، فإن عليه ببساطة: أن يكتب بالفرنسة.

وفي أواخر القرن السابع عشر تمتعت الثقافة الفرنسية، ممثلة على الخصوص بكتّابها المسرحيين كورنيه وراسين وموليير، بشعبية رائجة في جميع أنحاء أوروبا. وصارت فرساي هي التي تضع المعيار القياسي في كل مكان لأسلوب البلاط، والسلوك الاجتماعي. وصارت القصص الفرنسية في كل مكان هي التسلية المفضلة للسيدات الشابات الثريات. وقد أعطى رجال النخبة قيمة عالية لمعرفة الفرنسية بطلاقة على وجه الخصوص في المناطق الأوروبية الأقل

(*) ومن هنا جاءت الكلمة الطيبة لأنطوان دي ريفارول في كتابه المعنون: مقالة عن عالمية اللغة الفرنسية، في العام 1784: "إن ما ليس واضحاً ليس فرنسياً!".

ثقة بالنفس في المجال الثقافي: مثل السويد، وبولندا، وقبل كل شيء روسيا حيث صارت الفرنسية، بدءاً من عهد كاترين الكبرى (1762 ـ 1796)، راسخة باعتبارها لغة المجتمع المهذّب. وقد اشتهر عن فولتير مفكر عصره الموهوب أنه قد فرح لوجود ناطقين بالفرنسية في أستراخان، ومدرسين للغة الفرنسية في موسكو[33]. وفي قصة تولستوي "الحرب والسلام"، التي تدور أحداثها في الجيل التالي، هناك أجزاء هامة من الحوار، بما فيها السطور الافتتاحية[*]، كتبت بالفرنسية وليس بالروسية؛ والمفروض أن ذلك كان تمشياً مع الواقعية.

وفي هذه الفترة حلت الفرنسية محل اللاتينية كلغة للدبلوماسية، مما أعطاها اتصالاً آخر مع الأناقة والنفوذ المؤثر. فعند حلول العام 1642، كانت حكومة ريشيليو تتراسل بالفرنسية مع معظم جيرانها الشماليين: ولكن إسبانيا وإيطاليا وسويسرا حافظت على مقاومتها للفرنسية، مفضلة عليها لغاتها. وفي النصف الثاني من ذلك القرن، في المفاوضات مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة (التي كانت لغتها المحلية هي الألمانية)، أقنعها الفرنسيون تدريجياً بتحويل لغة الاتصال من اللاتينية إلى الفرنسية. وفي القرن التالي اعتباراً من معاهدة راستات في العام 1712، تحول الجانبان إلى استخدام الفرنسية حصراً. فصارت المعاهدات تكتب بالفرنسية، حتى من قبل قوىً ليست لها علاقات مباشرة بالفرنسية. فقد استخدمها الدانمركيون لمعاهدتهم التجارية في كوبنهاغن في العام 1619، والروس والأتراك العثمانيون في معاهدة السلام التي أبرمت بينهم في العام 1774 في كوتشوك كينارتشي (التي هي الآن كينارجا في بلغاريا)[34]. ولقد كان واضحاً أن الشعبية العامة لفرنسا نفسها قد هبطت بعد محاولات نابليون غزو القارة الأوروبية كلها في أوائل القرن التاسع عشر. ولكن اللغة الفرنسية لم تتوقف عن أداء دورها التوسطي العام إلا في القرن العشرين، وكان

(*) "حسناً، يا أميري، إذن فإن جنوى ولوقا الآن ليستا أكثر من ممتلكات عقارية لأسرة بونابرت. كلا، إنني أحذرك. إذا لم تقل لي أن ذلك معناه الحرب، وإذا سمحت لنفسك مرة أخرى أن تصفح عن جميع أعمال العار الشائنة والفظائع المخزية التي ارتكبها عدو المسيح ذاك (ولعمري إنني لاعتقد أنه عدو المسيح)، فإنني لن أتعرف عليك في المستقبل، ولن تعود صديقاً لي، أو 'عبدي المخلص'، كما تقول!".

ذلك في فرساي نفسها، ومن خلال مفارقة أثناء مؤتمر السلام الذي انعقد فيها في العام 1919 بعد الحرب العالمية الأولى، عندما أصر الأمريكيون والبريطانيون على العمل بلغتهم الخاصة، وبذلك ضمنوا صياغة المعاهدة وطبعها ونشرها بالفرنسية والإنكليزية معاً.

الإمبراطورية الأولى

وماذا عن الفرنسية فيما وراء البحار؟ لقد كانت التطورات هنا مختلفة جداً عن الانتشار الثابت القوي للفرنسية في أنحاء أوروبا الذي جعلها عن طريق الترحيب العفوي تقريباً لغة النفوذ المتميز للنخبة. إن عرض الفرنسية فيما وراء البحار كان إلى حد كبير نتيجة سياسة ملكية. وجاءت تلك السياسة في نوبتين من التوسع الاستعماري بإدارة الملك الفرنسي، وبينهما اندحار وانكماش شاملان في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وكانت نوبتا التوسّع كلتاهما طموحتين للغاية - ففي العام 1714 ومرة أخرى في العام 1914، كانت فرنسا تسيطر على ثاني أوسع إمبراطورية استعمارية في العالم من حيث المساحة البرية(*)، ولكن بالإضافة إلى ممتلكات أقطاب السكر في حوض الكاريبي، فإن كل واحدة من هاتين النوبتين نتج عنها إقليم واحد فقط قدّر له أن يجتذب هجرة فرنسية كبيرة: أي كندا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، والجزائر في القرن التاسع عشر. وفي الحالتين لم تستطع فرنسا ولا مستوطنوها أن يحافظوا على السيطرة السياسية لفترة طويلة. وهكذا فإن الاستعمار الفرنسي كان أشبه بالهولندي أكثر من أي استعمار أوروبي آخر من منافسيه، من حيث نتائجه اللغوية. ومعنى ذلك أن اللغة الفرنسية لم تصمد إلا حيث حافظ مستوطنوها على هوية صلبة، وعدد كبير من السكان، حتى تحت سيطرة أجنبية (بريطانية على وجه التحديد): فبقيت الفرنسية ونمت في كندا، تماماً كما بقيت الهولندية (من نوعٍ ما) قوية في جنوب إفريقيا. أما الوضع في الجزائر فقد خيمت عليه

(*) في القرن الثامن عشر لم تكن تتفوق عليها في المساحة سوى إسبانيا، وفي القرن العشرين، لم تكن تتفوق عليها في المساحة سوى بريطانيا.

غيوم السياسة(*). ولكن اللغة الفرنسية بقيت في المستعمرات الأخرى ـ إن كانت صمدت على الإطلاق ـ كلغة مشتركة للنخبويين فقط.

ورغم أن فرنسا كانت قوة كبرى في القرن الخامس عشر، فإنها لم تكن فاعلة في أول رحلات الاستكشاف. ومع ذلك فقد كان هناك جزء كبير باق من أمريكا الشمالية لوضع اليد عليه وادعاء الحق فيه في الأجيال القليلة التالية. ذلك أن جاك كارتييه، الذي أرسله ملك فرنسا لاستكشاف الممر الشمالي الغربي إلى الشرق، اكتشف بدلاً من ذلك نهر الهدسون، واستطلع الأراضي حتى كويبك ومونتريال (وكان اسماهما في ذلك الحين ستاداكونا وهوتشيلاغا) فيما بين العامين 1534 و1536(**) وفيما بعد، قام تجار الفرو والمبشرون بتوسيع ذلك الجزء من القارة الذي يمكن أن تدعيه فرنسا لنفسها: ففي 1603 ـ 1615 دخل صاموئيل دي تشامبلين البحيرات العظمى، وفي العام 1673 وجد بيير ماركيت ولويس جولييت طريقهما نحو الجنوب إلى المسيسيبي؛ وفي 1678 ـ 1682 قام روبرت كافلييه دي لاسال بتخطيط مسار ذلك النهر كله نزولاً إلى خليج المكسيك. وبذلك طوقت فرنسا المستعمرات الإنكليزية المرصوفة على طول ساحل المحيط الأطلسي من جانبيها في الشمال والجنوب.

غير أن ذلك الوضع لم يكن مستقراً لأن عدد المستعمرين الإنكليز كان يفوق الفرنسيين بشكل كثيف، ربما أربعين إلى واحد في منتصف القرن السابع عشر. وبعد ذلك بقرن كانوا ما يزالون يفوقونهم بعشرين ضعفاً، رغم أن عدد

(*) تختلف تقديرات عدد السكان الناطقين بالفرنسية في الجزائر، من 110,000 وهو العدد المنخفض إلى حد غير معقول أورده كتاب "علم الأعراق البشرية" (من بين سكان مجموعهم ثلاثون مليوناً)، إلى 25 بالمئة من هؤلاء السكان (أي 7.5 ملايين). ويعتقد كثيرون أن هذا العدد يمثل أكثر الناطقين بالفرانكفونية في العالم، فهم أكثر من سكان كيبك البالغ عددهم 6.7 ملايين وبلجيكا البالغ عددهم 4 ملايين. (وهذان الرقمان الأخيران أيضاً مأخوذان من الكتاب المذكور أعلاه من تأليف غرايمز، عام 2000). ومن المعتقد على نطاق واسع أن محاولة الحكومة الجزائرية للتعريب منذ العام 1962 قد أدت بالعكس إلى زيادة استخدام اللغات الأخرى، وخاصة البربرية والفرنسية. ولكن لا تتوفر بيانات لمسح استطلاعي.

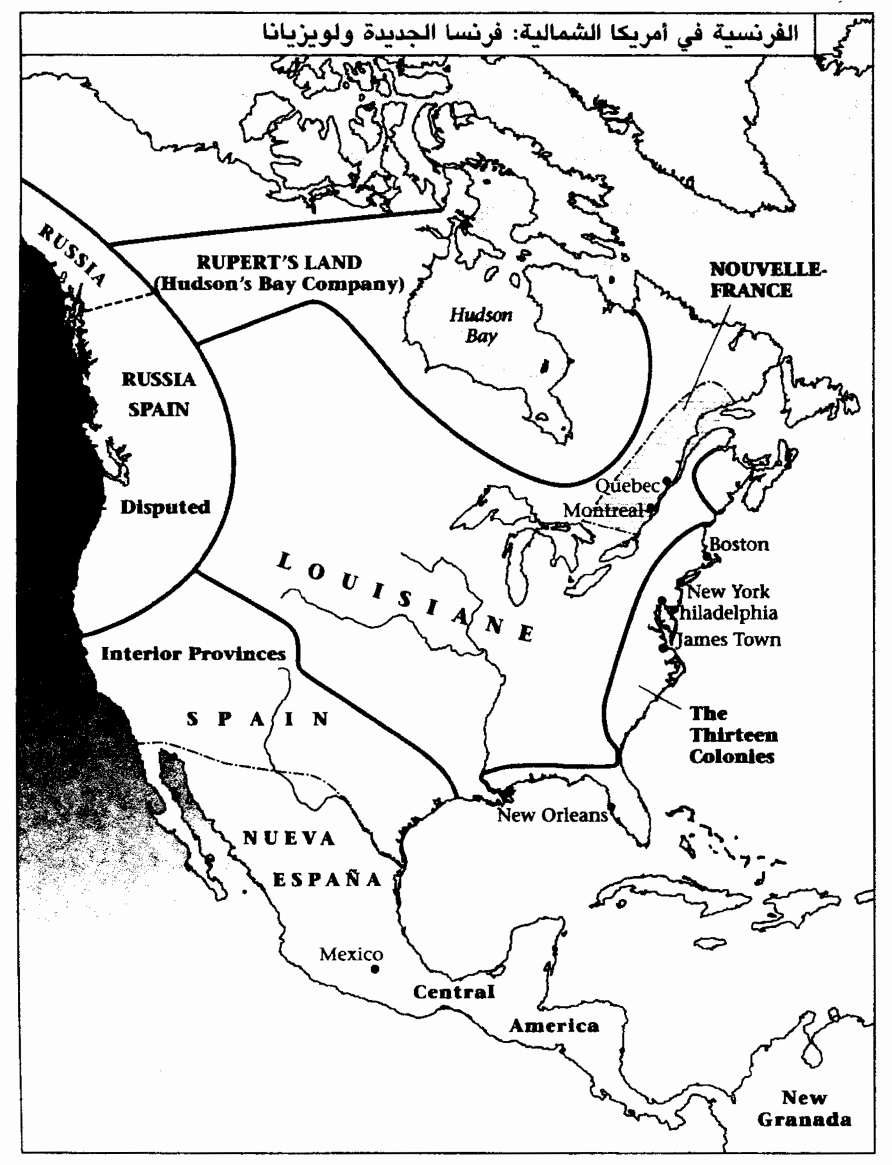
(**) كانت إحدى القرى التي زارها كارتييه قرب مدينة كيبك تعرف باسم غانادا، أي 'المستوطنة' بلغة هورون، التي كانت مستخدمة كلغة مشتركة على طول مجرى النهر. وهذه القرية هي أصل اسم البلد "كندا".

المستوطنين الفرنسيين صار عشرة أضعاف ما كان عليه[35]. ويمكن أن يجادل المرء بان طرد البروتستانت الفرنسيين أثناء الإصلاح الديني وفيما بعده كان السبب الجذري لعدم التوازن بين القوتين. وكما رأينا فإن مغادرتهم كانت بذرة انتشار الفرنسية باعتبارها لغة الثقافة والتفكير العالي في أوروبا الوسطى والشرقية. ولكن فرنسا في الوقت نفسه خسرت كتلة سكانها من المهاجرين الطوعيين، من نوعية المتطهرين المتشددين والمغامرين والمثاليين [الطوباويين] الذين شكلوا العمود الفقري لمستعمرات بريطانيا الثلاث عشرة. وكانت فرنسا الجديدة تفخر بالارتفاع الكبير لمعدل الولادات بين أولئك الذين جاؤوا ليبقوا، ولكنها لم تصبح أبداً مغناطيساً جذاباً للمهاجرين بما يعادل نيو إنغلاند (إنكلترا الجديدة).

وفي الفترة نفسها، وأثناء حكم ريشيليو في الوطن إلى حدٍ كبير، كانت المستوطنات تزرع أيضاً على جزر الكاريبي، في مارتينيك (1625) وغوادالوب (1635)، وعند كايين على البر الرئيسي في غويانا (1637)؛ وعلى الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، استولى الفرنسيون على السنغال، على ساحل إفريقيا الغربي (1639)، وعلى مدغشقر شرقي إفريقيا (1643). وأبعد من الجميع استطاع مبشّر يسوعي فرنسي، هو ألكساندر دي رودس أن يصل في العام 1624 إلى جنوب شرقي الهند الصينية، التي كانت تعرف آنذاك باسم كوشان الصينية[*].

غير أن الأجزاء الوحيدة من هذه الأقاليم الواسعة التي وضعت فرنسا يدها عليها والتي تلقت استيطاناً هاماً على أيدي مستعمرين ناطقين بالفرنسية كانت هي منطقة نهر سانت لورانس فقط، وقد عرفت باسم "فرنسا الجديدة"،

(*) ازدهرت هذه البعثة التبشيرية، رغم أنها لم تؤد إلى أي استيطان فرنسي في ذلك الحين، والواقع أن دي رودس كان الفرنسي الوحيد في فريق من اليسوعيين مؤلف من ستة أوروبيين وياباني واحد. غير أن الحاجة إلى حماية البعثات قد استغلت فيما بعد كذريعة لغزو فرنسي كثيف للهند الصينية جاء في العام 1859. ودي رودس نفسه شخصية هامة لأنه الرجل الذي استنبط حروف اللغة المعروفة باسم "كوك- نغو " (أي اللغة الوطنية) باستخدام الحروف والنبرات الرومانية. وقد صممها لمساعدة المبشرين الأجانب على تعلم اللغة الفيتنامية. ولكن تم الأخذ بها في القرن التاسع عشر، حتى من قبل الوطنيين الأصليين، كمفتاح لتعليم الناس القراءة والكتابة بصورة جماعية كبيرة، وهي الآن مستخدمة بشكل عام شامل في فيتنام.



ونوفاسكوشيا، التي كانت تعرف آنذاك باسم "الأكادي" L'Acadie (وأصلها "لاكادي" *La Cadie*، مشتق من اسم هندي)(*). وكانت السياسة الفرنسية

(*) لقد قدر للاكاديين الفقراء المساكين أن يقعوا ضحية سياسة القوى الكبرى، فقد تمت المتاجرة بأراضيهم مع إنكلترا بموجب معاهدة أوترخت في العام 1713 في مقابل امتيازات وتنازلات تجارية في الهند. وفي آخر الأمر تمت بعثرتهم على طول الساحل، وخاصة في ولاية مين وعلى مصبات نهر

الأصلية هنا هي الأمل بأن 'أبناءنا سيتزوجون بناتكم، ونصبح شعباً واحداً'. ولسوء الحظ، فإن ذلك لم يحدث بطريقة تناسب الفرنسيين، لأن الذكور الواصلين منهم كانوا يميلون منذ وقت مبكر للاستيطان إلى أن يصبحوا من الأهالي الأصليين وأن يربّوا أطفالهم على لغات أمهاتهم "الوحشية". وفي العام 1666، بعد ثلاثة أجيال من الحضور الاستعماري الفرنسي، تذمر جين - باتيست كولبرت، وزير لويس الرابع عشر، من أن الفرنسيين الراغبين بالمتاجرة - بالفراء في غالب الأحيان - "لا يزالون" يضطرون إلى التواصل بلغة الأهالي الأصليين[36].

وكان جزء من حل هذه المشكلة هو إرسال فتيات فرنسيات جيدات التربية كي يتزوجن المستوطنين ويؤسسن معهم بيوتاً ناطقة بالفرنسية. وكان من بينهم «بنات الملك» المشهورات، ومعظمهن يتيمات من أسر برجوازية كانت الخزينة تتحمل تكاليف سفرهن وإعالتهن، بل ومهورهن في بعض الحالات. وقد تم إرسال تسعمئة منهن فيما بين العامين 1665 و1673، من أجل زيادة عدد السكان (الذين كان تعدادهم 3215 بموجب إحصائية في العام 1665)، ولتحسين تناسب الجنسين (ذكرين مقابل كل أنثى). ورغم أن جين تالون، المشرف على المستعمرة، قد أخبر كولبرت بأنه كان يفضل فتيات ريفيات مستعدات للعمل كالرجال، بدلاً من هؤلاء السيدات الشابات الرقيقات، إلا أنه يبدو أنهن كن استثماراً جيداً. وقد وصل عدد سكان فرنسا الجديدة إلى عشرين ألفاً في العام 1713، وإلى خمسة وخمسين ألفاً في العام 1755. ووصل معدل الخصوبة الإنجابية إلى مستوى ضخم هو 7.8 أطفال لكل امرأة. ورغم أن 40 بالمئة من المهاجرين فقط كانوا يتكلمون "فرنسية جيدة"، فقد كانت النسبة بين النساء أكثر من النصف. ويبدو أن تنوّع لهجات أسر المهاجرين قد تمت تسويته وتوحيده في القرن السابع عشر لصالح الفرنسية القياسية الفصحى التي يتعلمها الأطفال في أحضان أمهاتهم. وفي العام 1698 أبدى القائد العام للأسطول ملاحظة: 'إن الناس هنا يتكلمون بشكل جيد تماماً وبدون أي لكنة رديئة. ورغم

المسيسيبي (حيث صاروا يعرفون باسم 'كاجون')، وبعضهم في جزر الأنتيل، وأعيد كثير منهم إلى المقاطعات البحرية. وأينما ذهبوا كانت تتبع مجتمعات ناطقة بالفرنسية، لفترة من الوقت على الأقل.

أن هناك خليطاً من جميع مقاطعات فرنسا تقريباً، فإنه لا يمكن تمييز أي واحدة من لهجاتهم في المقاطعات الكندية'[37].

وإن الماركيز مونتكالم، القائد الفرنسي الذي خسر مدينة كيبك للبريطانيين في العام 1759، كان قد اعترف في السابق بأن 'الفلاحين الكنديين يتكلمون الفرنسية بصورة جيدة جداً'[38].

وكانت معاهدة باريس في العام 1763 تعني نهاية إمبراطورية فرنسا في أمريكا الشمالية. فقد خضعت فرنسا الأمريكية للأعداد الساحقة في المستعمرات البريطانية، رغم أن "رصاصة الرحمة" قد جاءتها من سيطرة الأسطول البريطاني في المحيط الأطلسي[*]. غير أن الانحدار الفرنسي لم يضع حداً نهائياً للتكلم بالفرنسية في الشمال الشرقي. ورغم أن كندا سرعان ما أصبحت مقصداً لأعداد كبيرة من الرعايا الناطقين بالإنكليزية الذين جاؤوا من المستعمرات الثلاث عشرة، الراغبين في عدم العيش في الولايات المتحدة الأمريكية بعد استقلالها[**]، فقد كان الفرنسيون لا يزالون متفوقين عددياً بنسبة تقرب من سبعة أضعاف في مناطق الاستيطان في إقليم لا يزال عدد سكانه الأوروبيين قليلاً. ففي العام 1791 كان عدد الفرانكوفونيين في كندا يقدر بمئة وأربعين ألفاً، وعدد الأنغلوفونيين يقدر بعشرين ألفاً فقط[***]. ومنذ ذلك الحين أقام الفرنسيون دفاعاً مهيباً عن وجود مجتمعهم، متمركزاً حول الكنيسة الكاثوليكية، والقانون المدني الفرنسي، واستمرار استعمالهم للغتهم.

غير أن أعداداً متزايدة راحت تنضم إليهم من المهاجرين الناطقين

(*) لا يمكن أن يكون هذا سبباً أساسياً، لأن القوة البحرية الفرنسية تمكنت، بعد ذلك بعقدين من الزمن، من حرمان البريطانيين بشكل حاسم من الوصول إلى أمريكا عندما كانوا يحاولون الاحتفاظ بمستعمراتهم نفسها [أثناء الثورة الأمريكية التي ساعدها الفرنسيون].

(**) كان الفرنسيون راضين بتقديم فرساي كمكان للمؤتمر الذي جرد بريطانيا من مستعمراتها الأمريكية، بعد عشرين عاماً فقط من مؤتمر باريس، عندما سلبهم الإنكليز فرنسا الجديدة.

(***) هذه الأرقام مستمدة من مصدر فرنسي هو ليكليرك، 2001 على العنوان <HISTfrQCs2Britannique.htm>. وهناك تباين مذهل في بعض الأرقام الإنكليزية: فمثلاً يقول ماكي (1998) إن مئة ألف من رعاياهم قد انضموا إلى سكان موجودين، منهم خمسة وستون ألف فرنسي وتسعة آلاف إنكليزي.

بالإنكليزية أو الآخذين بها. ومن المؤكد أنه عند منتصف القرن التالي، عندما كان عدد السكان الأوروبيين يبلغ مليوناً ونصف المليون، لم يعد الناطقون بالفرنسية هم الأغلبية. ولم تكن تحركات السكان قد وصلت إلى ذروتها بعد. فقد سمح بدخول 2.3 مليون نسمة آخرين بين العامين 1821 و1910[39]. وفي العام 1998 وصل عدد سكان البلد إلى 30.5 مليوناً، منهم 6.7 ملايين، أي 22 بالمئة، يتكلمون الفرنسية كلغة أصلية في مقابل 60 بالمئة تربوا على تكلم الإنكليزية.

ورغم هذه النهاية المخيبة للآمال، فإن كندا هي قصة النجاح الرئيسية للغة الفرنسية كما هي مزروعة فيما وراء البحار. ولكن من المؤكد أنها لم تكن القصة الوحيدة. فقد قامت فرنسا بعمل كبير في تجارة السكّر. وطوال القرن السابع عشر كانت أكثر المستعمرات الفرانكوفونية سكاناً هي في الحقيقة جزر الأنتيل الفرنسية: غوادالوب ومارتينيك: فبحلول العام 1700 كانت موطناً لخمسة وعشرين ألف فرنسي، وسبعين ألفاً من العبيد السود[40]. ولا يزال أحفادهم هناك، بعدد سكان يزيد على مليون، وكلهم يتكلمون الفرنسية، أو الفرنسية المهجنة. وقد أصبحت جزيرة هاييتي فرنسية أيضاً في العام 1697 من خلال عمل القراصنة، واغتنت من العمل نفسه، رغم أن فترة المالكين الفرنسيين انتهت بشكل عنيف بثورة العبيد في العام 1804. وهناك أيضاً لا تزال الفرنسية والفرنسية المهجنة محكيتين حتى يومنا هذا من قبل حوالي 7.5 ملايين. أما مستعمرات التاج الفرنسي الأخرى فكانت إما مواقع تجارية في مناطق مأهولة بازدحام سكاني شديد (تشاندرناغور، ويانام، وبونديتشري، وكاريكال، وماهي، على سواحل الهند)، أو محطات على الطرق البحرية إلى الهند (السنغال، وجزر ريونيون، وموريشيوس، و(لفترة قصيرة) مدغشقر)، أو بقايا غزوات واسعة النطاق لم تنجح أبداً (غويانا الفرنسية)(*). ولم تجتذب أي واحدة منها أبداً

(*) تأسست كايين في العام 1643، وكانت بوجود سكر الكاريبي الوفير جزءاً من خطط كولبرت للاستعمار المنهجي المنظم، واستخدمت زمناً قصيراً بعد الثورة الفرنسية كمنفىً للسجناء السياسيين (1794-1805). ولم تستعد عافيتها الاقتصادية من إلغاء فرنسا للرق في العام 1848، وكانت شهرتها منذ ذلك الحين تعود بشكل رئيسي إلى معسكر الاعتقال فيها، والمسمى جزيرة الشيطان، الذي بقي شغالاً من 1852 إلى 1946.

استيطاناً كبيراً من أوروبا، رغم أن كل واحدة منها ظلت تستضيف مجتمعات فرانكفونية صغيرة حتى يومنا هذا، وخاصة 40,000 لا يزالون في بونديتشري، و160,500 من القادرين على التكلم بالفرنسية في ريونيون، وسط نصف مليون (90 بالمئة منهم من سكان الجزيرة) يتكلمون لغة فرنسية مهجنة[41].

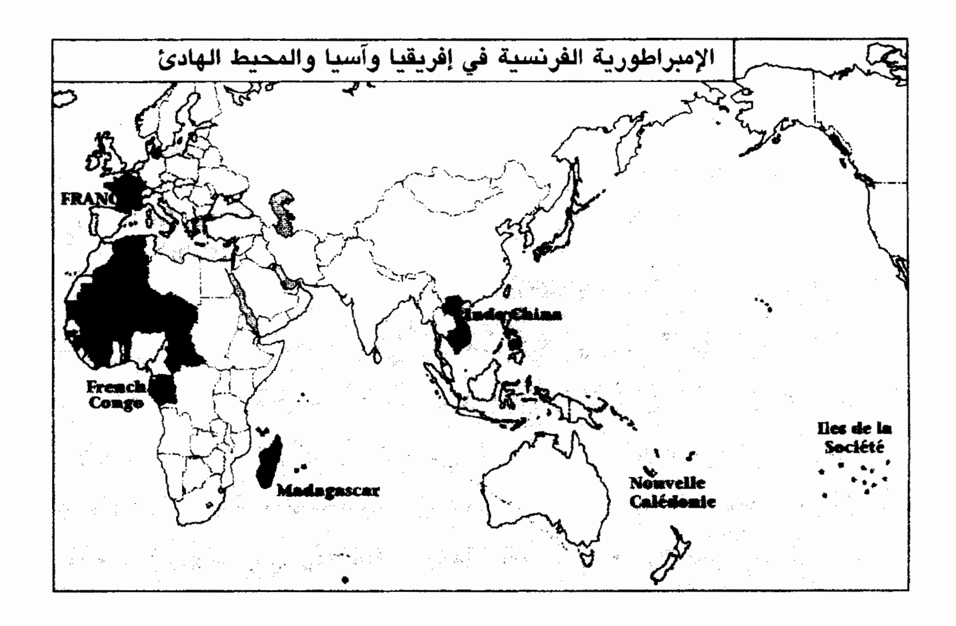
وقد جلبت الثورة الفرنسية مرحلة جديدة من الحروب الاستعمارية، ولكنها - باستثناء غزوة نابليون لمصر، التي كانت خيالية إلى حد ما في العام 1798 ـ 1799 - خيضت ضمن قارة أوروبا، وكانت نتيجتها كلها لا شيء على الإطلاق في أقل من جيل واحد. ومن المفارقات أن أسباب شهرة فرنسا العظيمة في أوائل العصر الحديث، وهي الثورة وعهد نابليون، لم يكن لها أي إسهام يذكر في نشر اللغة الفرنسية، برغم إرسال جنود ناطقين بالفرنسية إلى جميع أنحاء أوروبا.

ولكن، مع إعادة الملكية في العام 1815، دخلت فرنسا في نوبة جديدة من الاستعمار فيما وراء البحار[*].

الإمبراطورية الثانية

كانت دوافع الفرنسيين مختلطة. وفي إحدى الحالات الهامة، تصرفت فرنسا مثل روما القديمة عندما قامت في العام 1830 بمحاولة لتخليص البحر الأبيض المتوسط من القراصنة فانتهى بها الأمر إلى غزو كامل واسع النطاق للجزائر، وفصلها عن مقاطعات الإمبراطورية العثمانية. وعلى غرار النموذج الروماني، فقد تبع هذا الغزو تدفق للمستوطنين بأعداد كبيرة: فكان هناك مئة وعشرة آلاف منهم في العام 1847، وارتفع عددهم إلى أقل من مليون بقليل في القرن التالي[42]. ولكن هذه كانت حالة استثنائية، ولو أنها كانت تلوح كأكبر شيء في تصورات الفرنسيين عن إمبراطوريتهم الجديدة. وفي حالات كثيرة أخرى كان العمل الفرنسي تقوده الرحمة التبشيرية أو الحماس التبشيري، كما في حالة المحميات المدعاة ملكيتها في المحيط الهندي (جزر كومورو [القمر]، 1840) وفي

(*) وبصدفة سعيدة، أثناء عهد نابليون الثالث (1852-1870) الذي يعرف باسم الإمبراطورية الثانية.



المحيط الهادئ (في جزر المجتمع، 1843، وتاهيتي، 1846، وكاليدونيا الجديدة، 1853). ويبدو أن دوافع مماثلة، على مستوى ما، قد أدت إلى توسيع السيطرة الفرنسية من قاعدتها القديمة في السنغال في السنوات الخمسين التي تلت العام 1817، وتدريب مشاة من الأهالي الأصليين، وقساوسة، ثم اتخاذ إجراءات ضد الملاريا، وبناء مدارس وطرق. وكان اضطهاد البعثات المسيحية هو الذي أعطى فرنسا ذريعة لتبرير غزوها لكوشان الصينية في العام 1859: وبحلول العام 1887 كان "اتحاد الهند الصينية" الفرنسي يسيطر على جميع ما يسمى الآن فيتنام، وكمبوديا، ولاوس.

ولكن هذه المكتسبات الاستعمارية جاءت في وقت كان فيه الأوروبيون قد بدؤوا يعجبون كثيراً بتفوقهم التقني على الشعوب في أي مكان من العالم. ومرة أخرى بدأت فرنسا تبحث عن تفسيرات لنجاحها: وبصورة نموذجية، صارت تعتبر نفسها قوة قادرة على إيجاد فرق في العالم بتوجيهه نحو الأفضل، فلا تكتفي بنشر المسيحية الكاثوليكية، واحترام القانون، بل تنشر أيضاً الماسونية وسياسة صناعية سانت سيمونية، وباختصار: "الحضارة الفرنسية". وكان من السهل جمع ذلك مع طموح للبقاء بصحة جيدة أثناء عمل الخير. وهكذا لم يكن

هناك شعور بأية تحفظات تذكر عندما انضمت فرنسا وبلجيكا إلى "المسيرة الاستعمارية" التي عرفتها بريطانيا باسم 'الاندفاع نحو إفريقيا'.

كان الفرنسيون والبريطانيون هم الرابحين الكبار في حجم الأراضي التي حصلوا عليها. فقد نمت الإمبراطوريتان بشكل كثيف وكبير في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. فتوسع الفرنسيون من ممتلكاتهم الموجودة في الجزائر والسنغال، ولكنهم أقاموا أيضاً رؤوس جسور في ساحل العاج (1842) والغابون (1843). فأولاً، من العام 1876 إلى العام 1885، تم نحت إفريقيا الاستوائية الفرنسية من شاطئ الغابون، فشملت ما سيصبح الغابون، والكونغو، وجمهورية إفريقيا الوسطى، وتشاد، ثم من العام 1883 إلى العام 1894 تم الاستيلاء على إفريقيا الغربية الفرنسية من الغرب والجنوب الغربي فشكلت السنغال الحديثة، وموريتانيا، ومالي، وغينيا، وساحل العاج، وبوركينا فاصو، والنيجر، وبنين.

ولم يكن الفرنسيون هم الفرانكوفونيين الوحيدين في السباق، ففي العام 1877 ـ 1879 قام ملك بلجيكا ليوبولد باعتماد المستكشف البريطاني السير هنري ستانلي كوكيل شخصي له، ثم ادعى بوقاحة ملكية المنطقة المعروفة الآن باسم الكونغو، وهو ادعاء قبلته القوى الأوروبية الأخرى في العام 1885. ثم في العام 1886 تبعه الفرنسيون فأطاحوا بملكة مدغشقر، وبرروا فعلتهم هذه بإلغاء الرق فوراً في مملكتها القديمة. وفوق ذلك كله ادعت فرنسا أن الدول المجاورة للجزائر على ساحل البحر الأبيض المتوسط هي محميات لها فسيطرت على تونس في العام 1881 وعلى المغرب في العام 1912.

وبحلول العام 1913، أصبحت الفرنسية لغة الحكام في أكثر من ثلث المناطق في إفريقيا، بدءًا من جبال أطلس على المحيط الأطلسي في الشمال وحتى البحيرات الكبرى في وادي الرفت. وهذا التوسع يمكن مقارنته بفتوحات الإسكندر، أو بحروب الجهاد في الإسلام في القرن السابع. فقبل ذلك بخمسين عاماً، لم تكن هذه اللغة تسمع في إفريقيا خارج الجزائر والسنغال.

وبطرق عديدة، أجهد الفرنسيون أنفسهم ليثبتوا أنهم يستحقون ممتلكاتهم

الجديدة المفاجئة فجلبوا إليها الطرق، وسكك الحديد، والتلغراف، والهجمات العلمية على الملاريا والأمراض الاستوائية الأخرى، بالإضافة إلى العقيدة المسيحية، واللغة الفرنسية، وكذلك ـ بالنسبة لبعض القلة من المحظوظين المتميزين ـ تقدير العقلانية الديكارتية. ويبدو أنهم نجحوا فعلاً في أن ينقلوا إلى رعاياهم شعوراً بأن الطريق العملية الوحيدة للقوة والاستقلال تكمن في إتقانهم لمهاراتهم الخاصة: وكان هذا النوع من الإقناع أحد أهدافهم المثالية، وقد أطلقوا عليه اسم "الإشعاع". وقد تصارعوا ـ أكثر بكثير مما فعلت الإمبراطوريات الأوروبية الأخرى ـ مع مسألة ماهية مصلحتهم الحقيقية في المواضيع التالية: الاستكشاف، الذوبان، التبشير، التثقيف، أو مجرد الترابط السياسي. فهل كانت فرنسا تبحث عن "المجد"؟ أم عن "رسالتها الحضارية"؟ فقد كان الفرنسيون يأخذون ثقافتهم نفسها على محمل الجد بحيث لم يستطيعوا أن يعتبروا ممتلكاتهم أي شيء سوى أنها أجزاء من فرنسا: "فالحضارة الفرنسية" لا تتجزأ. فقد كانت الفرنسية مستخدمة للإدارة في كل مكان، ومثبتة مؤسسياً كلغة للتعليم في المدارس الثانوية والمعاهد العليا، حتى في الأماكن التي كان فيها تقليد قديم من الثقافة والتعليم بلغة أخرى ـ كالهند الصينية وشمال إفريقيا(*). وكان أبناء المستعمرات في معظم الأماكن قادرين على التطلع إلى الحصول على مواطنية فرنسية كاملة.

ولكن باستثناء الجزائر ـ حيث كان السكان الأصليون المسلمون أقل استعداداً لاعتبار غزاتهم النصارى نموذجاً يحتذى ـ كان الفرنسيون قليلين على الأرض بحيث لا يستطيعون تعزيز مجتمعهم ذاته. فلم تكن هناك أسباب اقتصادية صلبة تذكر لاجتذاب الفرنسيين إلى هذه البلدان، أو لإبقائهم فيها. وسرعان ما ظهر ذلك. فعلى عكس ما حدث في الإمبراطوريات الأوروبية الأخرى، فإن الفرنسي النموذجي في الخارج ظل رجلاً عسكرياً أو طبيباً، أو مبشراً، أو مدرساً. فالعسكري الفرنسي البارز نابليون قد اشتهر بازدرائه للإنكليز بتسميتهم 'أمة من أصحاب الدكاكين'. ولكن نقص مثل هؤلاء الناس بالذات في المستعمرات الفرنسية هو الذي أبرز مدى عدم

(*) إن البلجيكيين الذين اعتمدوا أكثر على الخبرة الأجنبية لإدارة إمبراطوريتهم استخدموا الفرنسية أيضاً بصورة أقل كلغة متغلغلة في إدارتهم. وكما في المستعمرات البريطانية، كان هناك استخدام واسع النطاق لأي لغة مشتركة موجودة في السابق، وبخاصة السواحيلية ولنغالا.

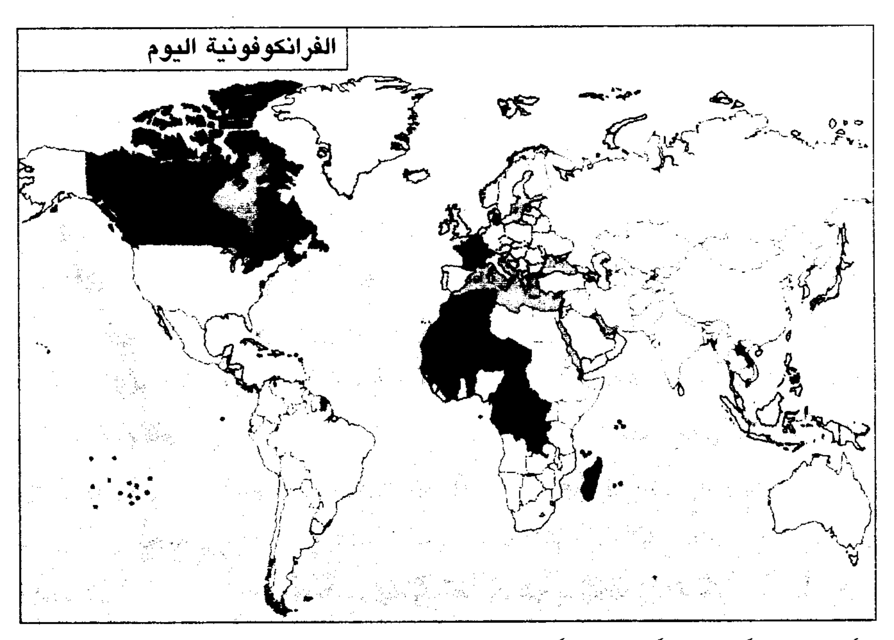
استقرار الفرنسيين هناك. فعلى عكس الممتلكات البرتغالية، والإسبانية، وحتى الهولندية، لم يكن هناك جزء في الإمبراطورية الفرنسية اجتذب هجرة كثيفة. كما أن الحكومة الفرنسية في القرنين التاسع عشر والعشرين، لم تكن قادرة ولا راغبة في تمويل أي هجرة، كما كانت تفعل في القرن السابع عشر. ونتيجة لذلك ظلت الفرنسية في كل مكان عدا الجزائر لغة النخبة الحاكمة فقط، حتى عندما قد يكون باقي السكان متطلعين بلهفة إلى قيمها ـ كما في إفريقيا السوداء على الأقل.

وقد ازداد عدد المستعمرات الخاضعة لإدارات ناطقة بالفرنسية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، عندما تم اقتسام الممتلكات الألمانية والعثمانية. فكانت الكاميرون وتوغو من نصيب إنكلترا، ورواندا وبوروندي من نصيب فرنسا. كما وُضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي كذلك. ولكنها جميعاً حصلت على الاستقلال في الأعوام الخمسة عشر التي تلت الحرب العالمية الثانية. فبلدان الشرق الأدنى العربية تأسست كجمهوريات مستقلة كجزء من التسوية المباشرة فور انتهاء الحرب. أما الهند الصينية، وشمال إفريقيا، وكذلك مدغشقر وجزر القمر، فقد اضطرت إلى كسب حريتها بقوة السلاح؛ وفي جنوب الصحراء الإفريقية، مُنحت البلاد استقلالها بناء على مطالبتها الجادة في العام 1960. وأما الأمم الصغيرة في المحيط الهادئ والبحر الكاريبي وأمريكا الجنوبية، فهي لا تزال عملياً جزءاً من الإمبراطورية: ولكنها الآن جزء من الاتحاد الفرنسي: طبقاً للدستور الذي تبناه الاستفتاء الشعبي في 27 تشرين الأول/أكتوبر من العام 1946:

> تشكل فرنسا مع شعوب ما وراء البحار اتحاداً يقوم على المساواة في الحقوق والواجبات، من دون تمييز بسبب العنصر أو الديانة.

وكل أبنائه (عندما يأتون إلى فرنسا) مواطنون فرنسيون. ومن الملاحظ أن اللغة غير مشمولة كجانب يتحرر الاتحاد فيه من التمييز: وسبب ذلك هو أن لغة كل شخص في الاتحاد من المتوقع أن تكون هي الفرنسية.

وتمشياً مع احترامها الصريح للوضوح والعقلانية، فإن مجتمع اللغة الفرنسية يسعى لتنظيم نفسه، ولديه تصور شامل عن نفسه أكثر من أي مجتمع آخر على ما يبدو. وهكذا فإن من خصائصه النموذجية أنه أعطى نفسه تنظيماً



دولياً سياسياً وتقنياً وثقافياً، يعرف باسم "الفرانكوفونية". وإنه مما يرضي الحكومة الفرنسية أن المبادرة لذلك لم تأت من فرنسا، ولكن جاءت من عدد من الناطقين المميزين بالفرنسية كلغة ثانية. ومع ذلك فربما كان هناك دافع سياسي معين: فقد كان المؤسسون هم: الرئيس الحبيب بورقيبة من تونس، والأمير نوردوم سيهانوك من كمبوديا، والرئيس ليوبولد سنغور من السنغال، وشارل حلو من لبنان، وهاماني ديوري من النيجر. ورغم ذلك فإن فرنسا تقدم فعلاً ما يصل إلى ثلثي ميزانية المنظمة. وقد تأسست الفرانكوفونية في 20 آذار/مارس من العام 1970 في نيامي عاصمة النيجر في إفريقيا الوسطى، وعقدت مؤتمرات قمة بانتظام بحضور أعضاء في مجالس الوزراء، وكانت القمة التاسعة في بيروت في العام 2002. وليست العضوية محصورة بمستعمرات فرنسا السابقة، بل إن مصر قدمت للمنظمة مؤخراً أمينها العام، بطرس بطرس غالي: فهي بصورة نموذجية تختار التوكيد على بعض العلاقات المفهومية والمعنوية وليس التاريخية.

ومن المدهش إلى حدٍ ما أن تأييدها الحديث يتركز على حماية التنوّع وتمكينه، وهذه بالتأكيد مسألة مبتكرة تشغل أذهان الفرانكوفونيين، وهي لا تخلو

من نفحةٍ من "النزوع إلى الأذية" والضرر الموجه من بلاد الغال إلى منافسيها الدائمين "الأنغلوساكسون". ولكنها تقع ضمن الاعتبار القاطع الواضح المعالم والنزيه أحياناً لحقوق الإنسان. غير أن المصالح السياسية لا بد أن تظهر. ولقد كان من الصعب على الدولة الفرنسية في السنوات الأخيرة، حتى أن تحمي وتغذي التنوع اللغوي المتبقي ضمن ممتلكاتها نفسها. وعلى سبيل المثال، فإن عمل وزير التعليم في العام 2002 الهادف إلى دمج مدارس اللغة البريتونية في نظام الدولة، وبالتالي تمويل هذه المدارس وطنياً، يخالف مادة تم إدخالها في الدستور الفرنسي في العام 1992 ـ وتنص على أن لغة الجمهورية الفرنسية هي الفرنسية(*).

روما الثالثة، والروسيات كلها

لكن الابتعاد عن النافذة المطلة على أوروبا شيء صعب، وهذه حقيقة. ولكن بعد أن نقول ذلك، فإن آسيا في الحقيقة يمكن أن تكون هي مخرجنا في المستقبل ـ وأنا أكرر التعبير عن ذلك! فإذا استطعنا أن نتقن هذه الفكرة، ولو جزئياً، فيا له من جذر يتم إحياؤه عندئذ! آسيا، روسيانا الآسيوية ـ فهذا هو أيضاً جذرنا المريض، الذي لا نحتاج إلى إنعاشه فقط، بل إلى بعثه وإعادة بنائه! إنه مبدأ، مبدأ جديد، ورأي في القضية، فهنا ما هو ضروري!.

فيودور دوستويفسكي، ما هي آسيا بالنسبة لنا؟ 1881[43]

إن الروسية، آخر لغة أوروبية كبرى تنتشر عن طريق الإمبراطورية، تختلف عن اللغات الأخرى بطرق عديدة. فممتلكاتها لم تتوسع عن طريق الحملات البحرية، بل بواسطة الحملات العسكرية البرية في أغلب الأحيان، ومن هنا فقد احتلت مناطق في شريط شاسع متلاصق يتاخم حدود موطنها من الجنوب والشرق في السهل الأوروبي الشمالي. وقد توسعت حدودها في

(*) المادة 2 من الدستور: "لغة الجمهورية الفرنسية هي الفرنسية". وهي مادة تنفذ بموجب قانون 4 آب/أغسطس من العام 1994 (مطبقة في الفقرة L، 121-123 من قانون التعليم).

القسم الأكبر ليس على أيدي التجار أو المبشرين، بل بأيدي القوزاق شبه الرحالة المتنقلين، والمستكشفين والعسكريين، وليس بدافع إقامة المشاريع أو كسب المعتنقين للنصرانية، بل لأسباب السلب والنهب، ولتعزيز المصالح العالمية لدولتها. فقد بدأت روسيا وجودها الواعي بانعدام الدفاعات الطبيعية ضد التتر الناطقين بلغة تركية على تخومها الجنوبية، وبقيت بدون دفاعات طبيعية ضد أبناء عمومتها الناطقين بلغات سلافية في بولندا إلى جهة الغرب. وكانت على محيط المنطقة الثقافية التي كانت تشبه هويتها وتتمشى معها، وهي أوروبا المسيحية، ولكنها كانت تحتل سهلاً يسهل وصول الغزاة إليه على ظهور الخيل، وتقطعه أيضاً شبكة من الأنهار الصالحة للملاحة. وكانت الثلوج تحرمها من الوصول إلى البحر المفتوح معظم أيام السنة. فكان دفاعها الطبيعي الوحيد هو قسوة فصل الشتاء، ولزوجة أرضها في الربيع والخريف، والمسافات الشاسعة التي يتعين على أعدائها قطعها للتغلغل فيها. فكانت ظروفها ملائمة لتنمية قوة وحيدة وتعزيزها، مع الدفاع في العمق: وهذه القوة نسميها روسيا(*).

ومع ذلك كانت هناك نقاط تشابه مع بناة إمبراطوريين آخرين ناجحين في أوروبا. فقد كان هناك دافع تجاري للتوسّع شرقاً إلى داخل سيبيريا، وهو خروج الرجال إلى الهواء الطلق لاصطياد الحيوانات من أجل فرائها، كما قدر للفرنسيين ثم للبريطانيين أن يفعلوا فيما بعد في أراضي كندا القفراء. وكانت الكنيسة الروسية الأرثوذكسية طيلة معظم الألف الأخير من التقويم الميلادي رمزاً قوياً

(*) الاسم (Russia) صيغة لاتينية من كلمة روسي (Rusʸ) التي سُمعت لأول مرة في القرن التاسع. وأصولها مبهمة (يناقشها فرانكلين وشيبارد 1996: ص 27-32). ولكن الفنلنديين كانوا يسمون السويديين روتسي (Ruotsi) (التي قد يكون معناها الأصلي "المجدفين")، وأول استعمال مسجل للكلمة (كما في روس (Rhōs) عن طريق اليونانية) هو في الرواية الحولية التاريخية عن زيارة لبلاط فرنجي قام بها في العام 839 'رجال معينون فقالوا إنهم يسمون الروس (Rhos) وأن ملكهم المعروف بلقب خاقانوس [أي لقب خاقان التركي!] هو الذي أرسلهم... واكتشف الإمبراطور [لويس - الذي حلف أيمان ستراسبورغ، انظر الفصل 8].... أن أصلهم من السويد'. ولكن مصدراً معاصراً هو كتاب "المسالك والممالك" العربي (حوالي العام 846)، يخبرنا بأن 'الروس هم قبيلة من السلاف، يجلبون فراء القنادس والثعالب السود' (ميلنر - غولان 1997: ص 53-55). وهناك أيضاً نهر صغير يدعى روسي، يصب في نهر الدنيبر إلى الجنوب من كييف تماماً.

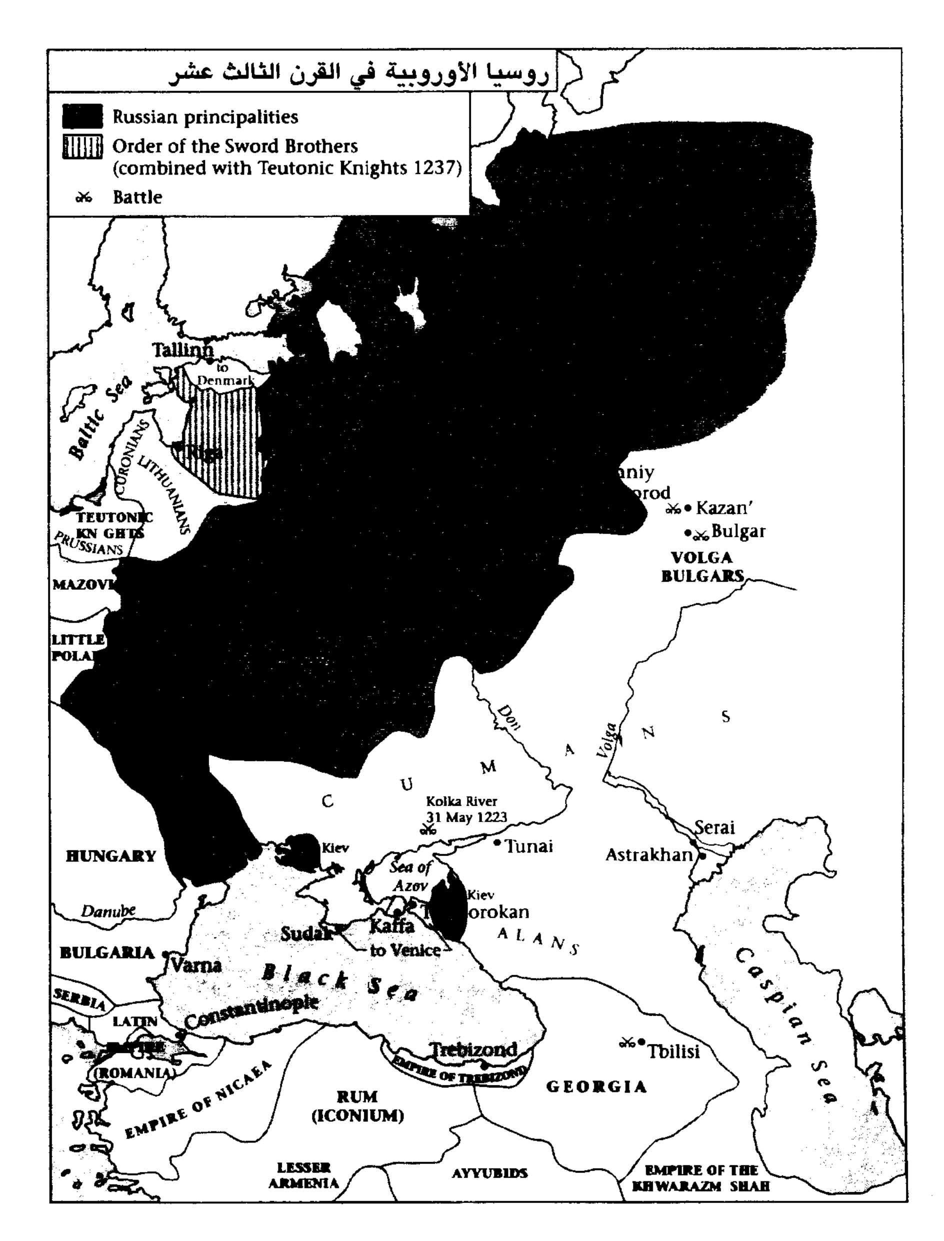
فعالاً للهوية الروسية(*) التي رافقت تقدم قوات روسيا عبر أوروبا الجنوبية الشرقية، وآسيا الشمالية والوسطى حتى المحيط الهادئ. وبما أن اللغة كانت صيغة قديمة من روسيا نفسها، فإن هذا يشبه قبل كل شيء الممارسة الإمبراطورية لكنيسة إنكلترا. ومثلما فعل البريطانيون والفرنسيون تماماً في القرن التاسع عشر، خططت الحكومة الروسية عن وعي للمراحل التالية من توسعها العالمي. فقامت في الأعوام 1871 - 1881 بغزو آسيا الوسطى، أي على وجه التحديد منطقة 'طريق الحرير' من تركستان، جنوبي بحر آرال، من أجل حماية الحدود الجنوبية، وباعتبارها مصدراً أساسياً للقطن. وقبل كل شيء، فإن نشر اللغة الروسية ضمن هذه الحدود الممتدة الشاسعة قد ضمنه على المدى الطويل تدفق مهاجرين ناطقين بالروسية من الشمال الشرقي إلى داخل المناطق الروسية الجديدة: فبعد إلغاء الرق الذي كان يربط العبيد بالأرض، في العام 1861، راح نصف مليون منهم يبحثون عن حظوظ أفضل إلى الشرق في داخل سيبيريا فيما تبقى من القرن التاسع عشر(**).

أصول اللغة الروسية

إن السلاف الشرقيين الذين أسسوا روسيا كانوا من بين المتحدرين من الفينيتي Veneti الذين كانوا كما رأينا (انظر الفصل السابع: 'السقوط: حالات تقدم الألمانية والسلافية'، ص 429) يسكنون على سواحل بحر البلطيق في أوائل الألف الميلادي الأول، وكان هناك عدد كبير منهم لم يرحلوا جنوباً ليسكنوا في

(*) إن كلمة أورافوسلافني الروسية التي معناها أرثوذكس هي ترجمة مستعارة من الإغريقية. ولكن مما له دلالة أنها قابلة للتأويل بحيث تعني 'السلافي الحقيقي' أو 'المجيد الصحيح القويم'.

(**) باراكلاف (1978، ص 209، 230). في أوائل القرن العشرين كانت هناك تدفقات كبيرة إلى داخل تركستان كذلك، وكانت في بعض الأحيان تسبب نزوحاً للأهالي المحليين نحو الشرق إلى داخل الصين على نطاق واسع (هوسكنغ 1997، ص 389-390). وفيما بعد، وخاصة تحت حكم ستالين فإن هذه التدفقات زانتها عمليات طرد جماعي متعمد لأسباب ظاهرها أمني، مما يذكرنا بتغلات بيليسر وخلفائه في الإمبراطورية الآشورية (انظر الفصل 3: 'الأكادية - تقنية تتغلب على العالم..' ص 109). ولكن السكان الذين طردوا إلى قازاخستان وسيبيريا كانوا يتكلمون لغات غير الروسية، فمنهم 200,000 تتري ناطقون بالتركية من القرم و1.8 مليون ألمان من الفولغا. وبعضهم، مثل شيشان - إنغوش، وكابارد بالكار، وكالميك، سمح لهم بالعودة فيما بعد، ولكن يوجد الآن 300,000 كوري في أوزبكستان الحديثة وقازاخستان (دالبي 1998، ص 616، 223، 329، وكومري 1981، ص 30).



البلقان ويغزوا اليونان (انظر الفصل السادس: 'تلميحات عن التدهور'، ص 364)، ولكنهم بدلاً من ذلك استقروا باتجاه الشرق، في تنافس قلق وغير سهل مع القبائل البلطيقية إلى الشمال الغربي منهم، والقبائل الأورالية، التي كان من بينها الفنلنديون إلى الشمال الشرقي. والواقع أن هناك زعماً بأن السكان الأصليين

الروس كانوا من أصل فنلندي، وبالتالي فلغتهم فنلندية. وقد استقر السلاف بينهم في القرون الأولى من الألف الميلادي الثاني.

وكان هؤلاء الناس يتكلمون لغة لها علاقة بلغة جيرانهم الألمان من جهة الغرب، ولغة جيرانهم البلطيقيين (اللاتفيين، والليتوانيين، والبروسيين) من جهة الشمال، ولكنها ذات لهجة أنعم بشكل ملحوظ، بحيث إن حروفها الصامتة كانت حلقية وكثيراً ما تلفظ بطريقة احتكاكية قبل الحرف e والحرف i(*). ونتيجة لذلك يكثر ورود الأصوات ش [š]، وتش[č] وج [ž]، ويلاحظ ذلك من مقارنة القسم الأوسط من الصلاة للرب في أقدم أشكال لغاتهم وصياغاتهم القوطية (أقدم لغة جرمانية) والليتوانية (أقدم لغة بلطيقية)، والسلافونية الكنسية (السابقة للروسية).

وكان السلاف الشرقيون مزارعين وليسوا متنقلين، رغم أن البحث عن القراءة كانت له أولوية دائمة على حدودهم الشرقية؛ وقد استمرت لغتهم فشكلت الروسية الحديثة، والأوكرانية، والبيلوروسية، وكلها متقاربة بما يكاد يكفي لاعتبارها لهجات. وعند نهاية الألف الأول الميلادي كانت قد ترسخت في منطقة غابات شاسعة تمتد من ساحل البلطيق قرب نوفغورود إلى الجنوب من كييف تماماً، وإلى الشرق حتى كازان. ورغم أن هؤلاء الناس كانوا يتكلمون الروسية فإن طبقتهم الأرستقراطية كانت تتكون من الفايكنغ (المعروفين باسم "فارياجي " أو الفارنجين)، وكانوا ملاحين قاموا بغزوات على الطرق المائية من البلطيق، وكانوا في بادئ الأمر يتكلمون لغة نورس الشمالية، ولكنهم كانوا قد تخلوا عن لغتهم نفسها، كما فعل كثير من الغزاة الجرمان. وقد نظموا الروس على أساس العواصم بالابتعاد إلى الجنوب باستمرار، في نوفغورود، وسمولنسك، و(في العام 882) في كييف. وكانت دفينا وفولخوف مرتبطتين بنقل المراكب والسلع عبر نهر الدنيبر، وبذلك أقيمت المواصلات مع البحر

(*) قارن ذلك مع ما يحدث للحرفين t وd في الإنكليزية البريطانية قبل حرف u الطويل: فالكلمتان *tune* و*dune* تلفظان 'تيون' و'ديون' ولكنهما بالاحتكاك تتحولان إلى 'تشون' و'دجون' في لفظ اللغة اليومية المحكية الدارجة.

الأسود، وبالتالي مع الإمبراطورية البيزنطية. وفي العام 988، أدت هذه الرابطة إلى تحول فلاديمير (غازي العالم) وبلاطه في كييف إلى اعتناق المسيحية الأرثوذكسية. وفي القرون الأربعة التالية لذلك انتشرت هذه الديانة لتشمل المدى السلافي الشرقي كله.

وإلى الجنوب من ممتلكات كييف كانت هناك سهوب معشوشبة سيطرت عليها في النصف الثاني من الألف الميلادي الأول سلسلة من الشعوب الرحّالة على ظهور الخيل والناطقة بلغة تركية، ظلت تصل تباعاً من الشرق، تغزو ثم تستقر باعتبارها الأسياد الجدد: وهي قبائل آفار، والخزر، والبلغار، والمجر، والبيشينيغ، وكيبتشاك ـ بولوفتسيان، وآلان، وأخيراً، مغول جنكيز خان. وكانت هناك حروب متواصلة على مدى تلك الفترة، خلدها أول عمل باقٍ من الأدب الروسي عنوانه "أغنية حملة إيغور" عن أحداث وقعت في العام 1054، والظاهر أنها كُتبت في القرن الثاني عشر:

أيها الأمير، لقد أسر الحزن عقلك الآن،
لأن صقرين قد طارا من عرش أبيهما الذهبي
ليفوزا بمدينة تموتوروكان،(*)
أو ليشربا من نهر الدون، من قريتهما الصغيرة.
وقد قصقصت سيوف الكفرة الآن أجنحة الصقرين،
وهما مكبلان بأصفاد من حديد ....

وفي آخر الأمر، فإن المغول، الذين شكلوا خانات الجحفل الذهبي، نهبوا كييف، وأنهوا هيمنة المدينة على روسيا في العام 1240. وإن سيادة المغول، التي استتبعت عبئاً ثقيلاً على شكل إتاوة، تم الاعتراف بها في جميع أنحاء الأقاليم الروسية، حتى من قبل الأمير ألكساندر نيفسكي في الشمال في نوفغورود في العام 1242، برغم انتصاراته الحديثة آنذاك على السويديين والفرسان التيوتونيين.

(*) قلعة فارانجية على المضيق بين بحر آزوف والبحر الأسود: ومن الواضح أن الصقرين كانا يحاولان شق طريق إلى الشرق من كييف.

وكانت هناك تقديرات تقول بأن هذا الإخضاع المبكر، الذي استمر قرابة قرنين ولم ينتهِ بشكل حاسم إلا بانتصارات إيفان الرابع ('الرهيب')، قد زرع تشاؤماً دائماً في الروح الروسية، وأسس تقليداً عميق الرسوخ من العبودية في قاع المجتمع، والاستبداد المطلق في قمته.

وعندما جاءت الحكومة الروسية التالية، لم تكن قاعدتها تقوم على كييف، بل على موسكو، على بعد 800 كيلومتر (وبالمقياس الروسي 750 فيرست) إلى الشمال الشرقي. وفي عام 1328 نقل المطران الآرثوذكسي مقره إلى هناك كذلك. كان لموسكو موقع مركزي جيد ضمن روس. وكان انتصارها على المدن ـ الدول الروسية الأخرى يعود جزئياً إلى بقائها موحدة، وكانت محظوظة بإنتاج وريث ذكر وحيد في كل جيل في القرن الرابع عشر. وقد قام أمير موسكو الكبير، ديمتري دونسكوي، بدحر المغول في العام 1380. وفي العام 1480 قام إيفان الثالث بإبطال سيادتهم في آخر الأمر. كانت مكانة أمراء موسكو ترتفع في العالم: فقد تزوج إيفان صوفيا باليولوغو، ابنة أخ الإمبراطور البيزنطي الأخير (الذي أطاح به العثمانيون في العام 1453) وادعى بأنه قد ورث مكانة إمبراطورية عن طريق شارة نبالة خاصة منحها الإمبراطور البيزنطي قسطنطينوس مونوماخوس إلى فلاديمير مونوماخ (أمير كييف) في القرن الحادي عشر. وصارت موسكو تُمَثَّلُ على أنها روما الثالثة. وكتب الراهب فيلوفي من بسكوف إلى إيفان الثالث في نهاية القرن الخامس عشر: 'إنك الإمبراطور الوحيد لجميع المسيحيين في العالم كله ... لأن روما الأولى والثانية سقطتا، والثالثة قائمة ولن تكون هناك رابعة'[(44)].

وفي العام 1547، كان إيفان الرابع أول حاكم يُتَوَّج، ليس كأمير بل كقيصر ("تساري" باللفظ الروسي)[(*)]. وقد تابع عمله ليثبت أنه يستحق اللقب بغزو الجزأين الكبيرين الباقيين من الجحفل الذهبي، وهما خانات قازان الأتراك (في العام 1552) وأستراخان على بحر قزوين (في العام 1556) وضمهما

(*) كان لقب كنيازي: 'الأمير' القديم مستعاراً بالمثل من مصطلح غربي. فهو تحوير من لقب "كونينغاز" الألماني، الذي يعني حرفياً 'الرجل ذا النسب الرفيع'، وهو أيضاً لقب "كنغ" الإنكليزي، أي 'الملك'.

كليهما إلى ملكه. وتم استيعاب النبلاء المحليين ضمن النبلاء الروس، وبدأت عملية هضم وامتصاص. وبهذه الخطوات، بدأ الروس سيرة حياتهم لفرض أنفسهم على المجتمعات اللغوية الأخرى، وتوسيع إمبراطوري لمجال لغتهم قُدِّر له أن يستمر بعد ذلك ثلاثة قرون ونصف قرن انتهت في القرن العشرين بتغطية اسمية للنصف الشمالي من كتلة البر الآسيوية للقارة بكاملها.

الروسية شرقاً ثم غرباً

إن القسم الأعظم من هذا الانتشار جاء من دون مبادرة فعالة من القيصر، أو حكومته، أو جيوشه. بل كانت النتيجة الفورية لغزو كازان وأستراخان هي إزالة الحواجز أمام تغلغل الروسية في الخارج باتجاه الشرق؛ وسرعان ما تم استغلال هذه الفرصة. فقد تصادف أن أسرة ستروغانوف كانت تحتكر تجارة الفراء واستخراج الملح: فاستأجرت آنذاك جيشاً من القوزاق من منطقة نهر الدون، من أجل حمايتها من الخان في سيبيريا الغربية، ثم لمهاجمة عاصمة الخان في منطقة إتريش السفلى. فسقطت العاصمة في العام 1582. وعلى مدى سبعة وخمسين عاماً بعد ذلك تقدم القوزاق بسرعة وثبات. وفي العام 1639 وصلوا إلى المحيط الهادئ، وأقاموا مدينة أوخوتسك في العام 1648، وتحركوا جنوباً على الساحل إلى نهر آمور، ولكن سرعان ما أرغمهم الصينيون على التخلي عن المنطقة المتاخمة لمنشوريا. فتحددت الحدود الصينية - الروسية لمدة قرنين لاحقين بصورة فعلية، بموجب معاهدة نيرتشينسك في العام 1689.

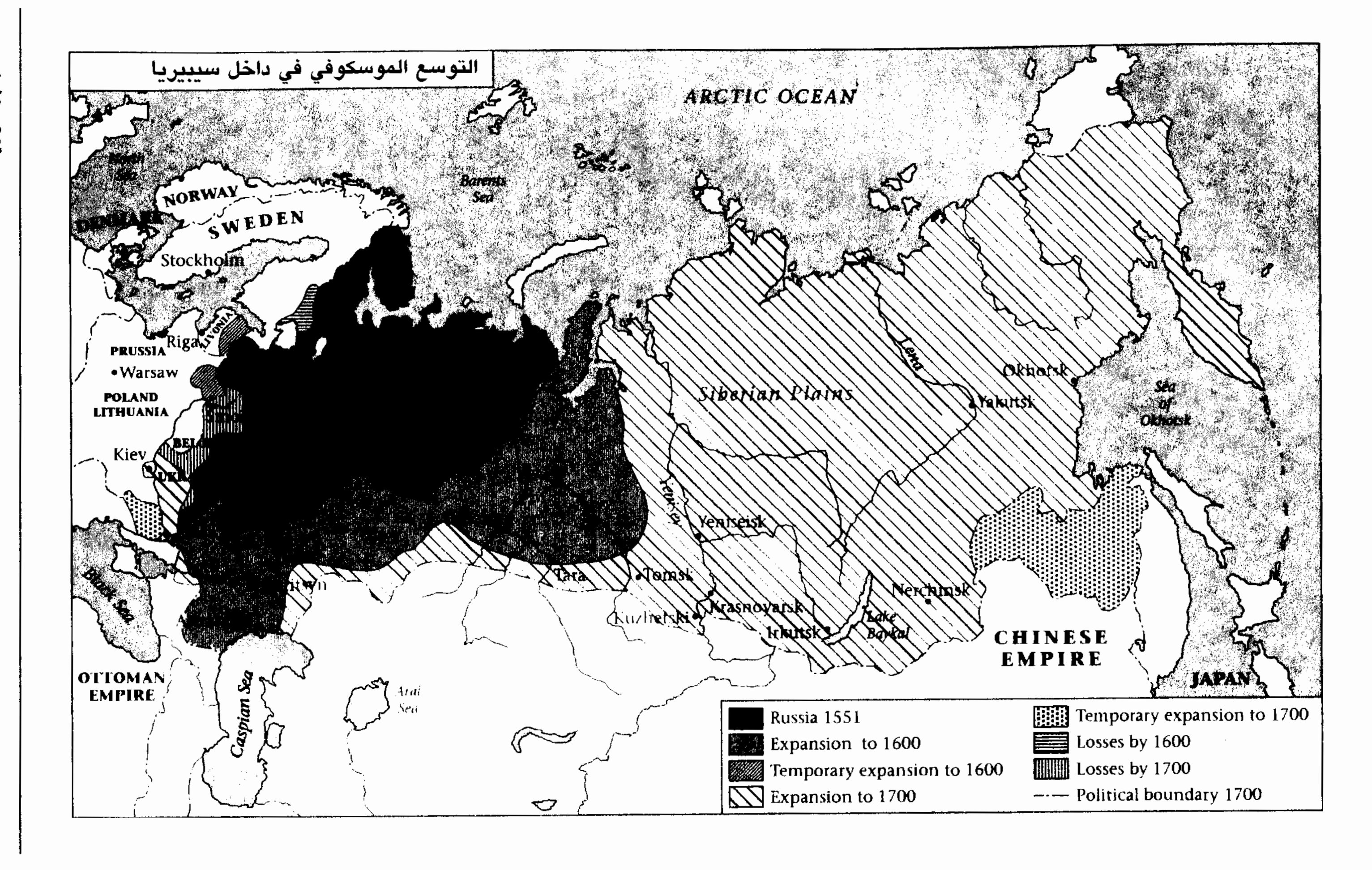
ورغم أن اسم القوزاق تركي(*) فإنهم كانوا يتكلمون الروسية. كانوا مجموعة كبيرة ولكنها متنوعة من الفرسان، والمسيحيين المتشددين، وكانوا غير منظمين ولكن لديهم كبرياء، وكانوا قد أخذوا بعادات البدو الرحّل في القرون

(*) "القوزاق" (بلغة القرم تتر، وبالتركية جغطاي) معناها 'رجل حر، جوال، قاطع طرق'. وبلغات تركية أخرى (مثل القرغيزية، والآذرية، والبشكيرية) فإن كلمة "قازاق" لها معان مثل 'رجل مستقل'، أو 'باحث عن المغامرات'، وكلها مستمدة من الفعل "قيز" باللغة التركية القديمة، ومعناه: 'يمشي، يتجول، يترحل'.

الطويلة التي تعرضوا فيها لتهديد البدو الرحل الأتراك. وكانوا موجودين في جميع أنحاء منطقة السهوب الجنوبية من بولندا وأوكرانيا وحتى قازاخستان. وأثناء تقدّمهم عبر سيبيريا بنوا قلاعاً على معابر الأنهار الكبرى، بعضها الآن مدن كبرى (من بينها طومسك في العام 1604، وكرانسويا راسك في العام 1628، وياكوتسك في 1632)؛ ولكنهم لم يستقروا في الأراضي التي تقدموا خلالها إلا بشكل خفيف. وقد تبعهم بعض الجنود والمبشّرين وجباة الضرائب (الذين كانوا يفرضون إتاوة تدعى باسمها التركي "ياساك" وتدفع بجلد الفرو) وعدد قليل جداً من المستوطنين الروس، إما من الفلاحين الباحثين عن أرض، أو المنفيين السياسيين الذين ترسلهم الحكومة: ولكن التأثير اللغوي كان خفيفاً في بادئ الأمر. فقد ظل الروس متجمعين على ضفاف الأنهار الكبرى، محاطين في البداية بمختلف الشعوب السيبيرية القديمة. وعلى مدى القرون الثلاثة التالية، عندما بدأت الصناعات الاستخراجية تنمو وتتطور، انضم إليهم مزيد من المستوطنين الذين جاؤوا من الغرب.

إن هذا التوسع المبكر لاحتلال سيبيريا، ومعها الأراضي الروسية الداخلية في شمال السهل الأوروبي، يفسر ما حدث في معظم المنطقة التي هي الآن جزء من روسيا. فقد كان السكان غير الروس هناك دائماً قليلي العدد وبعيدين جداً عن أي مصدر حضاري غير روسي بحيث لم يستطيعوا تنظيم دول مستقلة.

ولكن هذا بالتأكيد لم ينطبق على جيران روسيا الآخرين، الذين وجد أغلبهم أنفسهم خاضعين للغزو الروسي طيلة أربعة قرون من توسع روسيا. وهم أربع مجموعات هي: الدولة الناطقة بالسلافية في الغرب؛ والدول البلطيقية الناطقة باللغة الأورالية في الشمال الغربي؛ والدول القفقاسية في الجنوب؛ ودول آسيا الوسطى في الجنوب الشرقي. وكان ما حدث وقت تأليف هذا الكتاب في أوائل القرن الحادي والعشرين، هو أن معظم هذه الدول قد حصلت على استقلالها، وأخذت تسعى لإعادة بناء علاقاتها مع ماضيها فيما سبق السيطرة


التوسع الموسكوفي في داخل سيبيريا
ARCTIC OCEAN
Barents Sea
NORWAY
SWEDEN
Stockholm
LIVONIA
Riga
PRUSSIA
•Warsaw
POLAND
LITHUANIA
Kiev
Black Sea
OTTOMAN
EMPIRE
Caspian Sea
Tara
Tomsk
Kuznetsk
Krasnoyarsk
Yeniseisk
Irkutsk
Lake
Baykal
Nerchinsk
Siberian Plains
Lena
Yakutsk
Okhotsk
Sea
of
Okhotsk
CHINESE
EMPIRE
JAPAN
Russia 1551
Expansion to 1600
Temporary expansion to 1600
Expansion to 1700
Temporary expansion to 1700
Losses by 1600
Losses by 1700
Political boundary 1700

الروسية؛ أما الدول التي لم تستقل، وخاصة الشيشان والإنغوش في قفقاسيا، فهي تسعى للانفصال بصورة عامة دون سفك الدماء. ومن الحقائق اللافتة للنظر عن مستعمرات روسيا القديمة أنها لا تعطي قيمة للعلاقات التاريخية التي يرمز إليها استخدام اللغة الروسية، ولا حتى الاحتمالات الكامنة في قبولها للروسية كلغة مشتركة. وهذا يستحق البحث عن السبب الذي جعل اللغة الروسية، وحدها من بين اللغات الإمبراطورية الأوروبية، تترك هذا الإرث الشديد التسمّم.

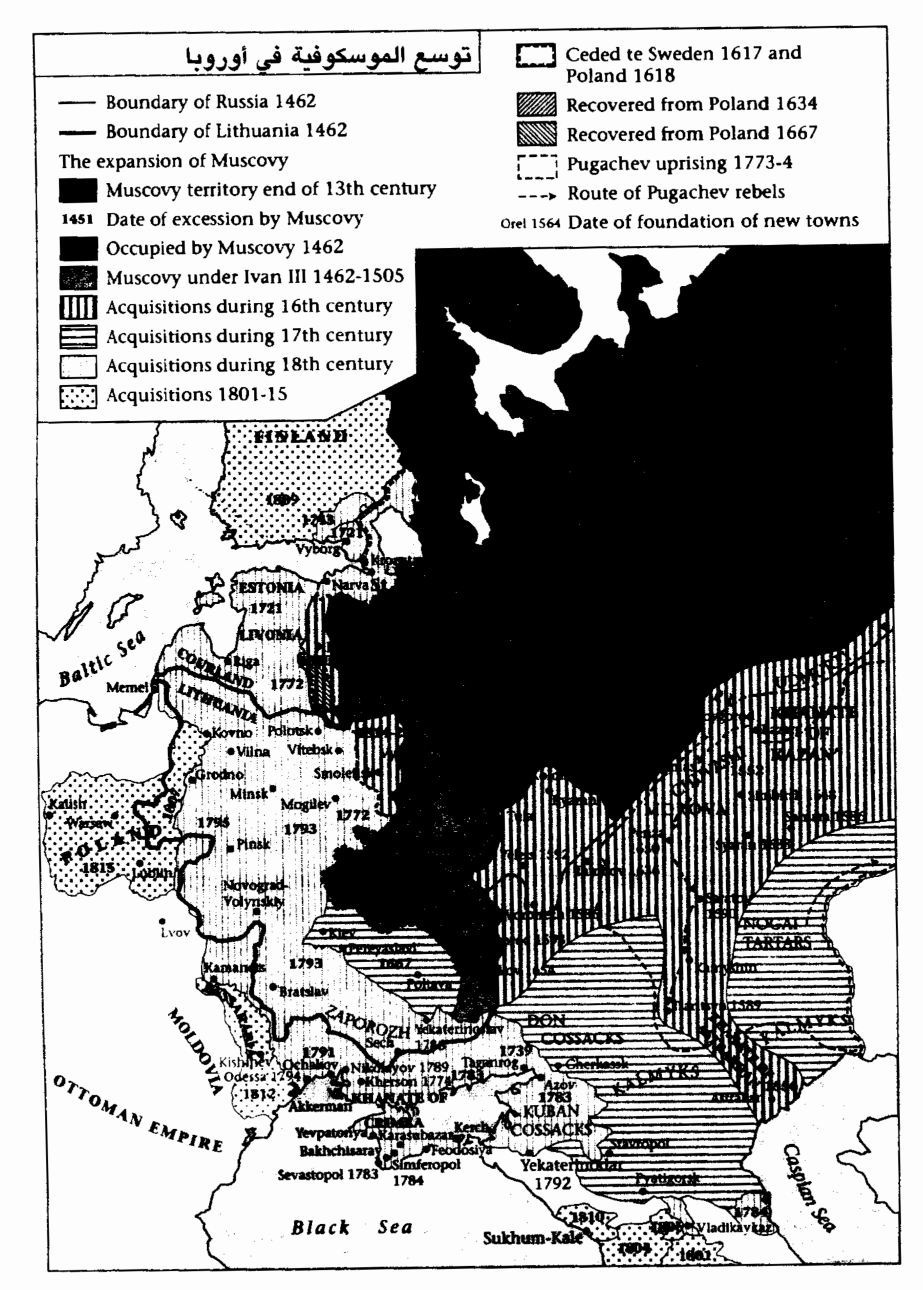
إن الدول الناطقة بالسلافية في غرب روسيا لا تشمل أوكرانيا فقط (وأوكرانيا معناها 'على الحدود')، وبيلاروسيا (أي روسيا البيضاء)، بل تشمل أيضاً بولندا 'أي السهول المفتوحة'(*). وإن التوسع الروسي المبكر في هذا الاتجاه لم يوسع مناطق الناطقين بالروسية في أول الأمر، لأن مملكة ليتوانيا كانت قد استغلت تدمير كييف في العام 1240 لتستولي على معظم أراضي روسيا الغربية. وفيما بعد، في العام 1385 دخلت ليتوانيا في تحالف وثيق مع بولندا عن طريق تزاوج بين السلالات الحاكمة، فشكل البلدان اتحاداً في العام 1569، وهكذا فإن مركز السلطة الجديد في موسكو، عندما حاول استعادة الروس الغربيين، كان يواجه صراعاً حقيقياً مع بولندا. وعندما لجأ إيفان الرهيب إلى السلاح في القرن السادس عشر، فإن نجاحه في التوسع ضد هذه المملكة المسيحية إلى الغرب منه كان أقل بكثير من نجاحه ضد التتر إلى الشرق منه. ذلك أن خمسة وعشرين عاماً من الحروب الليفونية من العام 1558 لم تكن نتيجتها سوى إفقاد روسيا موطئ قدمها على البلطيق وهز استقرار نظامها الملكي. وفي "الأوقات المضطربة" التي أعقبت ذلك، غزت بولندا موسكو واستولت عليها فترة قصيرة من العام 1610 إلى العام 1612. ومن ذلك فعندما أعيد النظام في روسيا تحت حكم سلالة آل رومانوف الجديدة في العام 1613، عاد التأكيد على الضغط باتجاه الغرب وزادت سطوة موسكو بالتدريج. وفي

(*) لم تكن هذه طبعاً هي المجموعات الوحيدة الناطقة بالسلافية في أوروبا الوسطى. ولكن مجموعات أخرى، من بينها الوند، والتشيك، والسلوفاك، والسلوفينيون، والصرب. والكروات، والبوسنيون لم يكونوا جاهزين للاندماج مع روسيا الحديثة المبكرة. ولغاتهم، كالبولندية، لم تكن مفهومة بشكل متبادل مع الروسية، وقد ظلت شعوبها خاضعة بكل ثابت ضمن حدود إمبراطوريات أخرى.

العام 1667 كسب القيصر آليكسي سمولنسك، وكييف، وأوكرانيا الشرقية، أما بقية أوكرانيا وروسيا البيضاء فقد كسبتهما القيصرة كاترين الكبرى في العامين 1772 و1793.

وعند هذه النقطة كان معظم الناطقين بالروسية قد أعيدوا إلى سيطرة الحكومة الروسية، ويمكن المجادلة بأن ذلك تم لأول مرة منذ العام 1240، ولكن تمرد بولندا ضد تسوية العام 1793 أدى إلى حرب كسبتها روسيا بشكل حاسم. فكانت النتيجة الفورية تقريباً، في العام 1795 هي فوز روسيا بالسيطرة على شرق بولندا كلها حتى نهري نيمان والدنيستر. وظل هذا الوضع سائداً حتى أعيد رسم خريطة أوروبا عقب الحرب العالمية الأولى، في العام 1918. ومن الناحية اللغوية، فإن هذه السيطرة لم يكن لها أثر يذكر. فرغم أن اللغة البولندية لها علاقة قرابة وثيقة بالروسية، فإن هذه العلاقة أقل من علاقتها مع اللغتين الأوكرانية والروسية البيضاء. وقبل كل شيء، فإن تاريخ بولندا السياسي والديني (كأمة كاثوليكية) كان متميزاً تماماً، والحقيقة أن معرفتهم وثقافتهم ومستوى معيشتهم العام كانت متفوقة كثيراً على روسيا. ففي البداية، كان القيصر الإسكندر الأول قد منح بولندا دستوراً منفصلاً. ولكن القيصر وجد صعوبة في احترام بنوده؛ وفيما بعد، وخاصة بعد العامين 1863 ـ 1864 (عندما تمردت بولندا) جرت محاولات لإضفاء 'الطابع الروسي'. ومن بين إجراءات أخرى، تم فرض الروسية كلغة رسمية للأعمال التجارية. وطولبت جامعة وارسو ومعها كل المدارس البولندية بالعمل باللغة الروسية حصراً. ولكن ذلك لم ينجح عملياً، وبقيت اللغة البولندية.

وعلى عكس ذلك، ففي حوالي الوقت نفسه، في العام 1863 تم سن القانون اللغوي الأوكراني الأقسى بكثير، فمنع طبع كل الكتب بالأوكرانية، فيما عدا الفولكلور، والشعر، والقصص الخيالية. وتبع ذلك في العام 1867 فرض حظر على استيراد مثل تلك الكتب من الخارج. ومنع استعمال الأوكرانية على المسرح أيضاً. فكان هذا أكثر فعالية. وتم تشجيع الأوكرانيين على أن يروا أنفسهم 'كروس صغار' ـ فكان ذلك مؤاتياً للروس، لأنهم ما كانوا يستطيعون أن



يشكلوا غالبية سكان الإمبراطورية إلا إذا تم تصنيف الأوكرانيين معهم(*). وقد

(*) في الإحصائية السكانية للعام 1897، شكل الأوكرانيون 18 بالمئة، وبقية الروس 44 بالمئة.

كتب وزير الداخلية في العام 1863: 'لم تكن هناك أبداً لغة روسية صغيرة متميزة، ولن تكون. فاللهجة التي يستخدمها عامة الناس العاديين هي روسية ملوثة بتأثير بولندي'[45]. وفي العام 1867، استطاع رئيس جامعة موسكو أن يصدر نداءً يقول: 'فلتسد لغة أدبية واحدة في كل الأراضي من بحر الأدرياتيك وبراغ إلى أرخانجلسك والمحيط الهادئ، ولتأخذ كل أمة سلافية مهما كان دينها بهذه اللغة كأداة اتصال مع الآخرين'[46].

إن الهوية المنفصلة للأوكرانية كلغة لها ثقافتها الخاصة بها، وجمهوريتها ضمن الاتحاد السوفييتي، بل ودولتها الخاصة بها اعتباراً من العام 1990، كانت في الحقيقة مدينةً بالكثير لكون هذه الوثائق القانونية لم تعبر الحدود إلى داخل غاليسيا، الزاوية المحصورة الناطقة بالأوكرانية (إلى الجنوب من لفوف) التي ظلت بطريقةٍ ما خارج روسيا، وداخل الإمبراطورية النمساوية ـ المجرية. وكانت تضم عشرين بالمئة من الأوكرانيين كلهم. فاستطاعت التهجئة والتعابير الأوكرانية أن تزدهر بلا عائق على الصفحة المطبوعة، لتذكير الأوكرانيين جميعاً بما يمكن أن يكونوا عليه. ولقد أنهى ستالين استقلال المنطقة في العام 1945، ولكن ذلك لم يكن له تأثير بعيد الأمد. واستمرت غاليسيا حتى أصبحت مركز الحركة الوطنية الأوكرانية في ثمانينيات القرن العشرين، ومفتاح انفصال أوكرانيا عن الاتحاد السوفييتي[47].

الروسية شمالاً ثم جنوباً

وفي الشمال الغربي تمكنت روسيا أيضاً من كسب السيطرة على المناطق الرئيسية للغتين البلطيقية والأورالية. فالمناطق الأورالية في الشمال الشرقي، وبصورة رئيسية كاريليا، كانت منطقة تصيّد للروس، على الأقل منذ أن قامت موسكو بغزو إمبراطورية نوفغورود في العام 1472. فقد كان الناس هنا من الأهالي الأصليين، كما أن اتصالهم مع الروس، رغم أنه بدأ قبل السيبيريين الآخرين بقرن، كان من النمط نفسه بصورة جوهرية. وقد تم تجاهلهم بشكل أساسي.

ولم تأتِ إستونيا وليفونيا إلا بعد ذلك بكثير. وجلبتا معهما كمية كبيرة من التجربة الأوروبية من المستعمرين الألمان الذين كانوا قد احتلوهما في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، فقد تم انتزاعهما من السيطرة السويدية على يد جالب الحداثة القيصر الروسي بطرس الأول (بطرس الأكبر) في العام 1721، كجزء من حملته المستمرة الطويلة للحصول لروسيا على وصول آمن إلى بحر البلطيق. وعلى مبعدة إلى الجنوب تم الحصول على ليتوانيا ولاتفيا إلى جانب بولندا في العام 1795؛ وعلى مبعدة إلى الشمال، قام الإسكندر الأول بضم فنلندا في العام 1809، وفق شروط مؤاتية جداً للفنلنديين بعد حرب ناجحة أخرى ضد السويديين.

ومن بين هذه المناطق، فإن تغلغل المهاجرين الروس واللغة الروسية كان هاماً في مناطق البلطيق فقط، وخاصة في إستونيا ولاتفيا. ولكن التأثير الألماني هنا، على العكس، ظل قوياً جداً، بل إن تركيب القوة التقليدي "لمنظمات الفروسية" الناطقة بالألمانية قد بقي ثابتاً كمستوىً متوسط من الحكومة حتى قيام ثورة العام 1917. فإلى هذا الحد ظل "الفرسان" الألمان موالين للقيصر. ولكن تحمّل هذا الصمود غير الروسي بدأ يتضاءل بالفعل في أواخر القرن التاسع عشر؛ فقد تم إدخال الروسية في الإدارة والمحاكم في ثمانينيات ذلك القرن، وتشجيع مدارس اللغة الألمانية، مع محاولة لجعل اللغة إلزامية في كل المستويات عدا المستوى التمهيدي. وفي العام 1893، تم تحويل جامعة دوربات، في تارتو، إلى يوريف، كمؤسسة للغة الروسية بشكل صارم. ولكن في العام 1899، عندما حاول القيصر التالي، نيقولا الثاني، أن يتخذ إجراءات لغوية مماثلة في فنلندا، كانت هناك مقاطعة عامة للمؤسسات الروسية. وفي العام 1904 اغتيل الحاكم العام الروسي. وبما أن روسيا كانت في حرب مع اليابان آنذاك، فقد اختارت سبيل السلامة، وأعادت إلى الفنلنديين حرية استعمال لغتهم كما هي مكفولة بالدستور الذي كان الروس أنفسهم قد أعطوه إياه.

وكان الدافع وراء استيلاء الروس على المناطق البلطيقية هو حاجتهم إلى الوصول إلى منفذ للتجارة. وقد أدى هذا الدافع كذلك دوراً في بدايات اندفاع

روسيا إلى الجنوب، ولكن ذلك الاندفاع لا يمكن وصفه بأنه اعتداء سافر، لأن الغارات إلى داخل أرضهم على يد آخر الخانات الأتراك، تتر شبه جزيرة القرم، كانت مستمرة منذ القرن السادس عشر. وقد نمت قوة الروس في القرن السابع عشر، حتى شعروا بأنهم قادرون على عمل شيء ما، ولكن الأمر استغرق قرناً آخر من المحاولات حتى تمكنت كاترين الكبرى أخيراً من قمع التتر ودحرهم وتدمير مملكتهم في العام 1783. وبعد ذلك تمكنت في العام 1792 من تأسيس ميناء روسيا الرئيسي على المياه الدافئة، في أوديسا على البحر الأسود. وسرعان ما اكتسبت هذه المنطقة طابعاً روسياً إلى حد كبير، باستمرار هجرة الروس إليها، وخروج التتر منها، على نطاق واسع كثيف. فذهب معظم التتر إلى الغرب والجنوب، إلى داخل الإمبراطورية العثمانية، التي كانت ما تزال تطوق معظم سواحل البحر الأسود(*).

ولكن في انتشار إمبراطورية روسيا إلى الجنوب، كانت هذه الدرجة من تغلغل اللغة الروسية استثنائية. وكان السبب الأكبر لتمدد الروسية في هذا الاتجاه هو التحالف الغريب مع جورجيا.

وفي جنوب جبال القفقاس، كان الشعبان المسيحيان في جورجيا وأرمينيا، وكل منهما متميز بوضوح تام بلغته الفريدة من نوعها، يواجهان إمبراطوريتين إسلاميتين إلى الجنوب منهما، وهم العثمانيون والفرس. وفي السنة ذاتها التي تغلبت فيها كاترين الكبرى على تتر القرم، أقنعت إيراكلي ملك إمارة كارتلينا - كاخيتيا في جورجيا الشرقية بالدخول في معاهدة جورجيفيسك، حيث تضمن روسيا بموجبها وحدة أراضي جورجيا ضد أعدائها (المسلمين) في مقابل سيطرتها على سياستها الخارجية. كانت جورجيا تعتبر منطقة عازلة مفيدة على حافة الجنوب المسلم. وماتت كاترين في العام 1796، ولكنها هي وخلفاءها فسروا المعاهدة من جانب واحد إلى أقصى حد: فلم يساعدوا الجورجيين ضد

(*) وبعد ذلك بكثير، في العام 1944، وفي أعقاب الفظائع النازية في المنطقة، أبعد ستالين المئة والتسعين ألفاً الباقين من تتر القرم إلى آسيا الوسطى بصورة جماعية. وفي تسعينيات القرن العشرين عاد خمسون ألفاً منهم (دالبي 1998، ص 616).

الغزو الفارسي في العام 1795، ولكنهم شرعوا منذ العام 1801 إلى العام 1806 في ضم كارتلينا ـ كاخيتيا أولاً، ثم جميع الإمارات الجورجية الأخرى، فوحدوها وبذلك عززوا قوتها، ولكن كمقاطعة روسية. وشنوا الحرب على فارس نفسها أيضاً، فضموا إليهم إقليم أذربيجان المجاور (الناطق بالتركية) في العام 1805. وصار الأرمن كذلك أعضاءً متحمسين في الإمبراطورية الروسية، وخاصة عندما دحرت روسيا الفرس والعثمانيين معاً وضمت مقاطعة يريفان الأرمنية (1828) واحتلت لوقت قصير الربع الشمالي الشرقي من أناضوليا (1829). وقد ضمن هذا تدفقاً كثيفاً من الأرمن إلى جميع أجزاء القفقاس، ولكن خصوصاً إلى منطقة ناغورنو ـ كاراباغ في أذربيجان.

وقد يبدو أن هذه التدخلات كانت غير مفيدة استراتيجياً، لأن سلسلة جبال القفقاس كانت إحدى الحدود الطبيعية القليلة التي تملكها سهوب روسيا. أما عندئذ فإن روسيا كانت تقدم رهائن مجانية للحظوظ والأقدار فيما وراءها. ولكن الاستراتيجيين الروس، المعتادين على الدفاع عن سهول لا حدود لها، كانوا على ما يظهر سعداء بأن تكون لهم سياسة للاندفاع إلى الأمام فقط. وقد علق الجنرال روستيسلاف فادييف في العام 1860 قائلاً: ’إذا انتهت آفاق روسيا على قمم سلسلة القفقاس المثلوجة، فإن النصف الغربي من القارة الآسيوية بكامله سيكون خارج منطقة نفوذنا، وبما أن تركيا وفارس عقيمتان الآن، فإن هذا النصف لن ينتظر سيداً آخر لزمن طويل‘[48].

وكان ثمن تلك المقاطعات عبر قفقاسيا هو ’حروب الستين عاماً القفقاسية‘، الذي كان عنوان كتاب الجنرال فادييف. وكان المطلوب لا يقل عن الغزو الروسي لسلسلة الجبال كلها، فقط لضمان وصولها إلى الجنوب المسيحي. فكان القتال مريراً على نحو خاص من أجل الحصول على ميزة دينية: فقد كانت المنطقة كلها تقريباً إسلامية (وبقيت كذلك). ولقد تحقق الغزو، ولكن من خلال وحشية هائلة. وإن الصراعات الحالية في الشيشان تبين أن كثيراً من فورات الغضب هناك لم تهدأ بعد مئة وخمسين عاماً.

وأصبحت الروسية لغة الإدارة والتعليم في كل هذه المقاطعات ـ وبالطبع

ليست لغة الكنيسة أو المسجد. ولكنها على وجه العموم لم تقتلع لغات الأهالي الأصلية في المنطقة، التي هي واحدة من أكثر المناطق اللغوية تنوعاً في العالم. وهذا ينطبق على الشعوب الجبلية في الشمال كما ينطبق على الجورجيين والأرمن المفرطي الثقافة والصقل في الجنوب. وقد طور الآذريون في مجتمعهم أيضاً لغة أدبية خاصة بهم. ولم تكسب الحكومة الروسية أصدقاء، وخاصة في أواخر القرن التاسع عشر، في محاولتها لجعل السكان روسيين أكثر وذلك بقيامها - على سبيل المثال - بإغلاق مدارس الأبرشيات الأرمنية، وإحلال مدارس روسية محلها في العام 1885، ثم إلغاء هذا الأمر فيما بعد. والآن، عندما استقلت جورجيا وأرمينيا وأذربيجان بعد قرنين، يمكن أن نرى أن تغلغل الروسية (بقياسه حسب النسبة المئوية لعدد الناطقين بها كلغة أولى) قد ظل منخفضاً جداً. فهم في أرمينيا 2 بالمئة؛ وفي جورجيا 7 بالمئة، وفي أذربيجان 6 بالمئة[49].

أما قصة توسّع الروسية في آسيا الوسطى الإسلامية فيمكن سردها باختصار، لأنها في ذلك الوقت كانت قد صاغت نفسها بقوالب تشبه قوالب القوى الأوروبية الكبرى الأخرى، بالحرص على ضمان أعلى درجة ممكنة من السيطرة ضمن 'مناطق نفوذها'. فهذه المنطقة الشاسعة التي كانت دائماً ذات أغلبية إسلامية ساحقة يبدو أنها كانت ذات مكانة مختلفة أبعد من أي جزء آخر من الإمبراطورية: فكان الروس يسمون سكانها 'غرباء'. وإن غزو أراضي سهوب قازاخستان(*)، الذي بدأ في عهد كاترين الكبرى في أواخر القرن الثامن عشر، استكمل في العام 1848: وبذلك تم فتحها للمستوطنين، على غرار نموذج الغرب الأمريكي الذي كان يجري استعماره في الوقت ذاته.

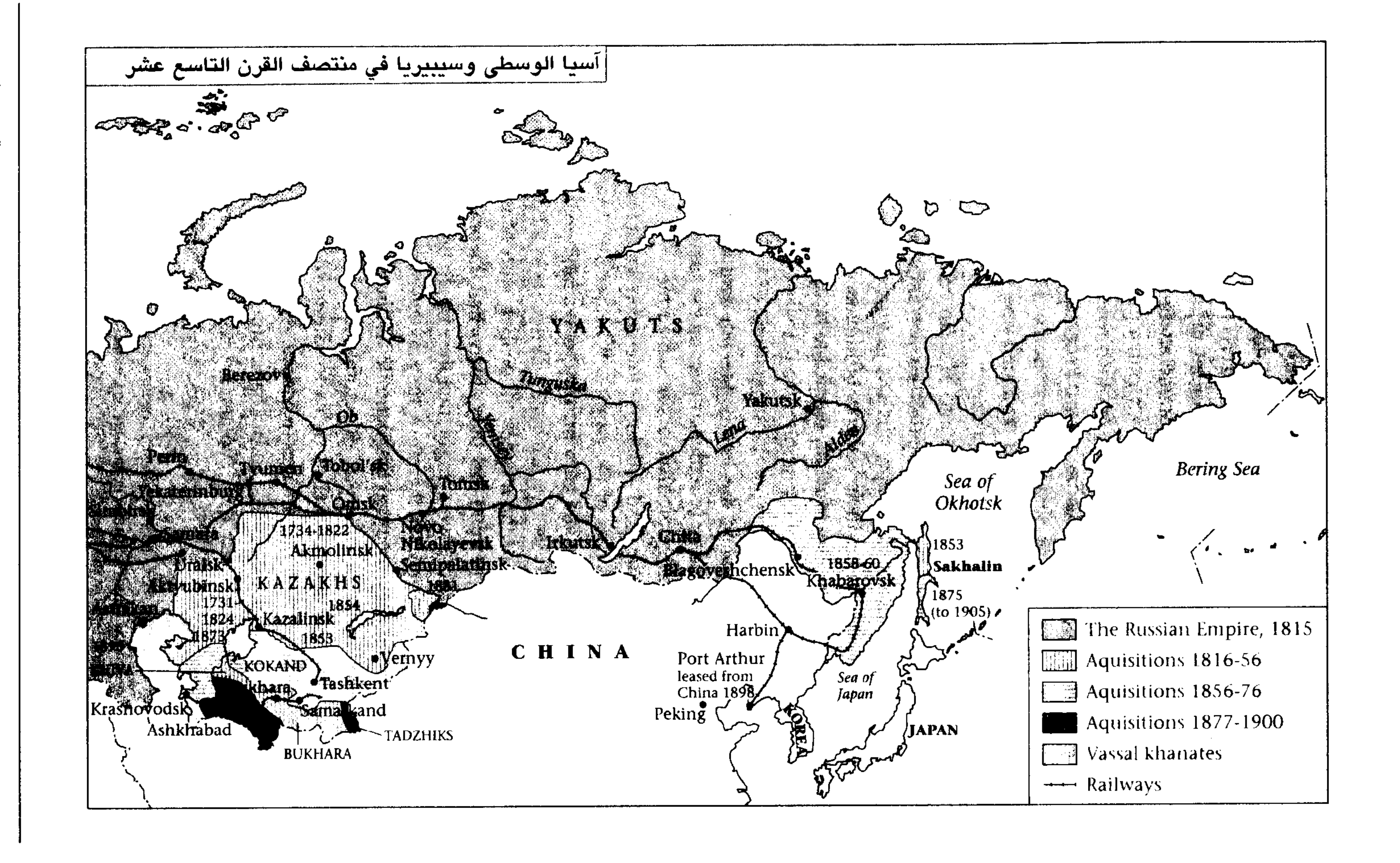
ومن حيث المبدأ، فإن التسامح اللغوي (والديني) كان من ملامح النهج الروسي إزاء هذا الجزء من الإمبراطورية. وسواء قبل التتر العقيدة النصرانية (فقد كان الإنجيل وتعليمات عقيدته الشفهية متوفراً باللغة التترية في العام

(*) إن كلمة قازاق لها الأصل التاريخي اللغوي نفسه لكلمة قوزاق التركية؛ ولكنها تشير هنا إلى قبيلة تركية حقيقية من البدو الرحّل، الذين لهم علاقة وثيقة مع القرغيز.

1803)، أم ظلوا مسلمين، فإن التترية (أي لغة جغطاي التركية) قد تم الأخذ بها كلغة للإدارة في السهوب. وفي التعامل مع البدو المسلمين المتنقلين، كان على الروس أن يبقوا في أذهانهم أن لهؤلاء دائماً خيار نقل مخيماتهم عبر الحدود، أو خياراً آخر يسبب قلقاً أكبر، وهو أن يتحولوا إلى طابور خامس للعثمانيين. ولذلك فإن الروس بصورة عامة بذلوا جهداً لتقديم خيار جذاب لهم إذا قبلوا الحكم الروسي. وإن قانون المجمع الكنسي المقدس للعام 1773، في عهد كاترين الثانية، أسس مديرية دينية للمسلمين في روسيا، هي دار الإفتاء. كما أعطت حقوق مرور للمسلمين السنة الذين يريدون تجنب المرور بإيران في طريقهم للحج إلى مكة، بل إنها مولت مدرسة دينية إسلامية في بخارى. وكان المسلمون يدخلون الأكاديميات والكليات العسكرية الروسية، ولهم أفواجهم الخاصة بهم (من المتطوعين)، بل كانوا يخدمون كضباط في الأفواج الروسية العادية. وكان هذا شيئاً مختلفاً جداً عن الممارسة المعاصرة له في الإمبراطورية البريطانية أو الفرنسية[50].

ولكن برغم هذا كله، فإن السهوب اكتسبت الطابع الروسي بشكل فعال. وكانت واقعة المستوطنين الأوروبيين هي التي غيرت الصورة اللغوية في الحقيقة، فقد كانت النسبة 20 بالمئة في العام 1887، و40 بالمئة في العام 1911، و47 بالمئة في العام 1939[51]. كما أن سياسة الأرض البكر التي اتبعها خروتشيف في خمسينيات القرن العشرين أضافت إلى الناطقين بالروسية مليوناً ونصف مليون نسمة (إن عدد الناطقين الأصليين باللغة الروسية في قازاخستان هو الآن 6.23 ملايين، أي 38 بالمئة)[52].

وفي العام 1854، اندحرت روسيا في القرم على أيدي نظرائها الإمبراطوريين، بريطانيا، وفرنسا، والعثمانيين. ولعل روسيا كانت تبحث عن شيء من العزاء، فانطلقت لغزو آسيا الوسطى، إلى الجنوب تماماً من سهوب قازاخستان، إذ إن الحروب الاستعمارية ضد الأهالي الذين لا يملكون أسلحة حديثة كان كسبها أسهل بكثير، كما أنه مشجع للأوروبيين، كما يظهر لنا من النص المقتبس عن دوستويفسكي في أول هذا الفصل.



آسيا الوسطى وسيبيريا في منتصف القرن التاسع عشر

وكانت القوى الرئيسية الباقية في هذه المنطقة هي إمارات خيفا، وبخارى، وكوكاند. ورغم المزايا التقنية التي كان الغزاة يتفوقون بها على الأهالي، فإن الحرب استغرقت اثنين وعشرين عاماً، وانتهت في العام 1876. فتم ضم كوكاند في الشرق، ولكن الإمارتين الأخريين، بخارى التي تضم سمرقند الأسطورية، وخيفا على شاطئ بحر قزوين، تركتا كقوتين تابعتين. وتم إيجاد 'تركستان' كظرف ريفي محلي للحفاظ على المكتسبات الجديدة. وصار الهم الرئيسي لروسيا هو تنمية زراعة القطن الكثيفة في وادي فرغانة، فاجتذب هذا أعداداً كبيرة من المستوطنين إلى المنطقة، التي هي جزء من أوزبكستان الحديثة. ومع ذلك، فإن الاستيطان في هذه المناطق لم يصل أبداً إلى مستويات تشبه ما وصل إليه في سهوب الشمال. فالدول الحديثة المتناظرة، وهي (من الغرب إلى الشرق) تركمانستان، وأوزبكستان، وطاجكستان، وقرغيزستان [كيرجستان]، وسكانها 39 مليوناً، ليس بينهم سوى تسعة بالمئة من الناطقين الأصليين بالروسية[53].

حالة اللغة الروسية

بهذا يكتمل عرضنا لكيفية نشر إمبراطورية القيصر للغة الروسية. ويبقى النظر في سبب عدم تحولها أبداً إلى لغة النفوذ والهيبة: لماذا لم تصبح رمزاً لتطلع الشعوب المغزوّة إلى المشاركة في مستقبل عالمي متغرب كاللغات الإمبراطورية الأخرى التي رسخت نفسها بعيداً عن أوروبا. لقد انحلت الآن كل إمبراطوريات القرن التاسع عشر الأوروبية: ولكن لغاتها لا تزال مستعملة على نطاق عالمي. فلماذا بقيت الروسية وحدها من بين أعلى اللغات العشر الحالية هي المعرضة لفقدان الناطقين بها في القرن الحادي والعشرين؟

لقد كانت هناك أهمية حاسمة لأربع مؤسسات كبرى في الإمبراطورية الروسية لنشر لغتها فيما وراء موطنها في شمال شرق أوروبا. وهي الكنيسة الأرثوذكسية، والجيش، وبيروقراطية الدولة، والنخبة المثقفة الفكرية. وكلها لا تزال موجودة بشكل ما، ولكن في مطلع القرن الحادي والعشرين لا يبدو من المحتمل أن يظل لأي منها نشاط حيوي كقوى مسيطرة أو كمصادر للإلهام على مستوى عالمي.

فالكنيسة ربطت نفسها منذ وقت مبكر بلغتها المحلية، المعروفة الآن باسم السلافونية الكنسية القديمة، ولكن كان هناك دائماً شعور بأنها روسية في نسخة محترمة لائقة. ولكن حتى في وسط إصلاحات طقوسية كبرى، كان بوسع مؤيد للأساليب القديمة أن يكتب للقيصر: 'قل بلغة روسية جيدة "يا رب ارحمني"، واترك رطانة كيري إليزون للإغريق، فتلك لغتهم. ابصق عليهم! فأنت روسي يا أليكسي، ولست يونانياً. تكلم بلغتك الأم ولا تخجل منها، سواء في الكنيسة أم في البيت!'[54]. وتعطي قبابها البارزة الارتفاع فوق أكواخها أكبر الرموز المتميزة لروسيا مع انتشار ممتلكاتها عبر سيبيريا. وقد بقيت مدارس الكنيسة هي المصدر الرئيسي لمعرفة القراءة والكتابة بالروسية زمناً طويلاً من القرن الثامن عشر. ولكنها لم تُشْفَ أبداً من إصلاحات 'المجمع المقدّس' التي أدخلها بطرس الأكبر في العام 1721، عندما جعل نفسه حامي الكنيسة الأعلى، فألغى ديمقراطيتها الداخلية، من الأبرشيات فصاعداً، وبذلك جعلها ذراعاً للدولة بشكل فعال. وبذلك فإن القيصر والكنيسة، رغم تبادلهما الدعم، أصبحا منقطعين تماماً عن القواعد الشعبية للمجتمع الروسي، وعاجزين بشكل متزايد عن تحمل مخاطر أي مشاركة شعبية. وقد ظهر مثال له دلالة في أعقاب غزو نابليون لروسيا في العام 1812، عندما فضل القيصر المصلح ألكساندر الأول تأسيس جمعية إنجيلية إمبراطورية روسية، كفرع من الجمعية البريطانية للأناجيل الأجنبية: وتم وضع خطة لنشر الأناجيل بلغات متعددة. ولكن المشروع لم ينجح في اقتراح توزيع الإنجيل بكلام بسيط، أي بلغة روسية عادية. وتم تصوير المبشرين بذلك على أنهم 'وكلاء نابليون السريون' الذين يقوضون الاحترام الذي تستحقه كلمة الله. وفي العام 1821، أحرقت الأناجيل الروسية بأمر المجمع المقدس(*).

وكان الجيش مؤسسة أخرى قامت بطبيعتها بنشر الروسية بشكل عريض وبعيد. وكان ذلك متميزاً بين المتنافسين الإمبراطوريين على وحدته العرقية

(*) كان الإنجيل في الحقيقة متوفراً بالكالميكية والتترية (هذا إذا لم نذكر الفنلندية والإستونية، واللاتفية، والليتوانية، والبولندية، والأرمنية، والجورجية) قبل نصف قرن من ظهوره بالروسية. ولم يكن من الممكن السماح بنشر الإنجيل الروسي حتى العام 1876، عندما تصادف ذلك بعد الطبعة الروسية الأولى من كتاب كارل ماركس "رأس المال" (هوسكنغ 1997، ص 138 - 142، 233 - 234).

واللغوية. فبالنسبة للجنة العسكرية في العام 1762 ـ 1763 ’كانت قوة الجيش تتكون، بصورة أساسية قبل كل شيء، من وجود لغة، ودين، وعادات، ودماء مشتركة‘. وبعد ذلك بمئة عام، أكد المعلقون العسكريون الروس في حرب العام 1859 وحرب العام 1866 على الروسية النقية لجيشهم، بعكس خليط الأعراق واللغات عند النمسويين، وفي ذلك الحين، كان 90 بالمئة من الجنود من منطقة موطنهم روسيا، وروسيا البيضاء، وأوكرانيا، وكان معظم المسلمين معفيين من الخدمة العسكرية[55]. غير أن النقاء العرقي للقوة قد انتقص من تأثير اللغة الوحيدة بطريقةٍ ما: فلو كان المزيد من غير الروس قد أرغموا على الانضمام إلى الجيش، لكان المزيد منهم قد اضطروا إلى تعلم الروسية. ذلك أنه لم يكن هناك مجال كبير للمحاربين الروس القدامى للعودة إلى الحياة المدنية بعد قضاء خمسة وعشرين عاماً أو أكثر في الخدمة العسكرية، لأن الأمر سينتهي بهم في المدن كسائقي عربات، أو خدم محليين، أو معلمي مدارس[56]. وبهذه الطريقة فإنهم أقل قدرة من جنود روما القديمة المتقاعدين مثلاً على بذر بذور انتشار لغتهم.

أما البيروقراطية، الذراع المرئية لحكومة القيصر، فقد كانت في كل مكان طبعاً. ولكن تأثيرها في مجال نشر الخطاب الروسي كان أقل مما يمكن توقعه. فقد كانت مستوياتها العليا مليئة بشكل غير متناسب بالناطقين بالألمانية من البلطيق (الذين كانت نسبتهم تصل إلى عشرين بالمئة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر)، منذ أن أدرك بطرس الأكبر قدرتهم الخاصة المحتملة على تنفيذ إصلاحاته[57]. ولا بد أن المجال الأدنى لمهمات البيروقراطية قد حدَّ من دورها وتفاعلها مع المجتمع، فقد اقتصرت تلك المهمات على جباية ضريبة الرؤوس، وتجنيد العسكر.

وأخيراً، كانت هناك النخبة الفكرية. وبمعنىً ما، فقد كانت هذه المجموعة وحدها هي التي وضعت الروسية على الخريطة الثقافية العالمية، بالازدهار الأدبي الذي حققته في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وكان بطرس الأكبر هو الذي أشعل شرارة هذا الازدهار بإصلاحاته الهادفة إلى إيجاد روسيا دنيوية

علمانية، مستلهماً مما رآه في زياراته لبريطانيا، وقبل كل شيء لألمانيا. وكان ميخائيل لومونوسوف (1711 ـ 1775)، أعظم أستاذ باحث في هذه الفترة، قد تمكن من رفع نفسه من بين صفوف عائلة من صيادي السمك في أركانجل، يجمع بين الكيمياء واللغويات. وقد بدأ بمهمة تحديد لغة أدبية روسية، التي ستدمج الاستعارات الأجنبية مع الكلام العامي الدارج في الأسلوب الثقيل الموروث عن اللغة السلافونية الكنسية. وفي العام 1783 تأسست أكاديمية روسية على غرار نموذج الأكاديمية الفرنسية، فقامت بتجميع معجم كبير فيما بين العامين 1789 و1794، وحددت قواعد نحوية روسية تم طبعها في العام 1802. وكما رأينا عند النظر في تاريخ اللغة الفرنسية، فقد ظل التأثير الأجنبي قوياً في الحياة الاجتماعية للنخبة الروسية، ورغم ذلك، فإن جيل المؤلفين الروس الحديثي التثقيف نهض لمواجهة التحدي للغتهم الجديدة، فشملوا بوشكين، وغوغول، وتولستوي، ودستويفسكي، وتورجنيف، وهؤلاء هم الأشهر فقط. وقد أخذوا على محمل الجد مهمة تحديد ما يستطيع الأدب الروسي أن يفعله لروسيا وللعالم. وكان أشهر ما في ذلك أن تورجنيف ودستويفسكي عادا بعرض أفكارهما إلى بوشكين في الاحتفالات بذكراه في العام 1880: فقال تورجنيف إن بوشكين كان يتحدث إلى النخبة المثقفة التي أوجدتها إصلاحات بطرس، ولكن الشعب الروسي سوف يتفتح وعيه عن طريق تعلم كيفية قراءته. ورد دستويفسكي بأن بوشكين كان فيه شيء متأصل (وفريد من نوعه) يثير إعجاباً عالمياً، وهو شيء يعطي روسيا ميزة هائلة، 'فتحول المرء إلى روسي أصيل يعني محاولة التوفيق بين نقائض أوروبا، وجعل الروح الروسية الإنسانية الشاملة الحاضنة لكل شيء تقدم لأوروبا خلاصاً من معاناتها'[58].

وبطريقة مذهلة، نجح الكتّاب الروس في الوصول إلى جمهور في جميع أنحاء أوروبا، ولو كان ذلك بين نخبة تورجنيف أكثر مما هو في صفوف جماهير دستويفسكي من عامة الناس. ولكن إدراك تطلعاتهم الكونية في وطنهم كانت تحد منه القاعدة الفكرية الشديدة الضيق ضمن روسيا نفسها، المنفصلة تقريباً عن أكثرية الشعب الساحقة. ففي أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر لم يكن التعليم

العام بين سكان روسيا يزيد على عشرة بالمئة، رغم أنه تزايد بسرعة بعد ذلك حتى وصل إلى ثلاثين بالمئة بين الذين تقل أعمارهم عن الخمسين عاماً عند نهاية ذلك القرن[59]. وبالطبع فإن الذين كانوا يعرفون القراءة لم يكونوا يتذوقون أعلى الأعمال، بل كانوا يفضلون قصص المغامرات، والغراميات الخيالية وأبراج الحظ[60].

ولكن المثقفين الروس لم يبذلوا أي جهد ليفسحوا مجالاً ضمن أهدافهم المثالية للجموع الآسيوية التي أجهدت قواتهم المسلحة نفسها طويلاً، وبصورة دامية، لضمها إلى ممتلكات القيصر. فمن غزوات إيفان الرهيب لقازان حتى أوائل القرن التاسع عشر، كان النبلاء الأجانب يحظون بالاعتراف ويحصلون على حقوق للملكية ضمن النظام الروسي عند إخضاعه أراضيهم؛ ولم تبذل أي محاولة أبداً لإشراكهم فعلياً في المجال الثقافي. وبين الحين والآخر، كان المثقفون من تقاليدهم نفسها، ممن استطاعوا الحصول على ثقافة غربية، يحاولون أن يدبروا تسوية توفيقية. وأفضل مثال على ذلك هو المربّي التتري من شبه جزيرة القرم، إسماعيل بيه غاسبيرالي (الذي تبنى اسم غاسبرينسكي). فقد تعلم أولاً في مدرسة القرية (وهي مدرسة دينية إسلامية)، ثم ذهب إلى سانت بطرسبرغ ليتعلم الروسية، وإلى باريس ليتعلم الفرنسية. وبعد أن أمضى أربع سنوات في اسطنبول (1871 ـ 1875)، عاد إلى شبه جزيرة القرم مقتنعاً بأن مسلمي روسيا يجب أن يقاربوا الحداثة عن طريق الروسية. فألف أول كتبه العامة: "الإسلام الروسي"، وتولى طويلاً تحرير مجلة "المترجم" (باللغتين التترية والروسية). ولم تكن آراؤه السلمية تلقى قبولاً سهلاً في مجتمع تتر القرم. ولكن عند حلول العام 1905، كانت مجموعته قد نجحت في إقامة 350 مدرسة ثنائية اللغة بالروسية والتترية. وكان لرد الفعل الروسي على ذلك دلالة كاشفة. فبدلاً من تشجيع عملية بناء الجسور هذه على يد حليف محتمل، فإن السلطات الروسية رفضت السماح لغاسبرالي أن يجمع مؤتمراً كله من المسلمين، بل عملت على تقليص المشاركة السياسية لغير الروس (وكذلك للعمال والفلاحين)، واقترحوا قانوناً انتخابياً لمجلس الدوما الثاني (البرلمان) في العام 1907، يبدأ

بديباجة تقول: 'إن مجلس دوما الدولة، الذي أوجد لتقوية الدولة الروسية، يجب أن يكون روسياً في روحه كذلك'. وهكذا لم يحرز غاسبرالي مزيداً من التقدم[61].

إن ما كان ينقص روسيا قبل كل شيء هو البرجوازية: طبقة من التجار والحرفيين ذوي المكانة والموارد المستقلة تستطيع أن تعمل كحلقة وصل للحركة الاجتماعية وتدفق الدخل معاً بين الطبقة الحكومية والعاملين على الأرض. فالتجارة والتنمية الصناعية على نطاق واسع نادراً ما اضطلع بها الروس في فترة ما قبل الثورة؛ والطبقات الصغيرة لم تؤسس أي نقابات أو روابط مهنية. فظلت روسيا كياناً سياسياً تسيطر عليه سلطات القيصر الاستبدادية وغير المحدودة من حيث المبدأ. فكانت النتائج اللغوية لذلك أن اللغة الروسية لم تطور في أي مكان قاعدة قوية في مجتمع له تطلعات ونفوذ مؤثر.

باختصار، وحتى القرن العشرين على الأقل، فإن روسيا لم تكن موحدة رغم وحدتها السياسية والعسكرية في ظل حكومة القيصر بل لم تكن تنمو معاً كمجتمع لغوي. ففي مقاطعات البلطيق في الشمال الشرقي، وفي الأراضي الإسلامية في الجنوب، فإن اللغة الروسية ببساطة لم تتغلغل إلى أبعد من مرتبة المستوطنين، والعدد الصغير من الإداريين.

التجربة السوفييتية

تركز هذا السرد عن انتشار الروسية على إمبراطورية القيصر، لأن الثورة الروسية في العام 1917 والفترة السوفييتية التي تلتها لم يكن لها تأثير صافٍ يذكر على الوضع اللغوي. وعلى الرغم من التوقعات المبكرة، ومحاولات الانفصال في جميع المناطق غير الناطقة بالروسية (بما فيها روسيا البيضاء وأوكرانيا)، فإن الحكومة الجديدة أثبتت قدرتها على تأكيد سيطرتها في كل مكان. واستطاعت فنلندا بقوة السلاح أن تفصل نفسها بصورة دائمة، وأما الدول البلطيقية الأخرى التي أمضت فترة وجيزة من الاستقلال في عشرينيات القرن

العشرين وثلاثينياته، فقد وجدت نفسها تعود إلى السيطرة الروسية. وعادت باقي أجزاء الإمبراطورية كلها إلى الحظيرة بحلول العام 1922.

وكان الشيء الذي تغيّر فعلاً تحت حكم السوفييت هو السياسة اللغوية. فبينما كانت سياسة القياصرة، حتى في آخر عقود حكمهم كما رأينا، هي 'تقوية الدولة الروسية، وإبقاءها روسية في روحها'، فإن السياسة السوفييتية الرسمية للاتحاد كانت على طرف النقيض من ذلك تقريباً. فمن حيث المبدأ كانت جميع شعوب الاتحاد متساوية، فلن تكون هناك لغة رسمية. وعلاوة على ذلك كان للجميع الحق، ليس فقط في استخدام لغتهم الخاصة بهم، بل للتعليم بها أيضاً. وبقيت الروسية بوضوح هي الخيار الوحيد للاتصال بين أجزاء الاتحاد المختلفة. وكان الشيء الذي لم يتغير بعد الثورة هو السيطرة المركزية على البلد ككل.

كانت السياسة العملية الفورية هي تعليم الناس القراءة والكتابة بشكل جماعي كثيف. وكانت هذه العملية قد بدأت تحت حكم القياصرة، ولكن استمرارها نجح بزهو، كما أظهرت الإحصائيات. ففي العام 1897، كان 28.4 بالمئة ممن هم بين التاسعة والتاسعة والأربعين من العمر قادرين على القراءة؛ وفي العام 1920 ارتفع الرقم إلى 44.1 بالمئة، وبحلول العام 1926 كان قد وصل إلى 56.6 بالمئة، وفي العام 1939 صار 87.4 بالمئة، وفي العام 1959 أصبح 98.5 بالمئة؛ وفي العام 1970 صار 99.7 بالمئة[62]؛ وبما أن ذلك كان يشمل معرفة القراءة والكتابة بلغات أخرى غير الروسية، فقد كان من الشروط المسبقة الضرورية لذلك تقديم نظام كتابة فعال للغات البلد (فحتى في العام 1970، كان 77.5 بالمئة من السكان يدّعون أن الروسية هي لغتهم الأولى أو الثانية)[63]. فقد تم تبسيط التهجئة الروسية في العام 1918 لتكون أكثر انطباقاً مع اللفظ، وخاصة الحروف التي لم يكن لها لفظ مميّز. كما أعطيت أبجديات للغات الاتحاد الأخرى التي لم يكن لها تقليد كتابي. وفي عشرينيات القرن العشرين كانت تلك الأبجديات مبنية إلى حد كبير على الحروف اللاتينية، لأن ألفباءها كانت متطورة بشكل كامل على أيدي المتخصصين باللفظ. وقد انطوت الأنظمة في الأغلب على مهارة كبيرة للغويين سوفييت في تثبيت المعايير

القياسية الموحدة من بين اللهجات، بالتوازن بين اعتبارات استخدام غالبية الناس وبين الفهم المتبادل وسهولة التحصيل. وبصورة عامة تم تحقيق الاستقرار وإيجاد عشرات من 'اللغات الأدبية'. ثم بدأت طبيعة وضع السلطة السياسية تفرض نفسها بشكل ملموس.

وقد ظل الاتحاد السوفييتي، مثل روسيا الإمبراطورية قبله، محكوماً بثبات من المركز، وبتحديد أكثر من موسكو اعتباراً من العام 1918. ولذا فإن سيطرة الروسية بموجب الأمر الواقع ـ مع التسليم بأنها كانت ممزوجة بقدرة حركية اجتماعية وسياسية أكبر بكثير من ذي قبل ـ بدأت تأخذ أولوية على المساواة النظرية بين الجميع، خاصة عندما صار واضحاً في ثلاثينيات القرن العشرين أن الاتحاد السوفييتي هو وحده الذي أقام نظاماً ثابتاً ماركسي التوجه، وكان محاطاً بالأعداء من جميع الجهات. فبدأت أهمية اللغة الروسية تتخذ طابعاً أكبر، بل ومريحاً أكثر. وفي الثلاثينيات أعلنت جميع القوميات المختلفة طوعاً أو كرهاً (عدا البلطيقيين، والجورجيين، والأرمن، واليديش) أنها تفضل تحويل تهجئاتها إلى نوع من الأبجدية السلافية القديمة المستعملة للغة الروسية. وإن الحقيقة الغريبة لكون حدود العالم الاشتراكي تتطابق مع حدود الإمبراطورية الروسية القديمة تظهر الآن مغمورة بضوء مختلف تماماً. كما قال أحد المدافعين عنها فيما بعد:

> بما أن [الروسية] هي لغة أكثر أمم الاتحاد تطوراً، والتي قادت البلد عبر تحولاته الثورية، وكسبت حب جميع الشعوب الأخرى واحترامها، فإن اللغة الروسية تتحول بصورة طبيعية إلى لغة الاتصال والتعاون لجميع شعوب الدولة الاشتراكية. وقد تحقق ذلك ... بإزاحة الحواجز النفسية السابقة لتحل محلها روابط الصداقة الأخوية، والثقة المتبادلة، والمساعدة المتبادلة(64).

وهكذا أصبحت الروسية في موقع يمكنها من اتخاذ خطوات كبرى. فقد صار التعليم العام لكل الناس حقيقة واقعة، وأدخلت الروسية كموضوع إلزامي في جميع المدارس. وكان من الممكن لها أن تصبح معروفة ومستعملة من قبل

الجميع في كل أنحاء البلد. ولكن ذلك لم يحدث، لسببٍ ما. فكما لاحظنا، ففي العام 1970 كان هناك 22.5 بالمئة من الناس الذين يقولون إنهم لا يتقنونها بصورة فعالة. وسواء عن طريق بقاء المجتمعات التقليدية ـ وخاصة في آسيا الوسطى ـ أم من خلال الحفاظ على السخط من السيطرة الروسية ـ ولا سيما في منطقة البلطيق ـ فقد ظل الكثيرون يستنبطون طرقاً ليعيشوا حياتهم بدون اللغة الروسية.

وعندما انحلّ الاتحاد السوفييتي في 1 كانون الثاني/يناير 1992، انفصلت عنه كل الجمهوريات المكونة له ـ بما فيها أوكرانيا وروسيا البيضاء ـ لتصبح دولاً مستقلة. فتناقصت على الفور إمكانيات بقاء الروسية في التعليم، وبالتالي كلغة مشتركة بين الأجزاء القديمة من الإمبراطورية.

ولكن رغم أنه لم يعد بالإمكان فرض اللغة الروسية عبر امتداد الاتحاد القديم، فقد صارت بشكل محتوم رمزا سياسياً له دلالات مختلفة بحسب التاريخ المحلي. فمن بين دول البلطيق، وضعت لاتفيا وإستونيا اختبارات لغوية لإرغام الروس المقيمين فيها على إثبات كفاءتهم في لغتيهما؛ وهذه الاختبارات غير ضرورية في ليتوانيا، حيث الأقلية الناطقة بالروسية أصغر بكثير(*). وحافظت حكومة روسيا البيضاء على الروسية كلغة للعمل، بعد تحول جذري في السياسة في العام 1995، وصغّرت من شأن لغتها الوطنية نفسها(**). أما الجمهوريات ذات الأقليات الكبيرة الناطقة بالروسية والمقيمة في منطقة واحدة، وخاصة في مولدوفا وقازاخستان، فهي مضطرة إلى أن تكون شديدة الحذر في موازنة مدى قدرتها على التأكيد على لغة الأكثرية. وفي قازاخستان، فإن الروسية معترف بها كلغة للاتصالات الرسمية. ولا تزال هناك نكتة قائمة عن مدى ضعف إتقان

(*) في العام 1994، كان هناك 436,600 روسي في إستونيا، يشكلون 29 بالمئة من مجموع السكان: وفي لاتفيا، كان هناك 849,000 يشكلون 33.1 بالمئة. وفي تلك الأثناء كان السكان الروس في ليتوانيا 316,000، أي 8.5 بالمئة فقط (الكتاب السنوي العالمي لأوروبا، 1995).

(**) أدى استفتاء شعبي أجري في أيار/مايو من العام 1995 إلى منح الروسية مكانة لغة رسمية، إلى جانب الروسية البيضاء. فاللغة الروسية هي لغة التعليم في كل الأقسام الجامعية فعلياً في روسيا البيضاء. وبينما كانت 220 مدرسة في عاصمتها مينسك تدرس بالروسية البيضاء في العام 1994، فبعد عامين فقط كانت أقل من عشرين مدرسة فقط تفعل ذلك.

الساسة للغتهم القازاخية. وعلى عكس ذلك ففي آسيا الوسطى تم إحياء استخدام اللغات الوطنية ـ وتضاءلت الروسية ـ بين الطبقات السياسية التي كانت من أكبر الناطقين بالروسية تكاثراً قبل الاستقلال[65]. فهنا، كما في البلطيق، يتنامى استخدام الإنكليزية كلغة ثانية(*). وفقط في سيبيريا، أقدم مستعمرة روسية، يمكن القول بأن استخدام الروسية آمن، وربما لا يزال يكسب ناطقين بها. ومن المحزن أن سبب ذلك هو كون مجتمعات اللغات الأصلية هناك مهددة بالانقراض، وطريقة حياتهم التقليدية قد مزقها وجود أعداد كبيرة من الروس الأوروبيين بينهم. فصارت تلك المجتمعات صغيرة جداً، ومنعزلة جداً، وضعيفة جداً بحيث لا تستطيع أن تتصور أي مستقبل سوى التعاون مع الروس .

وفي كل مكان، فإن أهمية استخدام الروسية كرمز للمشاعر حول ماضيها السوفييتي، وحول تطلعات المستقبل، أكبر من أهمية اختيارها عملياً كوسيلة اتصال مع الجيران. فالروسية، حتى بعد سقوط الشيوعية، تظل لغة عقائدية إلى حد كبير.

استنتاجات

هناك أربعة أسباب رئيسية تجعل لغة إمبراطورية تتابع العيش بعد انحلال الإمبراطورية التي نشرتها.

السبب الأول هو أنها تبقى لغة الناس الذين حلوا الإمبراطورية. وهذا يمكن تسميته "التهجين". وهو ينطبق على جميع المستعمرات الأمريكية التي قاتلت ونالت استقلالها من بلدانها الأم في أوروبا. وفي كل حالة، في مستعمرات بريطانيا العظمى الثلاث عشرة، وفي المكسيك، وفي جمهوريات أمريكا الوسطى والجنوبية، وفي مملكة البرازيل، فإن الناس الذين قاموا بالثورات لم يكونوا هم

(*) قامت كل من تركمانستان، وأوزبكستان، وأذربيجان، الناطقة بلغات تركية، بتحويل أبجديتها من السلافية القديمة إلى اللاتينية في السنوات العشر التي أعقبت استقلالها، وذلك بكلفة باهظة، ولكن بمغزى رمزي مشكوك في قيمته. ولكن لكل منها نظاماً مختلفاً قليلاً، ولم تأخذ أي واحدة منها بتقاليد التهجئة التركية المعمول بها منذ العام 1928.

الأهالي الأصليين، بل المتحدرين من نسل المستعمرين الأوروبيين، الذين كانوا متعلقين باللغة العالمية في العاصمة كتعلق البلد الأم نفسه. وبالمثل فقد تم الاحتفاظ بلغة الأفريكان في جنوب إفريقيا، وبالفرنسية في كندا والجزائر. وبمعنى ما، فإن مجتمعات المستوطنين اللغوية استمرت سليمة بلا تفتيت.

والسبب الثاني هو أن البلدان الحديثة الاستقلال تريد الحفاظ على علاقة من التجارة أو الثقافة، وربما حتى الدفاع مع القوة العالمية المستعمرة. ويمكن تسمية هذا السبب "الحنين إلى الماضي". وهو جزء من السبب الذي جعل الفرنسية تتشبث بالبقاء في إفريقيا جنوب الصحراء. ولهذا السبب لا يزال هناك أثر من الإسبانية في الفليبين، ولهذا السبب أيضاً فإن تيمور الشرقية، المستقلة في العام 2003، اختارت أن تستمر فيها البرتغالية، أو بالأحرى أن تبعث بعثاً.

وكثيراً ما يوجد السبب الثاني بالتحالف مع سبب ثالث يمكن تسميته سبب "الوحدة". فالقوة الاستعمارية تفرض حتماً لغة وحيدة على ممتلكاتها فينتهي بها الأمر إلى أن تصبح لغة من الضروري الحفاظ عليها كوحدة متجانسة. وعندما تتغير القوة، فقد تتغير اللغة أيضاً (كما حدث مثلاً عندما حلت الإسبانية محل الناحواتل والقيشوا في ممتلكات مختلفة من الإمبراطورية الإسبانية). ولكن هناك احتمالاً حقيقياً بأن لا تتغير اللغة، وخاصة حيث لا يكون هناك غازٍ جديد، بل تتويج لنضال من أجل الاستقلال. وفي هذه الحالة، قد تبقى اللغة الاستعمارية فترة قصيرة. وهذا سبب آخر لتشبث الفرنسية بالبقاء في كثير من بلدان إفريقيا جنوب الصحراء: فلن يكون من العملي إدارة الكاميرون بأي واحدة من لغات الأهالي الأصلية التي يزيد عددها على 270 لغة. وعلى عكس ذلك فهذا هو السبب الذي جعل الهولنديين، وكذلك الحكومة الإندونيسية التي جاءت بعدهم، يأخذون جميعاً بالملايوية كلغة توحيد لـ 'باهاسا أندونيسيا'.

وهناك سبب رابع، هو سبب "العولمة". فقد يستمر بلد ما في استخدام لغة إمبراطورية، ليس لأنها تقيم علاقة مع قوة إمبراطورية قديمة، ولكن لأنها تقدم وسيلة لتجاوزها. وهذا صحيح على نطاق واسع بالنسبة للبلدان التي تحافظ على الإنكليزية أو تأخذ بها في الفترة الحالية؛ ولكن من الصحيح أيضاً

أن هذا هو الدافع الذي جعل النخبة الروسية تأخذ بالفرنسية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

إن الفشل الظاهر للغة الروسية بالبقاء بقوة حيث لم تعد إمبراطورية الناطقين بها موجودة يمكن النظر فيه بوضوح أكبر على ضوء هذه الأسباب الأربعة.

فسبب التهجين ينطبق على سيبيريا فقط، لأنها على وجه العموم هي المكان الوحيد الذي استقر فيه المستعمرون الروس بأعداد كبيرة كافية لسحق الأهالي الأصليين. وهم يقتربون من هذا النوع من التركيز في إستونيا ولاتفيا، وأقل من ذلك في قازاخستان: ولكن السلطة هناك ـ وبالتالي المستقبل اللغوي ـ بقيت في أيدي السكان السابقين.

والحاجة إلى إبقاء علاقات عاطفية مع الروس على أساس الحنين إلى الماضي ليست واسعة الانتشار في الممتلكات السوفييتية القديمة. فمن المحزن أنه يبدو أن رعاياهم القدامى لا يتذكرون شيئاً يذكر مع العاطفة من قرون طويلة من السلطة الروسية. ولكن هناك استثناءً واحداً: هو روسيا البيضاء، التي تسعى حكومتها إلى التحسين عن طريق علاقات أوثق مع الروس، كما أن حماستها للغة الروسية قوية كذلك.

وعلى وجه العموم، تستطيع الجمهوريات المختلفة أن تحقق وحدة مادية كبيرة ملموسة، كل على أرضها، من خلال استخدام لغتها الخاصة، وليس هناك سبب وحدة للتشبث بالروسية إلا في روسيا نفسها، التي تعتبر مناطقها السيبيرية هي الأكثر تعدداً للغات في الإمبراطورية القديمة. وكما رأينا، فإن المجتمعات اللغوية الصغيرة أضعف من أن تعبّئ مقاومة لقبضة التنظيم الموحِّدة في روسيا.

وأخيراً، بالنسبة للعولمة: إن من المحزن للروس أيضاً في العصر الحالي من الاتصالات العالمية أن من الواضح أن أكثر الصلات ربحاً لا يجب إقامتها مع عمداء الثقافة الروسية ؛ بل إن هناك أراضي تبدو أكثر حرية، ولياقة، وقوة، وقبل كل شيء أكثر غنىً.

غير أن المفارقة هي أن الروسية قد تعود ذات يوم على هذا الأساس بالذات. فكما أظهر القرن التاسع عشر، فإن طبقة المثقفين الروس قادرة على الإقلاع بتحليقات رائعة للخيال؛ وكما أظهر القرن العشرون، فإن علماءهم، عندما يتلقون دعماً مالياً محترماً - حتى وهم تحت سيطرة الدولة المحكمة التي تضع غمامات على عيونهم - هم مساوون لأي علماء آخرين في العالم. فإذا حصلت الثقافة الروسية على حكومة مستقرة ومتحررة أكثر مما عرفته حتى الآن، فإنها قد تنمو إلى صيغة تجعل مستعمرات روسيا القديمة سعيدة باحتضانها ورعايتها هي ولغتها.

* * *

إن استعراضنا السريع لسيرة الحياة اللغوية لمعظم القوى الإمبراطورية الأوروبية قد كشف التنوع المذهل للطرق التي يمكن بها كسب الإمبراطوريات، وممارستها، وفقدانها، مع تحول لغة المستعمر أو بدون تحولها على المدى الطويل. فالنشر الجدي للغة الإسبانية بدأ بعد قرنين من تأسيس إمبراطوريتها. ويبدو أن اللغة البرتغالية كانت تنتشر في المحيط الهندي بشكل يكاد يكون مستقلاً عن تقدم الناطقين بها؛ وفي آخر الأمر، نمت كأقوى ما تكون حيث كانت تملك أقل مجال لموهبتها العظيمة، وهي التجارة. وعلى عكس ذلك فإن اللغة الهولندية لم تكد تنتشر على الإطلاق، رغم أن الهولنديين أنفسهم كانوا أكثر فعالية وأكثر ديمومة كمستعمرين من البرتغاليين. وأما الغزوات الفرنسية فيما وراء البحار فكانت تميل إلى أن تختفي بسرعة تكاد تعادل سرعة بنائها. ولكن الفرنسية كانت تبقى هناك أحياناً، حتى تحت حكم سادة جدد. وكان هناك اتجاه بارز عند الذين تعرضوا مرة للغة الفرنسية للبقاء على اتصال بها بعد طردهم للغزاة. وفي معاكسة أخرى، نشرت الروسية نفسها على مدى خمسمئة عام في كل اتجاه، من سهلها الأوسط في شمال شرق أوروبا بشكل جوهري إلى أن واجهت قوة قادرة على مقاومتها. فحتى العام 1992، كان انتشارها يبدو غير قابل للارتداد إلى الوراء. ومع ذلك فإنها قد أظهرت في العقد الماضي مدى قلة الأصدقاء الذين كسبتهم في كل تلك القرون من التقدم المستقر.

ولكن هناك تحاملاً تبسيطياً يبدو أنه غير قادر على الصمود: فإن أي إمبراطورية أجنبية تميل فعلاً إلى نشر شيء من لغتها. وقد تكون لغة محلية، وليست لغة قوة مسيطرة، كما قدر للغة الملايو أن تسيطر على جزر الهند الشرقية الهولندية. وقد لا تبقى طويلاً بعد مغادرة السيطرة الأجنبية، مثلما تتسرب الروسية بعيداً عن مستعمرات روسيا السابقة. ولكن اللغة المشتركة ضرورة عملية في أرض خضعت لسيطرة مشتركة خارجية. وهذه الضرورة تميل إلى تغذية انتشار اللغة إذا استمرت السيطرة صامدة مع الزمن، مع تجنيد الأهالي المحليين ليمثلوا القوة الأجنبية ويترابطوا معها في أجيال لاحقة.

وبهذا المعنى، كان نبريجا على حق.

غير مؤثرة بشكل غريب ـ الطموحات الألمانية

مع الغباء، يقاتل الآلهة أنفسهم بلا جدوى.

فردريك فون شيللر، المرأة الشابة من أورليانز 1801، 3: 6

لقد أهملت صفحاتنا لغة أوروبية كبرى إلى حد كبير، رغم مكانتها الثقافية الكبرى، والمحاولات الأصيلة لنشرها حول العالم في القرن التاسع عشر. إنها الألمانية، لغة مارتن لوثر لا غيرها، اللغة التي قادت الإصلاح الديني عن طريق ثورة في الكلمة المطبوعة (انظر الفصل التاسع، ص 454). وهناك شيء يعرّض اللغة الألمانية للعثرات المفاجئة تقريباً باعتبارها لغة عالمية محتملة، فيسبب لها خيبة الأمل مرات كثيرة.

ففي السنوات الأولى من القرن الخامس (انظر الفصل السابع: 'السقوط: حالات تقدم الألمانية والسلافية'، ص 429) اجتاح الناطقون بها الإمبراطورية الرومانية الغربية بكاملها، من بريطانيا إلى شمال إفريقيا، ونصّبوا قادتهم بشكل دائم كعواهل وارثين في كل بلد استولوا عليه. ومع ذلك فإن المكسب اللغوي الوحيد الذي حققوه كان في إنكلترا. وفيما عدا ذلك بقيت الألمانية محصورة إلى

حد كبير في منطقتها الأصلية في شمال أوروبا، بل إنها في هذه الفترة المبكرة فقدت أرضاً للغة السلافونية في الأجزاء الشرقية نزولاً حتى البلقان(*) (انظر الفصل السابع: 'الفجر السلافوني في البلقان'، ص 435). ولكن في القرن العاشر، ومرة أخرى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت هناك هجرات جرمانية كبيرة نحو الشرق عبر نهر الإلب صعوداً إلى الحدود البولندية الحديثة وما وراءها على نهر الأودر، فحولتها إلى مناطق غالبيتها الساحقة ناطقة بالألمانية. وانتشرت الألمانية أيضاً إلى داخل مدن كثيرة في جنوب شرق أوروبا، على شفاه التجار واليهود.

وعلى مبعدة إلى الشمال في تلك الأثناء، كان يجري شيء أكبر تنظيماً وتركيباً وتوجهاً نحو الحرب. ففي العام 1226، قام فردريك الثاني، عاهل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بإهداء بروسيا الشرقية إلى الفرسان التيوتونيين، الذين استدعاهم لمقاتلة الوثنيين. فأثبتوا جدارة ملكيتهم بالسيف والمحراث. ولم يوقفهم عن التوغل إلى داخل روسيا سوى ألكساندر نيفيسكي الشهير في العام 1242(**). ومن العام 1280 إلى العام 1410 قام أتباعهم بتأسيس 1400 قرية وثلاث وتسعين بلدة على شواطئ البلطيق[66]، وترسخت اللغة الألمانية من بروسيا إلى إستونيا. ونجح مالكو الأراضي الألمان في الاحتفاظ بمكانتهم النخبوية لمدة خمسة قرون، عبر تقلبات السيادة السويدية والروسية، وحتى الاضطراب الكبير في العام 1917.

وفي تلك الأثناء كانت أحداث جسام قد هزت موطنهم الألماني. فقد كان ذلك الموطن قد صمد طيلة العصور الوسطى تحت اسم 'الإمبراطورية الرومانية

(*) كانت هناك لغة جرمانية أخرى، هي لغة نورس الشمالية، التي نقلها المتكلمون بها بعيداً في الميدان في القرون الأخيرة من الألفية الميلادية الأولى: فقد أخذها النورمان إلى نورماندي، والفارانجيون إلى الروس، والفايكنغ إلى إنكلترا، واسكتلندا، وإيرلندا، وآيسلندا. وفي جميع الحالات، عدا واحدة، تخلّوا عن لغتهم نفسها وأخذوا بلغة الناس الذين استقروا معهم: وكان الاستثناء الوحيد هو آيسلندا، حيث وجد مستوطنو النورس الشماليون أنهم أول بشر يصلون إلى هناك.

(**) إن المعركة الفاصلة على بحيرة بيبوس المتجمدة خلد ذكراها سيرجي أينشتاين بتصويرها في فيلم سينمائي.

المقدسة'، مترابطاً في أغلب الأحيان مع قسم كبير من إيطاليا، وبدون أي خسارة للغته الألمانية ـ ولكن عندما جاء الإصلاح الديني وتفتّتت الهياكل القديمة، وجدت ألمانيا نفسها مكشوفة وعرضة للعطب. وفي القرن السابع عشر دُمّر البلد على نطاق واسع بفعل حرب الثلاثين عاماً (1618 ـ 1648) التي اقتتل فيها الكاثوليك والبروتستانت [فحولوا ألمانيا إلى صحراء]. ولكن الناطقين بالألمانية بعد ذلك ورغم استمرار عجزهم عن الظفر بالاستقرار السياسي والأمن العسكري، كوفئوا على جديتهم الابتكارية ـ وعلى رومانسيتهم الخيالية الحالمة بعد ذلك ـ بعصر ذهبي في العلم، والفنون، وكل أنواع البحوث الدراسية، فحققت اللغة الألمانية وآدابها بروزاً عالمياً متفوقاً يضاهي الفرنسية في مجال كسب الاحترام العالمي لأول مرة. فقد كان القرن الثامن عشر عصر ليسنغ، وغوته، وشيلّر، وموزارت، وبيتهوفن، وهردر، والأخوين همبولدت، وكانط، وهيغل، مما ضمن أن كثيراً من الأفكار الأساسية الهامة في التنوير قد تم التعبير عنها لأول مرة باللغة الألمانية.

ومنذ تحطم الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ظل الناطقون بالألمانية متحدين نسبياً في مملكة النمسا ("أوستر ـ رايخ": أي 'المملكة الشرقية')، تحت حكم آل هابسبرغ. ولكن في القرن التاسع عشر، تم توحيد معظم أراضي الألمان إلى الشمال من النمسا بالقوة، تحت حكم القيادة البروسية القوية ذات النزعة العسكرية الصلبة الثابتة التي أطلقت على خلق هذا الكيان اسم "دويتش رايخ"، أي 'الإمبراطورية الألمانية'. وباعتبارها قوة أوروبية في القرن التاسع عشر، كان طبيعياً أن تشعر هذه الألمانيا الجديدة بحاجتها إلى مستعمرات في الخارج؛ فاستولت في الحال على أربع مناطق في إفريقيا، هي توغولاند، والكاميرون، وجنوب غرب إفريقيا (ناميبيا)، وشرق إفريقيا (تنجانيقا) ـ في ثمانينيات القرن التاسع عشر، وشمال شرق بابوا ومعظم جزر ميكرونيزيا في المحيط الهادئ في تسعينيات ذلك القرن. وكان جميع رعايا القيصر الجدد هؤلاء قد بدؤوا للتو يتلقون دروساً في اللغة الألمانية عندما خرجت ألمانيا مدحورة من الحرب العالمية الأولى؛ وفي مؤتمر فرساي في العام 1919، خسرت اللغة الألمانية كل

مناطقها فيما وراء البحار، وتحولت إداراتها إلى الفرنسية، والإنكليزية، و(في ميكرونيزيا) إلى اليابانية.

وقامت روح التوسع الألمانية برميةٍ مفاجئة يائسة أخيرة في العام 1939، ففرضت لوقت قصير إمبراطورية "رايخ" جديدة وكبيرة على معظم تخوم القارة الأوروبية الشمالية والوسطى من المحيط الأطلسي إلى جبال الأورال. ولكن السنوات الست من 'الحرب الشاملة' التي شكلت الفترة الكاملة التي استطاعت فيها أن تحافظ على قبضتها كانت أقصر من أن تُظْهِرَ إن كانت المكاسب اللغوية للألمانية سوف تتبع ذلك الغزو. ومن المؤكد أن أسلوب ألمانيا في غزو جيرانها الأوروبيين لم يكن مكيفاً لكسب أصدقاء ومعجبين. ولكن ربما كانت ستوجد مستوطنات للألمان بعد الحرب إلى جهة الشرق، بهدف إزاحة الناطقين باللغات السلافونية، وربما نمت لغات هجينة مختلطة قائمة على أساس ألماني بين خليط نزلاء الشبكة الواسعة من معسكرات أعمال السخرة القسرية. ولكن ما حدث هو أن اندفاع الساسة الجنوني للحصول على المجد العسكري انتهى به الأمر إلى ما يقرب من مسح النفوذ اللغوي الذي كانت الألمانية قد حققته في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ففي ثلاثينيات القرن العشرين، راح العلماء، والفنّانون، والمثقفون الجادون في كل مجال، وخاصة اليهود الناطقون بالألمانية، يغادرون في حشود جماعية إلى المنافي في الخارج - وخاصة إلى الولايات المتحدة، حيث أصبحوا ناطقين بالإنكليزية. وفي فترة ما بعد الحرب، كانت تداعيات الذكريات الطازجة التي تربط الألمانية بالنازية تثبط كثيراً استخدام هذه اللغة خارج بلدان موطنها.

وكان من الرحمة للإنسانية أن توجّه هتلر المؤلم والمباشر لفرض سيطرته على العالم قد تم دحره بسرعة. ولكن هذا التوجه قد أثبت أنه يدحر نفسه بنفسه من الناحية الثقافية. وسيكون من المثير للاهتمام أن نرى إذا كانت الألمانية تستطيع أن تبدأ باحتضان نفوذها في ظروف القرن الحادي والعشرين المتغيرة، حيث تلعب ألمانيا والنمسا الآن أدواراً قيادية كديمقراطيتين راسختين جيداً في وسط أوروبا التي تسعى، ولو بصورة اسمية على الأقل، إلى 'تشكيل اتحاد أوثق من ذي قبل'.

خاتمة إمبراطورية: كومينكا

كومينكا: استعمار الشعوب الخاضعة..... بدون هذا الإحساس بالامتنان العميق بنزعة الإمبراطور الخيرية التي لا حدود لها، فإن الرعايا المؤقتين لا يستطيعون أن يفهموا المعنى الحقيقي لماهية كونهم يابانيين ... وبينما تبدو 'الكومينكا' كمفهوم شيئاً مجرداً وعسير الفهم، فإن مبادئها الأساسية هي نفسها مبادئ المرسوم الإمبراطوري حول التعليم، وإن فهم أحدهما هو فهم للآخر.

واشيسو آتسويا، ذكريات عن الحكومة في تايوان (تايبيه، 1943)، ص 339

أيها الرعايا، أطيعوا آباءكم كأبناء، وأحبوا إخوتكم وأخواتكم؛ وكونوا منسجمين كأزواج وزوجات، وصادقين كأصدقاء؛ وتصرفوا بتواضع واعتدال؛ ومدوا إرادتكم الخيِّرة إلى الجميع؛ واسعوا للتعلم ورعاية الفنون، وبذلك تنمون ملكاتكم الفكرية وقواكم الأخلاقية الكاملة، وعززوا المصالح المشتركة بشكل طوعي؛ وفي القضايا العامة احترموا الدستور دائماً وأطيعوا القوانين؛ وعند نشوء حالة طوارئ، اخدموا بشجاعة؛ وبذلك تساعدون ازدهار العرش الإمبراطوري الخالد كالسماء والأرض.

من (المرسوم الإمبراطوري حول التعليم) في 30 تشرين الأول/أكتوبر 1890، معروض في كل المدارس اليابانية، بجانب صورة الإمبراطور.

لقد أنشأنا إمبراطورية جديدة، على الطراز الأوروبي، على حافة آسيا

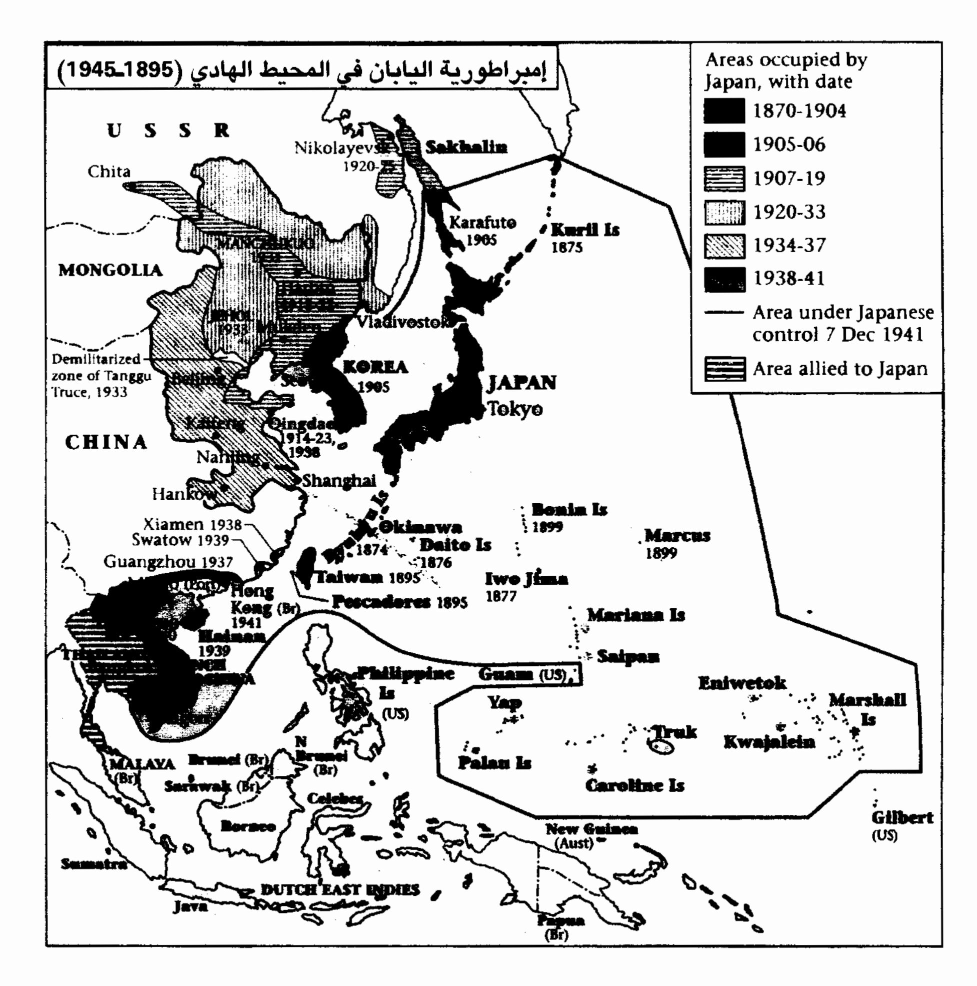
إينوي كاورو، وزير خارجية اليابان، 1887[67].

من الواضح أن اليابان ليست قوة أوروبية. ولكن الدافع الذي حصلت به لنفسها على إمبراطورية فيما وراء البحار كان مستلهماً من أوروبا. وعند النظر إليه كملحق لبناء أوروبا للإمبراطوريات، فإن القصة المختصرة لهذه المغامرة تبين مسببات هذا النوع من نشر اللغة، وأساليبه، وتفاهته في آخر الأمر.

كانت اليابان دولة انعزالية بشكل متشدد، إلى أن زارتها 'السفن السوداء' للقائد البحري الأمريكي ماثيو كالبريت بيري في العام 1853؛ وبحلول العام 1858، كانت قد أرغمت على إبرام معاهدات تجارية مع القوى الأوروبية الكبرى. وقد أدى عدد من الأحداث العنيفة إلى هز استقرار الحكم التقليدي لسلسلة حكومات طوكوغاوا العسكرية. وهي أحداث أثارت إعجاب بعض اليابانيين بالقوة العسكرية للأجانب، ولا سيما الأسطول البريطاني. وفي العام 1868، راح هؤلاء المتشددون يصرخون بشعارات مثل: 'أكرموا الإمبراطور؛ اطردوا البرابرة'، و'بلد غني؛ جيش قوي'(*)، ثم أطاحوا بالحكومة القائمة على أسس إقطاعية والتي كانت قد استمرت قرنين ونصف قرن، وأقاموا حكومة جديدة ذات نظام متغير جذرياً على الطراز الغربي تحت الإشراف الاسمي للإمبراطور الشاب ميجي الذي كان قد اعتلى العرش في العام 1867، فكان ذلك مناسباً لأولئك المتشددين اليابانيين. فأرسلوا بعثات إلى أوروبا والولايات المتحدة للتعرف على طرق التنظيم فيها. وعند حلول العام 1889 كانت اليابان قد تبنت دستوراً جديداً، مع برلمان ذي مجلسين (أحدهما وراثي والآخر تنتخبه الأسر الغنية)، وحكام تابعين يتم تعيينهم بشكل مركزي، وهيئة أركان عامة للجيش مسؤولة أمام الإمبراطور مباشرة (وبالتالي فهي منيعة على السيطرة المدنية)، وخدمة مدنية وطنية، وقوة شرطة، ونظام مصرفي وتعليمي. وفي غضون جيل واحد، كانت اليابان قد وضعت نفسها على قدم المساواة مع القوى الغربية القيادية البارزة، وانطلقت لتظهر استقلالها.

وكانت كوريا هي الدافع الاستراتيجي الرئيسي لحروب اليابان الاستعمارية، فقد كانت اليابان تتعلم من الغرب دروساً في الجغرافيا السياسية. وكان ميجور ميكل، المستشار الألماني للجيش الإمبراطوري، قد وصف كوريا بأنها 'خنجر موجه لطعن اليابان في قلبها'، مفكراً في قيمتها لقوة معادية. وكان الساموراي المجردون من ممتلكاتهم، وهم طبقة الفرسان القديمة التي كانت هي الخاسر

(*) ليست هذه كلمات يابانية بقدر ما هي سلسلة من الحروف الصينية بلفظ ياباني. ولكن ذلك لم يكبح فعاليتها.



إمبراطورية اليابان في المحيط الهادي (1895ـ1945)

الرئيسي في عملية تحديث اليابان، قد أثاروا ضجة بالدعوة إلى غزو كوريا في أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر. ولكن الصين قد دعيت إلى كوريا في العام 1894 للمساعدة على قمع تمرد. فجاءت اليابان أيضاً؛ متذرعة بحق بموجب معاهدة لضمان حياد كوريا. وشرع اليابانيون يلقون بوزنهم هنا وهناك، فاختطفوا ملك كوريا وملكتها لإثبات مقصدهم؛ وأثبتت المقاومة الصينية أنها ليست عقيمة فحسب، بل وباهظة الكلفة كذلك. وعند تسوية الحرب في العام 1895، أرغمت الصين على التنازل لليابان عن جزر تايوان والبيسكادور: فأصبحت هذه الجزر أول مستعمرة يابانية.

واستمرت اليابان بالاستثمار في كوريا، ومارست ضغطً متزايداً على

حكومتها للإسهام في التحديث. وفي العام 1902 أقامت اليابان حلفاً مع بريطانيا العظمى قُدّر له أن يستمر عشرين عاماً. فشجعها ذلك على مقاومة التحركات الروسية نحو كوريا، وعلى إشعال الحرب الروسية ـ اليابانية في العامين 1904 ـ 1905. ومثلما فعلت الصين، اكتشفت روسيا أنها قد قللت بشكل خطير من قوة اليابان العسكرية. وكانت المعارك البرية (ومعظمها في منشوريا) دامية ولكن غير حاسمة، ولكن روسيا لم تخسر عندئذٍ أسطولها في المحيط الهادئ فقط، بل وكذلك في بحر البلطيق. وفي اتفاقية السلام التالية لتلك الحرب، حصلت اليابان على شبه جزيرة لياودونغ في منشوريا، مع مرفأيها الممتازين: بورت آرثر وداليان، وعلى النصف الجنوبي من جزيرة سخالين، التي سميت باليابانية "كارافوتو". وفي تلك الأثناء صار الضغط الياباني المستمر على كوريا بدون منافسة من روسيا أو الصين: فخضعت كوريا، وأصبحت محمية في بادئ الأمر، ثم مستعمرة بعد ذلك، في العام 1910.

ولم يتوقف توسع اليابان عند ذلك الحد. فقد انضمت إلى الحلفاء في الحرب العالمية الأولى. وسارعت إلى الاستيلاء على أقرب الممتلكات الألمانية إليها، وهي مدينة كينغادو في شمال شرق الصين، وجزر ميكرونيزيا. وفي مؤتمر فرساي في العام 1919 ـ عندما خضع الفرنسيون دبلوماسياً للإنكليز في بادئ الأمر ـ أرغمت اليابان على التخلي عن كينغادو، ولكن سيطرتها تأكدت على الجزر، التي صارت منذ ذلك الحين تعرف باسم 'جزر المحيط الجنوبي'.

ونتيجة لهذا كله، فإن اليابان في سنوات ما بين الحربين في القرن العشرين قد احتفظت بإمبراطورية كبيرة فيما وراء البحار حول شمال غرب المحيط الهادئ: تايوان، ومنشوريا الجنوبية، وسخالين الجنوبية، وكوريا كلها، وجزر ميكرونيزيا. فكان لديها فترة طولها بين خمسة وعشرين عاماً وخمسين عاماً، أي جيل واحد أو جيلان كاملان، لتفرض نفسها ولغتها. وسنلقي الآن نظرة مختصرة على النتائج(*).

(*) كان الاستعمار الياباني بالطبع قوة عديمة الاستقرار للغاية، فلم يتوقف هنا. فقد سيطرت اليابان أيضاً لفترات قصيرة على سيبيريا الشرقية حتى إركوتسك (1918-1922)، وسخالين الشمالية، وآمور

إن الدوافع التي وسعت الإمبراطورية اليابانية كان لها شيء من التأثير على استخدام اليابانية في المناطق الناجمة عن ذلك التوسع. ففي هذه الجزر في المحيط الهادي لم يأت اليابانيون للتجارة، ولا للاستغلال الصناعي. ونتيجة لذلك فإنهم لم يرسلوا سوى عدد قليل من المستوطنين أو المقيمين المدنين: بل كانت الأغلبية الساحقة من القادمين الجدد جنوداً وإداريين. فلم يكن هناك سوى تفاعل قليل نسبياً من أجل الأعمال اليومية، واتخذ الجزء الأكبر من الاتصال صيغة تلبية الأهالي المحليين للتعليمات اليابانية.

وفي المستعمرات الجديدة، كان الموقف الياباني من الحياة بعيداً عن حرية الأعمال التجارية. وكانت كل من تايوان وكوريا، بطرقهما المختلفة، جزأين من منطقة نفوذ الصين منذ زمن طويل. وكان لكل منهما نظام تعليمها المثبت الخاص بها؛ ولكن السياسة اليابانية كانت هي التقويض التدريجي للمدارس المشغلة محلياً والتي بقيت من الفترة السابقة وإحلال مؤسسات لغوية يابانية محلها - على حساب الأهالي المحليين. وفي ميكرونيزيا، حيث كانت معرفة القراءة والكتابة والحياة الحضرية مكتسبات أحدث بكثير، كانت الأهداف أكثر تواضعاً، وسنوات التعليم أقصر: ومع ذلك فإنها ظلت تستهدف التعليم الأساسي باليابانية. وكانت مواقف اليابانيين من الشعوب المستعمرة تركز بشكل متزايد على تضامنها الطبيعي باعتبارهم جميعاً أعضاء في 'منطقة الازدهار المشترك الكبرى في جنوب شرق أسيا'. ولكن الضغط الفعال عليهم قد تزايد ليصبحوا أعضاء في مجتمع اللغة اليابانية.

وكان هذا قد بدأ يحدث مفعولاً عندما عرّضت الحرب العالمية الثانية الإمبراطورية اليابانية كلها للخطر. ويقول أحد التقديرات إنه في العام 1942، كان 62 بالمئة من سكان تايوان قادرين على فهم اليابانية، وكذلك كان 20 بالمئة من

السفلى (1920-1925)، ومنشوريا (1931-1945)، وشمال شرقي الصين (1934-1945)، ثم سيطرت أثناء الحرب العالمية الثانية على جنوب شرق آسيا كلها، وجزر الهند الغربية، وغينيا الجديدة، والفلبين وبورما (لفترات مختلفة بين العامين 1941 و 1945). ولكن هذه المناطق كانت موضع نزاع، فاحتفظت بها اليابان على أساس عسكري مؤقت. فلم يتح لليابانيين شيء يشبه فرصة لغرس جذورٍ للغتهم إلا في 'الإمبراطورية الرسمية' الأقدم.

الكوريين[68]. ولكن عندما سيطرت اليابان على تايوان لأول مرة في العام 1895، اختارت أن تتبع النصيحة النموذجية الفرنسية وليس البريطانية، فاستهدفت دمج الإقليم دمجاً كلياً في اليابان(*). وقد تم اتباع هذه السياسة عندئذ بدون نقاش عند الاستيلاء على المستعمرات الأخرى. وعلى مدى أوائل القرن العشرين، أثبتت هذه النصيحة أنها كارثية في المستعمرات الكبيرة المتقدمة، وخاصة في كوريا: فرعايا الإمبراطور الجدد لم يحظوا أبداً بثقة كافية للسماح لهم بالإسهام مباشرة في صنع السياسة في طوكيو، ولكن لم تكن لديهم وسيلة لتأكيد سيطرتهم الجزئية على الأقل على مصيرهم محلياً. وقد اتضح ذلك بشكل وفير في مظاهرات الكوريين المتشددة في العام 1919، التي قمعها اليابانيون بطريقة دامية، وفي العام 1925 كان المحلل الياباني آوياجي تسوناتارو ينظر إلى الوراء مستذكراً، فلاحظ: 'أن جميع المثقفين الكوريين تقريباً، حتى الذين يتكلمون اليابانية بطلاقة - وحتى الذين درسوا في اليابان - رفضوا الحكم الياباني'[69].

وقد أصبح من المقبول بمرارة لدى الحكام أن الكوريين 'يجري تثقيفهم ليكونوا معادين لليابان'. وفي العامين 1929 - 1930 حدثت سلسلة متلاحقة جديدة من الاضطرابات الطلابية ضد التفوق الياباني المفترض. وكان هناك إضراب أقل، وسخط أقل، على ما يبدو، في تايوان، حتى عندما صار تعليمهم يابانياً بشكل متزايد. وصارت الدراسات الصينية هناك اختيارية في العام 1922، ثم ألغيت في العام 1937، ومن المفارقات أن هذه الدراسات استمرت موجودة على المنهج - إلى جانب اللغة الكورية - في مدارس كوريا.

وفي تلك الأثناء، فإن ميكرونيزيا لم يكن لديها تقليد من المعرفة المتطورة بالقراءة والكتابة كي يمسحه اليابانيون، فكانت أكثر استقبالاً للتعليم الجديد.

(*) جاءت النصيحة الفرنسية من مايكل لوبون، الذي اقترح أن تصبح تايوان 'ولاية تابعة لليابان في المستقبل، إن لم يكن الآن' وأن تخضع فوراً للدستور الإمبراطوري الياباني، وهو حل يذكرنا بالنهج الفرنسي إزاء الجزائر. أما النصيحة البريطانية، من مونتاغيو كيركوود، فقد اقترحت النظر إلى تايوان كمستعمرة لها مجلس تشريعي خاص بها، فيه أكبر عدد ممكن من التايوانيين كمشرعين، وقضاة، وإداريين. ولكن هذه النصيحة رفضت لأسباب عديدة على أساس أن اليابانيين والتايوانيين ينتمون إلى العرق نفسه، ويستخدمون الأبجدية نفسها (تشين 1984: ص 249 - 251).

وعلاوة على ذلك فإن سكانها الأصليين البالغ عددهم خمسين ألفاً، انضم إليهم بسرعة عدد يساويهم من المستوطنين اليابانيين، الذين وصلوا لزراعة قصب السكر. وقد أقيمت المزارع في عشرينيات القرن العشرين. وفي أوائل ثلاثينياته كانت تعطي أكثر من 60 بالمئة من عائدات الحكومة هناك. ولولا الحرب في المحيط الهادي لكانت الأغلبية الساحقة في ميكرونيزيا من الناطقين باليابانية حتى اليوم(*).

غير أن خطط اليابان الإمبراطورية لمجالها الآسيوي للازدهار المشترك، وما ينطوي عليه ضمنياً من نشر اليابانية، مزقها الانتصار السياسي للعسكريين وحرب المحيط الهادي التي فرحوا بقيادة اليابان لخوضها. ولذلك فإن أي قلوب أو عقول ربما تكون اليابان قد كسبتها خلال خمسين عاماً من الاستعمار السلمي (نسبياً) قد تمت خسارتها تماماً في العربدات النهائية للجيش الياباني عبر شرق آسيا وجنوب شرقها. ورغم أن اليابانيين كسبوا كل الساحل الغربي للمحيط الهادي لفترة قصيرة، فقد انتهى الأمر باليابان في العام 1945 وهي محصورة في الجزر التي كانت تسيطر عليها في العام 1868، بل إنها فقدت جزر كورايل على تخومها الخارجية في الشمال، والريوكيوس في الجنوب. وقد أعيدت تايوان إلى الحكم الصيني، واستقلت كوريا. أما سخالين وميكرونيزيا، المأهولتان بشكل خفيف أكثر، فقد وضعتا تحت سيطرة روسيا وأمريكا على التوالي. ولم يسمح لأي إدارة يابانية بالبقاء في أي مكان من مستعمراتهم التي حصلوا عليها بشق الأنفس. وأعيد ستة ملايين ونصف مليون ياباني إلى اليابان. وحدث توقف قسري للنفوذ الياباني كله في آسيا والمحيط الهادئ لمدة خمسة عشر عاماً كاملة.

فما الذي يبقى إذن من مجتمع الناطقين باليابانية فيما وراء البحار بعد

(*) كان ما حدث هو أن هذه الجزر صارت جزءاً من جزر المحيط الهادئ الواقعة تحت وصاية الولايات المتحدة (وحصلت على استقلالها في العام 1986)، ولا تزال لغتها الخاصة هي السائدة، وفي العام 1998 قدرت الأمم المتحدة عدد سكانها بمئة وأربعة عشر ألفاً، منهم حوالي 3,500 من الناطقين بالإنكليزية (غرايمز، 2000).

نصف قرن من طرد اليابان من هناك؟ إن كثيراً من الباقين من الأجيال التي درست في المدارس اليابانية لا يزالون قادرين على التحدث بهذه اللغة. ولكن يبدو أنها لا تكاد تستخدم كوسيلة اتصال، حتى بين أبناء هذا الجيل(70). فالاحتقار الذي أثاره اليابانيون قد استمر طويلاً إلى درجة أنه منع الاستفادة من هذا التراث عندما بدأت المصالح الصناعية اليابانية تنتشر مرة أخرى. فالإمبراطورية اليابانية القديمة لم تعمل بأي حال من الأحوال كمنصة إطلاق لنشر المنتجات اليابانية على نطاق عالمي، ولا لنشر متأخر للثقافة اليابانية في العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين.

إن نشر اليابان للغتها لمدة خمسين عاماً يمكن رؤيته كعرض مصغر لسيرة حياة لغة إمبراطورية. ومثل القوى الاستعمارية الأخرى فقد استغلت اليابان ميزة تفوقها التقني والعسكري على البلدان الأخرى ـ وفي هذه الحالة، على جيرانها الأقربين ـ لكي توسع أراضيها. ثم واجهت مشكلة ما يجب عمله مع الأهالي الأصليين، وهم أناس لا يعتقدون أنهم يابانيون. فحاولت اليابان في كل مكان أن تحولهم إلى أعضاء في مجتمعها، وبالتأكيد فإنها لم تثق في أنهم سيرتبطون بها طوعاً، ولكنها راكمت مخزوناً كبيراً من التثقيف باللغة اليابانية. وكما حدث في كل مكان، فإن عملية التحويل هذه فشلت.

كان هناك نجاح معقول في نشر اللغة، ولكن عندما اختفى الدافع السياسي لاستخدامها، تبين أن اللغة ليست لها قوة إسناد مستقلة. والإطار الذي اقترح لتفسير اضمحلال الروسية يمكن تطبيقه هنا أيضاً. فقد كان عامل التهجين غائباً ما دام السكان فيما وراء البحار جميعاً قد أعيدوا إلى موطنهم بصورة جوهرية. ولم يكن هناك حنين للحياة الماضية تحت علم الشمس المشرقة، ولم تكن هناك أي رغبة في الحفاظ على الوحدة مع الناطقين باليابانية. بل إن الذكريات المريرة التي تركتها السنوات القليلة من السيطرة اليابانية كانت مؤلمة إلى درجة أنه حتى عندما برزت أسباب عولمية لتجديد الصلات الاقتصادية من خلال اللغة، فقد تم تجاهل هذه الأسباب. وبذلك يتضح أن الانتشار الدائم للغة لا يمكن تحقيقه عن طريق التخطيط، أو القوة العارية السافرة.

12

عالم صغير أم مرآة مشوشة؟ سيرة اللغة الإنكليزية

لن نتوقف عن الاستكشاف
وستكون نهاية اكتشافنا
هي الوصول إلى حيث بدأنا
ومعرفة المكان لأول مرة.

ت. س. إليوت: 'ليتل غيدنغ'[(1)]

إن سيرة حياة الإنكليزية، مثل معظم لغات العالم الكبرى، كثيراً ما يعاد سردها على الناطقين بها أنفسهم، ونادراً ما تروى بدون عنصر من الزهو بالانتصار. فأمجاد أي مجتمع لغوي يصعب على الناطق ـ الوطني أن يقاومها. وقليلون هم الذين لديهم أي تصور حقيقي صحيح عن عصور غير عصرهم.

ولكن حتى من منظور هذا الكتاب، لا يزال هناك إحساس بأن الإنكليزية تستحق موقعاً خاصاً بين اللغات العالمية. صحيح أنه يصادف أنها أوسع اللغات انتشاراً عند كتابة هذه السطور. وفي هذا العصر صار العالم مجتمعاً واحداً مترابطاً باتصالات فورية، مما يجعل الإنكليزية متوفرة بشكل فريدٍ. ولكن الحقيقة المادية الماثلة أمامنا هي أن الإنكليزية لغة ذات تاريخ شديد التنوّع بصورة لافتة للنظر: وهذا التاريخ قصير. فالإنكليزية كلغة محددة لا يزيد عمرها على ألف وخمسمئة عام. وقد تغيرت مادتها تغيراً جذرياً عند حوالي منتصف عمرها

القصير. ولكنها حشدت في فترتها القصيرة هذه تشكيلة متنوعة من الأزمات والمحصلات التي لا يمكن التنبؤ بها بحيث يمكن النظر إليها تقريباً كخلاصة شخصية لمغامرات أسلافها السابقين الذين يرجع تاريخهم كل المسافة إلى ممفيس، وباتنا، وتشانغ-آن، وبابل.

إن إحدى فوائد النظر إلى الإنكليزية على ضوء مثل هذا العدد الكبير من النظائر هي الكشف عن الغرابة الجوهرية لتطورات كثيرة تعتبر في العادة من البديهيات المسلّم بها. وقد لاحظنا نجاح الأنغلو ـ ساكسون الجرمان والفريزلنديين في زرع لغتهم، وهذا إنجاز مدهش عند مقابلته مع إنجاز الغزاة الجرمان الآخرين، وفي مقدمتهم معاصروهم من الفرنجة والقوط الذين استقروا في أجزاء أخرى من الإمبراطورية الرومانية الغربية. وبعد ذلك بأكثر من ألف عام، أسس المستوطنون الإنكليز في أمريكا الشمالية بصورة عفوية مجتمعاً شعبياً حاشداً ناطقاً بالإنكليزية، بينما كان التاج الفرنسي يضطر إلى إرسال فتيات للزواج، لمنع المستوطنين الشباب من التحول إلى هنود وإنشاء عائلات بدون اللغة الفرنسية. وبعد ذلك بقرن، أدت أنشطة شركة الهند الشرقية الإنكليزية إلى نشر لغتها الإنكليزية، بينما لم تنجح شركة الهند الشرقية الهولندية في الفترة نفسها إلا في نشر لغة مشتركة سابقة هي الملايوية. وهناك ثلاث حالات فقط أسهم فيها نوع معين من الأوضاع في توزع الإنكليزية ولكن لم يكن هناك له أثر مماثل على اللغات الأخرى. إن الانتشار التاريخي للغة شيءٌ يصعب تفسيره تفسيراً كاملاً. ولكن إبقاء سلسلة من اللغات في أذهاننا قد يساعدنا على الأقل في تجنب بعض أنصاف الحقائق.

إن تاريخ اللغة الإنكليزية، على الأقل عند النظر إليه من بداية القرن الحادي والعشرين، يقع في فترتين غير متساويتين وشديدتي التباين: إحداهما هي فترة "التشكل"، من القرن الخامس إلى نهاية القرن السادس عشر. وأثناء هذه الفترة اتخذت اللغة شكلها، فنمت في جزيرة بريطاني؛ والفترة الثانية هي فترة "الانتشار"، من القرن السابع عشر إلى الوقت الحاضر. وفي هذه الفترة راحت تنتقل بالسفن فانتشرت في كل قارات العالم.

ولقد نظرنا في بداية فترة التشكل، عندما ظهر خليط من مجموعة من

اللهجات الجرمانية كجزء من الاضطراب عند نهاية إمبراطورية روما (انظر الفصل 7: 'ضد الأخطار ـ مجيء الإنكليزية'، ص 437). فعلى الرغم من انعدام الوحدة، ومن التهديد العسكري، كانت الإنكليزية عند حلول القرن التاسع قد تطورت إلى لغة أدبية كبرى. ومع ذلك فقد قُدِّر للغزاة الفرنسيين بعد ذلك بقرنين أن يخنقوا تعبيرها المكتوب. وبطريقة ما، في غضون القرنين التاليين، نجحت الإنكليزية في امتصاص المجتمع اللغوي المسيطر عليها، والعودة إلى الظهور كأبرز لغة في المملكة. وانتشرت جغرافياً كذلك في الفترة نفسها، فأقامت رؤوس جسور في كل مملكة في الجزر البريطانية، بين الويلزيين والاسكتلنديين والإيرلنديين. وكانت هناك فترة أخرى من الاضطراب، بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، عندما أهلك الطاعون نصف السكان، وأحدثت الحرب تمزقاً في التتابع الملكي، واهتزت الكنيسة بالاحتجاج والانشقاق، وأرهقت العملة بالتضخم. وأثناء هذا الوقت كله كانت الإنكليزية محكية ومكتوبة ولكن بدون مقياس وطني يوحد اللهجات المتنوعة. وجاء الاستقرار اللغوي في وقت الاستقرار السياسي نفسه إلى حد كبير، فتركز الاستقراران على لندن، وعلى قراءة الإنجيل بصورة جماعية مكثفة.

وفي فترة الانتشار والتعزيز، عندما بدأ الناطقون بالإنكليزية يسافرون ويستقرون في الخارج، صار مزاج الإنكليز، وبالترابط مزاج لغتهم أيضاً، دنيوياً أكثر بكثير، بالمعنيين الحقيقي والمجازي؛ وانفتح العالم للإنكليز، ولكن قبل كل شيء لمشاريعهم العملية والتجارية، بحيث تراجعت اهتمامات الحكومة والكنيسة كثيراً إلى المؤخرة. وهذه الفكرة عن 'الإنكليزية ـ صديقة رجل الأعمال' قد تكون هي الشيء المتميز في الحقيقة حول انتشار هذه اللغة، ولو أنه تعزز بتميز مماثل بالعلم والتكنولوجيا الناطقين بالإنكليزية. ومن المؤكد أن هذا الطابع التجاري والعلمي قد أفردها على حدة عن منافساتها الكبرى كالإسبانية والفرنسية والروسية. بل لقد صارت أكثر سيطرة في التاريخ الحديث جداً من القرن العشرين، عندما أصبحت مستعمرة وحيدة سابقة ناطقة بالإنكليزية هي أعظم قوة في العالم، وأصبحت الكفاءة في اللغة نفسها صناعة كبرى، وتسارع انتشار اللغة حتى تجاوز كثيراً نفوذ الدول التي تتكلمها بشكل أصلي كلغة أم.

ويقدر عدد الذين يستخدمون الإنكليزية لأنها مناسبة كلغة مشتركة بأنه قد يصل إلى ثلاثة أضعاف مجموع سكان الدول الناطقة بها كلغة أصلية. ولا يمكن لنفوذ اللغة أن يصل إلى أعلى من هذا بكثير.

إن هذا الاستقلال الذاتي الذي حصلت عليه الإنكليزية يعني أنه على عكس معظم اللغات التي ينظر فيها هذا الكتاب، فإنه ليس ممكناً حتى الآن تتبع بدايات الانحدار إلى الأسفل في استخدام اللغة، حتى ولو أن القوى السياسية والاقتصادية التي وضعت الإنكليزية هناك قد بلغت ذروتها إلى حد كبير. ولكن ذلك لن يعيقنا. فتاريخ حياة كثير من اللغات التي نظرنا فيها يظهر عوامل متنوعة يمكن أن تنهي عهد اللغة العالمية. وسيكون من المفيد أن ننهي روايتنا لسيرة حياة الإنكليزية باستخدام هذه العوامل للتكهن بالممرات الهابطة إلى الأسفل من ذرواتها الحالية العالية، رغم أنها تبدو غير قابلة للتعرض للهجوم.

اختبار تحمل: توديع الفرنسية النورمانية

في الليلة السابقة لخوض المعركة، سمعت أن الإنكليز كانوا سعداء جداً، وكثيري الضحك والمرح. وقد أخذوا يأكلون ويشربون طول الليل، فلم يخلدوا للنوم في تلك الليلة أبداً. وكان عليك أن تراهم مستمرين في الرقص والقفز والغناء وهم يهتفون، "نخب سعادتكم"، "في صحتكم"، و"ليأتِ ما هو كائن"، و"اشربوا بشهية"، و"اشربوا إلى الوراء"، و"اشربوا النصف"، و"اشربوا حتى الثمالة"(*). هكذا تصرف الإنكليز، بينما أمضى النورمان والفرنسيون الليلة في الصلاة وطلب الغفران والتوبة، والاعتراف بذنوبهم أمام القساوسة ؛ أما الذين ليس لديهم قساوسة بالقرب منهم فيعترفون لجارهم ...... وسهر القساوسة في كنائسهم الصغيرة

(*) كانت كؤوس الخمر تدور فيما بينهم، وباللغة الإنكليزية القديمة، فإن هذه كلها أنخاب يهتفون بها، مع التبجح الصادر عن الإنكليز وهم منهمكون في قضاء الليل باحتفالهم الصاخب المخمور قبل معركة هاستنغز الحاسمة. وقد كتب جيوفري، راهب مونماوث في حوالى العام 1140 قائلاً: '... وحتى يومنا هذا فقد استمر التقليد في بريطانيا في الحفلات والمآدب حيث يقول الشارب للآخر "في صحتك!" وأما الذي يتلقى لكأس بعده فيرد عليه: "اشرب حتى الثمالة!"، (تاريخ مملكة بريطانيا: 100، المخطوط 568، بعد الصفحة 46v).

> الحديثة التأسيس في صفوف الجيش طيلة تلك الفترة، يدعون الله ويصلون له، وهم يصومون ويتوبون، ويرتلون صلواتهم الخاصة، ويتلون "المزامير"، و"الترانيم"، والدعوات التي مطلعها "يا رب ارحمنا"، و"أبانا الذي في السموات" ... وغيرها من الصلوات والأدعية المناسبة لذلك اليوم(*). وكان ذلك لائقاً وفي محله تماماً، لأن ذلك اليوم كان يوم سبت.
>
> ويس، قصة رو (**)III، 11: 7323_42، 7365_80

بهذا المعنى، كان الغزو النورماني لإنكلترا في منتصف القرن الحادي عشر مفارقة تاريخية وقعت في غير زمانها الصحيح، فهو آخر الغزوات الجرمانية التي هزت بلداً أوروبياً بعنف مزلزل، وقد تأخرت تلك الغزوة عن زمنها المناسب مدة قرنين(***).

فبعد كل شيء، كان النورمان بعيدين خمسة أجيال أو ستة فقط عن أسلافهم النرويجيين الذين كانوا معروفين باسم الفايكنغ. وكلمة "نورماني" ليست سوى ترجمة لكلمة "نورومين" اللاتينية، أي 'رجال الشمال'، التي لا تزال تطلق على النرويجيين في الشمال الآيسلندي (النورْس). وعند نهاية القرن التاسع، كان النورمان، تحت قيادة زعيمهم رولو، يعيشون بسيوفهم، ولكنهم

(*) إنها عناوين لاتينية لصلوات وأدعية مطالعها: 'يا روح الرب'، و'خلاص الناس'، و'تحية لك أيتها الأم المقدسة'، وعلى غرار الصيغ والأشكال الفرنسية مثل: 'أشفق علينا'، والإغريقية، مثل 'ارحمنا يا رب' و'يا أبانا'.

(**) روبرت ويس، نورماني من جيرزي. وقد كلفه الملك هنري الثاني في ستينيات القرن الثاني عشر بكتابة احتفال بتمجيد التاريخ الروماني، لتسميته على اسم البطرك رولو (أي رو). كي يكون نظيراً يضاهي كتابه الأسبق المعنون: "قصة بروت" عن تاريخ بريطانيا قبل النورمان (التي يفترض بالمثل أن بروتوس هو الذي أسسها). وهذا القسم يروي قصة التصرفات المختلفة للإنكليز والنورمان عشية الليلة السابقة لمعركة هيستينغز، في العام 1066، ولكنه يوضح ببراعة الأدوار المختلفة للغات الإنكليزية، والنورمانية، والفرنسية، واللاتينية في إنكلترا النورمانية.

(***) في هذا القسم، تشمل كلمة 'نورماني' الطبقة الحاكمة في إنكلترا وتوابعها من العام 1066 إلى العام 1399. وقد كانت لغتهم العامية الدارجة في البداية هي الفرنسية النورمانية، المعروفة أيضاً بالأنغلو نورمانية، ولكن بعد العام 1154 فإن تنويعات الفرنسية المحكية في البلاط صارت تقوم على أسس أوسع، إذ إن هنري الثاني وباروناته كانت لهجتهم تقوم على الأنجو، في جنوب غرب فرنسا. ومنذ ذلك الحين صارت السلالة تعرف باسم الأنجيفيين.

أبحروا إلى الجنوب، واستقروا فيما أصبح نورماندي، بعد أن أرغموا ملك الفرنجة تشارلس الثالث (البسيط) على إعطائهم حقاً بموجب معاهدة سانت كلير ـ سير ـ إيبت في حوالي العام 911. وهناك تخلوا عن عاداتهم في التجوال وشن الغارات، بما فيها لغة نُورْس الشمالية، ومثل الغزاة الجرمان النموذجيين تخلوا في غضون جيلين عن استعمال لغتهم، وأخذوا باللسان الرومانسي المحلي، الذي صار يعرف على شفاههم باسم اللغة الفرنسية النورمانية. وعندما قام سليل رولو، وليام النغل، بقيادة غزوته الناجحة لإنكلترا في العام 1066، أدخل لغته معه إلى إنكلترا.

الإنكليزية مغطاة بطبقات

ولكن الفتح النورماني لإنكلترا كان مختلفاً تماماً عن الغزوات الجرمانية السابقة لإنكلترا، في حجمها وفي عواقبها السياسية معاً.

فقد كان حجم هذه الغزوة صغيراً، على الأقل بالمقارنة مع سكان إنكلترا آنذاك. فقد جاء وليام مع حوالي خمسة آلاف فارس. وكان العدد الكلي ’للذين جاؤوا مع الفاتح‘ يصل على الأكثر إلى أربعة أضعاف ذلك العدد، أي عشرين ألفاً في مقابل سكان إنكليز عددهم المليون ونصف المليون[2]. وهكذا ففي أول جيل من حكم النورمان، ربما كان شخص واحد من كل مئة يتكلم الفرنسية النورمانية.

ومن حيث العواقب السياسية، لم تكن الغزوة النورمانية غارة، ولا هجرة جماعية، بل كانت فتحاً متفرداً متميزاً قائماً على سبب جدي للحرب ؛ فقد زعم وليام أن ملك إنكلترا مدين له بالولاء، ثم تابع ليثبت تأييد الله لحقه خلال المعركة. فكانت النتيجة تحولاً يكاد يكون فورياً لإنكلترا من مملكة ساكسونية إلى مملكة نورماندية. فالنورمان، على قلتهم، قطعوا بالنتيجة رأس النظام الإنكليزي.

والأثر اللغوي لهذا يبدو مدمراً، وخاصة بالنسبة لنا نحن الذين نقرأ سجله المدون بعد ألف عام من كتابته. فبعد أن أصبح الملك والنبلاء متكلمين

بالفرنسية صار هناك جمهور جديد للإنتاج الأدبي في إنكلترا؛ فتوقف الأدب الإنكليزي باللغة العامية الدارجة ـ الذي كان، مع الأدب الإيرلندي، هو أقدم ما ازدهر في أوروبا كلها، وحل محله أدب البلاط الخيالي العاطفي الأنغلو نورماني. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، فإن القوانين، وأحكام المحاكم، والشهادات القانونية، صارت كلها بالفرنسية. وهذا تحول يظهر في السجلات بشكل صارخ؛ لأن الوثائق القانونية هي التي تضع القوانين بشكل متزايد للمجتمع النورماني، وتصبح هي الأهداف الرئيسية للنضال السياسي. وكان للنظام الجديد تأثير مادي ملموس أقل بين الرهبان ورجال الدين، لأن اللاتينية ظلت اللغة الأساسية لعملهم الفكري، ولكن إلى جانب الطقوس واللاهوت، فإن اللاتينية تولت أيضاً مهمات الاحتفاظ بالسجلات وكتابة التاريخ. فالتاريخ الزمني الأنغلو ـ ساكسوني، الذي تم الاحتفاظ به باستمرار منذ عهد ألفرد في القرن التاسع تلاشى في العام 1155. فعند منتصف القرن الثاني عشر، كان تقسيم الوظائف بين اللغات قد أصبح جامداً. ولم يبق للإنكليزية أي دور ظاهر يذكر، على الأقل بشكل مكتوب. ولكن هذا لا يعني أن استعمال اللغة كان مهدداً بالخطر: فرغم انخفاض ظهورها في السجلات، فليس هناك سبب للاعتقاد بأن التكلم بها قد تناقص أبداً بين الأغلبية الساحقة من الناس.

كان انتشار الفرنسية النورمانية سيصبح محدوداً جزئياً بسبب الجمود نفسه في التسلسل الهرمي الاجتماعي الذي يترأسه النورمان. وضمن النظام الإقطاعي، كانت مكانة كل إنكليزي وإنكليزية تتحدد عن طريق الولادة إلى حد كبير. وكانت الكنيسة تقدم الطريق الوحيد للتقدم من خلال الجدارة. وكان هذا الطريق محدوداً للغاية بسبب قيود الامتناع عن الزواج. ونتيجة لذلك فإن الناطقين بالفرنسية من النبلاء ظلوا مجتمعاً مغلقاً تقريباً ـ رغم أن دماً جديداً قد دخل إليهم، وبالتالي بعض اللغة الإنكليزية من طفولتهم بلا شك عن طريق زواج أولئك النبلاء بسيدات ساكسونيات ـ ولم يكن هناك مجال يذكر للناس لتحسين مستقبلهم عن طريق تقليد أسيادهم.

ففي إنكلترا الإقطاعية كان الناس يعرفون مقاماتهم وأماكنهم، لأنها كانت

في العادة محددة ضمن قرية. فلم تكن لديهم فرصة تذكر حتى للالتقاء بأناس ذوي آفاق أوسع.

نشر الرزمة الأنغلو ـ نورمانية

إن أي تحركات اجتماعية حدثت فعلاً في هذه القرون كانت أفقية أكثر منها عمودية، وكان سببها عائداً إلى بسالة النورمان في خوض الحروب ضد جيرانهم. فقد كان النورمان خيّالة رائعين، وكانوا في الحقيقة أول غزاة يجلبون معهم مطاياهم عبر القنال الإنكليزي(*). غير أنهم كانوا عند كسب معاركهم في ميدان القتال، يبادرون إلى تعزيز قوتهم ببناء القلاع والمعاقل المحصنة الدائمة إلى درجة أن كثيراً منها لا يزال ماثلاً إلى يومنا هذا. فكانت هي تجديدهم الابتكاري الرئيسي. فقد سارع النورمان إلى توحيد دولة الساكسون التي كان التنسيق فيها رخواً إلى حدٍ ما، ثم تابعوا عملهم بدفع حدودها إلى الوراء لتوسيعها. ففيما وراءهم كانت تقع مناطق ناطقة بالكلتية، في شمال الجزر البريطانية وغربها. فقد كانت كورنويل جزءاً من الرخاء الأنغلو ـ ساكسوني، ولكن النورمان قاموا بتغلغلات جادة في كل من كامبريا، وويلز، واسكتلندا، وإيرلندا.

فكامبريا كانت مسرحاً لصراع استغرق من العام 1092 إلى العام 1157. واستغرقت ويلز أكثر. فقد تم الاستيلاء على غْوِينتْ في الجنوب الشرقي في العام 1087. ولكن رغم إقامة 'مقاطعات حدودية' عبر جنوب ويلز كلها معتمدة على الملك النورماني بعد ذلك بوقت قصير، فإن المقاومة لم تضمحل. ففي القرن الثاني عشر، أعاد معظم البلد تأكيد استقلاله عدا الساحل الجنوبي والحدود الغربية. وكانت هناك فترة قبول بالأمر الواقع "لسلطة ويلزية" محلية محاطة "بمقاطعات حدودية" نورمانية .ولم يتم استكمال غزو ويلز إلا في العام 1283 على يد

(*) كانت هذه رصيداً لثقافتهم الأدبية مثلما هي رصيد لسياستهم. ورغم أن آرثر قد جاء من أسطورة كلتية، فقد كان الأدب الأنغلو - نورماني هو الذي خلق الصورة المثالية للفارس الشهم في درعه اللامع. فكلمة *chevaler* تعني في الأصل 'الفارس'. أما في اللغة الإنكليزية القديمة فإن كلمة *Knight* كانت تعني فقط 'الفتى'، وبالتالي الشخص الشاب القادر على القتال، دون ظلال من المعاني التي تشير إلى الخيالة، دع عنك شهامة أخلاق الفرسان.



توسع الرزمة الأنغلو نورمانية من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر

الملك الأنجيفيني إدوارد الأول. ومع ذلك حدث تمردان ويلزيان، بعد ذلك بعشرة أعوام، ثم بعد ذلك بقرن(*).

(*) بعد التمرد الأول، كان من المفروض أن إدوارد عرض على الويلزيين في العام 1301 أن يعطيهم أميراً ويلزياً 'مولوداً في ويلز، ولا يعرف أي كلمة من الإنكليزية' ـ ثم قدم لهم ابنه، المولود حديثاً في مقر

وكان اختراق اسكتلندا، الناطقة باللغة الغيلية Gaelic إلى حد كبير، أقل اتصافاً بالحرب. فمدينة لوثيان في الجنوب الشرقي كانت ناطقة بالإنكليزية منذ أن استولى الإنكليز على أدنبره في العام 638. وكان الملك مالكولم الثالث(*)، الجالس على العرش وقت الغزو النورماني لإنكلترا، محباً للأنغل بصورة استثنائية. فقد أمضى جزءاً من شبابه في إنكلترا، وكان 'يعرف الإنكليزية كما يعرف لغته تماماً'، وقد تزوج الأميرة الإنكليزية مارغريت، التي فتحت البلاط الاسكتلندي (الذي كان عندئذ لا يزال في بيرث) كسوق للسلع الكمالية الفاخرة من إنكلترا. وإذن فلم يكن مالكولم حليفاً لقوة نورمانية متقدمة، بل إنه أمضى جزءاً كبيراً من عهده في غزوات عدوانية داخل نورثمبريا. ورغم ذلك فإن حلفاءه، ولا سيما ديفيد الأول (1124 ـ 1153) كانوا منحازين كثيراً للنفوذ النورماني: فقد أصبحت الأنغلو ـ نورمانية لغة البلاط، بحيث إن الإنكليزي والتر من كوفنتري أبدى ملاحظة في القرن الثالث عشر قال فيها: 'إن ملوك اسكتلندا الحديثين يعلنون أنفسهم فرنسيين، في العرق وفي العادات، وفي اللغة والثقافة، وبعد أن هبطوا بالاسكتلنديين [أي الغيل] إلى مستوى الخدمة المتدنية تماماً، صاروا لا يقبلون إلا الفرنسيين لصداقتهم وخدمتهم'[3].

ولكن النبلاء الناطقين بالفرنسية جلبوا أتباعاً ناطقين بالإنكليزية. ومن أجل الإبقاء على طريقة حياتهم، انضمت إليهم مجتمعات من مواطني المدن، ناطقة بالإنكليزية، كانت تستفيد من التجارة عبر الحدود. فتضخم التأثير عبر الحدود، وبدأ الناس يشيرون إلى لغتهم باسم 'إنكليز'، وفيما بعد باسم 'سكوتيس' (بطريقة مساوية ـ لأنها كانت نوعاً متميزاً من الإنكليزية). وليس مهماً أن التاجين الاسكتلندي والإنكليزي كانا في حالة حرب متقطعة في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر.

وفي إيرلندا، قبل النورمان في العام 1166 دعوة من ديارميت ماك

قيادة الحملة في كايرنارفون. غير أن هذه القصة تعود إلى القرن السادس عشر فقط، وكان من الممكن أن تكون أكثر مصداقية لو أن إدوارد كان ناطقاً بالإنكليزية بدل الفرنسية. وكان ابنه قد ولد في العام 1284.

(*) كان يلقب 'ذا الرأس الكبير'. وكان عهده في الحكم من العام 1059 إلى العام 1093. وكان هو مالكولم الشهير الذي أطاح بمكبث وقتله.

مورتشادا، ملك لينستر المخلوع حديثاً، كي يتدخلوا لصالحه ضد الملك الإيرلندي العالي. وكان ذلك عملاً انتهازياً من جانب الملك الإنكليزي هنري الثاني ـ بدعم من أمر رسمي بابوي متقن، مكّنه من توجيه شيء من الروح الحيوانية لحكام المقاطعات الحدودية الباحثين عن غزوات جديدة فيما وراء ويلز. فكانت النتيجة مستوطنة من النورمان حول دبلن، سرعان ما توسعت باتجاه الشمال والغرب، فصار ذلك أحد ملامح المشهد على الأراضي الإيرلندية، وتوسع في آخر الأمر ليعطي التاج البريطاني سيطرة على الجزيرة كلها بشكل متقطع.

وفي كل هذه التوسعات للممتلكات النورمانية، جلب النفوذ النورماني النظام اللغوي المعقد نفسه: الفرنسية للحكام، والإنكليزية لأتباعهم، واللاتينية للدعم التقني. وعلى المدى الطويل أثبت الرأس الإنكليزي لهذا المثلث أنه الأكثر تأثيراً، رغم أنه من الناحية الوظيفية كان الأكثر مجانية، ففي كل هذه الأراضي، بعد كل شيء، كان من الضروري فرض الإنكليزية على سكان خاضعين يتكلمون لغة أخرى، مثل الكامبرية، أو الويلزية، أو (في اسكتلندا وإيرلندا) الغيلية، وكانت اللغة الغيلية تملك تقليداً أدبياً يعادل الإنكليزية في قوتها.

ولم تكن اللغة موضوعاً صريحاً في الأيام المبكرة، قبل أن تتاح للسيطرة الأجنبية فرصة إبراز تأثيرها على الأجيال. ولكنها عندما فعلت كانت الإنكليزية، والإنكليزية فقط هي التي تلقت الفائدة من التعزيز الرسمي. وهكذا فعندما شعرت السلطات النورمانية في العام 1366 بأنها مهددة بعودة بروز نفوذ الغيلية في إيرلندا مما يسبب استخدام تلك اللغة في نطاق النفوذ الإنكليزي، كان ردها هو إصدار تشريع كيلكني (باللغة الفرنسية)، الذي عبر عن القلق على حرية الكنيسة وطالب بفصل صارم لقضايا "الزواج، والعرابة، وتبني الأطفال، واقتناء العشيقات أو المحظيات"، وكان من الغريب أن يبرز قلقاً على اللغة بتهذيب لائق:

> iii. ومن المأمور به والمثبت أيضاً أن يستخدم كل إنكليزي اللغة الإنكليزية، ويتسمى باسم إنكليزي، ويتخلى كلياً عن الأسماء التي يستخدمها الإيرلنديون، وأن يستخدم كل إنكليزي العادات، والأساليب وطرق الركوب واللبس المناسبة لمكانته. وإذا استخدم أي إنكليزي، أو إيرلندي يعيش بين

الإنكليز، اللغة الإيرلندية فيما بينهم، خلافاً لهذا القانون فسوف يجرد من أراضيه وبيوته إن كان يملك أياً منها، فتصادر وتوضع في أيدي سيده المباشر إلى أن يأتي إلى أحد أماكن مولانا الملك، ويجد ضمانة كافية بأن يتبنى استخدام اللغة الإنكليزية ... كما أن الناس الخيرين التابعين للكنيسة المقدسة والذين يعيشون بين الإنكليز سوف يستعملون اللغة الإنكليزية، وإن لم يفعلوا تصادر ممتلكاتهم ومصادر دخلهم حتى يستعملوا اللغة الإنكليزية بالطريقة الموصوفة أعلاه، وسوف يمنحون فترة لتعلم اللغة الإنكليزية، وليقدموا سروجاً للخيل فيما بين هذا الوقت وعيد القديس مايكل القادم(4).

وفيما بعد، فإن استمرار استعمال واحدة من هذه اللغات الكلتية لم يعتبر تهديداً لبقاء اللغة الإنكليزية في الخارج بقدر اعتباره علامة على ولاء مشكوك فيه. وهكذا فإن هنري الثامن، رغم أنه ابن ملك استولى على السلطة بدعم من أهل ويلز وكورنويل، فقد ضمن ما يلي في قانون الاتحاد للعام 1536 (الذي قدم عندئذ بالإنكليزية):

وليتم سن التشريع بأن جميع القضاة، والمفوضين، ومخاتير البلدات، والمحققين في الوفيات المشتبه بأمرها، والمسؤولين عن مواريث الدولة، والموظفين الماليين، ونوابهم المساعدين، وجميع الموظفين ومنفذي القوانين، سيحافظون على الجلسات، والمحاكم، والجموع، والمحاكم البلدية وغيرها باللسان الإنكليزي، وأيمان المحلفين، والمحققين، وكل الإفادات الأخرى، والأحكام، والمراهنات القانونية يجب أن تتم باللسان الإنكليزي، ومن الآن فصاعداً فإن كل من يستعملون الكلام الويلزي أو اللغة الويلزية لن يحصلوا على أي مناصب أو أجور ضمن مملكة إنكلترا أو ويلز أو ممتلكات الملك الأخرى تحت طائلة تجريدهم من تلك المناصب أو الأجور إلى أن يستخدموا الكلام أو اللسان الإنكليزي(5).

وفي العام نفسه، كان الملك هنري يكتب إلى سكان غالواي في غرب إيرلندا ليحثهم بأن 'على كل ساكن ضمن جانب المدينة أن يبذل جهده ليتكلم بالإنكليزية، وأن يعمل حسب الطريقة الإنكليزية، وخاصة أن يضع كل واحد منكم

طفله في المدرسة ليتعلم التكلم بالإنكليزية»[6].

ولكن بعد ذلك بخمسة أعوام، كانت هناك لائحة قانون تعلن هنري الثامن ملكاً لإيرلندا تنتظر تقديمها لمجلس العموم ومجلس اللوردات في إيرلندا[7]. ورغم أن الغزو النورماني قد جعل استخدام الإنكليزية ينتشر في جميع أجزاء الجزر البريطانية، فإنه لم يحذف بذلك استخدام لغات أخرى.

تلاشي الفرنسية النورمانية

لو احتفظ الملكان النورماني والأنجيفي بممتلكاتهما التوأمية على جانبي القنال الإنكليزي، لكان من الممكن عند نقطةٍ ما أن توجد مرونة كافية في النظام الاجتماعي تسمح للغة النفوذ، الفرنسية، أن تنزل إلى الأسفل بالتدريج لتنتشر في كل أنحاء ممتلكاتهما. ولكن ذلك لم يحدث. إذ إن المملكة الفرنسية لم تستطع أبداً أن تراعي استقلال ملوك النورمان الذين كانوا أتباعها في الأصل. وفي العام 1204، انتهز الملك فيليب الثاني الفرصة لدحر واحد منهم (الملك جون) في المعركة، وبذلك ينهي سيطرتهم على نورماندي. وضمن صرامة النظام الإقطاعي، كان من المستحيل على البارونات أن يحافظوا على ولاء منقسم: ومن هنا فقد كان عليهم أن يعلنوا الولاء إما لملك إنكلترا أو لملك فرنسا، وأن يتخلوا عن أي أراض قد يملكونها في المملكة الأخرى. وكان ملحق ذلك أن البارونات الإنكليز صاروا إنكليزاً عن تصميم. وكما أظهرت شروط أوكسفورد في العام 1258، فسرعان ما اتخذ إجراء تم نشره لأول مرة بالإنكليزية والفرنسية معاً ـ بأنهم لن يتسامحوا مع فرط النفوذ من فرنسا، حتى ولو جاء من بقية أتباع الملك في أنجو.

> إننا نأمر رعايانا كلهم، بموجب الولاء الذي يدينون به لنا، أن يحافظوا، وأن يحلفوا بأن يحافظوا ويحموا الأوامر الصادرة والتي ستصدر من قبل المستشارين المذكورين أو من قبل أغلبيتهم، كما هو وارد أعلاه[8]....

ففي إنكلترا، بسبب نقص الممارسة اليومية، صارت الفرنسية موضوعاً يتم تعلمه في المدارس، ولم تعد اللغة الحية للنخبة.

وفي السابق، عند محاولتنا تفسير التأثير اللغوي اللافت للنظر للأنغلو - ساكسون، تكهنا بأن الإنكليزية في الأصل قد رسخت نفسها في بريطانيا في أعقاب وباء كبير في القرن الخامس الميلادي (انظر الفصل 7: 'السقوط: حالات تقدم الألمانية والسلافية'، ص 439). ولكن عندما يتعلق الأمر بطاعون الموت الأسود، فليس التكهن ضرورياً. فقد وصل ذلك الطاعون إلى إنكلترا لأول مرة في العام 1348، وعاد إليها مرتين أخريين قبل أن ينتهي ذلك القرن. فلم يبق أي قسم من المجتمع سليماً. ولكن المرض بطبيعته - تنقله البراغيث في البشر أو الفئران - كانت سمومه أكثر فتكاً في المناطق المزدحمة بالسكان، ومنها المدن وقصور البلاط، والأديرة. فهلك نصف سكان إنكلترا، وكانت العاقبة الاقتصادية أن قيمة الشخص الصافية تضاعفت. فحتى الذين لم يكن لديهم أي رصيد سوى صحتهم - أو بقائهم أحياء - استفادوا، لأن العمل أصبح مورداً نادراً بالنسبة لكمية الأرض التي ظلت ثابتة. فكانت النتيجة تمزقاً شديداً كثيفاً للنظام الإقطاعي وشمل ذلك ارتفاعاً في الدخل عند الجانب المنخفض، وزيادة في قابلية التحرك والتنقل الشخصي، وخاصة من الريف إلى المدينة، لأن الرجال صاروا بالنتيجة أحراراً في البحث عن حظوظهم بعيداً عن بيوتهم. ومن الناحية اللغوية، تقلصت مكانة النبلاء الناطقين بالفرنسية. وصارت المهن في المجتمع كله مفتوحة بشكل متزايد لذوي الجدارة. ولكن بشكل متزايد أيضاً صار كل ما يحتاج إليه أي شخص لتأمين حياة مهنية عملية هو في الحقيقة معرفة القراءة والكتابة باللاتينية والإنكليزية. وكان من علامات تلك الأيام التشريع الخاص بالتقاضي للعام 1362: حيث صارت إجراءات المحاكم منذ ذلك الحين تتم بالإنكليزية حتى ولو كانت 'مدرجة باللاتينية'.

وكان جون دي ترافيز راعي أبرشية وزميلاً في أكسفورد، فعلق على الوضع في العام 1385 أثناء اعتراضه على نص كان يترجمه. كان راندولف هيغدن قد ذكر في كتابه ("التاريخ العالمي" *Polychronicon*) في منتصف القرن الرابع عشر أن هناك سببين للفساد الذي رآه في لغة معظم الناس، وهما أن الأطفال كانوا يعلمون كيفية تفسير (أي ترجمة) اللاتينية إلى الفرنسية، وليس

إلى لغتهم الخاصة، وأن الناس الريفيين كانوا يجهدون أنفسهم ليظنهم الناس لطفاء فيتصنعون التحدث بالفرنسية. وبعد أن ترجم ترافيز ذلك، أضاف يقول:

> هذه الطريقة كانت مستخدمة كثيراً قبل الموت الأكبر [أي الموت الأسود]. ولكنها تغيرت منذ ذلك الحين. فالسيد جون كورنويل، أستاذ القواعد، غيّر العادة في مدارس القواعد في نقل تركيب الفرنسية إلى الإنكليزية. ويستخدم مدراء المدارس الآخرون الطريقة نفسها، فيتركون الفرنسية كلها في المدارس ويستخدمون جميع التراكيب بالإنكليزية، حيث يملكون ميزة تعلم قواعدهم بشكل أسرع. ويحرمون من تعلم الفرنسية، وهذا يضرّ الذين يريدون التظاهر بأنهم أناس لطفاء يعلمون أطفالهم التحدث بالفرنسية[9].

وعند حلول القرن الرابع عشر إذن، أُسقِطت الفرنسية كأداة للتعليم في إنكلترا، باعتبارها حاجزاً لا حاجة إليه أمام فهم عامة الناس للغتهم الدارجة. فلم يعد هناك أي افتراض بأن الأطفال سوف ينشؤون مع اللغة الفرنسية. فأصبحت لغة غير مفيدة إلا عند السفر إلى الخارج، إن كان فيها أي فائدة على الإطلاق، ولكن ظل هناك شعور بأن أي إنسان لطيف ومصقول حقاً ينبغي عليه أن يضمن أن أبناءه يملكون أرضية محترمة في معرفة هذه اللغة[*].

وفي القرن الذي أعقب الموت الأسود، توقفت حتى الأسر المالكة عن استخدام الفرنسية. وقد أظهر ريتشارد الثاني، في تعامله البارع مع ثورة الفلاحين في العام 1381، أنه قادر تماماً على التأثير في حشود الناس باللغة الإنكليزية. وبعد أن أطاح به هنري الرابع، ألقى خطاب تتويجه بالإنكليزية أيضاً في العام 1399 ـ فكان الأول من نوعه، كما كانت رسائل ولده هنري الخامس بالإنكليزية من حملة آجينكورت في العام 1415[**]. وهكذا فقد النورمان

(*) إن هذا كله يذكر باللهجة العاطفية البائسة نسبياً والمليئة بالحنين إلى الماضي في الدفاع عن تعلم اللاتينية نفسها، عندما كانت تقدم في مدارس إنكلترا الثانوية في منتصف القرن العشرين.

(**) بما أن القانون محافظ بصورة نموذجية، فقد استمر أطول فترة. ولم تختفِ اللغة القانونية من المحاكم نهائياً حتى تم إلغاؤها بلائحة برلمانية في العام 1733. وحسب مقياس استعادة الماضي والحفاظ عليه، فإن ولع المترافعين القانونيين بالشَّعر المستعار والرداء الفضفاض ظل صامداً بعد ذلك قرناً كاملاً.

فرنسيتهم في آخر الأمر كذلك، تماماً كما كانوا قد فقدوا لغتهم الشمالية Norse قبل ذلك بأربعمئة عام. فاختفت اللغة كآخر شبح فيه تذكير بهويتهم السابقة، لأنه عند حلول القرن الخامس عشر لم يعد هناك نورمان في أي مكان.

ترسيخ استقرار اللغة

ورغم أنه كان للإنكليز أيضاً منذ البداية طريقتهم في الكلام في شمال البلاد وجنوبها ووسطها المستمدة من طريقة الشعب الألماني، فإنهم مع ذلك قد اتصلوا وتداخلوا أولاً مع الدانمركيين وبعد ذلك مع النورمان. وقد أُفْسِدَتْ لغة البلد في أشياء كثيرة. فبعضهم يتكلم بهذيان غير واضح، وبلغو مرتجف، وبزمجرة غاضبة، ودمدمة مبهمة، وصرير بالأسنان.

جون دي ترافيز، كتاب التاريخ العالمي لراندولف هيغدن، الجزء الأول، ص 59.
النص الأصلي (كورنويل، 1385)، نسخة وليام كاكستون (لندن، 1482).

لقد تعمد هذا الكتاب أن يتجنب الإكثار من الحديث عن لهجات متميزة. فليست هناك لغة متجانسة التكوين بصورة كلية، وكل اللغات الواسعة الانتشار لها تنويعاتها الإقليمية. ولكن اللهجات بطبيعتها لها هوية أكثر غموضاً من اللغات الكاملة: فهي لا تحدد حدود المجتمعات اللغوية ككل، بل تحدد هويات إقليمية ضمنها. وبما أن اللهجات تنقصها هوية جماعية واضحة، فإنها تميل إلى التداخل، وحتى إلى الاندماج عند الحافات، وكثيراً ما يجد اللغويون أن من الأسهل عليهم أن يتحدثوا عن ملامح متميزة، مثل الطريقة غير الدائرية للفظ حرف u، وانتهاء الفعل بالحرفين *en* للدلالة على الجمع، وتأخير الأفعال إلى نهاية العبارة، والطريقة الخاصة في اختيار الكلمات، مثل *eyren* بدلاً من *eggs*، ورسم ذلك كله على خريطة منطقة اللغة ككل، فذلك أسهل من محاولة وصف كل لهجة إقليمية كشبه لغة منفصلة لها طريقة لفظها المنفصلة وقواعدها النحوية ومفرداتها الخاصة بها. فتعداد اللغات أسهل بكثير من تعداد اللهجات ضمن لغة واحدة.

إن الصياغة 'القياسية' الفصحى من لغةٍ ما هي من وجهة النظر الرسمية، مجرد واحدة من اللهجات، واختيار الملامح المفصلة من بين جميع البدائل

المستعملة في مكانٍ ما من أراضي المجتمع اللغوي. ومع ذلك فليس من السهل دائماً التوصل إلى اتفاق حول اللهجة التي ينبغي أخذها كمعيار قياسي. فالإيرلندية الحديثة المبكرة مثلاً كان لها قانون متميز للاستعمال الأدبي واستعمالات البلاط الصقيلة المهذبة، ولكنه فُقِد عند الإطاحة بالسيادة الغيلية عند نهاية القرن السادس عشر. وكان من الصعب جداً أن يعاد بناؤه من الأنواع الرئيسية الثلاثة من اللغة الإيرلندية المتداولة في القرن العشرين. وفي تاريخ اللغة الإنكليزية، لا يزال الجدل قائماً حول مدى اقتراب اللغة من الحصول على مقياس وطني في القرنين العاشر والحادي عشر، قبل سيطرة النورمان، ولكن من الواضح أنه في فترة عودتها للظهور في القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان من الصعب على أي شخص أن يقرر ما نوع اللغة التي ينبغي تكريمها بلقب 'الإنكليزية الفضلى'. وفي بادئ الأمر لم يتخذ أي قرار. فالأدب الذي بقي يميل إلى إظهار أسلوب الكلام والمفردات للكاتب في مجموعات من خصوصية البنية التي تحدد هويته في العادة كشخص من المنطقة الوسطى، أو من لندن، أو من مقاطعة كِنْت، أو من الجنوب، أو من الشمال، أو من اسكتلندا. وعندما كانت الكتابة كلها في مخطوطات، والكتابة الهامة كلها باللاتينية على أي حال، فلعله لم يكن من المهم أن الكتب باللهجة الدارجة كان من الصعب قراءتها خارج منطقتها المحلية. فإذا كانت هناك حاجة لقراءة كتاب جيد على نطاق أوسع، فقد كان بوسع شخصٍ ما أن يحول لهجته، كما فعل مؤلف *Cursor Mundi* [قصيدة بالإنكليزية الشمالية الوسطى لمؤلف مجهول في أوائل القرن الرابع عشر عن تاريخ الإنجيل منذ بدء الخليقة جعلت التعليم الديني شعبياً] في تحويل قصة رفع مريم العذراء إلى السماء بعد موتها:

لقد رُسمت بالإنكليزية الجنوبية
وأنا حولتها إلى لغتنا
الخاصة بنا نحن أهل الشمال
الذين لا نعرف إنكليزية أخرى[10].

ولكن غياب المقياس الموحد أصبح مشكلة في مجالين كبيرين من مجالات

استعمال اللغة، هما المجال الرسمي والمجال الأدبي. فعندما يتكلم العاهل وبلاطه ومحاكمه بالإنكليزية، يجب أن تكون هي الإنكليزية السائدة البارزة. ولكن كيف ينبغي عليهم التعبير عن أنفسهم في القوانين والإعلانات الرسمية لكي يمكن نشرها، وفهمها، والعمل بموجبها في جميع أنحاء البلاد؟ فإنكلترا ليست حكومة فقط، بل هي أمة تشعر بشكل متزايد أن لها شخصية متميزة، ودوراً تلعبه في العالم، وهي بحاجة إلى صوت متميز وواضح. فليس هناك شيء لافت للنظر في التسمية الناعمة للغة 'باللسان الإنكليزي'. ولكن عندما يقرر مؤلف أن يجلس ليكتب، فما هي نوعية الكلمات والتصاريف الإنكليزية المتاحة له والتي يجب أن تسود في الكتب التي ستعرف أكثر فأكثر بأنها من الأدب الإنكليزي؟ لقد أصبح هذا السؤال أكثر إلحاحاً عندما بدأت المطابع تنتج الكتب بالجملة بأعداد ضخمة في أواخر القرن الخامس عشر. فمنذ ذلك الحين صارت النسخ المتشابهة من كتاب واحد يحتمل توقع وصولها إلى جميع أنحاء المملكة: فما شكل اللغة التي ينبغي أن تظهر فيها من أجل الاستفادة الكاملة من اقتصاديات الحجم الجديدة؟

وليس هذا سؤالاً مصطنعاً للمؤرخين مطروحاً لإبراز ورطة تواجه المجتمع كي يظهر له جواب بشكل أعمى. بل إن هذا السؤال بالنسبة لبعض الناس قد طرح نفسه بشكل واضح تماماً. فالشاعر جيوفري تشوسر، وفي المقطع الأخير من قصيدته "ترويلوس وكريسيدا"، المكتوب بالإنكليزية اللندنية في ثمانينيات القرن الرابع عشر، يضيف هذه الأبيات:

وبما أنه توجد شدة عظيمة
في الإنكليزية والكتابة بلساننا،
فإنني أدعو الله أن لا يخطئ أحد في كتابتك،
أو يسيء وزن إيقاعك بسبب جهل في اللغة.
وحيثما تتم قراءتك أو التغني بك،
فإنني أرجو الله أن تكوني مفهومة،
وبالمعنى المقصود في كلماتي السابقة[11].

فهو هنا يبدو شديد القلق من تحريف النص الذي قد ينجم عن النقل من لهجة

إلى أخرى، بقدر قلقه على القارئ أو المستمع المسكين الذي يحاول التوصل إلى معنى النص ليفهمه(*).

ويبدو أن أحد الحلول التي لم تطرح نفسها في إنكلترا أبداً كان هو أن تصبح اللهجات المختلفة معياراً قياسياً لأنماط الكتابة المختلفة، رغم أننا قد رأينا أن هذا هو ما حدث في الأيام المبكرة من الأدب اليوناني، وإلى حدٍ ما في إيبيريا أيضاً، عندما طورت البرتغالية دوراً لها كأداة للشعر الغرامي، حتى في إسبانيا. فقد كان يمكن تصورها مثلاً في نجاح 'البوم والبلبل'، و'الثعلب والذئب'، وهما حواران للحيوانات بالشعر في القرن الثالث عشر، مما كان يمكن أن يجعل الإنكليزية الجنوبية هي اللغة المفضلة لهذا النمط من التخيل. ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل أبداً. وبدلاً من ذلك صارت لهجة واحدة هي المفضلة لدى الجميع.

وهذه المشكلة واجهها بأقسى أشكالها وليام كاكستون، أول طابع وناشر إنكليزي، وكان ذا أثر كبير في حلها. ويمكننا أن نتنبأ بالجواب: فكما سنرى (في الفصل الثالث عشر، ص 718-719)، فإن اللهجة المحكية في العاصمة هي التي أصبحت بأغلبية ساحقة معياراً قياسياً للغة الوطنية. وقبل أن يعلن كاكستون سياسته، أشار إلى هذا المأزق فعلاً:

> من المؤكد أنه يصعب إرضاء كل إنسان بسبب التنوع والتغير في اللغة، لأن كل إنسان له سمعة في هذا المجال في هذه الأيام سوف يمارس اتصاله حول هذه القضايا بطريقة ومصطلحات لا يفهمها إلا قليلون. وكان معي بعض الكتّاب الشرفاء والعظام ورغبوا أن أكتب أغرب المصطلحات التي أستطيع العثور عليها. وهكذا أقف متحيراً بين السهل، والجلف، والغريب. ولكنْ، حسب رأيي فإن المصطلحات الشائعة الاستعمال يومياً

(*) من وجهة نظر أخرى، كانت لهجات الإنكليزية نعمة لمؤلفٍ ذي أسلوب طبيعي مثل تشوسر، الذي كان أول من استعملها ليعطي واقعية للحوار. ففي "قصص كانتربري"، فإن مأمور التنفيذ، الموصوف بأنه من نورفولك، يروي قصة جون وألين، الطالبين من كمبريدج، والواضح أنهما فتيان من الشمال، والحاجب والراهب يستمران في التحول إلى النطق باللهجة الإنكليزية الشمالية الواضحة المتحررة (روبنسون 1957، ص 686، 688، 704 -705).

> هي أسهل فهماً من الإنكليزية القديمة. ومعظم هذا الكتاب ليس للجاهل ولا البعيد كي يتعب في محاولة قراءته بل هو للكاتب والرجل اللطيف الذي يشعر به ويفهمه في الحقيقة بمحبة وفروسية نبيلة، ولذا فهو وسيلة بين ما نقلته وترجمته إلى إنكليزيتنا، دون أن يكون ساذجاً ولا غريباً ولكن بمصطلحات يمكن فهمها بفضل الله حسبما هو وارد في نسختي[12].

إذن فإن كاكستون يزعم أنه يتبع سياسة إنكليزية كلاسيكية من التسوية التوفيقية المعقولة. ولكن ما كان يفعله في الحقيقة هو تحويل النصوص إلى إنكليزية لندنية. وهذا واضح على سبيل المثال من المقطع المقتبس في أول هذا القسم، حيث يوضع النص الأصلي الذي كتبه جون دي ترافيز فوق النسخة التي طبعها كاكستون بعد ذلك بقرن. وعند فحصه بدقة نجد أن فيه مجموعة من التغييرات الطفيفة ـ فيستخدم هنا كلمة *they* بمعنى *hy*، ويحذف نهاية الفعل بحرفي *ep* عند الجمع، ويضع الحرفين th وgh بدل p وz في مجمل النص. ولكن يبقى مدهشاً مدى الفرق الحاصل عند إيصال النص إلى نطاق قدرة الناطق بالإنكليزية الحديثة على قراءته، حتى الآن، بعد خمسمئة عام. فالإنكليزية القياسية، كما نعرفها الآن، لا تزال تحمل علامة تلك القرارات التي اتخذها كاكستون ومعاصروه.

وعند اتخاذ هذا القرار، فإن التوفر المتزايد للأدب المطبوع، بالانسجام مع قوة التعليم المتنامية عند عامة الناس، أعطى تعزيزاً قوياً للهجة المعينة التي يتم طبعها. وجاءت مساعدة أخرى من أن مصادر تأليف الكتب بالإنكليزية، أكسفورد وكمبريدج، كانت تقع في منطقة اللهجة الواسعة نفسها، التي كانت تعرف غالباً بجنوب غرب الأراضي الوسطى(*). وعندما صار عدد كافٍ من الناس قادرين

(*) كانت الملامح اللغوية الرئيسية لهذه المنطقة هي: استخدام الحرف ō وليس ā في كلمات مثل *go, stone, woe* – وفي شمال الهمبر احتفظوا بالصوت ā من الإنكليزية القديمة، باستخدام الحرف y (أي الحرف u الفرنسي) ثم الحرف i فيما بعد، كما في الكلمات *mice, Fire, sin, hill*- وفي كنت وإيست أنغليا استخدموا الحرف ē- وهذا يفسر معظم حالات وجود الحرف y الذي يظهر أنه بلا مبرر في تهجئة كاكستون؛ واستخدم فعل التصريف المساعد *shall* في مقابل *sal* بلغة نورثمبريا، واستخدام الضمائر *theyr, them, they, she* في مقابل الضمائر *here, hem, hy, heo* المستخدمة في غرب البلد وجنوبه. وفي الأفعال، فإن اسم الفاعل والمصدر، المعممة في الجنوب والأراضي الوسطى باستعمال اللاحقة *ynge*- في

على القراءة وبدؤوا يقرؤون فعلاً أصبحت الطباعة الوسيلة الإعلامية الأولى، مع استقطاب مقولة 'الفائز يأخذ كل شيء' ذات الآثار المألوفة الآن من ثقافة التلفزيون. فالناس يتعلمون حتماً من قراءة الكتب كيف يجب أن تكتب الإنكليزية. وبذلك فقد أصبحت إنكليزية الملك هي إنكليزية الشعب أيضاً، على الصفحة على الأقل. وهكذا فللمرة الأولى تم إعطاء تعريف محدد لعبارة 'اللسان الإنكليزي'.

ولم تقتصر العملية على الإنكليزية. فقد كانت تجري عمليات من تعريف اللغة تكاد تشبهها تماماً في لغات أوروبية أخرى في الوقت ذاته، ولا سيما الفرنسية، والإسبانية، والألمانية، التي كانت في الكلام المحكي مقسمة إلى لهجات كالإنكليزية على الأقل. ففي النصف الأول من القرن السادس عشر، بدأ الطابعون الفرنسيون يعطون قواعد للتهجئة واستعمال النبرات، وبدؤوا مهمة - لم تكتمل أبداً - هي تشذيب الأعداد الهائلة من الحروف الصامتة التي يكتبها المتشددون ولكنها لا تلفظ أبداً بتلك اللغة. أما الإسبانية، التي جرت فيها تغييرات أقل لأنها كانت لاتينية فكان بوسعها أن تكون لفظية في تهجئتها بصورة أكثر صرامة، ولكن وجود كتاب نبريجا عن قواعد القشتالية في العام 1492 كان أساساً لاستبعاد صيغ وأشكال تميزت بها اللهجات الأخرى، وخاصة لهجة أراغون.

وتبين المقارنة أن التوحيد السياسي لم يكن بأي حال جوهرياً لتحديد لغة وطنية في هذا العصر من ولادة الأدب المطبوع. أما الأراضي التي كانت الألمانية محكية فيها فلم تكن لها حكومة واحدة. ومع ذلك، فإن مارتن لوثر، المواطن من سكسونيا المنخفضة وثورينجيا، أصدر في العام 1522 ترجمته للعهد الجديد إلى لغته الألمانية، متطلعاً طيلة الوقت إلى جعله 'مفهوماً لدى سكان ألمانيا العليا والدنيا'. ثم أضاف ترجمته للعهد القديم في العام 1534. وعن طريق شعبية

مقابل اللاحقة الشمالية ande-، وحرفا الجمع *en* كما في *we speken* أو لا شيء، كما في *they use* في مقابل عبارتي we speketh وhy useth في جنوب البلد. والواقع أن الفعل المضارع يصبح عرضة لكثير من الخلط ما دامت هذه اللاحقة eth- تستخدم أيضاً للضمير الثالث المفرد في الجنوب، كما أنها مستعملة كثيراً عند شكسبير وفي إنجيل الملك جيمس *the wind bloweth, he goeth*. وفي آخر الأمر تم تبديل هذه ولكن باللاحقة es- التي كانت مستعملة لكل الضمائر عدا الضمير الأول المفرد في الشمال: فنقول *I here,* ولكن مع باقي الضمائر كلها نقول *heres* (جمعت هذه التفاصيل من موسيه 1962، الذي يورد كثيراً غيرها).

أعماله (وامتيازها)، نجح في تأسيس الألمانية القياسية الموحدة في صورة لهجته المحلية. وطبعت نسخ محلية من الإنجيل في أجزاء أبعد من المناطق الناطقة بالألمانية، في بال، وستراسبورغ، وأوغسبرغ، ونورمبرغ، ولكنها كانت محلية فقط إلى درجة إضافة مسارد لمعاني مصطلحات لوثر الغربية الأكثر تميزاً؛ ولأول مرة، بدئ بكتابة قواعد نحوية كلية للغة الألمانية، مبينة بصراحة على طريقة استخدام لوثر لها[13]. وهكذا تم تحديد اللغة الألمانية العليا.

وكان الإنجيل أساسياً أيضاً في تحديد الإنكليزية. ومن الواضح أن التوسع الانفجاري في معرفة القراءة والكتابة بعد اختراع الطباعة، وفي أوائل القرن السادس عشر، كان دعماً كبيراً للأفكار البروتستانتية التي كانت تهز المسيحية الغربية في هذا الوقت بالضبط. فبعد كل شيء، كان تحديد لوثر للغة الألمانية ناتجاً عرضياً فقط لاهتمامه العاطفي الشديد بإتاحة كلمة الله بشكل مباشر للجميع، وليس للمتعلمين فقط. وكان القراء الإنكليز متلهفين على هذه النعمة بالدرجة نفسها، بل إن مثل هذه الحماسة كانت تعود إلى العام 1382، عندما وضعت ترجمة جون ويكليف في التداول عن طريق مجلدات مكتوبة باليد، ولكنها كتبت بقسوة في 1407 ـ 1409: وهناك دائماً طرف يؤمن أن البركات العظيمة يجب أن لا يتم توزيعها إلا تحت إشراف دقيق. وقد ظل هذا الرأي سائداً حتى نهاية القرن الخامس عشر.

وقد خرجت سلسلة من الأناجيل مطبوعة باللغة الإنكليزية في القرن السادس عشر، ابتداءً بترجمة وليام تندال للعهد الجديد في العام 1525[14]. فكانت في بادئ الأمر وثائق تعتبر مثيرة للفتنة والتمرد بالطبع، ومع ذلك كانت لها شعبية. وعند مجيء الملكة أليزابيث للحكم (1558 ـ 1603)، ترسخ بثبات حق الناس في قراءة الإنجيل بالإنكليزية(*). وترسخ معه، وربما أهم منه، نص كان الجميع يقرؤونه، وهو كتاب الصلوات العامة. ثم في العام 1611 ظهر إنجيل الملك جيمس، الذي أنتجته لجنة مالية قامت بترسيخ النص المحدد للإنجيل

(*) بل وبالويلزية كذلك: فقد سمحت أليزابيث أيضاً بنشر الإنجيل باللغة الويلزية، فطبع في لندن في العام 1588، وانضم إلى الترجمة الويلزية لكتاب الصلوات في الكنائس الويلزية.

بالضبط كما يجب أن يقرأ باللغة الإنكليزية طيلة القرون الثلاثة التالية لذلك التاريخ. فكان عملاً وحيداً شاع بين المسيحيين الناطقين بالإنكليزية على مدى عشرة أجيال.

وقد برر مثل هذا النص اتساع نطاق معرفة القراءة والكتابة بشكل متزايد[15]، وأنجز تلك المعرفة بحيث صار الناطقون بالإنكليزية يملكون أكثر فأكثر فكرة واضحة ومتميزة عنها، بل ونموذجاً ملموساً وحيداً عن اللغة الإنكليزية أثناء الاستعمال. وسرعان ما انتقل هذا النموذج إلى أقاصي أنحاء الكرة الأرضية[*].

ما نوع اللغة؟

ما نوع اللغة الذي أصبحت عليه الإنكليزية؟ لقد قدر لهذا السؤال أن يصير محمّلاً بمعانٍ ضمنية عالمية. ولكن الناطق الأصلي العادي باللغة يجد صعوبة خاصة في تقديره. فتركيب اللغة خفي غير مرئي. وسبب خفائه هو السبب نفسه الذي يجعل الخدمة المدبرة مضللة: فبحكم قوة العادة فإن انتباه كل إنسان يتركز على العمل الظاهر بين يديه، وليس على وسيلة تنفيذه. وحتى عند إفراد

(*) هناك مجموعة كاملة من النصوص تذكر في العادة مع إنجيل الملك جيمس ولها مكانة تعادل مكانته في التحديد النصي للغة الإنكليزية. وهذه المجموعة هي أشعار وليام شكسبير. وهذان العملان يكادان يكونان متعاصرين تماماً. 'فالترجمة المرخصة' للإنجيل تم تجميعها من العام 1604 إلى العام 1611، وكتابات شكسبير من العام 1590 إلى العام 1611. ولكن على عكس الإنجيل، فإن كتابات شكسبير (التي ظهرت طبعتها الكاملة الأولى في العام 1623) لم تصبح على الفور نصاً أيقونياً للغة الإنكليزية. فقد تنامت سمعته عبر القرن السابع عشر إلى أن تم تمجيدها بشكل كامل على يد صاموئيل جونسون في القرن الثامن عشر.

إن ظاهرة شكسبير تذكرنا بمكانة هوميروس في تاريخ اللغة اليونانية. فقد كان كل منهما شاعراً له مجال موسوعي، ومواصفات لا يتحداها أحد، ولكن هويتهما مبهمة غامضة، عند أو قرب تأسيس التقليد الرئيسي للغة في أعمالهما الأدبية الكلاسيكية العريقة. وقد حصل كل منهما كما يبدو على مكانته بعد قرن على الأقل من حياته الفعلية ومؤلفاته. واستمر ذلك لكل منهما حتى صار له دور غالب متفوق في تراث لغته. وراح النقاد ومعلمو المدارس يكيلون لهما المديح بصورة لا تنتهي، بل ويستمدون منهما أفكاراً تقليدية عن تاريخ المجتمع اللغوي. ولعل أفضل تفسير لذلك هو التأكيد على أن كلاً منهما كان مديناً أكثر من معظم الآخرين لتقليد قديم وغني. فهوميروس كان مديناً للشاعر الرحالة، أو "أوديوس"، وشكسبير كان مديناً للممثل الجوال. وكان ذلك أقل روعة ولفتاً لأنظار معاصريهما الذين كانوا يرونهما في سياق حياتهما. ولكن مع مرور الزمن تشكل شعور بأن أعمالهما تلخص التقليد الأدبي، وهكذا حلت محله في الذاكرة.

الوسيلة وإبرازها عندما يصف الشاعر حرفته، أو عندما يلفت الناقد الأنظار إلى تركيب النص، يبقى هناك ميل لأخذ الصلات بين الأصوات والكلمة، وبين العبارة والشيء، والنطق والفكرة على أنها واضحة بحيث لا حاجة لذكرها، أو غامضة غموضاً كلياً. فإذا كان عقل اللغة له أسبابه، فإن قلبها الأدبي لا يعرف عنها شيئاً يذكر، بل ولا يهتم بها أصلاً. فالناطقون والكتاب، والمستمعون والقراء يتعاملون بذكاء وبراعة، وغالباً بالحدس، مع النتائج التي يقبلونها ويدركونها جميعاً، وفي واسطة غير محللة إلى حد كبير، تماماً كما يتنفسون، ويهضمون، وتنظم أجسامهم درجة حرارتها(*).

ومع ذلك فإن للغة الإنكليزية خصائص تجعلها هي اللغة الحالية القائمة لا غيرها. وكانت معظم هذه الخصائص موجودة فعلاً في القرن السادس عشر. ومن وجهة نظر الوفرة في العالم، فهي لغة فيها سلسلة واسعة من حروف العلة العادية والطويلة والمزدوجة (مثل الكلمات التالية في الإنكليزية القياسية: *mat, met, mitt, motte, mutt, put, mart, mate, meet, might, moat, moot, mute, mouth, moist, mere, mire, flower, moor, immure*)، وفيها أيضاً سلسلة أقل تقييداً من أصوات الحروف الصامتة، (مثل: *bun, pun, spun, dun, ton, stun, con, gone, scone, chin, gin, hun, train, drain, son, shin, led, red, bum, bun, bung,* وقد أضيفت إليها فيما بعد: *zoom, leisure*). وقد أصبحت هذه أكثر تحدياً عندما أُخِذَتْ في الحسبان التراكيب المسموح بها: تأمل

(*) هناك ملاحظات أكثر من اللازم تقدم كتعليقات على طبيعة اللغة الإنكليزية، وخاصة تلك التي يقدمها الكتاب، وهي مديح مقنع بقناع خفيف لتقاليد الناطقين بها وتطلعاتهم. وتأمل كلمات السير آرثر كويلر - كاوتش في مقدمته لكتاب أكسفورد للشعر الإنكليزي: 'إن آباءنا، على مر القرون، قدموا لهذه المملكة ومستعمراتها والمناطق الواسعة التابعة لها كلاماً مطواعاً ومتكيفاً كلغة الآتيك اليونانية، وجليلاً مبجلاً كاللاتينية، وفيه فحولة ولكنه متحرر من الألفاظ الحلقية التيوتونية، وقابلاً للدقة كالفرنسية، وعذباً سائغاً كالإيطالية، ورناناً كالإسبانية، وقادراً على قيادة هذه الامتيازات لخدمته'. أو كلمات والت ويتمان: 'إن اللغة الإنكليزية عند النظر إليها بتحرر هي التنامي المتعاظم لكل لهجة، وعرق، ومجال زمني، وهي منتقاة ومؤلفة منها جميعاً. ومن وجهة النظر هذه فهي تمثل اللغة بأوسع معانيها، وهي في الحقيقة أعظم الدراسات' ('العامية الدارجة في أمريكا'، مجلة نورث آميركان ريفيو، 41، 1885). ومثل هذه الثقة قد تكون مفيدة طبعاً في استخدام اللغة ببلاغة. وإن أي لغة تحمل شبكة واسعة من الارتباطات بالماضي وتنمو قوتها مثل قوة ذلك الماضي ستكون مذكورة غير منسية.

الكلمات التالية: *scourged, widths, strengths, fifths, sixths, sevenths, eighths, shrinks, mostly, thrust, scripture, contemptibly, constraints, spindly, adze,stupid*. إن بعض قواعد نظامها الصوتي تأتي كمفاجأة للناطقين الأصليين بها، لأنها لا تملك دوراً في التهجئة، ولذلك فإنها نادراً ما تذكر في المدارس. فطول حرف العلة مثلاً له كل العلاقة مع الحروف الصامتة الأخيرة في مقطعٍ ما، ولا علاقة له مع حرف العلة نفسه، فالكلمات: *mate, mace, mitt, right, rot, lout, motes, route, kilt, health, Alf,* فيها كلها حروف علة قصيرة، بينما: *mad, maze, mid, ride, rod, loud, modes, rude, killed, delve, pals* فيها كلها حروف علة طويلة ؛ أو أن نفخة الهواء الحاسمة التي تميز كلمة *pin* عن كلمة *bin* وكلمة *tab* عن كلمة *dab* هي مفقودة في كلمتي *spin* و*stab* ـ وهكذا فمن وجهة النظر اللفظية يمكن تبرير كتابة هاتين الكلمتين على شكل *sbin, sdab*. إن قواعد التشديد في الإنكليزية معقدة، ولكنها ضرورية لفهم الكلام الفصيح، وأنماط النبرات لجملة كاملة شديدة التنوع كذلك.

إن تركيب الكلمات الإنكليزية واضح وبسيط ومباشر. وإن نظام النبرات التصريفية في الإنكليزية القديمة، الذي يذكرنا باللاتينية أو الإغريقية، قد فقد منذ زمن طويل، فمعظم الكلمات إما أنها بسيطة، أو مركبة بوضوح من جذع، مع حروف قليلة من السوابق أو اللواحق(*). وإن الشذوذ في قواعد اللغة يخص على الأغلب كيفية تطبيق اللواحق على كلمات معينة (فجمع كلمة man ليس man مضافاً إليها s ولكن *men*، وماضي الفعل strike ليس striked ولكن *struck*). والأفعال الرئيسية قد تظهر ملحقة مع أفعال أصغر تدع الأفعال المساعدة والخاصة بصيغة الفعل، وهي *(be, have, do, shall, will, can, may, must)*، ويمكن أن تنعكس صورتها في ظروف معقدة مثل: *(He has been taken for a ride, **hasn' t he**? They **have** too, **haven' t they**? but Everybody **seems to have, don' t they?**)*. وهناك أهمية حساسة

(*) عليّ أن أطمئن اللغويين الذين يقرؤون هذا أنني أتعمد تجاهل التركيب الكامن في الكمية الهائلة من المفردات المستعارة من اللاتينية، والفرنسية، واليونانية، أو المركبة منها.

لترتيب الكلمات. فهي في الجملة البسيطة ثابتة جامدة على شكل الفاعل ـ الفعل ـ المفعول به (أنت رأيت نمراً) ولكن مجموعة من التنويعات والفوارق الدقيقة تبرز في صيغ الأسئلة أو الجمل الأكثر تعقيداً. فالترتيب في جملة من رأى نمراً؟ لا يزال هو الفاعل ـ الفعل ـ المفعول به. ثم تبدأ الغرابة في صيغة: يا له نمراً أنا رأيت! فالترتيب هنا صار (المفعول به ـ الفاعل ـ الفعل)، و: هل أنت رأيت نمراً؟ (الفعل المساعد ـ الفاعل ـ الفعل ـ المفعول به)، وماذا أنت رأيت؟ (المفعول به ـ الفعل المساعد ـ الفاعل ـ الفعل) وماذا أنت تعتقد أنه رآك؟ (الفاعل ـ الفعل المساعد ـ الفاعل ـ الفعل ـ الفعل ـ المفعول به). إن هذا التلاعب بترتيب الكلمات، رغم أنه مألوف في اللغات الجرمانية، فإنه يقع خارج مدارك القواعد النحوية كما طورها اليونان والرومان، وبالتالي كما تم تدريسها في أوروبا العصور الوسطى والحديثة. والواقع أن اللغويين النظريين لم يعثروا على وسيلة مناسبة لتحليل ترتيب الكلمات إلا في خمسينيات القرن العشرين. فلم يكن من المدهش أن اللغة لم تصبح موضوعاً أساسياً للغويين النظريين إلا في ذلك الوقت.

وإذا قارنا الإنكليزية باللغات الأخرى التي حققت مكانة عالمية، فسنجد أن أشبه اللغات بها هي الصينية والملايوية. وبالطبع فإننا نحتاج إلى أن نسقط من الحساب المصادر الرئيسية لمفرداتها: فقد كانت الإنكليزية طيلة حياتها القصيرة على اتصال وثيق بالفرنسية واللاتينية، ومنذ العام 1500 صار تعليم الكثيرين من نخبة الناطقين بها يشمل اليونانية أيضاً. ونتيجة لذلك، فإن هذه اللغات الثلاث قدمت الغالبية العظمى من الكلمات التي دخلت إلى الإنكليزية، سواء بالاستعارة أم بالاختراع. ولكن عندما نضع جانباً أصول كلماتها ـ وبالتالي مظهرها المكتوب على الصفحة ـ فإن الحقيقة المذهلة التي تظهر هي أن أقرب اللغات شبهاً بالإنكليزية لا تأتي من أوروبا، بل من أقصى شرق آسيا.

(*) حسب علمي، فإن تقليد "كانبون" الياباني الذي يقرأ نصاً صينياً تقليدياً كلاسيكياً كأنه مكتوب باليابانية تماماً كان هو التقليد الوحيد الذي يملك من الجرأة المتهورة والثقة بالنفس ما جعله يستغني عن هذه العادة الأساسية المتبعة.

فالصينية والملايوية، مثل الإنكليزية، يأتي ترتيب الكلمات في جملها على شكل: الفاعل ـ الفعل ـ المفعول به، وبدون أي تغير يذكر في تصريف الأفعال أو الأسماء. فالكلمات بسيطة، والمعاني المعقدة تنتج من تصفيفها معاً بشكل متسلسل. وعلى عكس ذلك، فإن كل اللغات الأخرى التي نظرنا فيها لديها درجة عالية من التغيرات الصرفية، رغم أن البرتغالية، بالشكل الذي ترسخت به في آسيا، قد ألغت هذه التغيرات وتخلصت منها.

والنظام المحافظ إلى حد غريب، والمعادي للصيغة اللفظية بشكل متزايد، هو جانب آخر في الإنكليزية يشبه الصينية (ولكنه لا يشبه الملايوية في جميع صيغ الكتابة المستعملة لتمثيلها). وكما حدث في اللغة الصينية (وفي المصرية طبعاً)، فإن حياة الإنكليزية المحكية كان ارتباطها بتقاليد اللغة المكتوبة ارتباطاً رخواً فقط. صحيح أن الكلمات لا تزال تكتب بالترتيب الذي تحكى فيه(*). ولكن تهجئتها قد أعيد النظر فيها لتتمشى مع التغيرات في اللفظ: ومن هنا فإن بقايا مجموعة الحروف مثل *gh* لا تزال موجودة في كثير من الكلمات ولكنها لم تعد تحتفظ بلفظها الأصلي، مثل الحرف [x]، والحرفين *ch* في الكلمة الاسكتلندية *loch*، ومن هنا تأتي التهجئة الغريبة لحروف العلة الإنكليزية المشددة التي نراها في الكلمات *mate*، *meet*، *mite*، *mote*، *mouth*، *mute*، ولكنها كانت سوف تكتب على شكل *meit*، *miit*، *mait*، *mout*، *mauth*، *miuwt*، لو أن الحروف لا تزال تستعمل بالقيم الغامضة التي كانت تملكها حتى القرن الخامس عشر، وهي قيم تم الاحتفاظ بها إلى حد كبير في كل لغة أخرى تستخدم الأبجدية الرومانية. ونتيجة لتعقد العلاقة بين التهجئة ولفظ الصوت، فإن نسبة كبيرة من مهنة التعليم الابتدائي، في إنكلترا على الأقل، كانت ترى حتى وقت قريب أن علم الأصوات وطريقة اللفظ يثير الخلط والارتباك بدلاً من أن يساعد عند تعليم الأطفال القراءة والكتابة. ومن هنا جاءت طريقة التعليم السيئة الصيت التي تقول للطفل: 'انظر والفظ'، وهي طريقة تعامل كل كلمة كما لو أنها كانت بحروف صينية.

وكما هي الحال في اللغة الصينية، فإن المرء يستطيع أن يقول إن اللغة

الإنكليزية بالنسبة للمتعلمين المبتدئين كانت معروفة القراءة والكتابة لفترة أطول من اللازم.

إلى الغرب هيّا!

إن اللغة التي تعلمتها في هذه الأعوام الأربعين،
لغتي الإنكليزية الأم، يجب أن أتخلى عنها الآن:
ولم يعد لساني أكثر فائدة لي
من كمان أو قيثارة بلا أوتار؛
أو آلة جذابة، محجوزة في علبة مغلقة،
أو تنفتح في يدي شخص
لا يعرف ضبط النغم بلمسته:
لقد حبستم لساني في فمي،
وحجزتموه بشكل مضاعف في أسناني وشفتي؛
وصار الجهل الغبي العقيم الفاقد الإحساس
هو سجاني الذي يحرسني.
وأنا أكبر عمراً من أن أتودد إلى ممرضة،
وقد تقدمت سني أكثر من أن أصبح تلميذاً الآن:
فما هو حكمكم إذن، سوى الموت الصامت،
الذي يحرم لساني من أن ألتقط نفساً بلغتي الأم؟

الدوق نورفلك، حول نفيه

شكسبير، ريتشارد الثاني، الفصل الأول المشهد الثالث

تبدو كلمات نورفولك هذه كأنها أول مثال على يأس رجل إنكليزي، يكاد يكون تقليدياً الآن، بخصوص إمكانية اضطراره لتعلّم لغة أخرى: فهل يمكن للنفي أن يتضمن رعباً أعظم من هذا؟ كانت الإنكليزية عندئذٍ هي اللغة المحكية حصراً ضمن حدود الجزر البريطانية. وعندما كتبت هذه الكلمات، على الأرجح في العام 1595، لم يكن هناك سوى مستعمرة واحدة ناطقة بالإنكليزية خارج الجزر

البريطانية، هي مستعمرة رالي في رونوك، 'فرجينيا'، منذ العام 1586، ولم يكن أحد في إنكلترا آنذاك يعرف أنها لا تزال موجودة(*).

وشيئاً فشيئاً، صار من غير الضروري للمسافرين من بريطانيا أن يتعلموا لغة أخرى، لأن الناطقين بالإنكليزية راحوا عندئذٍ ينشرون مستوطنات جديدة حول العالم. وكثير من تلك المستوطنات كانت ستتوسع، لتصبح - مع بريطانيا - من بين أكبر أمم الأرض وأغناها، وأقواها. وكانت دوافع المستوطنات على مدى ثلاثة قرون متنوعة: فمنها مجد المملكة، والمكاسب من القرصنة، وتأسيس مدن مثالية فاضلة جديدة، والإثراء من الزراعة والتعدين والتجارة، والمجد الشخصي، وتحرك الواجب لنشر التبشير الديني بسيرة السيد المسيح، والاستراتيجية العامة، والكسب المفاجئ من غنائم الانتصارات العسكرية، بل وفي النهاية شيء من الإحساس بالالتزام بواجب تثقيف السكان الأصليين. وفي هذا كان الإنكليز مختلفين عن كبار أسلافهم، البرتغاليين والإسبان والهولنديين والفرنسيين، الذين كان يحركهم واحدٌ أو عدد قليل من هذه الدوافع. وبهذا المعنى، كان البريطانيون هم الأنصار العالميون للاستعمار الأوروبي(**). وكان من الممكن المجادلة بأن تنوع الدوافع بحد ذاته هو ادعاء بعدم وجود دافع على الإطلاق. ففي العام 1883، اشتهر السير جون سيلي، الخبير في الشؤون العامة أنه ادعى ما يلي: 'يبدو أننا غزونا نصف العالم وملأناه بالسكان في نوبة من شرود الذهن'[16]. وهذا شيء مناسب جداً لتصور البريطانيين أنفسهم عن براءتهم العفيفة الطاهرة.

قراصنة وزارعون

إن الامتدادات الأولى للغة الإنكليزية عبر المحيط الأطلسي تذكرنا بتحركات

(*) إن هذه المستعمرة، وجزيرة كروتون التي نزحت إليها وعسكرت فيها بصورة مشهورة ولكنها غامضة، كانتا في الحقيقة على ساحل نورث كارولاينا الحديثة. والباقون القليلون الذين اندمجوا مع الناطقين المحليين بلغة آلغونكيان قدر لهم أن يتخلوا عن إنكليزيتهم في القرن السابع عشر. ولكن الإنكليزية بقيت في المستعمرة اللاحقة في جيمستاون، التي انتقلت عاصمتها فيما بعد إلى وليامسبرغ.

(**) من المثير للاهتمام أن نلاحظ أن واحداً من الدوافع الكبرى لروما وروسيا، وهو دافع تأمين الحدود عن طريق غزو الجيران، كان غائباً إلى حد كبير.

السنسكريتية عبر خليج البنغال قبل ذلك بألف وخمسمئة عام، عندما كان التمييز غير ممكن تقريباً بين قراصنة "ساهاسيك" الفاتنين وتجار "سادهاف" البارزين (انظر الفصل الخامس: 'انتشار السنسكريتية'، ص 286). فقد كانت بريطانيا هي الأخيرة من بين القوى التي واجهت الأطلسي بحثاً عن حظ جديد في الغرب. ولم تكن هذه في بداية الأمر لعبةً يسهل الدخول فيها. ففي القرن السادس عشر، عندما كانت إسبانيا تستخرج أرباحاً هائلة من مناجمها في المكسيك وبيرو، وكانت البرتغال ترقع تجارة المحيط الهندي، وحتى فرنسا كانت تستكشف امتداد نهر سانت لورانس، كان ملكا إنكلترا هنري الثامن وأليزابيث الأولى قد دعما رحلاتٍ استكشافيةً قليلة جداً عبر شمال الأطلسي فلم ينتج عنها شيء، ولا حتى رؤية الأرض اليابسة. ولكن فرانسيس دريك كان قد اكتشف خطأً يمكن أن يكون مربحاً عُرِف بطريقة مجازية مخففة باسم 'أخذ الجوائز'. وفي غضون خمسة عشر عاماً من العام 1573، عاد وحده بعد مزيج من الغارات على الموانئ الإسبانية، ونهب لسفن إسبانية وبرتغالية في أعالي البحار، ومتاجرة في جزر الهند الشرقية ومعه غنائم قيمتها ثلاثة أرباع مليون جنيه، أي ضعف عائدات الضرائب السنوية في ذلك الوقت. وكانت حصة أليزابيث كافية لتسديد الديْن الوطني في العام 1581، ولتقديم اثنين وأربعين ألف جنيه أخرى لتأسيس شركة الشرق (التي استمرت لتصبح الأساس المالي لشركة الهند الشرقية نفسها)[17]. ولم يكن فرانسيس دريك وحده. فمن العام 1585 إلى العام 1604 كانت مئة سفينة على الأقل تبحر سنوياً لتنهب البحر الكاريبي، وتعود بمئتي ألف جنيه إسترليني كل عام[18].

ولكن أحد الأشياء التي أظهرتها الرحلات الأليزابيثية هو أن خطوط التموين

(*) هذا المصطلح في غير أوانه، ولكن المفهوم ليس كذلك. فقد نظم هاكليوت الوثيقة بعنوان "خطاب حول الزرع الغربي"، وجعل كل محتواه الغريب على الصفحة الثانية، بعناوين للفصول تكشف كل شيء:

خطاب خاص عن الضرورة الكبرى والسلع المتعددة المحتمل أن تنمو لمملكة إنكلترا هذه من الاكتشافات الغربية التي جرت محاولاتها مؤخراً. كتبه في العام 1584 ريتشارد هاكليوت من أكسفورد بناء على طلب وتوجيه من السيد المبجل تماماً والتر رالي، وهو الآن فارس، قبل أن يعود إلى وطنه مع مركبيه الشراعيين. والخطاب مقسوم إلى واحد وعشرين فصلاً، عناوينها تتبع على الصفحة التالية.

هي أعظم نقاط الضعف في أي حملة طويلة. فحتى القرصنة تتطلب على المدى الطويل قاعدة آمنة، يمكن الدفاع عنها، ويمكنها تموين نفسها، وتكون قريبة من موقع العمل والنشاط. وكان هذا بارزاً في الأساس المنطقي المقدم في النشرة التمهيدية للمستثمرين المحتملين في مستعمرة رالي المزروعة حديثاً في فرجينيا آنذاك، والتي كتبها ريتشارد هاكليوت في العام 1584. وفي الخلاصة التنفيذية(*)، بعد التعابير عن التقوى بخصوص 'نشر سيرة السيد المسيح'، والتهديد الإسباني 'للتجارة الإنكليزية المحترمة ... وهو تهديد يزداد حقارة أو خطورة'، يقدم وعداً بأن 'هذه الرحلة الغريبة سوف تعطينا كل بضائع أوروبا، وأفريقيا، وآسيا'، وعلى وجه الخصوص، '5: فإن هذه الرحلة ستكون لجاماً عظيماً لكبح شركات جزر الهند التابعة لملك إسبانيا، ووسيلة لاستيلائنا حسبما نريد في غضون عشرة أسابيع أو ثلاثة أشهر من كل عام على مئة أو مئتين من أشرعة سفن رعاياه في ميناء الصيد في نيوفاوندلاند'.

ومن حيث خطط الأعمال التجارية، لم يحدث الأمر على هذا النحو بالضبط. ففي بادئ الأمر عانت المستعمرة صعوبة حتى في إنتاج غذائها، وفي النجاة من اهتمامات الهنود. ولم تكن تملك أي طاقة، بل ولا سفناً لمضايقة الإسبان بالغارات. ولكن مصطلح "الزرع" الذي استخدمه هاكليوت في الأصل مجرد تعبير مجازي أنيق يعني 'المستعمرة'، وقد صار بالنتيجة لائقاً جداً: فمستعمرة فرجينيا عندما أعيد تأسيسها في جيمستاون، وجدت ما يقيم أودها من خلال مزارع التبغ التجارية. ورغم أن الرعاية الملكية الإنكليزية للقرصنة انتهت عندما اعتلى جيمس الأول العرش، فلم تكن هي قاعدة القرصنة الوحيدة التي نجحت في آخر الأمر عن طريق الزراعة التجارية. وقد تنامت قوة الأسطول البريطاني أثناء القرن السابع عشر، فاستطاعت بريطانيا أن تستولي على بعض جزر الكاريبي الذي كان حتى ذلك الحين بحيرة إسبانية في الحقيقة: وكان الشيء الأهم هو الاستيلاء على جامايكا في العام 1655. وفي البداية، فإن القرصنة التي استهدفت الإسبان بقيت هي النشاط البريطاني الأكبر في المنطقة. ولكن البريطانيين كانوا يلاحظون بشكل متزايد إمكانية إنتاج السكر، وهو

محصول آسيوي كان البرتغاليون رواد إنتاجه في البرازيل. فهنري مورغان، أشهر القراصنة جميعاً، استثمر أرباح قرصنته في نيكاراغوا وكوبا وفنزويلا لشراء أرض في جامايكا. وانتهى به الأمر كواحد من أقطاب إنتاج السكر، وحصل فوق ذلك على لقب فارس[19].

وهكذا فإن امتلاك الأرض، المستولى عليها لأي سبب، قد جعل من الممكن زراعة محاصيل تجارية غريبة للسوق الأوروبية. لم يكن هناك ذهب أو فضة في الممتلكات البريطانية. ولكن إمداد المستهلكين بدلاً من الصيارفة قد أثبت أنه عمل تجاري أفضل بكثير. وكانت زراعة المحاصيل تعني أيضاً الحاجة إلى قوة عاملة: فإذا كان هؤلاء عمالاً مستأجرين بعقود من بريطانيا (كما كان معظمهم في أول الأمر، وخاصة في أمريكا الشمالية)، فسوف يستمرون بتكلم الإنكليزية طبعاً: وإذا كانوا عبيداً تم شراؤهم من سواحل إفريقيا الغربية، فسيتعلمون الإنكليزية عند وصولهم، ما داموا قد فقدوا كل الصلات بموطنهم. وهكذا فإن العائدات من السكر، ومن الكاكاو فيما بعد في جزر البحر الكاريبي، ومن أنواع التبغ، ثم من النيلة والأقطان بعد ذلك، في قارة أمريكا الشمالية صارت أقوى أسس المجتمعات الدائمة المعيلة لنفسها والناطقة بالإنكليزية عبر الأطلسي.

أرض شخص آخر

يطلقون على إنكلترا القديمة اسم **آكاومينوكيت**، التي معناها "الأرض التي على الجانب الآخر". فلا يربون على الاعتقاد بأن الماء يبعد أكثر من ثلاثة آلاف ميل إنكليزي.

تشاكوك: السكين، ومن هنا فإنهم يطلقون على الإنكليز اسم **تشاكواكوك**، أي "رجال السكاكين". فقد كان الحجر في السابق يحل محل السكاكين، والنصال، والبلطات، والمجارف.

وونوموايين: إن كان يقول الصدق. إن كانونيكوس، الحاكم العجوز لخليج ناروغانسيت، أمير حكيم ومسالم. وقد استعمل هذه الكلمة ذات مرة في مخاطبته لي بشكل جاد، وقال: 'لم آمر بإيقاع أي ظلم على الإنكليز منذ نزولهم، ولن أفعل'. وكثيراً ما كان يكرر عبارة: '**إن كان الإنكليزي يقول**

الصدق فسأذهب عندئذٍ إلى قبري بسلام، وآمل أن يعيش الإنكليز مع ذريتي بمحبة وسلام'. فرددت عليه بأنني آمل أن لا يكون له سبب للشك في صدق الإنكليز، و"إخلاصهم" بناءً على تجربته الطويلة مع مودتهم وكونهم موثوقين. فأخذ عصاً وكسرها إلى عشر قطع، وروى عشر حالات، واضعاً قطعة لكل حالة كانت لديه فيها أسباب تثير خشيته.

...

وكثيراً ما كان يوجه إلي هذا السؤال: 'لماذا جاء الإنكليز إلى هنا؟' ويقيسون الآخرين كما يقيسون أنفسهم 'لأنهم يريدون الإحراق'، فبعد إحراقهم الخشب كله في مكان ما، يبحثون عن أماكن جافة ليجلبوا إليها الخشب. فهم يتبعون الخشب بسرور وينتقلون إلى مكان جديد من أجل الخشب.

روجر وليامز، مفتاح للغة أمريكا، 1643[20]

لقد تحقق نمو الإنكليزية في البحر الكاريبي دون أي احتكاك يذكر. فلم يبق إلا قليلون جداً من السكان الآراواك والكاريب بعد الاستيلاء الإسباني في القرن السادس عشر. وهكذا فإن القراصنة والمزارعين الإنكليز، والعبيد الذين استوردوهم، كانوا يدخلون إلى ممتلكات مفرغة. وكان الوضع على البر الرئيسي في أمريكا الشمالية مختلفاً جداً.

ففي فرجينيا وماساشوستس، كانت الجسور الأولى للمستوطنين الإنكليز لا تزال عدداً كبيراً من السكان الأصليين. وقد اختلط هؤلاء السكان مع صيّادي سمك القد والرحّالة المستكشفين، فكانوا على معرفة بالأوروبيين إلى حد ما(*). فكان ذلك من حسن حظ المستوطنين لأنهم ما كانوا قادرين على البقاء في هذين المكانين في السنوات الأولى بدون مساعدة فعالة من أولئك الجيران ذوي المعرفة. ففي العام 1612 تزوج جون رولف، مؤسس زراعة التبغ في فيرجينيا، من بوكاهونتاس، الابنة المتحمسة لبوهاتان رئيس قبائل واهونسوناكوك(**).

(*) كان خليج تشيسابيك، موقع مستعمرة فرجينيا، هو في الحقيقة الحد الشمالي لأنشطة اليسوعيين الإسبان في فلوريدا. ومن العام 1565 كان هذا يشمل مستوطنات في جورجيا الحديثة وكارولاينا وفيرجينيا. ولكن المنطقة كلها تم هجرها في العام 1572 بعد مقتل ثمانية مبشرين في تشيسابيك.

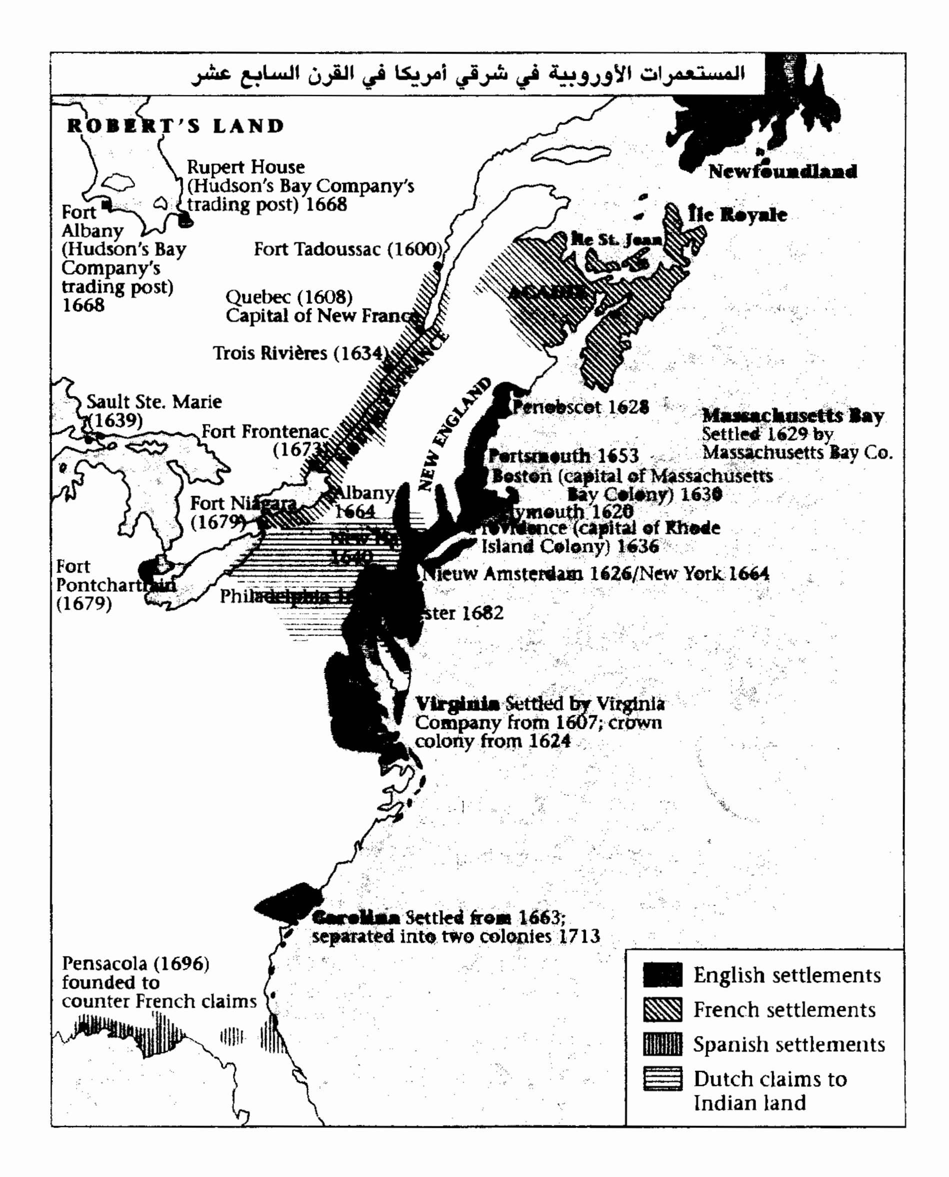
(**) كانت بوكاهونتاس امرأة استثنائية بطرق كثيرة. فقبل ذلك بسبعة أعوام، بينما كانت لا تزال فتاة

فأدى ذلك إلى بقاء العلاقات مع البوهاتان حلوة حتى العام 1622، ففي العام 1616، قاد الزوجان فريقاً من الفرجينيين إلى لندن، حيث تم تقديمهم إلى الملك جيمس الأول. وفي ماساشوسيتس، تلقى المستعمرون مساعدة حاسمة في السنوات القليلة الأولى من شخصين من الأهالي الأصليين ذوي اللغة الثنائية، وهما ساموسيت الذي كان قد تعلم شيئاً من الإنكليزية من صيّادي سمك القد، وتيسقانتوم، الذي كان يتكلم الإنكليزية بطلاقة تامة، إذ إنه كان قد عبر المحيط الأطلسي ست مرات، وأمضى تسعة أعوام في إنكلترا وأربعة في إسبانيا، وعاماً آخر في رسم خريطة ساحل نيو إنغلاند، وعاد إلى موطنه قبل عام تماماً من وصول المستوطنين الإنكليز في تشرين الثاني/نوفمبر 1620.

كانت المهمة التي واجهت المستعمرين الإنكليز شديدة الشبه بالتحدي الذي واجهه كورتيز والإسبان الذين غزوا المكسيك قبل ذلك بقرن، لترسيخ أنفسهم كسادة في وسط بلد شخص آخر. ولكن الدوافع الإنكليزية للوجود في أمريكا كانت مختلفة. فلم يكن الإنكليز يبحثون عن الذهب، أو عن متنصرين، أو حتى عن ممتلكات، بل كانوا يبحثون عن الأراضي. فكان هذا الاحتمال هو الإغراء الرئيسي للمتطوعين، منذ نشرة همفري جيلبرت التمهيدية للحملة الفاشلة الأولى في العام 1583. وبالنسبة للإنكليز، المصممين على تأسيس 'إنكلترا الجديدة'، فقد كان قصدهم هذا حرفياً تماماً. وقد أظهر كثيرون منهم جديتهم بجلب زوجاتهم وأطفالهم الصغار معهم.

وبما أنه لم يكن لديهم اهتمام بالسكان الأصليين إلا كمساعدين في العمل غير موثوق بهم ويمكن الاستغناء عنهم، فإنه لم يكن مهماً عندهم عدم وجود سيد كبير جديرٍ بالغزو في ذلك الجزء من أمريكا الذي أبرزوا أنفسهم فيه، وقد تصادف أن اللغة التي ينطق بها الأهالي الأصليون الذين قابلوهم لأول مرة لم

تدخلت عند والدها لإنقاذ حياة مغامر إنكليزي آخر من الرواد، واسمه القبطان جون سميث، الذي بقي حتى أصبح أول حاكم لمستعمرة جيمستاون. وعندما فاز جون رولف بيدها للزواج، كانت محجوزة رغم إرادتها على سفينة إنكليزية على نهر بوتوماك. وفيما بعد أصبحت من المعتنقين الأوائل للمسيحية البروتستانتية.



تكن واسعة الانتشار هناك، ولا على مبعدة فيما وراء ذلك المكان. وقد أذهلهم أن اللغة التي واجهوها كانت شديدة الانقسام إلى لهجات. فكان معنى ذلك أنه حتى القليلون منهم الذين بذلوا جهداً لتعلم النطق بها لم يكد أحد يفهمهم عندما يبتعدون عن ذلك المكان.

لقد سافرت مرة إلى جزيرة هي الأكثر وحشة وغرابة في ممتلكاتنا ....
وكنت الوحيد في مركبي، وكانت الريح معاكسة، فلم أستطع أن أجعل

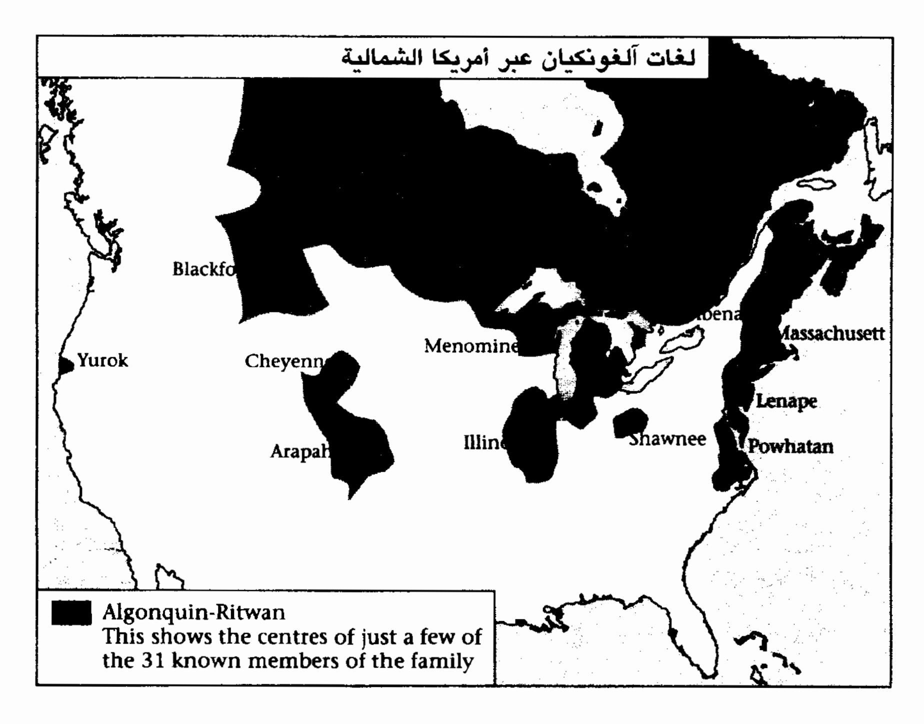
الأهالي يفهمون حديثي، وخاصة بسبب اختلاف لهجتهم وطريقة كلامهم، ومع ذلك فقد تكلمت بعون الله كثيراً ... بحيث قال لي كثير منهم عند مغادرتي: 'آه، متى ستعود مرة أخرى وتأتينا بمزيد من الأخبار عن هذا الإله؟'

...

آنوم، أي "الكلب" ... إن اختلاف لهجاتهم وطريقة كلامهم ضمن ثلاثين أو أربعين ميلاً كان كبيراً جداً، كما يظهر من تلك الكلمة، فهي "**آنوم**" بلهجة كوويسيت، **وآييم** بلهجة ناروغانسيت، **وآروم** بلهجة كونيبيكوك، **وآلوم** بلهجة نيبموك[21].

ولم يكن أحد يعرف في ذلك الوقت أن مكان وجود أفراد الأسرة اللغوية كان يمتد على طول شريط متواصل بلا انقطاع تقريباً لمسافة 2500 كيلومتر عبر التخوم الوسطى والشمالية للقارة الأمريكية الشمالية حتى سفوح جبال روكي الصخرية، من بوهاتان إلى شوني إلى ميامي إلى إيلينوي إلى آراباهو إلى شايان، ومن ماساشوستس إلى أبيناكي إلى ألغونكين(*) إلى أوجيبوا إلى مينوميني إلى كري إلى بلاكفوت. وفيما بين بوهاتان وماساشوستس يوجد ناطقون بلغةٍ أخرى ذات صلة هي لغة لينيب. وكانت هذه اللغات مختلفة جداً عن الإنكليزية. فكلماتها متعددة المقاطع إلى حد كبير، مع فيض من الحروف السابقة واللاحقة. ولكنها كانت شديدة التشابه، كما يظهر من أسماء عدد قليل من الحيوانات. فالأيل الأمريكي (moose) هو'"موز" بلهجة آبيناكي، و"موزوا" بلهجة ميامي، و"مونز" بلهجة أوجيبوا، و"موسْ" بلهجة مينوميني. والفقمة (seal) هي "آهكيكي" بلهجة آبيناكي، و"آسكيك" بلهجة أوجيبوا، "وآهكيك" بلهجة كري. والثور الأمريكي (bison) هو "بيسيهكو" أو "يسيهكو" بلهجة آبيناكي "وبسيهكيوْ" بلهجة مينوميني، "وبيشيكي" بلهجة أوجيبوا "وبيسيهكيو" بلهجة كري. وطائر الحجل الصغير (bobwhite) هو "بوهبوهكيس" بلهجة لينيب "وبوهبوسيسيا" بلهجة

(*) لقد تصادف أن الفرنسيين كانوا قد درسوا لغة ألغونكين عندما كانوا يستكشفون وادي نهر أوتاوا في العام 1541.



ميامي. وفي ترجمة ماساشوستس للإنجيل فإن الكلمة المستخدمة لطائر السلوى (quails) هي "بوهبوكويتيه"[22]. ومن الأشياء ذات الدلالة أنه في واحد فقط من هذه الأمثلة الأربعة استعيرت الكلمة الهندية فعلاً إلى الإنكليزية: فالمستوطنون لم يسبق لهم أن رأوا ثور الوحش ("البيسيهكو") من قبل أبداً، ولكنهم مع ذلك فضلوا أن يتمسكوا بعالمهم اللغوي الخاص بهم، وأن يطلقوا الاسم على شيء شبيه يعرفونه بالفعل.

وكان موقف المستوطنين من الهنود الحمر هو محاولة التعايش معهم سلمياً إلى أن يحتاج المستوطنون إلى سلب ممتلكاتهم للحصول على مزيد من الأرض لمجتمعهم الآخذ في التوسع، فلم تكن هناك مساكنة تذكر، لأن الحروب كانت تندلع عاجلاً أم آجلاً. وفي آخر الأمر تلاشى سكان نيو إنغلاند الأصليون تماماً وبصورة أسرع من تلاشي سكان المكسيك أو بيرو. ومع ذلك فإن الإنكليز لم يضطلعوا بإخضاع البلد كله عسكرياً، كما كان الإسبان يفعلون على الفور في كل منطقة جديدة يستكشفونها. ونتيجة لذلك فإن السلطات البريطانية لم تشعر أبداً بأنها مسؤولة عن الهنود الحمر بالطريقة التي كان الإسبان يشعرون بها،

فكان الجهد الإنكليزي لتنصيرهم أقل بكثير. وكان الإنكليزي الاستثنائي فقط هو الذي يبذل جهداً للوصول إلى الأهالي الأصليين روحياً أو يهتم ببناء تضامن معهم. وكان هناك اثنان من هؤلاء الاستثنائيين، هما روجر وليامز، خريج كمبريدج (1603؟ - 1683)، وجون إليوت (1604 - 1690) الذي تعلم لغتهم المحلية ونشر كتباً عنها. فكتب وليامز دراسة عنوانها: 'مفتاح إلى لغة أمريكا'، وكتب إليوت 'مبادئ قواعد اللغة الهندية، أو مقالة لإخضاع اللغة الهندية للقواعد، لمساعدة الراغبين في تعلمها لترويج التبشير بالمسيحية بينهم'[23]. وكان وليامز أميل إلى النشاط السياسي، فقد تم طرده من ماساشوستس بسبب آرائه، وكان يعمل أيضاً كمفاوض عن الناراغانسيت أثناء الحروب، ودراسته 'المفتاح' مليئة بملاحظات عن كون السلوك الطبيعي للأهالي الأصليين في أغلب الحالات له جودة تعادل على الأقل جودة سلوك المسيحيين المجاهرين بعقيدتهم. أما إليوت فكان أميل إلى التبشير. فقد كان يعظ في ماساشوستس منذ العام 1646، وترجم الإنجيل كله إلى هذه اللغة بحلول العام 1663[24]. وفي غضون ثلاثين عاماً كانت هناك حلقة من المدن حول بوسطن مأهولة 'بالهنود المصلين'. ولكن في الجيل التالي عندما اقترحت شركة ترويج التبشير التي مقرها في لندن نشر طبعة جديدة من الإنجيل، لقيت مقاومة فعالة من السلطات الاستعمارية. وكتب كاهن لاهوتي متطهر متزمت رداً على ذلك:

> إن الهنود أنفسهم منقسمون في رغباتهم بشأن هذه القضية. فرغم أن بعض عجائزهم متشددون في التمسك بهنديتهم (ولا عجب في ذلك أبداً)، فإن فيهم آخرين يرغبون في تحويل شعبهم إلى إنكليز بأسرع وقت ممكن، وأسبابهم لذلك ذات وزن ثقيل، فمن بينها أن لسانهم الهندي فقير جداً (رغم أن كلماتهم طويلة بما فيه الكفاية!)، والأشياء العظيمة في ديننا المقدس التي تصل إليهم بلغتهم لا تكاد تكون مفهومة لديهم وكأنها تصل بلغة إنكليزية كلياً. ولكن اللسان الإنكليزي سوف يعطيهم على الفور مفتاحاً لكل كنوزنا، ويمكنهم من إتقان نوع آخر من الكتب أفضل من أي شيء مكتوب بلغتهم البربرية ..[25].

ولكن الناطقين بلغة ماساشوسيت كانوا قليلين. فقبائلهم الرئيسية كانت قد دمرت في 'حرب الملك فيليب' (1675 ـ 1676)، التي كانت آخر عمل مقاومة قام به هنود ماساشوسيت ضد توسع الرجل الأبيض، وكان الهنود المصلون هم الذين تلقوا أقسى الضربات، فلم يحصلوا على مكافأة لولائهم للبيض سوى النفي لمدة عامين إلى جزيرة دير (Deer Island) القاحلة والباردة، في ميناء بوسطن.

إن مستعمرات فرجينيا، وماساشوسيتس (وكونيكتيكوت) انضمت إليها في العام 1670 مستعمرة رابعة هي كارولاينا، التي أقامها ثمانية لوردات إنكليز بموجب لائحة من الملك تشارلز الثاني. وكان الغرض منها في الأصل غريباً وهو الإصرار على إنتاج الحرير، ولكنها في آخر الأمر قبلت أن تقوم بزراعة الرز والنيلة.

مصير ظاهر

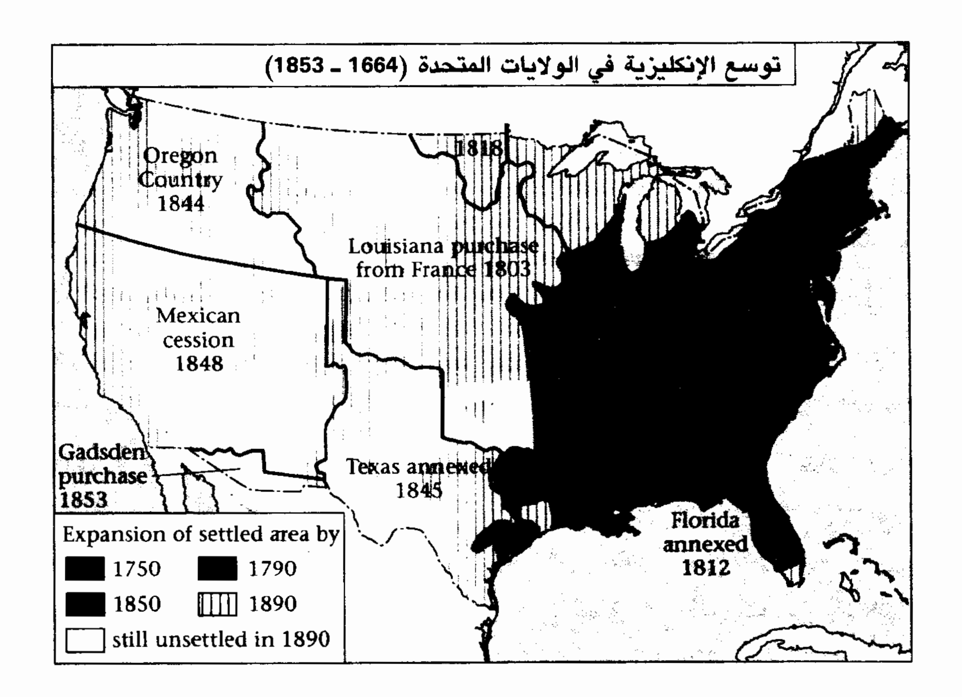
> تكساس لنا الآن. فقبل كتابة هذه الكلمات، صادق مؤتمرها بلا شك على قبول كونغرسها لدعوتنا المقدمة إليها للانضمام إلى الاتحاد، ... وقد اضطلعت أمم أخرى بالتدخل فيها، بيننا وبين الأطراف الحقيقية في القضية بروح عدوانية ضدنا، بغرض إحباط سياستنا وعرقلة قوتنا، والحد من عظمتنا، وإيقاف تنفيذ مصيرنا الظاهر للانتشار على القارة التي خصصتها العناية الإلهية للتنمية الحرة لملايينا المتكاثرة سنوياً ... فمن غير الصحيح كلياً، ومن الظلم لأنفسنا أن نتظاهر بأن ضمها كان إجراءً فاسداً وغير صحيح وغير محق، وأنه غزو عسكري تحت أشكال من السلام والقانون، وتوسيع للأراضي على حساب العدالة، وعدالة مستحقة بقداسة مزدوجةٍ للضعفاء. إن هذا الرأي في المسألة لا أساس له كلياً ...
>
> جون ل. سوليفان، مجلة *United States Magazine and Democratic Review*، المجلد 17 (تموز / يوليو ـ آب / أغطس 1845).

وهكذا رسخ المستوطنون الإنكليز وجودهم في مجتمعات زراعية على الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية. ولم يأتِ التحدي التالي من السكان الأصليين بقدر ما

أتى من زملاء الإنكليز ونظرائهم الأوروبيين. ففي القرن السابع عشر لم يكن الإنكليز يملكون الساحل الشرقي لأنفسهم، بل كانوا مضطرين لتقاسمه مع مستعمرين من فرنسا إلى الشمال، وإسبان في فلوريدا إلى الجنوب (انظر الخريطة على الصفحة 567). وحتى الوسط لم يكن يخلو من منازعة، لأنه كانت هناك أراض هولندية، وحتى سويدية، متداخلة بين مزارع بريطانيا في ماسا شوسيتس وفرجينيا. وفي كل هذه الحالات، تم إخلاء الميدان بحروب في المصالح الاستراتيجية للوطن الأم. فتم طرد الهولنديين بسرعة شديدة من هولندا الجديدة (أي بنسلفانيا، ونيوجيرسي، وديلاوير، والنصف الجنوبي من ولاية نيويورك(*)) في العام 1664. وبعد قرن من الحروب، تم طرد الفرنسيين من فرنسا الجديدة (أي كندا الشرقية) ولويزيانا إلى الشرق من نهر المسيسبي في العام 1763. وحصل الإنكليز لوقت قصير على الحق في فلوريدا من إسبانيا، في مقابل هافانا، التي كانت بريطانيا قد احتلتها في العام 1762، وفقدتها مرة أخرى بعد حرب العام 1812. كانت هذه عائدات الصراعات العالمية بين القوى الأوروبية، ولكنها رغم ذلك فتحت الأراضي لاستيطان الناطقين بالإنكليزية.

وكان الحدث الأكبر التالي هو الحرب من العام 1775 إلى العام 1783 التي استقلت فيها المستعمرات الناطقة بالإنكليزية عن حكومة موطنها في لندن، وهي الثورة الأمريكية التي خلقت الولايات المتحدة، فكانت ذات أهمية سياسية عليا في أنها شكلت مصدراً مستقلاً للتعبير للمستعمرات الإنكليزية في القارة، ومنذ ذلك الحين صارت القوة الرئيسية الناطقة بالإنكليزية في أمريكا الشمالية دولة 'ذات إمبراطورية مبنية في داخلها'[26]، وكما حدث، فإن حدودها الغربية راحت تتمدد باستمرار حتى وصلت إلى خط ساحل المحيط الهادئ. ثم إن الشكل الاتحادي للحكومة الذي تم استنباطه في العام 1777 أثبت انه مناسب جداً لهذه الإمبراطورية ذات الحدود المتحركة، عندما راحت المكتسبات الجديدة تتقدم من المكانة الإقليمية إلى مكانة 'الولاية'. ولكن الشكل الاتحادي كانت له أيضاً تأثيرات لغوية

(*) إن الحضور السويدي على ساحل المحيط الأطلسي لم يدم سوى فترة قصيرة (1638 - 1655)؛ فمستوطنتهم في ديلاوير أخلاها الهولنديون بسرعة.



خارج الولايات المتحدة. وهاجر إلى كندا في الشمال كثيرون لم يقبلوا الحكم الجديد، وبذلك خلقوا مجتمعاً هاماً ناطقاً بالإنكليزية في أونتاريو. وفي القرن الحالي قدر لهذا المجتمع أن يجتذب تدفقات رئيسية من الهجرة إلى داخل أمريكا الشمالية، وبذلك تم تعزيز السكان الناطقين بالإنكليزية، بمعزل تام عن الولايات المتحدة.

وعند حلول العام 1783، أي بعد أقل من قرنين على إقامة أول مستعمرة إنكليزية في رونوك، كانت الإنكليزية هي اللغة الرسمية في كل مستوطنة في شرق أمريكا الشمالية. وعند تلك النقطة، كانت ثلاثة أرباع ما هي الآن الولايات المتحدة القارية (أي الولايات الثمان والأربعون السفلى) لا تزال تحت السيطرة الاسمية لقوى أجنبية، هي فرنسا وإسبانيا، وإلى الشمال الغربي من إقليم أوريغون بريطانيا العظمى. ولكن ما إن مضى جيلان بعد ذلك، أي عند حلول العام 1853، حتى كانت الولايات المتحدة قد استولت على المنطقة بكاملها(*).

(*) في العام 1867 تم الحصول على ألاسكا أيضاً، بشرائها من روسيا.

وبالإضافة إلى ذلك، فبعد حلول العام 1890 كان المستوطنون قد أقاموا مدن مزارع في كل جزء من المنطقة. وإلى الشمال من نهري ريو غراند وجيلا لم يبق أي مكان لازدهار أي مجتمع لغوي مستقل ومهم.

وقد حدث هذا كله بسهولة كبيرة، في بضع جرعات دستورية كبيرة فقط. فالرئيس توماس جيفرسون استغل فرصة تفوّق نابليون في فرنسا لفترة قصيرة لشراء الامتداد الباقي من أمريكا الفرنسية، في لويزيانا، في العام 1803؛ فأدى ذلك وحده إلى مضاعفة مساحة الولايات المتحدة الأمريكية. وقام جيمس ماديسون وجيمس مونرو بضم فلوريدا من إسبانيا، وصادقا على العملية في العام 1821، فتبين أن إزاحة قبائل السمينول من الهنود الحمر أصعب من إبعاد الإسبان عنها، فاستمرت الحروب مع تلك القبائل من العام 1817 إلى العام 1842. وتم الاستيلاء على معظم الباقي من البلد أثناء إدارة رئيس واحد فقط، هو جيمس نوكس بولك. ففي العام 1845 قُبِلَ انضمام تكساس، التي كانت قد فصلت نفسها عن المكسيك ـ التي كانت آنئذٍ حديثة عهد بالاستقلال عن إسبانيا. وفي العام 1846، اقتسم الفرق مع بريطانيا لكي ينهي صراعاً طويلاً حول ملكية إقليم أوريغون، وبذلك أوجد الحدود الغربية الحالية بين الولايات المتحدة وكندا عند خط العرض التاسع والأربعين شمالاً. وأدى ضم تكساس وفرض تعويضات حربية إلى حرب مع المكسيك، فكسبتها الولايات المتحدة على الفور، واحتلت مدينة المكسيك في العملية. ولكنها في العام 1848 أعلنت اكتفاءها باستيعاب كاليفورنيا وباقي الغرب[27]. وكان بوسعها أن تحتفظ بباقي المكسيك كلها، ولكنها قررت في آخر الأمر أنها مزدحمة أكثر من اللازم بالسكان الأجانب. وحسب رأي السناتور جون ج. كالهون ـ في تحدٍ مذهل لقرنين من التاريخ الأمريكي ـ فإن 'ضم المكسيك سيكون المثل الأول تماماً على .... ضم عرق هندي أحمر، لأن أكثر من نصف المكسيكيين هنود حمر، والنصف الآخر مكون بشكل رئيسي من قبائل مختلطة. وإنني لأحتج على اتحاد كهذا! فحكومتنا ... هي حكومة عرق أبيض'[28].

وكانت كل الأراضي التي تم كسبها بهذه الاندفاعة السريعة مأهولة بالطبع

منذ زمن طويل، ولكنها لم تكن مأهولة من قبل القوى الأوروبية التي أُخذت منها. فالناس الذين كانوا هناك - وهم حوالي مئتي مجتمع لغوي منفصل في أمريكا الناطقة بالإنكليزية، وأكثر من خمسين في كاليفورنيا وحدها - وجدوا أن الاتصال مع المستوطنين يتبع مساراً متوقعاً يسهل التنبؤ به. ففي بادئ الأمر، وحتى قبل ظهور المستوطنين، تُبْتَلَى القبيلة بأمراض غامضة ومميتة. ثم عندما يأتي الرجل الأبيض للالتقاء مع أبناء القبيلة شخصياً، تجري محاولة للمصالحة ربما تؤدي إلى معاهدة بين أمتين مستقلتين، هما الولايات المتحدة، أو (حكومة صاحب الجلالة) والقبيلة، ترسم الحدود والالتزامات المتبادلة. وقد يمر جيل من التعايش السلمي، ولكن فيما بعد، ومع وصول المزيد والمزيد من الناس البيض، وبدء اعتدائهم على الأراضي القبلية، تكتشف القبائل أن استعداد البيض لفرض الاتفاقية على شعبهم محدود جداً، فتجد القبائل أن أراضيها عرضة للانتهاك، وأن سبل معيشتها يتم تدميرها. وهذا قد يعني الحرب. ولكن القبائل تخسرها على الدوام. فأعداد البيض أكثر من اللازم، وهم أفضل تسليحاً بكثير. وفي أغلب الحالات تكون المرحلة الأخيرة عملاً أحادي الجانب على أيدي البيض، فيحصرون القبائل أو يطردونها إلى معسكرات محمية قد تكون على بعد آلاف الأميال. كانت هذه هي الطريقة الإنكليزية مع السكان الأصليين في أمريكا، وقد تكررت مرة بعد أخرى.

كان ذلك ممارسة في الإبعاد والطرد بصورة جوهرية. ورغم أن القانون الأمريكي قد اعترف بالقبائل كأمم منفصلة، فلم تكن هناك خطة لإيوائهم واستيعابهم أو ضمهم بهذه الصفة ضمن دستور الجمهورية. وإن كانت هناك خطة، فهي لإعطاء أبناء القبائل، كأفراد أو كعائلات، الجنسية ليصبحوا مواطنين وأصحاب بيوت في الجمهورية. وقد زعم توماس ل. مكيني، الذي كان مسؤولاً عن الشؤون الهندية في العام 1816: 'نريد أن نجعل منهم مواطنين'، وكان جزء من هذه العملية هو تحويل لغتهم إلى الإنكليزية، 'التي هي الرافعة التي يرفعون بها أنفسهم إلى مستوى الامتياز الفكري والمعنوي والأخلاقي'[(29)]. وفي الثالث من آذار/مارس من العام 1819، أقر الكونغرس الأمريكي قانوناً لتقديم التعليم لهم 'ومنع المزيد من تدهور القبائل الهندية واندثارها ... عن طريق تعليمهم

الزراعة المناسبة لوضعهم، وتعليم أطفالهم القراءة والكتابة والحساب'. وزاد الإنفاق من عشرة آلاف دولار في العام 1819 إلى مئتين وأربعة عشر ألف دولار في العام 1842، عندما كانت هناك سبع وثلاثون مدرسة وخمسة وثمانون معلماً. وكانت القاعدة 41 من نظام المدارس الداخلية في الأراضي المحجوزة للهنود الحمر (1881) تنص على ما يلي: 'يجب أن يكون التعليم كله باللغة الإنكليزية. ويجب إرغام التلاميذ على التحدث فيما بينهم بالإنكليزية. ويجب توبيخهم بشكل كاف ومعاقبتهم على الإصرار على انتهاك هذه القاعدة. ويجب بذل كل جهد لتشجيعهم على التخلي عن لغتهم القبلية'[30].

غير أن النيّة الرسمية لإلغاء أسلاف أهالي أمريكا الشمالية الأصليين ككيانات منفصلة لم تتحقق في آخر الأمر. والواقع أن رقّاص الأهالي قد بدأ ينعطف عائداً باتجاههم مرة أخرى. ففي العام 1999 كان عدد الأهالي الأصليين للولايات المتحدة (من الهنود، والإسكيمو، والأليوت، يقدر بـ 2.4 مليون نسمة بعد أن كانوا 1.4 مليون نسمة في العام 1980 وكنسبة مئوية مجموع السكان، فإن هذا يمثل زيادة من 0.6 بالمئة إلى أقل بقليل من واحد في المئة[31]. ولكن عند النظر إلى السياسات الرسمية كوسيلة لنشر الإنكليزية، فإن هذه السياسات يجب اعتبارها فعالة، وقلب توجهها أصعب من مجرد خسارة الأرقام. فقد صارت المعرفة السلبية بالإنكليزية الآن شاملة في العالم كله تقريباً. وعلاوة على ذلك فإن أرقام الإحصائيات تظهر أنه عند حلول العام 1990 كان أقل من ربع الهنود الأمريكيين الحمر يتكلمون لغة غير الإنكليزية في بيوتهم. وحتى في الأماكن التي كانت اللغة الأصلية تظهر فيها أفضل صمود، في معسكر نافاجو في الجنوب الغربي، ارتفع عدد الأشخاص في سن المدرسة من بين السكان الذين يتكلمون الإنكليزية فقط، وذلك في الفترة نفسها التي شهدت تنامي أعداد الهنود من 11.8 بالمئة في العام 1980 إلى 28.4 بالمئة في العام 1990[32]. وهناك الآن تقرير يذكر أن أقل من نصف أطفال نافاجو لا يزالون يتكلمون لغتهم[33]. وفي الوضع الحالي، فإن إمكانية البقاء الطويل الأمد لأي واحدة من لغات أمريكا الشمالية، حتى في تعايش مع الإنكليزية، تبدو كئيبةً وقاتمة.

طرق للفوز

> إذا سألت هؤلاء الحجاج عما يتوقعونه عند وصولهم إلى كنتكي فإن الجواب هو الأرض. وإن سألت: ألديك شيء منها؟ أجابك: كلا، ولكنني أتوقع الحصول عليها. وإن سألته: ألديك أي شيء تدفعه ثمناً للأرض؟ أجاب: كلا، وإن سألته: وهل رأيت البلد في وقت من الأوقات؟ فسيجيب: كلا، ولكن الجميع يقولون إنها أرض طيبة ....
>
> موسى أوستن، 1796[34]

> 'إن الأرض هي المكان الوحيد في العالم الذي تصل قيمته إلى أي شيء'. هكذا صرخ، بينما كانت يداه السميكتان القصيرتان تصدران إشارات استنكار واسع: 'لأنها هي الشيء الوحيد الذي يستمر ويدوم في هذا العالم. فلا تنس هذا! إنها الشيء الوحيد الجدير بأن يقاتل المرء من أجله، ويستحق أن يموت المرء من أجله'.
>
> فقالت ابنته باشمئزاز: 'آه يا أبي، إنك تتكلم كأنك إيرلندي!'
>
> مارغريت ميتشيل: ذهب مع الريح، 1936

عند هذه النقطة، وقد استكملت الإنكليزية انتشارها عبر أمريكا الشمالية، يجدر بنا التوقف لحظة للتأمل في هذا التطور الرهيب. فعند حلول العام 1890 كانت الإنكليزية هي اللغة المفروض أنها صارت عامة على مدى 9,303,000 كيلومتر مربع من الأراضي، أي أكبر من مساحة الجزر البريطانية بثلاثين مرة. فكانت أكثر بكثير من كونها اللغة المشتركة المناسبة للرطانة التجارية، إذ إنها بالنسبة لمعظم الناطقين بها كانت هي لغتهم الأولى، وبالنسبة للباقين، كانت آتية بسرعة لتحل محل أي لغة أخرى يعرفونها، سواء في القبائل الأصلية أم بين فرق المهاجرين الحديثة الوصول. ففي غضون قرن واحد كانت ثقافة أحادية اللغة قد نمت حتى سحقت الكثرة الوافرة التي زادت على مئتي لغة مختلفة مبعثرة بشكل خفيف هنا وهناك. والتوسع الوحيد الشبيه بهذا في فجائيته وتغلغله الجذري العميق هو نشر المسلمين للغة العربية عبر الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. والحالات الأخرى التي تخطر بالبال ـ كانتشار اليونانية عبر الإمبراطورية الفارسية على يد الإسكندر، أو انتشار الفرنسية عبر شمال إفريقيا ووسطها في

القرن التاسع عشر ـ كانت مفاجئة بالمثل، ولكنها أقل تغلغلاً بكثير، كما أن التقدم العميق والدائم للاتينية خلال أوروبا الغربية، أو للصينية عبر سهول آسيا الشرقية وجبالها قد استغرق حدوثه قروناً كثيرة طويلة. فكيف صار ممكناً هذا الانفجار الأول للمجتمع الناطق بالإنكليزية؟

لإعطاء جواب شافٍ، يستحسن تقسيم هذا السؤال إلى سؤالين: كيف أمكن للغة أوروبية وحيدة أن تستولي على أمريكا الشمالية كلها؟ ولماذا كانت الإنكليزية هي وحدها التي توسعت من بين المتنافسين جميعاً؟ وليس اللغات الأوروبية الأخرى التي كانت مترسخة في مكانها قبل الإنكليزية أصلاً؟

إن دوافع المستعمرين الإنكليز الأوائل للقدوم إلى أمريكا كانت نتاج تضليل وهمي مخادع. فقد كان مؤيدو رحلات الاستكشاف والاستيطان المبكرة منجذبين إلى الاحتمالات المغرية لاكتشاف الممر الشمالي الغربي لتمكينهم من المتاجرة مع الصين والهند، والحصول على ممتلكات عقارية، وقواعد آمنة لاستمداد الثروة من صيد الأسماك والقرصنة. ولم يكن أحد يتوقع العائدات الفعلية لرأس المال المستثمر التي ستأتي من تجارة الفراء، ومن زراعة محاصيل مثل التبغ والنيلة. ولكن من وجهة النظر اللغوية لم يكن المهم هو رأس المال، بل العمل. وبعد أن ترسّخ وجود المستعمرات كانت هناك أسباب أخرى جعلت الناس يذهبون للعيش هناك. وكانوا في أغلب الحالات يائسين اقتصادياً، وذهبوا بموجب عقود كعمال مستأجرين يخدمون فترات من أربع سنوات أو خمس قبل أن يصبحوا أحراراً بالاستيطان. وجاء آخرون لتأسيس مجتمع جديد بناءً على مبادئ مثالية: فهكذا كان الحجاج الانفصاليون المشهورون الذين جاؤوا إلى ماساشوستس في العام 1620 وتبعهم متطهرون كثيرون في العقود التالية، عندما كان موطنهم يعاني آلام الحرب الأهلية، والكومونويلث وإعادة الملكية. ولكن الذي عثر عليه الكثيرون عندما وصلوا كان سلسلة من المستوطنات الإنكليزية تتوفر فيها أرض زراعية جيدة لا تزال غير مزروعة إلى حد كبير. فكانت المحاصيل عند زراعتها تزدهر، وهناك أسواق طيبة للحصاد. وبشكل تدريجي كسبت المستعمرات سمعة بالوفرة، وصارت الهجرة أكبر جاذبية للذين يواجهون مستقبلاً غير مؤكد في بريطانيا.

فتوجهوا غرباً وجلبوا معهم زوجاتهم وأطفالهم في أغلب الحالات. ولم تكن الحكومات قمعية أو ظالمة في المستعمرات أبداً. ولكن بعد حرب الاستقلال التي كانت سائدة في العام 1783، صار هناك منار جديد للحرية السياسية يمكن إضافته إلى جاذبية الإثراء الجاهز المعروض.

إن هذا الإدخال للزراعة الواسعة النطاق، من مئات الألوف من المزارع الجديدة، هو الذي يفسر انتشار المستوطنين البيض على حساب الأهالي الأصليين. فقد أعطاهم ذلك حيثيات إقامة أسر كبيرة، أكبر بكثير مما يحتاجون إليه لتعويض قوتهم في الجيل التالي. وبدلاً من ذلك، فإن العدد الفائض سيتوجه إلى مبعدة إلى الغرب. وقد تضاعف عدد سكان هذه المستعمرات الإنكليزية أربع مرات في الجيلين بين العامين 1650 و1700. وقد استمر هذا التكاثر بلا هوادة لمدة ثلاثة قرون من العام 1600: فكانت هناك خصوبة مذهلة، مشفوعة بتدفق لا يتوقف من المتطوعين الجدد من أوروبا.

وبالنسبة لاختيار اللغة، فقد اتضح بأن الشيء الحاسم هو أن الهجرة في النصف الأول من هذه الفترة كانت من الجزر البريطانية على الأغلب. فقد هاجر مئتان وعشرون ألفاً أثناء القرن السابع عشر، وربما ضعف هذا العدد في القرن الثامن عشر. وهذه أرقام صغيرة، بالمقارنة مع الأربعين مليوناً الذين أتوا إلى أمريكا في القرنين التاليين لذلك. ولكن التأثير اللغوي للمهاجرين الأوائل كان حاسماً. إذ جاءت غالبيتهم الساحقة من بريطانيا وإيرلندا، وكانوا ناطقين بالإنكليزية، ولكن ليس بشكل حصري. ففي بداية القرن الثامن عشر، كان حوالي 8 بالمئة من السكان من أصل ألماني. ومع ذلك ففي العام 1794، رفض طلب المزارعين الناطقين بالألمانية في مقاطعة أوغستا بفرجينيا من مجلس النواب الأمريكي أن تترجم القوانين إلى الألمانية. وقد تصادف أن رئيس المجلس في ذلك الحين، وهو ف. آ. ك. موهلنبرغ كان هو نفسه ألمانياً، ولكنه رفض دعم الطلب(*).

(*) وقد تحول ذلك إلى الأسطورة الزاعمة بانه عند إحدى النقاط كادت الألمانية تعلن لغة رسمية للولايات المتحدة الأمريكية.

فقد ظلت الألمانية ثاني أكبر لغة للمهاجرين (بنسبة 25 في المئة) أثناء القرنين التاسع عشر

ومنذ العام 1820، كان الناطقون بالإنكليزية أقلية بين المهاجرين، بنسبة 43 بالمئة(*). ولكن رغم أن المهاجرين قد أنشؤوا هنا وهناك مجتمعات يستطيع الكثيرون فيها أن يفهموا لغة أجنبية معينة، فإن الولايات المتحدة كبلد - ولعلها قد استمدت ذلك من الموقف البريطاني التقليدي - حافظت بتصميم على أحادية لغتها الإنكليزية. وعلى الرغم من الفرصة الكبيرة لتأسيس بلدات ومدن جديدة حتى نهاية القرن التاسع عشر تماماً، فقد ظلت الإنكليزية مقبولة في كل مكان كلغة عامة في هذه المجتمعات الجديدة عند نشوئها عندما كان المستوطنون يتجهون إلى الغرب.

فلماذا إذن جاءت الأغلبية الساحقة من مستعمري أمريكا الشمالية من بريطانيا في هذين القرنين الأولين؟ فبعد كل شيء، لم تكن بريطانيا هي الأولى في تأسيس موطئ قدم على السواحل الأمريكية الشرقية: فإن كيبك قد تأسست كعاصمة لفرنسا الجديدة في العام 1608، في وقت تأسيس جيمس تاون في فيرجينيا تقريباً. وكانت هولندا الجديدة قد بدأت في قلعة فورت ناسو في أعالي نهر الهدسون في العام 1617، قبل ثلاثة أعوام من استقرار الحجاج في ماساشوستس. ولمدة سبعة عشر عاماً (1638 - 1655) كانت هناك مستوطنة حتى للسويديين أطلقوا عليها اسم السويد الجديدة في خليج ديلاوير، في المنطقة التي ادعى ملكيتها الهولنديون.

إن الذي ميز البريطانيين هو رغبتهم في الاستقرار. فمنذ البداية كانوا يبحثون عن ملكية فردية للأرض يستطيعون العيش عليها وتنشئة أسرة. فمهما

والعشرين. وكانت هناك موجة من المهاجرين الناطقين بالألمانية في أوائل القرن التاسع عشر، وكانوا يميلون في وقت مبكر إلى التجمع في بنسلفانيا. ووصلت الموجة إلى ذروتها في سبعينيات ذلك القرن عندما قيل بأن ستمئة ألف من سكان الولاية الأربعة ملايين كانوا يتكلمون الألمانية في حياتهم اليومية، ومعهم مئة وخمسون ألفاً آخرون خارج الولاية. ولكن الاستخدام الشعبي للألمانية بشكل علني في الأماكن العامة تضرر كثيراً بنشوب الحرب العالمية الأولى. وهي باقية اليوم في مجتمعات طائفية صغيرة فقط مثل المينونايت والأميش (آدامز 1990، الفصل السابع).

(*) كانت هذه النسبة تتألف من 14 بالمئة من المملكة المتحدة، و13 بالمئة من إيرلندا، و12 بالمئة من كندا، و4 بالمئة من الفليبين وواحد بالمئة من جامايكا. وبعد الألمانية التي كانت نسبة الناطقين بها 25 بالمئة، كانت اللغة التالية هي الروسية (10 بالمئة) فالهنغارية (4 بالمئة) والصينية (3 بالمئة) (وزارة العدل الأمريكية، كتاب الإحصاء السنوي للعام 1998، مقتبساً في كتاب رايت المنشور في العام 2000، ص 291).

كان بعد مسافة أسفارهم، فإنهم كانوا يتطلعون إلى ذلك بموجب الشروط نفسها والعقائد الدينية نفسها التي قبلوها في موطنهم الأصلي. وكان من شأن العوائل الكبيرة الناتجة عن ذلك أن تنمو لتكرر هذه الدائرة. وهكذا كان الحافز ثم القدرة المثبتة على القيام بذلك بعد أول جيلين، عندما نشأت المنافسة مع قوى أوروبية أخرى، معناها أن البريطانيين كانوا حاضرين دائماً بأعداد أكبر؛ فترجم ذلك إلى جيوش منتصرة، ولكن ذلك كان يعني أيضاً أنهم سرعان ما يحتلون أي مكاسب إقليمية يحصلون عليها.

وجاءت الصدمة مع الهولنديين بعد خمسين عاماً (انظر الفصل الحادي عشر: 'المتطفلون الهولنديون'، ص 543). ففي ذلك الوقت، كانت شركة الهند الغربية الهولندية قد استمرت من ثقافة تبادل المراكز التجارية بفراء القندس عن طريق دعم البنية التحتية للمزارع، إلى تقديم إيجارات شبه إقطاعية لرجال الأعمال الأغنياء تسمى النزل - وهذا نظام مصمّم لجلب مستعمرين في إرساليات من مجموعات مكونة من خمسين شخصاً. ولم تنطلق المستوطنات إلا بعد إلغاء هذه المعاملة التفضيلية للأثرياء وعندما بدأت الشركة تقدم للميكانيكيين والمزارعين حرية المرور لأنفسهم ولأسرهم، فارتفع عدد المهاجرين من ألفين في العام 1648 إلى عشرة آلاف في العام 1660. ولكن الأوان كان قد فات. فقد كان المستوطنون بطيئين في الاستجابة لتحريض الشركة لهم على حماية ممتلكاتهم وتعزيزها، وظل الجيران البريطانيون متفوقين عددياً على الهولنديين بنسبة أربعة إلى واحد[35]. وفي العام 1664، عندما وصل العقيد نيقول مع أربع سفن حربية في إحدى عمليات الحرب الإنكليزية - الهولندية على نطاق عالمي، استسلمت هولندا الجديدة بدون قتال. فتغير مالكوها مرة أخرى بعد ذلك بتسعة أعوام، ولكنها عادت إلى ملكية بريطانيا في العام 1674 للمرة الأخيرة. وفي المفاوضات التجارية المحضة التي أنهت الحروب، فإن مستعمرة أمريكية شمالية مشهورة بشكل رئيسي بأحزمة فراء القندس كانت أقل قيمة من مزارع قصب السكر في سورينام، ومزارع جوزة الطيب في رون آيلاند بجزر الهند الشرقية.

ومن المؤكد أن العلاقة الفرنسية مع أمريكا الشمالية كانت جوزة يصعب

كسرها أكثر من ذلك. فالسياسة الفرنسية كانت لها بداية تختلف عن السياسة الإنكليزية تماماً. فقد كانت هناك قيادة قوية من الملك الفرنسي وبلاطه لتأسيس المستوطنات، ومع ذلك كان لها نهج يميل إلى حرية العمل التجاري في حياة المستوطنين عند وصولهم، ما دامت شحنات الفراء مستمرة في الوصول إلى فرنسا. فكانت النتيجة اختلافاً فارقاً في البروز الاجتماعي، بحيث صار الشباب العازبون يذهبون وحدهم إلى فرنسا الجديدة ليصبحوا رجال حدود متوحشين، ويستقروا - إذا استقروا فعلاً - لتأسيس بيوت مع النساء المحليات، فينجبون أطفالاً هجناء لن يعتبروا أنفسهم فرنسيين على الإطلاق، وقد لا يتكلمون اللغة أصلاً. وهذا نهج جعل الفرنسيين أكثر شعبية لدى هنود أمريكا الحمر، الذين كانوا في أغلب الأحوال يقفون إلى جانبهم في الحروب مع الهولنديين والبريطانيين. ولكن هذا اتضح أنه لم يكن الدعم الذي يحتاج إليه الفرنسيون. كما أن التركيز الاقتصادي على أرباح الصيد - من الفراء - لم يعوض عن الاستقرار الواسع النطاق على الأرض وتدجينها، والاعتماد على العرائس المحليات، وبالتالي حرمان عدد من الرجال الأصليين من الذرية طبعاً - مما يعني أن عدد الأهالي الأصليين لم يكن يزيد. وقد حاولت الحكومة الفرنسية أن تتدخل في العملية في سبعينيات القرن السابع عشر بتقديم بنات فرنسيات للزواج، مع شيء من النجاح (انظر الفصل الحادي عشر: 'الفرانكوفونية'، ص 568). ولكن حتى هذا التدخل لم يستطع أن ينافس مع النمو الطبيعي للبريطانيين المتعطشين إلى الأرض.

وفي آخر الأمر كانت شروط السلام بعد حوالي قرن من الحرب العالمية، في معاهدة باريس في العام 1763، التي أنهت التدخل الفرنسي المباشر في أمريكا. ولكن لو كانت أمريكا الشمالية وحدها هي ميدان القتال وهي الجائزة لكان من الواضح منذ زمن طويل من الذي سيفوز. ففي ذلك الوقت كان هناك عشرون بريطانياً في مقابل كل فرنسي واحد(*). ولو كانت هناك حاجة للبرهنة على أهمية الرجال على الأرض لجاءت هذه البرهنة من المتمردين الإنكليز بعد

(*) أكثر من 1.2 مليون بريطاني، في مقابل خمسة وخمسين ألف فرنسي.

ذلك بعشرين عاماً في الولايات الثلاث عشرة، فهم الذين دحروا الجيش البريطاني كما لم يستطع الفرنسيون أن يفعلوا على الإطلاق. وكنتيجة نهائية، فإن تَشَرّبَ الأرض الكندية بالموالين الإنكليز بسبب الحرب ومعه الهجرة اللاحقة التي استبعدت فرنسا كان معناه أن الرعايا البريطانيين والناطقين بالإنكليزية قد جعلوا الفرنسيين أقلية بشكل مباشر تماماً فيما كان مستعمرة خاصة بالفرنسيين.

وجاءت آخر عقبة تعيق سيطرة الناطقين بالإنكليزية في أمريكا الشمالية من الداخل الأول إلى المنافسة الاستعمارية، وهو إمبراطورية إسبانيا. ورغم أن إسبانيا وإنكلترا كانتا على خط تصادم ملكي أثناء القرن السادس عشر، فإن القراصنة الإنكليز قد تابعوا هذا الصدام بشكل غير رسمي في البحر الكاريبي أثناء القرن السابع عشر. فقد كانت الحكومتان البريطانية والفرنسية قد أعطت كل منهما الأخرى مجالاً واسعاً أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر. وتبادلتا السيطرة على فلوريدا جيئة وذهاباً فيما بين العامين 1763و1783. وكانت المحاسبة ستأتي بين الدولتين اللتين خلفتاهما وهما: الولايات المتحدة الأمريكية، وجمهورية المكسيك، بشأن تكساس.

ومرة أخرى فقد كانت نزعة الإنكليز إلى الاستقرار هي التي أدت إلى نشوء المشاكل. فعندما اكتشف موسى أوستن ترسّبات من الرصاص حصل من إسبانيا على إذن بجلب ثلاثمئة عائلة أمريكية إلى أراضيه، التي كانت حتى ذلك الحين منطقة عقيمة قفراء ـ وذلك في العام 1820، قبيل منح إسبانيا الاستقلال للمكسيك. وبحلول العام 1832، بلغ عدد سكان مستعمراته حوالي ثمانية آلاف نسمة، مع آخرين أوصلوا عدد السكان الإنكليز إلى عشرين ألفاً. وفي العام 1833 حدث انقلاب في المكسيك أوصل أنطونيو لوبيز دي سانتا آنّا إلى الحكم، وأدى إلى انقلاب السياسة المكسيكية إزاء تكساس: فرد الإنكليز على ذلك بإعلان استقلالهم. وبينما كانوا يصدون المحاولات المكسيكية لاستعادة السيطرة على الإقليم، استنجدوا بالعمّ سام. واضطروا إلى الانتظار طيلة حكم إدارتين غير متعاطفتين، ولكن في العام 1845 وافق الرئيس بولك على ضم تكساس. فحصل بولك على الحرب التي أرادها. فتمكن من الحصول بقوة السلاح على ما كان قد

حُرِمَ من الحصول عليه بالشراء، وهو امتداد شريحة من الأرض المكسيكية على المحيط الهادئ إلى الشمال من نهر جيلا، بما في ذلك كاليفورنيا. وهكذا برمية جبارة امتدت حدود الولايات المتحدة 'من البحر إلى البحر اللامع' [أي من الأطلسي إلى الهادئ] ثم إن موجة جديدة من الاستيطان الأنغلوساكسوني الجماعي الكثيف رسخت المكسب، ولو أن الدافع في هذه المرة كان بإمكان الإسبان أن يقدروه كثيراً: فالمستوطنون في هذه المرة لم يكونوا مزارعين، بل باحثين عن الذهب في الاندفاعة الكبيرة في العام 1849.

إن كون مثل هذه المنطقة الشاسعة - أي جوهرياً ما هو الآن الغرب الأمريكي كله - يمكن أن يتبدل أصحابها بهذه البساطة والخفة، تظهر مدى سطحية وجود الإسبان في قرون سيطرتهم الثلاثة على هذه الأراضي. ومثلما كان الفرنسيون قد توصلوا إلى تسوية بدون تدخل مفروض مع الأهالي الأصليين من خلال تجارة الفراء في كندا ولويزيانا، كذلك أقام الإسبان أخف أنواع الاتصال مع رعايا الملك الإسباني في كاليفورنيا من خلال قيامهم في آخر الأمر بزرع سلسلة من بعثات التبشير الكاثوليكية على طول الساحل من العام 1769 إلى العام 1823. ومع ذلك فإن الزراعة، وتربية المواشي، مع تجارة هامة لتصدير الجلود، والقرون والشحوم الحيوانية قد ازدهرت فترة قصيرة بإشراف "آباء الكنيسة". وفي السنوات الأخيرة تماماً، بعد استقلال المكسيك في العام 1821، كانت هناك حركة لاستيطان أكثر تجذراً، ومن العام 1834، كانت هناك موجة من منح الأراضي للمكسيكيين الذين صاروا يعرفون باسم "الكاليفورنيين"، وهم مستوطنون غير دينيين سرعان ما اكتسبوا سمعة وحشية. أما من الناحية السياسية، فإن التحول إلى السيطرة الإنكليزية كان فورياً تقريباً.

ومن الناحية اللغوية، تبين أن الوضع كان أكثر ازدواجية. إذ يبدو أن أولئك "الآباء الكنسيين والكاليفورنيين" كان لهم تأثير كبير. واليوم، بعد قرن ونصف قرن من الاستيلاء على فلوريدا، وتكساس، وشمال المكسيك، لا يزال عشرون مليون مواطن أمريكي، أي 7.3 بالمئة من سكان الولايات المتحدة يعتبرون الإسبانية لغتهم "الأولى" وليست الثانية[36]. وبما أن كل هؤلاء تقريباً يعيشون

في واحدة من الولايات التسع(*) التي كانت مناطق إسبانية بشكل جزئي على الأقل (ومجموع سكانها 83 مليون نسمة)، فإن الوضع اللغوي هناك هو أن شخصاً واحداً من كل أربعة لا يزال أسعد الناس عندما يتحدث بالإسبانية. صحيح أن المستوطنين الإنكليز الوافدين طيلة خمسة أجيال أو ستة قد رسخوا سيطرة الإنكليزية، ولكن المجتمع الناطق بالإسبانية ليس آخذاً بالتلاشي، بل إنه ينمو.

منظور متغير ـ الإنكليزية في الهند

إن اللسان الذي هو مفتاح كنوز القلب والعقل، والذي يعمل كوسيط لتقوية روابط المجتمع، وكذلك كعضو يكشف عن أسرار القلب، يبدو أنه محروم من وظيفته بين الهندوستانيين والإنكليز. فمعظم السادة الإنكليز لا يفهمون لغة رعاياهم، ولا أحد من الرعايا يفهم كلمة من الإنكليزية. ويتبع ذلك طبعاً أنه عندما يكون هناك جماعة من الهنود لهم عمل مع حكامهم الإنكليز، فإنهم يظهرون مثل عدد الصور الموضوعة على الجدار ...

سيد غلام حسين خان، 1789[37].

ليست لي معرفة بالسنسكريتية أو العربية. ولكنني عملت ما أستطيع لتشكيل تقدير صحيح لقيمتهما. فقرأت ترجمات لأشهر الأعمال العربية والسنسكريتية. وتحدثت هنا وفي الوطن مع رجال متميزين بإتقانهم الألسنة الشرقية. وأنا مستعد لأخذ الثقافة الشرقية حسب تقييم المستشرقين أنفسهم. ولم أجد أحداً منهم يستطيع أن ينكر أن رفاً واحداً من مكتبة أوروبية جيدة هو أكثر قيمة من الأدب المحلي للهند والجزيرة العربية كليهما، بل إن التفوق المتأصل في الأدب الغربي يعترف به اعترافاً كاملاً كل أعضاء المجتمع المؤيدين لخطة الثقافة الشرقية(**).

توماس بابينغتون مكولي (في الخامسة والثلاثين من عمره)، 1835[38]

(*) هذه الولايات هي أريزونا، وكاليفورنيا، وكولورادو، وفلوريدا، ونيفادا، ونيومكسيكو، وتكساس، ويوتاه، ووايومينغ.

(**) [ليس وراء مثل هذا الحكم القاطع الشامل الكاسح سوى التعصب الأعمى والجهل المطبق ـ المترجم]

مشروع مغامرة تجارية

هناك صدفة عميقة ومثيرة للاهتمام تجمع بين الإنكليزية والبرتغالية. فقد حظيت كل منهما بانتشار واسع ودائم كلغة يومية للمستعمرين في الأمريكتين. ولكن كلاً منهما قد توسعت حول آسيا الجنوبية كذلك. فصارت تستخدم بين الأهالي المحليين أكثر من استخدامها من قبل البحارة والتجار والجنود القلائل نسبياً، الذين جاؤوا إلى هناك من أوروبا. ولقد رأينا أن الخصائص الجوهرية لانتشار اللغة في الأمريكتين كانت هي رغبة الناطقين بها بالاستقرار وإنشاء عائلات كبيرة، وبالتالي إزاحة الأهالي الأصليين، الذين كانوا منتشرين بشكل رقيق غير كثيف، والذين كانوا أقل تقدماً من الناحية التقنية. ولا بد أن هناك شيئاً آخر قد ثبتت دلالته في جنوبي آسيا، التي كانت موطناً لسكان شديدي الازدحام معتادين على التجار الأجانب منذ زمن طويل، وحيث لم يكن أحد سوى القلة من القادمين يستقر بشكل دائم. بالنسبة للإنكليز على وجه الخصوص فإن الهند ومستعمراتهم الأخرى كانت دائماً أماكن لمستقبلهم المهني، وليس لمعيشتهم - أي أنها أماكن لمناصبهم وليس لموطن عائلاتهم. فقد ظلوا متحفظين، وبعيدين في سيطرتهم أكثر من الغزاة الآخرين. ومع ذلك فإن المفارقة هي أن البريطانيين قد تركوا أثرهم على هذه الأجزاء من آسيا في لغتهم بشكل دامغ لا يمحى كما يظهر حتى الآن، أكثر من أي غازٍ معروف من سابقيهم.

غير أن التشابه مع البرتغالية ينتهي عند النظر في أدوار اللغات في التجارة. فعندما حصلت شركة الهند الشرقية الإنكليزية على قواعدها الحاسمة الأهمية في الهند - مدراس (1654)، وبومباي (1668)، وكلكتا (1690) -(*) كانت اللغة المشتركة الفعالة لا تزال هي البرتغالية إلى حد كبير، 'وهي اللغة التي يتعلمها معظم الأوروبيين أولاً لتأهيلهم للتحدث فيما بينهم بصورة عامة، ومع مختلف سكان الهند الأصليين'[39]. فقد خزنت الشركة مئتي معجم برتغالي.

(*) وبصدفة مثيرة للاهتمام، فإن المدن التي نمت حولها، واستمرت حتى صارت مراكز الحكومة الأولى في الهند البريطانية وقد أعيدت تسميتها في تسعينيات القرن العشرين فأصبحت تدعى تشيناي، ومومباي وكولكاتا، على التوالي.

وكان في مكتب كل فرع أو 'معمل' خبير لغوي مختص بالبرتغالية، حتى ولو كتب المدراء في لندن إلى بومباي يطلبون ترجمة محلية للأعمال الورقية، لأن 'البرتغالية المحكية في الهند كانت تختلف كثيراً عن تلك المحكية في البرتغال'،[40]. وبشكل غير رسمي، وفإن كثيراً من الأعمال التجارية كانت تتم بلغة يسميها الهنود 'الفرنجية'، وهي رطانة غير رسمية من خليط من اللغات الأوروبية. فعند نهاية القرن السابع عشر كان للبرتغالية، والدانمركية، والفرنسية والهولندية، والإنكليزية معامل ضمن دائرة نصف قطرها عشرة أميال في منطقة البنغال. وكانت الإنكليزية في ذلك الحين قابلة للاستعمال بين وكلاء الشركة فقط، فلم تصبح أبداً لغة مشتركة للتجارة. ومن الناحية العملية، فإن الأعمال التجارية كانت تتم عادة عن طريق توسط تاجر ثنائي اللغة يعرف باسم "بانيان" في كلكتا وبومباي، وباسم "دوباش" في مدراس[*].

ومن الواضح أيضاً أنه حتى القرن التاسع عشر كانت المعاملات ذات المستوى الأعلى مع السلطات الهندية، وقبل كل شيء مع الحكومة المغولية، كانت تتم بالفارسية[**]. وكان باستطاعة وكلاء الشركة أن يكتسبوا الطلاقة بها، رغم احتفاظهم بخدمات "المنشئ"[***]، وهو الذي يجمع بين وظائف المترجم الفوري، والمترجم العادي، وأمين السر، ومدرس اللغة الخصوصي. وكان المثال النموذجي لهذه الخبرة هو أنطوان - لويس هنري بولييه، وهو الفرنسي المستخدم في الشركة الإنكليزية، وصديق وارن هيستينغز الذي نشر مراسلاته

(*) بلغة غوجارات فانييان، أي 'التجار'، وبالهندي دوبهاشيا، أي 'ثنائي اللغة' (يول وبورنيل 1986 [1903]).

(**) كان المغول قد جاؤوا باللغة الفارسية إلى الهند في القرن السادس عشر كلغة للثقافة، رغم أن مجنديهم السباهيين الهنود العاديين كانوا يتكلمون التركية. وهناك شيء غريب يشبه الغزو النورماني لإنكلترا هنا، حيث تؤدي الفارسية في الهند دور النورمانية في إنكلترا، بينما تقوم لغة دلهي العامية الدارجة والتي تطورت إلى 'الأوردو' تحت تأثير الفارسية، بدور اللغة الإنكليزية. وبهذا المعنى فإن الأوردو، التي تعني حرفياً 'لغة المعسكر' كانت صناعة لغوية متميزة أوجدها المغول في الهند. وكانت هي، وليس الإنكليزية، التي قدر لها أن تصبح اللغة الكبرى، في الجيش البريطاني في الهند (انظر الفصل الخامس: 'السنسكريتية لم تعد وحدها'، ص 318).

(***) الكلمة عربية معناها 'المعلم، والمؤلف' (يول وبورنيل 1986 [1903]).

الفارسية في أواخر القرن الثامن عشر. وقد أظهره ذلك باعتباره شخصاً شديد الكفاءة في أسلوب البلاط الذي كان مستعملاً مع تلك اللغة[41].

وعلى هذا الأساس، فإن السؤال الحقيقي هو: كيف انتشرت الإنكليزية في الهند على الإطلاق فيما وراء مجتمع 'الكُتابّ' (أي الموظفين) المستخدمين في شركة الهند الشرقية، والأفواج الإنكليزية التي تخدم في البلد؟ فبعد كل شيء، كان الوضع متطابقاً تقريباً مع وضع شركة الهند الشرقية الهولندية، حيث قامت الفارسية بدور يشبه دور اللغة الملايوية، والأوردو بدور يشبه دور لغة جاوة، وظلت البرتغالية بدورها نفسه. وكما رأينا، فبعد أن قام الهولنديون بمحاولة نصف جادة لتعليم لغتهم، اكتفوا بالأمر الواقع اللغوي كما هو. فلم يأخذ أحد باللغة الهولندية سوى الحكام الاستعماريين في شركة الهند الشرقية الهولندية (انظر الفصل الحادي عشر: 'المتطفلون الهولنديون'، ص 543). ولو تم اتباع هذا النمط، لبقيت الفارسية هي اللغة العامة المشتركة المفضلة في الهند حتى يومنا هذا.

وكان هناك حافز آخر في أذهان البريطانيين جفّف أي حماسة لاستخدام لغتهم الأم بشكل أوسع في الهند. وكما قال عضو في البرلمان البريطاني في العام 1793: 'لقد فقدنا مستعمراتنا في أمريكا بإضعاف تعليمنا هناك، فلسنا بحاجة إلى عمل ذلك في الهند أيضاً'[42]. فقد كانت تلك الخسارة ما تزال طازجة في الذاكرة في أواخر القرن الثامن عشر: وكان اللورد كورنواليس هو نفسه القائد الذي استسلم لجورج واشنطن في العام 1781، وقد تابع عمله بعد ذلك ليصبح حاكماً عاماً للبنغال من العام 1786 إلى العام 1793. فمجتمعات المستوطنين الأوروبيين إذا صارت مترسخة فقد تتبع المثال الأمريكي، وتبحث عن الاستقلال وفق شروطها الخاصة بها. وحسب هذه المجادلة بالحجج، يجب أن تبقى الهند بلداً أجنبياً، رغم إبقائه مفتوحاً للأعمال التجارية البريطانية بشكل يعتمد عليه، ويجب أن لا تكون موطناً بريطانياً جديداً. فإن ريتشارد ولزلي الحاكم العام من العام 1797، كتب إلى رئيس مجلس السيطرة في العام 1799:

... وفيما يتعلق بسلطات طرد الأوروبيين من الممتلكات البريطانية في الهند ... فإن تلك السلطات تبدو لي ما تزال محدودة أكثر من اللازم.

إن عدد الأشخاص [غير العاملين في خدمة الشركة] المقيمين في هذه المقاطعات، وكذلك في جميع أجزاء الإمبراطورية البريطانية في الهند، يتزايد يومياً. وبين هؤلاء يوجد كثير من الشخصيات اليائسة من البؤس، أو من عار سلوكهم في أوروبا. وحياتهم المهنية بشكل رئيسي ... هي في كلكتا، أقل فروع القانون، في إقامة الدكاكين والحانات، أو أماكن المتعة العامة، أو في رئاسة تحرير الصحف ... ومن بين جميع هؤلاء الأشخاص، وخاصة قبيلة محرري الصحف، كانت تسود أقوى وأجرأ روح يعقوبية ... [نسبة إلى الجماعة السياسية الإرهابية المتطرفة التي عرفت باسم اليعاقبة خلال الثورة الفرنسية].

وفي مدراس، فإن الشر الناتج من الأوروبيين غير العاملين في خدمة الشركة كان أعظم من ذلك. فمستشارو الحاكم الإقليمي المغولي، وكذلك أدواته الرئيسية في معارضته للحكومة البريطانية، وفي قمعه لرعاياه أنفسهم كانوا من بين هذه الطبقة من الأوروبيين بشكل حصري تقريباً[43].

فالاستيطان البريطاني في الهند إذن، عدا عن الأنشطة التي تشرف عليها الشركة مباشرة، لم تكن السلطات البريطانية تنظر إليه حتى على أنه مرغوب فيه. فمن العام 1757 إلى العام 1865 تابعت "شركة الصاحب" (حسبما كانت تُعْرفَ) عمليات توسيع سيطرتها المالية، والسياسية، والعسكرية، عبر البنغال إلى دلهي أولاً، ثم عبر هضبة الدكن، وأخيراً إلى معظم ما يسمى الآن الهند، وباكستان، وسريلانكا وبورما. وكان الشيء الوحيد الذي لم تكد الشركة تنشره على الإطلاق هو هيئة من الناطقين بلغة مدرائها أنفسهم.

البروتستانتية والربح، والتقدم

وفي آخر الأمر، فإن نشر الإنكليزية الواسع لم تبدأ به شركة الهند الشرقية، بل المبشرون البروتستانت البريطانيون(*). فقد كانت الشركة بشكل عام تشك في

(*) إن مقارنة هذا مع دور المبشرين في نشر اللغة الإسبانية يشير إلى مفارقة أخرى. فكما هو ملاحظ

تورط المبشرين في ممتلكاتها، وللأسباب نفسها التي جعلت الشركة تتجنب الأوروبيين الآخرين - وبناءً على أدلة أفضل. فالتمرد الدامي لقوتها الهندية في فيلور، قرب مدراس، كان مرتبطاً بالتصرفات العنيفة الصاخبة لشخص يدعى كلوديوس بوكانان ضد عدم المبالاة الهندوسية بالمسيحية ومطالبته باستخدام 'كل وسيلة لقهر روح الاحتقار هذه لدى رعايانا من الأهالي الأصليين'، وفي العام 1808، اضطرت الشركة بسرعة إلى كبت منشور أصدرته مطبعة البعثة التبشيرية المعمدانية في سيرامبور، قرب كلكتا 'موجه إلى الهندوس والمحمديين'[44]. فقد كانت الهند دائماً منطقة خطرة للضغط لتوكيد نقطة دينية، وكانت الشركة حساسة لهذا الخطر، الذي يمكن أن يكون شديد الخطر على التجارة.

ومع ذلك، فقد كان هناك رجال كنيسة في مستوطنات الشركة منذ أول أيامها. وفي وقت مبكر، كانوا مضطرين للعمل باللغة البرتغالية، مثل الجميع، وهذا مطلب ظهر بصراحة في تجديد لائحة الشركة في العام 1698[45]. ولكن الشركة سرعان ما راحت تؤسس مدارس باللغة الإنكليزية، للأطفال بالدرجة الأولى - وكانوا في الغالب أيتاماً - من نسل موظفي الشركة ومستخدميها: في مدراس في العام 1715، وفي بومباي في العام 1719، وفي كلكتا في العام 1731. وقد تزايد عدد طلبة تلك المدارس، ثم تكاثر وتضاعف. فصارت مراكز لاكتساب الإنكليزية، وألحقت بها مطابع ومكتبات. وصار واضحاً للجميع أن تأثير الإنكليزية وقوتها ينموان بشكل كثيف طيلة القرن الثامن عشر: فلم يكن غريباً أن تزداد محاولات الآباء الهنود لتمكين أطفالهم من الحصول على معرفة باللغة الإنكليزية ليشتركوا في هذا النمو. وفي حوالي العام 1780 قام المهراجا في رامناد (راماناتابورام) بإرسال ابنه إلى مدرسة شوارتز التبشيرية في تانجور (ثانجافور) إلى الجنوب من مدراس. وكانت مدارس شوارتز تتلقى دعماً من

في الفصل العاشر ('الحل الكنسي: اللغات العامة'، ص 503)، فإن البعثات التبشيرية الإسبانية قد عملت على تأخير انتشار الإسبانية، بينما كانت الدولة تميل إلى تشجيع نشرها. وفي البرازيل، كان شيء مشابه قد حدث (انظر الفصل الحادي عشر: 'رواد البرتغالية' ص 540). ولكن في الهند البريطانية كانت تأثيرات الكنيسة والدولة - أو احتكار الدولة - على عكس ذلك تماماً.

جميع القوى الرئيسية في المنطقة: من الشركة الإنكليزية، ومن المسلم حيدر علي، ومن نائب آركوت، ومن مهراجا تانجور الهندوسي[46].

وسرعان ما استجاب السوق. فعند نهاية القرن الثامن عشر، كانت المدارس تتكاثر وتنمو في جميع مراكز القوى الإنكليزية، ولكن حول كلكتا بشكل خاص. وقد شارك في ذلك المعلمون، بمن فيهم 'الجندي المحطّم، والتاجر المفلس، والمبذّر المدمّر'[47]، من أجل الحصول على المال في أغلب الحالات، ولكن كان من بين المشاركين سيدات بريطانيات محترمات، مثل السيدة ميدلتون من دينابور، خارج مدينة باتنا، وحتى المبشر المعمداني المشهور وليام كاري من سيرامبور. وكانت المدارس تستهدف الهنود الأثرياء، وكانت أجور التعليم فيها عالية. ومع ذلك كانت مواقف المعلمين أبوية. وقد كتب الأب المبجّل د. ماكينون، في اليوم الأول من سنة 1801، رسالة إلى ضابط عسكري كشف فيها دوافعه:

> ... لم أستطع أن أكتشف ذرة من الذوق الكلاسيكي، أو من معرفة حقيقية في علم الرياضيات، أو مبدأ أخلاقي أو ديني أصيل في أي صف، أو عند أي فرد من الجنس البشري مولود ومتعلم في هندوستان أو حتى في آسيا كلها. ويبدو لي أن هذا العرق الداكن مدفون في الظلام، ويتحرك كآلية صرفة وخالية تماماً من تلك العواطف التي ترفع كرامة جنسنا وتعطيه نبلاً يعطينا الحق في ادعاء القرب من الآلهة.
>
> وقد انحصرت كل تكهناتي في آخر الأمر في اقتراحين بسيطين:
>
> 1 ـ إن أهالي الهند الأصليين لا يمكن تنويرهم عن طريق لغاتهم، ولا بالكتب الموجودة الآن بتلك اللغات.
>
> 2 ـ ولذا فيجب تنويرهم باكتساب لغات أخرى، وبقراءة كتب قادرة على تشكيل ذوقهم وتعليمهم معرفة مفيدة وثابتة، وكذلك مبادئ أخلاقية ودينية أصيلة.
>
> ومنذ العام 1787، بعد أن قدّمت موعظة في عيد الميلاد على ميدان معركة كدجاه ... قررت بشكل جدي أن أجرب تأثير محاولاتي الضعيفة. فجمعت قواعد نحوية للغة الإنكليزية كتبت قواعدها وتعليماتها باللغة الفارسية وحروفها الأبجدية. ونشر الكتاب في العام 1791 على نفقة مالكي مجلة

كلكتا، السادة هارنغتون وموريس الذين تحملوا المخاطر. وتحملت أيضاً الصعوبة والنفقات لطبع نسخة من القواعد بلغة البنغال، ولكن تلك النسخة لم تطبع.

وسوف تبتسم عندما أذكر لك أنني عندما قررت بذل ذلك الجهد قدمت طلباً رسمياً للحكومة للسماح لي بإدخال ضوء النهار إلى أهالي هذا البلد. ولكنني أذكر ذلك كي ألاحظ وأشهد مع الامتنان والعرفان أنني في كل طلباتي العامة والخاصة من الحكومة والأفراد لقيت بالتأكيد تشجيعاً واستحساناً.

وصحيح تماماً أن هذه الجهود لم تنتج أثراً مرئياً حتى الآن رغم أنني أستطيع إعطاء أمثلة على أفراد من الأهالي حصلوا على معرفة كفوءة باللغة الإنكليزية بمساعدة كتابي ..[48].

وعندما تم إخضاع أعمال شركة الهند الشرقية أكثر فأكثر لتدقيق لندن وسيطرتها، أصبحت هذه المواقف قوة دافعة للسياسة ـ وهي مواقف شارك فيها مصلحون مؤثرون بارزون مثل تشارلز غرانت، ووليام ويلبرفورس، وجيمس ملْ. وفي العام 1813 قرر مجلس العموم 'أنه من واجب هذا البلد تعزيز مصالح السكان الأصليين للممتلكات البريطانية في الهند وسعادتهم، وأنه ينبغي اتخاذ إجراءات لإدخال معرفة مفيدة في صفوفهم، وتحسين ديني وأخلاقي'[49].

وفي القرن التاسع عشر، عندما توسعت وتصلبت السيطرة السياسية البريطانية في الهند، فإن أخلاقية حرية العمل التجاري في التعامل مع الأهالي الأصليين، التي كان يتبعها احترام قوي متبادل راح يحل محلها على نحو متزايد اعتقاد لا حياء فيه بالتفوق الأوروبي، مشفوعاً بجهدٍ يرى أن من الواجب إخراج هذا 'الجنس الداكن' من الظلمات برفعه إلى المستوى الأخلاقي والفكري للبريطاني الذي يخاف الله(*).

وتضمن قانون لائحة شركة الهند الشرقية البريطانية للعام 1813 نصاً على 'تخصيص مبلغ لا يقل عن مئة ألف روبية سنوياً لإنفاقها على إحياء الأدب

(*) [لاحظ أيها القارئ العزيز هذه النظرة العنصرية الاستعلائية ـ المترجم].

وتحسينه وتشجيع أهالي الهند المتعلمين، وعلى إدخال وتحسين معرفة العلوم بين سكان الأراضي البريطانية في الهند...' ولكن عدم ثقة الشركة بأولويات المبشرين كانت لا تزال فعالة في هذه المرحلة. فالتمويل كان يهدف بصراحة إلى 'تعزيز العلم الشرقي والغربي... كثقل مقابل يعتمد عليه كموضع خلفي منعزل للحماية من طوفان المشاريع التبشيرية'[50]. وقد اتضح أن قرار كيفية صرف هذا المبلغ الصغير كان حاسماً بالنسبة لتاريخ اللغة في شبه القارة الهندية.

فقد كانت رغبة المبشرين في إعطاء الأولوية للغة الإنكليزية تحشد طيلة الوقت دعماً من الحكومة البريطانية، ومن الهنود أنفسهم في آخر الأمر. وفي أواخر القرن الثامن عشر كانت الشركة قد استجابت للتحريض الشعبي وأسست عدداً من الكليات المتنفذة لتمكين الهنود من التحصيل التعليمي: للمسلمين في كلكتا ومدراس في العام 1781، وللهندوس في كلية بنارس السنسكريتية في العام 1791، وللإداريين المدنيين القادمين من بريطانيا في كلية فورت وليام بكلكتا في العام 1800. وكان فيها جميعاً صفوف يجري التعليم فيها بالإنكليزية: فكلية فورت وليام لم يكن فيها أي شيء آخر. وفي أوائل القرن التاسع عشر، أقيمت مؤسسات تلقائية أيضاً على أيدي مواطنين بارزين، وخاصة الكلية الهندسية في كلكتا في العام 1817 'لرعاية اللغتين البنغالية والإنكليزية على وجه الخصوص، ويلي ذلك اللسان الهندوستاني ...؛ ثم الفارسية، إذا توفرت الرغبة فيها، كواجب زخرفي لله'[51]. وكان رام موهان روي، الذي يعتبر رئيسها العبقري، أستاذاً باحثاً في السنسكريتية والعربية، ولكنه صاحب الصوت في دعواته لزيادة الوصول بشكل أكبر للغة الإنكليزية:

> ...إننا نفهم أن الحكومة في إنكلترا قد أمرت بتخصيص مبلغ سنوي كبير يكرس لتعليم رعاياها الهنود. ونحن ممتلئون بآمال متفائلة بأن هذا المبلغ سيصرف على استخدام سادة إنكليز ذوي موهبة وثقافة لتعليم أهالي الهند الرياضيات، والفلسفة الطبيعية، والكيمياء، والتشريح وغيرها من العلوم المفيدة التي أوصلها أهالي أوروبا إلى درجة من الكمال رفعتهم

> فوق سكان أجزاء العالم الأخرى ... ونحن نجد الآن أن الحكومة تقوم بتأسيس مدرسة سنسكريتية تحت إشراف معلمين هنود لإعطاء معرفة كالتي من الواضح أنها سائدة في الهند[52].

وتم تأسيس عدة كليات حكومية أيضاً، لفروع العلم الشرقية على الأغلب، ولكن تحت ضغط من لندن تم تقديم مغريات متنوعة للكليات الشرقية لتحسين تعليم اللغة الإنكليزية فيها. ثم في أوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر جاءت الانخفاضات الكارثية في التسجيل لدراسة كل المواضيع غير الإنكليزية. وفي المقابل تزايد اندفاع التسجيل للدراسة بالإنكليزية، وفي العام 1834 عقد اجتماع عام للاحتجاج ضد رعاية اللغات الكلاسيكية، ولصالح تفضيل الإنكليزية واللغات العامية الدارجة[53].

وفي هذا السياق، فإن اللجنة العامة للتعليم العام اتخذت قرارها الذي طال تأخيره حول كيفية صرف الشركة لمبلغ المئة ألف روبية سنوياً لتعزيز الأدب والمعرفة. فعملت على عكس تفضيلها السابق للتعليم بلغة الأهالي الأصليين (وترجمة النصوص العلمية الأوروبية إلى السنسكريتية، والعربية والفارسية)، والذي كانت تتبع فيه تلميحات اللائحة، فقررت في 7 آذار/مارس 1835 'أن الهدف الأعظم للحكومة البريطانية ينبغي أن يكون ترويج العلوم والآداب الأوروبية بين أهالي الهند، وأن كل الأموال المخصصة لأغراض التعليم من الأفضل أن تستخدم في التعليم الإنكليزي وحده'[54].

ورغم أن هذا القرار كان ما يزال مثار نزاع وخلاف آنذاك، فقد ثبت أنه مصيري(*). ذلك أن عدد مدارس الحكومة التي تعلم بالإنكليزية قد زاد بأكثر من

(*) كانت هذه هي الفترة نفسها التي خطت فيها الدراسات الأكاديمية البريطانية لتاريخ الهند خطوات عملاقة. فبين العامين 1835و1837، نجح جيمس برينسيب، مدير دار آساي لسك العملة وأمين سر جمعية البنغال الآسيوية، في فك رموز الكتابة البرهمية لمخطوطات الإمبراطور آسوكا التي تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وبذلك كشف مغاليق القصة المركزية لسلالة موريا (انظر الفصل الخامس 'شخصية اللغة السنسكريتية'، ص 270). وكان شقيق جيمس هنري طوبي، الذي كان آنئذٍ أمين سر الحكومة، قد تكلم ببلاغة ضد محضر وقائع جلسة ماكولي، بل لعله قد سربها، مما قدم أساساً لعريضةٍ من ثمانية آلاف مسلم وعريضة أخرى من الهندوس. وقام جيمس في مقال افتتاحي في مجلة الجمعية الآسيوية بشجب 'إجراء معادٍ للهند كلها سحب تعاطف الحكومة مع الأهالي الأصليين المثقفين في البلد، وأصدر حكماً بإدانة أدبها والتخلي عنه' (آلن 2002، ص 166-167).

الضعف في غصون ثلاث سنوات من صدور قانون تعليم الإنكليزية[55]. وكانت تلك هي البداية فقط. فعندما تأسست الجامعات في المدن البريطانية التقليدية الكلاسيكية الثلاث، بومباي وكلكتا ومدراس في العام 1857، كانت الإنكليزية هي لغة التعليم فيها. وكان هذا التفضيل التعليمي قد فرض في الوقت نفسه في العام 1835 بتعليمات بإحلال الإنكليزية محل الفارسية كلغة رسمية للدولة، ووسيلة التعبير في محاكم القانون العليا، مع استخدام المحاكم الأدنى للغة المحلية الدارجة[56]. وحتى ذلك الحين كانت السنسكريتية والعربية والفارسية تحتفظ بقيمة نصف عملية، بالمقارنة مع بقاء اللاتينية في أوروبا في بواكير العصر الحديث. ومثلما حدث للاتينية في عصر التنوير، فإن هذه اللغات الثلاث انحصرت في مكانة كلاسيكية صرفة، كرموز للتراث وليس كأدوات للتعليم والبحث. أما الإنكليزية، التي لم تكن أكثر من رمز للطبقة الأجنبية الحاكمة، فقد راحت تعمل كوسيلة لفتح شبه القارة كلها لتقاليد ثقافية خارجية.

وهكذا تم التوصل إلى توازن لغوي أساسي، فاستمرت الإنكليزية في الهند حتى استقلالها العام 1947. ومن الناحية العملية، فعلى الرغم من أن الإنكليزية مصنفة الآن كلغةٍ رسمية مشاركة في الهند، بمكانة هي من الناحية النظرية أدنى من مكانة اللغات الهندية الدارجة الثماني عشرة، فقد ظلت ثابتة صامدة حتى يومنا هذا. فالإنكليزية عالمية شائعة في جنوب آسيا كلغة مشتركة للمثقفين. ومن الصعب معرفة عدد الناس الذين يعرفونها في الحقيقة. فالتقديرات على مدى الأعوام العشرين الماضية تتراوح من ثلاثة بالمئة إلى ثلاثين بالمئة من الهنود، ولكن أقل من ذلك في بلدان المنطقة الأخرى[57].

ومن التأثيرات الطويلة الأمد التي كانت لصالح الإنكليزية، وخاصة في الجنوب، غياب أي لغة مشتركة أخرى مفيدة: فممتلكات بريطانيا كانت دائماً تشمل جنوب البلاد، وقد استمرت لتشمل شبه القارة كلها، ولكن الفارسية والأوردو الهندية لم تكونا مقبولتين أبداً إلى الجنوب من الحدود المغولية القديمة. فإذا كان للهند، ولا سيما الهند الديمقراطية، أن تبقى موحدة، فإنها بحاجة إلى لغة مشتركة تبدو محايدة، أو على الأقل قامعة للغات الأخرى بصورة متساوية.

النجاح، رغم أفضل النوايا

رغم أن بريطانيا بالتأكيد لم تغزُ جنوب آسيا 'في نوبة شرود الذهن' كما قال سيلي، فإن انتشار لغة بريطانيا الذي أعقب الغزو كان عفوياً تقريباً.

فقد حدث نجاح الإنكليزية هنا بعمليات مختلفة كلياً عن العمليات التي جرت في أمريكا الشمالية. وكانت تلك العمليات مختلفة حتى عن تلك التي جعلت البريطانيين والهنود على اتصال في المقام الأول. ففي أمريكا الشمالية، انتشرت الإنكليزية مع بقائها منفصلة تماماً عن الأهالي المحليين، إذ أزاحتهم ببساطة مع مرور الوقت وتزاحم الأعداد والاحتشاد بكثرة ساحقة في المستوطنات. أما في جنوب آسيا فقد انتشرت الإنكليزية بتجنيد النخب المحلية. ورغم مخاوف الشركة المبكرة، فإن المهاجرين الناطقين بالإنكليزية لم يصبحوا كثيرين أبداً، ولم يبقوا طويلاً أبداً، وقد غادروا على وجه العموم.

وكان من القوى الجوهرية الدافعة للتجنيد النفوذ الثقافي المتميز، الذي كان من الخواص البريطانية على وجه التحديد عند حلول القرن التاسع عشر. فجاذبيات هذا النفوذ كانت تصل إلى أبعد من الحوافز المبكرة للحصول على الأفضلية في الحكومة أو في الأعمال التجارية. ومع ذلك فلم يكن النفوذ الثقافي هو الذي جعل الهند بريطانية، بل حيوية الشباب في رجال شركة الهند الشرقية. وكانت النقطة الوحيدة التي توقف عندها هؤلاء المغامرون الخياليون(*) بخط أحمر هي الامتناع عن التفكير بالتدخل في الديانات المحلية، أو في أدوار اللغات التي كانت تبدو وثيقة الارتباط بها. فالمبشرون البروتستانت، رغم كثرة شكوكهم ووساوسهم، لم تكن لهم هذه النقطة. وحول هذه النقطة بالذات كسبوا الجدل تدريجياً في بلدهم الأم. واضطر رجال الشركة في آخر الأمر إلى المغامرة بخط إرشادي توجيهي لتثقيف الأهالي. وتخيل دهشتهم عندما اكتشفوا أن هذا الخط لا يسبب الشغب، بل أثبت أن له شعبية بين عامة الناس (المفكرين). فقد وجد الباحثون الهنود أن الإنكليزية تقدم لهم بالفعل وصولاً إلى عالم من الفكر يتجاوز

(*) الشعار: 'فتاة ومئة الف روبية كل يوم' (دالريمبل 2002، ص 33).

التقليد الهندي في مجال القانون، والعلوم الفيزيائية والاجتماعية، والسياسة، والأدب، وحتى الدين، هنا وهناك.

والواقع أن خيبة الأمل الوحيدة شعر بها المبشرون البروتستانت الذين فازوا بالمجادلة اللغوية والثقافية، وقبلوا الشعبية السارة والمرضية للتعليم باللغة الإنكليزية، ومع ذلك فشلوا في العثور على كثير من المعتنقين لعقيدتهم بين الناطقين بالإنكليزية الجدد. وعلى وجه العموم، فإن المحتوى الدنيوي للثقافة الأوروبية الحديثة قد أثبت أنه جذاب للهنود تحت الحكم البريطاني أكثر بكثير من أي وصول جديد وسهل إلى البروتستانية. وبهذا المعنى فإن المبشرين الذين تنبؤوا بثقةٍ كبيرة بأن ’التعليم الإنكليزي الكامل سوف يخرب العقيدة الهندوسية كلياً‘[58] كانوا مخدوعين.

وقد بقيت الإنكليزية في جميع أنحاء المنطقة، حتى بعد زمنٍ طويل من تفكك الغزو الذي جعل حضورها ممكناً. ومن المحتمل أن تستمر الإنكليزية بالانتشار هنا، أو بالأحرى تشتد كثافتها، مع نمو التعليم العالي (وغيره من المؤثرات الثقافية، كما سنرى). ولهذا السبب، فإن نمو الإنكليزية في الهند وباقي آسيا الجنوبية يقدم نموذجاً لأي انتشار محتمل للغة في المستقبل أفضل بكثير مما يقدمه تاريخ الإنكليزية في أمريكا الشمالية.

العالم تجتاحه عاصفة

’أمريكا الشمالية تتكلم الإنكليزية‘.

جواب منسوب للمستشار الألماني بسمارك
عندما سأله صحفي في العام 1898 أن يعرّف الحدث المحدّد لعصره

اكتمال الإمبراطورية

إن هاتين الوسيلتين لنشر الإنكليزية ـ أي ما يمكن أن نسميه الإزاحة الأمريكية للهنود الحمر وإعادة تثقيف الهنود ـ قُدّر لواحدة منهما أو الأخرى أن تطبق عبر

الإمبراطورية البريطانية كلها عندما راحت تتوسع حتى شملت ربع الكرة الأرضية. ومما له دلالة أن الطريقة المختارة لنشر اللغة كانت لها علاقة بالمناخ بقدر ما لها علاقة بالسكان: فالمستوطن النموذجي - والأكثر تأثيراً ونفوذاً في آخر الأمر - هو المزارع. والمزارعون الأوروبيون في الحقيقة لا يعرفون سوى محاصيل المنطقة المعتدلة. ففي المستعمرات المعتدلة، في أستراليا ونيوزيلندا قبل كل شيء، أصبح المستوطنون البريطانيون على المدى الطويل هم أغلبية السكان، وهكذا صارت الإنكليزية هي اللغة الرئيسية. أما في المناطق الاستوائية، حيث كانت الأنشطة البريطانية محصورة في الحكومة والتجارة والاستغلال التجاري، فقد كان انتشار الإنكليزية أكثر سطحية، فأثر على النخب المحلية وعلى الذين كانوا على اتصال بمراكز القوى البريطانية، عن طريق التعليم المدرسي والتجنيد التدريجي للأهالي المحليين في الحكومة والمشاريع البريطانية: فكان هذا هو النمط في معظم المستعمرات الآسيوية - بورما، وهونغ كونغ، والملايو، وسنغافورة، وساراواك، وبروني، وصباح.

وفي بلدان الإزاحة جانباً(*)، كان النشاط متركزاً في القرن التاسع عشر. فكان من المقدر أن أستراليا كانت تؤوي ثلاثمئة ألف نسمة (يتكلمون مئتي لغة) عندما بدأ الإنكليز يصلون إليها في تسعينيات القرن الثامن عشر. وما إن حل العام 1890 حتى كان عدد الأهالي الأصليين قد هبط إلى خمسين ألفاً (مع بقاء 150 لغة). وكانت تجمعاتهم مركزة دائماً في الجنوب الشرقي، تماماً كالناطقين بالإنكليزية اليوم، أي حيث يوجد الماء. وفي الفترة نفسها، تزايد الناطقون بالإنكليزية من أربعمئة ألف في العام 1850 إلى أربعة ملايين عند حلول العام 1900[59]. وكما في الأمريكتين، فإنه بعد السنوات القليلة الأولى، لم تبذل أي محاولة جادة لإيواء الأهالي الأستراليين الأصليين، دع عنك تعلم أي واحدة من لغاتهم، وحتى المبشرون لم ينجحوا في إقامة اتصال غير مدمر معهم.

وفي نيوزيلندا، فرغم أن البريطانيين وجدوا في العام 1770 أنه كان فيها

(*) إن القانون الإنكليزي، خاصة كما هو مطبق في أستراليا، له معنى شبه مرادف لهذه الحالة، وهو ما يطلق عليه باللاتينية اسم "تيرانوليوس"، التي تعني حرفياً: 'الأرض التي لا يملكها أحد'.

شعب واحد يتكلم لغة واحدة هي الماوري، فقد كانت هناك في آخر الأمر قصة مماثلة. وبعد عقد معاهدة ويتانجي بين الماوري وبريطانيا في العام 1840، انطلقت الهجرة البريطانية فتضاعفت اثنتي عشرة مرة في غضون السنوات العشر التالية، من ألفي مهاجر إلى خمسة وعشرين ألفاً عند حلول العام 1850. وفي نصف القرن التالي تضاعف عددهم ثلاثين مرة أخرى، وصارت لديهم أسر كبيرة وطوفان لا يتوقف من المستوطنين الجدد. وبحلول العام 1900 كان العدد قد وصل إلى سبعمئة وخمسين ألفاً. وفي القرن التاسع عشر نفسه، انخفض عدد الماوري من مئة ألف إلى اثنين وأربعين ألفاً. وربما كانت لديهم ميزة معرفة البلد لمدة ألف عام قبل وصول البريطانيين، ولكنهم لم يستطيعوا مقاومة الأمراض الأوروبية، وقبل كل شي فإن إنتاجية حيوانات المزارع الأوروبية من الخراف والأبقار تطورت وازدهرت على مراعي المنطقة المعتدلة. وقد قاتل الماوري بضراوة مريرة، ولكنهم أزيحوا جانباً، كما أزيح أهالي أستراليا الأصليون[(60)].

وقد عاود الأستراليون الأصليون وسكان الماوري النهوض في أواخر القرن العشرين، ولكن نسبتهم في مواطنهم نفسها ظلت ضئيلة. فهناك مئة وسبعون ألفاً من الأستراليين الأصليين أي أقل قليلاً من واحد بالمئة (منهم سبعة وأربعون ألفاً - أي 0.03 بالمئة - لديهم بعض الإلمام بلغتهم الأصلية)، وهناك الآن ثلاثمئة وعشرة آلاف من الماوري - أي ثمانية بالمئة من سكان نيوزيلندر - منهم سبعون ألفاً يتكلمون لغة الماوري، أي 1.8% من السكان. وهم ببساطة مطوقون بالناطقين بالإنكليزية في أستراليا (18.5 مليوناً) ونيوزيلندا (3.8 ملايين)، وهم لا يزالون يصارعون من أجل البقاء[(61)].

وعلى مبعدة إلى الشمال، فإن الناطقين بالإنكليزية لم يبدؤوا بالمجيء بشكل جدي إلى جنوب شرق آسيا إلا في العام 1786، عندما حصلت شركة الهند الشرقية الإنكليزية على بينانغ، وهي جزيرة صغيرة على مبعدة من كيده، لاستخدامها إلى حد كبير كقاعدة من أجل إصلاح السفن(*). وكان اللورد كورنواليس لا يزال حاكماً

(*) كانت الشركة قد حاولت في وقت مبكر (1612-1622) أن تقيم وكالات لتجارة التوابل في باتاني (في

عاماً في ذلك الوقت، وكان شديد الحرص ـ كعادته دائماً ـ على تجنب الاستيطان، وعلى تجنب الانخراط في السياسة قبل كل شيء. ولكن كل شيء أدى إلى شيء آخر. فأشفق البريطانيون على الهولنديين وأخذوا يدبرون لهم أمور إمبراطوريتهم من العام 1795 إلى العام 1814، بينما كان الفرنسيون يحتلون عاصمتهم. وفي تلك الأثناء حصلت بينانغ على حياة تجارية خاصة بها، فكسفت مركز توزيع السلع التجاري القديم في ملقا. ذلك أن السير ستامفورد رافلز، نائب الحاكم البريطاني، الذي كان يعارض إعادة المستعمرات الهولندية، قد شعر بأن بينانغ، الواقعة خارج المضايق، لم تكن مناسبة تماماً لحماية التجارة المزدهرة بسرعة (بالأفيون إلى حد كبير) بين الهند والصين. وعن طريق عمل دبلوماسي من الخداع والشعوذة، نصّب هناك سلطاناً ملايوياً كان الهولنديون قد أهانوه واستخفوا به، وبذلك تمكن من الحصول على سنغافورة لبريطانيا في العام 1819. وكانت عندئذ مستوطنة صغيرة نسبياً. ولكن سكانها ازدادوا فوراً إلى خمسة آلاف، وبدأت سنغافورة تنمو لتصبح مركزاً جديداً كبيراً لتوزيع السلع.

وتلت ذلك مؤامرات وحروب اضطلع بها البريطانيون دائماً وعيونهم على الفرصة التجارية الرئيسية، فنجم عن ذلك امتداد السيطرة البريطانية إلى بورما كلها (1853 ـ 1886)، والملايو (1883 ـ 1895) والمنطقة الشمالية من بورنيو (1888). ولتتويج الكعكة بطبقة أخرى، حصلت بريطانيا على قاعدتها الخاصة بها في الصين، وهي هونغ كونغ (1848، مع توسيعها في العامين 1860 و1898). وكانت النتيجة اللغوية هي توسيع استخدام الإنكليزية في مجال القانون والإدارة في جميع هذه الأنحاء من جنوب شرق آسيا وشرق آسيا. وسرعان ما رأى الآخرون إلى أي اتجاه تهب الرياح اللغوية، فبدأت صحيفة "ستريت تايمز" في سنغافورة تطبع في العام 1845 (بتوزيع 386,000 نسخة على سكان وطنيين عددهم ثلاثة ملايين) وكذلك "ساوث تشاينا مورنينغ بوست" في هونغ كونغ في العام 1903 (بتوزيع مئتي ألف نسخة على سكان تعدادهم ستة ملايين).

هالماهيرا وفي أقصى شرق أندونيسيا) وآيوتهايا، عاصمة سيام آنذاك، ولتجارة القصدير في العام 1669 في كيده في شبه جزيرة الملايو، ولكن الهولنديين كانوا يطردونهم دائماً في كل مرة.

وفي هذه الأيام، فإن معرفة الإنكليزية لا تزال هي علامة النخبة في جميع الدول التي خلفت المستعمرات البريطانية. وكثيراً ما يكون من الصعب معرفة نسبة الناس الناطقين بها. وقد صارت مكانتها مثاراً لخلافات ونزاعات سياسية في الملايو منذ استقلالها في العام 1957؛ فهناك سياسة فعالة لجعل الملايوية لغة التعليم القياسية الموحدة. ولكن ـ كما هي الحال في الهند ـ فإن الإنكليزية لها شعبية عند الأقليات الكبيرة، وهي هنا الناطقة بالصينية والتاميلية، والشاعرة بأن تلك الشعبية تهددها. وفي بورما (أو ميانمار ـ كما هو اسمها القديم) فإن استعمال الإنكليزية اليوم لا تعترف به المصادر الحكومية. ومستقبل الإنكليزية غامض في هونغ كونغ التي أعيدت إلى أرض البر الصيني منذ العام 1997، ولكن استطلاعاً جرى في العام 1992 أشار إلى أن أكثر من ربع السكان لديهم شيء من الإتقان للإنكليزية. وفي سنغافورة أجري استطلاع في العام 1975 فكانت نتيجته أن ما يقدر بـ27 بالمئة من الذين تجاوزت أعمارهم أربعين عاماً يتقنونها، ولكن نسبة متقنيها تصل إلى 87 بالمئة من الشباب بين سن الخامسة عشرة والعشرين(62).

وفي إفريقيا، لم تكن هناك مستوطنات أوروبية كبرى حتى القرن التاسع عشر، عدا مستوطنات الهولنديين والبرتغاليين. ولكن عندما أدى التنافس المندفع للحصول على مستعمرات إلى نفاد الأراضي المتاحة، فإن انتشار الإنكليزية في الممتلكات البريطانية قد تبع نمط إعادة التثقيف بدلاً من إزاحة الأهالي جانباً. كما أن الأجزاء المعتدلة المناخ من جنوب إفريقيا اجتذبت بالفعل أعداداً كبيرة من المستوطنين البيض، ولكن الأعداد أخذت بالتلاشي حالما امتدت المنطقة البريطانية إلى الشمال. كما أن السكان من البانتو، الذين كانوا حديثي عهد بالوصول، تمسكوا بأرضهم جيداً. ونتيجة لذلك نجد 3.5 ملايين من الناطقين بالإنكليزية في جنوب إفريقيا، أي 9.1 بالمئة من السكان. ولكن حتى تجميع الإنكليز والأفريكان معاً، حيث إن مليوناً منهم مزدوجو اللغة بشكل متبادل، لن يجعل نسبتهم تزيد على 22 بالمئة. وعلى مبعدة إلى الشمال، فإن نسبة الناطقين الأصليين بالإنكليزية ـ وهم المواطنون البيض بصورة جوهرية ـ هي أقل من ذلك بكثير، فهم 3 بالمئة في زيمبابوي، و0.5 بالمئة في زامبيا. والإنكليزية كلغة

ثانية لها أهمية أكبر في شرق إفريقيا، فهناك عدد قليل من متكلميها الأصليين، ولكن 5 بالمئة من التانزانيين، والكينيين، والأوغنديين يستخدمونها، رغم توفر السواحيلية كلغة مشتركة بديلة. وهذا بالطبع رقم شديد الشبه ببلدان آسيا التي قبلت إعادة التثقيف: وفي جميع هذه البلدان، كما في كثير من البلدان الآسيوية، تبقى الإنكليزية كلغة رسمية.

والمنطقة الكبرى الأخرى من المستعمرات البريطانية القديمة في إفريقيا هي غربها، من الكاميرون على امتدد الساحل إلى نيجيريا، وغانا، وسيراليون، وغامبيا. وفي هذه المنطقة أيضاً هناك ليبيريا، وهي بلد آخر له ارتباطات مع النطق بالإنكليزية، ولكن في هذه الحالة عن طريق تأسيس هذا البلد كمكان احتياطي للعبيد المحررين من الولايات المتحدة الأمريكية. ولهذه البلدان كلها تواريخ مختلفة ولكنها تتشارك في أن مناخاتها كانت دائماً لا تشجع استيطان البيض. وهي كلها تحدد الإنكليزية كلغة رسمية. ولكن يظهر أنه لا تتكلمها فعلاً إلا أقلية صغيرة نسبياً من سكانها، في حدود 5 بالمئة، مرة أخرى. وبما أن هذه البلدان كلها متعددة اللغات إلى حد كبير، فإن هناك وسيلة أخرى للتواصل على نطاق واسع هي اللغات الهجينة المختلطة ذات الأساس الإنكليزي، مثل النيجيرية المبسّطة الدارجة في نيجيريا، والكريو في سيراليون، والإنكليزية الليبيرية في ليبيريا[63].

وكانت آخر منطقة كبرى لامتداد الإنكليزية هي الجزر المتناثرة عبر المحيط الهادئ. وقد جاء الاستعمار الإنكليزي إلى هذه المنطقة متأخراً بعد الاستعمار الفرنسي (انظر الفصل الحادي عشر: 'الفرانكوفونية'، ص 571) وهذه الجزر تشمل: فيجي في العام 1874، وجزر جيلبرت وإيليس في العام 1892، وجزر سولومون في العام 1893، وتونغا في العام 1900. وكان النصف الغربي من غينيا الجديدة محجوزاً للهولنديين، ولكن ألمانيا وأستراليا ادعتا ملكية الجزء الباقي منها في العام 1884. ومثل العديد من المستعمرات الألمانية في إفريقيا، فإن هذه المستعمرة وقعت في الأيدي البريطانية بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى. ولكن الأيدي في هذه الحالة كانت استرالية بالذات. وفي الوقت

نفسه فإن النصف الألماني (الغربي) من جزر ساموا كان من حصة نيوزيلندا. وفي جزر نيوهابريديس (فانواتو) تقاسم المبشرون الإنكليز والزارعون الفرنسيون السيطرة من العام 1887.

ولم يكن لدى الاستراتيجيين الاستعماريين البريطانيين كبير اهتمام بأي من هذه المناطق، عدا شيء من التنافس الوطني مع النفوذ الفرنسي. فقد تُرك أهل هذه الجزر عموماً للرحمة المتقبلة لصيادي الحيتان والرخويات البحرية، وقاطعي أخشاب الصندل، وزارعي قصب السكر، والقطن، وجوز الهند، والمبشّرين طبعاً. وكانت إحدى النتائج هي التجنيد المؤقت لعصابات كبيرة من جزر البحار الجنوبية للعمل في المزارع في كوينزلاند وفيجي وساموا حيث تعلموا التواصل بإنكليزية مختلطة دارجة. وكانت النتيجة الأخرى موجة واسعة من الهنود إلى داخل فيجي للانخراط في زراعة قصب السكر واستخراجه، بحيث صار ما يقرب من نصف السكان يتكلمون لهجة هندية. ولكن النتيجة الطويلة الأمد لزحف كل هؤلاء العمال المستأجرين هي تحول جنوب المحيط الهادئ إلى منطقة أساسية للغات المختلطة الهجينة ذات الأساس الإنكليزي، وهناك اثنتان منها مقبولتان الآن كلغتين رسميتين، إذ إن توك بيسين هي لغة بابوا غينيا الجديدة، التي استقلت منذ العام 1975. وبيسلاما هي لغة فانواتو (التي كان اسمها ذات مرة نيوهابريديز) المستقلة منذ العام 1980. وهذه اللهجات الهجينة المختلطة مختلفة جداً عن الإنكليزية التي نشرها المبشرون. وعلى أية حال، فإن المجتمعات الناطقة بهذه الإنكليزية هي أقليات صغيرة جداً في بلدانها، كما يتوقع المرء في الأماكن التي انتشرت فيها اللغة بإعادة التثقيف.

وقد جاءت الإنكليزية إلى جزر المحيط الهادئ أيضاً من الاتجاه المعاكس. فمنذ أوائل القرن التاسع عشر كانت هاواي ميناءً شتوياً لصيادي الحيتان. ومن العام 1820 صارت بؤرة اهتمام لخمس عشرة مجموعة من المبشرين من نيو إنغلاند. وكان رجال الأعمال الأمريكيون نشيطين هناك أيضاً على نحو متزايد ولعلهم كانوا يبحثون عن حدود جديدة لتطبيق 'المصير الظاهر' لبلدهم؛ وكانوا هم المستفيدين الرئيسيين من تقسيم الأراضي الذي تم تنظيمه بين العامين

1848 و1850. وقد صمد استقلال هاواي لفترة قصيرة، متوازناً بين المصالح المتنافسة لبريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة الأمريكية. ولكن الضغط الأمريكي لم ينحسر. وقد تم التوصل إلى اتفاقية خاصة للتبادل في العام 1875. وأسقط النظام الملكي في العام 1893، وفي العام 1898 قامت الولايات المتحدة الأمريكية بضم أرخبيل جزر هاواي بكامله.

وفي العام 1896 كان أحد القوانين الأولى لجمهورية هاواي، التي تشكلت لوقت قصير بعد سقوط النظام الملكي، يتطلب استخدام الإنكليزية كوسيلة للتعليم لمدة لا تقل عن نصف اليوم المدرسي، ولكن من الناحية العملية لم يعد يسمح باستخدام لغة هاواي على الإطلاق. وفي ذلك الجيل توقف انتقال تلك اللغة من الأب إلى أطفاله توقفاً تاماً. وقالت جدة لحفيدتها قبل أول يوم لها في المدرسة:

> تعلمي جيداً لغة البيض. ولا تعتمدي على لغتنا، فليس فيها أي قيمة. إن مستقبل رفاهية المرء يعتمد على إتقان لغة الناس الأجانب[64].

ويبدو هذا عملية إعادة تثقيف شديدة القسوة على نحو خاص. ولكن الواقع هو أن هاواي ينطبق عليها نموذج الإزاحة جانباً: فعند حلول العام 1996، عندما كان عدد السكان مليونين ومئتي ألف نسمة، لم يكن فيهم من أهل هاواي الأصليين سوى 18.8 بالمئة، ونصف هؤلاء كان لديهم خمسون بالمئة من الأسلاف من أهل هاواي الأصليين. وفيما عدا جزيرة نيهو الصغيرة، فإن كل شخص على الجزر هو ثنائي اللغة على الأقل في الإنكليزية. والغالبية الساحقة لا تعرف أي لغة أخرى.

وفي العام 1898 نفسه، انتزعت الولايات المتحدة الفليبين وغوام بالقوة من إسبانيا في فورة من العربدة الاستعمارية (انظر الفصل العاشر: 'القانون: عبر المحيط الهادي'، ص 519)، وبعد ذلك بعام، فرض الأمريكيون أيضاً حلهم الخاص بهم لنزاع طال أمده على ساموا، فاستولوا على النصف الشرقي من ذلك الأرخبيل. وتبع ذلك أربعون عاماً من الراحة اعتادت فيها هذه المناطق الجديدة على صوت الإنكليزية. ولكن في السابع من كانون الأول/ديسمبر من

العام 1941 أدى هجوم على بيرل هاربور، في هاواي الأمريكية، إلى اندلاع حرب المحيط الهادئ مع اليابان. وفي نهاية الحرب، بعد أن تعرفت أمريكا على جانب غير منعش بالتأكيد من هذه الجزر كميدان قتال، وجدت الولايات المتحدة نفسها مالكة لكل المستعمرات اليابانية في ميكرونيزيا. ورغم أنها لم تعد مستعمرات بعد سبعينيات القرن العشرين، فقد أبقت كلها على علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة. وأصبحت الإنكليزية هي اللغة المشتركة في المحيط الهادئ. ولكن الإنكليزية ليست لغة الأغلبية في أي مكان آخر خارج هاواي، وأستراليا، ونيوزيلندا.

عجب فوق عجب

إن هذا الفصل، مثل كل الفصول التي سبقته، قد ركز بشكل رئيسي حتى الآن على التطورات السياسية التي نشرت اللغة. ولكن هناك شيئاً آخر كان يعمل لصالح الإنكليزية، في القرنين الأخيرين على الأقل، وبصورة متزايدة مع مرور عقد وراء عقد من السنين. وقد شوهدت لمحة من هذا الشيء في ملاحظة رام موهان روي في العام 1823 التي طالب فيها بالوصول إلى التعليم بالإنكليزية. '... فالعلوم المفيدة، التي أوصلها أهالي أوروبا إلى درجة من الكمال رفعتهم فوق سكان الأجزاء الأخرى من العالم....'.

إن الذي حمل المشروع البريطاني، وبالتالي لغته بشكل مباشر أو غير مباشر، حول العالم لم يكن هو فقط العدوان الواثق بنفسه، أو التفوق في القوة النارية، أو الوصول إلى رأس المال بلا منافس. فهذه الأشياء كلها لعبت دوراً، ولكنها نبعت من المكانة المذهلة لبريطانيا باعتبارها مركز الثورة الصناعية ومصدرها، وتعززت من هذه المكانة. وفي القرن التاسع عشر، عندما قبل الناس بحماسة إعادة التثقيف بالإنكليزية في جميع أنحاء العالم كما رأينا، كان من الواضح أن بريطانيا هي أغنى بلدان العالم وأكثرها حيوية في الحركة. وعلى حد قول أحد المؤرخين في خلاصة:

بين العامين 1760 و1830، كانت المملكة المتحدة مسؤولة عن ثلثي نمو إنتاج أوروبا الصناعي (ـ ب. بيروخ 1982)، وقد قفزت حصتها من إنتاج العالم الصناعي من 1.9 بالمئة إلى 9.5 بالمئة. وفي السنوات الثلاثين التالية، فإن التوسع الصناعي البريطاني دفع ذلك الرقم إلى 19.9 بالمئة، برغم انتشار التكنولوجيا الجديدة إلى بلدان أخرى في الغرب: 'إن المملكة المتحدة التي فيها 2 بالمئة من سكان العالم، أي 10 بالمئة من سكان أوروبا، يبدو أن لديها إمكانية في الصناعات الحديثة تعادل 40ـ45 بالمئة من إمكانية العالم، أي 55ـ60 بالمئة من إمكانية أوروبا (ـ ف. كروسيه 1982). كما أن استهلاكها للطاقة من المصادر الحديثة (الفحم، وفحم اللغنايت الحجري، والنفط) كان في العام 1860 خمسة أضعاف استهلاك الولايات المتحدة أو بروسيا/ألمانيا، وستة أضعاف استهلاك فرنسا، و155 ضعف استهلاك روسيا! وكانت وحدها مسؤولة عن خُمس تجارة العالم، ولكن عن خمسي تجارة البضائع المصنعة'[65].

ومع الغوص في حالة مثل هذه الحقيقة المذهلة ـ حتى ولو لم تكن الإحصائيات الكاملة متاحة آنذاك ـ فإنه ليس عجيباً أن الطلبة الهنود قد أعجبتهم الفوائد المادية للطرق البريطانية أكثر من المكافآت التي لا تفنى التي كان المبشرون البروتستانت يعدون بها. فنفوذ الإنكليزية في القرن التاسع عشر قد ارتفع إلى السماوات عن طريق العملية نفسها التي جعلت الفرنسية اللغة القيادية للثقافة الأوروبية طيلة العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث. وكانت الفكرة عند الجذور هي: 'إذا كنت غنياً فكيف يمكنك أن لا تكون ذكياً؟'.

كان لدى فرنسا منحة طبيعية جيدة من الأرض الزراعية الخصبة وعمل وفير يمكن البناء عليه، ولكن بريطانيا كان لها رأسمال أولي متواضع تماماً. وفي أوائل القرن السابع عشر، عندما ظهر البريطانيون لأول مرة في جزر الهند الشرقية، وحاولوا أن ينخرطوا في تجارة التوابل، كانت مشكلتهم الرئيسية هي نقص البضائع التي يوجد عليها طلب محلي. أما الآن، بعد قرنين من التجارة، والخداع، وبناء السفن، والحروب، فإن رأسمالهم ونفوذهم أعطياهم وصولاً إلى أي شيء قد يرغبون فيه، وكما تبجح الاقتصادي ستانلي جيفونز في العام 1865:

> إن سهول أمريكا الشمالية وروسيا هي حقول حبوبنا، وشيكاغو وأوديسا هي أهراؤنا، وكندا والبلطيق هي غابات أخشابنا؛ وأستراليا تحتوي على مزارع خرافنا، وفي الأرجنتين والبراري الغربية لأمريكا الشمالية قطعان ثيراننا، وبيرو ترسل فضتها، وذهب جنوب إفريقيا وأستراليا يتدفق إلى لندن، والهنود والصينيون يزرعون الشاي لنا، ومزارع قهوتنا، وسكّرنا، وتوابلنا كلها في جزر الهند الشرقية والغربية ...[66].

إن بريطانيا، باعتبارها قوة، كانت ستكتشف أن بعض هذه القوى الأخرى، ولا سيما أمريكا الشمالية، لديها ميل إلى تحويل الشروط التجارية ضدها؛ ولكن ذلك لم يكن خسارة للمجتمع اللغوي الإنكليزي. بل إنه إذا حقق أي شيء، فقد كان ذلك الشيء كسباً صافياً عندما بدأ سكان أمريكا الناطقون بالإنكليزية يبحثون فيما وراء ممتلكاتهم ويستخدمون مواردهم في حقول خصبة، ومناجم منتجة، وسكان ذوي ثقافة عالية وكثيفة، لتنفيذ خطط من استنباطهم.

ووسط التباهي العام اللافت للأنظار بخلق ثروات متعاظمة بسرعة، كان هناك تزايد في قوة الاتصالات وسرعتها. فقد شهد القرنان التاسع عشر والعشرون تقدماً لم يسمع به من قبل، في مجال الاختراع أولاً، ثم في التطبيق السريع لأنظمة نقل الناس والبضائع إلى جميع أنحاء العالم. ولعل مما يثير الإعجاب أكثر هو التقدم الموازي الذي حصل باستخدام الإلكترونيات إلى حد كبير في أنظمة لنقل كل أنواع المعلومات وتخزينها. فالسنوات المئة والخمسون التي تلت العام 1830 تأخذنا من أول قاطرة سكة حديدية عبر القارب البخاري إلى أسواق النقل الجوي الكبيرة بالجملة، ومن البرق عبر الهاتف إلى الإذاعات العالمية بالراديو والتلفزيون، وكذلك إلى حالات الاقتراب من شبكات الحاسوب الفعالة. وفي الفترة نفسها، عثر على وسيلة لتخزين كل أنواع الأصوات، والوصول إليها واستعادتها في أي وقت، بما فيها الكلام، والموسيقى، والمشاهد المرئية والصور، ووجهات النظر في الأحداث والأعمال أثناء وقوعها. إن أي واحد من هذه الأشياء كان فيه إمكانية تحويل العالم في عصر أسبق؛ ولكن في هذا العصر، عندما تحققت أحلام الإنسانية بالقوى السحرية، فإن هذه الأشياء كلها جاءت معاً.

إن كل واحدة من هذه التقنيات تقريباً اخترعها ناطق بالإنكليزية ـ ستيفنسون، فولتن، رايت، بل، بيرد، إديسون ـ أو ربما ناطق بلغة أخرى اضطر إلى العمل في العالم الناطق بالإنكليزية، مثل ماركوني ورويتر. وحتى عندما لم يكن المخترعون ناطقين بالإنكليزية، فقد كان المطوِّرون والناطقين بها، مثل هنري فورد، أو صانعو الأفلام في هوليود، هم الذين أظهروا ما الذي يمكن عمله بالوسيلة الجديدة على نطاق واسع حقيقي. لنتأمل في ماكينة بنز الألمانية للاحتراق الداخلي، أو التصوير الضوئي الفرنسي والصور المتحركة، المنسوبين إلى روّاد طليعيين مثل داغير ولوميير. وكان هذا يعني حتماً أن الحديث الهام عن هذه المنجزات وعما يمكن عمله بها كان يجري بالإنكليزية قبل كل شيء. فبالنسبة للعلماء والمهندسين، ولكن بالنسبة لرجال الأعمال بشكل حاسم، كانت الإنكليزية هي اللغة التي تصاغ بها معرفة العالم. ومنذ أن أعطى الخط المسماري اللغة الأكادية وظيفة اللغة الدبلوماسية في الشرق الأدنى والأوسط لم تكن التكنولوجيا أبداً شديدة الفعالية إلى هذه الدرجة في نشر أي لغة. (انظر الفصل الثالث: 'الأكادية ـ تقنية تتغلب على العالم: نموذج من معرفة القراءة والكتابة»، ص 99).

إن جميع هذه الانتصارات فيما يسمى 'الاتصالات' تميل إلى تقليل آثار المسافات التي تستغرق وقتاً وتكلف جهوداً في العالم. ولكنها تميل أيضاً إلى تقليل الفوارق بين العالم عند تقديمه إلى أناس بعيدين في مناطق نائية. وبصورة حرفيه تماماً فإنها تجعل أوصافاً معينة للتجربة 'عامة ومشتركة' لأعداد من الناس متزايدة أكثر فأكثر. وهي تجعل الأعمال التجارية الإقليمية والدولية شيئاً روتينياً، وتتيح للاتصالات الدولية أن تشمل أعلى مستوىً من الموظفين، وتحوّل المقاصد البعيدة جداً إلى مواقع لزيارات قصيرة، بل لقضاء إجازات العطلة. ولكنها أيضاً توجد الصور والعبارات التي يحملها الناس في ذاكراتهم، من الإعلانات عبر الإمتاع إلى التعليم والتثقيف؛ ففي هذه الأيام لم يعد هناك نصوص كلاسيكية وأعمال فنية نتعلم أن نقدرها فحسب، بل صار هناك أيضاً سجعات كلاسيكية مقفاة، وإعلانات كلاسيكية، ومواد أدبية وفنية كلاسيكية متدنية

المستوى لا نستطيع إخراجها من رؤوسنا من أحد أطراف البلد أو العالم كله إلى الطرف الآخر: ومن المرجح تماماً أن تكون الكلمات التي نتذكرها بالإنكليزية، حتى ولو كنا من هنغاريا، أو بالي، أو جنوب إفريقيا، أو منغوليا.

وقد أتاحت تقنيات الاتصال الجديدة أيضاً إيجاد مؤسسات جديدة، مؤسسات توجد قبل كل شيء لصياغة الكلمات وتزيينها ونقلها. وهي تشمل الصحف، والمجلات، واستديوهات الأفلام، ودور السينما، وناشري الأغاني، وشركات التسجيل، ومحطات الإذاعة، وشركات الإنتاج التلفزيوني، ومصممي المواقع على الشبكات: ولا شك أن القائمة سوف تستمر لمدة طويلة في المستقبل. وضمن كل وسيلة هناك الإعلان، وهو الإنتاج الأعلى في أجهزة الإعلام اللغوية، الذي يعمل كنوع من التخصيب أو هرمون النمو، فيعزز التوزيع والمبيعات لكل هذه المنتجات اللغوية عن طريق محتواه الواضح الصريح، حتى عندما تؤدي مدفوعاته للقنوات الفضائية إلى تمكين وسائل الاتصال من تخفيض أسعارها والوصول إلى أماكن أبعد، كما أن الإعلان في الوقت نفسه هو منتج كبير للمادة اللغوية بحد ذاته. وليست أي واحدة من مؤسسات القرنين التاسع عشر والعشرين هذه قاصرة على اللغة الإنكليزية، ولكنها أصبحت متاحة بالإنكليزية أولاً. وقد بقيت الإنكليزية هي المنتج الأكبر.

وكما اكتشف البرتغاليون عندما اكتسبوا أول الأمر سمعة تجارية في المحيط الهندي، فإن اللغة الوطنية لا حاجة بها إلى البقاء محصورة بين مواطنيها. فالبرتغالية أصبحت لغة مشتركة للتجارة الدولية - بل وللكنيسة المسيحية - في جنوب وجنوب شرق آسيا طوال عشرة أجيال وأكثر، بعد زمن طويل من تراجع البرتغال نفسها أمام نفوذ الهولنديين والبريطانيين. وقد حدث الشيء نفسه للإنكليزية، ولكن على نطاق العالم كله وليس على نطاق أحد محيطاته فقط. وقد اكتشف أناس كثيرون في مختلف أنحاء العالم أنهم بحاجة إلى التعامل مع الناطقين بالإنكليزية إلى درجة أن تعاملاتهم راحت تتداخل. بل إن الذين ليست الإنكليزية لغتهم الأم، وحتى الذين ليست لهم أي علاقة مباشرة مع الناطقين بالإنكليزية، بدؤوا يستخدمونها فيما بينهم، لأنهم وجدوها مناسبة

لهم بطريقة صرفة. وحسبما يقول المثل الإنكليزي فإنه 'لا شيء ينجح كالنجاح نفسه'. وليس انتشار اللغة مستثنىً من هذا المثل. ففي القرن العشرين، حلت الإنكليزية محل الفرنسية كلغة المؤتمرات المعتادة. ولغة المرور الجوي كانت دائماً (شكلاً محدداً) من الإنكليزية ـ وليس هذا مدهشاً أو عجيباً، ربما لأن الطيران اختراع أمريكي. ولكن الإنكليزية صارت دائماً هي اختيار العالم كلغة دولية. وفي العام 1996 كانت التقديرات تقول إن 85 بالمئة من الروابط الدولية تستخدم الإنكليزية بصورة رسمية، و33 بالمئة منها لا تستخدم أي شيء آخر سوى الإنكليزية. وفي آسيا والمحيط الهادئ، فإن 90 بالمئة من المنظمات الدولية تعمل بالإنكليزية فقط[67].

ثم إن العالم الناطق بالإنكليزية، مع عينه الباحثة بصورة نموذجية عن فرص الأعمال التجارية، قد حوّل ذلك إلى مشروع يدر أموالاً. فتعليم اللغة الإنكليزية لم يعد مجالاً للتثقيف فقط، بل صار أيضاً صناعة خدمية وتجارة قائمة بحد ذاتها ـ كما كان الحال في تلك الأيام المبكرة في البنغال. وهذا التعليم يزدهر في كل بلدان العالم تقريباً. فإذا كانت اللغة في المحيط العام هي الإنكليزية، فلا بد أنها مكان جيد للطلاب للحصول على كثير من التدريب والممارسة. وإذا لم تكن كذلك فلا بد أن إتقانها مهارة بارزة من المرغوب فيه الحصول عليها. وقد لاحظ الفيلسوف البارز جيمس ملْ (1773 ـ 1836) ذات مرة أن الخدمة المدنية الإمبراطورية لم تكن أكثر من 'نظام هائل لراحة الطبقات العليا في بريطانيا العظمى في الهواء الطلق': ومن الممكن اعتبار تعليم اللغة الإنكليزية جواباً جديداً على المشكلة نفسها، ولو أن المؤهلات في الأرضية الخلفية، والجنسية الوطنية ليست الآن أقل قسوة ومتطلبات مما كانت عليه آنذاك.

إن رسم خريطة جغرافية لهذا الانتشار للإنكليزية أصعب من رسم خريطة توسع المستعمرات البريطانية. فهذا الانتشار في روحه نابع في تحدر مباشر من سياسة إعادة التثقيف التي أدخلها البريطانيون إلى الهند. ولكن الآلية تكاد تكون امتداداً تلقائياً محضاً، ما دامت اللغة ـ على عكس ما حدث في الهند ـ قد انتقلت مع حضور ضئيل جداً من أبنائها المحليين الناطقين بها كلغة أم. ولعلها أفضل

مثال على انتشار لغةٍ ما بسبب النفوذ المحض للثقافة المرتبطة بها. وقد أظهرت أمثلتنا السابقة هذه الإمكانية من حيث المبدأ، وكما في حالة المراسلة باللغة الأكادية بين البلاط المصري والبلاط الحثي في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، واختيار الكمبوديين والجاويين زخرفة معابدهم بنصوص أدبية سنسكريتية في القرن الخامس الميلادي. أو عندما اجتاح المغول الهند من أفغانستان ففضلوا الفارسية كلغة لبلاطهم على لغتهم الأم التركية، في القرن السادس عشر. كما أن الرّواج الشعبي للفرنسية في أوروبا الشرقية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ينبغي رؤيته تحت هذا الضوء. ولكن انتشار الإنكليزية كان أول مرة تصبح فيها لغة ما وثقافتها مرغوباً بهما في الوقت نفسه لدى شعوب في جميع أنحاء العالم، وهذا حدث فريد من نوعه فعلاً.

وبطريقة ما، فإن روايتنا لهذه العملية قد اختلفت عن الرواية العادية، وذلك بانعدام التركيز على دور الولايات المتحدة الأمريكية.

إن الأخذ بالإنكليزية على نطاق عالمي في القرن العشرين، ولا سيما في نصفه الأخير بعد الحرب العالمية الثانية، يعزى إلى حد كبير إلى تأثير الولايات المتحدة، بجيوشها وأساطيلها المتموضعة حول العالم، وامتداد وصول مشاريعها التجارية، والحضور الظاهر في كل مكان لأفلامها، وموسيقاها الشعبية وعروضها التلفزيونية وأجهزتها الأخبارية، وبرمجياتها الحاسوبية. ومن المؤكد أن كل هذه الأشياء كانت هامة، والحماسة الجماعية الكثيفة لثقافة اللغة الإنكليزية تتركز الآن على منتجات الولايات المتحدة الأمريكية. وبين الناطقين بالإنكليزية كلغة أم فإن أكبر مجموعة فردية هي الولايات المتحدة بوضوح. فسكانها البالغ تعدادهم 231 مليوناً هم أربعة أضعاف سكان المملكة المتحدة الستين مليوناً، وهم وحدهم يشكلون ثلثي المجموع العالمي للناطقين بالإنكليزية[68]. ومن الممكن المجادلة بأن نوعية الإنكليزية المفضلة الآن ـ إذا حكمنا من اللهجات الشائعة في خارج مناطقها ـ هي اللهجة الأمريكية العامة، وتجاورها الإنكليزية العامية الدارجة بين الأمريكيين الأفارقة؛ وعلى عكس ذلك، فإن إنكليزية المملكة المتحدة المفضلة المتداولة في الإذاعة، والمسماة 'إنكليزية

مصب النهر'، وهي بديل موجه من لندن 'للفظ أوكسبريدج التقليدي المتوارث'، ليست سوى ذوق محلي إلى حد كبير(*).

ولكن اهتمامنا في هذا الكتاب كان دائماً منصباً على انتشار المجتمعات اللغوية، وهي هيئات الناس الذين يستطيعون أن يتفاهموا فيما بينهم عن طريق لغة معينة. وبهذا المعنى فإن تميزات اللهجة ليست لها علاقة إلى أن تهدد التفاهم المتبادل. وعند النظر إليها تاريخياً فإن من الواضح تماماً أن منصة الوثوب التي قفزت منها الإنكليزية إلى مكانة عالمية كان اعتمادها على منجزات العم سام الحديثة أقل من اعتمادها على مغامرات جون بول على مدى الثلاثمئة وخمسين عاماً الماضية.

وعلينا أن ننظر في نمو الناطقين بالإنكليزية كلغة ثانية، ما داموا هم الذين سيطروا على توسع استخدام الإنكليزية في القرن العشرين؛ فعند حلول خمسينياته، فإن كل البلدان الكبيرة المستخدمة للإنكليزية كلغة أولى كانت قد أبطأت نمو سكانها. وبالنسبة للناطقين بها كلغة ثانية، فإن التقدير الجيد، أو سلسلة التقديرات المقدمة في مقالة ديفيد غرادول للعام 1999 والمعنونة بـ 'أفول الناطق باللغة الأم'. فهو يحدد النمو الحديث في أمريكا اللاتينية، وفي إفريقيا جنوب الصحراء، وفي جنوب آسيا، وهو نمو يكاد يكون من المؤكد أنه سيؤدي إلى جعل الناطقين بالإنكليزية كلغة ثانية يفوق عدد المتكلمين بها كلغة أمّ في غضون نصف القرن القادم إن كانوا لم يزيدوا عليهم بعد.

إن مستوى الناطقين بالإنكليزية في المستعمرات البريطانية السابقة والباقين الصامدين يتراوح بين 2 بالمئة و5 بالمئة، ولكنهم في العادة يقدرون

(*) وحتى في يومنا هذا، فإن الموقع في المملكة المتحدة يقدم أفضل نقطة وسطى يتم منها فهم الناطقين بالإنكليزية من جميع أنحاء العالم. فالتنويعات الأمريكية، والجنوبية-الإفريقية، والكاريبية، والهندية، والسنغافورية، والأسترالية، كثيراً ما تسمع في أجهزة الإعلام البريطانية، ومع سلسلة من اللهجات الإقليمية في المملكة المتحدة (وخاصة لهجات اسكتلندا، وإيرلندا الشمالية، ونيوكاسل، وليفربول، ويوركشاير، وبرمنغهام، وكوكني في أحياء لندن الفقيرة)، وكلها مفروض أنها مفهومة لدى المستمعين البريطانيين. وعلى عكس ذلك، فإن الولايات المتحدة تطبق منذ ثلاثين عاماً الدبلجة أو الترجمة على الأفلام الناطقة بإنكليزية أسترالية.

بما يقرب من 200 مليون. غير أن هناك تقديرات حديثة تعطي معدلاً أعلى من ذلك بكثير، يصل إلى 20 بالمئة في الهند وباكستان، و10 بالمئة في بنغلادش[69]. فإن كانت هذه الأرقام صحيحة، فإن العدد الإجمالي يكون قد وصل إلى 395 مليوناً. وقارن ذلك مع أمريكا اللاتينية وإفريقيا جنوب الصحراء حيث يتضح أن معرفة الإنكليزية آخذة بالنمو، ولكن حيث يقدر غرادول أن النسب المئوية الحالية لا تزيد على 1 بالمئة من السكان (73 مليوناً، 43 مليوناً). وفي الأماكن القليلة جداً من العالم التي فيها استعمال هام للإنكليزية ناجم عن النفوذ الأمريكي بشكل مباشر، فإن نسب الناس الذين يعرفونها هي 50 بالمئة في الفليبين (أي 36 مليوناً)، و85 بالمئة في ليبيريا (أي مليونان، رغم أنهم يمثلون الناطقين بإنكليزية هجينة مختلطة). وبشكل عام، فإن هذه المناطق الناطقة بالإنكليزية من أصل غير بريطاني قد تمثل مجموعاً قدره 152 مليون نسمة.

وإذن ففي هذا الجزء من العالم الإنكليزي الناطق بها كلغة ثانية، يبدو أن نمو الإنكليزية ذات الأصل البريطاني يبقى أهم من التأثيرات الجذرية للنفوذ الأمريكي. ولكن هذا يخرج من الحساب ما يمكن اعتباره أسرع منطقة لنمو الإنكليزية كلغة ثانية، أي أوروبا[*]. وإن تعريف الإنكليزية الأوروبية كلغة أجنبية أم كمنطقة لغة ثانية هو قضية تحديد، ولكن من الواضح أنها أصبحت لغة عمل كبرى في الاتحاد الأوروبي، بالإضافة إلى استخدامها على نطاق واسع في التجارة، والصناعة، وعالم الثقافة الجامعية الأكاديمية في البلدان الأوروبية الشمالية، ولا سيّما في اسكندنافيا. وإن تحليل غرادول للمسوح الاستطلاعية لمقياس الضغوط والتغييرات الأوروبية في الاتحاد الأوروبي من العام 1990 إلى العام 1998 يشير إلى أن إتقان الإنكليزية في أوروبا كان عالياً، ولكنه ظل ساكناً عند نسبة أقل من 20

(*) من الصعب عزْوُ ذلك إلى أيٍ من النفوذين البريطاني أو الأمريكي، فقد كانت الإنكليزية مستخدمة على نطاق واسع كلغة عمل (محايِدة آنذاك) في الأسرة الأوروبية قبل انضمام المملكة المتحدة إليها في العام 1971. ولكن الإنكليزية البريطانية تبقى خيار الأغلبية عند تدريس هذه اللغة في القارة الأوروبية.

بالمئة حتى عام 1980، ثم نشط وانتعش، وبدأ ينطلق كالشهاب منذ العام 1990. فعدد الذين يتقنونها الآن يقف عند 100 مليون نسمة، أي ما يقرب من ثلث سكان الاتحاد الأوروبي(*).

الإنكليزية بين مثيلاتها

آه لو أن قوة تعطينا الموهبة
لنرى أنفسنا كما يرانا الآخرون.
إنها ستحررنا من أخطاء كثيرة
وأفكار حمقاء.
وستبتعد عنا الكبرياء المصطنعة في ملابسنا وخطواتنا
وحتى في ولائنا وتقوانا.

روبرت بيرنز: 'إلى قملة'، 1798

إن لغة تربط معاً أفراد مجتمع بكلامها، حتى ولو كان هائلاً مثل الجموع العالمية التي تفكر وتتكلم بالإنكليزية، تكتسب طابعها ليس عن طريق لفظها وعباراتها، بل بصورة أكبر عن طريق أنماط الارتباط التي تراكمت على كلماتها أثناء انتقالها نازلة بين الأجيال. فاللغة تنم عن تاريخ - وبالطبع عن تاريخ الذين تكلموا بها - وهذا هو الخالق الرئيسي لسمعتها في الخارج، كما هو خالق جاذبياتها لمن قد يرغبون في تعلمها، وبذلك ينضمون إلى مجتمعها. وهذا أحد الأسباب التي جعلت دراسة لغةٍ ما تركز على أدبها لفترة طويلة، 'أي أفضل ما قيل وخطر في الفكر'(**) باستعمال تلك اللغة كما اختاره تقليدها نفسه. ولكن الكتابات الجيدة ربما لم تقدس كل التجارب التي مرت في ذاكرة اللغة الطويلة.

(*) إن عدد الأوروبيين القادرين على المشاركة في محادثة بالإنكليزية كان 42 مليوناً في العام 1950 ولكنه تزايد على مدى ثلاثين عاماً فاصبح 60 مليوناً في العام 1980 (أي 18 بالمئة من مجموع سكان الاتحاد الأوروبي. وعند حلول العام 1990 كان الرقم قد وصل إلى 80 مليوناً (أي 21 بالمئة). ثم وصل إلى 105 ملايين (أي 21 بالمئة) بحلول العام 2000. وعندما أخذ في الحسبان الفرق في الإتقان بين ذوي الأعمار المختلفة - في العام 1994، كان 10 بالمئة ممن تجاوزوا الخامسة والخمسين يعرفون شيئاً من الإنكليزية، ولكن 55 بالمئة ممن هم بين الخامسة عشر والرابعة والعشرين يتقنونها. ويتوقع غرادول أن يصل عدد الأوروبيين الناطقين بالإنكليزية إلى ذروة قدرها حوالي 190 مليوناً في العام 2030.

(**) هذه إشارة إلى ملاحظة شهيرة لماثيو أرنولد في مقدمة كتابه "الأدب والعقيدة"، بأن 'الثقافة هي

وعند النظر إلى الوراء في تاريخ الإنكليزية كمشكّل لطابعها وسمعتها الحاليين، فإن في وسع الذاكرة أن تكون انتقائية تماماً. فالماضي الذي سبق الإصلاح الديني في القرن السادس عشر وبداية التوسع الاستعماري يبدو أنه لم يترك سوى أخف الآثار الباهتة. ولكن منذ تلك الفترة فصاعداً، فإن أنواع المغامرات التي نشرت الإنكليزية، والتي حظيت بأعلى تقدير من كثير من الناطقين بها، فيها تماسك معين ثابت بالفعل. فالإنكليزية مرتبطة بالبحث عن الثراء وبالحصول المتعمد على الثروة، وغالباً بمخططات واسعة الخيال ولم يسبق لها مثيل أبداً. وقد اضطر هذا البحث أحياناً إلى التصارع مع الضمير الديني والمدني، ومع أمجاد الوطنية، ولكنه استطاع أن يجندها إلى جانبه إلى حد كبير. وعلى وجه العموم، فقد كان هذا البحث حليفاً لحرية الفرد، وليس منافساً لها. فقد كانت الإنكليزية، قبل كل شيء، لغةً دنيوية[70].

ولم يبق في الإنكليزية شيء يذكر من الفترة السابقة لوصول اللهجات الجرمانية التي قدر لها أن تمتزج بالأنغلو ساكسونية: وربما بقي اسم 'بريطانيا' نفسه، من اصطلاح يفترض أنه من بلاد الغال لوصف البريطانيين القدامى، ومعناه 'ذوو القامات المرسومة' ("بريطانوي" - و"بريد" *pryd* باللغة الويلزية، و"كروث" *cruth* - أي الشكل - بالإيرلندية القديمة)، بسبب عادتهم في تلوين أجسامهم بالدهان. وربما كان اسم 'آلبيون' أقدم من الاسم 'بريطانيا'. فقد استخدمه الإغريق في حوالي العام 300 ق.م. وهو لا يزال مستخدماً بلغة الغيليك Gaelic للإشارة إلى اسكتلندا، "آلبا". والأصل التاريخي الوحيد المقترح لهذه الكلمة يعود إلى ما قبل اللغة الهندية - الأوروبية، مما يجعله قريب النسب من "الألب" ومن مدينتين رومانيتين قديمتين حملتا اسم "آلبا"، وهي كلمة قديمة حقاً تعني 'المرتفعات'[71]. ومن المحتمل تماماً أن بعض الملامح المشاهدة في الإنكليزية الإيرلندية، مثل عبارة: 'أنا بعد انتهاء عملي' و'رأيت توماس وهو جالس بجانب النار'، والمستوردة من صياغة إيرلندية نموذجية، هي

معرفة أفضل ما قيل وما تم التفكير به في العالم'. ولكننا الآن أقل التزاماً من آرنولد (وماكولي) بالرأي القائل بأن لغة واحدة تستطيع أن تقدم وصولاً متميزاً متنفذاً لامتداد الثقافة الإنسانية كله.

ملامح يتصادف أنها تعود إلى اللغة المحكية هنا حتى قبل وصول الكلت إلى هنا. فبعد كل شيء هناك صيغٌ مماثلةٌ موجودة في اللغتين المصرية والسامية على التوالي، وإن إحدى الفرضيات لتفسير ذلك، وكثير غيره، هو أنه كانت هناك تجارة بين هذه المناطق في عصور ما قبل التاريخ[72].

ونستطيع أن نستعيد باختصار الألفية الأولى من وجود الإنكليزية. فعندما ترسخت اللغة في بريطانيا في القرن الخامس، وجدت نفسها مطوقة بالكلتية من الغرب والشمال. فلم يستطع الكلت أن يقفوا ضد تقدمها بقوة السلاح. ولكن قوى مصممة على تنصير الناطقين بالإنكليزية تجمعوا وتكاثروا عليها تدريجياً من الشمال الغربي والجنوب الشرقي، وأخيراً اجتمعوا وأنهوا التنافس في مجمع ويتبي الكنسي في العام 644، عندما حكم الملك أوزوي لصالح التقليد الروماني. وقد استجابت الإنكليزية جيداً للمبشّرين المحنكين بالمسيحية الرومانية، الذين صاروا مثقفين فعالين بترجماتهم من اللاتينية، وكذلك بشعر الإنكليزية ونثرها المدوّن في الكتب. ولكن عندما غُطّيت الإنكليزية بطبقات من الفرنسية في القرن الحادي عشر تعرضت حياتها الأدبية لنكسة، ولكنها استفادت من نفوذ الغزاة العسكري في أنها بدأت تتوسع متمددة إلى داخل المناطق الكلتية الباقية في كل من بريطانيا وإيرلندا. ولعل حياتها تحت السيطرة الفرنسية يمكن مقارنتها بالسنوات المبكرة للغة الآرامية، التي أغرقت عسكرياً بالناطقين بالأكادية من آشور ولكنها حلت محل الآرامية بالتدريج عندما واجه نخبة الإمبراطورية الآرامية أزمات هزّت هيكل قوتها. (انظر الفصل الثالث: 'الأكادية ـ تقنية تتغلب على العالم: نموذج من معرفة القراءة والكتابة'، ص 107). وبالنسبة لقصص المغامرات الفروسية الخيالية باللغة الفرنسية النورمانية فإن الأزمات التي مزقتها جاءت من الطاعون الدبلي الذي ضربها مراراً وتكراراً في القرن الرابع عشر، وخاصة في المدن والأديرة، ومن الانقطاع العسكري لإنكلترا وويلز عن فرنسا الجنوبية. وفي إدارة الحكم الجديد، حيث انحلّت الروابط الإقطاعية وتركزت السياسة بشكل ثابت في شمال القنال الإنكليزي، عادت اللغة الإنكليزية إلى انتعاشها كلغة موحدة للمملكة.

وهذه الفترة الطويلة التي امتدت ألف سنة كاملة، أوجدت مادة اللغة الإنكليزية كما نعرفها. ولكنها من الناحية الاجتماعية كانت شديدة الاختلاف عن الحياة البرجوازية التي جاءت بعد ذلك إلى درجة أنها لم تسهم بشيء يذكر في طابع اللغة وشخصيتها الحديثة. وفي القرن السادس عشر بدأ حكام إنكلترا يتصورون البلد كوكالة مستقلة عن أي قوة في أوروبا، ومعادلة لها من حيث المبدأ، سواء أكانت قوة دنيوية أم دينية. وفي هذه الفترة أيضاً تم إرساء أساس الوحدة الرسمية مع الأجزاء النائية من الجزر البريطانية، أي اسكتلندا وإيرلندا. وفي الوقت نفسه، ومع مجيء الكتب المطبوعة، تم توحيد تهجئة الإنكليزية وقواعدها النحوية. وبذلك صارت إنكلترا، والإنكليزية، في موضع الانطلاق للنمو.

وكان هذا النمو، عندما جاء، مبنياً على القوة البحرية والقيمة التجارية الموثوق بها. وعلى مدى القرنين السابع عشر والثامن عشر صارت قوة الأسطول الملكي ومدينة لندن غلاّبة لا يستطيع أحد تحديها أو الانتقاص منها. ومكنت هاتان القوتان اللغة الإنكليزية من عرض نفسها حول العالم. وبصفتها اللغة التي جلبها المستوطنون إلى أمريكا الشمالية صمدت الإنكليزية ببساطة وراحت تنتشر: وكان لدى المستعمرات اكتفاء ذاتي، فراحت تنمو على حساب جيرانها. ولذلك لم يكن عجيباً أنها عندما اغتنت صارت أكثر ثقة بنفسها وأكثر غطرسة، ولم يكن لديها أبداً أي سبب جدي لمراجعة مواقفها المبكرة المبجلة لذاتها، خاصة وأن تلك المستعمرات لم تفشل في أن تلاحظ أنها كلما جابهت معارضة محلية أم من قوة استعمارية أخرى فإنها كانت تتغلب عليها. ولذلك صار إيمانها 'بمصيرها الظاهر' يكاد يعتبر درساً من التجربة.

وفي مشروع كبير آخر فيما وراء البحار أدى إلى نشر الإنكليزية، برزت الفطنة التجارية إلى الواجهة عند شركة الهند الشرقية الإنكليزية، التي تأسست - مثل مستعمرة فرجينيا - في بداية القرن السابع عشر. ولم يكن هذا المشروع مشغلاً من قبل أناس يائسين أو متطلعين يكرسون له حياتهم، بل من قبل أغنياء يلتزمون فيه بتشغيل جزء من رأسمالهم. ولكن - كما كانت الحال في المستعمرات الأمريكية - فإن روح المغامرة لدى المضطلعين بهذا المشروع أدت

إلى نجاحه. ومع ذلك فإنه لم يبدأ بنشر اللغة الإنكليزية طيلة القرنين الأولين من تأسيسه. فلم يبدأ تأسيس المدارس بشكل فعال لنشر الفوائد غير الملموسة من الجنسية البريطانية، بدءاً من اللغة، إلا بعد أن بدأت تسود في داخل بريطانيا روح أكثر جدية، وعندما صارت المستعمرات المستولى عليها من أجل الربح تعتبر موجبة للمسؤولية عن رفع مستوى الناس الأقل حظاً.

وعند حلول هذا الوقت بدأت سلسلة أخرى تزدهر من مشاريع قائمة على أساس اللغة الإنكليزية عن طريق أساليب للحصول على الربح من أنواع الوقود الأحفوري ومن الإبداع الخالص الداخل تحت اسم الثورة الصناعية. وهذه الثورة نفسها بدأت بتقليص العالم، مع زيادة توفر الأخبار عن منجزات تتحقق في أماكن بعيدة. ومنذ ذلك الحين لم تعد الإنكليزية مرتبطة فقط بالمستوطنين المتعجرفين والحكام الذين يعتبرون أنفسهم على حق، بل صارت مرتبطة أيضاً بالمبادرين الرياديين المغامرين المخترعين المبجلين لأنفسهم، وهكذا صارت تعتبر جواز سفر نحو تحسين الذات للأشخاص الطموحين في جميع أنحاء العالم.

إن هذا التقدم للإنكليزية يتناقض بطرق كثيرة مع سيرة حياة لغات أخرى في العالم.

فبمقارنة الإنكليزية مع زميلاتها المعاصرة لها من اللغات الأوروبية الإمبراطورية، كان تقدم الإنكليزية غير رسمي بشكل لافت للنظر. وباستثناء اللائحة الأولى التي أعدتها الدولة للاحتكار التجاري لشركة الهند الشرقية، وإلى أن بدأ البرلمان البريطاني يهتم بالسياسة في القرن التاسع عشر، كان هناك إحساس بوجوب الاعتماد على النفس لعمل الأشياء. فصارت المحافظة على الأسطول الملكي مسؤولية الدولة بعد انتهاء الأيام المجيدة من القرصنة المربحة في حوض الكاريبي. ولكن النشاط الفعلي لنشر الاستيطان الإنكليزي، والأعمال التجارية البريطانية، وكذلك كلمة الله الأنغليكانية حول العالم، تُرِكتْ للمبادرة الخاصة الفردية.

وهذا يتناقض بشكل تام مع طريقة إسبانيا والبرتغال في العمل، حيث قد

يفتح الغازي الفرد الطريق، ولكن الدولة تورط نوابها، ويأتي جهاز الدولة والكنيسة كله بعد ذلك على الفور. فحتى ثورات القرن التاسع عشر، كانت مستعمرات إسبانيا والبرتغال تخضع لحكام يرسلون من أوروبا مباشرة. وأدى ذلك إلى علاقات متوترة، وانعدام التضامن بين حكومة الموطن والأشخاص ذوي الدم الإسباني الخالص الناجحين في تأسيس أنفسهم في الخارج. فالمستوطنون الناطقون بالرومانسية لم يكونوا في الحقيقة ممثلين موثوقاً بهم لأصحاب الجلالة الكاثوليكية. ففي الأيام الأولى، كان تخصيص الأراضي عن طريق توكيلهم بإدارتها يعني أنهم في أفضل الأحوال مستأجِرون من الملك. وكما رأينا، فإن كثيرين من نسل المستوطنين في بيرو قد أخذوا بلغة قيشوا ليؤكدوا انفصالهم عن المؤسسة الأوروبية (انظر الفصل العاشر: 'الحل الكنسي: اللغات العامة'، ص 503). وفي هذه الظروف، فإن من الصعب أن يقول المرء ماذا صارت اللغتان الإسبانية والبرتغالية تمثلان فيما وراء البحار: ربما صارتا تمثلان العلاقة المستمرة مع الكنيسة الكاثوليكية أكثر من أي شيء آخر - وهذه مفارقة تثير السخرية عندما نتذكر كيف أن سياسة الأنظمة الدينية قد أخرت انتشار الإسبانية والبرتغالية في أمريكا اللاتينية لمئات السنين.

وبالنسبة لفرنسا أيضاً، كان التوسع فيما وراء البحار تحت سيطرة الحكومة، منذ أن قام الملك فرانسوا الأول بإرسال جاك كارتييه للبحث عن الممر الشمالي الغربي في العام 1534. وفي القرن السابع عشر، كان كولبير قلقاً من عدم توسع الفرنسية. ولكن بعد ذلك بقرن كان اهتمام الفرنسيين ضئيلاً جداً باستكشافات لاسال على طول وادي المسيسيبي، ناهيك عن الاحتلال الفعلي لتلك المكتشفات، إلى درجة أن نابليون تطوع ببيعها إلى الولايات المتحدة دون رؤية للموقع على الأرض. إن كل المستعمرات التي حصلت عليها فرنسا في القرن التاسع عشر، من الجزائر إلى الهند الصينية، تم الاستيلاء عليها بالسلاح الفرنسي من أجل مجد فرنسا: فقد ظل "المجد" دافعاً فعالاً(*). وفي الوقت نفسه، كان من الواضح أن فرنسا لا تزال قوة كبرى في الحضارة العلمية التي

(*) [احتلال البلدان الأخرى بالمذابح وحشية مخزية وليس "مجداً" - المترجم]

تروج لها، بحيث كان يمكن اعتبار اللغة الفرنسية قناةً مؤدية إلى الحداثة. فقد دخل المستوطنون فعلاً على الجزائر. ولكن في أماكن أخرى كانت الحكومة المركزية هي التي جعلت المستعمرات حقيقة ـ ومعها انتشار استخدام اللغة الفرنسية. فعدا الجزائر والهند الصينية، كان هذا النهج المركزي يعني أن سحب السيطرة الفرنسية عندما جاء في ستينيات القرن العشرين كان سريعاً وغير مؤلم إلى حد مدهش. وكان الذي كثيراً ما يبقى هو عاطفة تجاه اللغة الفرنسية، كرمز "للحضارة الفرنسية"، عقلانية في تطلعها، وطنية في مشاعرها.

وبما أن اللغة الروسية قد انتشرت على مدى ثلاثة قرون، بدلاً من نشرها كعلامة على قوة إمبراطورية القيصر بشكل سافر ـ فإن جاذبيتها محدودة للذين ليسوا مقبولين كروس ـ، كما أن المحاولة التي جرت في القرن العشرين لتحويلها إلى لغة دارجة 'للاشتراكية العلمية' انهارت مع انهيار الاتحاد السوفييتي في العام 1991. وفي اللغة الروسية شيء من مشكلة الصورة. فاليد الثقيلة التي أكدت بها ماديتها كانت تناقض اللمسة الخفيفة للعقلانية الفرنسية، واليد المتوازية للفلسفة العملية الذرائعية البريطانية، واليد المفتوحة للنزعة الاستهلاكية الأمريكية. كما أن ارتباطات اللغة الروسية بالجهد الجماعي والتقشف الاقتصادي تكاد تكون نقيضاً لتجميع الإنكليزية لمبادرات الأفراد وابتكاراتهم المؤدية إلى الإثراء عن طريق المشاريع.

فالإنكليزية، بصفتها مثالاً جوهرياً على اللسان 'العالمي'، يمكن وضعها أيضاً إزاء أجواء اللغات العالمية من ماضٍ أبعد. فالصينية والمصرية، بل واليونانية والرومانية في العالم القديم، كانت كلها أدوات لحضارات تؤكد على قيمة ما هو موجود هنا والآن. وكانت في أفضل حالاتها قادرة على تقديم مستوى معيشة عالٍ لمواطنيها، مع درجة من السلم والأمن كذلك. وعلى عكس ذلك، فإن اللغتين العربية والسنسكريتية، مثل اليونانية والرومانية في عصر المسيحية، كانت تحركهما بشكل أكبر حضارات عن العالم الآخر، تركز على تطلعات الناطقين بهما على أهداف روحية وترى في مدى نجاحهم المرئي أو الشعور بالرضا في حياتهم اليومية جزءاً صغيراً فقط مما هو مهم بصورة حقيقية فعلاً(*).

(*) إن الفينيقية والعبرية، رغم أنهما لم تحققا توسعاً كبيراً، وكانتا لغتين متشابهتين كثيراً، هما حالتان

إن فرق ثقافة اللغة في عصرنا هذا واضح جداً. ففي مطلع القرن الحادي والعشرين، فإن التطلع لتعلم الإنكليزية أو العربية صار مميزاً لكثير من الشبان في جميع أنحاء العالم. وفي بلدان غرب آسيا وشمال إفريقيا صار تدريس اللغة العربية صناعة خدمية تبحث عن زبائن أجانب، تماماً مثل تدريس اللغة الإنكليزية في أجزاء كثيرة أخرى من العالم. فالإنكليزية والعربية متشابهتان ببعض النواحي إلى حد لافتٍ للنظر: فلكل منهما تاريخ مكتوب يمتد حوالي ألف وخمسمئة عام. وقد انتشرتا حول العالم على أيدي ناطقين كانوا على الأغلب لا يعرفون أي لغة أخرى. ولهما كتلتان من الأدب تحملانهما ارتباطات عمرها قرون عديدة. ولكن نادر هو الشاب الذي يكافح لتعلم العربية لدراسة فلسفة ابن سينا، أو قصص ألف ليلة وليلة، أو روايات نجيب محفوظ: بل وأندر منه الشاب الذي يتصارع مع الإنكليزية على أمل أن يقرأ إنجيل الملك جيمس، أو كتاب الصلوات العامة. إن العربية في عصرنا هذا بالنسبة لمتعلميها الأجانب هي لغة القرآن. والإنكليزية هي لغة الأعمال التجارية الحديثة والثقافة الشعبية العالمية.

تقليديتان كلاسيكيتان لمجتمعين لغويين على الجانبين المتعاكسين لخط الانقسام. أما بالنسبة للغات مثل الأكادية أو الآرامية، والناحواتل أو القيشوا، فإن ما نعرفه عن المجتمعات المعاصرة لها ضئيل إلى درجة أنه لا يمكننا من وضعها في هذا الإطار.

القسم الرابع

اللغات اليوم وغداً

واهٍ يا من هناك، ها هو ذا، كتابي.
وقد وصلنا الآن إلى صفحاته الأخيرة.
وأنتم تريدون الاستمرار،
فلا يمكن إيقافكم عند الصفحة الأخيرة،
كأنما لم يستغرق موضوعكم وينتهِ كله
كما انتهى في البداية.
فالقارئ يتذمر ويفتر،
وحتى الناسخ يقول:
'واه يا من هناك، هذا يكفي، ها هو ذا، كتابي'.

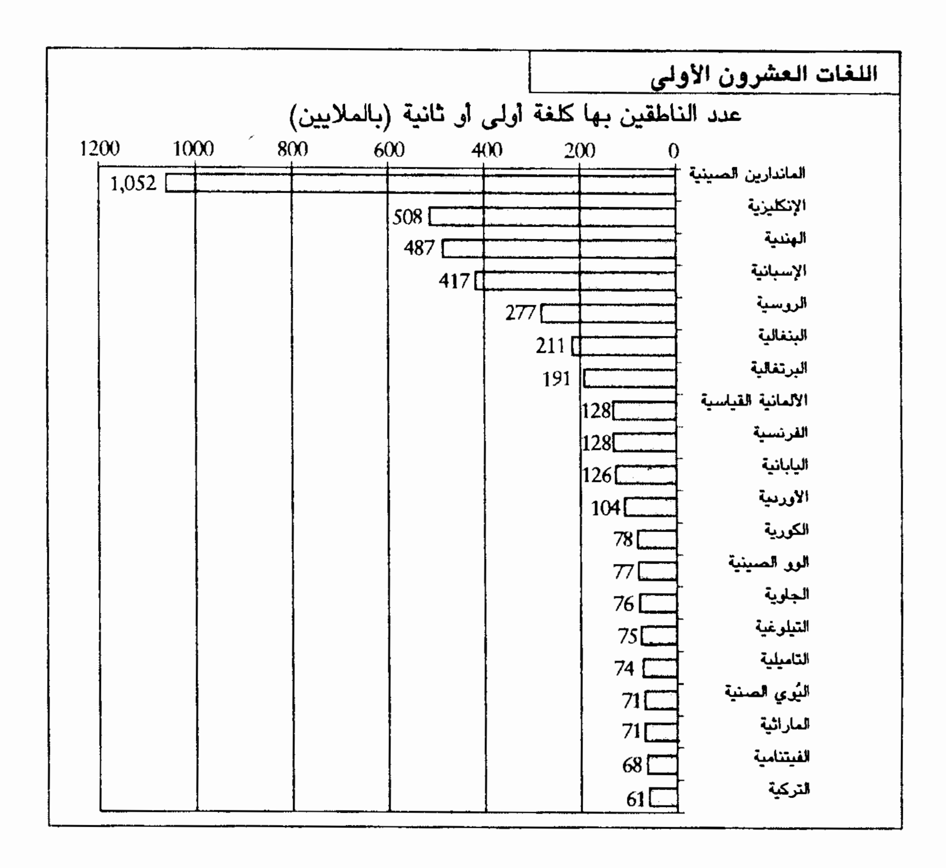
مارشيال: مقاطع ختامية مختصرة، 4 ـ 89 (كانون الأول/ديسمبر، 88م)[1]



13
اللغات العشرون الأولى
في الوقت الراهن

إن أبسط معيار حيوي لنجاح مجتمع لغوي ما، هو عدد مستعملي اللغة. وعند وضع الحدود لمثل هذا المجتمع فإن خط التوجيه الرئيسي لدى اللغوي هو 'الفهم المتبادل': إذ إن المجتمع، بعد كل شيء، هو مجموعة من الناس الذين يستطيع كل منهم أن يفهم الآخر باستعمال اللغة.

وهذا التحديد يثير صعوبات كثيرة. فهناك صعوبات عملية لها علاقة باستحالة إجراء اختبار فعلي لمعرفة ما إذا كان الناس قادرين على أن يفهم كل منهم الآخر وجهاً لوجه. وكم من الفهم يُعْتَبَرُ معرفةً باللغة؟ وماذا إن كان الناس بصورة نموذجية يعرفون لغة جيرانهم، وبذلك يستطيعون أن يفهموهم حتى عندما يتكلمون لغة مختلفة؟ وهذا وضع شائع عند سكان أستراليا الأصليين، ولكنه شائع أيضاً في أجزاء أخرى كثيرة ثنائية اللغة من العالم. ثم هناك صعوبات سياسية لها علاقة بعضوية الناس المرغوبة أو المتخيلة في مجتمع لغوي وليس في مجتمع آخر، وميل المعلومات والبيانات الإحصائية للخلط بين أعضاء مجموعة عرقية وأعضاء مجموعة أخرى من الناطقين بلغتها التقليدية. وهناك بالطبع صعوبات نظرية كثيرة. فمن الأسئلة الهامة: كم لغة يجب عدها عندما تتلاشى عند تخوم اللغة التالية، كما يحدث كثيراً عند تداخلهما. فالناطقون باللغة (آ) يستطيعون أحياناً أن يتحدثوا إلى الناطقين باللغة (ب). كما يستطيع الناطقون باللغة (ب) أن يتحدثوا إلى الناطقين باللغة (ج)، ولكن الناطقين باللغة



(آ) لا يستطيعون التحدث إلى الناطقين باللغة (ج). وهذا وضع شائع في سهول الباكستان والهند الشمالية. ويمتد حتى يصل إلى داخل نيبال، حيث تندمج البنجابية بالهندية ثم بالنيبالية. ويستطيع الناطقون باللغة (آ) أحياناً أن يفهموا الناطقين باللغة (ب) ولكن العكس غير صحيح، كما في الحالة السيئة الصيت بين البرتغالية والإسبانية. فالفهم ليس متبادلاً على الدوام.

وتأتي صعوبة أخرى عند النظر في اللغات من الناحية التاريخية. فمما لا شك فيه أن الفهم المتبادل كان دائماً مضموناً في كل جيل كما بين الأب وطفله. ولكن هذا ليس كافياً لضمان بقاء اللغة كما هي عبر القرون. فنحن لا نستطيع أن نفهم بسهولةٍ ما كتب بالإنكليزية قبل القرن السادس عشر. ولو كنا نستطيع أن نسمع كلامهم فقد نجد صعوبة مع أسلافنا في القرن الثامن عشر. والواقع

أن اللغات ـ حتى المنطوقة في أكثر المجتمعات توحيداً وسعة انتشار ـ آخذة في التغير دائماً. فهل يجب أن يؤثر ذلك على تقييمنا لهوية اللغة، وبالتالي على نجاح لغة ما عبر العصور؟

تأمل مثلاً في حالة اللاتينية. فهل يجب اعتبارها لغة ميتة، وتقليداً نبيلاً انتهى مع الأسف لأنه ليس لها متكلمون بها كلغة أم كلماتها قريبة مما نجده في نصوص الإمبراطورية الرومانية؟ أم هل يجب اعتبارها قد ماتت وصعدت إلى سماء اللغات في العالم الآخر؟ فنصوصها من كل فترة لا تزال مقروءة، وأشكالها وصيغها الحديثة التي يطلق عليها بشكل جماعي اسم اللغات الرومانسية ـ وهي الإسبانية، والبرتغالية، والفرنسية، والإيطالية، والرومانية، والقطلانية، والأوسيتانية وكثير غيرها ـ هي محكية على نطاق العالم من قبل أناس مجموعهم 660 مليوناً، مما يجعلها حتى الآن ثاني أنجح اللغات في العالم (بعد لغة الماندارين الصينية). "آه يا أيها الموت، أين لَدْغتك"؟

ومع ذلك يمكن تركيب جدول لفئات أوسع اللغات انتشاراً في العالم كما هي محكية اليوم، حتى ولو كان من الضروري اتخاذ بضع قرارات اعتباطية للقيام بذلك. وهذا الجدول، عند الكشف عنه، يعطي لمحات مفيدة عن العوامل الكامنة وراء الكتل الكبيرة من الناس الذين يتكلمون اللغة نفسها. وهو أيضاً مصحح مفيد للتميز اللغوي الذي يميل إلى خلقه اعتمادنا المعتاد على الوسائل الأوروبية المركزية.

وهذه الأرقام[2] مبنية على استعمال اللغة كلغة أولى أو ثانية، أي ليس الناطقين الأصليين بها فقط، ولكن أيضاً الناس الذين اكتسبوا اللغة لغرض آخر وهم يستخدمونها بصورة فعالة. ومن الواضح أن مثل هؤلاء الناطقين 'الثانويين' بها جزء من مجتمعها اللغوي ولكن علينا أن نكون حذرين بخصوص الأرقام، وبالتالي ترتيب التصنيفات بالتفصيل. فالأرقام هنا مبنية في آخر الأمر على نتائج إحصاء السكان، التي قد تتعرض لتشويهات ذات مقصد سياسي. وللإنكليزية على وجه الخصوص ذيل طويل من متعلميها 'كلغة أجنبية' وهم يتقنونها بكفاءة تامة ويستخدمونها كثيراً، حتى ولو كانت لا تلعب دوراً رسمياً

في بلدانهم، وقد لا تكون مسجلة في الأرقام الإحصائية[3]. غير أن هوية اللغات الكبرى ليست محط نزاع أو خلاف من الناحية العملية. وفي وقت حديث جداً دخلت الملايوية (لغة باهاسا إندونيسيا/ماليزيا) قائمة اللغات العشرين الأولى.

كما أن توزيع أحجام لغات العالم هو درس بحد ذاته. فعند جمع المجتمعات الأصلية الناطقة بهذه اللغات العشرين الأولى يصبح لدينا 57 بالمئة من سكان العالم. بل إن اللغات الاثنتي عشرة الأولى وحدها 50 بالمئة من العالم، مما يشير إلى مدى ضآلة عدد السكان الناطقين بمعظم اللغات الستة آلاف وخمسمئة الأخرى التي لا تزال محكية.

وفي لغات العالم العشرين الأولى، فإن أصولها جميعاً تعود إلى جنوب آسيا، أو شرقها، أو إلى أوروبا. فليست فيها واحدة من الأمريكتين، أو من أوقيانوسيا، أو من إفريقيا[*] (وهو ما يثير دهشة شديدة). وعلى عكس ذلك، فإن من الطبيعي تماماً أن هذه المناطق الغائبة هي بالذات الأماكن التي تتركز فيها تشكيلات العالم اللغوية المتنوعة الباقية.

ويمكن تقسيم اللغات إلى مجموعتين هما: اللغات التي نمت 'عضوياً' وتلك التي وضعت معاً عبر عمليات 'اندماج واكتساب'. والنمو العضوي يأتي بشكل رئيسي عن طريق زيادة السكان في منطقة الأصل، ولكنه يمكن أن يشمل أيضاً اقتحام مناطق مجاورة. أما الاندماج والاكتساب فينشران لغةً ما إلى مناطق غير

(*) إن أول لغة من أصل إفريقي هي في الحقيقة العربية المصرية، التي يتكلم بها 46 مليون ناطق، وهذا لا يضعها أعلى من المرتبة الثالثة والعشرين. وإن 'اللهجات' المختلفة للعربية، التي يوجد منها خمس وعشرون، تقيم حاجزاً صلباً تماماً أمام الفهم المتبادل، وهكذا فإنها مدرجة في هذه القائمة كلغات منفصلة متميزة. فإذا تركزت كمجتمع لغوي عالٍ وحيد ويوحّده استخدام النخب فيه للعربية الفصحى كلغة مشتركة، فسيصل مجموعه إلى أكثر من 205 ملايين نسمة، مما يضعهم في مرتبة تصنيفية بين اللغتين البنغالية والبرتغالية. والذين يعرفون العربية الفصحى عددهم حوالي 100 مليون. (والسلف البعيد للعربية، مثل كل اللغات السامية، يقع في إفريقيا. انظر الفصل الثالث: 'الأكادية - تقنية تتغلب على العالم: نموذج من معرفة القراءة والكتابة، ص 99).. واللغة الإفريقية الكبرى التالية هي الهاوسا، التي يتكلمها 39 مليوناً كلغة أصلية أم وكلغة ثانوية).

[لا يخفى على القارئ ما في هذا الكلام من مغالطات تهدف إلى استبعاد العربية من اللغات العشرين الأولى. فالناطقون بها كلغة أولى وثانية أكثر من 400 مليون. وأصلها من جزيرة العرب والهلال الخصيب وليس من إفريقيا: المترجم].

متصلة من العالم، وبشكل رئيسي عن طريق الغزو المحمول بحراً والاستيطان. وإن جميع اللغات التي انتشرت بهذه الطريقة الأخيرة، وهي الإنكليزية، والإسبانية، والبرتغالية، والفرنسية، كانت أصولها من أوروبا الغربية، وهي فعلاً لغات من بنات اللاتينية أو متأثرة بها تأثراً عميقاً. ورغم أن اللغات الأوروبية الثلاث الأخرى في القائمة، وهي الروسية والألمانية والإيطالية، ليست معروفة في التاريخ الحديث بتعلق حكوماتها بالطرق السلمية في توسيع ممتلكاتها، فإن نموها من الناحية العملية كان في غالبيته عضوياً. ومن الجدير بالملاحظة، كجرعة مبكرة مضادة لأي افتراضات عسكرية عن أسباب النمو اللغوي، أنه في خارج نشاطات المستعمرين الأوروبيين في النصف الثاني من الألفية الثانية بعد الميلاد، ليس هناك شيء يذكر من نمو هذه اللغات العملاقة في قائمة العشرين الأولى يمكن عزوه إلى عدوان استعماري(*).

فما الذي يفسر نموها، إذن؟ من الملاحظ أن عدداً كبيراً من اللغات (تسعاً من بين عشرين) تتكلم بها حضارات تعيش على الرز كمحصول رئيسي ثابت (وهي البنغالية، واليابانية، والكورية، واللغتان الصينيتان وو ويوي(**)، والجاوية، والتاميلية، والماراثية، والفيتنامية). ومن الواضح أن الرز قادر على إعالة سكان كثيفين وواسعين، وأن زراعته، عن طريق الفيضانات المسيطر عليها، تتطلب مستوى عالياً من التنظيم. واللغات الأخرى التي ليست في غالبيتها في منطقة الرز محكية في مناطق مجاورة فرضت سيطرتها السياسية على مناطق الرز (وهي الصينية البارزة الماندارينية، والهندية، والأوردية، التي هي لغوياً في استمرارية لهجية إن كانت متميزة على الإطلاق). ومما لا مهرب منه أنه خارج اللغات الأوروبية تتشكل القائمة في غالبيتها من لغات العملاقين الثقافيين في آسيا: الصين والهند.

(*) هناك استثناء آخر هو تقدم العرب والأتراك في حملات تحركت في اتجاهات متعاكسة من القرن السابع إلى القرن الثاني عشر. ورسخت لغتيهما العربية والتركية في مكان لغات الشرق الأوسط وبلاد الأناضول. والمفاجئ في هذه الإحصائيات أن العربية لا تنجح في الوصول إلى قائمة اللغات العشرين الأولى، بينما تنجح التركية في ذلك ولا تكاد. غير أن عدد الناطقين بالتركية 61 مليوناً، وعندما تضاف إليها جميع اللغات التركية (المفهومة بشكل متبادل) يصبح مجتمعها اللغوي 147 مليوناً، مما يجعلها بوضوح عضواً في اللغات العشر الأولى.

(**) هاتان اللغتان معروفتان في الغرب بشكل أفضل تحت اسمين هما: لغة شانغهاي ولغة كانتون.

وعند النظر نزولاً إلى أسفل القائمة (إلى اللغات الخمسين الأولى) تتكرر كثير من الأنماط نفسها: فهناك مزيد من تنويعات الصينية (جينيو، كسيانغ، هاكا، مين، غان) ومزيد من لغات الأقليات الهندية (غوجراتي، كانادا، مالايالام، أوريا، بنجابي، بهوجبوري، أوادهي، سندي)، واقتصادات رز أخرى (البورمية، والسوندانية في جاوة الغربية، والتايلاندية)، ومزيد من اللغات الأوروبية الكبيرة، التي نمت عضوياً (البولندية، والصربوكرواتية)، ورغم وجود ماض استعماري - في حالة واحدة - هي (الهولندية).

ومن الناحية السياسية، فإن من الجدير بالملاحظة أن جميع هذه اللغات تقريباً كانت تحت سلطة مركزية لمدة ألف عام على الأقل. فاللغات ذات النطاق الواسع لا تزدهر في مناطق ذات وحدات سياسية ضيقة النطاق، رغم أن من الغريب أن اللغات التي نمت عضوياً في أوروبا الغربية، أي الإيطالية والألمانية، مستثناة من ذلك. ومن الواضح أن تاريخ إيطاليا الأطول أمداً يقدم لذلك شيئاً من التفسير: فقد كانت هناك وحدة سياسية بقيت حتى انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي؛ والاتحاد السياسي الذي تحقق في القرنين الأخيرين، وأساس وحدتها اللغوية الظاهرة اليوم يعود إلى تلك الفترة الذهبية. وبالمثل فإن الألمانية هي نتاج صنع سياسة القرنين الأخيرين، ولكن بقاء الناطقين باللهجات الألمانية المتنوعة متقاربين بشكل وثيق على مدى الألفي عام الماضية بحيث تقبلوا معياراً أدبياً موحداً هو شيء مدهش ومثير للإعجاب، لأنه لم تكن هناك وحدة سياسية شاملة في المراحل المبكرة من تاريخ ذلك المجتمع اللغوي (انظر الفصل الحادي عشر: 'غير مؤثرة بشكل غريب - الطموحات الألمانية'، ص 611).

وهناك سؤال آخر يتعلق باختيار اللغة التي تنتشر في هذه البيئات المؤاتية: هل هناك معيار يتنبأ بأي لغة في مجموعة سوف تنتشر لتكسف جيرانها؟ إن هذا كثيراً ما يكون مسألة سياسية في مملكة مركزية، عن وعي وقصد أو عن غير وعي وقصد. ولذلك فليس عجيباً أن يكون المقياس المنتقى للترقية والترويج هو في العادة النوع المستخدم في العاصمة الوطنية. ومن هنا

فإن الصينية الماندارينية هي تاريخياً صيغة اللغة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمدينة بيجينغ[4]، كارتباط اليابانية بطوكيو[5]. وفي الإنكليزية الوسطى، كانت اللهجة التي سيطرت ورسمت المعيار القياسي هي لهجة لندن[6]. ومن بين اللهجات الهندية الوسطى المتنوعة، كانت الهندية/الأوردية مختصة بمنطقة دلهي[7]. والروسية حسب الأصل هي النوعية الموسكوفية من السلافونية الشرقية [8]، والفيتنامية مبنية على منطقة هانوي [9]، والفرنسية هي كلام باريس الرومانسي [10]. وفي بعض الأحيان تنتقل العاصمة الوطنية: وهكذا فالإسبانية القياسية المعتمدة مستمدة من كلام طليطلة، عاصمة مملكة قشتالة في منتصف القرن الثالث عشر[11]. ويعتقد أن أصل اللغة الكورية من منطقة سيلا في جنوب شبه الجزيرة الكورية، التي كانت مسيطرة من القرن السابع إلى القرن العاشر[12].

وإذن فإن المرء على وجه العموم يستطيع أن يزعم أنه في الاقتصاد السياسي للغات من المفيد أن تكون اللهجة السائدة هي لهجة المدينة التي ستصبح عاصمة وطنية، ومن المفيد أن يكون المرء في سهل استوائي، وخاصة إذا كان منتجاً للرز، وقبل كل شيء فإن من المفيد أن يكون المرء في شرق آسيا أو في جنوبها. ولكن لكل هذه المعايير استثناءات. فالإنكليزية في الواقع بدأت بدون أي واحدة من هذه الميزات. وكما هي الحال في الأعمال التجارية، فإن من الواضح أن الاندماج والاكتساب يمكن أن يتجاوزا النمو العضوي.

إن بناء ملاحظاتنا على أساس خصائص أوسع لغات العالم انتشاراً كما هي اليوم بالصدفة ينطوي على أضرار، منها أن قائمة العشرين الأولى لا تعطي أي إحساس جوهري بتحركات نمو اللغة: مثل ما هي الكلمات التي دخلت إليها حديثاً؟ وما هي اللغات الصاعدة إلى أعلى؟ والنازلة إلى أسفل؟ وكيف كانت القائمة ستبدو قبل قرن من الآن؟ وكيف ستبدو بعد قرن من الآن؟

للإجابة على هذه الأسئلة نحتاج إلى الجمع بين المعلومات السكانية وبين الإحساس بنفوذ اللغة عندما ينمو وعندما يخبو.

فالقضايا السكانية هي مسالة معروفة عامة: فاللغات الآسيوية في القائمة،

التي كان نموها عضوياً سوف تستمر في النمو باستثناء الصين (بسبب سياستها المتعمدة) واليابان (من خلال انخفاض الخصوبة الطبيعية). واللغات الآسيوية موجودة في القائمة بسبب العدد الهائل لسكان بلدانها، التي بطبيعتها ذاتها لم يتطور نموها بين ليلة وضحاها. ولذا يجب أن تكون مدرجة على القائمة بشكل دائم، إلا إذا أظهر هؤلاء السكان ميلاً لتغيير لغتهم (مثل الأخذ بلهجة وطنية محلية لتحل محل كلامهم الإقليمي نفسه)، أو إذا أصابتهم كارثة ضخمة ذات حجم هائل مخيف بحيث يمكن مقارنتها بالأوبئة التي دمرت الأمريكتين بعد مجيء الأوروبيين من القرن السادس عشر(13).

ومن المحتمل أن يحدث شيء من المناورة وإعادة التوازن بين اللغات في الصين وفي شبه القارة الهندية في الخمسين سنة القادمة: ذلك أن معدل الخصوبة لكل امرأة في الصين في الفترة من العام 1995 إلى العام 2000 كانت 1.8، وفي اليابان 1.4، بينما كانت 3.1 في الهند وبنغلادش، و5 في الباكستان. وحسب هذه الاتجاهات فإن من المتوقع أن يتجاوز مجموع سكان الهند سكان الصين عند حلول العام 2050؛ وفي الفترة نفسها فإن الباكستان (التي لغة الأغلبية فيها هي البنجابية، التي يتكلمها حوالي ثلث السكان) مرشحة لتصبح ثالث أكثر البلدان في العالم ازدحاماً بالسكان (متجاوزةً الولايات المتحدة)، ولكن بنغلادش (الناطقة بالبنغالية) ستحتفظ بمركزها (كثامن أكثر البلدان سكاناً). وإن تطبيق النسب المئوية للنمو السكاني على هذه اللغات سيكون أثره الأساسي قفزة في عدد الناطقين بالأوردية والبنجابية، بينما لغات الهند الإقليمية: التيلوغو، والماراثي، والتاميل، قد تتجاوز الشكلين الإقليميين من الصينية: أي لهجة وو ولهجة يوي. أما الصينية الماندارينية فهي متقدمة جداً في الطليعة (حيث تملك ثلاثة ناطقين بها في مقابل كل ناطق واحد بالإنكليزية، أو الهندية - الأوردية، أو الإسبانية اليوم) إلى درجة أنها ستظل أوسع اللغات انتشاراً في العالم، ولو أنها في غضون خمسين عاماً ستكون فقط ضعف حجم أقرب المنافسين إليها. وستنضم إلى هذه المجموعة أيضاً لغة بهاسا (إندونيسيا/ماليزيا).

إن معدلات الولادات عالية عبر الأقطار الناطقة بالعربية، ولذا فإن سكانها

قد يزيدون على الضعف في غضون نصف القرن القادم. وهذا سيكون كافياً للحفاظ على موقع العربية كخامس أكبر اللغات، ولكن سيبقى من الضروري إضافة ما هو بالنتيجة خمس وعشرون لغة محكية منفصلة ـ فليس هناك اتجاه لمقياس موحد خارج استخدام النخبة(*). ومعظم الأجزاء الأبعد إلى الجنوب في إفريقيا تنمو بصورة تتجاوز المعدل العالمي بكثير: وهكذا يمكننا أن نتوقع صعود لغاتها إلى الأعلى في جدول المجموعات: فإذا استمرت معدلاتها متمشية مع إيقاع سكان نيجيريا ككل، فإن أكبر لهجتين، وهما الهاوسا واليوروبا سيتضاعف عدد الناطقين الأصليين بهما ثلاث مرات عند حلول العام 2050، فترتفع المرتبتان من الثامنة والثلاثين والتاسعة والأربعين إلى الحادية والعشرين والثالثة والعشرين. غير أنه حتى مع هذا النمو، فإن لغات إفريقيا جنوب الصحراء ستظل خارج قائمة العشرين لغة الأولى طيلة الخمسين عاماً القادمة.

وليس من المدهش أن تكون اللغات الأوروبية على القائمة في وضع أشد هشاشة بكثير. فالألمانية والإيطالية مدينتان بأعدادهما الكبيرة إلى النمو العضوي لسكان موطنيهما. ومن حيث معدلات الخصوبة فإنها مرشحة للهبوط بنسبة قد تصل إلى 10 بالمئة في الخمسين عاماً القادمة. وسيكون ذلك كافياً لإنزال مرتبة الألمانية نحو قاع قائمة العشرين لغة الأولى، وإبعاد الإيطالية منها تماماً. ولكن أي نقص في أي من هذين البلدين من المحتمل أن تعوضه الهجرة المتزايدة، فتتم بالنتيجة المحافظة على المجتمعات الناطقة من خلال التجنيد الخارجي.

والروسية في حالة هبوط أيضاً. فبعد ازدياد نموها العضوي في أوروبا الشرقية، كان لها دور كلغة مشتركة في إمبراطورية شاسعة ضمت في أوجها كل

(*) [العربية هي اللغة الوحيدة التي يعاملها المؤلف هكذا بفصل لهجاتها عنها واعتبارها لغات مستقلة! فلا يعامل الإنكليزية أو أي لغة أوروبية بهذه الطريقة ـ والهدف هو منع وصول العربية إلى قائمة العشرين الأولى: والعربية هي الوحيدة التي يتجاهل المؤلف حساب عدد متكلميها كلغة ثانية في العالم الإسلامي كله ـ المترجم]

آسيا الشمالية في هلال هائل من القفقاس إلى بحر اليابان. غير أن السكان الآن آخذون بالتقلص في جميع الأجزاء الباقية من روسيا الكبرى، وحيث لا يتقلصون في دول آسيا الوسطى الحديثة الاستقلال، فإنهم يستيقظون ثانية على حقيقة أن لديهم لغة مشتركة سابقة لاستعمالها مع جيرانهم في لغاتهم التركية الوثيقة التقارب وذات الفهم المتبادل. فإن لم تكن هذه كافية، فإن الناس صاروا يعتقدون بصورة متزايدة أيضاً أن صِلاتهم العالمية يمكن خدمتها بشكل أفضل عن طريق الأخذ بالإنكليزية بدلاً من الروسية كلغة لاتصالاتهم الواسعة. ورغم كل هذه الأسباب، فإن مستقبل اللغة الروسية لا يبدو وردياً.

ثم إن اللغات الأوروبية الكبرى الأخرى: الإنكليزية، والإسبانية، والبرتغالية، والفرنسية، كلها مدينة بمكانتها لإمبراطورياتها الاستعمارية التي سيطرت على الأرض في النصف الثاني من الألفية الميلادية الثانية. فهي لغات السكان الاستعماريين الذين تمكنوا من النمو الجماعي الكثيف في مواطنهم الجديدة التي انتقلوا إليها، فأضافوا قوة المهاجرين إلى زيادتهم الطبيعية، وتمكنوا أيضاً من الانتشار على حساب اللغات المحلية السابقة في الأراضي التي استعمروها: وبهذه الطريقة فإن اللغات ذات الاتصال الأوسع كثيراً ما انتهى بها الأمر إلى احتكار كل الاتصال.

وباستثناء اللغة الفرنسية، فإن أكثر المستعمرات السابقة ازدحاماً بالسكان يفوق تعدادها تعداد سكان المواطن الأم لكل تلك اللغات: فسكان الولايات المتحدة هم أكثر من أربعة أضعاف سكان المملكة المتحدة، وسكان المكسيك ثلاثة أضعاف سكان إسبانيا تقريباً، وسكان البرازيل سبعة عشر ضعف سكان البرتغال. ويصعب جداً التنبؤ بمرتباتهم بين أوسع لغات العالم انتشاراً بعد خمسين سنة من الآن. وينبغي أن تحتفظ الإسبانية والبرتغالية بحصتيهما في البلدان التي لا تزال تنمو بقوة؛ فالمكسيك والبرازيل مثلاً يتوقع أن يضيفا 50 بالمئة إلى سكانهما في هذه الفترة. ولن تكون المستعمرات الأخرى في الأمريكتين وإفريقيا مختلفة عن ذلك كثيراً. وفي هذه الأثناء، قد تزيد الولايات المتحدة سكانها بمقدار ربعهم، ورغم أن هذا

قد يفيد مجتمع اللغة الإنكليزية، فإن المهم أن النمو سيكون بين الناطقين بالإسبانية بصورة رئيسية.

والواقع أن أصعب شيء هو التنبؤ بمستقبل الفرنسية والإنكليزية. فهاتان هما اللغتان اللتان يمكن اعتبارهما أداتين للعولمة. فكل منهما بطريقتها لغة مشتركة للاتصال بالعالم الأوسع. فالناطقون الأصليون بهما هم سكان البلدان الذين استقر عددهم وربما كانوا آخذين بالتناقص، وهذا يشير إلى أن إمكانيات نموهم في المستقبل محدودة. غير أن تلك البلدان نفسها هي الأكثر نفوذاً وتأثيراً في العالم، اقتصادياً، وثقافياً، وعسكرياً. ونتيجة لذلك يكتسب الناس الإنكليزية والفرنسية بشكل واسع كلغات ثانية في جميع أنحاء العالم، لأسباب تجارية وثقافية لها كل العلاقة بنفوذ هاتين اللغتين. وفي حالة الفرنسية على وجه الخصوص، فإن مكانة اللغة مضمونة سياسياً، لأن كثيراً من مستعمرات فرنسا السابقة، وخاصة في إفريقيا الوسطى، قد أخذت بها كلغة رسمية. (انظر الفصل الحادي عشر: 'الفرانكوفونية'، ص 576). أما بالنسبة للإنكليزية، فإن نفوذها في بعض الأحيان ليس له علاقة تذكر بالصِلات التاريخية، وتشهد على ذلك الموجة الحالية من الاهتمام بتعلم الإنكليزية في حوض بحر البلطيق، المنطقة التي لم تكن لها أبداً معاملات مع بريطانيا أو أمريكا. وبصورة عامة أكثر، فإن كتلة الثقافة التي مركزها الولايات المتحدة تتمتع الآن بشعبية عالمية. ولكن التأثير اللغوي لذلك على المدى الطويل قد يكون مؤقتاً بشكل يدعو للدهشة (انظر أيضاً الفصل الرابع عشر: 'طريق الانطلاق'، ص 736).

إن ميزان المستقبل بين اللغات على صعيد العالم كله هو الآن موضع نزاع إلى حد كبير. فمن الناحية السكانية، فإن دور اللغات الأوروبية، وخاصة الإنكليزية، كان يمكن توقع تضاؤله بينما ينمو باقي العالم بشكل مطلق ومن حيث الثروة النسبية (وقد تم المرور بإحدى معالم الطريق الهامة مؤخراً، عندما زادت المحتويات العابرة على شبكة الإنترنت الدولية باللغات الأخرى مجتمعة عن كمية ما هو وارد على تلك الشبكة باللغة الإنكليزية). ولكن مع زيادة هذه الثروة، يظهر أن هناك زيادة على طلب تعلم تلك اللغات الأوروبية واستعمالها، لأنها لم

تعد تعتبر رموزاً للسيطرة الاستعمارية، بل صارت تعتبر مفاتيح حاسمة للوصول إلى النظام العالمي. وبمعنى ما، فإن أهمية اللغات في دور اللغة المشتركة، وكرموز للالتزام بطريقة حياة تتجاوز المصالح المحلية، تعمل ضد تضاؤل سيطرتها كلغات أولى.

إن التوتر بين النمو الداخلي والخارجي، وبين الأهمية المتزايدة للغة أمٍّ مع نمو السكان الناطقين بها والشعبية المرافقة لكونها لغة مشتركة تعتبر تطويراً للعلاقات مع العالم الأوسع، هو توتر لا يقتصر الشعور به على هذا الصعيد العالمي فقط. ومن ناحية المبدأ، ليس في هذا شيء جديد: فالتوتر نفسه له تاريخ طويل في الصراعات لتجاوز الاحتكاكات القبلية والمجتمعية من أجل بناء أمم متحدة.

ومن الملاحظ أن أكبر لغتين في إندونيسيا، وهما الجاوية (75 مليوناً) والسندانية (27 مليوناً) المحكيتان في جزيرة جاوة المكتظة بالسكان، قد استوعبتا مؤخراً تحولاً جماعياً كثيفاً إلى اللغة الوطنية، وهي لغة بهاسا إندونيسيا (التي ينطق بها الآن أكثر من 200 مليون نسمة، ولو كلغة ثانية بصورة رئيسية). وهي ليست سوى الملايوية، اللغة المشتركة في جزر الهند الشرقية. وبهذه الصفة فإنها محكية ليس في إندونيسيا فقط، بل أيضاً في ماليزيا، وبروني، وسنغافورة، بحيث يصل مجموع الناطقين بها إلى حوالي 220 مليوناً(*). ويبدو أن الحياة المحلية واتصالاتها في إندونيسيا تشعر في آخر الأمر بوطأة تطلعات أوسع.

وبالمثل، فإن اللغة المشتركة في شرق إفريقيا هي السواحيلية. وهذه اللغة أصلها من البانتو، ولكنها تحولت عن طريق الاتصال التجاري باللغة العربية (انظر الفصل الثالث: "العربية ـ البلاغة والمساواة: انتصار 'التسليم'"، ص 160)، والمجموع الكلي للناطقين بها 30 مليوناً، ولكن 5 ملايين منهم فقط هم

(*) ومع ذلك فإن ارتباطها بإندونيسيا كان قوياً بما يكفي لإلغائها بقوة كلغة رسمية في دولة تيمور الشرقية الجديدة التي جعلها الحنين إلى الماضي تختار بدلاً من ذلك العودة إلى لغة القوة الاستعمارية القديمة: البرتغالية.

الذين اكتسبوها بشكل طبيعي كلغة أولى. ومع ذلك فإنها اللغة الرسمية في تانزانيا، وأوسع اللغات تكلماً في كينيا المجاورة وفي كثير من البلدان الأخرى في المنطقة. وفي كل مكان، هناك عدد من الناطقين بها أقل من أكبر لغات تلك البلدان.

ولعدة أغراض، فإن عدد الناس الموجودين في مجتمع لغويٍ ما أقل أهمية من معرفة من هم هؤلاء الناس، ومدى جودة توزّعهم.

14
التطلع إلى الأمام

ما هو قديم

إن أوضح حكم يبرز من مسحنا الاستطلاعي العالمي هو أن هجرة الشعوب، التي هي أول قوة نشرت اللغات في التاريخ، تسيطر حتى يومنا هذا. فهجرة الفلاحين جلبت اللغة الصينية جنوباً إلى ضفاف نهر يانغتسي كيانغ وما وراءها. وهجرة البدو واللاجئين جلبت الآرامية شرقاً من سوريا، نزولاً عبر وادي الفرات إلى بابل. وهجرة التجّار جلبت اللغة البونية عبر البحر الأبيض المتوسط من صور إلى قرطاجة وشمال إفريقيا. والهجرات المنظمة سياسياً كمستعمرات للدول، ومع ذلك تجتذب متطوعين، زرعت اللاتينية بين أهالي بلاد الغال في شمال إيطاليا وجنوب فرنسا في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، كما زرعت الإنكليزية على طول السواحل الشرقية لأمريكا الشمالية في القرن السابع عشر الميلادي، وعلى طول سواحل أستراليا في القرن التاسع عشر. وحتى الآن فإن التحرك شبه التلقائي لهجرة الناطقين بالإسبانية شمالاً عبر نهر ريو غراندي هو أكبر تحدٍ للسيطرة الإنكليزية الكاملة في الولايات المتحدة.

ويبدو أنه حتى مجيء التطورات المثيرة للاهتمام التي تعرضت لها الإنكليزية في الهند في القرن التاسع عشر، كانت الغزوات الأجنبية لا تؤدي إلى تحول لغوي إلا إذا تلت الغزو هجرةُ عدد كبير من الناس الناطقين بلغة الغزاة

من الأصل. وبهذا المعنى، فإن الهجرة - وليس الغزو - هي الكامنة في الجذور عندما يظهر أن الغزو العسكري قد نشر لغته في مناطق جديدة.

إن أهمية اجتذاب المهاجرين قد تفسر فرقاً كبيراً كالذي لاحظناه بين الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية. فتكلم اليونانية لم يتبع غزوات الإسكندر إلاّ سطحياً في مقاطعات الإمبراطورية الفارسية المترامية الأطراف، رغم أن السيطرة اليونانية كانت آمنة سياسياً. وفي فارس نفسها، ألغيت اليونانية بعد خمسة أجيال أو ستة، عندما أعادت اللغة البارثية تأكيد سيطرتها المحلية، وحتى في سوريا وفلسطين ومصر، حيث استمرت الإدارة الإغريقية تحت حكم الرومان، وهكذا بقيت اللغة اليونانية ألف عام. وبقيت اللغة الشعبية طيلة ذلك الوقت كله هي الآرامية (مع المصرية في مصر). وعندما تولى العرب الإدارة في القرن السابع، ألغيت اللغة اليونانية كلياً في غضون جيلين، حتى بعد بقائها ألف عام. وعلى عكس ذلك، فإن الغزوات الرومانية على القارة الأوروبية الغربية أثبتت أنها دائمة في تأثيراتها اللغوية. وحتى حيث لم تكن هناك مستعمرات واضحة (وقد رأينا كيف أن هذه المستعمرات فتحت الطريق للاتينية في شمال إيطاليا - انظر الفصل السابع: 'الرون: البروز المندفع للكلت'، ص 413)، فإن الجيش الروماني قدّم في جميع أنحاء الإمبراطورية مصدراً مستمراً للمستوطنين، فكثيراً ما كان المحاربون القدامى يستقرون ويحرثون الأرض التي أدوا فيها خدمتهم العسكرية[1].

وبالمثل، فإن الخطوة الكبيرة المبكرة من هجرة الناطقين بالإنكليزية إلى أمريكا الشمالية كانت مؤثرة في تعزيز الإنكليزية وتغليبها على جميع اللغات الاستعمارية الأخرى في القرنين السابع عشر والثامن عشر (انظر الفصل الثاني عشر: 'إلى الغرب هيا!'، ص 654). وكان الشذوذ الذي يثبت القاعدة هو أن الفرنسية رسخت نفسها في كندا وازدهرت من خلال سياسة متعمدة من مساعدة هجرة النساء الناطقات بالفرنسية (انظر الفصل الحادي عشر: 'الفرانكوفونية'، ص 568). وكانت الهجرة الكثيفة اللاحقة بعد ذلك إلى أمريكا الشمالية استثناءً بمعنىً آخر: فهي لم تنتقص من الأخذ باللغة الإنكليزية التي

كانت قد استقرت وترسخت في القارة، لأن المهاجرين على وجه العموم لم ينتقلوا أو يستقروا مع آخرين من ذوي اللغة نفسها، ونتيجة لذلك فإن هؤلاء المهاجرين اللاحقين كانوا يميلون في معظم الحالات إلى اكتساب الإنكليزية بدلاً من فرض لغاتهم الخاصة بهم على جيرانهم الجدد. ورغم كثير من الصلات المجتمعية، فقد ساد هذا الاتجاه.

إن الهجرة هي البذرة الأساسية لانتشار اللغة، ولكن نزوع القادمين الجدد إلى الاستيطان، وبالتالي إزاحة السكان القدامى ذوي اللغات المختلفة، تضاف إليه وتعززه الخصوبة الأكبر للقادمين الجدد. فعندما يجدون أنفسهم مع ميزة تقويهم على الأهالي الأصليين يصبحون ذوي أُسَر أكبر، وبالتالي ففي غضون أجيال قليلة يصبحون أكثر عدداً من السكان الأصليين. ومن المحتمل جداً أن يكون ذلك مصحوباً بهجرة واسعة النطاق - وبدون أي نوع من الميزة، سواء في الصحة، أم في الثروة، أم حتى في قبول أجور منخفضة، فإن من الصعب رؤية كيف يمكن لأي سكان مهاجرين أن يرسخوا وجودهم على حساب المستقرين قبلهم - ولكن ذلك كان واضحاً بشكل خاص في التاريخ المبكر لكل من الولايات المتحدة وأستراليا ونيوزيلندا، حيث كان النمو كبيراً وسريعاً وموثقاً بإحصائيات النفوس. ففي كل هذه الحالات كان المهاجرون يدخلون معهم محاصيل المناطق المعتدلة وحيواناتها. وعلى أي حال فإن المرء يستطيع أن يخمن أن هناك عوامل مماثلة لا بد أنها كثيراً ما لعبت دورها في الماضي، على سبيل المثال، لصالح الناطقين بالسامية في كثير من أجزاء آسيا الغربية، عندما أدخلوا لأول مرة المحاصيل القابلة للزراعة في مناطق جديدة لم تكن في السابق تعرف سوى الصيادين والقاطفين الملتقطين والرعاة. والأسر الكبيرة تعني طلباً متزايداً على الأرض، ولكنها تعني أيضاً جيوشاً أكبر لأخذ الأرض والدفاع عنها. وهذا كله يفيد اللغة التي يتكلمها المهاجرون المزارعون. والواقع أن هذا ليس سوى 'النمو الطبيعي' الذي وجدناه مسؤولاً عن مجتمعات لغوية كبيرة كثيرة في الفصل الثالث عشر.

وهناك عامل كثيراً ما يعزى إليه الفضل في انتشار اللغة وجدنا أنه ليس

له أثر يذكر على المدى القصير. هذا العامل هو التجارة. وبالطبع فإن العلاقات التجارية الرسمية قديمة جداً، كقدم اللغة المكتوبة على الأقل (وقد رأينا أن اللغة المكتوبة في وادي الرافدين يعود أصلها إلى إعادة تفسير الرموز التجارية (الفصل الثالث: 'السومرية ـ اللغة التقليدية الأولى: الحياة بعد الموت'، ص 87). ولكن ليس هناك مجتمع مشهور بتخصصه في التجارة مرر لغته كلهجة دارجة بصورة دائمة، أو حتى كلغة مشتركة إلى زبائنه. ففي أقصى الحالات يميل هذا النشاط إلى تغلغل اللغة، وحتى انتشارها، لأن حالات إقامة التجار كلها كمهاجرين داخل مجتمع زبائنهم هي حالات نادرة. فقرطاجة، التي حملت لغة التجار الفينيقية أو البونية إلى جزء كبير من شمال إفريقيا، هي إحدى هذه الحالات النادرة. وبصورة عامة، فإن لغات التجار هذه ـ ومن الأمثلة الأخرى عليها اللغة الصغدية على طريق الحرير، والعربية ومن بعدها البرتغالية في المحيط الهندي ـ لا تحقق القفزة من الاستعمال التجاري المحدود. فعندما يختفي السوق، أو يدخل آخرون بقوتهم، فإن اللغة تسقط أيضاً. وهكذا فإن هناك حاجة للتشكك في الاقتراحات القائلة بأن الإنكليزية في هذه الأيام تستفيد من موقعها كلغة للأعمال التجارية العالمية: فقد تكون الإنكليزية هي التفضيل العملي الذرائعي اليوم، ولكن أنماط التجارة تتغير مع مرور الزمن. والعلاقة التجارية وحدها لن تضمن وجود مجتمع لغوي.

غير أن التجار لا يجلبون دائماً السلع وحدها عند زيارتهم لمواقع غريبة. ففي بعض الأحيان يجلبون معهم عقيدة جديدة، فيعملون إما كمبشرين بها بأنفسهم، أو يجلبون مبشرين محترفين معهم. ويمكن أن تكون هذه البعثات التبشيرية أدوات للغة جديدة، إذا كان للعقيدة مثل هذا الارتباط. فالسنسكريتية والبالية اللتان وصلتا إلى جنوب شرقي آسيا في الألف الميلادي الأول جاءتا مع التجار أو القراصنة الهنود والبوذيين؛ وبعد ذلك بألف عام، كان تجار آخرون من الهند يجلبون الإسلام، بينما كان التجار الأوروبيون الأوائل، ومعظمهم برتغاليون، يعرضون عليهم المسيحية الكاثوليكية. ومن بين هذه الأديان الأربعة، التي كانت مع كل منها لغة مرافقة، فإن المسيحية وحدها هي التي يبدو أنها عرضت لغتها

كلغة دارجة ـ رغم أنها كانت أقل الأديان وعياً باللغة، بينما بقيت السنسكريتية والبالية والعربية لغات محصورة بالعبادة وأصبحت البرتغالية بالفعل اللغة الأولى لكثير من المتنصرين، وهي باقية حتى اليوم بأشكال وصيغ شعبية هجينة مختلطة من الهند والملايو. ثم إن شركة الهند الشرقية الإنكليزية، التي جاءت إلى الهند بحثاً عن الربح فقط، بقيت مدة كافية لتمكين المبشرين من بناء قوتهم بحيث انتهى بهم الأمر إلى تعليم السكان الإنكليزية أيضاً.

ولكن المبشرين ليسوا دائماً تجاراً ذوي دافع آخر خفي. ذلك أن البعثات التبشيرية نفسها قد تقدم دافعاً كبيراً للسفر إلى أماكن نائية: ومثل هؤلاء المبشرين الحجاج نشروا لغات كثيرة، وخاصة في آسيا. ففي القرن الميلادي الأول طاف كهنة بوذيون حول جبال الهمالايا وعبر أفغانستان وجبال البامير لإيصال الحقائق النبيلة الأربع إلى الصينيين، ومعها اللغة السنسكريتية المقدسة. وفي القرن الثامن وصل النساطرة قادمين عبر الطريق كله من سوريا عن طريق فارس إلى مدخل طريق الحرير نفسه، ومن خلاله جلبوا النصرانية ـ والآرامية لوقت قصير على الأقل ـ إلى قلب البر الصيني. وكانوا قد أخذوها إلى طرف الهند الجنوبي (انظر الفصل الثالث: 'الفترة الفاصلة الثانية: درع الإيمان'، ص 140). وجاء المسلمون أيضاً على الطريق نفسه عبر آسيا لنشر عقيدتهم، الباقية حتى يومنا هذا، وخاصة على سواحل الصين، ولا يمكن التفكير في الإسلام بدون اللغة العربية. وفي وقت حديث، في القرن التاسع عشر، قامت البعثات المسيحية البروتستانتية بجلب أول الكلمات بالإنكليزية إلى إفريقيا الوسطى، ومعظم جزر المحيط الهادئ. (انظر الفصل الثاني عشر: 'العالم تجتاحه عاصفة'، ص 670 وما يليها).

ومن المحزن أن الدوافع التبشيرية ليست سلمية هكذا دائماً. وبعبارة أخرى فإن الناس المسيطرين يشعرون أحياناً بحافز يتصورون أنه واجبهم لفرض عقيدتهم على ضحاياهم المهزومين من أجل 'تنويرهم'. وفي الحالات المتطرفة ـ وهي ليست نادرة في الألف الميلادي الثاني ـ فإن الواجب يزداد حدة فيصبح عدواناً يرى نفسه على حق: أي أن على المؤمنين أن يحاولوا دحر جيرانهم وببساطة من أجل فرض العقيدة عليهم.

ويبدو أن هذا الحافز 'التبشيري' كان على نحو خاص من خصائص العقائد المستمدة من الوحي، وهي اليهودية والمسيحية والإسلام. وهو حافز كان مخففاً عند اليهود لأنهم كانوا بشكل دائم تقريباً في قوة أصغر بكثير من أعدائهم أو جيرانهم، ومن هنا فإنهم يؤيدون المذهب فقط بنزعة الحنين إلى الماضي، مستذكرين القصص التوراتية عن غزواتهم المبكرة. وبالنسبة للمسلمين فقد كان هناك دائماً المذهب القائل بأن أهل الكتاب ـ اليهود، والنصارى، والزرادشتيين، مع المسلمين أنفسهم ـ يستحقون تسامحاً خاصاً، وهكذا فقد عوملوا باعتدال معين عند هزيمتهم. وبقي للنصارى أن يجربوا الشدائد الكاملة لشن حروب عدوانية واستعمارية باسم الدين.

وقد صيغ هذا المذهب في الحروب الصليبية ضد الإسلام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، عندما لم تكن لدى المسيحيين ميزة كافية لخلق سيطرة طويلة الأمد. ولكن عند طرد المغاربة من إسبانيا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وأكثر من ذلك في الأمريكتين، كانت القوى أقل تساوياً بكثير. فقد تلقى ملوك إسبانيا والبرتغال تفويضاً رسمياً لسلب ممتلكات الملوك الآخرين، وتأسيس إمبراطوريتهم من أجل غرض صريح هو توسيع ممتلكات العقيدة الكاثوليكية[2]. ولكن كانت إحدى أعظم مفارقات هذه المراجعة العالمية هي الاكتشاف بأن المجتمعات الدينية في جميع أنحاء أمريكا اللاتينية هي التي مالت إلى المحافظة على استخدام لغات أمريكا الأصلية: فلغات أوروبا لم تبدأ بمحق الآخرين إلا عندما تراجع الاهتمام بالأهالي الأصليين والقلق عليهم (انظر الفصل العاشر: 'حل الدولة: اعتماد الإسبانية'، ص 514). ومهما كانت نية المسيحيين الأصلية، فإن الذين نشروا اللغة كانوا هم المستوطنين، وليس المبشرين وعقيدتهم ذات الحرب الصليبية.

ما هو جديد

قد لا تتغير الطبيعة الإنسانية كثيراً. ولكن في الخمسمئة عام الماضية ـ وهي الفترة التي مثلناها باللغات في البحر ـ برزت بعض العوامل التي أثرت تأثيراً جذرياً على قدرة اللغات على الانتشار.

وأول هذه العوامل هي الملاحة العالمية. وكان الدافع لتطويرها تجارياً، وهو الطموح الأوروبي للحصول على السلع الآسيوية، ولا سيما التوابل، بطريقة أرخص. وسرعان ما تحقق هذا الطموح، ولكن كانت هناك نتيجة جانبية مباشرة عملت في الاتجاه المعاكس - وهي التأسيس التدريجي لمجتمعات لغوية من الأوروبيين في أماكن نائيةٍ في آسيا والأمريكتين. وهي مجتمعات سرعان ما كسبت بعض الأعضاء المحليين الجدد. فلم يعد من الضروري أن تكون مجتمعات الكلام متجاورة، أو متصلة عن طريق رحلات قصيرة عبر بحار مألوفة.

ومن الممكن الإشارة إلى بعض إرهاصات هذا الاختراق - مثل التجارة الصينية مع جنوب شرقي آسيا التي توسعت فترة قصيرة لتستوعب المحيط الهندي كله في أوائل القرن الخامس عشر (انظر الفصل الرابع: 'اللغة من هوانغ هي إلى يانغتسي'، ص 214)؛ وكذلك التجار العرب، والفرس، والهنود، الذين جعلوا المحيط الهندي ميداناً لنشاطهم في أوائل الألف الميلادي الأول، والملاحين البولينيزيين الذين جاؤوا قبل ذلك بكثير بقواربهم ذات الأذرع الطويلة في المحيط الهادئ، والذين تمكنوا من الوصول إلى جزيرة بعد جزيرة من كل كتلة أرض برية مأهولة هناك؛ بل والبحارة البدائيين الأقدمين الذين شقوا طريقهم قبل آلاف السنين من خلال جزر الهند الشرقية وعبر مضايق تورز إلى أستراليا. ولكن لم ينجح أحد من هؤلاء السابقين في رسم خريطة للعالم كله دفعة واحدة وتقديم جرد كامل لما هو موجود من الأراضي التي تنتظر الاكتشاف، وأين تقع. وفي القرن السادس عشر، تقلص العالم من نظام مفتوح إلى مجال كروي مغلقٍ ومحدد، وظل خطراً ولكنه صار من الممكن إدارته. فصار من الممكن عندئذٍ أن يقيم الناطقون بلغةٍ ما موطناً لهم على الطرف الآخر من المحيط، بل وعلى بعد محيطات كثيرة من بلدهم الأم: فقد يكون الوصول إليهم صعباً، ولكن عنوانهم صار معروفاً. ورغم أنهم مبعثرون حول العالم، إلا أنه صار من الممكن الإبقاء على الاتصال فيما بينهم.

وعند إقامة هذه الشبكة من المجتمعات غير المستمرة، التي يمكن الإبقاء

عليها عن طريق المرور البحري المنتظم، تغير نطاق العلاقات بين المجتمعات أيضاً. ففي الأمريكتين، أدى انتشار الأمراض الوبائية بسرعة شديدة إلى إعادة تعديل الحجم النسبي للمجتمعات الأصلية المستقرة من قبل والمجتمعات القادمة. وفي أمريكا اللاتينية أدى التزاوج المختلط وولاداته إلى محو الحدود وتلاشيها فيما بينهم، سواء أكانت حدوداً لغوية أم ثقافية. ونتيجة لذلك فإن مجتمعات المستوطنين أزاحت الأهالي الأصليين وحلت محلهم إلى حد كبير عن طريق دمجهم أو إبعادهم(*). ولم يكن في ذلك شيء جديد سوى النطاق القاري الواسع لما كان يحدث. فلا بد أن شيئاً مماثلاً قد حدث، على سبيل المثال، عندما غزا الرومان بلاد الغال، أو عندما استولى الساكسون على إنكلترا. ولكن في الهند وجزر الهند الشرقية لم يكن المجتمع الأصلي عرضة للعطب والتلاشي من الأمراض التي جاء بها الناس المهاجرون: بل بالعكس، فإن الأمراض الوبائية هناك أبقت عدد المهاجرين صغيراً. فكانت النتيجة مجتمع أقلية صغيرة باستمرار من الأجانب، الأوروبيين، الذين يعيشون على حافة أماكن استقرار الأهالي الأصليين، ولكنهم يؤثرون فيهم بشكل متزايد. فهذا كان هو الوضع الجديد ورد الفعل عليه. وكان انتشار لغة ما عن طريق إعادة التثقيف شيئاً جديداً أيضاً.

وبالنتيجة، فإن الأقلية الخارجية مرّرت لغتها ذات النفوذ المتميز إلى نخبة الأكثرية، ليس كلغة مشتركة بل كرمز لنوع من التجنيد الثقافي. وإن نوعية هذا التطور الجديد قد أكدتها حقيقة حدوثه في الهند البريطانية، ولكن ليس في شركة الهند الشرقية الهولندية الشديدة الشبه بها. ذلك أن الشركتين البريطانية والهولندية كليهما قد جلبتا لغة جرمانية إلى سوق تجارية قائمة منذ زمن طويل في جنوب آسيا. وكانتا قد نجحتا في إزاحة منافسيهما الأوروبيين، البرتغاليين والفرنسيين، واجتذبتا مبشرين بروتستانتيين من أتباع معسكرهما كانوا حريصين

(*) كان الوضع في كل مكان معقداً بتدفق استخدام أطراف ثالثة في الوقت نفسه، وهم على الأغلب الأفارقة المستوردون كعبيد إلى درجة أنهم، أو خليط منهم ومن السكان الأصليين، صاروا يمثلون مجتمعاً جديداً من الأقليات، حيث صار المهاجرون عندئذ هم الأغلبية. ولكن هذه الأقلية المرتبطة بالعبيد لم تكن منفصلة لغوياً عن مجتمع الأغلبية، إذ إنهم أصبحوا مجتمعاً بأنفسهم عن طريق الأخذ بصيغةٍ أو نسخةٍ من لغة مالكي العبيد.

على نقل نظرتهم الروحية للعالم إلى السكان المحليين. ولكن الهولنديين كانوا مقتنعين دائماً باستخدام اللغة المحلية المشتركة، وهي الملايوية، كلغة لدينهم ولإدارتهم. وكان عالمهم الخاص منفصلاً عن عالم مزوديهم المحليين ومستخدميهم، الذين صاروا رعاياهم في آخر الأمر، وظلوا كذلك. (انظر الفصل الحادي عشر: 'المتطفلون الهولنديون'، ص 543). وكان البريطانيون فقط هم الذين قدموا الوسيلة للتحول إلى لغتهم الخاصة، الإنكليزية. وعندما فعلوا ذلك كانوا يخضعون بالتأكيد للضغط من مبشريهم أنفسهم، ولكن أيضاً من سكان موطنهم ومن قسم كبير من رجال النخبة الهنود. ذلك أن الموقف الجديد من المستعمرة الذي كان آخذاً بالظهور لم يكن يتطلب أي شيء أقل من ذلك، إذ إنه لم يكن يعتبر الهند مجرد مكان للحصول على الربح، بل يعتبرها بريطانية يجب تطويرها كجزء من بريطانيا العظمى.

وقد ثبت أن هذه الخطوة قد فتحت الطريق للإنكليزية كلغةٍ عالمية، متاحة لكل الراغبين في المشاركة في الثورة الصناعية أينما كان مكان إقامتهم. وربما كانت الدوافع في ذلك الوقت تستذكر دوافع رئيس الأساقفة لورينزانا، الذي كان يدعو في القرن الثامن عشر إلى استخدام اللغة الإسبانية في جميع أنحاء إمبراطورية إسبانيا، وليس أقل ما في ذلك واجب تثقيف الهنود. (انظر الفصل العاشر: 'حل الدولة: اعتماد الإسبانية'، ص 514). ولكنه كان يدعو إلى الإسبانية من أجل فرضها، وليس من أجل التنازل لها، وهكذا تم فرضها في آخر الأمر، عن طريق إهمال التعليم باللغات الأخرى إلى حد كبير. ولم تكن حالة الإنكليزية في الهند تنطوي على سحب رمزي لدعم الحكومة للغتين السنسكريتية والعربية، وقد أسهم تعميم استعمال الإنكليزية في إغلاق أذهان الناطقين بالإنكليزية عن اللغات الأجنبية. ('فبعد كل شيء، إنهم جميعاً يتكلمون الإنكليزية، أليس كذلك؟'). ولكن هذا النشر للغة على صعيد العالم كله في آخر الأمر عن طريق ما أسميناه إعادة التثقيف، لم يكن فرضاً لها أبداً؛ فقد بقيت الإنكليزية لغة أقلية صغيرة، وحتى بين الوطنيين الهنود كان هناك شعور بأن تحصيلها يشبه اكتساب فرصة. وكان ذلك تطوراً جديداً وهاماً في تاريخ انتشار اللغة. وقد تم الأخذ به فيما بعد كسياسة متعمدة من قبل قوة واحدة أخرى على

الأقل، وهم الفرنسيون في 'الرسالة الحضارية' التي تصوروها لإمبراطوريتهم. (انظر الفصل الحادي عشر: 'الإمبراطورية الثانية'، ص 571).

وكان الابتكار الآخر في نشر اللغة على مدى الخمسمئة عام الأخيرة، وخاصة القرنين الأخيرين هو دور التكنولوجيا المتنامي. فالحضارات بطبيعتها تدفعها التكنولوجيا، بل إن الحضارة حسب أحد التعاريف هي تراكم متميز للابتكارات التقنية. وكانت التكنولوجيا قد دفعت انتشار اللغة إلى الأمام من قبل: وتذكروا كيف أن توفر الأكادية في كتابات مسمارية على الطين قد جعلها لغة الدبلوماسية المشتركة في غرب آسيا (انظر الفصل الثالث: 'الأكادية - تقنية تتغلب على العالم: نموذج من معرفة القراءة والكتابة'، ص 99)، وكيف أن النظام الأبجدي الذي اخترعه الفينيقيون قدم الأساس ليس فقط لدور نخبوي للناطقين بالآرامية ككتاب في آشور وبابل، ولكن أيضاً للإدارة والتعليم في جميع أنحاء العالم في آخر الأمر، من آيسلندا إلى جزر الهند الشرقية.

ولكن انتشار اللغة في العصر الحديث قد تم قبل كل شيء عن طريق الإنتاج الكبير لنصوص لغوية، وبعد ذلك لوسائل نشرها بصورة فورية عبر أي مسافة. فقد جاءت الطباعة أولاً، وكانت قد بدأت في أوروبا في القرن الخامس عشر. فلعبت دوراً أساسياً في مواجهة أوروبا الغربية لكثير من اللغات المجهولة، وكذلك في نشر اللغات الأوروبية نفسها(*). وبعد ذلك بأربعمئة عام جاءت الاتصالات الإلكترونية، من نقطة إلى نقطةٍ في أول الأمر، وتلتها الإذاعة. فكان تأثيرها على نشر اللغة عميقاً. فصار من الممكن الحفاظ على المجتمعات اللغوية رغم الانفصال المادي(**). وقد يكون لهذا تأثير - غير معروف حتى الآن - على تطور اللغات نفسها؛ فالتكنولوجيا الإلكترونية، إذا أصبحت متغلغلة بصورة كلية، فإنها قد لا

(*) ومن النتائج الإضافية لذلك والتي لا يلاحظها أحد الاستخدام الأول للكتب المطبوعة لتعليم اللغة، وذلك بدءاً باللاتينية. وقد أدى هذا بدوره إلى تطور الدراسات اللغوية التبشيرية، في الأصل كمساعد على الوعظ في أماكن غريبة (أوستلر: 2004).

(**) يمكن توقع أن يؤدي ذلك بسرعة إلى إفادة المجتمعات اللغوية الصغيرة، وكذلك اللغات العظمى التي هي موضوع هذا الكتاب.

تؤدي فقط إلى ’موت المسافات‘ المعلن عنه على نطاق واسع، بل حتى إلى ’موت اللهجات‘. ولكن التكنولوجيا قد أحدثت تأثيرات غير مباشرة. فانسحاب القوى الإمبراطورية الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية، وخاصة من إفريقيا، كان قبل كل شيء استجابة سياسية لسياسة جديدة انتشر الشعور بها على نطاق عالمي، وهي ’رياح التغيير‘ التي اشتهر عن رئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكميلان أنه أحس بها في العام 1960. ’إن ريح التغيير تهب عبر القارة. وسواء أحببنا ذلك أم لا، فإن نمو الوعي الوطني حقيقة سياسية‘[3].

كانت النخب الأجنبية قد أخذت بالمغادرة، احتراماً لأصوات الأكثرية في العالم، ومن بينها أصوات الناس الذين حكمتهم تلك النخب. وهي أصوات صارت مسموعة عبر وسائل إعلام تلك النخب نفسها، بل وهي تتحدث بلغات تلك النخب نفسها أيضاً.

طريق الانطلاق

لا بد أننا نعمل شيئاً صحيحاً كي يستمر مئتي عام

هنري جيبسون: أغنية عنوانها ’مئتا عام"‘[4].

لا يزال علينا أن نتأمل في ماهية المستقبل الذي قد ينتظر الإنكليزية.

إن الأربعمئة عام الماضية كانت بشكل سخيف ينافي العقل تقريباً مطمئنة للشعوب الناطقة بالإنكليزية بينما تلاحقت الانتصارات السياسية، والعسكرية، والثقافية. وقد توسع المجتمع اللغوي من إنكلترا إلى ما وراء البحار، أولاً بالتسلل خلسة في الشقوق الضئيلة، ثم بفرض نفسها على ممتلكاتها الإمبراطورية الآخذة في التوسع باطراد، وأخيراً بعد موت الاستعمار السافر الرديء عن طريق المديح الظاهر لها في السوق العالمية الواحدة. فهي أولاً مخلوق الملكة الاجتماعية الإنسانية لإيجاد لغة بين مجموعات متباينة تتشارك في إقليم واحد، ثم القدرة التي اكتشفها مجتمع تلك الجزيرة الواحدة لاستخدام قوة

أسطوله البحري لنشر مواطنيه ونفوذه السياسي أينما وجد نقاط ضعف في جميع أنحاء العالم، وفي العصر الحديث مؤخراً صارت الإنكليزية هي اللغة الجاهزة المتاحة عندما اكتشفت أوروبا وأمريكا الشمالية ثم العالم كله كيفية الاستفادة من أنواع الوقود الأحفوري، ومن العلم، ومن الأسواق الكبيرة. وهذا الحظ الهائل المستمر خلق للإنكليزية احتياطياً ضخماً من النفوذ ينعكس في الحماسة العالمية لثقافتها الشعبية. وكما أظهرت اللغة الفرنسية قبل خمسمئة عام، فإن الارتباط بالثروة والقوة شيء شديد الجاذبية.

ولكن الإنكليزية لا يمكنها أن تتوقع أن يستمر شيوع لغتها إلى الأبد. إن وجود لغة وحيدة للاتصال على صعيد العالم كله يساعد على الاستقرار، ويعطي لهذه اللغة مظهر كونها جزءاً محايداً من النظام العالمي، خارج سيطرة القوى العظمى وخارج سيطرة أي مجتمع واحد بالقدر نفسه. وبالمثل، فإن اللغة اللاتينية، التي عاشت ما يقرب من ألف عام بعد هلاك الإمبراطورية الرومانية في الغرب، أعطت أوروبا الغربية على الأقل، في تطورها المنفصل الطويل، سبباً وجيهاً للاعتقاد بأنها أصبحت لغة الفكر والحقيقة الدائمة والنقية. ولكن الطباعة، والملاحة البحرية لمسافات طويلة، ونشوء إمبراطوريات عالمية، قد غيرت ذلك كله. فالعالم يبقى مكاناً شديد الحركة والنشاط. وبالنسبة للغات، كما بالنسبة لأي مؤسسة إنسانية، فإنك عندما تكون على القمة، فإن هناك ـ عاجلاً أم آجلاً ـ اتجاهاً واحداً فقط لتحركك من هناك.

إن المكانة الحالية للإنكليزية تدعمها ثلاثة أعمدة رئيسية: السكان، والموقع، والنفوذ.

فأولاً، وقبل كل شيء، تملك الإنكليزية ناطقين كثيرين كأي لغة أخرى. فعندما يضاف الناطقون بها كلغة أمّ، والبالغ عددهم 350 مليوناً إلى العدد المماثل من الناطقين بها كلغة ثانية، وإلى الثلاثة أرباع المليار الذين تعلموها في المدارس أو في صفوف أخرى، يصبح من المعقول الزعم بأن ربع البشرية يعرفون الإنكليزية. وإن اللغة الوحيدة التي يمكن مقارنتها بها هي الصينية عندما يجتمع معاً كل المثقفين بالماندارين، ولكن معدل الدخل، والمكانة والموقع العالمي

للإنكليزية تجعلها متفوقة إلى حد كبير. فتعلّم الإنكليزية هو موضوع للأغلبية في جمهورية الصين الشعبية، وعلى عكس ذلك، فإن اللغة الصينية تظل بعيدة عن المناهج الدراسية في جميع مدارس البلدان الناطقة بالإنكليزية.

وثانياً، ليس هناك الآن لغة تضاهي الإنكليزية في الشمول العالمي. فللإنكليزية مكانة خاصة في بلدان كل قارة. وهي مكانة لا تشاركها فيها سوى الفرنسية. ولكن هناك أربعة ناطقين بالإنكليزية كلغة أولى - أو ثانية - في مقابل كل ناطق بالفرنسية. وإن رضا الناطقين بالإنكليزية عن أنفسهم واضح جلي. وبينما يستمر الناطقون بالإنكليزية بالتفوق في كل معايير الإنجاز التجاري والعلمي، يبقى المعيار السائد في كل بلد ناطق بالإنكليزية أن يظل الذين يكملون تعليمهم الإلزامي أحاديي اللغة بالإنكليزية. فالكفاءة الفعالة بأي لغة أجنبية تظل بعيدة عن الأغلبية الساحقة من ذوي الكفاءة في الأساس التقني للحضارة الحديثة. وهم يبقون كذلك طيلة حياتهم. ولكن الرضا عن النفس ليس محصوراً بأغلبية الناطقين بالإنكليزية فقط، بل إن المسألة هي أن العالم لم يفرض حتى الآن ثمناً لهذا الشعور. وإن كان قد حدث أي شيء، فهو أن العالم قد كافأ الناطقين بالإنكليزية على عدم ابتعادهم عن تقاليدهم ومصادر حكمتهم نفسها.

وأخيراً، فإن الإنكليزية مرتبطة عن وعي بالتقدم التقني والثقافة الشعبية في كل جزء من العالم. فهذا النوع من النفوذ العالي للغة يبدو أن له أساساً جيداً على نحو خاص لأنه لا يقوم على وحي روحي - فحالات الوحي محلية دائماً، حتى عندما تطالب لنفسها بشرعية عالمية صحيحة - ولا على التشوق إلى نظام معين يكون من شأنه ضمان الحرية أو العدالة الاجتماعية. بل إن هذا النفوذ مبني على أساس إدراك الثروة التي يمكن جعلها تتدفق من التقدم العلمي وتطبيقه العقلاني. وبما أن هذه هي التجربة الحديثة لكل البلدان الأغنى في العالم اليوم، فإن الحقيقة الموضوعية بمعنىً ما تقف إلى جانبها.

إن البشر العمليين مشهورون بقصر النظر، وهكذا فإن 'المال الذكي' (وهو بنفسه مفهوم إنكليزي جداً) يدعم بطبيعته الاعتقاد بأن المسار الحديث

للإنكليزية، وبالتالي مكانتها الحالية، سوف يستمران بلا حدود. ومثلما أمكن إقناع "المفكرين الجيدين" في تسعينيات القرن العشرين بالاعتقاد بـ 'نهاية التاريخ' لفترة قصيرة، وبالانتصار النهائي للنزعة الليبرالية والأسواق[5]، فإن كثيرين يجادلون اليوم بأن تقدم الإنكليزية ربما يكون قد تخطى نقطة عالمية هامة في تطور الاتصالات العالمية بحيث سبق أي منافس محتمل سبقاً دائماً، وقدم لجميع متعلمي اللغات رهاناً واحداً فقط. إن ديفيد كريستال معلق واسع المعرفة والتفهم للغات في العالم الحديث، وفي نهاية كتابه "الإنكليزية كلغة عالمية" استعرض العوامل التي قد تعرّض موقعها للخطر، وخاصة ردود الفعل السلبية الأجنبية، وتغير الميزان السكاني، واحتمالات انشقاق اللهجات. ولكن حتى هو لا يستطيع في النهاية إلا أن يتكهن بأن 'الإنكليزية، بشكل أو صيغة ما، قد تجد نفسها في خدمة المجتمع العالمي إلى الأبد'[6].

إن دراستنا للأرضية الخلفية لخمسة آلاف عام من اللغات العالمية تجعل أبدية هذا الاحتمال تبدو غير واردة. فالوضع اللغوي العالمي الحديث غير مسبوق. ولكن الناس لا يزالون هم الذين يكوّنون المجتمع اللغوي. وقبل كل شيء فإن الناس يستخدمون اللغة ليقيموا علاقات اجتماعية. والمجتمعات الإنسانية كانت لديها دائماً طريقة لتكثير اللغات.

فأولاً وقبل كل شيء، فإن معظم الناس في العالم لا يزالون ثنائيي اللغة. وهذا يشير إلى أن لغات العالم نادراً ما ترسخ نفسها كأي شيء سوى لغات ثانية، مفيدة كلغة مشتركة حيث يكون الاتصال عبر مسافات طويلة شيئاً هاماً، ولكنها ليست على نحو خاص وسائل مسيطرة للغة اليومية للجميع. وكانت الاستثناءات الكبرى لذلك تشمل انتشار اللاتينية على مستوى القاعدة في بلاد الغال وفوق اللغات الإيبيرية في أوروبا الغربية، وانتشار الصينية في جنوب شرق آسيا، حيث كانت المجتمعات اللغوية المتعلمة منتشرة فوق مناطق متجاورة، دون ملئها بالضرورة بمستوطنين من الناطقين الأصليين باللغة. فالإنكليزية، التي بدأت على جزيرة بدون رأس جسر أوروبي، لم تتمتع أبداً بهذا النوع من الانتشار المتجاور المتصل، وإن الطريقة الرئيسية لانتشارها اليوم، عن طريق التعليم،

وأجهزة الإعلام الإلكترونية والاتصال المتعلّم لا تؤدي إلى حلولها محل لغات المجتمع الأصلي في موطنها(*).

وثانياً، إن الإنكليزية ليست معتبرة في كل مكان كوسيلة محايدة للوصول إلى الثروة والثقافة العالمية. فبعض صنّاع السياسة، وبصورة نموذجية في المستعمرات البريطانية أو الأمريكية السابقة، قد رأوا من هذه اللغة ما هو 'أكثر من اللازم'، فيقاومونها، وكثيراً ما يجمعون الارتباطات التاريخية مع سياسة القوى المحلية. ففي العام 1948، قامت سيلان (سريلانكا الآن) باستبعاد الإنكليزية كلغة رسمية، وكان سبب ذلك جزئياً هو الاعتقاد بأن استمرار استعمالها سيفيد الأقلية التاميلية (التي كانت غالبيتها من الطبقة المتوسطة)، أما الحلقة التالية لذلك، بما فيها إقامة السنهالية كلغة رسمية وحيدة في العام 1956، فلم تكن سعيدة. فقد استمر استعمال الإنكليزية كثيراً. وفي العام 1967 تم تجريد الإنكليزية من مكانتها كلغة رسمية في كل من تانزانيا وماليزيا، وفي كينيا في العام 1974؛ وفي العام 1987 قامت الفليبين بترفيع لغتها الفليبينية (أي التاغالوغ) إلى مكانة متساوية مع الإنكليزية 'إلى أن ينص القانون على غير ذلك'. وهذه المقاومة قد تخبو في الأجيال اللاحقة، مع ذكريات التاريخ الاستعماري[7]، ولكن التدخلات الأمريكية، بالتحالف مع قوى أخرى ناطقة بالإنكليزية أحياناً، لا تظهر علامات تناقص في القرن الحادي والعشرين. وهي تدخلات ستفعل الكثير للحفاظ على وصف سهل للإنكليزية في بعض الأوساط بأنها لغة الامتياز العالمي المنتقاة.

وأخيراً، فحتى إذا صمدت الإنكليزية على صعيد العالم، فليس هناك ضمان بأنها ستبقى لغة موحّدة. فرغم أن العالم في مطلع الألف الميلادي الثالث مكان مختلف جداً عن أوروبا الغربية في مطلع الألف الميلادي الأول، فإن من الممكن

(*) غير أن طبيعة المجتمع المحلي من الأهالي الأصليين آخذة بالتغير تحت تأثير الإنكليزية جزئياً. فإن ارتفاع مستويات تعليم الإناث، وتزايد الإنكليزية شيئاً فشيئاً ضمن ذلك التعليم، وتوفر أجهزة الإعلام المحلية كالإذاعة والتلفزيون، معناه أن وضع 'اللغة الأم' لتعلم لغة أولى في الوطن سوف يشمل الإنكليزية على نحو متزايد.

جداً أن تتبع الإنكليزية مثال اللاتينية، فتعيد تشكيل نفسها بطرق مختلفة في مناطق لهجات مختلفة، وأخيراً - ولنقل في غضون بضعة قرون - قد تصبح عائلة من اللغات. وهذا محتمل بصورة خاصة حيثما رسخت اللغة نفسها كلهجة عامية دارجة، كما هي الحال في جامايكا أو سنغافورة، أو حيث يصبح تحويل معظم السكان ثنائيي اللغة، بحيث يصبح تحويل الرموز نموذجاً جذاباً للمحادثة، كما هي الحالة اليوم بين المثقفين الهنود مثلاً. ومن الواضح أن حدوث ذلك أقل احتمالاً، أو أنه سيتم إبطاؤه على الأقل، إذا بقيت المجتمعات التي تتكلم الإنكليزية على اتصال منتظم ذي اتجاهين بالهاتف وبالمراسلة، ويتلقى كل مجتمع منها أجهزة إعلام المجتمع الآخر. ولعل الإنكليزية لا تزال تحتفظ بأفضل موقع بين اللغات الكبيرة على صعيد العالم للإبقاء على وحدتها بالاتصال المتبادل. ومن بين الإشارات الدالة على ذلك أن المداولات الهاتفية تغلب عليها السيطرة الساحقة للمحادثات باللغة الإنكليزية(*). ولكن قد لا تلعب كل المجتمعات الناطقة بالإنكليزية دوراً كاملاً في المحادثة العالمية، وقد تصبح السيطرة للانشقاقات والمنافسات الطويلة الأمد - كما تنافست إسبانيا وفرنسا على النفوذ في إيطاليا عصر النهضة، بعد ألف عام فقط من كونهما جميعاً مقاطعات من إمبراطورية واحدة.

ومن الممكن إعطاء الخطوط الأساسية لسيناريوهات تحوّل في حظوظ الإنكليزية، وذلك باستمداد الإلهام من السنوات التي تلت كثيراً من اللغات المسيطرة في الماضي. فالإنكليزية، بصفتها لغة أولى لسكان كثيرين، وكلغة مشتركة عالمية، قد تجد بأن بذور تضاؤلها واضمحلالها قد تم زرعها بالفعل.

فباعتبارها لغة أولى، فإنها قد وصلت إلى الذروة في المجال السكاني الديموغرافي(**). وفي هذا فهي لا تختلف عن معظم اللغات الإمبراطورية من

(*) من بين أغزر التدفقات الهاتفية الثمانية والأربعين عبر القارات في العام 1994، كانت 46.9 بالمئة (أي 53 مليار دقيقة) بين الناطقين بالإنكليزية. كما كانت 50.4 بالمئة غيرها (أي 57 مليار دقيقة) بين الناطقين بالإنكليزية وبلدان ذات لغات أخرى (وهذه الأرقام مستقاة من شركة TeleGeography، كما يستشهد بها غرادول 1997: ص 37).

(**) انظر الفصل الثالث عشر، ص 722.

أوروبا. فالناطقون الأصليون بها لا تزال أعدادهم تنمو، ولكن بمعدل أبطأ بكثير من الناطقين ببعض اللغات الكبرى الأخرى. ونتيجة لذلك، فحسب أحد التقديرات الذكية[8]، فإن الإنكليزية، والأوردية الهندية، والإسبانية، والعربية، ستكون على قدم المساواة تماماً في العام 2050، وتتفوق الصين على كل واحدة منها بِضِعْفين ونصف الضِعْف. وفي هذا الوقت تقول التنبؤات إن عدد سكان العالم سوف يستقر فلا يزيد ولا ينقص. ولكن إرث نسب النمو المختلفة من الماضي سيكون فرقاً ضخماً بين معدل أعمار الناطقين بلغات مختلفة. وستكون الإنكليزية والصينية في العام 2050 لغتيْ أناس غالبيتهم الساحقة أكبر سناً، وستكون العربية لغة الشباب، والإسبانية والهندية الأوردية لغتين لمن أعمارهم وسط بين هاتين الفئتين. وليس هناك نبوءة عن معدلات الثروة للمجتمعات المختلفة، فقد تكون هذه المعدلات عنصراً حاسماً في تقرير علاقات القوة الآخذة بالتطور فيما بين المجتمعات، وكذلك جاذبية لغاتهم للأجانب ـ كما شهدنا في سيرة حياة اللغتين الإنكليزية والفرنسية. وقد تكون الإنكليزية ما تزال أوسع اللغات انتشاراً في العالم، بل وقد يكون للناطقين بها أعلى معدل للدخل في العالم. ولكنها لن تعود متمتعة بميزة موقعها الحالي، على الأقل فيما يتعلق بعدد الناطقين الأصليين بها. وإذا صارت الاقتصادات الناطقة بالإنكليزية تبدو أقل حركية ونشاطاً، فإن من الممكن كلياً أن تنتقل السيطرة اللغوية بعيداً عنها أيضاً.

وحتى في البلدان الكبيرة ذات الناطقين الأصليين، فإن الإنكليزية قد تضطر لإفساح المجال لحضور مجتمعات لغوية كبيرة أخرى ـ كالمجتمعات الناطقة بالإسبانية في الولايات المتحدة، وربما بعض لغات جنوب آسيا الكبرى في المملكة المتحدة، والفرنسية في كندا كما هي العادة دائماً، ولكن ربما لغة إينوكتيتوت أيضاً. كما أن التنويعات المختلفة من الإنكليزية ستكون تحت ضغوط محلية مختلفة جداً. وقد تصبح الثنائية مع لغة أخرى هامة. وقد تتباعد اللهجات عن بعضها بعضاً بشكل مطرد. ومثل لغة الهند الآرية في الألف الميلادي الأول، التي تنوعت إلى براكريت، ثم إلى لغات منفصلة، حتى عند الاحتفاظ بالسنسكريتية كلغة متداخلة معها، أو مثل مصير اللاتينية في أوروبا في الألف

الميلادي الأول، فإن الإنكليزية قد تجد نفسها منقسمة إلى أنواع من الصياغات المحلية بين ناطقيها الأصليين، بينما يستمر العالم في استخدام صيغة شائعة منها كلغة مشتركة.

ولكن الإنكليزية، حتى كلغة مشتركة، قد تواجه صعوبات. وتشهد على ذلك حالة لغة الصغد، التي كانت من القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر للميلاد لغة التجارة والتبشير على طريق الحرير من الصين إلى سمرقند، أو مصير اللغة الفينيقية التي كانت هي الرطانة التجارية لحوض البحر الأبيض المتوسط كله طيلة الألف الأول قبل الميلاد، وكانت ناشرة بارزة لمعرفة القراءة والكتابة. أما اليوم فإن اللغتين الصغدية والفينيقية لم تعودا موجودتين. فاللغة المرتبطة بالأعمال التجارية سرعان ما تصبح مهجورة عندما ينتقل الأساس التجاري أو مصادر الثروة بعيداً عنها، فالمشهور عن رجال الأعمال أنهم ليسوا عاطفيين. وليس من المعقول التوقع بأن شدة انعدام التوازن في توزيع ثروات العالم سوف تستمر في محاباة أصحاب اللسان الإنكليزي بلا حدود في المستقبل. ذلك أن شروط التجارة ستصبح مختلفةً جداً ذات يوم. وبعد مجيء ذلك اليوم فإن موقع الإنكليزية سرعان ما يصبح شيئاً عتيقاً خارجاً عن المألوف إلى حد كبير.

وبالمثل، فإن ارتباط الإنكليزية بالعلم العالمي قد يعجز عن إنقاذها. فالبحث الهادئ غير العاطفي لم يكن أبداً نشاطاً يعجب الأغلبية، مهما اتسعت إتاحة التعليم وتوفير الثقافة. فالبحث الجاد يبقى نشاطاً للأقلية. وبما أنه محايد وموضوعي فإنه يحتاج دائماً إلى رعاية أبوية من آخرين راكموا ثروة وسلطة. ولكن تلك النخب السياسية، أو العسكرية، أو التجارية، أو الدينية، لا يمكن الوثوق بها، وخاصة إذا ظهر بأن نتائج البحث تميل إلى الوقوف بوضوح ضد سلطتهم، أو تعجز عن تعزيزها: وعندئذٍ فإنهم سيصدرون حكمهم لصالح التقليد، أو لصالح تجهيل عامة الناس. إن من السهل نسيان مدى اعتماد شعبية العلم المستمرة على استمراره في تقديم بيوض ذهبية جديدة، أو قنابل ذهبية جديدة. فعندما يتباطأ تدفق الأشياء اللذيذة والجذابة، كما قد يحدث ذات يوم، فإن متابعة

العلم سوف يعتبرها كثير من دافعي ثمنها في الصناعة والحكومة انغماساً في شهوة باهظة التكاليف.

وبالطريقة نفسها، فعندما يتمتع هؤلاء الكثيرون أنفسهم بقوة السوق، كما فعلوا إلى حد ما أثناء ثورة اختراع الطباعة والإصلاح الديني، وكما يفعلون غالباً الآن في عالم الأنغلوفون، فسوف يستخدمون أموالهم لطلب ما يفهمونه وما يعتقدون أنهم يحتاجون إليه. فهذه طريقة الأسواق. ولكن أحكامهم ستكون متأثرة بالتقاليد تأثراً شديداً. فنحن نستطيع أن نرى مذهب الإيمان بالخلق، والنهج النبوئي في مقاربة بعض نصوص المسيحية القديمة تزدهر في قلب أغنى بلد وأكثرها تقدماً تقنياً في العالم الناطق بالإنكليزية. فالولايات المتحدة هي التي تقدم الآن أعظم مصادر المعلومات والتعلّم في العالم. فإذا بدأت سلطاتها تلقي بثقلها الضاغط على مفكّريها الأحرار، فإن المرء يستطيع أن يتصور قيام الأجزاء الأخرى من العالم بحماية ثقافتها وراء عباءة لغاتها نفسها.

والواقع أن التقاليد الأكاديمية أيضاً لها سجل سيئ، حتى بحسب روايتها نفسها في مجال الإبقاء على الاهتمام بالانفتاح العقلي، فهناك دائماً إغراء اللجوء إلى السلطة والحصول على الحظوة لديها، والمبادئ المقررة 'للعلم الطبيعي' تستدعي إلى الذاكرة كيف أن التشكك والتنظير في اليونان في القرنين الثالث والرابع قد أدّيا إلى التصلب والنـزعة المحافظة في اللغة والفلسفة المدرسية، وكيف أن المجادلات والمناظرات المليئة بالحيوية الكامنة وراء قواعد اللغة السنسكريتية والمنطق البوذي قد تجمدت وتوقفت عن التطور في الهند في العصور الوسطى، وكيف أن العصر العباسي الذهبي في البحوث العلمية في العربية تلاشى عند ابن رشد في القرن الثاني عشر. فهناك مجال كبير للأسرة العلمية في العالم كي تصاب بالكسوف، ولو مؤقتاً على الأقل، وإذا تعثرت خطى التبادل العلمي العالمي، فإن الإنكليزية ستتعرض للخسارة كذلك. والموت الثاني للاتينية يرينا بوضوح كيف أن مثل هذا الشيء يمكن أن يحدث، وقد حدث فعلاً، على نطاق دولي.

وهناك مراكز جديدة محتملة للحضارة العالمية آخذة في النمو، ولها

خلفيات لغوية مختلفة. ففي شرق آسيا وجنوب شرقها نرى المجتمعات اللغوية الصينية تظهر بشكل متزايد كأساتذة متقنين للاستثمار، ويبدو أن من المحتمل أن يعملوا في آخر الأمر مع نظرائهم وزملائهم الصينيين بشكل منسق متناغم في جمهورية الصين الشعبية الآخذة في التطور بسرعة. (انظر الفصل الرابع: 'العلاقات الخارجية'، ص 234). وفي الشرق الأوسط، تنمو أعداد الناطقين بالعربية، مع شعورهم بالتضامن، كجزء من الأمة العالمية المترابطة معاً بقبولها للإسلام. وإن الأعمال المتشددة للأصوليين الإسلاميين، وعدم الإنصاف في توزيع الدخل والقوة بسبب سيطرة عائدات النفط في اقتصاداتهم، قد تبطئ اندماجهم الحقيقي. ولكن من الصعب الشك في أن هذه المجموعة الواعية الكبرى ستشكل قضية موحدة، حتى بدون قيادة سياسية من إحدى دول المنطقة، فهؤلاء الناس يشتركون في الدين وفي اللغة، وتتزايد قدرتهم على التواصل على جميع المستويات من خلال أجهزة الإعلام الحديثة.

وبشكل أقل بروزاً أيضاً، يمكننا أن نلاحظ أن ثلثي الناطقين بالتركية في العالم، البالغ عددهم 147 مليوناً، وخاصة الأتراك، والأوزبك، والتركمان، والقازاخستانيين، والقرغيزيين، هم الآن منظمون بشكل مستقل عن الأجانب لأول مرة منذ تغلغل الروس في آسيا الوسطى(*). وعند النظر إليهم كمجتمع كلي، فإن عددهم أكبر من عدد الناطقين بالألمانية، أو الفرنسية، أو اليابانية. ومع تحسن الاتصالات سيبدؤون بالشعور بأنهم وحدة واحدة، لأن معظم لغاتهم فيها فهم متبادل.

إن مثل هذه الحالات من إعادة التنظيم لن تشكل تهديداً مباشراً لاستخدام الإنكليزية في العالم، بل ولن تقلل من هذا الاستخدام في بادئ الأمر. ولكنها قد تقدم علامات مبكرة على أن توازن اللغات المستخدمة في الاتصال الدولي آخذ في التحول باتجاه مختلف.

(*) إن سبعة عشر بالمئة منهم (معظمهم أذربيجانيون) موجودون في إيران، وسبعة بالمئة في الصين (معظمهم إيغوريون)، وسبعة بالمئة في روسيا (ويتكونون من التتر، والشوباش، والبشكير، وتشكيلة متنوعة من المجموعات الصغيرة).

إن التنبؤ بتحول الصينية أو العربية إلى لغة دولية كبرى لا يتطلب شيئاً من الخيال: بل إن هذا التنبؤ يتبع استقراء التوجهات السكانية الحالية، مشفوعة بحقائق اقتصادية وسياسية معروفة جيداً. ولكن تاريخ لغات العالم في المستقبل يحتمل جداً أن ينطوي في الحقيقة على تطورات جديدة مفاجئة تغير التوازنات السكانية. فمن كان يستطيع التنبؤ بأن اكتشاف الذهب في البرازيل في تسعينيات القرن الثامن عشر سوف يجعل ذلك المكان يمتلئ فجأة بالبرتغاليين، عندما كانت البرتغال قد سيطرت على أرضه ثلاثة قرون بدون أي تأثير لغوي كبير؟ ففي بعض الأحيان تكفي حادثة واحدة لإطلاق إمكانية كانت محتملة زمناً طويلاً ولكن لم يُتَحْ لها أن تتحقق.

وحتى في القرن الحادي عشر، من كان يستطيع التنبؤ بأن توريد صناعة الورق إلى أوروبا (في القرن الثاني عشر) والبارود (في القرن الرابع عشر) والطباعة (في القرن الخامس عشر) سيؤدي أولاً إلى تثوير حياتها الدينية بالإصلاح، وإلى إرسال مغامريها إلى الخارج ليستوطنوا ويسيطروا على الآخرين في جميع أنحاء العالم غير المسيحي؟ فهذه الأشياء الثلاثة كانت معروفة في الصين منذ أوائل الألفية الميلادية الأولى، دون أن يكون لها أي تأثير ملحوظ في موطنها. وهكذا فحتى في النظام المغلق لا يمكن لأي تفاعل جديد أن يترك عواقب ثورية.

إن أحداثاً وتفاعلات كبرى، غير متوقعة حالياً، سوف تحدث خللاً واضطراباً وإعادة توجيه في المستقبل أيضاً. فليس في ذلك شك. وإن أسهل ما يمكن التنبؤ به - ولكني آمل أن لا يكون مؤكداً - هو حدوث محرقة عسكرية، وهذا شيء سهل جداً من الناحية التقنية في هذه الأيام. وهذا قد يحدث تغييراً عميقاً في توازن سكان العالم، مثلما أدى التقدم الأنغلوساكسوني عبر أمريكا الشمالية إلى انطفاء كل لغاتها الأصلية وتعريضها للخطر. وقد يحدث وباء يمكن أن يكون له تأثير شديد على التوازن - كما حدث في كل مكان في الأمريكتين عند مجيء الأوروبيين وربما مرتين في بريطانيا في سنوات غسق اللغة البريطانية الكلتية والفرنسية النورمانية - وخاصة في أوضاع تسود فيها ثنائية

لغوية سابقة. فالوباء المرعب فعلاً، حتى ولو كان محصوراً محلياً، يمكن أن يحدث تغييراً دائماً في الوضع اللغوي في ماليزيا أو في كندا.

وليس من الضروري أن تؤدي كل حادثة غير متوقعة إلى تغيير الوضع الراهن بحيث يضر باللغة الإنكليزية طبعاً. ولنتذكر الإمبراطور الفارسي دارا الذي أصدر مرسوماً يأمر باستخدام الآرامية في جميع أنحاء مملكته، رغم أنها كانت عندئذ لغة أجنبية، ليس لها ما يزكّيها سوى خلفية قوية جداً كأداة إدارية. فمن الممكن تماماً، حسب هذا المثال، أن تسارع حكومة عملية ذرائعية إلى نشر الإنكليزية في مكان من العالم لم تصل إليه حتى الآن - في منطقة البلطيق مثلاً، أو في آسيا الوسطى. والواقع أن شيئاً كهذا قد حدث عندما أمر لي كوان يو باستخدام الإنكليزية في مستعمرة سنغافورة الناطقة بالصينية إلى حد كبير في ستينيات القرن العشرين.

ومهما يحدث، فإن أي تغييرات تقع قد يكون لها أثر مقلق بشكل عجيب على الباقين من الناطقين بالإنكليزية. فقد استمرت حدود اللغة بالتوسع طيلة ثلاثة قرون حتى الآن. فالناطقون النموذجيون بها قد يفتخرون بنزعتهم العملية الذرائعية، ويرحبون بتحطم الحواجز اللغوية، لمصلحة التفاهم الأوسع والاتصال الأسهل. ولكن عندما تكون اللغة التي ستتعرض للتقلص هي لغتهم فلا بد من توقّع تسجيل عدم الارتياح. ففي العام 1984، أعلن 8 بالمئة من سكان الولايات المتحدة الأمريكية أن لغتهم الأولى كانت غير الإنكليزية. فكان ذلك كافياً لانطلاق برنامج تشريعي في أوائل التسعينيات 'للاعتراف بالإنكليزية في القانون باعتبارها اللغة الرسمية للعمل في الحكومة'[9]. وهناك الآن ضجة مستمرة من الاقتراحات والمناشدات حول الموضوع في الهيئات التشريعية لولايات كثيرة، ولكنها لا تزال غير حاسمة. فنحن لم نَرَ حتى الآن كيف سيكون رد فعل البلدان الأخرى الناطقة بالإنكليزية عندما لا تعود قادرة على الافتراض بسهولة أن اختيار الاتصال بالإنكليزية مفتوح دائماً. ولكن ليس هناك قانون ولا مرسوم في أي مكان على الإطلاق قد أوقف انحسار مدِ لغةٍ ما حتى الآن.

ثلاثة خيوط: الحرية، والنفوذ، وقابلية التعلم

ما لا يستطيع المرء أن يتكلم عنه، يجب أن يمر به بصمت.

لودفيغ ويتغينشتاين: تتبّع المنطق الفلسفي (1922)

الحرية

عند نقاط متنوعة في هذا السرد، كان هناك إغراء، يكاد يكون واجباً، للتحدث عن الحرية. فهناك تقاليد لغوية كثيرة تزعم على نحو خاص أنها تتكلم بها أو عنها. وحرية الكلام هي إحدى المثاليات الأساسية التي تلقى تأييداً في البيانات الحديثة الكبرى عن حقوق الإنسان، ولكنها مثار جدل ونزاعات لا تنتهي على صعيد الممارسة العملية. وبالنسبة لحضارات عديدة، فإن الحرية هي الفضيلة التي تعطي الكلام غرضه الرئيسي. ومع ذلك فإننا في آخر الأمر لم نقل عنها شيئاً يذكر. فلماذا؟

إن الحرية هي موضع اهتمام خاص لبعض أنواع الدول، وخاصة الجمهوريات. وبعض الشعوب التي عرضت الحرية بصورة خاصة كهدف مثالي شملت اليونان، والرومان، والبنادقة، والفرنسيين بعد ثورتهم في العام 1789، والبريطانيين (ولو بتحفظ) بعد 'ثورتهم الجليلة' في العام 1688 التي أكدت تفوق سيادة البرلمان على العاهل، والولايات المتحدة الأمريكية. ولكن رغم أن من المتفق عليه أن مصطلحات 'الحرية' بلغات هذه البلدان كلها هي ترجمات متعادلة، فإنه لم يوجد بينها اتفاق واسع الانتشار حول ماهية الشيء الذي يضمن حرية شخص، أو شعب، أو دولة - حتى في أنظمة الحكم هذه التي هي في تقليد مستمر وشديد الوعي بذاته للفلسفة السياسية الأوروبية(*). فهل هي الاستقلال عن السيادة الأجنبية، والحكم الذاتي المدني، وعدم الاعتراف بالحقوق الوراثية، أم الحق الشخصي في اختيار الدين، والموقع، ووسائل الدعم؟ إن كل هذه الأهداف المثالية تشير إلى طرق مختلفة لوجوب رفع القيود عن حق المرء في اختيار ما يقوله.

(*) كلمة ثاي (Thai) أيضاً معناها 'حر'؛ وكذا فإن هذا الهدف المثالي يمكن أن يوجد أيضاً خارج التقليد الأوروبي.

ومن وجهة نظرنا، فإن تبني كل هذه الأهداف ـ رغم أنها عزيزة عند الكثيرين ـ لم يحدث أي فرق مادي يذكر في بقاء أي مجتمع لغوي أو انتشاره. فثقافة اللغة اليونانية، كما نشرها الإسكندر وخلفاؤه بتفاخر في بلاد الشام، ومصر، وفارس، وأخذت بها نخبة الرومان، لم تكن تنطوي على شيء يذكر من الديمقراطية، بل كان أغلب محتواها هو الولاء للحكام المستبدين الذين نصبوا أنفسهم خلفاء شرعيين لملوك مقدونيا وفارس وفراعنة مصر. واستمرت روما في تزويد أنحاء إمبراطوريتها باللاتينية عندما وُضِعَتْ مؤسسات الجمهورية الحرة المدنية في أسر عائلة وحيدة تحظى بتأييد الجيش. وأصبحت الفرنسية لغة الثقافة الدولية المفضلة في أوروبا تحت رعاية ملكية آل بوربون المطلقة، وأبرزت الثورة الفرنسية شعار 'الحرية! والمساواة! والأخوة!' وجعلت فرنسا أكثر عدوانية من الناحية العسكرية. ولكنها لم تكن ذات تأثير يذكر على جاذبيات لغتها، ولم تبدأ شعبيتها بالتعثر إلا في أوائل القرن العشرين، بعد زمن طويل من إعادة الملكية الفرنسية وسقوطها للمرة الثانية. أما الحريات السياسية التي يقدرها الإنكليز والأمريكيون إلى هذا الحد، والتي جعلت الإنكليز يقطعون رأس أحد ملوكهم ويسقطون ابنه، ثم جعلت الأمريكيين يعلنون استقلالهم عن البريطانيين تماماً، فقد تبين أنها تتمشى تماماً مع احتقار لا رحمة فيه للحقوق الأمريكية للأمم الأولى كما هي ممنوحة بالضبط بموجب معاهدة، وتتمشى أيضاً مع استخدام القوة لبناء إمبراطورية عالمية من أراضي الشعوب الأخرى. وحتى 'التجارة الحرة' تبين أنها ليست عائقاً للتفضيلات الإمبراطورية ضمن الإمبراطورية البريطانية، أو عائقاً في أيامنا هذه لاستمرار تدفق أموال الدعم الكثيفة للمنتخبين المحليين. ولم يؤدِّ أي شيء من هذا إلى تقليص انتشار اللغة الإنكليزية، سواء عن طريق الإزاحة جانباً أم عن طريق إعادة التثقيف، في جميع أنحاء العالم.

إن حرية الكلام قد تكون حقيقة الآن، وليست فقط هدفاً مثالياً غير متحقق، في جميع المناطق الحالية لهذه اللغات. ولكن على مدى القرون وألوف السنين من تطورها، فإن الحرية، تحت أي تعريف، لم تكن لأي وقت طويل أبداً

أكثر من تَبَجّح أجوف، أو تطلع متفائل في أفضل الأحوال. فاستعراضنا لتاريخ هذه اللغات اختار التركيز بدلاً من ذلك على المعنى الحقيقي للحياة فيها.

النفوذ

إن النفوذ يتعلق بالارتباطات، وفي حالة اللغات، فإن جذور النفوذ هي الارتباطات بالثروة (وهذا في أوروبا قبل كل شيء)، ولكنها أيضاً الحكمة العملية، والاستمتاع، والتنوير الروحي.

إن جاذبيات اللغة الفرنسية في أوروبا في أوائل العصر الحديث كانت تنبع من الوفرة التي قدمها الاقتصاد الفرنسي. وهذا ينطبق إلى حد كبير على الإنكليزية اليوم. فالناطقون بها يشعرون بطريقة ما أنهم يشاركون في الثروة عن طريق تقبل اللغة. ولكن نفوذ اللاتينية، في سنوات النهضة الأوروبية وما بعدها، ونفوذ الإغريقية في أوج الإمبراطورية الرومانية، لم يأتيا من وفرة الثروة بقدر ما أتيا من الحكمة ـ ولعلها هي نفسها نتيجة ارتباطات إيجابية، لأنه لا يمكن تحمل نفقات الثقافة، التي هي نتاج الترف الكمالي، إلا عندما تكون هناك إمدادات جيدة من الثروة. فقد كان ذلك كامناً تحت جاذبية اللغتين الصينية والأكادية: فإن العجز المحض عن التوصل إلى الكفاءة الكتابية بهاتين اللغتين، المدفوع ثمنه من خلال عشر سنوات من الدراسة أو أكثر، قد أضاف كثيراً إلى نفوذهما، ومن هنا تأتي جاذبيتهما، رغم ما في ذلك من غرابة.

وهناك أنواع معينة من المعرفة تقدم أيضاً وصولاً أكبر للثروة: وهذا ما أظهره السفسطائيون الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد، بجعلهم قوة الإقناع متاحة لقاء أجر. والحكومات الحديثة تدفع ثمن الدافع نفسه عندما ترى أن الكفاءة بالإنكليزية هي الطريق إلى التنمية الاقتصادية.

> إن هذا أكبر قيمة من أكثر من عشرة آلاف متكلم:
> التزام الحجة الأضعف، ثم الفوز.
>
> أرسطوفانيس: الغيوم، المشهد الثاني: السطران 1041 ـ 42 (أثينا، 423 ق. م)

إن كل اللغات ذات النفوذ تعطي وصولاً إلى متعة خاصة، لأنها كلها تملك آداباً واسعة، والغرض الأول للأدب هو إمتاع الناس الذين يستطيعون أن يقدروه. وفي العادة، فإن معرفة عدم وجود كثير من الآخرين الذين يمكنهم المشاركة في التقدير هي جزء من المتعة. ولقد كانت هذه تعويذة سحرية للغات الكلاسيكية عبر العصور، من الملاحم الأكادية التي كانت تنشد في دار الألواح الطينية الحثية في القرن الثالث عشر قبل الميلاد إلى الشعر الفارسي المقتبس في الهند في القرن السابع عشر الميلادي، والقصص الفرنسية المقروءة في روسيا في القرن التاسع عشر. أما في العصر الحديث فإن سحر اللغة الإنكليزية ذات النفوذ قد انقلب إلى العكس نوعاً ما ـ ربما كنتيجة جانبية للسوق المعولمة الأولى في الثقافة. فالإنكليزية، وخاصة كما تروجها صناعة المتعة والتسلية الأمريكية، يقصد منها أن تنقل رسالة بأن ثقافتها يمكن الوصول إليها على نطاق عالمي، وأنها تطلق سراح الناس من تقاليد اللغات الأخرى وقيودها. وإن خلاصة فحوى علاقتها الخاصة بالحرية هي جزء من هذا، ولكن كما جادلنا للتوّ آنفاً، فإن من الصعب الإبقاء على ذلك كسياسة جادة. ومع ذلك، فإنك إن كنت غنياً، فإن من الأسهل عليك بكثير أن تكون حراً وغير مسؤول.

ورغم الشيوع الحالي للإنكليزية باعتبارها لغة الشباب والمتحررين ـ وكذلك المتعلمين والأغنياء ـ فإن ارتباط لغةٍ ما بحقيقة دينية عميقة في آخر الأمر هو الذي يكسب لها أخلص المتمسكين بها، ويخلق لها سمعة قد تبقى آلاف السنين. فهذا هو الأساس الوحيد لادعاء أي لغة بأن لها قيمة أعلى من مجرد الارتباط بشيء من النجاح التاريخي. فالسنسكريتية، والعبرية، والعربية، كلها تدعي قوة صوفية تذهب إلى أبعد من مجرد التعبير عن المعنى، أو تبادل المعلومات بين متكلميها(*). وبهذه الصفة، فإنها قد تختفي من الخطاب اليومي، ولكن لا يمكن أبداً الحط من شأنها باعتبارها عتيقة الطراز أو غير ذات صلة، ما دام هناك مؤمنون يبجلونها ويختزنونها كالكنز.

(*) هناك مفارقة في كون هذا الادعاء يأتي أيضاً من كثير من المجتمعات الأصلية الصغيرة التي تنسبه للغاتها، التي لم تنتشر على الإطلاق.

وتنتشر اللغات أحياناً بدون أي واحد من أشكال النفوذ هذه بالطبع. ولكن القوة العسكرية قد تكون قوية أيضاً. ومن الصعب رؤية أي جاذبية آسرة تنشأ من انتشار التركية إلى بلاد الأناضول، أو الإسبانية إلى بيرو، أو الروسية إلى سيبيريا، أو اليابانية إلى كوريا، أو حتى الإنكليزية إلى ماساشوستس. وليس معنى ذلك أن نقول إن الغزاة لم يجدوا سلوكهم نفسه مثيراً للإعجاب، وخاصة في مجتمعات ما قبل معرفة القراءة والكتابة، فقد يحتفلون بفتوحاتهم بالكلمة والأغنية. ومثل هذا الشعر البطولي جيد كأدب وطني أصلي، ولكنه ليس من المحتمل أن يعجب الناس الخارجيين، دع عنك أن يعجب ضحايا الغزو.

إن اللغة ذات النفوذ عموماً هي أي لغة أجنبية يتم تعلمها من أجل الفائدة والميزة الثقافية. وهذا ما كانت عليه اللغات السومرية، والأكادية، والصينية، والسنسكريتية، واليونانية، واللاتينية، والعربية، والتركية، والفارسية، والإيطالية، والفرنسية، والألمانية، والإنكليزية، كلها في أيام عزها. ولكن تلك الأيام لا تدوم إلى الأبد. فلكي تكون اللغة ذات نفوذ، يجب على الناطقين الأصليين بها ـ أو على السجلات المكتوبة التي تركوها ـ أن يثيروا الإعجاب بطريقة ما، وبذلك يجتذبون مقلدين لهم(*). وهذا التأثير يعتمد على مدى التطور الثقافي للمتلقين، وكذلك على قيمة المؤلفات الأصلية. ومع نمو المتلقين في مجالات الثروة، والمعرفة، والثقة بالنفس، وبدء تميزهم، تتقلص جاذبية النموذج الأجنبي في نظرهم. ولذلك فليس عجيباً أن مفاتن ما كان متاحاً في اللاتينية واليونانية تقلصت في القرن التاسع عشر بينما كان الناطقون بالإنكليزية يجتاحون العالم كالعاصفة بابتكاراتهم التقنية وإمبراطوريتهم العالمية التي تركت الإنجازات التقليدية الكلاسيكية منعزلة في الظل بعيداً عن الأضواء. وبالمثل فإن مفاتن الفرنسية وحتى الألمانية الحديثة النمو راحت تخبو أمام الناطقين بالإنكليزية الواثقين بأنفسهم.

(*) [حسب إحصائيات المكتب الثقافي لجامعة الدول العربية فإن عدد الكتب العربية في مكتبات العالم ومتاحفه ثلاثة ملايين كتاب، لا تمثل الحضارة العربية ـ الإسلامية كلها، بل بقاياها ونتفها وأشلاءها الممزقة ـ المترجم].

ما الذي يجعل لغةً ما قابلةً للتعلم

هناك ثلاثة طرق مختلفة يتم بها تعلم اللغات.

فكل لغة أصلية يتعلمها الأطفال الصغار بلا جهد تقريباً، من أسرهم وأقاربهم الأكبر منهم سناً. ولكي يحدث ذلك، يجب أن تكون هناك بيئة مستقرة على نحو معقول، حيث يتحدث المجتمع المحيط بالطفل باللغة المعنية.

فإذا غاب ذلك، بحيث لم يكن هناك الناس المحيطون بالطفل يتشاطرون لغة مشتركة، فإن اللغة قد يمكن تعلمها رغم ذلك، ولكنها ستكون صيغة جديدة، متميزة عن جميع اللغات التي يعرفها الكبار، فهي خليط منها معادٌ تركيبه على المبادئ الأولى. وعندما تتعلم مجموعة من الأطفال مثل هذه اللغة، تظهر إلى الدنيا لهجة مهجّنة. فإذا كان المتعلمون أكبر سناً، أو بالغين يبحثون عن وسيلة مشتركة للتواصل بموجب الأمر الواقع، فإن النتيجة ستكون رطانة مبسّطة.

والإمكانية الثالثة هي دراسة اللغة وتعلمها عمداً وعن وعي، إما عن طريق التعرض اليومي لها، أو عن طريق تلقيها بتعليم رسمي، ربما في المدرسة. وهذه العملية لا تعتمد على قدرة الأهالي الأصليين المحليين على تشكيل لغة فعّالة في أذهان الأطفال الصغار، بل يمكن تنفيذها مهما كان عمر المتعلم. وفي هذه الحالة لا بد أن يكون المتعلم ناطقاً بلغة أخرى، وأن يستخدمها - صراحة وضمنياً - في اكتساب لغة جديدة.

والطريقتان الأوليان لا تعتمدان أبداً على التركيب الهيكلي للغة التي يجري تعلمها. فاللغويون عموماً متفقون أن أي لغة طبيعية، مهما كان تركيبها، يستطيع أي طفلٍ طبيعيٍ أن يتعلمها - بغض النظر عن أسلافه أو خلفية والديه اللغوية. فبعض الأصوات، أو بعض التراكيب اللغوية قد يستغرق رسوخها وقتاً أطول من غيرها، ولكن كل شيء يأتي في أوانه. وتكاد هذه الحقيقة تكون تحديداً لماهية اللغة الطبيعية. أما بالنسبة لأصل اللهجات المختلطة، فإن القضية مثيرة للخلاف والجدل. ولكن يبدو أنها كلها تميل إلى أن يكون لها تركيب مشترك، يظهر بشكل طبيعي أثناء تشكل اللغة. وإن تراكيب اللغات الرافدة، التي من أجزائها يركّب

المتعلمون اللهجةَ المختلطةَ أو الهجينة ليس له أثر على تركيب اللغة الجديدة عندما تتجمع أجزاؤها معاً.

غير أن الحالة الثالثة، الشائعة عند انتشار اللغة إلى إقليم جديد عليها، قد تكون لها عواقب مثيرة للاهتمام في مجال تعاقب اللغات المحتمل. وفي هذه الحالة، فإن متعلمي لغةٍ ما سيحتفظون في أذهانهم بشيء من الخلفية التي تشكلت من اللغة أو اللغات التي كانوا يعرفونها من قبل، أي ما يسمى "الطبقة التحتية". وهذه الطبقة التحتية قد تفرض قيداً على نوع اللغة التي يمكن بعدئذٍ تعلمها بنجاح.

ومثل هذا القيد قد يكون من نوعين. فهو قد يجعل المتعلمين يخرجون بنسخة جديدة من اللغة، متأثرة بكلامهم القديم. فالإنكليزية المحكية في الهند قد فقدت حروف علتها الطويلة النموذجية. فالكلمتان *gate* و*boat* في إنكلترا تلفظان get وbot في الهند. وبالإضافة إلى ذلك فإن إيقاع الإنكليزية الذي يوقّته تشديد النبرات قد حلّت محله الخطوة الأسهل التي توقّتها المقاطع. ولكن القيد قد يعمل بصورة جذرية أكثر كعائق يمنع المتعلمين من اكتساب أي إتقان فعال للغة الجديدة. ويمكن رؤية مثال على ذلك في الفشل الواسع النطاق لتعليم اللغة الإنكليزية في اليابان لعدة عشرات من السنين بعد الحرب العالمية الثانية، رغم الجهود الجبارة من كل الأطراف لإعطاء الجيل التالي كفاءة في هذه المهارة الجديدة.

إن فكرة احتمال وجود هذا النوع من القيد التركيبي على الأخذ بلغةٍ ما هي مثار نزاع وجدل كبيرين. ويصعب إظهارها في حالة بعينها لأن هناك دائماً عدة أسباب غير لغوية تثبط الأخذ باللغة. ولكن منظور هذا الكتاب الذي استعرض النشاط الحركي اللغوي على مدى قرون، يعطي بعض الحجج الجديدة لإظهار أن هذا القيد قد يكون عاملاً حقيقياً يحدّ من انتشار لغاتٍ معينة في مناطق معينة، أو بالأحرى بين سكان معينين.

وإذن فتأمّل إعادة التمترس الغريبة في مجال اللغة العربية، التي بدت

وكأنها تنطوي متراجعة عن أبعد حدودها في الشرق والغرب بعد حوالي ثلاثة قرون من انتشارها الأول عقب وفاة محمد (انظر الفصل الثالث: 'العربية - البلاغة والمساواة: انتصار "التسليم"'، ص 146). فلم تستقر بشكل دائم إلا في المناطق التي كانت في السابق ناطقة بلغة أفرو - آسيوية، أي لغة قريبة في تركيبها من العربية نفسها. فأولاً وقبل كل شيء، استولت العربية على كل العالم الناطق بالآرامية، في سوريا والعراق الحديثتين. فهنا كان يمكن للعربية أن تحل محل الآرامية كلمة فكلمة تقريباً. فاجتاحت بلدان شمال إفريقيا بسرعة وتغلغلت فيها بعد ذلك، حيث كانت اللغتان الدارجتان فيها هما المصرية (المعروفة الآن بالقبطية)، والبربرية، رغم أن الانتشار في هذه الحالات كان أبطأ بكثير، ولم يكن كاملاً بأي حال - على الأقل في حالة الحلول محل البربرية. أما في فارس والأندلس (إسبانيا الجنوبية) فرغم سمعتهما المبكرة كمراكز للدراسات العربية، فقد تم طرد اللغة، باستثناء بقائها في الطقوس الدينية الإسلامية. وهذه بالذات هي البلدان التي كانت فيها لغة الطبقة التحتية هندية أوروبية، وهي على التوالي الفارسية والإسبانية. ولعله ليس سهلاً على الناطقين بلغة هندية أوروبية أن يلتقطوا لغةً أفرو - آسيوية(*). وبالتأكيد، فإن ناشري اللغة الذين جاؤوا بعد ذلك، وهم الأتراك، لم يلتقطوا اللغة العربية، رغم أنهم قبلوا الدين الإسلامي، بل ونشروه في داخل أوروبا. واللغة التركية أقل شبهاً بالعربية في تركيبها حتى من اللغات الهندية الأوروبية. وقد استمر الإسلام بالانتشار في الألف الميلادي الثاني إلى داخل الشرق الأقصى، ولكنه لم يحمل معه اللغة العربية خارج المساجد أبداً.

وتأمل في النجاح المختلف للغة اليونانية في غرب آسيا ومصر، بعد غزوات الإسكندر الكاسحة بين العامين 332 - 323 ق. م. فمن حيث المبدأ، تم تحويل الإدارة في كل مكان من الآرامية إلى اليونانية، وكانت هناك مستوطنات إغريقية في كل مكان، ضمن المدن الكبرى على الأقل، ولكن الإغريقية لم تتغلغل

(*) وعلى الجانب الآخر من قطعة النقد، فعندما يتم الأخذ بمثل هذه اللغة بنجاح، ولكنها تحذف بعد ذلك بلغة هندية-أوروبية أخرى، فإن الأدلة يمكن رؤيتها مع ذلك في بقاء ملامح شديدة الغرابة لمدة ثلاثة آلاف عام. فهذا ما اقترح لتفسير التقلبات الحادة للغة الكلتية البريطانية (انظر الفصل السابع: 'الرون: البروز المندفع للكلت'، ص 411).

إلا في آسيا الصغرى، في شبه جزيرة أناضوليا الكبرى (انظر الفصل السادس: 'ملوك آسيا: انتشار الإغريقية عن طريق الحرب'، ص 348 وما يليها). وبعبارة أخرى، كانت الإغريقية أنجح ما تكون في المملكة القديمة للغة الفريجية في الوسط (وقد عرف ذلك من نصوص لها علاقة وثيقة بها) وفي مناطق اللغة الليدية وغيرها من اللغات الأناضولية، وهي ألسنة هندية ـ أوروبية تركيبها قريب الشبه بالإغريقية. ولم تكن الإغريقية ناجحة إلا في المجتمعات المزروعة بالناطقين بها كلغة أصلية أمّ، في سوريا وفلسطين ووادي الرافدين (حيث كان الناس يتكلمون الآرامية)؛ وفي مصر (حيث كان الناس يتكلمون المصرية والآرامية)، وفي فارس (حيث كان الناس يتكلمون الآرامية والفارسية). ومن أكثر الأمور مدعاة للعجب أن تركيب الإغريقية لم يتجذر في فارس، مع أن الفارسية لغة هندية ـ أوروبية مماثلة (وقد اشتهر عن اليوناني العجوز تيميستوكليس أنه تعلمها في سنة ـ انظر النص المقتبس من بلوتارخ في الصفحة 31)، ولكن ربما كانت هناك أسباب غير لغوية للسخط على لغة غريبة بشكل خاص، ومقاومتها في قلب الأراضي الداخلية لما كان إمبراطورية مستقلة قوية لأكثر من قرنين.

والمثال الثالث الذي يبدو فيه أن التركيب اللغوي كان حاسماً في احتمالات حياة اللغة هو الغياب شبه الكامل للغة المغولية من آسيا الوسطى والغربية، ومن أوروبا منذ غزوات المغول البعيدة المدى بقيادة تيمورلنك عبر إيران في القرن الرابع عشر، وقبل ذلك بقيادة جنكيز خان وخلفائه في القرن الثالث عشر. فالجحفل الذهبي الذي نهب كييف في العام 1240 كان جيشاً مغولياً، وحتى سلالة بابور، التي سيطرت على الهند من القرن السادس عشر، كانت تفرح بتسمية 'الموغال'، أي المغول أو المونغول، رغم أن لغة بابور ـ كما رأينا ـ كانت تركية. (انظر الفصل الثالث: 'الفترة الفاصلة الثالثة: التركية والفارسية، المسلمون الخارجيون'، ص 168). ولم تتعرض أي من هذه الغزوات المغولية للإبطال أو الإرجاع إلى الوراء بعد وقت قصير: فما الذي حدث لكل هؤلاء المغول الناجحين؟

كان من الملامح الأساسية للغزوات لتي قادها المغول أنها استعادت

الغزوات التركية التي سبقتها (مثل غزوات الهون والخزر). وبالإضافة إلى ذلك، فإنها تمت على أيدي فرق من المحاربين الناطقين بالتركية. وحالياً أصبحت التركية والمغولية، حتى ولو لم تكن بينهما قرابة في أصولهما، شديدتي الشبه في تراكيبهما (انظر الفصل الرابع: 'التأثيرات الشمالية'، ص 210). ولذا فقد كان من السهل جداً على الناطق بالمغولية أن يلتقط التركية، كما يقال - وكثيراً ما كان ذلك يتم بسرعة شديدة وبصورة حرفية تماماً -. ففي خارج منغوليا، كان المغول أقلية، وهكذا فإن لغتهم قد غرقت في لغة حلفائهم الأتراك.

والمثال الرابع اقترحته طالبة دارسة للاستيلاء الروماني على بلاد الغال. وقد رأينا أن هذا قد أدى إلى انتشار اللاتينية السريع والكامل بشكل عجيب ومدهش لتحل محل لغة الغال. وتقدم بريجيت باور أدلة على أن اللغتين اللاتينية والغالية كانتا شديدتي التشابه في جوانب كثيرة[10]. وهذا التشابه أتاح للغة اللاتينية أن تحل محل الغالية كلمةً فكلمة، بطريقة تشبه ما افترضناه من انتشار العربية فوق الآرامية. وعلى عكس ذلك، فإن اللغة البريطانية - التي ربما كانت ما تزال تحمل تأثير طبقة تحتية لما قبل الكلتية - كان تركيبها مختلفاً، إذ كانت قبل كل شيء لغة تأتي الأفعال فيها أولاً في بداية الجملة. فكان البريطانيون يجدون صعوبة في التعبير عن أنفسهم باللاتينية أكثر من الصعوبة التي يجدها أهل بلاد الغال. وهذه الحقيقة العنيدة هي السبب الجذري وراء كون فرنسا تتكلم اليوم لغة رومانسية، وبريطانيا العظمى لا تفعل ذلك.

وعلى وجه العموم، فإنه يبدو أنه قد تكون هناك ظروف يمكن فيها لجوهر اللغة، أي تركيبها نفسه، أن يلعب دوراً في بقاء جدواها؛ رغم حكمة اللغويين المتوارثة على مدى قرنين أو أكثر والقائلة بعكس ذلك. ونحن نقترح أن من الأسهل على سكان جدد أن يتعلموا اللغات، ومن هنا فإنها تنتشر بصورة أسهل عندما تكون تراكيبها شبيهة باللغة القديمة لأولئك السكان. وليس هناك تركيب مفضل في هذه العملية، بل مجرد شبه الجديد بالقديم. وإلا فإن تعلم لغة جديدة هو صراع لصعود تل وعر، وقد يكون أصعب من اللازم على أولئك الذين تقدموا في السن.

أوسع من الإمبراطوريات

إن كان هناك شيء أظهره هذا الكتاب، فهو أن لغات العالم ليست مخلوقات أوجدتها القوى العالمية بشكل حصري. فاللغة لا تنمو من خلال تأكيد القوة، بل من خلال إيجاد مجتمع إنساني أكبر. ومن الواضح أن القوة العسكرية أو الاقتصادية يمكن أن تعمل كعناصر قوية لإحداث النمو المجتمعي. فجيوش روما التي لا تقاوم، وطليعيو إسبانيا، وأسطول بريطانيا الملكي، لعبوا جميعاً أدواراً أساسية في توسيع نشر اللاتينية والإسبانية والإنكليزية في مناطقهم.

ولكن حالات فشل الغزو السافر والتنمية التجارية في نشر اللغة كانت أكثر من أن نتجاهلها: فالنجاح السياسي للتركية والمغولية، ولغة المانشو في فرض سيادتها على الصين الشمالية، لم يوسع انتشار هذه اللغات. كما أن الهجمات الجرمانية على الإمبراطورية الرومانية لم تزحزح اللاتينية، بل ولم تقلصها. ثم إن نجاح هولندا التجاري لمدة قرنين في جنوب شرق آسيا لم يفعل شيئاً لصالح اللغة الهولندية. ولعل الفينيقيين كتجار عالميين في حوض الأبيض المتوسط، والصغد على طول طريق الحرير، قد نشروا مع بضائعهم مهارات معرفة القراءة والكتابة، ولكنهم لم يقنعوا زبائنهم باستعمال لغتهم على نطاق أوسع.

ويظهر أن الغزو العسكري أو السيطرة التجارية لن تنشر اللغة في العادة إلا إذا جاء الغزاة بأعداد ساحقة، إما عن طريق هجرات طويلة الأمد، وإما عن طريق انهيار السكان الأصليين. وهناك بديل أقل وحشية، وهو أن يقوم الغزاة بإقناع المغزوين بالانضمام إلى حضارتهم التي من الواضح أن لديها تقدماً تقنياً أكبر وإمكانية لإغنائهم، كما فعل الرومان في بلاد الغال، والبريطانيون في الهند.

ولكن هذا مجرد جانب آخر من النقطة الأساسية المتعلقة بانتشار اللغة، وهو أنه يعتمد على نمو المجتمع. فهكذا تمكنت السنسكريتية من الانتشار في جنوب شرق آسيا لمدة ألف عام بدون غزو، وتمكنت القيشوا من الاستيلاء على الممتلكات التي كانت في حوزة الإنكا؛ وبهذه الطريقة تم الأخذ بالفرنسية في الطرف الشرقي من أوروبا من قبل النخب التابعة لقوى أجنبية أرادت ببساطة أن

تقلد أعلى ثقافة تعرفها. كما أن الآرامية انتشرت عن طريق مجتمع من الكُتّاب المزدوجي اللغة مبعثرين على نطاق واسع، وقادرين على إنشاء الرسائل المكتوبة بالآرامية وترجمتها، حتى عندما كانت المجتمعات الناطقة بها تقتلع ويعاد توطينها في جميع أنحاء الإمبراطورية الآشورية. إن هناك طرقاً أخرى، بل طرقاً أكثر فاعلية من العنف لتكبير مجتمع ما. فاللغة المشتركة هي التي تمكّن مزيداً من الناس من المشاركة فيها. وكما قال أندرسون فإن 'الشيء الأهم من غيره بكثير في مجال اللغة هو قدرتها على توليد مجتمعات متخيلة، وبالتالي بناء "حالات من التضامن الخاص". فرغم كل شيء، فإن اللغات الإمبراطورية لا تزال "لغات دارجة"، وبالتالي فهي دارجة ومتداولة بشكل خاص بين أناس كثيرين'[11].

إن كل مجتمع متميز بنهجه الخاص به. وكل مجتمع يكتسب طابعه من تقاليد ماضيه. وكثير منها أو معظمها منقولة بواسطة روايات وطقوس مشتركة بلغة المجتمع نفسها. وعلى عكس افتراض معظم الفلسفة الغربية في القرن العشرين، فإن اللغة ليست أبداً مجرد 'لغة' ببساطة: فكل لغة لها لونها الخاص بها ونكهتها. وفي هذا الكتاب، لمحنا بعض السمات المتميزة للتقاليد المختلفة، مثل نزعة الكبرياء والتقشف والمساواة في العربية، ونزعة احترام الذات الراسخة التي لا تتزعزع في الصينية والمصرية، والتصنيفات والسلاسل الهرمية الباذخة المترفة في السنسكريتية، والابتكار الواثق بالنفس والمؤدي إلى عشق الذات والتعالم في اللغة اليونانية، والإحساس المدني في اللاتينية، والجمود والتصلب والجشع والدقة في الإسبانية؛ والإعجاب بالعقلانية في الفرنسية، والإعجاب بالفطنة التجارية في الإنكليزية. وهذه الصفات المتنوعة يمكن رؤيتها أحياناً في آداب اللغات. ولكنها تبرز عند ذكر تواريخ اللغات.

وإنها لظاهرة تبدو متناقضة أن هذا الكتاب، الذي روى قصص لغات امتدت إلى أبعاد مترامية على حساب لغات أخرى في كثير من الأحيان، هو فوق كل شيء حكاية تنوع. فبعد كل شيء، فإن أنواع التطورات المروية هنا هي التي أدت إلى الأزمة الحديثة الخاصة بتعرض اللغات إلى الخطر، وهو وضع خطير إلى درجة أن من المعقول الاعتقاد أنه بالنسبة لنصف لغات العالم، فإن آخر

الناطقين بها ربما يكونون هم الناس الذين على قيد الحياة اليوم [12] [أي أنها على وشك الانقراض]. ولكن لا يزال هناك أكثر من ستة آلاف لغة في العالم، رغم أن اللغات القليلة التي سُرِدت حكاياتها في هذا الكتاب تمثل حوالي خمسي المتكلمين في العالم.

ويجدر بنا أن نتساءل إن كان تنوع الوعي والهوية المتمثل في كل لغة قادراً على البقاء، أو يجب الإبقاء عليه، في العالم الحديث. إن الثورات الصناعية والعلمية السابقة تقدم الحجة القائلة بأن هناك طريقاً فريداً موحداً للمعرفة الصحيحة الأصيلة والتنظيم الصناعي. وتتفاخر هذه الثورات بعرض منجزات تبدو سحرية لإثبات ذلك. ومع ذلك، فحتى منتصف القرن التاسع عشر على الأقل، كان تفاعل البحوث في حفنة من اللغات المختلفة هو الذي حافظ على إيقاع خطوات التقدم الفكري. وحتى في يومنا هذا، فإن المراقب الثاقب النظرة لدور الإنكليزية في العالم الحديث يستطيع أن يلاحظ أنه: 'في غضون الخمسمئة عام القادمة ... إذا كانت [الإنكليزية] هي اللغة الوحيدة الباقية عندئذ ... فستكون تلك أعظم كارثة فكرية عرفها هذا الكوكب'[13].

ولكن ينبغي أن لا تتغلب علينا التنبؤات عن وحدة وشيكة. فقد قدّمت بضعة إيحاءات نفسها كحقائق عالمية في الألفين وخمسمئة عام الماضية، ومعظمها لا تزال في الصراع. وبالمثل فإن اللغات التي استعرض هذا الكتاب تواريخها مضى عليها ضعف هذه المدة وهي تنتشر في دوائر متزايدة. ورغم كل هذه المنافسة الشديدة المنفلتة، فإنها لا تزال كلها تقريباً موجودة - هي أو خليفاتها اللاحقة - في مطلع القرن الحادي والعشرين.

إن اللغة المشتركة شيء مناسب ومريح للناطقين كي ينقلوا رسالة عبر العالم بالتأكيد، ولكنها مناسبة أيضاً للمستمعين عندما يظهر أن أحد المجتمعات اللغوية يملك أكثر من حصته العادلة من المعرفة المفيدة، ولكن برغم أسطورة برج بابل وتفسيرها العامي الدارج كحكاية تحذيرية، فإن تنوع اللغات ليس عائقاً للجنس البشري. فمعظم الناس في العالم متعددو اللغات، ويستطيع كل شخص أن يكون كذلك. فلا أحد يتم استبعاده بقوة من المجتمع اللغوي لشخص آخر إلا

عن طريق نقص الوقت أو الجهد. فاللغات المختلفة تحمي ثقافات مختلفة وتغذي نموها، حيث يمكن اكتشاف طرق مختلفة للمعرفة الإنسانية. ومن المؤكد أن اللغات تجعل الحياة أغنى للذين يعرفون أكثر من لغة واحدة.

عند تأليف هذا الكتاب، كنت أضطلع عن وعي بنهج جديد ضمن المجال اللغوي. وبدلاً من النظر إلى الوضع الحالي للغات العالم الكبرى، فإنني اتبعت النظرة التاريخية. ولكن بدلاً من مقارنة الكلمات في اللغات المختلفة بصورة منهجية، بهدف إعادة تركيب ماضيها كما يفعل اللغوي التاريخي في العادة، أو مقارنة التراكيب العامة للغات المختلفة، مثل دارس رموز اللغة، فإنني قد بحثت في المكانة المتطورة لكل لغة على مدى قرون سيرة حياتها. وحيثما جرت محاولة للمقارنة، فإنها مقارنة سِيَرِ الحياة تلك. ومثل هذا النوع من العمل قد يمكن تسميته "ديناميكية حركية اللغة"(*). إنه نهج لم يتم فيه استكشاف ينكر في السابق لفهم المجتمعات الإنسانية: وكيف أن اللغة، بكل تنوعها المتطور لا تقتصر على تنظيم العقل البشري فقط، بل وأيضاً مجموعات كبيرة من العقول الإنسانية التي تجعل من نفسها مجتمعات تتواصل وتتفاعل، وتفكر وتتصرف كذلك.

ومن وجهة النظر هذه، فإن تركيزنا على اللغات الكبيرة كان قبل كل شيء طريقة مناسبة. فكل اللغات لها تاريخها، ولكن قليلاً منها موثق بشكل كافٍ لكشف الكثير عنها. فاللغات الكبيرة والشهيرة هي بصورة نموذجية التي تملك أكبر توثيق كاف ومناسب. وهذا ما كنا نحتاج إلى البدء منه، كي نضع الخطوط الأساسية في هذا المجال الجديد. وهذا ما فعلناه. ولكن نشاط حركيات اللغة يجب أن يشمل في آخر الأمر تاريخ اللغة البشرية بكل تنوعه.

هنا السلالة التي أنجبتها الشمس، وهنا عقلي الضعيف الموهبة:
فهل أستطيع بحماقة أن أعبر المحيط المستحيل بقاربي الصغير؟

كاليداسا: خط راغو، المشهد الأول، السطر الثاني

(*) أو بشكل أوضح وأكثر تقنية 'تطور اللغويات الاجتماعية'. وهناك مثل حديث آخر مركز على إفريقيا إلى حد كبير، وهو موفين (2001).

الحواشي

مقدمة: صدام اللغات

(1) وبهذه الصفة تم تسجيلها في عدة سجلات تاريخية معاصرة تقريباً. وبالنسبة لكلمات موتيكوهزوما بلغة الناحواتل، فإنني هنا أقتبس من الموسوعة المعاصرة لحضارة الأزتيك، المعنونة: التاريخ العام لشؤون إسبانيا الجديدة (المجلد 12، ص 16) التي جمعها الأب برناردينو دي ساهاغون. وأما كلمات كورتيز بالإسبانية فهي منقولة عن رواية شاهد عيان هو الجندي برنال دياز دي كاستيلو الذي خدم تحت إمرته، والواردة في كتاب التاريخ الحقيقي لغزو إسبانيا الجديدة (الفصل 89).

1 ـ بساط ثميستوكليس

(1) سايكس (2001، الفصلان السابع والعاشر)؛ ويل وشركاه (2002). وانظر الفصل السابع: 'ضد الأخطار: مجيء الإنكليزية'، ص 437.

(2) إن آندرسون (1991) دليل جيد إلى التاريخ القصير والمشحون لتاريخ مفهوم الأمة، وإعادة نقله وزرعه للاستخدام في جميع أنحاء العالم.

(3) ساهاغون، 4: 13.

(4) كارتونين (1990: ص 291 ـ 294).

(5) استشهادات من ثلاثة ناطقين بلغة الناحواتل، مقتبسة في كتاب كنغ (1994، ص 136 ـ137).

(6) أولوس جيليوس، الليالي الإغريقية، 17:17.

2 ـ ما تتطلبه اللغة لتكون عالمية ؛ أو إنك لا تستطيع أن تخمن أبداً.

(1) مثلاً في كتاب ليبينسكي (1997: ص 46).

(2) فيرث (1964: ص 70ـ71). وهذه إعادة إصدار لأعمال نشرت في الأصل في العامين 1937 و1930.

(3) وابتفيلد (1999: ص 36).

3 ـ الصحراء تزهر: الابتكار اللغوي في الشرق الأوسط

(1) اللوح الثاني، 11: 36ـ48؛ نص من لامبرت (1960:ص 40). ترجمة: و.ج. لامبرت في كتاب بريتشارد (1969: ص 596ـ600)، مع تحوير بسيط.

(2) 11: 70ـ78؛ نص من لامبرت (1960:ص 148) ؛ ترجمة: و.ج. لامبرت في كتاب بريتشارد (1969:ص 601).

(3) ليبينسكي (1997:ص 42 ـ 44).

(4) أمثال أحيقار، العمود 14، ص 208 ـ 223؛ نص من لندنبرغ (1983: ص 209).

(5) الدليل في نظام الضمائر باللغة العيلامية، وبعض ملامح التصريف للأسماء والأفعال ؛ دياكونوف (1985: ص 3) ؛ مكالبين (1981). ولكن نسبتها لا تزال موضع جدل وخلاف.

(6) لانسل (1997 ص 437).

(7) مثل هذه المستعمرات شملت سلوقيا على نهر دجلة، وسلوقيا على نهر يولايوس ـ وهي ليست سوى سوسه، العاصمة العيلامية والفارسية السابقة ـ وآي خانوم الحديثة في أقصى شرق بكتريان، أي افغانستان الحديثة (ويزنهوفر 2001: ص 111 ـ 112).
(8) بريتشارد (1969: ص 56): نزول إينانا إلى العالم السفلي (ترجمة صاموئيل نوح كرامر).
(9) تسيريتيلي (1959 [1912]).
(10) مبسوط ومشروح في شماندت ـ بيسيرات (1997).
(11) هالو (1974: ص 185 ـ 186)؛ والترنيمة لإينانا مترجمة في كتاب بريتشارد (1969: ص 579 ـ 582).
(12) بريتشارد (1969، ص 496): واغنية الحب إلى ملك (ترجمة صاموئيل نوح كرامر)، مع تحوير طفيف.
(13) بريتشارد (1969: ص 652): وا ـ آوا، تهويدة سومرية لتنويم الاطفال (ترجمة صاموئيل نوح كرامر، مع تحوير طفيف. <www.etcsl.Orient.ox.ac.uk:/section2/c24214.htm>
(14) طومسن (1984: ص 293 ـ 294) مقتبس من محضر جلسة الجمعية الفلسفية الأمريكية 107 (4)، ص 1ـ12؛ (ترجمة صاموئيل نوح كرامر)، مع تحوير طفيف.
(15) بريتشارد (1969: ص 651): لعنة آغاد، ص 279 ـ 281 (ترجمة صاموئيل نوح كرامر). <www.etcsl.orient.ox.ac.uK:/section2/tr 215.htm>
(16) مكالبين (1981: ص 60).
(17) مالبران ـ لابات (1996، ص 56).
(18) ويزيهوفر (2001: ص 10).
(19) دياكونوف (1985: ص 24).
(20) هالو (1974: ص 184).
(21) كرامر (1979: ص 39).
(22) هذا تحليل مالبران ـ لابات 1996).
(23) روكس (1992: ص 276).
(24) سُويَرْ (1999: ص 14).
(25) أويد (1979)؛ أوديد، مقتبس في غاريلي (1982: ص 438) وروكس (1992: ص 308).
(26) بريتشارد (1969: ص 284): من عرض نصوص من معرض عاصمة سرجون الثاني، خورساباد (دور شاروكين).
(27) تدمر (1982: ص 451).
(28) يزعم باربولا (1999) ان ذلك كان متعمداً تماماً: 'إن فرض اللغة الآرامية على آشور كان سياسة محسوبة تهدف إلى خلق وحدة وطنية وهوية من نوع لم يكن من الممكن تحقيقه لو أن الامبراطورية بقيت تجمعاً فضفاضاً لعدة أمم ولغات مختلفة'.
(29) غاريلي (1982: ص 442).
(30) كوفمان (1997: ص 114 ـ 115).
(31) ديتريخ (1967، ص 87 ـ 90).
(32) المصدر السابق: ص 90، مستشهداً بديتريخ (1979: البند 10).
(33) كوفمان (1974: ص 165 ـ 170). ويلاحظ باربولا غلطة للقلم في نسخة مكتبة آشور بانيبال من ملحمة جيلغامش (من منتصف القرن السابع ق.م) وهي غلطة لابد أن مرتكبها كان ناطقاً بالآرامية: فقد وضع الرمز المنقوش لكلمة 'السيد' (مارا بالآرامية) مكان كلمة 'الابن' (مارا بالاكادية).
(34) بريتشارد (1969: ص 317): الوثائق التاريخية 5،، أنطيوخوس سوتر (ترجمة ف.هـ. ويزباخ).
(35) المصدر السابق، ص 136: اشعار عن بعل وآنات fc (ترجمة هـ.ل. جينسبرغ).
(36) سفر التكوين: الإصحاح السابع والعشرون، 28 و39. وانظر أيضاً غوردن (1971: ص 122).
(37) سفر حزقيال: الإصحاح السابع والعشرون، 3 ـ 11، 25 ـ 26، 32.

(38) لانسل (1997، ص 357) ؛ كريب وشركاه (1999: ص 225، 227).
(39) اوغسطين: الرسائل، 17: 2 (رسالة إلى ماكسيموس مادوروس).
(40) بليني: التاريخ الطبيعي، 18: 22.
(41) مانو: بريبلوس (القوانين الملكية الإغريقية 398، الملفان 55r و56r).
(42) اوغسطين، المواعظ: 167: 4.
(43) بلوتوس، قصيدة بوينولوس ، الابيات 930 ـ 1028.
(44) المصدر السابق، الابيات 1002 ـ 1012، والترجمات من اللغة البونية تتبع زنيسر (1967: ص 141 ـ 143).
(45) ليفي، 28: 46، 16.
(46) كوفمان (1997: ص 115).
(47) غرينفيلد (1985: ص 708) ؛ بلوتسكي (1971).
(48) ثيوسيديديس، المجلد الرابع، ص 50.
(49) سفر دانيال، الإصحاح الاول، 4.
(50) ليمير ولوزاكميور (1996: في أماكن كثيرة).
(51) غرينفيلد (1985، ص 701، الحاشية رقم 2).
(52) بريتشارد (1969: ص 428): أمثال احيقار (ترجمة هـ.ل. جينسبرغ).
(53) المصدر السابق، ص 491: رسائل اليهود في إيليفانتاين (ترجمة هـ.ل.جينسبرغ).
(54) شلومبرغر وشركاؤه (1958).
(55) هينينغ (1949).
(56) هناك لوح لعنةٍ من القرن الرابع ق.م. اكتُشف مؤخراً في العاصمة المقدونية بيلا، يشير إلى أنها كانت نوعاً من اللهجة اليونانية، من النمط الشمالي الغربي (فوتيراس 1994).
(57) بروك (1989، ص 19).
(58) سايكي (1937).
(59) إن استخدامهم المتناقض للإنكليزية لحماية استخدام اللغة الالمانية موصوف في كتاب جونسون ـ واينر (1999).
(60) موصوف من وجهة نظر متعلم ويلزي من قبل بام بترو (بترو 1997: ص 259 ـ 319).
(61) حديث يوجد نزاع على صحته: التبريزي (1985: ورقمه 6006).
(62) محاولة مذكورة في ميقويل (1968) وبلانهول (1968).
(63) القرآن: سورة العلق (رقم 96) الآيتان 1 ـ 2. إن كلمة 'العلق' في أصلها الساميّ يبدو أنها تحمل أيضاً فكرة العلوق أو التعلق.
(64) برودل (1993: ص 72) اقتباس من المؤرخ العربي البلاذري.
(65) لويس (1995: ص 184 ـ 186).
(66) فراي (1993، ص 99).
(67) المصدر السابق، ص 123.
(68) نفسه، ص 169.
(69) نفسه، ص 113.
(70) نفسه، ص 169.
(71) غيتشارد (2000، ص 143) اقتباس من جان ـ بيير مولينات.
(72) كورينت (1992: ص 34).
(73) هدادو (1993: ص 87).
(74) ابن خلدون، اقتباس في كتاب إيلنغهام وشركائه (2001: ص 552) ؛ وقد كتب هذا المؤرخ الذي عاش في

القرن الثالث عشر تاريخاً للبربر أيضاً.

(75) ابن خلدون، المقدمة، اقتباس في آرمسترونغ (2000: ص 90).
(76) شو (1976: ص 5).
(77) شوف (1912).
(78) حوراني (1995: ص 92 ـ 97).
(79) دالبي (1998: ص 591 ـ 595).
(80) كلوسون (2002: ص 50، 183).
(81) عبد الغني (1929).
(82) مانغو (1999: ص 496).
(83) خولافي (1979، المجلد الثاني، ص 37).
(84) برودل (1993: ص 45).
(85) المصدر السابق، ص 112.
(86) نفسه، ص 41 ـ 42.

4 ـ انتصارات الخصوبة: المصرية والصينية

(1) ترجمة ليختايم (1973: ص 52).
(2) ترجمة سوتهيل (1910: ص 73 ـ 74).
(3) بريتشارد (1969: ص 415).
(4) إيرمان (1894، ص 544).
(5) المصدر السابق نفسه، ص 106.
(6) نفسه، ص 244.
(7) لوحظ من قبل لوبرينو (1995: ص 71).
(8) موران (1992، ص xx ـ xxi.
(9) باكيليديز (1961: ص 14 ـ 16)، المقطع 20ب ؛ وكذلك أوكسيرينكوس بابيروس 1361.
(10) غرينفيلد (1985: ص 701، الحاشية رقم 2).
(11) انظر لوبرينو (1995).
(12) جونسون (1999: ص 177) ؛ دودسون (2001، ص 90، 92).
(13) حسبما يقول المؤرخ العربي القاهري المقريزي (1365 ـ 1442)، كما هو مذكور في كتاب ليبينسكي (1997: ص 29).
(14) من قبل مكتب المترجمين في أواخر أيام الإمبراطورية: رمزي (1987: ص 32).
(15) بازين (1948).
(16) رمزي (1987: ص 102 ـ 103، 139 ـ 140، 236 ـ 237). وعلى وجه الدقة فإن لغة كانتون فيها تسع نغمات، بعد إضافة انشقاق آخر.
(17) يجادل هاشيموتو (1986) بشكل مفرط قليلاً في اليأس بان الصينية اكتسبت طابع آلطاي في الشمال، ولكن دليله محصور في حالات الاختلاط الهجينة المؤقتة للغة في بيجينغ، ولهجة منحرفة معاصرة في كنغهاي، حيث يحتمل أن الناطقين كانوا مزدوجي اللغة مع التيبتية.
(18) نورمان (1988: ص 20).
(19) وانغ (1992: ص 11).
(20) هول (1981: ص 212).
(21) كوديز (1968: ص 37). انظر الفصل الخامس: 'السنسكريتية في جنوب شرق آسيا'، ص 292.
(22) وانغ (1992: ص 16).

(23) غروسيه (1970: ص 66).
(24) موت (1999: ص 25، 980).
(25) الأرقام الخاصة بمصر مستمدة من دولينجر (2002)، والخاصة بالصين من باركلاف (1978: ص 80، 127). ويقترح ماكيفدي وجونز رقماً أقل لمصر في الأيام الرومانية، وهو 5 ملايين. وهما ببساطة يرفضان تقدير ديودوروس الصقلي (1ـ31) الذي يعطي 7 ملايين لمصر في العام 300 ق.م. باعتباره 'أعلى من اللازم'. وأما بالنسبة للصين فهما يشيران إلى أن أرقام الإحصاء السكاني للسنة 2م. هي في الحقيقة 11.8 مليون أسرة. ويقدران أن سكان الصين عندئذ ظلوا قريبين من 50 مليوناً حتى بداية الألف الميلادي الثاني، عندما بدؤوا يتزايدون مع الحضارة العظمى للرز في وادي يانغتسي حتى وصلوا إلى 115 مليوناً في العام 1200م. ثم عادوا إلى التناقص في الفترة المغولية، فلم يتعافوا منها حتى العام 1500. ولا شيء من هذا كله يؤثر على النقطة العامة الخاصة بكثافة سكان مصر والصين العالية بشكل استثنائي في العالم ما قبل الحديث.
(26) الأرقام مستمدة من راسل (1958).
(27) بريتشارد (1969: ص 415).
(28) آرنيت (1982: ص 45 ـ 47).
(29) ساليير 2، 9، 1= آناستاسي بابيري 7،4،6، مقتبس في كتاب إيرمان (1894: ص 328).
(30) آناستاسي بابيري 8،10،5 ومايليها، مقتبس في إيرمان (1894: ص 328).
(31) رمزي (1987: ص 121ـ123). انظر الفصل الخامس، ص 300.
(32) نورمان (1988: ص 257 ـ 263).
(33) ويلكينسون (2000: ص 735).
(34) مجلة الإيكونوميست، 9 آذار/مارس 1996، ص 4، مقتبسة في غرادول (1997: ص 37).
(35) كارلغرن (1954). والمبادئ موضوعة بشكل موجز ومحكم في كتاب نورمان (1988: ص 34 ـ 42).
(36) بريتشارد (1969: ص 440).
(37) ويلكينسون (2000، ص 723).
(38) ترجمة موت (1999: ص 156)، من لين تيانوي (1977).
(39) غاو (1991: ص 145).
(40) رمزي (1987: ص 224).

5 ـ شيء جذاب كنبات معترش: المستقبل الثقافي للسنسكريتية

(1) ريغ فيدا، 7: 103.
(2) المصدر السابق، 10: 34.
(3) مهابهاسيا، 1:1.
(4) اوجا، بهاراتيا براسينا ليبي مالا، 14، رقم 6، منسوبة إلى كاناكيا ـ نيتي.
(5) قيصر، بلاد الغال الجميلة، 6: 14.
(6) مارتن بريكتيل، اتصال شخصي.
(7) افلاطون، فيدروس 275A.
(8) مهابهاراتا، مقتبسة من قبل كيسافان (1992: ص 3).
(9) بروف (1968: ص 31).
(10) دشباند (1993: ص 24) نقلاً عن المهابهاسيا 1: ص 2.
(11) باتانجالي، مهابهاسيا ، عن بانيني 3:4: 109، ترجمة دشباند (1993: ص 62).
(12) مانو، المجلد الثاني، ص 18 ـ 22.
(13) دشباند (1993: ص 86).

(14) المصدر السابق، ص 16؛ راجاشيكارا كافياميمامسا، 4.
(15) سترابو 15: 1: 21.
(16) المصدر السابق، 15: 1: 64.
(17) ميليندابانها، 1: 9.
(18) فو- كوو- كي، ص xxxv (في بيل 1884، ص 1xxi).
(19) المصدر السابق (في بيل 1884؛ الجزء الاول، ص 1xxix).
(20) نفسه، ص 1× (في بيل 1884؛ الجزء الأول، ص 1xxxiii.
(21) كوديز (1968: ص 81 ـ 82).
(22) سي ـ يو ـ كي 9:2 (في بيل 1884، الجزء الأول، ص 77 ـ 78).
(23) جيدواني (1994).
(24) ريغ فيدا، 7:20:2.
(25) تشاترجي (1966: ص 78).
(26) سي ـ يو ـ كي 10: 9 ـ 11 (في بيل 1884: الجزء الثاني، ص 204 ـ 208).
(27) بانياكاتانترا، V: 31.
(28) كيث تايلور، في كتاب تارلينغ (1999: ص 195).
(29) كامارا وبودوكي وسوباتما، 'الكذب في الخصومة' اقتباس في كتاب باريبلوس على بحر إيرثرايا الذي يعود إلى القرن الاول الميلادي (الفصل 20). والاثنان الأولان منها يفترض أنهما عن دلتا نهر كافيري، وعند بودوتشري (المعروفة أفضل باسم بونديتشري).
(30) يول وبرونيل (1986: ص 456): 'إنها مقولة بلغة غوجيرات ـ "من يذهب إلى جاوه لا يعود أبداً. فإذا عاد بالصدفة فإنه يجلب معه أموالاً يعيش عليها لمدة جيلين ..."' راس مالا، 2: 82 (طبعة عام 1878: ص 418).
(31) ماجومدار (1975: ص 21).
(32) كوديز (1968: ص 26 ـ 27، 36، 275).
(33) المصدر السابق، ص 37، 276.
(34) ماجومدار (1975: ص 13).
(35) المصدر السابق، ص 19 ـ 20.
(36) نفسه، ص 48.
(37) مهابهاراتا، آرانياكابارفا، 173؛ ماجومدار (1975: ص 25 ـ 27).
(38) كوديز (1968: ص 369).
(39) فو ـ كوو ـ كي 1 × (في بيل 1884؛ الجزء 1، ص xxxi 1).
(40) كوديز (1968: ص 17): بيشيرت وغومبريتش (1984: ص 147).
(41) رمزي (1987: ص 121 ـ 124).
(42) فيما يخص تفاصيل النص التبتي وأصله، اعتمدت على بِييَرْ (1992: ص 40 ـ 50).
(43) هناك بعض الأدلة على أن التبتيين كانوا يعرفون الكتابة في وقت أبكر من هذا، وهناك حوليات تاريخية معاصرة من الفترة من العام 650 إلى العام 747، وعن سنة 655 نجد ما يلي: 'أقام الملك في مير ـ خي، وقام رئيس الوزراء ستون ـ تسان بكتابة نص أوامره إلى نغور ـ تي'. وفي الحقيقة فإن مقدمة النص منسوبة بشكل تقليدي (أي في تاريخ من القرن الرابع عشر) إلى كاتب تبتي ووزير في الحكومة يدعى ثون ـ مي آنوي ـ بو، الذي يقال بأنه أُرسل في مهمة إلى الهند في منتصف القرن السابع. ولكن ثون ـ مي هذا قد يكون شخصيةً مخترعة، إذ إنه محذوف من السجلات القديمة الأصيلة للتبيت التي تم العثور عليها في آسيا الوسطى، بينما تنسب إليه أيضاً أقدم المؤلفات عن القواعد النحوية للغة التيبتية.
(44) بِييَرْ (1992: ص 36 ـ 37).

(45) حسب التخمين الوارد عند فان ليور (1955: ص 113)، ومناقش في كتاب هول (1981: ص 231 ـ 233).
(46) باشام (1967: ص 491).
(47) رانغاراجان (1992: ص 18 ـ 21).
(48) سي ـ يو ـ كي، ix (في بيل 1884: الجزء الثاني، ص 171ـ172).

6 ـ ثلاثة آلاف عام من الأنانة ـ مغامرات اللغة الإغريقية

(1) حكومة الأقلية القديمة، الدستور الأثيني.
(2) هيرودوتس، viii: 144 (مقتبس في ترويسة هذا الفصل)،
(3) المصدر السابق، iv: 183ـ184. وقد عاشوا على ساحل البحر الأحمر، حسبما يقول سترابو xvii، 1:2.
(4) أسخيلوس، أغاممنون، 1050ـ1051.
(5) ثوسيديديس ii، ص 35 ـ 46.
(6) المصدر السابق، ii: ص 41.
(7) ميناندر، المقطوعة 72، من تحرير كوك.
(8) هيراقليطس، المقطوعة 119.
(9) آريسطوفان، الفرسان ، 1169.
(10) هسيود، أصناف النساء (طبعة لُويْب، المقطوعة 4).
(11) ثوسيديديس iii: 38، 4.
(12) باك (1955: ص 10 ـ 14).
(13) سترابو vi: 1:2.
(14) سيغس 30: 1664و 20: 326 (نص بوذي آرامي ـ يوناني)، شلومبرغر وشركاؤه (1958). انظر الفصل الخامس: 'شخصية اللغة السنسكريتية'، ص 269، والفصل الثالث: 'الآرامية ـ أغنية الصحراء: تداخل لغات آسيا الغربية'، ص 134.
(15) سالومون (1998: ص 265ـ267). فكلمة هليودوروس تخرج مثل هليودورا، ولكن أنطيالكيداس تخرج مثل أمطاليكيتا، وذلك حسب تقليد آسوكا إلى حد كبير، فهي تحتوي على حالات حث على الفضيلة البوذية بلا مبرر. انظر الفصل الخامس: 'آراء أشخاص خارجيين'، ص 277.
(16) غيرشمان (1954: ص 229ـ230).
(17) مانغو (1980: الفصل الأول).
(18) بلوتارخ، مارك أنطوني .xxvii
(19) كتاب كمبريدج للتاريخ القديم، المجلد السابع، 1[2]، ص 180.
(20) درو۔ بير وشركاؤه (1999).
(21) سترابو، iv: 1: 5.
(22) بلوتوس، إبيديكوس، iii: 3: 29.
(23) بوليبيوس، التواريخ، iii: 59.
(24) فيرجيل، الإينياد ، vi الأبيات 847ـ853.
(25) في قاموس سكتوس بومبونيوس فستوس من أواخر القرن الثاني الميلادي. والكلمة شائعة في بلوتوس، أعظم مكيّف للمسرحيات اليونانية للمستمعين الرومان في القرن الثاني الميلادي.
(26) سويَرْ (1999: ص 37).
(27) المصدر السابق، ص 35.
(28) المصدر سوفسطائي من آثينا هو فيلوستراتوس، الذي ألف كتاب حياة أبولونيوس من تيانا، بتكليف من زوجة الإمبراطور الروماني سيبتميوس سيفيروس عند نهاية القرن الثاني الميلادي. وهو عمل من أعمال

الأدب الإيماني، ولذا فإن دقته صارت موضع شك؛ ولكن وودكوك (1966: ص 130) يجادل بأن الآثار تظهر أن المؤلف كان جيد الاطلاع على تفاصيل هذه الأرض البعيدة عن روما المعاصرة وحوض الأبيض المتوسط.

(29) ويزيهوفر (2001: ص 122).
(30) المصدر السابق، ص 155.
(31) يوميات رحلة آثيرياي (تحرير هـ. بيتر، باريس 1948) xlvii 3-4 (مقتبس في كتاب مانغو 1980: ص 19).
(32) مانغو (1980: ص 25).
(33) دي ثيماتيبوس، مقدمة، طبعة برتوسي، 1952، مقتبس في كتاب موروكس (1997: ص 150).
(34) بروكوبيوس، التاريخ السري، xviii ص 20 ـ 21.
(35) الجزء الثالث من التاريخ الكنسي لجون أسقف إفيسوس، ترجمة ر. باين سميث (أكسفورد، 1860)، ص 423 ـ 424 (مقتبس في مانغو، 1980: ص24).
(36) ب. ليميرل، وقائع غير مدونة من مونمفازيا، منشورة في مجلة الدراسات البيزنطية ، المجلد 21 (1963)، ص 9 ـ 10 (مقتبس في مانغو 1980: ص 24). والكفيريون ربما كانوا معتنقين للإسلام. والثراسيون لم يكونوا من ثراسيا، ولكن من الموضوع التراسيسي في غرب الأناضول.
(37) ليو السادس، "التكتيك" في كتاب باترولوجيا غريقا، تحرير ج.ب. مين، cvii، 969A (مقتبس في مانغو 1980: ص 28).

7 ـ الصراع على أوروبا: الكلت، والرومان، والألمان، والسلاف

(1) هيرودوتس، 33.ii، iv 49. إن السينتيين، المعروفين أيضاً باسم السينيسان، ربما كان موقعهم الصحيح وراء أعمدة هرقل تماماً. لأن هذه المنطقة، وهي ألغريف الحديثة يسميها سترابو iii: 1: 4 'كونيوس' ـ رغم أنه كان يعتقد أن اسمها هذا لاتيني مأخوذ من شكلها الذي يشبه الإسفين.
(2) جاكوبي (1923: العدد 70، المقطوعة 30).
(3) سترابو vii: 3: 8؛ آريان 1:4: 6 ـ 8.
(4) كتاب لينستر، التنقيح الثاني، 11: 4733 ـ 4736، ترجمة سيسيل أو راهيلي.
(5) قيصر: بلاد الغال الجميلة 1:1.
(6) ديودورس الصقلي، المجلد 5، ص 29 ـ 31.
(7) سترابو vii: 1: 2.
(8) ارسطو، المقطوعة 610؛ كتاب السياسة vii: 10.
(9) بليني iii: 57، نقلاً عن كليتاركوس، الذي كان هناك. أما آريان vii: 15: 5 ـ 6 فيميل إلى إهمال ذلك 'باعتبار أنه لم يكن هناك شعب آخر تسيطر عليه كراهية الاستبداد واسم الاستبداد نفسه مثل الرومان'.
(10) بوليبيوس، التواريخ ، 1:1: 5.
(11) المصدر السابق، vi: 52.
(12) نفسه، vi: 56.
(13) سترابو vi: 1: 2.
(14) بليني، التاريخ الطبيعي، 29: 1: 7، الحاشية 14.
(15) جوفينال vi: 455.
(16) أولوس جيليوس، الليالي الإغريقية، 17:17.
(17) سترابو V: 3: 6.
(18) كان تاسيتوس على حق في تصنيفه للفينيتي والفنّي على أنهم ليسوا من الألمان ولا من الصرماتيين (الذين كانوا بدواً فارسيين، قريبين من السكيثيين). ولكنه يتابع فيشبّه البيوسيين بالباستارنيين،

المعروفين بأنهم كانوا من الجرمان (سترابو 3:vii :17).

(19) تاسيتوس، جرمانيا، xlvi.
(20) بطليموس، الجغرافيا، 5:3.
(21) سترابو vii :3 :2، vii :5 :2.
(22) لامبرت (1997: ص 123). وقد عثر على هذين الاثنين في منطقتي نيفر وأوتون في فرنسا. والأعداد الترتيبية لفرن الطيان في لاغروفنيسك على الصفحة 131.
(23) بوليبيوس، التواريخ، 17:ii؛ ليفي: v 34. قارن مع كنليف (1997: ص 71).
(24) مارشيال: الحكم المختصرة، 60:iv :8.
(25) ليهمان (1987: ص 76 وما يليها).
(26) إيزيدور: أصول الكلمات، xiv : 6:6
(27) أفينوس، السواحل البحرية، 2 :108 - 116
(28) المصدر السابق، 2 :98 - 99
(29) كنليف (1997، الفصل الثامن) ؛ كنليف (2001، وخاصة الفصل السابع).
(30) مذكورة بتفصيل دقيق، ومقارنة عالمياً في جينسلر (1993).
(31) بوليبيوس، التواريخ، ii، 17.
(32) مذكور في كاري (1954: ص 180).
(33) جيلداس، هجرة البريطانيين، ص: 6.
(34) تاسيتوس، الحوارات الخطابية، x، 1 ـ 2.
(35) إيرنايوس، ضد الهرطقة، 1، المقدمة.
(36) دوميتيوس اولبيانوس، دايجست 1:xxxi :11.
(37) صيدونيوس أبوليناريس، الرسائل الإنجيلية، iii :3.
(38) بلوتارخ، ماريوس، النهاية.
(39) تاسيتوس، اغريكولا . xxi
(40) جوفينال، القصائد الساخرة، xv، ص 110 ـ 112.
(41) جاكسون (1994 [1953]: ص 107 ـ 110) ؛ سميث (1983).
(42) طوملين (1987).
(43) مينانديز بيدال (1968: ص 19).
(44) هاريس (1989: ص 315 ـ 316).
(45) أوغسطين، العقيدة المسيحية، المقدمة 4.
(46) سيزاريوس آريلاتنسيس، المواعظ vi: 1ـ2؛ 1:viii.
(47) كان يوترويبيوس قد كتب في القرن الرابع: 'بعد أن غزا تراجان داسيا، نقل إليها أعداداً غير محدودة من الناس من جميع أنحاء العالم الروماني للاهتمام بالحقول وبالمدن'. *Breviarium ab urbe condita*, *viii.6*.
(48) بورسيز (1967: ص 30، 135 ـ 137).
(49) الأدلة مسوقة بانتظام في كيز (1999: الفصول 13ـ16).
(50) ويل وشركاؤه، (2002).
(51) حسابات تيرينس كوفمان، باستخدام قائمة سواديش القياسية ذات المئتي كلمة الأساسية ومعانيها. طوماسون وكوفمان (1988: ص 365).

8 ـ الموت الأول للاتينية

(1) نصوص تاريخية ألمانية هامة، 1:1 :31 :14.

(2) هذا مستشهد به في رايت (1982: ص 109) كما في مكتبة فينا للمراجع الوطنية 795. وقد اتبعتُ مين (الذي يستشهد به رايت أيضاً) في تصحيح كلمة *sene* لتصبح *sine*.

(3) إنني أذكر هنا كحقيقة بسيطة مقولةً أسسها روجر رايت بجهد توثيقي كبير منذ العام 1982. والبديل سيكون هو الافتراض بأن اللفظ اللاتيني قد بقي ثابتاً طيلة القرون الأربعة الماضية، بدون أي تحريض خاص أو تعليم. وإن التجربة في إنكلترا منذ التحول العظيم في لفظ حروف العلة (في القرنين الخامس عشر والسادس عشر) تظهر أن الباحثين في لغة مكتوبة متميزة تماماً عن لغتهم لا يجهدون أنفسهم في إبقاء نظامها الصوتي منفصلاً عن النظام الذي يستخدمونه في لغتهم اليومية، فلا يفعلون ذلك بدون تحريض كبير وفير ومنازعات.

(4) *De dissensionbus filiorum Ludovici pii, iii,* الفصل الخامس، يرجعه ستودر ووترز (1924: ص 24) إلى الأعوام 841 ـ 843. والنص هناك مقتبس بكامله للاستشهاد به.

(5) رايت (1982: ص 124).

(6) مقتبس في كتاب رايت، ص 120، 122 من أحداث المانية تاريخية هامة، iii: 2: 1.

(7) مينانديز بيدال (1972: ص 24 ـ 25) ؛ مقتبس ايضاً في كتاب رايت (1982: ص 173).

(8) دانتي، بلاغة العامية الدارجة، 1:9 :8 11.

(9) دانتي، المأدبة 1: 2: 9.

الباب الثالث: اللغات في البحر

(1) محاورات بالإنكليزية والملايوية: أو اشكال معينة شائعة من الكلام، مكتوبة أولاً باللاتينية، والملايوية، والمدغشقرية عن طريق الجهد المثابر والمؤلم للسيد غوتاردوس آرثوسيوس، الباحث في أعمال دانتي، ومترجمة الآن بإخلاص إلى اللسان الإنكليزي من قبل أوغسطين سبولدنغ ميرتشانت، الذي سوف يسعده بعد ذلك أن يضطلع برحلة إلى جزر الهند الشرقية. طبعت في لندن من قبل فيلكس كنغستون، لصالح وليام وِلْبي، وسوف تباع في دكانه في باحة كنيسة بولص، عند علامة البجعة، 1614.

9 ـ الموت الثاني للاتينية

(2) رينولدز وويلسون (1968: ص 120).

(3) فيفر ومارتن (1976: ص 248 ـ 249).

(4) المصدر السابق، ص 289 ـ 295.

(5) اندرسون (1991: ص 39ـ 41).

10 ـ مغتصبو العظمة: الإسبانية في العالم الجديد

(1) هيرودوتس، iv: 106؛ سترابو، iv: 5: 4.

(2) كورتيز، رسالتان تتعلقان بغزو المكسيك، الرسالة الثانية (1982، مدريد: إسباسا كالب، الطبعة السابعة، ص 50).

(3) جوزيف دي آكوستا ، التاريخ الطبيعي والأخلاقي لجزر الهند الغربية، المجلد الاول، ص 160 (مقتبس في كروسبي 1972: ص 38).

(4) دي لاس كاساس (1957 [حوالي 1530]، i :46 : 163 وعند وصف هذا العمل بعد ذلك بخمسين عاماً، وجده دي لاس كاساس عملاً لا يغتفر، لأنه يرقى إلى الخطف.

(5) مثلاً في كتاب روزنبلات (1964: ص 192 ـ 193).

(6) إنكا غارسيلاسو، حسب رأي غوميز (1995: ص 82).
(7) إنكا غارسيلاسو، حسب رأي آبوت (1996: ص 685).
(8) الامر الملكي 20و29 آذار / مارس 1503، إلى نيقولاس أوفاندو في: مجموعة وثائق لم تنشر من أرشيف جزر الهند الغربية، xxxi، ص 163 ـ 164.
(9) إن هذا موصوف، على سبيل المثال، في آلفار (2000).
(10) هناك قائمة من القادة والكتاب البارزين من ذوي الأعراق الهجينة المختلطة، ولا سيما من المؤرخين، في كتاب روزنبلات (1964: ص 211).
(11) إن كلمات الأب بلاس فاليرا يقتبسها إنكا غارسيلاسو في تعليقات ملكية، القسم الاول، vii: 3.
(12) من آبوت (1996: ص 91).
(13) كلمات الأب بلاس فاليرا، مقتبسة من قبل إنكا غارسيلاسو في تعليقات ملكية، القسم الأول، 3.:vii
(14) يقول ريكارد (1933[1966]: ص 23) انه في العام 1559 كان في المكسيك 380 راهباً فرانسيسكانياً و210 رهبان دومينيكانيين و212 راهباً أوغسطينياً. وكانوا منتشرين بشكل خفيف. فكان معدل عدد الموظفين الدينيين خمسة في كل دير. روزنبلات (1964: ص 210) يقدر عدد سكان المكسيك آنذاك بـ4.5 ملايين، منهم 6,464 رب عائلة إسباني.
(15) وتبعت ذلك لاباز (في بوليفيا) في العام 1610، وغواتيمالا في العام 1660. غير أن العواصم الكبرى الأخرى في الأمريكتين لم تبدأ بإنتاج الكتب المطبوعة حتى القرن الثامن عشر، مثل بوغوتا في العام 1737، وبونس آيريس في العام 1780 (كيليس 1992: ص 46 ـ 47). وهكذا فبالنسبة للغة تشيبتشا، رغم انها شكلت اللغة العامة رسمياً في غرناطة الجديدة (نيوغرانادا) فإن أول كتاب قواعد موجود لهذه اللغة اضطروا إلى طبعه في مدريد في العام 1619. فكانت هذه مشكلة خطيرة لمثل هذه المطبوعات التقنية بلغات أجنبية، لان المؤلف، المقيم على بعد محيط كامل من المطبعة لن يستطيع تصحيح الأخطاء المطبعية في المسودات. وبالطبع فإن المتعلمين قد تضللهم تلك الاخطاء.
(16) فينيازا (1892). ويمكن مقارنة هذه الأشياء بتقدير معهد الصيف للدراسات اللغوية لعدد اللغات المتميزة في الامريكتين وهو 888، منها 408 لغات في أمريكا الجنوبية (هارمون 1995: ص 26 ـ 27).
(17) روزنبلات (1964: ص 191).
(18) شيرزر (1993: ص 251).
(19) لارا (1989: ص 99).
(20) يذكر لارا (1971: ص 14) مجموعة من المخطوطات بقلم بدرو آباريسيو من العام 1540 (فن، ومفردات، ومواعظ ... إلخ بلغة القيشوا)، وهو يلاحظ انه في كتاب العلاقات القنصلية في ليما المطبوع في العام 1551 أن اللغة يشار إليها بانها القيشوا، اللغة العامة في بيرو.
(21) سيرون ـ بالومينو (1987: ص 35). ويجد تاكيداً لذلك في كلمات المؤرخين بدرو سيزا دي ليون (سيادة شعب الإنكا، 1550)، xxiv : 119، وبرنابي كوبو (تاريخ العالم الجديد، 1653)، xiv: 1: 235.
(22) في هذه الرواية، أنا أتبع هاردمان (1985) وهي مؤلفة تجعلها تجربة حياتها الطويلة في المنطقة دليلاً أفضل من معظم الأدلاء إلى هذه المنطقة المعتمة والمعقدة من التاريخ السابق لمجيء الإسبان. ومما يدعو إلى الاطمئنان أن سيرون ـ بالومينو (1987: ص 348) يؤيد أيضاً الأصل الساحلي للغة القيشوا. ويأتي إلهامهما الكبير من ألفريدو توريرو (كما في كتابه المنشور في العام 1974 مثلاً).
(23) كلمات الأب بلاس فاليرا، مقتبسة من قبل إنكا غارسيلاسو، التعليقات الملكية، القسم الأول، vii: 3.
(24) المصدر السابق، vii: 2.
(25) تريانا إي آنتورفيزا (1987: ص 157).
(26) سيزا دي ليون، ص 296، مقتبساً في كتاب تريانا إي آنتورفيزا (1987: ص 157).
(27) من كادوغان (1959)، مقتبساً في كتاب فانايا (1986: ص 42).
(28) من غودوي (1982)، مقتبساً في كتاب فانايا (1986: ص 51).

(29) فانايا (1986: ص 6_7).
(30) فن القواعد الوفيرة في لغة الأيمارا، الأب لودوفيكو برتونيو اليسوعي (روما، 1603) ؛ قواعد اللغة العامة للمملكة الجديدة، بلهجة موسكا، الأب فراي برناردو دي لوغو الدومينكاني (مدريد 1619) ؛ فن لغة الغواراني ومفرداتها، الأب انطونيو رويز اليسوعي (مدريد 1640).
(31) كويفاس (1914: ص 159).
(32) مجموعة مونيوز، المجلد 86، الملف V 54.
(33) كلمات الأب بلاس فاليرا، مقتبسة من قبل إنكا غارسيلاسو، التعليقات الملكية، القسم الأول : vii: 3.
(34) كويليس (1992: ص 64) ؛ روزنبلات (1964: ص 194).
(35) روزنبلات (1964: ص 193 ـ 195) ؛ كويليس (1992: ص 55).
(36) كارلوس الخامس، المرسوم الملكي، من بلد الوليد إلى نائب الملك في إسبانيا الجديدة، في 7 حزيران / يونيو 1550، مستنسخ مع بعض التغييرات إلى جميع أساقفة المكسيك الفرانسيسكان، والدومينيكان والاوغسطينيين، وإلى نائب الملك في بيرو، وجمهور المستمعين في ليما (روزنبلات 1964: ص 206).
(37) مقتبس في كتاب تريانا إي انتورفيزا (1987: ص 300). 'إن هذه المملكة'، مملكة غرناطة الجديدة، كان المفروض أن تكون تشيبتشا هي لغتها العامة، ولكن من الواضح أن رئيس الأساقفة وجدها غير مناسبة لبعثته. ولعلها لم تستخدم أبداً خارج مجال المنطقة الأصلية لسيطرة لغة تشيبتشا، وهي جزء صغير جداً من الكل.
(38) الأرقام مستقاة من روزنبلات (1964: ص 210 ـ 212)، وحسب رأيه، فإن الهجناء من الأعراق المختلطة كانوا يشكلون 27 بالمئة من سكان المكسيك في العام 1810.
(39) ينقل روزنبلات (1964) نص رسالة بهذا المعنى من دومينغو دي آلميدا، كتبها باسم أسقفية تشاركاس (في بيرو) وهي لا تطلب بصراحة أن يتوقف القساوسة عن تعلم لغة السكان الأصليين.
(40) آرثر ج.آ. آندرسون، ترانيم مسيحية (مدينة سولت ليك: مطبعة جامعة يوتاه، 1993)، ص 33.
(41) موتولينيا (1990[1541]: 1: 15).
(42) ليون بورتيلا (1992: ص 301).
(43) ترجمة فرانسيسكو كارتومان وجيلكا وارا سيسبيدس، تلالوكان ، المجلد التاسع (1982)، ص 119 ـ 127.
(44) الأب فرانسيسكو ميرسييه إي غوزمان، موعظة لجمعة الصوم الكبير، تموز/ يوليو 1765، مقتبسة في كتاب آلبو ولايم (1992: ص 40 ـ 41) ؛
(45) ديتريخ (1995: ص 289) ؛ توفار (1964: ص 249). ويقدم توفار أصلاً مختلفاً لكلمة المال هو (قطعة من نفاية الخبث).
(46) موتولينيا 1990[1541]: iii: 12: ص 389.
(47) لاسترا وهوركاسيتاس (1983: ص 267) ؛ كويليس (1992: ص 44).
(48) سيرون ـ بالومينو (1987: ص 343 ـ 344).
(49) المصدر السابق: 346، 67 ـ 75.
(50) رسائل ومراسيم رعوية، المكسيك، 1770، ص 47.
(51) روزنبلات (1964: ص 210).
(52) لورنزانا، رسائل ومراسيم المكسيك، 1770، مقتبسة في تريانا إي آنتورفيزا (1987: ص 504).
(53) النائب ماتيوس في العام 1910، مقتبس في كنغ (1994: ص 58).
(54) خوزيه ماريا موريلوس، عواطف الأمة، مقتبس في ترجمة إنكليزية في كنغ (1994: ص 57).
(55) كنغ (1994: ص 59).
(56) روزنبلات (1964: ص 212).
(57) غرايمز (2000: ص 100).

(58) روزنبلات (1964: ص 214).
(59) روبين (1985: ص 111 ـ 112).
(60) غرايمز (1996: ص 115).
(61) كويليس (1992: ص 46).
(62) المصدر السابق، ص 79 ـ 80.
(63) نفسه: ص 82.

11 ـ في أعقاب الإمبراطورية: لغات أوروبا في الخارج

(1) أوليفيرا ماركيوز (1972: ص 343).
(2) آنكيتيل دو بيرون (أول مترجم لكتابات زند آفيستا الفارسية القديمة المنسوبة لزرادشت)، في بحوث تاريخية وجغرافية عن الهند، المجلد الثاني، ص 12ـ13، مقتبس في لوبيز (1936: ص 60).
(3) سانتاريم (1958[1841]) والقاموس الوطني لسيَر الحياة، تحت كلمة ويندهام، توماس (الطبعة المختصرة، ص 2343).
(4) صاموئيل بورتشاس، بورتشاس وحجاجه، القسم الثاني، ص 345 (غلاسغو، 1905[1625])، مقتبس في لوبيز (1936: ص 32).
(5) ماندلسلو، رحلات مشهورة ورائعة قام بها بيرس إلى جزر الهند الشرقية، ص 33 (أمستردام، 1727)، مقتبس في لوبيز (1936: ص 38).
(6) الحج، xci (لشبونه، 1614) مقتبس في كراسات الرهبان: تاراكا فيراريا (1992: ص 432 ـ 433).
(7) هذا من لائحة شركة الهند الشرقية الهولندية المتحدة، لعام 1698، مقتبس من قبل المبجل فرانك بيني في كتاب الكنيسة في مدراس، المجلد الأول، ص 190 ـ 192(لندن، 1904)، ومقتبس من هناك من قبل لوبيز (1936: ص 47).
(8) جين برون، الدين الحقيقي للهولنديين (أمستردام، 1675)، ص 267، مقتبس في لوبيز (1936: ص 48).
(9) فرانسواز فالنتين (*Oud en nieuw Oost-Indien*) (امستردام، 1724 ـ 1726) ومقتبس في لوبيز (1936: ص 48).
(10) فاسكويز كويستا ومنديز دا لوز (1971: ص 151).
(11) غرايمز (2000)، ويكيبيديا: آنغولا، موزامبيق.
(12) باراكلاف (1978: ص 166).
(13) الاب انطونيو فيرا، موعظة عن الروح القدس (أوبورتو 1683)، مقتبسة في تاراتشا فريرا (1992: ص 480ـ484).
(14) فيرانيو كارديم، مستندات ملكية أراضي البرازيل وعبيدها، ص 121، مقتبسة في جونسون ونيزا دا سيلفا (1992: ص 481). وتقع ساو فيسنت على ساحل البرازيل الجنوبي، قرب ساوباولو.
(15) غرايمز (2000). ويقدر عدد الناطقين باللغة العامة القديمة في توبينامبا (المعروفة الآن باسم نهينغاتو) بخمسة آلاف فقط.
(16) إسرائيل (1995: ص 321).
(17) (*Nauwkeurige beschryving van de Guinese Goud-, Tand - en Slave-Kust*) (أمستردام 1704)، مقتبس في بوكسر (1969: ص 106)، 18 غرايمز (2000).
(18) غرايمز (2000).
(19) إسرائيل (1995: ص 941).
(20) فرانسواز فالنتين (*Oud en nieuw Oost-Indien*) 1:iii، ص 35 ـ 44 (أمستردام 1724 ـ 1726)، مقتبس في هوفمان (1979: ص 66).
(21) هوفمان (1979: ص 66 ـ 68).

(22) المصدر السابق، ص 70.
(23) خطاب ألقي في اجتماع جمعية الفنون والعلوم في باتافيا في اليوم الرابع والعشرين من نيسان/ إبريل 1813: Verhandelingen van het [Koninkljk] Bataviaash Genootschap van kunsten en Wetenschappen، 7، باتافيا 1814، ص 13؛ مقتبس في هوفمان (1979: ص 73).
(24) هوفمان (1979: ص 74 ـ 75).
(25) Bijblad op het Staatsblad van Nederlandch-Indië, 1904، رقم 5821، ص 78ـ79؛ تشارلز آدريان فان أفويجسين، ليدن، 1910. والسياق موصوف في هوفمان (1979: ص 87 ـ 92). وتم إصلاحه في العام 1947 وفي العام 1972، بإزالة معظم الفوارق بالتهجئة المستعملة في ماليزيا.
(26) جين، في ترجمته لبوثيوس. وكان في الحقيقة مواطناً في ميون على نهر اللوار، قرب أورليان.
(27) أوردونانس دي فيلرز ـ كوتريتس، الفن، ص 111.
(28) بيكوش ومارشيلو ـ نيزيا (1989: ص 29).
(29) تشوسر: قصص كانتربري: المقدمة، II 124 ـ 126.
(30) مقتبس في بيكوش ومارشيلو ـ نيزيا (1989: ص 143).
(31) ديكارت، مقالة حول الطريقة، القسم الثالث.
(32) المصدر السابق: القسم الرابع.
(33) بيكوش ومارشيلو ـ نيزيا (1989: ص 154).
(34) المصدر السابق، ص 150.
(35) لكليرك (2001: فرنسا الجديدة (*1534ـ1760*)، ص 2، 4) يعطي تقديراً لعدد الفرنسيين بأنهم كانوا 2500 في العام 1663، في مقابل ثمانين ألف إنكليزي وعشرة آلاف هولندي، حتى العام 1627. أما في العام 1745 فكانت أرقامه 69,000 فرنسي (55,000 في فرنسا الجديدة و10,000 في آكادي و4,000 في لويزيانا) مقابل مليون مستعمر إنكليزي، مع عبيدهم البالغ عددهم ثلاثمئة ألف.
(36) دوريون وموريسونو (1992).
(37) كان هو لو سيير دي باكفيل ودي لا بوثري. (لكليرك 2001: فرنسا الجديدة (*1534ـ1760*)، ص 4، 5).
(38) 'المواطنون الكنديون يتكلمون الفرنسية بشكل جيد جداً' (لكليرك 2001: فرنسا الجديدة (*1534ـ1760*)، ص 9).
(39) باراكلاف (1978: ص 208).
(40) بيكوش ومارشيلو ـ نيزيا (1989: ص 64).
(41) غرايمز (2000)، ورقم بونديشيري مستمد من كتاب لكليرك (2001، الدول التي تستعمل الفرنسية كلغة رسمية أو لغة رسمية مشاركة) <http://www.tlfq.ulaval.ca/ax/langues/2vitalinterfrancaisTABLO.htm>.
(42) لسوء حظهم، فإن الأكثرية المسلمة كانت تنمو أيضاً بمعدل مشابه، من مليونين إلى 8.7 ملايين في الفترة نفسها (بيكوش ومارشيلو ـ نيزيا 1989: ص 86، 104).
(43) ف.م. دوستويفسكي، الأعمال المجموعة، المجلد 21، في مذكرة الكاتب عن العام 1880ـ81، iii، ص 517 ـ 518. والأبجدية السلافية القديمة يتم تحديثها. وقد كتبت هذه الكلمات كرد فعل على انتصار محتفىً به للروس على التركمان في غوك تيب ('بلوهيل')، وعلق عليه أيضاً اللورد كرزون بقوله: 'إن أثر مثل هذه المذبحة المرعبة في جيوك تيب سوف يبقى لعدة أجيال' (روسيا في آسيا الوسطى في 1889 والمسالة الأنغلو ـ روسية، لندن: مؤسسة فرانك كاس، 1967، ص 386).
(44) هوسكنغ (1997: ص 5 ـ 6).
(45) المصدر السابق، ص 379.
(46) نفسه، ص 369.
(47) ليفين (2000: ص 334).

(48) هوسكنغ (1997: ص 18): الجنرال روستيسلاف فادييف، تبليسي، 1860، ص 9.
(49) هذه الأرقام محسوبة من تلك الواردة في غرايمز (2000). ومن الواضح أن الروسية معروفة بشكل واسع ومستخدمة كلغة ثانية في هذه البلدان (ومثلاً فإن غرايمز يقتبس 30 بالمئة من أرمينيا).
(50) روي (2000: ص 30 ـ 31).
(51) المصدر السابق: ص 32.
(52) هذا الرقم محسوب من الأرقام الواردة في غرايمز (2000).
(53) وهذا الرقم محسوب من الأرقام الواردة في غرايمز أيضاً.
(54) رئيس القساوسة آفاكوم، مقتبس في هوسكنغ (1997: ص 69).
(55) ليفين (2000: ص 255، 435، 278، و437) ؛ وهو يعتمد بقوة على أطروحة الدكتوراه لفودرون بيرسون من جامعة لندن في العام 1999، وهي بعنوان: الجيش الروسي والحروب الخارجية: 1859ـ1871.
(56) هوسكنغ (1997: ص 187).
(57) المصدر السابق: ص 36، مقتبساً من إيريك آمبرغر، ص 502 ـ 519، وكذلك والتر لاكير، روسيا والمانيا (1965)، ص 40 ـ 41.
(58) هوسكنغ (1997: ص 309 ـ 310).
(59) المصدر السابق، ص 402؛ وكومري (1981: ص 28).
(60) هوسكنغ (1997: ص 311)، مقتبساً من جفري بروكس، عندما تعلمت روسيا القراءة: معرفة القراءة والكتابة والثقافة الشعبية، 1985.
(61) فيشر (1978: ص 100 ـ 104).
(62) كومري (1981: ص 28).
(63) المصدر السابق نفسه، ص 1.
(64) م.آ. إيسابييف، اللغات القومية في الاتحاد السوفييتي: مشاكل وحلول، 1977، ص 300 ـ 301، مقتبس في كومري (1981: ص 36 ـ 37).
(65) روي (2000: ص 169).
(66) باراكلاف (1978: ص 140).
(67) تسورومي (1984: ص 277).
(68) تشين (1984: ص 242)، مقتبساً من كتاب كين إيشي كوندو، عنوانه: "كوريا وتايوان أثناء حرب المحيط الهادي"، طوكيو، 1961.
(69) تسورومي (1984: ص 303)، إعادة صياغة نص من آوياجي تسوناتا رو كيجو (سيؤول)، كوريا الجديدة، 1925.
(70) انظر مياواكي (2002) ؛ وهو يلاحظ زوجين في ميكرونيزيا، لا يزالان يستعملان اليابانية كوسيلة اتصال مناسبة لا يفهمها أطفالهما.

12 ـ عالم صغير أم مرآة مشوشة؟ سيرة اللغة الإنكليزية

(1) ت.س. إليوت، أربع رباعيات (1942)، 'ليتل غيدنغ'، القسم الثاني.
(2) براندت (1969: ص374).
(3) سميث (2000: ص 164).
(4) كراولي (2000: ص 15). والنص الأصلي بالفرنسية النورمانية.
(5) قانون الاتحاد 1536، القسم 17، كما هو مقتبس في كتاب إيفانز (1992: ص 298).
(6) شرطة سواحل هنري الثامن لمدينة غالواي 1536، كما في كتاب إيفانز (1992: ص 296).
(7) كراولي (2000: ص 19).
(8) إعلان هنري الثالث، 18 تشرين الأول/ اكتوبر 1258؛ بيتانت رولز، 42 هنري الثالث م: 1: ن: 1، مكتب

السجل العام، لندن؛ كما هو مستنسخ في موسيه (1962: ص 234).

(9) تريفيزا، إشارة إلى Polychronicon Ranulphi Higden، المجلد الأول، ص 59. والنص معطى بالشكل الذي طبعه فيه وليام كاكستون في لندن في العام 1482.

(10) Cursor Mundi، رفع السيدة العذراء إلى السماء II، ص 51ـ54.

(11) تشوسر: ترويلوس وكريسيدا V، II، الأبيات 1793 ـ 1799.

(12) من وليام كاكستون، مقدمة لإينيدوس، 1490.

(13) كان الأشهر كتاب جوهان كلاجوس: قواعد اللغة الألمانية ، لايبزغ، 1578. وهاتان الفقرتان الأخيرتان تعتمدان كثيراً على فيبفر ومارتن (1958: ص 481 ـ 491).

(14) إنها مدرجة في نيكولسون (2003: ص 247 ـ 250)، مع كثير من الأعمال القارية المعاصرة لها، بدءاً بأول إنجيل مطبوع بالتشيكية في العام 1488.

(15) عند حلول عشرينيات القرن السابع عشر، كان كل الرجال النبلاء قادرين على القراءة، وبحلول أربعينيات ذلك القرن، كان 45 بالمئة من الخدم وصغار الملاك، وخمسة بالمئة من العمال قادرين على القراءة أيضاً. وكانت معرفة القراءة والكتابة أعلى في الرجال مما هي في النساء، وأعلى في لندن مما هي عليه في المقاطعات (نيكولسن 2003: ص 122).

(16) سير جون سيلي، توسع إنكلترا، المحاضرة الأولى.

(17) كينز (1930: ص 156ـ157).

(18) فيرغسون (2003: ص 11).

(19) المصدر السابق، ص 13.

(20) وليامز (1643؛ الفصول 1و6و8). والعنوان الكامل هو: 'مفتاح إلى لغة أمريكا، أو مساعدة للغة الأهالي الأصليين في تلك الجزء من أمريكا الذي يدعى نيو إنغلاند، مع ملاحظات مختصرة عن عاداتهم، وطرائقهم، وعباداتهم ... إلخ في السلم والحرب، وفي الحياة والموت. وتضاف إلى ذلك كله ملاحظات روحية، عامة وخاصة، للمؤلف وللاستخدام الرئيسي والخاص، لجميع الإنكليز القاطنين في تلك الأنحاء، ومع ذلك فهي ممتعة ومفيدة لرأي الناس جميعاً". وقد طرد المؤلف من ماساشوسيتس بسبب آرائه المتحررة، ولكنه تابع عمله فقام بتأسيس بروفيدانس، في رود آيلاند.

(21) وليامز (1643؛ الفصلان الثالث والسابع عشر).

(22) أمثلة مستقاة من سيلفر وميلر (1997، ص 319). ولغة بنوبسكوت المشار إليها هناك، هي تنويع من لغة أبيناكي.

(23) إليوت (1666). ورغم أنه كتاب قواعد رسمي، فإنه لا يفوّت الفرصة النادرة لإعطاء تعليقات تحسينية. ففي الصفحة السابعة مثلاً نجده يقول:" ومن هنا يأتي القول الحكيم بأن المسيحي يجب أن يتزين بعدد من الصفات يساوي عدد الظروف: ويجب عليه كذلك ان يفعل الخير وان يكون خيّراً. وعندما تتزين أعمال الرجل الفاضلة بالظروف، فإن كل شخص سوف يستنتج بأن الرجل مزدان بصفات فاضلة".

(24) إليوت (1663): وهذه الترجمة تمتاز بأنها أول ترجمة للإنجيل في الأمريكتين، رغم أن الإسبان، بنهجهم الكاثوليكي في المسيحية، كانوا يطبعون وينشرون الصلوات والاعترافات باللغات الأمريكية منذ العام 1539. انظر الفصل العاشر: 'الشقوق الأولى في حاجز اللغة: المترجمون، وثنائيو اللغة، والنحاة'، ص 375.

(25) كوتون ماثر (1663 ـ 1728)، مقتبس (بشكل غير مباشر) في كتاب بيلي (1992: ص 73).

(26) باراكلاف (1978: ص 221).

(27) تم رسم الحدود مع المكسيك بشكل نهائي بعد ذلك بوقت قصير، بشراء غادسدن في العام 1853، مما أضاف شريحة جنوبية لولايتي اريزونا ونيومكسيكو الحديثتين، فأتاح تمديد طريق جديدة لسكة حديد المحيط الهادي الجنوبية.

(28) مقتبس في ميلنر وشركاه (1994: ص 168). وقد ترسخ كسب الغرب على الفور باكتشاف الذهب في سوترز ميل في كاليفورنيا الشمالية في كانون الثاني من العام 1848 وحدوث أشهر اندفاعٍ في العالم

للحصول على الذهب. فأدى ازدياد السكان المفاجئ إلى حصول كاليفورنيا على صفة الولاية في غضون عامين فقط، فكان ذلك رقماً قياسياً جديداً.

(29) مقتبس في المصدر السابق، ص 146.

(30) مقتبس في كتاب شارون غانجيتانو: لغة الهنود [الحمر]. <http://www.sonoma.edu/depts/amcs/upstream/Indian.html>

(31) مكتب إحصاء النفوس الأمريكي. مقتبس في رايت (2000: ص 266).

(32) مكتب إحصاء النفوس الأمريكي 1989، 1994، مقتبس في كروفورد (1998).

(33) سليت (2001: ص 391).

(34) مذكرة رحلة م. أوستن، 1796ـ1797، مجلة أميركان هستوريكال ريفيو، المجلد الخامس، ص 518 ـ 542.

(35) ولينغ (2001).

(36) مكتب إحصاء النفوس الامريكي، مقتبس في رايت (2000، ص 490) ؛ وسكان الولاية بالمثل، ص 169ـ201.

(37) غلام حسين خان (1902 [1789]: iii، ص 191ـ192).

(38) توماس بابنغتون ماكولي، محضر اجتماع، 2 شباط / فبراير 1835حول تعليم الهنود، (معاد طبعه في يونغ 1957: ص 721 ـ 724). وهذا مثال مليء بالخبث على نحو خاص بالنيابة عن الإنكليز في مجال التعصب الشوفيني الثقافي. ولقد لعب دوراً كبيراً في إيقاف دعم التعليم بالسنسكريتية في الهند. غير أن ماكولي لم يكن يفكر في ثقافة اللغة الإنكليزية نفسها بشكل حصري، بل في اعتقاده بأن الإنكليزية يمكنها أن تقدم وصولاً إلى كل جانب من الثقافة العالمية (عن طريق النصوص المترجمة إلى الإنكليزية عند الضرورة). ولكن تأكيده بسهولة أن الهنود يمكنهم أن يهملوا تقاليدهم نفسها هو نصب تذكاري لنوع الثقة المفرطة بالنفس التي يولدها نجاح الاستعمار.

(39) ج.ج. كامبوس، تاريخ البرتغاليين في البنغال (1919)، ص 173، مستشهد به في سينها (1978: ص 3).

(40) هولدن فوربر، رئاسة بومباي في منتصف القرن الثامن عشر، (1965)، ص 2، مستشهد به في سينها (1978: ص 6).

(41) بولير (2001). وهذا العمل عنوانه "الإعجاز الارسلاني"، إشارة إلى العنوان الفارسي الذي وضعه له المؤلف، فأعطاه الإمبراطور المغولي شاه علم نفسه لقب 'أسد المعركة'، (ص 9). وفي المقدمة (ص 70) يشير المترجمون المحدثون إلى نهج بولير إزاء نزاع بين زوجتيه الهنديتين، بتهديد إحدى حماتَيْه، وتحريضها للشعور بالعار بشأن ابنتها. وقد تزوج بولير زوجة ثالثة بعد عودته إلى فرنسا في العام 1788.

(42) س.ن. مُخَرْجِي، تاريخ التعليم في الهند (1961)، ص 30، مستشهد به في سينها (1978: ص 27).

(43) إنغرام (1969: ص 235 ـ 236).

(44) سينها (1978: ص 28).

(45) 'كل الوزراء ملزمون بتعلم اللغة البرتغالية في غضون سنة من وصولهم وأن يعكفوا على تعلم اللغة الاصلية للبلد الذي سيقيمون فيه، لتتحسن قدرتهم على تقديم التعليم للأهالي الذين سيكونون موظفي الشركة أو عبيدها، أو لوكلائهم، في الديانة البروتستانتية' (ج.و. كاي، إدارة شركة الهند الشرقية (1853)، ص 626. مستشهد به في سينها (1978: ص 10).

(46) سينها (1978: ص 13) ؛ كاتشرو (1983: ص 21).

(47) و.هـ. كاري، الأيام الجميلة الماضية لشركة الشريف جون (1906، ص 397)، مستشهد به في سينها (1978: ص 10).

(48) المكتبة البريطانية، المخطوطات الإضافية، المخطوطة رقم 13828، ص r308-v306. ويتابع ماكينون فيقترح إقامة معهد عالٍ لتدريس الإنكليزية واليونانية الكلاسيكية في لوكنو، على أساس وجود مكتبة للكتب الكلاسيكية.

(49) مناقشة البرلمان (1813)، 26: ص 562 ـ 563.

(50) مختارات من السجلات التعليمية، المجلد الأول (هـ. شارب، 1920)، ص 22، والمجلد الثاني (ج.ا.ريتشلي)، ص 152؛ مستشهد به في سينها (1978: ص 32).

(51) رسالة السير هايد إيست إلى ج. هارنغتون، في 18 أيار/ مايو 1816، مستشهد بها في سينها (1978: ص 36).

(52) رسالة رام موهان روي إلى اللورد أمهيرست في 11 كانون الأول/ ديسمبر 1823، مستشهد بها في كاتشرو (1983: ص 60).

(53) ساماخار داربان، 23 نيسان/ إبريل 1834، مستشهد بها في سينها (1978: ص 41).

(54) دوف (1837: ص 3). وقد ترك عضو اللجنة الممثل لمصلحة القانون، توماس بابنغتون ماكولي، انطباعاً خاصاً. والاستشهادات المدينة له من محضر الجلسة حول التعليم الهندي الذي قبلته اللجنة تظهر في ترويسة هذا القسم، وفي حاشية من حواشي الفصل الثاني.

(55) دوف (1837؛ الملحق، ص 2).

(56) سبير (1965: ص 127).

(57) كريستال (2003: ص 46). وفي ملخصه عن السكان الناطقين بالإنكليزية في العالم، يؤكد كريستال بقوة أن 19 بالمئة منهم من الهنود (أي 200 مليون) ولكن 12بالمئة من الباكستانيين (أي 17مليوناً)، و10بالمئة من السريلانكيين (أي 1.9مليون) وفقط 3 بالمئة من بنغلادش (أي 3.5 ملايين).

(58) كلمات الكساندر دوف في كتيب آخر في العام 1837 بعنوان: دفاع عن بعثات كنيسة اسكتلندا إلى الهند، ص 27.

(59) فلانري (1994: ص 326) ؛ كريستال (2003: ص 41) ؛ ديكسون (1980:ص 1).

(60) فلانري (1994: ص 338) ؛ كريستال (2003: ص 41).

(61) غرايمز (2000).

(62) كريستال (2003: ص 57).

(63) المصدر السابق، ص 62 ـ 65 يقدم تقديرات مدهشة لبعض هذه البلدان، مقترحاً أن 45 بالمئة من النيجيريين، و84 بالمئة من الليبيريين يتكلمون الإنكليزية. وهذه ربما كانت تعكس عدد الذين تلقوا شيئاً من التعليم باللغة الإنكليزية، لأن مستويات معرفة القراءة والكتابة عالية في هذه البلدان. ولكن سبب كريستال الصريح هو توفر اللهجات الهجينة والمختلطة القائمة على أساس الإنكليزية.

(64) ساره ناقوا: "إكليل اللؤلؤ المنحرف" (1979)، ص 19، مستشهد به في وارنر (1999: ص 71).

(65) كيندي (1988: ص 151) ؛ ومقال ب. بيروتش (1982) عنوانه 'مستويات التصنيع الدولية من 1750 إلى 1980'، في مجلة التاريخ الاقتصادي الأوروبي، العدد 11؛ وكتاب ف. كروزيه (1982) هو الاقتصاد الفكتوري (لندن).

(66) و.س.ج. جيفونز، مسألة الفحم (لندن: دار مكملان، 1865).

(67) كريستال (2003: ص 88). كانت الفرنسية هي الثانية من حيث الاستعمال الرسمي، فكانت نسبة مستعمليها 49 بالمئة. وفيما عدا ذلك، فإن العربية والإسبانية والألمانية فقط حققت نسبة تزيد على عشرة بالمئة.

(68) المصدر السابق: ص 65.

(69) الهند اليوم، عدد 18 آب/ أغسطس 1997: 'على عكس أسطورة إحصائية النفوس الزاعمة بأن الإنكليزية هي لغة أقلية مجهرية، فإن الاستطلاع يشير إلى أن ما يقرب من واحد في كل ثلاثة هنود يدعي أنه يفهم الإنكليزية، ولو أن أقل من 20 بالمئة واثقون بأنهم يستطيعون التكلم بها'. مستشهد به في غيدول (1999: ص 64).

(70) إن 'دنيويّة' اللغة الإنكليزية هذه هي موضوع كبير في عمل بنيكوك (1994)، وخاصة كما تظهر هذه الصفة في ماليزيا وسنغافورة. ومعانيها الإضافية سياسية كما هي اقتصادية. ويطور فيليبسون

وجهة نظر في تدريس اللغة الإنكليزية باعتبارها شيئاً خبيثاً، ويصفها بأنها استعمار لغوي.

(71) غيلارت (1998: ص 22 ـ 23).

(72) جويس (1977[1910]: ص 33، 85) ؛ جينسلر (1993: ص 235 ـ 242)؛ وانظر الفصل السابع ’:الرون: البروز المندفع للكلت‘، ص 409.

الباب الرابع: اللغات اليوم وغداً

(1) في أعقاب التاريخ الذي أعطاه ماريو سيتروني في هورنبلوَرْ وسبوفورث (1999)، فإن مارشيال يشير بالطبع ليس إلى جزء من كتاب حديث، بل يشير إلى الحبال السُّرّية التي التفت حولها المخطوطة. وكلمة لايبراريوس *Librarius* تعني الناسخ أو بائع الكتب وليس الناشر.

13 ـ اللغات العشرون الأولى في الوقت الراهن

(2) إن المصدر الرئيسي لهذه الأرقام هو الطبعة الرابعة عشرة من إثنولوغ (غرايمز 2000)، التي هي نفسها تجميع لأرقام من مصادر متنوعة. وإن أحجام السكان الناطقين الأصليين والثانويين باللغات الكبرى مستقاة من كتاب فونك وواغنول: التقويم العالمي.

(3) يمكن العثور على شيء من البحث في كيفية اختلاف الأرقام الإنكليزية الصحيحة بشكل جذري عن هذه الأرقام في كريستال (2003)، وغرادول (1997) وغرادول (1999).

(4) ويلكينسون (2000، ص 27) ؛ نورمان (1988: ص 48 ـ 49، 187).

(5) ميلر (1967: ص 144).

(6) باف وكييل (2002: ص 194).

(7) ماسيكا (1991: ص 27 ـ 28).

(8) إينتويسيل وموريسون (1949: ص 288).

(9) دالبي (1998: ص 668).

(10) بورسيز (1967: 287).

(11) المصدر السابق، ص 397.

(12) دالبي (1998: ص 328) ؛ وبالنسبة للغة الكورية، فإن من المستحيل عملياً تتبع آثار اي تغير في اللهجة قبل نظام الكتابة اللفظي في القرن الخامس عشر.

(13) إن مصدر إحصائيات السكان هو صندوق الأمم المتحدة للسكان، حالة سكان العالم في العام 2000، وإدارة المعلومات الاجتماعية وتحليل السياسة التابعة للأمم لمتحدة، قسم السكان: سكان العالم في العام 1996، كما أورد ذلك رايت (2000: ص 468 ـ 472).

14 ـ التطلع إلى الأمام

(1) باور (1996: ص 27).

(2) الأمر البابوي للبابا الكسندر السادس Inter Caetera (3 أيار/ مايو 1493): ’... نحن إذن نزكي بقوة للرب مولانا هدفك المقدس والجدير بالمدح، ونأمل أن يصل إلى نهايته المستحقة، وأن يدخل اسم مخلصنا إلى تلك المناطق. ونحثكم بكل قوة بتلقي العماد الذي نحن بموجبه مرغمون على إطاعة الأوامر الرسولية، وبمحتويات رحمة مخلصنا السيد المسيح أن تتابعوا تنفيذ مهمتكم بروح مشبعة بالحماس للعقيدة الصحيحة لإقناع الشعب القاطن في تلك الجزر باعتناق العقيدة المسيحية، دون أن تجبنوا أمام الجهود والأخطار، ومع الأمل الصلب والثقة بأن الله العلي القدير سيرافق مجهوداتكم...‘.

(3) هارولد مكميلان، خطاب أمام برلمان جنوب إفريقيا، في 3 شباط/ فبراير 1960.

(4) مؤلفة من أجل فلم روبرت آلتمان "ناشفيل" المنتج في العام 1975 ومغنّاة في هذا الفلم، (والموسيقى من

تاليف ريتش وباسكين).

(5) فوكوياما (1992).

(6) كريستال (2003: ص 191).

(7) كما كان سلمان رشدي، وهو من كبار عارضي الإنكليزية بنفسه، يعتقد في العام 1981: 'إن الجدل حول مناسبة الإنكليزية في هند ما بعد بريطانيا لا يزال محتدماً منذ العام 1947؛ ولكنني أجد اليوم أن هذا الجدل لم يعد له معنى إلاّ عند الجيل الاكبر سناً. فاطفال الهند المستقلة لا يبدو انهم يعتقدون أن الإنكليزية لا خلاص لها من التلوث باصلها الاستعماري. فهم يستعملونها كلغة هندية، كواحدة من الأدوات الجاهزة في أيديهم'. 'لا وجود أدب الكومونويلث' في كتاب: الأوطان الخيالية (لندن: دار غرانتا، 1991).

(8) نموذج الإنغكو المعروض في غرادول (1997: ص 26).

(9) إن الناطقين بالإنكليزية كلغة أولى في الولايات المتحدة كان عددهم يقدر بـ210 ملايين في العام 1984 (غرايمز 2000). وفيما بين العامين 1980و1990 ازداد عدد سكان الولايات المتحدة من 226,542,203 إلى 248,709,873 (مكتب إحصاء النفوس الأمريكي، 1980، وقد تمت مراجعة الرقم لأول مرة في العام 1987؛ مستشهد به في رايت 2000، ص 264). والاقتباس مأخوذ من ملخص لائحة بيل إيمرسون المعنونة 'تمكين اللغة الإنكليزية'، التي قدمت إلى مجلس النواب الامريكي في 4 كانون الثاني/ يناير 1995، كما هو مستشهد به من قبل كريستال (2003: ص 130). ولم يتم اعتماد شرط كهذا كقانون، لغاية شهر أيلول/ سبتمبر من العام 2004.

(10) باور (1996: ص 33 ـ 40).

(11) اندرسون (1991: ص 133 ـ 134).

(12) كراوس (2001: ص 19).

(13) كريستال (2003: ص 191).